

چون میلتون

الفردوس المفقود

النص الكامل للملحمة

www.library4arab.com/vb

ترجمه و قدم له و كتب حواشيه

محمد عناني



في اللغة الإنجليزية ، ويقص فيها
جون ميلتون كيف عصي إبليس
بعده عند كبير من الشياطين فطردوا
لنق، وكيف خلق الله العالم في ستة
م استوى على العرش ، وكيف خلق
حواء ، وكيف عصي آدم وحواء
بما فطردا من الفردوس وهبطا إلى
ن .

والشاعر هو جون ميلتون - أكبر
للالاحم الإنجليزي - وهو يحيى في
القصة تقليد الملاحم الكلاسيكية ،
مكتوبة بالشعر المرسل - أو بالنظم
لغنى - في ثلث عشر كتاباً أو سفرأ -
الملك التتاليذ ، ويبدع فيها
حارات والتشبيات المبسطة أي
ة ، وتكون الخطابة والحروب والرد
أ .

www.library4arab.com/vb

والترجم هو الدكتور محمد هناني،
الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة ،
كاتب مسرحي ونقاد ، ومترجم
م القدم ، ولد ترجم - ما بين ترجمة
ب السنة الأولى من الملحمة والكتب
الآخرة - سبع مسرحيات لشيكسبير
أ ونشراً ، وهو حاصل على جائزة
ة التخليمة في الآداب عام ٢٠٠٢ ،
قبلها على جائزة الدولة للشوق في
ب ، وجائزة الدولة التشجيعية في
مة ، وعلى وسام العلوم والفنون من
ة الأولى . وقد قدم للملحة ؟

ة وقبلها

جون ميلتون

الفردوس المفقود

الملحمة الكاملة

www.library4arab.com/vb

ترجمها وقدم لها وكتب حواشيها

د. محمد عناني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٢

الإخراج الفنى والغلاف

أميمة على أحمد

الفهرس

صفحة

٥	تصدير
١٥	مقدمة
٧١	الكتاب الأول
١١٩	الكتاب الثاني
١٨١	الكتاب الثالث
٢٢٥	الكتاب الرابع
٢٨٥	الكتاب الخامس
٣٣٧	الكتاب السادس
٣٨٩	الكتاب السابع
٤٢٧	الكتاب الثامن
٤٦٥	الكتاب التاسع
٥٣٣	الكتاب العاشر
٥٩٧	الكتاب الحادي عشر
٦٤٩	الكتاب الثاني عشر
٦٨٧	الحواشي
٨٦٣	المراجع

تصليد

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لملحمة الفردوس المفقود التى كتبها شاعر الإنجليزية الكبير جون ميلتون فى القرن السابع عشر ، وقد صدرت هذه الترجمة فى أجزاء متفرقة على امتداد السنوات العشرين الماضية ، وتلقاها النقاد والأدباء بالاستحسان ، ولكن الأجزاء الأولى نفذت ، وخصوصاً الجزء الأول الذى يضم الكتابين الأول والثانى (١٩٨٢) ، والجزء الثانى الذى يضم الكتب التالية - الثالث والرابع والخامس والسادس (١٩٨٤) وعندما أعيدت طباعة الجزء الأول وأعيد نشره فى إطار مكتبة الأسرة (عام ٢٠٠١) كان مصيره النفاد أيضاً ، وقد كان ذلك أيضاً مصير الجزء الثالث (٢٠٠١) الذى يضم الكتب التالية - السابع والثامن والتاسع - بل والرابع (٢٠٠٢) الذى يضم الكتب الأخيرة - العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، وقد يجد القارئ مشقة فى قراءة جزء لاحق دون أن تتوافر لديه الأجزاء الأولى ، فرأيت من المستحب إخراج الترجمة العربية كاملة ، فى طبعة واحدة ، على ضخامتها ، حتى يجد فيها القارئ ما فاته ، وحتى يقتنيها من يطلع لأول مرة على الملحمة ويبلغ طول الملحمة الحالى ١٠٥٦٥ (عشرة آلاف وخمسمائة وستين) سطراً وعدد كتبها (أو أسفارها) ١٢ كتاباً ، وذلك بعد أن أضاف ميلتون ١٥ سطراً إلى الطبعة الأولى الصادرة فى عام ١٦٦٧ ، وكانت تتكون من عشرة كتب ويبلغ عدد سطورها ١٠٥٥٤ ، إذ إنه زاد فى الطبعة الثانية (١٦٧٤) ثلاثة أسطر على الكتاب الخامس وقسم الكتاب السابع إلى كتابين هما السابع والثامن مضيفاً ثلاثة أسطر فى بداية الثامن ، وقسم الكتاب العاشر إلى كتابين هما

الحادى عشر (مضيفاً أربعة أسطر فيه ، ثلاثة من ٤٨٥ - ٤٨٧ و سطر واحد ٥٥١ - ٥٥٢) ، والثانى عشر (مضيفاً خمسة أبيات فى مطلعته) . ولا توجد أدلة تاريخية توضح سبب التحول من الكتب العشرة إلى الكتب الإثنى عشر ، ولكن الناقد ويلار (Whaler) [انظر المراجع] يقول إن ميلتون أراد أن يؤكد رمزية العدد فى القصيدة دون التخلّى عن الإتساق مع عدد الكتب فى الملحمة التقليدية (التي كتبها فيرجيل مثلاً) وهو ١٢ كتاباً، بمعنى أن يظل العدد الأصلي عشرًا ثم إلى اثنى عشر، والمعروف أن فيشاغورث كان يرى أن الرقم عشرة يمثل الرباعية المقدسة (the divine tetractys) أى حاصل جمع واحد واثنين وثلاثة وأربعة (الأرقام الأربعة) التي تتكون منها جميع الأرقام ومن ثم 'النبع الذي تخلق منه جميع الأشياء' ، وأما باركر (Barker انظر المراجع) فى الكتاب الذى حرره عام ١٩٦٥ فيقول إن التقسيم دلالة على التحول من البناء الدرامى الذى يعتمد على اعتبار القصيدة تتكون من خمسة فصول يتكون كل منها من كتابين إلى البناء الملحمى . وأياً كان الأمر، فإن طول الكتاب العاشر فى الطبعة الأولى (وهو الذى أصبح الكتابين الحادى عشر والثانى عشر) يدل على أن ميلتون كان يعتزم هذا التقسيم منذ البداية، ويؤكد ذلك قوله فى مطلع الكتاب السابع "أنشودتى مازال نصفها بلانغم" (السطر ٢١) بمعنى أن الكتب الستة السابقة تمثل النصف فقط ، ولا بد أن تتلوها ستة كتب أخرى .

وأما عن البناء الدرامى الذى عدلَ عنه ميلتون فالمعروف أو "من المرجح" كما يقول فاوُلر فى الطبعة التى اعتمدنا عليها لنص الفردوس المفقود:

Fowler, Alastair. (ed.) Paradise Lost, in *The Poems of John Milton* ed. John Carey and Alastair Fowler, Longman, London, 1968.

إن ميلتون لم يكن يرى فى الفردوس المفقود عندما بدأ التفكير فيها ملحمة بل تراخيديا (مأساة) ، وفاوُلر يورد هذا الرأى الذى رآه إدوارد فيليبسن

فى كتابه سيرة ميلتون (١٦٩٤) مؤكداً إياه بما ذكرته هيلين داربيشر فى كتابها (انظر المراجع) وهو يشير أيضاً إلى وجود أربعة مخطوطات فى مكتبة كلية ترينيتى فى كيمبريدج ، ويقول إنه من المحتمل أنها كتبت عام ١٦٤٠ وتحمل أوجه شبه كثيرة بالملحمة ، رغم أنها مخططات تمهيدية لمأساة عن الفردوس المفقود . وسوف أورد فيما يلى ترجمة لما أورده فاو لى منها :

المخطوط الأول	المخطوط الثانى
الأشخاص	الأشخاص
ميكائيل	موسى
الحب السماوى	العدل
جوقة الملائكة	الرحمة
الشیطان	الحكمة
آدم	الحب السماوى
حواء	الزهرة - كوكب المساء
الضمير	جوقة الملائكة
الموت	الشیطان
العمل	آدم
المرض	حواء
السخط	الضمير
الجهل	العمل
وغير ذلك	المرض
الإيمان	السخط
الأمل	الجهل
الإحسان	الخوف
	الموت
	الإيمان
	الأمل
	الإحسان

وأما المخطوط الثالث فعنوانه الفردوس المفقود وفيما يلي ترجمة ما أورده فاو لير :

الأشخاص

يروى موسى فى المقدمة (الاستهلال أو البرولوج) كيف تأتى له الاحتفاظ بجسده الحق ، وأنه لم يفسد ، والسبب أنه كلم الله فوق الجبل ، قائلاً إنه أصبح مثل أخنوخ وإيليا ، وبسبب نقاء المكان وطهره أيضاً حيث تعمل رياح وأنداء وسحب نقية طاهرة على صونه من الفساد ، ومن ثم يسرع إلى نظر الله ، قائلاً إنهم [أى النظارة] لا يستطيعون رؤية آدم وهو بعد فى حال البراءة بسبب الخطيئة المركبة فيهم .

{	العدل
	الرحمة
	الحكمة

يناقشون ما ينبغى أن يحدث للإنسان إذا سقط

جوقة الملائكة تنشد ترانيم الخلق

الفصل الثانى

الحب السماوى

كوكب المساء

جوقة الملائكة تغنى أغنية الزواج وتصف الفردوس

الفصل الثالث

الشیطان يدبر لتدمير آدم

الجوقة تعبر عن خوفها على آدم وتحكى عن تمرد الشيطان وسقوطه

الفصل الرابع

آدم
حواء
بعد السقوط

الضمير يقدمهما إلى الله حتى يفحص أمرهما .
الجوقة تندب مآلهما وما فقده آدم من الخير .

الفصل الخامس

آدم وحواء بعد طردهما من الفردوس التي يمثلها ملكٌ مع :

العمل
الحزن
الكراهية
الحسد
الحرب
المجاعة
الطاعون
المرض
السخط
الجهل
الخوف
الموت
شخصيات صامته يسميها آدم بأسمائها
هي والشتاء والحرارة والعواصف ... إلخ .
وهو يدخل إلى العالم

الإيمان
الأمل
الإحسان
تُغزّيه وتُعلّمه

الجوقة تختتم المسرحية ختاماً موجزاً

إخراج آدم من الفردوس
(Adam Unparadized)

يُقبل المَلَكُ جبريل ، هابطاً أو داخلاً المسرح ، فيصف الفردوس ، قائلاً إنه منذ خَلَقَ هذه الأرض الكروية وهو يعتادها اعتياده للسماء . ثم تحدث الجوقة لتبيان سبب مجيئه ألا وهو حراسة الفردوس بعد تمرد الشيطان على أمر الله ، وللإعراب عن رغبته في مشاهدة الإنسان ، ذلك المخلوق الجديد الممتاز ، ومعرفة المزيد عنه . والمَلَكُ جبريل اسمه يعنى الأمير ذا القوة ، ويتمتع بحرية القيام بما يراه من مهام فى الفردوس ، وهو يمر أمام الجوقة فتطلب منه أن يقص ما يعرفه عن الإنسان وعن خلق حواء وعن حبهما وزواجهما . ويظهر الشيطان بعد ذلك ، وبعد أن أطاحت الملائكة الأبرار به ، فيبكى مآله وسوء حاله ، ويعرب عن سعيه للشار من الإنسان ، وتستعد الجوقة لمقاومته عند اقترابه ، ولكنه يحادثها حديثاً ينم عن العداء المتبادل ثم يرحل . وهنا تنشد الجوقة شعراً عن المعركة والانتصار فى السماء عليه ، وعلى المتواطئين معه ، وعلى نحو ما حدث فى البداية تنشد الجوقة ترانيم الخلق فى ختام الفصل الأول . وقد يعود الشيطان إلى الظهور ليحكى ما فعله لتدمير الإنسان متفاخراً متباهياً ، وبعد ذلك يظهر آدم وحواء بعد أن يكون الثعبان قد أغواهما ، وقد أصابتهم الحيرة واختلطت عليهما السبل ، 'يرشدهما الضمير' فنراهما وقد طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ثم يهديهما 'العدل' إلى الساحة التى يطلب يهوه أن يراهما فيها ، فيخرجان ، وتُغنى الجوقة على المسرح أثناء ذلك ، ويدخل أحد الملائكة فيطلع الجوقة على أسلوب سقوط آدم ، فتندب ما حدث له ، وهنا يعود آدم وحواء فيبتادلان التهم ، وبخاصة آدم الذى يلقي تبعة ما حدث على حواء ، ويبدى المكابرة فى الإثم ، ويدخل 'العدل' إلى

المسرح ثانياً فيجرب معه حواراً منطقياً ينتهى باقتناع آدم بما سمعه ،
وتلوم الجوقة آدم وتطلب إليه أن يحذر من الشيطان البذئ المتطاوّل .
ويُرسل ملكٌ لإخراج آدم وحواء من الفردوس ، ولكنه يعرض عليه
مشاهد مجسدة لجميع شرور هذه الحياة وهذا العالم ، وتتقاصر نفس آدم
فى عينه ، ويلين جانبه ثم يصيبه اليأس . وأخيراً تدخل 'الرحمة' إلى
المسرح فتعزيه وتعهده بمقدم المسيح ، ثم تنادى على 'الإيمان' و'الرجاء'
و'الإحسان' ، وترشده بالعلم فيتوب ، ويقر الله بالمجد ، وينصاع
للعقوبة الصادرة عليه . ثم تختتم الجوقة المسرحية ختاماً موجزاً . تقارن
هذه المسودة بالمسودة السابقة .

وترجع أهمية هذه المسودات إلى أنها تهيئنا للنظر إلى الفردوس المفقود
باعتبارها مأساة فى بعض جوانبها ، بل وقد تكون - كما يذهب إلى ذلك
فاولر - ملحمة مأسوية لا ملحمة خالصة ، فالأمر لا يقتصر على احتوائها
حوارات كثيرة بل أكثر مما نجد فى الملحمة العادية ، وإن كان ذلك يصدق
على الكتب : ٢ و ٣ و ٨ و ٩ ، ولكن الشخصيات أيضاً تميل إلى القيام
بأدوار الأبطال المأسويين ، وعلى رأسهم إبليس نفسه الذى يكثّر من المناجاة
الدرامية (Soliloquies) إلى الحد الذى جعل دنيس بيردن (فى كتابه الملحمة
المنطقية - ١٩٦٧ - انظر المراجع) يعتبره بطلاً شريراً مثل الأبطال الأشرار
فى المسرح الإليزابيثى ، وكانت هيلين داربيشر Helen Darbishire قد سبقت
بيردن فى الإلماح لهذا فى مقال نشرته عام ١٩٤٨ (انظر المراجع) وقد وجد
كل منهما ذريعة فى قول ميلتون فى مطلع الكتاب التاسع :

... إذ لا مناص لى الآن من تغيير

والواقع أن النثرات المأساوية تتجلى بأكثر وضوح في الكتب الأربعة الأخيرة ، حيث يحافظ ميلتون على الوحدات المسرحية الكلاسيكية ، خصوصاً 'وحدة الزمن' إذ تجري الأحداث كلها في غضون ٢٤ ساعة ، وأما المشاهد التي يستدعيها ميكائيل من المستقبل فهي لا تعتبر 'حبكات ثانوية' بقدر ما تعتبر قصصاً تصب في الحدث الرئيسي كأنما هي تنويعات عليه ، ولو أن فاوئر يعتبرها 'مأساوات صغيرة' ، ويحافظ ميلتون على تقاليد المأساة الكلاسيكية فيما يسمى 'بالانقلاب' وما يسمى بالتكشف . ولقد تطارح النقاد الآراء بشأن النوع الأدبي المحدد (genre) الذي تنتمي إليه الفردوس المفقود نظراً للتعدد والتشابك بين الأفاصيص والخطب والوصف والحوارات الدائبة بين الشخصيات ، وإن كانت الملحمة - تعريفاً - نوع أدبي يستطيع أن ينتظم في داخله عدة أنواع ، على نحو ما بينت باحثة هي بريارة لوالسكي في دراسة لها بعنوان "الأنواع الأدبية في الفردوس المفقود" وأدرجت في الكتاب الذي حرره دنيس دانيلسون (١٩٨٩) [طبعة ١٩٩٦] - انظر المراجع .

وقد أثرت أن أثبت هذه المسألة في التصدير قبل أن أعرض في المقدمة تفصيلاً لمعنى الملحمة ، حتى يكون القارئ على وعى بذلك الشراء العجيب في الأساليب ، وفي تحول زمن الفعل الذي يستخدمه ميلتون من الماضي إلى الحاضر والمستقبل ، كما يتغير الفاعل (فيما يشبه الالتفات بالعربية) بسبب تعدد 'المنظورات' التي يقيمها الشاعر للأحداث تبعاً لتغير النوع الأدبي ، وهي مسألة اعتبرها وراء الكثير من الصعوبات التي تواجه قارئ اليوم ، ولقد بذلت ما استطعت من جهد لتذليلها في الترجمة .

وأما ما يحفل به نص ميلتون من إشارات إلى الكتاب المقدس فلقد استعنت في رصدها بكتاب لم يعد جديداً وإن كان الوحيد من نوعه ألا وهو كتاب سيمز (Sims) الصادر عام ١٩٦٢ وعنوانه "الكتاب المقدس في

ملحمتي ميلتون“ (انظر المراجع) وكنت أرجع إلى نصوص العهد القديم والعهد الجديد في الطبقات الانجليزية والعربية المتوافرة ، فأهتدى بها في صوغ عبارات ميلتون في الترجمة ، مسترشداً ‘بالمعنى الشعري’ الذي ظنته يرمى إليه ، خصوصاً لأنه أحياناً ما يأتي بعبارات مقتبسة من الشروح لا من المتن ، أى إن فهم ميلتون كان محكوماً بقراءته لتلك الشروح ، وهو ما وجدته في كتاب كتبه أرنولد ويليامز عام ١٩٤٨ عن شروح سفر التكوين (انظر المراجع) .

وأود أن أتطرق في هذا التصدير الموجز ولو بكلمة أو كلمتين إلى مسألة الأسلوب أو اللغة بصفة عامة في نص ميلتون ، فأسلوب ميلتون ليس فقط أسلوب القرن السابع عشر الذي يختلف كثيراً عن أساليب الإنجليزية الحديثة (في معاني الكلمات وفي بناء الجملة وفي علامات الترقيم) بل هو يختلف في شعره ونثره عن أساليب معاصريه ، مما جعل ستانلى فيش (Fish) يبنى قضية كاملة على خصائص هذا الأسلوب (تقول بأن معنى ميلتون دائماً مضمّر ، وبأنه يقول ما لا يعبر عنه بالكلمات) . ولكن كتاب النحو [في أسلوب] ميلتون (من تأليف ر.د. إمّا Emma انظر المراجع) يلقي بأضواء غامرة على هذا الأسلوب ويساعد القارئ في الفصل بين ‘التعقيد’ النابع من اختلاف المنظور الفنى والصعوبة الناشئة من تقاليد الأسلوب الكلاسيكى (وخصوصاً البناء اللاتينى) ولقد أساء الكثيرون فهم المقصد الحقيقى من هجوم ت.س. إليوت على نظم ميلتون ، فلم يكن يقصد به إلا الهجوم على “تأثير” ميلتون في الشعراء لا النظم نفسه ، على نحو ما أوضح إليوت فيما بعد عام ١٩٤٧ ، ولقد صدرت عدة كتب بعد ذلك تناول ذلك الأسلوب بالتحليل وتضعه في مكانه الصحيح ، مثل كتاب ك.س. لويس ، وأرنولد ستاين وإيزابيل ماكافرى وأخيراً كريستوفر ريكس (انظر المراجع) . ولقد حاولت في الترجمة نقل ‘مذاق’ هذا الأسلوب للقارئ العربى ، وأردفت بالنص شروحاً فى الحواشى

لتوضيح ما أفعل ، ولكن همى الأول كان إخراج المعنى الدقيق كاملاً غير
منقوص ، ولم أحاول التضحية بأى قدر من المعنى مهما يكن فى سبيل
تمثيل الأسلوب .

وأخيراً ، قبل أن أترك القارئ للمقدمة والنص والحواشى ، أود أن أشيد
بما لقينته من عون من أستاذى الدكتور مجدى وهبة رحمه الله ، إذ كانت
كلمات التشجيع التى لم يرض على بها حافزاً لى على الاستمرار فى العمل ،
ولقد قرأ الكتب الأولى التى ترجمتها ونبهنى إلى ضرورة كتابة هذه المقدمة
الطويلة ، بل وأعارنى عدة كتب من مكتبته الخاصة ، ولذلك فأنا أهدي
الترجمة إلى ذكراه العطرة ، وأكاد أحس أنه يعرف ما أفعله الآن ويبدى السعادة

محمد عنانى

القاهرة ٢٠٠٢

مقدمة

ربما كان أهم سؤال يواجه دارس الأدب الإنجليزي عندما يتعرض لملحمة الفردوس المفقود هو كيف تأتى للشاعر (جون ميلتون) أن يخرج هذه القصيدة الرائعة فى عصر تدهور فيه الأدب ولم يكن النقد الأدبى قد بلغ أى درجة من درجات النضج ؟ لقد ساد القرن السابع عشر - بعد السنوات الأولى التى تعتبر امتدادا للعصر الإليزابيثى الذى شهد شكسبير ورفاقه من كبار الشعراء وكتاب المسرح ، وهى السنوات التى شهدت أيضاً ازدهار من يسمون بالشعراء الميتافيزيقيين - انحطاطاً أدبى شهد به أبنائهم أنفسهم . فالصورة التى تتبادر إلى الذهن عن ذلك العصر صورة أبعد ما تكون عن المناخ الصالح لكتابة الروائع الأدبية - انظر ما يقوله (ابراهيم كاولى) الذى توفى فى العام الذى نشرت فيه الفردوس المفقود (١٦٦٧) :

إنه ليحزننى ويسوؤنى أن أرى ذلك الفن الجليل (يقصد فن الشعر) يستنزف ثرواته الطائلة من براعة الذهن ورشيق العبارة فى كتابة المدائح الأئمة الحقيقية للعظماء أو فى التشبيب المخنث بناقصات العقل من النساء أو فى إثارة الضحكات الماجنة بسلاح الهجاء أو - وهذا أرقى ما حققه المعاصرون - فى نسج أضغاث الأحلام وباليها فى أساطير الخرافة ومسح الكائنات . إنها جميعاً لحوم باردة خلفها الأقدمون على موائدهم فأعدنا وضعها على النار وتقديمها للطعام .

(دفاع عن ملحمة داود - 'الداوودية' - التى كتبها عام ١٦٥٦) .

والحق أن أهم ما يتسم به القرن السابع عشر هو الاضطراب الشديد فى شتى مناحى الحياة إذ اندلعت حرب أهلية طاحنة انتهت بإنشاء النظام الجمهورى لأول وآخر مرة فى بريطانيا كما أنه القرن الذى ازدهرت فيه الفلسفة العلمية وازدهر فيه العلم الطبيعى كما نعرفه فى عالمنا اليوم فكان حافظاً على الهجوم على الشعر (والفن بصفة عامة) لما فى الشعر من مجافاة للحقيقة (أى عالم الواقع المحسوس) ومن تهويم فى الخيال ، وهو القرن الذى شهد تطورات اقتصادية غيرت من وجه الحياة فى أوروبا لأجيال كثيرة ، إلى جانب ما ساد القرن من فتن دينية وسياسية أثرت فى البناء الاجتماعى أيمما تأثير ، وبالتالي فى الأدب والنقد .

ويرجع هذا الاضطراب إلى عوامل كثيرة بعضها اقتصادى وبعضها سياسى وبعضها دينى محض . أما العوامل الاقتصادية فتتجلى فى أن بريطانيا بعد توحيد إنجلترا واسكتلنده ، وبعد الكشف الجغرافى والتوسع فى التجارة الخارجية - كانت تقف على أعقاب مرحلة جديدة من تاريخها وهى مرحلة جنى ثمار حركة الإصلاح الدينى والتحول الصناعى والاجتماعى . كان النظام الاقتصادى قد بدأ يتحول تدريجياً نحو الصناعة ولو فى صورة صناعات صغيرة ، وكانت الزراعة قد بدأت تفقد أهميتها باعتبارها المصدر الأساسى للاقتصاد إذ لم يكن يعمل بالزراعة إلا حوالى ربع السكان - ما بين صغار الملاك والأجراء - وبدأت التجارة فى اكتساب أهمية لم تشهدا البلاد من قبل .

فعندما قام الملك هنرى الثامن بنزع ملكية الأديرة وأوقاف الكنيسة القديمة كان فى الحقيقة يغير من أنماط الملكية السائدة التى ورثها بريطانيا من عصور الإقطاع تغييراً شاملاً إذ وفر رؤوس الأموال اللازمة للاستثمار وخلق لوتاً جديداً من النشاط الرأسمالى . كما أن الازدهار الصناعى قد حول دفعة التجارة من الجنوب (أى من البحر المتوسط) إلى الشمال وأصبح بحر الشمال هو البحر الذى تتجه إليه أنظار كبار التجار ومن ثم أصبحت بريطانيا مرتبطة -

لأول مرة فى تاريخها - بأوروبا القديمة . وكان من ثمار هذه النهضة الصناعية أيضاً بناء السفن الشراعية الكبرى والمدافع الضخمة القادرة على التدمير أى بناء القوة البحرية القادرة على الغزو والاستعمار وقد اعتمدت بريطانيا على هذه السفن فى فتح الأسواق الجديدة لتجاريتها .

وإذا كان القرن السادس عشر بحق عصر الإكتشافات الجغرافية - إذ وصلت فيه السفن الأوروبية إلى الأمريكتين كما اكتشفت سواحل إفريقيا وبدأت تجارة الرقيق - فإن القرن السابع عشر كان العصر الذى بدأ فيه التجار الإنجليز ينتفعون بهذه الإكتشافات وهذا التوسع الذى لم يسبق له مثيل ، يساعدهم على ذلك توافر رأس المال اللازم للمغامرة .

ولكن التنظيم الاقتصادى الذى بدأ يتغير حتى يواكب الظروف الجديدة كان دائماً ما يصطدم بالنظام السياسى الذى أصبح يمثل عائقاً كبيراً أمام هذه المرحلة الجديدة . كان نظام الحكم عتيقاً بالياً لا يستطيع مجاراة هذا التغير السريع فعندما جاء الملك جيمس الأول إلى الحكم فى عام ١٦٠٣ وتولى شخصياً توحيد إنجلترا واسكتلنده كان يواجه تناقضاً كبيراً ، فهو حاكم مطلق يدين له الجميع بالولاء ، ومع ذلك فهو يحكم من خلال برلمان انتخب الشعب أعضائه . والحق أن البرلمان كان قائماً فى عصر الملكة إليزابيث ولكنه كان مؤسسة مسالمة مطيعة إذ كان يوافق على ما تطلبه من أموال ويدعن لآرائها ولا يعترض عليها إذ هاجمته وقرعته لاختلاف فى رأى أو لتناقض فى القرارات ، أما مجلس العموم الذى كان الملك جيمس الأول يواجهه فكان يمثل التغيرات الاجتماعية التى بدأت تؤثر على مفهومات السلطة والحكم يوماً بعد يوم إذ كان يمثل الطبقات الجديدة التى تعمل بالتجارة والصناعة كما كان يمثل بعض أصحاب الحيازات الزراعية الذين بدأوا يطالبون بالمشاركة فى إدارة الحياة السياسية فى البلاد .

وكان مجلس العموم يعارض حكم الملك آنذاك لعدة أسباب أهمها أنه كان تعسفيا ولم يكن من اليسير التنبؤ بما سيتخذ من قرارات . كما أن الملك كان يعتمد على المقربين إليه ويحاييهم مثل دوق بكنجهام الذي كان جشعا لا يشبع له نهم وكان إلى ذلك أبعد ما يكون عن الكفاءة في الإدارة السياسية . وكانت حكومة آل ستيوارت هذه تنزع إلى التدخل لصالح بعض أفرادها وبخاصة أعضاء الأسرة المالكة في إدارة التجارة والصناعة وتنظيمهما ولم يكن هذا التدخل في صالح السواد الأعظم من التجار والصناع بطبيعة الحال ومن ثم ارتفعت الأصوات في البرلمان معترضة على هذا التدخل ، وبخاصة على نظام الاحتكار الذي كان من أهم ملامحه ، إذ كان الملك يبيع حق احتكار صناعة من الصناعات لفرد أو لشركة مقابل مقدار معين من المال مما يتنافى مع انطلاقة الاقتصاد الجديدة ويضر بالصالح العام . وأخيراً فقد كان البرلمان يعارض السياسة الخارجية لانجلترا لتضاربها وغموضها فقد حاولت الحكومة مثلاً إيجاد عروس للملك الجديد (شارل الأول) من أسبانيا التي تدين بالكاثوليكية وأدان الشعب (الذي كان قد تحول عن الكاثوليكية) هذه المحاولات ، ومن ثم نشأ صراع مرير فشلت على أثره المحاولات بل إنها أدت إلى قيام الحرب بين انجلترا وأسبانيا ، وتلا ذلك قيام الحرب بين انجلترا وفرنسا بذريعة زائفة هي الدفاع عن المذهب البروتستانتي في أوروبا وقد كانت الحرب باهظة التكاليف خاسرة من جميع الوجوه .

وقد وصل هذا الاضطراب إلى ذروته في عام ١٦٢٨ حين عقد الملك شارل الأول اجتماعاً للبرلمان للموافقة على تقديم الأرصدة والمؤن الخاصة بالحرب فإذا بالبرلمان يتهز الفرصة لإثارة الاعتراض على حكمه وبالفعل أصدر «تظلماً قانونياً» قدمه إلى الملك يعترض فيه على فرض الضرائب دون موافقة من البرلمان ، والقبض على الأفراد وسجنهم دون اتهام ودون محاكمة بل دون اللجوء إلى أى قناة من قنوات العدالة المعروفة وعلى تقديم القروض

قسراً إلى الملك ، وتجنيد أعداد كبيرة من أبناء الشعب للاشتراك فى الحرب وجاء فى نهايته :

ومن ثم فهم يتوسلون إلى جلالتك الكف عن إرغام أى رجل على تقديم العطايا أو القروض أو الهبات الخيرية أو الضرائب أو ما شابهها دون موافقة الغالبية ، أى دون قرار برلمانى ، وألا يساءل أحد أو يستدعى للشهادة أو يحتجز أو يحبس أو يضطهد أو ينكل به بسبب إدلائه بشهادته أو امتناعه عن الإدلاء بها، وألا يسجن أو يعتقل أى رجل حر بالصورة التى وصفناها آنفاً وأن تتكرم جلالتك بتسريح الجنود والبحارة الذين أشرنا إليهم وألا يتحمل شعبكم مثل هذه الأثقال فى المستقبل .

وكان هذا التظلم بمثابة إعلان للحرب بين البرلمان والملك ومن ثم قام شارل الأول بحل البرلمان واستمر فى الحكم دون برلمان أحد عشر عاماً حتى اضطر تحت ضغط الحاجة المادية إلى دعوة البرلمان للانعقاد ثانية عام ١٦٣٩

ويعتقد الكثيرون أن القضية الأساسية التى شغلت رأى العام وجرت وراءها الفتنة الكبرى ومن ورائها الحرب الأهلية لم تكن قضية سياسية بقدر ما كانت قضية دينية . إذ إن حركة الإصلاح الدينى لم تكن قد اكتملت وكانت الكنيسة الإنجليزية حلاً وسطاً لا يمكنه أن يرضى الجميع إذ أن «صيغة» الكنيسة الإنجليزية كانت تعتمد على نظام الأساقفة بل إن الكنيسة الأنجليكانية كلها كانت تعتمد على سلطة الأساقفة غير المحدودة وكان وجه الاعتراض على هذا النظام هو أن الأساقفة لم يكونوا يمثلون سلطة دينية خالصة ولكنهم كانوا دعامة من دعومات الملكية أى أنهم كانوا دعامة من الدعومات التى ارتكز عليها الحكم الذى أثار سخط البرلمان ومن ورائه الشعب . وعندما اعترض المشيخيون (البرسبترينز) على حكم الأساقفة فى عصر جيمس الأول رد عليهم بالمقولة الشهيرة «إذا ذهب الأساقفة ذهب الملك» .

ولكن الاعتراض على حكم الأساقفة كان يمثل جانباً واحداً من جوانب القضية إذ إن الإحساس الذى ساد تلك الفترة هو الخوف من البابوية وذلك لارتباب أهل انجلترا فى إخلاص أى مواطن يدين بالكاثوليكية باعتبارها مذهب الأجانب الذين يتربصون بالبلاد وباعتبارها - بطبيعة الحال - المذهب القديم الذى تحررت منه انجلترا حين انفصلت الكنيسة فيها عن كنيسة روما . وفى عام ١٦٠١ وضع توماس ولسون كتيباً يشرح فيه الأسباب التى تحتم الولاء للكنيسة المعتمدة وقال فيه :

إن أهم قضية هى أن نكسر شوكة الأعداء الذين يعيشون بين ظهرائنا فالأهالى ينقسمون إلى أربع فئات أولها البروتستانت الدينيون وثانيها البروتستانت السياسيون وثالثها البابويون الدينيون ورابعها البابويون السياسيون . وأول هذه الفئات هم الذين يخلصون للدولة الإخلاص كله أما الفئات الثلاث الأخرى فهى خطيرة.

ويكفى أن نتذكر أن الملك شارل الأول - رغم اعتناقه الأنجليكانية وإصراره على الدفاع عنها - كان قد اقترن بزوجة كاثوليكية وكان أفراد الأسرة الحاكمة متهمين بعطفهم على البابويين مما جعل الشعب يخاف من عودة الكنيسة الأسبانية ومحاكم التفتيش وما صاحبها من أهوال .

وكان أفراد الشعب لا يستطيعون الإطمئنان إلى الأساقفة لهذا السبب نفسه أى لأنهم كانوا يوحون بإيمانهم بنظام الحياة البابوى فكان الكثيرون من القسس يهتمون بالمال وبالعيش فى بذخ وأبهة بل كان بعضهم يزاول الأعمال الدنيوية - كالعمل بالقانون أو التدريس - إلى جانب عملهم فى الكنيسة وكانوا من ثم يهملون رسالتهم الأولى وهى الوعظ والإرشاد وأهم منها ضرب المثل لغير المتفقهين فى الدين . وربما كان هذا هو ما أشعل الشرارة الأولى لليبيريتانية أو ما يترجم عادة بمذهب المتطهرين وإن كان أقرب إلى الحركة الدينية العامة

منه إلى المذهب المقنن . ولما كانت الثورة الإنجليزية التي أتت بالجمهورية ووهب الشاعر ميلتون نفسه لها قلبا وقالبا ثورة بيوريتانية في المقام الأول فلا بد لنا أن نقف على أهم ملامحها .

البيوريتانية في جوهرها حركة إصلاح ديني يرجع منشؤها إلى الدعوة الكالفينية (نسبة إلى كالفن الذي عاش في جنيف في القرن السادس عشر) وإن كانت قد تطورت في إنجلترا في القرن السابع عشر من حيث مظاهرها وأنماط السلوك التي اقتضتها . أما أساس الكالفينية فهو الرفض التام للكاتوليكية بكل ما تشتمل عليه من مقومات طقسية وكنسية معقدة والدعوة إلى الإيمان بالتسيير : فكان (كالفن) يقول إن الله قد اصطفى عباده المخلصين قبل بداية الزمان وهم يعرفون بهذا الاصطفاء عن طريق التهجد وقيام الليل والإصغاء إلى صوت الهداية في أعماقهم . فعلى من يريد أن يعرف إن كان من بين المصطفين أن ينشد الهداية ويسعى لها سعيها وينهى النفس عن الهوى وأهم من هذا كله هو التوفر على كلمات الله في الكتاب المقدس . أما الذين اتبعوا طريق الضلال فإن الله يعاقبهم رغم علمه المسبق بفسقهم لأن علمه المسبق لا يعنى رضاه عن فسوقهم . وهكذا فقد رفض (كالفن) وساطة أى شىء أو أى إنسان بين الفرد وربه ودعا إلى إزالة الحجب التي أقيمت على مر العصور عن طريق الكهنوت المعقد . وقال إن على الفرد أن يكثر من الصلاة ومن تأمل كلمات الله وآياته - وقد ورث البيوريتانيون هذه العقيدة إذ كانوا يرون في الكتاب المقدس آية ناطقة فإذا ما عكف عليه الإنسان وأحله من قلبه محل الروح من الجسد استطاع أن يسمع صوت الرب وهو يتحدث إليه .

وربما لم نجد في الأدب الإنجليزي ما يمثل هذه الروح مثل الرواية التي كتبها (جون بنيان) في ذلك الوقت بعنوان رحلة الحاج فهي تعبر ببساطة ويسر عن تغلغل الروح الكالفينية في صميم الثقافة الشعبية بل والريفية في إنجلترا . وفي أحد مواقفها يعرض المفسر صورة لطفلين على كريستيان (أى المسيحى)

يظهر فيها أحدهما وقد علا محياه السخط والاستياء ويظهر الآخر وهو ينعم بالرضى والسعادة . . .

وهنا قال كريستيان للمفسر : زد هذا الأمر إيضاحاً لى . فأجابه قائلاً : هذان مثلان . الأول يمثل أشواق أهل هذه الدنيا والثانى يمثل صبر أهل الآخرة . فكما ترى تريد الأشواق تحقيق كل شىء دونما إبطاء، هذا العام أى فى هذه الدنيا . فهكذا أهل الدنيا، يريدون كل الخيرات الآن ولا يستطيعون الإنتظار حتى العام القادم أى حتى الدار الآخرة ليحصلوا على نصيبهم . وهم يعترفون بالمثل القائل «عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة» أكثر من اعترافهم بكل الشواهد الإلهية على خيرات العالم الآخر ولكن ذلك الطفل كما ترى قد أنفق كل ما كسبه ولم يعد لديه ما يكسوه إلا ذلك الثوب البالى . فهكذا أهل الأرض عندما ينتهى هذا الكون .

وعندئذ قال كريستيان : الآن أرى أن الصبر هو أسمى حكمة وذلك لأكثر من سبب : فصاحب الصبر ينتظر حتى ينال أفضل الخيرات كما أنه يحظى بالمجد فى نهاية المطاف بعد أن يزول كل شىء ولا يبقى لصاحبه إلا الثوب البالى .

والاستعارة التى تقوم عليها الرواية قديمة قدم الإنسان نفسه ونعنى بها تصوير الحياة على أنها رحلة عبر هذا العالم ، رحلة قصيرة محدودة لا أهمية لها فى ذاتها ، ولكن البيوريتانيين كانوا يبدون أشد الاهتمام بوسائل تأمين المسافرين وتزويده بخير الزاد وهو التقوى . فكانوا يرون أن الأساقفة والملوك يحولون وجهة نظر المسافر عن الصراط المستقيم . ويذكر المؤرخ الكبير ر. هـ. طونى أن البيوريتانيين كانوا يفسرون الروح الكالفينية تفسيراً علمياً وذلك بأن جعلوا حلبة الصراع ضد الشر هى نفس الإنسان أى أن الفرد الذى

يشعر بمعنى « النهاية المحتومة » لابد أن يحول هذا الشعور إلى موقف إيجابى يتمثل فى ضبط النفس وقمع الشهوات والعمل الصالح . وهكذا أصبحت الإرادة البشرية عنصراً أساسياً من عناصر العقيدة البيوريتانية وكان لابد لها فى نظر البيوريتانيين من أن تتجلى فى الأفعال أى فى مظاهر السلوك التى تنم عن الإحساس الجارف بأن الإنسان يحيا دائماً فى ترقب للدار الآخرة .

وقد استطاعت الكالفينية أن تغلغل فى المجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت لأنها كانت تشبع حاجة إنسانية عميقة يحسها الجميع . كان ثمة علاقة لا شك فيها بين افتقار الإنسان إلى الأمن ونشيدان العالم الآخر : إذ إنه عندما تضعف النظام الإقطاعى وازدادت أهمية المدن تزلزل النظام الاجتماعى كله واهتزت ثقة الناس فى الأعراف الاجتماعية القديمة ، وكما يقول المؤرخ طونى فى كتابه الدين ونشأة الرأسمالية . كان الناس فى حاجة إلى اليقين فى تلك الفترة الهامة من فترات التحول والشك والبلبله ومن ثم اتجهوا إلى التجربة الفردية المتمثلة فى علاقة الفرد بخالقه . ولهذا كانت البيوريتانية مذهب الفرد الذى لا يحتاج إلى وساطة أى إلى نظام دينى (كنسى) أو اجتماعى ليحدد معنى حياته ويبلور قيم تجربته الخاصة . فلقد كانت تعلى من شأن الإحساس الدينى الفردى ولا تتطلب من الأفراد إلا أن يلجأوا إلى الله مباشرة لينشدوا الهداية ويعرفوا أنهم من المصطفين . ويقول طونى :

إن الروح البيوريتانية قد اختارت منزلها فى تلك الطبقات الاجتماعية التى تجمع بين الاستقلال الاقتصادى والتعليم والاعتزاز المعقول بمكانتها . وقد ظهر هذا الاعتزاز فى إصرارها على انتهاج سبيل الحرية والاستقلال دون الخنوع والاستخذاء لأسياد من البشر . كما تجلّى هذا الاعتزاز أيضاً فى احتقارها لكل من كان يفتقر إلى الشعور بالسيادة والاستقلال أى لكل من أبدى الخضوع لغيره سواء عن ضعف فى الشخصية أو نتيجة لضغوط اقتصادية لا قبل له بها .

وهكذا فقد ساهمت معارضة البيوريتانيين للكنيسة الرسمية فى تعزيز المشاعر الجديدة للطبقات المتوسطة وتدعيم رغبتها فى التخلص من القيود القديمة المفروضة على العمل ، ونشدها إقامة نظام حكم ذاتى مستقل مأمون. وكان الإصرار على حق الكنيسة فى تنظيم نفسها بعيداً عن تدخل الدولة يسير جنباً إلى جنب مع الإصرار على تحقيق الحريات المدنية، أى أن البيوريتانية كانت تدعو إلى تحرير الدولة من سلطة الكنيسة بقدر ما كانت تدعو إلى تحرير الكنيسة من سلطة الدولة . وكان السبيل لتحقيق هذا الهدف «البيوريتانى» هو العمل أى الإيجابية الاجتماعية لا الانزواء والتفوق يقول ميلتون فى كتابه الشهير أريوباجيتيكا الذى يدافع فيه عن حرية النشر والصحافة لا أستطيع الإطراء على فضيلة هاربة منعزلة لا يمارسها صاحبها ولا ينطق بها .. فضيلة لا تتقدم لملاقاة غريمها بل تنسحب من السباق ، وهو السباق الذى لا يفوز فيه بأكاليل الغار الخالدة إلا من ينصب ويعرق ويشير الغبار فى المضمار .

وربما كانت هذه الفقرة التى كتبها ميلتون عام ١٦٤٤ إبان الحرب الأهلية الكبرى مقدمة صالحة لحياة هذا الشاعر الذى أخرج أعظم قصيدة فى أدب بلاده .

٢

ولد ميلتون عام ١٦٠٨ فى لندن . وكان أبوه أول من تمرد فى الأسرة على الكاثوليكية - دين آبائه - وضحى فى ذلك بميراثه ، إذ حرّمه منه أبوه (جد ميلتون الشاعر) مما اضطره إلى العمل حتى يكسب الرزق ومن ثم عمل كاتباً عمومياً فى لندن ينسخ المخطوطات والوثائق والمستندات وما إليها ولكنه سرعان ما عزف عن هذا العمل واحترف الموسيقى وتأليف الأغاني . وقد لاقت هذه الأغاني نجاحاً جماهيرياً لا بأس به . ولا شك أن الآلات الموسيقية

(وأهمها الأرغن) التى كانت فى داره قد هيات مناخا فنيا مواتيا لتفتح مواهب
جون الصغير فأولع بالموسيقى من صغره وانكب على الدرس والاطلاع منذ
نعومة أظفاره وهو يقول عن تلك الفترة :

نذرني والدي للأدب منذ طفولتي وقد كانت لدي شهية بالغة
للمعرفة حتى أنني منذ الثانية عشرة لم أكن أترك القراءة أو أنام قبل
منتصف الليل . وكان هذا هو السبب فى فقداني نعمة البصر . فلقد كنت
أعاني دائماً من ضعف البصر وكان الصداع يؤرقني دائماً دون أن يؤثر
على حماسي للاطلاع والعلم أو يقعد بي عن مواصلة الدرس .

(ف.ب. تليارد : المراسلات الخاصة والتمارين الدراسية لميلتون -

كيمبريدج ١٩٣٢)

والثانية عشرة بالتحديد هى السن التى دخل فيها مدرسة (سانت بول) وبدأ
مرحلة تعلم اللغات الأوروبية حيث أتقن اليونانية واللاتينية أولاً ثم الإيطالية
والفرنسية وقليلًا من العبرية . ولكن الإيطالية كانت أهم لغة لديه بل أهم لغة
لدارسي الأدب لأنها لغة عصر النهضة . وفى عام ١٦٢٥ - عندما بلغ السادسة
عشرة - التحق بكلية (كرايست كولدج) فى كيمبريدج وانخرط فى سلك
الدارسين الذين كان نشاطهم العلمى ينحصر فى «الدفاع عن قضية ما» . فهكذا
كان المنهج المتبع فى الدراسة آنذاك أى أنه كان على الطالب أن يتعلم كيف
يتلاعب بالأفكار والحجج حتى يدافع عن القضية التى يكلفه أستاذه بالدفاع
عنها ، وأن يتصر لها ويهزم خصومه مهما كانت آراؤه الشخصية . ومن ثم
أحس الشاعر الشاب بعقم هذا اللون من التعليم وما ينطوى عليه من تفاق
وخاب أمله فى الدراسة بها بل لقد اشتبك أكثر من مرة فى نزاع مع أساتذته
حول هذا المنهج .

وكان أثناء دراسته غير محبوب لا من أساتذته ولا من الطلاب لأن نزعاته
الثورية كانت تعكر صفو الأروقة الجامعية وإن كانت كتاباته باللاتينية

والإنجليزية تحوز أكبر الإعجاب وتتمتع بأعظم قدر من الثناء . وعند تخرجه فى عام ١٦٢٨ - ١٦٢٩ كتب أولى قصائده الشهيرة وهى الاحتفال بصبيحة عيد الميلاد وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين ثم حصل على درجة الماجستير عام ١٦٣٢ .

ومنذ هذه اللحظة بدأت مرحلة الإعداد لكتابة الشعر فقد رفض أولاً أن ينخرط فى سلك الكهنوت لأنه أحس - مثل الكثيرين من أبناء بلاده - بما ينطوى عليه ذلك العمل من مسئوليات جسام قد تتناقض مع حرية العبادة والتأمل والعمل الجاد دونما قيود «وظيفية» وبخاصة أن النماذج التى كان يراها فى هذا المجال لم تكن تتفق والصورة المثالية التى كان يرسمها فى خياله للإحساس الدينى الذى كان ولا شك يستلهم عصر النهضة وابتعد عن طقسىة حياة الكهنوت . وهكذا قرر أن يتفرغ بعض الوقت للدراسة فعاش مع والده فى قرية صغيرة بالريف هى (هورتون) فى مقاطعة (بكنجهامشاير) ووضع لنفسه خطة عمل ودرس تتضمن تاريخ العالم منذ البداية اعتماداً على كل ما كتبه الثقات فى هذا الموضوع . وربما كان خير ما يمثل المنهج الذى كان يريده للدراسة هو تلك الفقرة التى كتبها أثناء دراسته فى كيمبريدج وطالب فيها بأن يكون إعداد الشاعر شاملاً معارف العصر بحيث لا يقتصر على المعرفة التقليدية بل يتبع سبل عصر النهضة والتطور العلمى الذى ساد القرن السابع عشر:

أما كان الأحرى بكم أيها السادة وأجدر بكرامتكم أن تدعوا عيونكم تطوف بشتى البقاع التى تصورها الخريطة وأن تشهدوا الأرض التى وطأتها أقدام الأبطال القدماء ، وأن تطوفوا بالأقاليم التى ذاع صيتها فى الحروب والفتوح والغزوات وقصص مشاهير الشعراء ، وأن تعبروا البحر الأدرياتي العاصف أو تتسنىموا مرتفعات جبل (إتنا) التى نجت من حريق البركان ثم تدرسوا عادات البشر والدول التى تتبع نظاماً سياسية محكمة وأن تكتشفوا طبائع الكائنات الحية جميعاً ، ثم تصبوا اهتمامكم

على أسرار الأحجار والأعشاب وخصائصها ولا تجفلوا من التحليق في
السموات وتأمل الأشكال المتنوعة للسحب وجبال الثلوج ومصادر أنداء
الفجر . ثم انظروا في خزائن البرد والصواعق ولا يفوتكم مقصد جوبيتر
أو مقصد الطبيعة عندما ترون مُدْنَبًا ضخمًا رهيبًا وهو يهدد بإشعال
النيران في السماء . ولا تغفلوا أصغر نجم في السماء من بين الآلاف
المبعثرة ما بين القطبين .

أى إنه كان ينزع إلى «التكامل» في اكتساب المعرفة وقد استطاع أن يحقق
ذلك إلى حد كبير فبعد أن قضى ست سنوات في تلك القرية الصغيرة كتب فيها
قصيدتي الليجرو والمفكر ومسرحية كوموس وقصيدة رثاء لصديقه إدوارد كنج
(هى ليسيداس) وافق والده على إرساله في رحلة إلى إيطاليا ماراً بفرنسا .
ويجمل بنا قبل الحديث عن هذه الرحلة أن نشير إلى بذور مذهب الشعري في
هذه الأعمال الأولى التى يخصص لها النقاد كتباً كاملة وتتلخص هذه «البذور»
في الصراع الذى كان قد بدأ يدب فى نفس الشاعر آنذاك بين ما اصطلاح على
تسميته بالدين والفلسفة وهو ما يمكن أن نسميه اليوم الصراع بين الإحساس
الفطرى بالوجود (وما يتبعه من نزعات تأمل للجمال ونبض الحياة فى أوصال
الكون) وبين الاتجاه العلمى الذى يعتمد على معطيات الحس وعلى (الرؤية
المقيدة) أى الرؤية الفنية التى تعتمد على الاتجاه العقلانى بل وتتخذ العلمانية
سبيلاً لإدراك الوجود ومنزلة الإنسان فيه .

ويتجسد هذا الصراع فى المقابلة التقليدية بين روح قصيدة الليجرو وروح
قصيدة المفكر فالأولى تمثل بصفة عامة الاحتفال بالحياة المشرقة الوضاء
وتعيد إلى الأذهان أفراح عصر النهضة وبالذات أفراح العصر الإليزابيثى وروح
شيكسبير الذى يمثل الصحة النفسية والانطلاق للطبيعة ، وأما الثانية فتمثل
الأحزان التى لا بد للعقل أن يحيا بها ولها ما دام يواجه الليل الطويل
بظلماته وتراث الفكر الإنسانى الذى يحير الأبواب . وإذا كان (ليشمان) وهو

أحد كبار نقاد ميلتون قد ذهب في كتابه عن هذه القصائد (دار هتشنسون - ١٩٦٩) إلى أن التناقض ظاهري فحسب وأن القصيدتين متكاملتان في الحقيقة، فإن جمهور النقاد يرى فيهما هذا الصراع، ويميل إلى أن يعزو ذلك إلى التقابل الناشئ بين نزعة عصر العلم ونزعة الشعر الفطرية التي تتخطى العلم.

ويتجلى هذا الصراع في صورة أخرى في مسرحية كوموس التي تعكس روح شعراء العصر الإليزابيثي خيراً من القصيدتين الأوليين (بل إن ليثمان يذهب إلى أن هاتين القصيدتين تمثلان شعر القرن السابع عشر خير تمثيل لما فيهما من جدلية وجدل وصور محكمة تذكرنا بالشعراء الميتافيزيقيين وخاصة جون دن) فالمسرحية تنتمي لنوع المسرح الفكري وإن كانت تتوسل بالشعر الغنائي المرسل الحافل والنابض بالحياة. ففي المشهد الثالث نرى الساحر الذي يحاول إغواء إحدى الفاتنات يتحدث عن «الطبيعة» وعن الحكمة البادية في كل ما صنعت يد الطبيعة، محاولاً إبراز مناحي الجمال في كل ما يحتويه الكون، وداعياً العذراء إلى التخلي عن تعفّفها وعزوفها عن المتعة، ومن ثم فهو يهاجم أهل التقشف والصبر، ويرجع كل الشرور إلى أصل واحد ألا وهو تقطع الروابط بين الإنسان والطبيعة وهنا ترد عليه الحسنة قائلة :

أيها الدعي ! لا تكل الاتهامات للطبيعة البريئة

فتقول إنها تريد لأبنائها التبذير

في خيراتها ! إنها كريمة تنعم بخيراتها

على الأخيار فحسب ، أولئك الذين

يطيعون قوانينها العاقلة

وأمرها المقدس بالاعتدال والتدبير !

فإذا نال كل رجل منصف ممن أصابهم الفقر بالنحول

نصيبه المعقول من ذلك الترف الفاجر
الذى تنعم به اليوم قلة قليلة
أتخموا بالخيرات أيما تخمة
لأصبحت نعم الطبيعة موزعة توزيعاً عادلاً
وينسب صحيحة لا إفراط فيها
ولما بقى فى خزائنها ما يزيد عن الحاجة حقاً.

ولا شك أن الإشارة إلى «سوء توزيع خيرات الطبيعة» فى حديث الفتاة الفاضلة هنا إشارة سياسية ، بمعنى أنها كانت بمثابة دعوة إلى «الجمهورية» وهجوم على النظام الملكى (ولكن المسرحية مرت بسلام ولم يصب ميلتون أى أذى نتيجة لهذه العبارات) ويهمنا بطبيعة الحال أن نرصد فى هذا العمل المبكر بذور الفكرة التى شغلت ميلتون طوال حياته ألا وهى فكرة الاعتدال ومن ورائها تصوّره أنه يستطيع أن يدرك خيراً من غيره المقصد السامى للطبيعة والمعانى العميقة التى يمكن للشاعر أن يستقيها من تأمل الوجود دون اللجوء إلى «وساطة» الكهنوت أى مباشرة وعن طريق العبادة الفردية.

فى عام ١٦٣٨ - كما قلنا - بدأ ميلتون رحلته إلى إيطاليا فحط الرحال أول الأمر فى باريس حتى يستطيع أن يلتقى بأحد كبار رجال القانون وهو (هوجو جرونتيوس) واستطاع أن يتناقش معه فى أصول تطوير القانون الدولى ولكن الجو العام فى فرنسا كان يبعث على الانقباض إذا كان (ريشيليو) فى ذروة سلطانه ، فترك باريس واتجه إلى إيطاليا فزار أهم مدن عصر النهضة وخاصة فلورنسا حيث قابل (جاليليو) الذى كان قد فقد بصره وتحددت إقامته ، كما التقى برجال الجامعة وأهل الأدب والعلم ، ثم اتجه إلى نابولى واجتمع مع أشهر الكتاب والفنانين فى أوروبا فى ذلك الوقت . ثم ذهب إلى روما

وقضى بها أربعة أشهر عاد بعدها إلى فلورنسا ومن ثم زار البندقية وفيرونا وميلانو وهناك سمع بنشوب الحرب بين انجلترا واسكتلنده لأن الملك شارل الأول حاول أن يفرض النظام الأسقفى الأنجليكاني على كنيسة اسكتلنده التي كانت تتبع المذهب المشيخي . ولهذا قرر العودة فوراً ليكون قريباً من تلك الأحداث الجسام .

وعندما عاد ميلتون إلى لندن استأجر مسكناً مستقلاً وعمل بالتدريس . كان يريد أن يكون قريباً من البرلمان وهو البرلمان الذي استدعاه شارل الأول ليوافق على تمويل الحرب ضد اسكتلنده بعد أن ظل يحكم البلاد أحد عشر عاماً (كما ذكرنا آنفاً) دون برلمان . ولكن هذا البرلمان - كما اتضح منذ اللحظة الأولى لم يكن ليرضى بتمويل حرب الأساقفة دون إجراء إصلاحات واسعة النطاق في مملكة انجلترا أولاً - وكانت نذر صراع جديد بين الملك والبرلمان تلوح في الأفق مما اضطر الملك إلى حل البرلمان بعد أسبوعين فقط من الاجتماعات ومحاولة فرض نظام الأساقفة بالقوة على اسكتلنده . ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع مما جعل الملك في موقف لا يحسد عليه ولم يكن ثم أمامه إلا أن يستدعى برلماناً آخر في نوفمبر عام ١٦٤٠ وكان هذا هو «البرلمان الطويل» الذي شهد الحرب الأهلية .

وقد شغل ميلتون نفسه منذ البداية بهذه الأحداث ، وعندما لاحت الفرصة أمامه سخر مواهبه وقلمه للدفاع عن القضية التي آمن بها . كان ما زال يعمل بالتدريس في لندن ولكنه كان تدرّساً من نوع جديد إذ كان يقوم على فكرة ضرب المثل ويتعدى التلقين وتقديم المعلومات إلى تشجيع طلابه على أن يعيشوا حياة تنشد القيم المثالية وتسعى لتحقيق هذه القيم عملياً . فكثيراً ما كان يدعو إلى المذهب الرواقي في دروسه وهو ضبط النفس والتحرر من الانفعالات المتطرفة وتحكيم العقل دون إفراط أو تفريط واتخاذ الاعتدال سبيلاً في كل شيء . بل كان يريد لتلاميذه أن يكتسبوا المعارف الإنسانية العامة

(العلوم الإنسانية) إلى جانب بعض الخبرات العملية (الحرف والمهن والصناعات) . ولكن هذا كله لم يكتب له أن يتحقق لانشغاله بالدفاع عن القضية الكبرى وهى إقصاء الأساقفة عن الكنيسة الانجليزية .

وقد بدأت نذر الحرب فى آخر عام ١٦٤٠ عندما قدم البيوريتانيون عريضة إلى البرلمان يطالبون فيها بهذا (وكانت مهمورة بخمسة عشر ألف توقيع) ورد عليهم أسقف كنيسة (إكستر) واسمه (جوزيف هول) بعريضة يدافع فيها عن النظام الأسقفى (يناير ١٦٤١) ثم رد عليه خمسة من المشيخيين (مارس ١٦٤١) فرد عليهم (هول) ثانياً وأخيراً عرض الأمر على مجلس العموم فوافق على إقصاء الأساقفة عن كنيسة انجلترا ولكن مجلس اللوردات لم يوافق ومن ثم اشتد الجدل وحمل وطيس المعركة وكانت تكاليف الطباعة زهيدة والورق متاحاً فبدأت حرب المنشورات والكتيبات وصدرت المئات منها من كل حذب وصوب وما جاء يونيو ١٦٤١ حتى اشترك ميلتون فى المعركة فأصدر أول كتيب له بعنوان «سبب حكم الكنيسة» يدافع فيه عن وجهة نظره قائلاً :

إذا شئنا للدين أن يتحلى بالنقاء والروحانية والبساطة والتواضع مثل الكتاب المقدس فينبغى أن يتحلى القساوسة بهذه الصفات جميعاً وهكذا إذا قام نظام القساوسة على الدرجات الدنيوية من سلطان وتشريف وأحكام دنيوية نراها بعيوننا فسوف يحيل الطاقة الباطنة والنقاء اللذين نجدتهما فى الكتاب المقدس إلى المادية الظاهرة للقانون ومن ثم فسوف تتبخر العبادة الباطنة وتخرج فى صور مادية فارغة ومظاهر من البهرج والترف .

ونلمح هنا أهم ما كان يشغل بال ميلتون ألا وهى كلمة «باطنة» إذ إنه كان يرى فيها جوهر العقيدة البيوريتانية لأن فيها جوهر الحرية فهو يعود إلى هذه الفكرة نفسها فى كتاب آخر بعنوان عن العقيدة المسيحية يقول فيه :

يتضمن الكتاب المقدس نوعين من النصوص أولها هو النص المكتوب أى الكلمة التى نقرأها وهذا هو النص الظاهر أما النص الآخر فهو باطن أى أنه روح القدس التى خطت فى قلوب المؤمنين .

وكان لهذه العبارات معنى سياسى بطبيعة الحال إذ إن معاداة الأساقفة معناها معاداة الملك لنفس الأسباب تقريباً . وقد جاء فى الكتاب المقدس ذكر الملوك الفاسدين (انظر سفر الملوك وسفر أخبار الأيام مثلاً) وكما يتضح من الاصحاح الثامن من سفر صموئيل الأول فإن رغبة بنى إسرائيل فى اتخاذ ملك لهم لم تلق الرضى بل هى مدانة ومذمومة وقد عاد ميلتون إلى نفس الفكرة فى الفردوس المفقود - فى الكتاب الأخير - حيث يقول ما موجزه :

عندما اقترف الإنسان الخطيئة الأولى ، أضاع حريته الحقيقية وهى صنو العقل الصائب وتوأمه ، ولا وجود لها دونه فإذا اكتتفت الظلمات عقل الإنسان ، أو إذا عصى الإنسان عقله فسوف تنشب الرغبات الجامحة والانفعالات الجائحة لتستحوذ على الحكم وتبعده عن العقل ومن ثم تخضع للإنسان للرق وتستعبده بعد أن كان حراً ولهذا فإذا سمح الإنسان للقوى الحيطية فى باطنه أن تتحكم وتتسلط على العقل الحر فإن الله بحكمه العادل يخضعه فى حياته الظاهرة لتسلط الأسياد العتاة الذين غالباً ما يستعبدونه دون وجه حق ويحرمونه من الحرية فى حياته الظاهرة وهكذا ينشأ الطغيان حتماً ولو كان من المحال التماس العذر للطاغية.

(١٢/٨٣-٩٦)

وميلتون يقصد «الضمير» حينما يتكلم عن العقل الصائب كما أنه يقصد بالطاغية كل ملك يحكم دون الرجوع إلى هذا الضمير . وفى الوقت الذى انشغل فيه بكتابة النشرات والكتيبات كان الملك شارل الأول يمثل «الآسياد العتاة» الذين يتحتم وجودهم فى الأمم التى تنصرف عن نور الله ولكن - كما

يقول - لا يمكن التماس العذر للطاغية ، وهكذا ساهم ميلتون فى هذه المعركة الفكرية التى تحولت بالفعل إلى معارك حرية طاحنة تشكلت فيها جيوش للبرلمان وجيوش ملكية ، ودارت رحاها على مدى سنوات طويلة .

وفى هذه الأثناء فاجأ ميلتون أبناء أخته الذين كانوا يقيمون معه فى لندن بزواجه من فتاة تدعى (مارى باول) والظاهر كما يقول المؤرخون أنه كان قد قضى شهراً لدى أسرتها إما ليسترد النقود التى كان قد أقرضها لوالد (مارى) أو ليتم مراسم القران وذلك فى مقاطعة (أكسفوردشير) . وكان ذلك زواجاً غريباً إذ إن أسرة (مارى) كانت تناصر الملكية ولم يكن ثم وفاق بين ميلتون وزوجته فلم تدم حياتهما معا فى البداية إلا شهراً . وبعد عدة أسابيع من انعدام التفاهم وانصرافه إلى كتبه ولضييقها بهذه الكتب وربما لضييقه بأفكارها المحدودة أيضاً طلبت إليه أن تعود إلى (فورست هل) لزيارة أهلها فوافق بشرط أن تعود بعد قليل ولكنها ذهبت ولم تعد . وظل يكتب متوسلاً إليها أن ترجع ولكنها لم تلق إليه بالاً وتجاهلته تماماً . وهنا كتب كتيباً بعنوان مبدأ الطلاق ونظامه (١٦٤٣) يدافع فيه عن الطلاق . ويقول (ادوارد فيليبس) ابن أخته إنه كان متأثراً فيه بأزمته الشخصية ولكن النص نفسه يوحى بأن الشاعر كان يحس أنه قد أخطأ فحسب ومن ثم أراد تصحيح الخطأ . والطريف أنه كان يريد من البرلمان تعديل قانون الطلاق حتى يتحلل من زواجه بمارى فلما فشل فى ذلك قرر تحدى القانون واتخاذ زوجة أخرى له . ولما تنهى ذلك إلى أسماع مارى قررت أن تعود إلى زوجها وبالفعل فاجأته مارى أثناء زيارته لأحد الأصدقاء وتوسلت إليه أن يعيدها إلى منزل الزوجية . وبعد تردد وتفكير قبل أن تعود .

ولكن قصة دفاعه عن الطلاق لم يكتب لها أن تنتهى بعودة المياه إلى مجاريها إذ إن الكتيب الذى نفذ عن آخره كان غفلاً من الاسم ولذلك وبعد نفاد نسخه جميعاً أصدر ميلتون طبعة ثانية مزينة منقحة - كما نقول اليوم - وعليها اسمه ولم تمض خمسة شهور حتى بدأت ردود الفعل لهذا الكتاب

الثورى . فقام أحد القساوسة من المشيخيين بمطالبة البرلمان بإحراق هذه الطبعة . ويبدو أن البرلمان كان متعاطفاً مع ميلتون لمناصرته إياه ضد الملك فلم يستجب للنداء ولكن هذه الحادثة جعلت شركة المكتبات Company of Stationers (التي كانت تحتكر تراخيص النشر بصورة غير رسمية وتقوم بعمل يوازي عمل الرقابة على المطبوعات فى عصرنا هذا) تنبه إلى حقيقة الموقف وهو أن عدداً كبيراً من المطبوعات كان يرى النور ويوزع على نطاق واسع دون ترخيص . والحقيقة أنه عندما قام البرلمان الطويل بإلغاء البلاط الملكى عام ١٦٤١ ألغى معه « غرفة النجوم » وهى الهيئة التى كانت تتولى رسمياً الرقابة على المطبوعات بدلاً من الشركة . ولذلك فقد كانت ثم ثغرة زمنية بين إلغاء الغرفة وعودة الرقابة - رسمياً هذه المرة - إلى الشركة ، وهى الثغرة التى سمح فيها بنشر مؤلفات ميلتون ومع ذلك ، وبالرغم من عودة الرقابة إلى الشركة فإن البرلمان سمح له بنشر مؤلفاته أو قل تغاضى عنها للسبب الذى ذكرناه . ولكن ميلتون لم يكن قانعاً بأن يسمح له وحده بالنشر وإنما كان ينشد الحرية للجميع فأخرج كتابه الشهير أريوباجتيكا دفاعاً عن هذه الحرية . والكتاب يتضمن هجوماً على التعصب المشيخى وتأكيداً لحرية الاختيار لدى الإنسان (وهو مذهب يعارض مذهب التسيير لدى أتباع كالفن) ويعتبر بحق نموذجاً لآراء ميلتون الخاصة فى الإرادة البشرية الحرة وهى الآراء التى جسدها فيما بعد فى الفردوس المفقود .

يقول ميلتون فى إحدى الفقرات من هذا الكتاب :

ليست الكتب كائنات ميتة تماماً بل إن بها حياة كامنة شأن أرواح من كتبوها . إنها لتحفظ أنقى عصارة وفعالية للذهن الحى الذى أنتجها كأنما هى قنينة محكمة . وإنى لأعرف مدى حيويتها وقدرتها على التكاثر فكأنما هى أسنان ذلك التنين الخرافى ، التى يقال إنها كانت تُغرس فى الأرض فينبت فى أماكنها رجال مسلحون . ومن ناحية أخرى

يجب أن نلتزم الحذر لأن قتل الكتاب الجيد يماثل قتل الإنسان بل إن من يقتل إنساناً لا يعدو قتل مخلوق عاقل صورته البارئ في صورته أما من يهلك الكتاب فإنه يقتل العقل نفسه وصورة الله في الصميم .

ويقول في فقرة أخرى :

نعلم أن الخير والشر لا ينفصلان في هذا العالم مثلهما مثل الشجر الملتف الأغصان في حقول هذه الدنيا وإدراك الخير مشتبك مع إدراك الشر ومختلط به بل إنهما كثيراً ما يشتبكان ويشتهان حتى يصعب التفريق بينهما . وما أشبه ذلك بالعقاب الذي أنزل على (سايكى) حين قدمت إليها بدور متنوعة مختلطة وفرض عليها أن تفصل بين كل نوع منها . لقد تسبب مذاق تفاخه واحدة في جلب المعرفة بالخير والشر إلى هذا العالم باعتبارهما توأمين ملتصقين . وربما كان هذا القدر الذي الساق إليه آدم بمعرفة الخير والشر هو أن يعرف الخير عن طريق الشر . ومن ثم فإن حال الإنسان اليوم يطرح السؤال التالي : أنى لنا أن نتأني حكمة الاختيار، أو الفضيلة والصبر دون أن نعرف ما الشر ؟

وفي فقرة أخرى يقول :

ينعى الكثيرون على العناية الإلهية أن تركت آدم يقترب الإثم ! ما أحق تلك الألسنة ! إن الله حين وهب العقل وهبه في الحقيقة حرية الاختيار فما العقل إلا الاختيار .

ثم يتناول موضوع الرقابة على المطبوعات مباشرة على ضوء ما سبق فيقول :

فلنفرض أننا استطعنا أن نناهض الرذيلة بهذه الوسيلة (أى الرقابة على الكتب) : لنوازن إذن بين مقدار ما نناهض من الرذيلة وما نناهض

من الفضيلة إذ إنهما متوازيتان : فإذا قضيت على الأولى قضيت عليهما معا . وهذا يبرر العناية الإلهية العليا للبارئ فهو يأمرنا بالإعتدال والعدل والتعفف ومع ذلك يغدق علينا من النعم والרגائب ما يفوق كل وصف ، ويهبنا عقولا تصول وتجول فتتخطى كل حدود وكل إشباع .

وباختصار فإن ميلتون يبرز في هذا الكتاب مساوئ الرقابة باعتبارها وصاية لا تليق من قبل سلطة تزعم لنفسها المعرفة بالخير والشر دون الناس أجمعين ويتكرر ذكر التشبيه بالمدرسة وبالعصا كما يتردد ذكر الحاجة إلى ترك الحقيقة لتفصح عن نفسها - وهل من المعقول أن تندحر الحقيقة في معركة خرة ؟ ومع ذلك فهو لا يطالب بالحرية المطلقة أى التى لا تعرف القانون أو النواميس الخلقية ولذلك فهو يقول إن القانون يجب أن يحرم الإلحاد والتشهير بالأبرياء واستخدام الألفاظ الفاحشة كما ينبغي أن يحرم الدعوة إلى ما يدين به الأعداء أو ما يدعو إلى التعصب إذ إنه ثم ما يمكن تسميته بحرية التعصب (ولهذا فهو يرفض الدعوة إلى الكاثوليكية) وفيما عدا ذلك يطالب بالحرية الكاملة للكتب والمطبوعات على اختلاف ألوانها .

والحق أن ميلتون كان يشعر آنذاك بسعادة غامرة مبعثها الأمل الذى أشرق فى نفسه منذ أن أعلنت الحرب بين الملك والبرلمان - الأمل فى أن تتصير الجمهورية ويسود الخير والعدل وكل القيم العليا التى تدعو لها الأديان السماوية - وما أشبه إحساسه آنذاك بما أحسه (وليم وردزورث) عندما نشبت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ! لقد أحس بأن « فرنسا تقف على أعتاب العصر الذهبى وأن الطبيعة البشرية تشهد ميلادها الجديد ! » - ولكن ميلتون كان يحس الآن أن كلمة الله توشك أن تصبح الكلمة العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقد أعرب عن هذا الأمل الغامر فى كتيب كان قد أصدره عام ١٦٤١ بعنوان الإصلاح الدينى ونظام الكنيسة فى بريطانيا - وكان هذا الإحساس هو الذى أوحى إليه فى هذه الظروف بفكرة الفردوس المفقود

فكأنما كان الأمل فى استعادة الفردوس براقاً وضأً غامراً وكان يحس أنه يعيش أحداث مسرحية كبرى لابد أن تنتهى نهاية سعيدة .

انظر ما قاله فى هذا الكتيب :

وسط ترانيم القديسين وتهليلهم وتكبيرهم ، ربما سمعنا صوتاً يعرض أن ينشد أنغاما عليا ، وألحانا جديدة سامية يحتفل فيها برحمتك التى وسعت كل شىء وحكمتك وحكمك البديع فى هذه الأرض على مر العصور ، فإذا بهذه الأمة العظيمة المحاربة التى تدربت وتعلمت فن إعلاء الحق والخير بحمية وإخلاص ومثابرة ، وقد نزعنا عن نفسها مثالب الرذيلة القديمة .

ولا شك أن تأخير كتابة الفردوس المفقود إلى ما بعد عودة الملكية قد صبغ الملحمة بصبغة مأسوية وقد كان ميلتون يريد لها أول الأمر أن تكون مسرحية من نوع التراجيديا ثم رأى من الأفضل كتابتها فى قالب ملحمة .

ولا يهمنا الآن أن نرصد تفكير ميلتون فى هذه السنوات العاصفة أى سنوات حكم (كرومويل) - منذ إعدام الملك شارل الأول فى ٣٠ يناير ١٦٤٩ وحتى عودة شارل الثانى ملكا فى ٢٩ مايو ١٦٦٠ - ويكفى أن نذكر أنه ارتبط بالنظام الجمهورى ارتباطا وثيقا إذ عينه مجلس الدولة (يقابل مجلس الثورة فى أيامنا هذه) فى منصب (أمين المجلس للغات الأجنبية) وكانت مهامه تتضمن كتابة الرسائل باللاتينية إلى الدول الأوروبية ، وترجمة ما يتطلبه المجلس من نصوص إلى هذه اللغة ومنها ، فكان أشبه بالمدافع الرسمى (إعلاميا) عن النظام الجمهورى . وقد ركز فيما كتبه فى هذه الفترة على الحكمة البادية فى الإطاحة برأس الملك وعلى مناحى العدالة والحق فى السياسة التى يتبعها المجلس . وقد أجهد نفسه فى هذا السبيل إجهادا كبيرا حتى جاء اليوم الذى

أحس فيه أنه يفقد بصره بالتدريج وبالفعل لم ينقض عام ١٩٤٩ إلا وقد ذهب بصر إحدى العينين .

وفى عام ١٦٥١ فقد ميلتون بصره تماماً ومع ذلك فقد كان مستمراً فى كتابة النشرات والكتيبات دفاعاً عن النظام الجمهورى ودحضاً لحجج أنصار الملكية وهى الحجج التى كانت تتناقلها أوروبا بإيعاز من شارل الثانى الذى كان يعيش لاحقاً طول هذه الفترة فى فرنسا . وبعد ذلك بعام توفيت زوجته ماري تاركة له ثلاث بنات . وقد أثر عليه فقد البصر ورحيل زوجته فقل نشاطه السياسى خاصة أنه قد أحس أنه قد أتم دفاعه عن الجمهورية وأنه قد أدى واجبه وقام به خير قيام - ويمكننا أن نقول بصفة عامة إنه قد توقف عن كتابة النشرات العنيفة بعد عام ١٦٥٥ . وفى عام ١٦٥٦ - بعد أربع سنوات من وفاة زوجته - تزوج للمرة الثانية . وكانت خير القرين لهذا الرجل الحاد الطبع الذى يعانى الأمرين من فقدان البصر ومن تبعات منصب لم يعد قادراً على النهوض به . ولكن الهناء لم يدم طويلاً إذا توفيت فى عام ١٦٥٨ أثناء الولادة (وتوفى المولود أيضاً) وهو نفس العام الذى مات فيه أوليفر كرومويل . ولا يستطيع قلم تصوير مدى معاناة هذا الشاعر الكفيف ذلك العام ومدى إصراره على العمل لإنقاذ الجمهورية من الفوضى التى انحدرت إليها بعد وفاة الزعيم المهاب . والروايات التى وصلتنا عن حياته فى تلك الفترة متضاربة ولكننا نستطيع أن نحس أنه بدأ يحس أن النظام الملكى لابد عائد وأن أعداء الجمهورية لابد متصرون ، ولهذا أصدر المزيد من الكتيبات التى تدافع عن كرومويل وتقاوم حركة إعادة الملكية .

وعشية عودة الملكية فى عام ١٦٦٠ أصدر ميلتون كتيباً عنوانه «الطريق الممهّد السهل لإنشاء جمهورية حرة» - كأنما يحاول لآخر مرة أن يقنع مواطنيه بالمنطق وبالعقل ألا يذعنوا للرجعية القادمة . ولكنه نسي أو لعله لم يدرك فى غمرة حماسه للنظام الجمهورى ما تكبده الناس من عناء فى سبيله

والولايات التي جرت عليها الحرب الأهلية الطاحنة بل ونزوعهم إلى الاستقرار ولو في ظل حكومة ملكية ظالمة . ويكفى أن نورد صورة عامة لحال إنجلترا في ظل حكومة كروموويل وتسلط البيوريتانية لنرى مدى ضيق الناس بما كان ميلتون يدافع عنه .

كانت البيوريتانية قد بلغت ذروتها في عام ١٦٥٠ - ونقصد بالذروة تحول المشاعر الدينية المستلهمة من الكالفينية (انظر الجزء الأول من هذه المقدمة) إلى أنماط سلوكية محددة . فقد سادت البيوريتانية الطبقات المتوسطة أما الطبقات الفقيرة فقد انحازت إلى المذاهب المعارضة (العماديون والكويكرز أو الكاثوليك) وأما الأرستقراطية القديمة والأعيان (أى الملاك الذين لا ينحدرون من أسر أرستقراطية) فقد تمسكوا بالكنيسة الإنجليكانية التي رفضتها الجمهورية . وبعد أن كان البيوريتانيون ينادون بالتسامح أصبحوا يتعصبون أشد التعصب لمذهبهم ولا يرتضون سواء ويضطهدون كل من يخالفهم . وكانوا يدعون الناس إلى إنعام النظر فى الكتاب المقدس وبخاصة فى العهد القديم لأنه يمثل مجتمعاً يعيش فى ظل الله أى فى ظل الإحساس بالدار الآخرة ودنو يوم الحساب . وكان ما يشغل البيوريتانيين فى شتى مناحى السلوك هو قهر الشيطان الذى لا ينى يطارد الإنسان ويتربص به حتى يجره إلى نار جهنم ولذلك كانوا يتجنبون كل ما ارتبط فى أذهانهم بالفتنة أى الانغماس فى الملاذ الحسية التى يقدمها الشيطان ليضل بها عن سبيل الله ، فابتعدوا فى حياتهم عن الملابس المترفة المعقدة التصميم أو ذات الزخرف والبهرجة ، وحبذوا الملابس البسيطة ذات الألوان القاتمة أو الرمادية كما نهجوا فى حديثهم منهج التفكير والتعقل كأنما كانت كل لفظة يلفظونها درة بها عصارة الحكمة ولذلك فتصويرهم فى الأدب يوحى بالرزانة والرصانة ، وكانوا يدعون إلى البعد عن الهزل والمرح وإلى التزام الوقار والجد ، ومن ثم فعلى المؤمن فى نظرهم أن يبتعد عن اللهو واللعب وأن ينحصر تفكيره فى المصير الجاد الذى ينتظره بعد الموت .

ولما كانت المسارح قد أغلقت بسبب الحرب عام ١٦٤٢ لم يكن هناك فى ظل هذا الجو القاتم الكئيب ما يدعو لإعادة فتحها حتى بعد انتصار الجمهورية- فظلت مغلقة حتى عام ١٦٥٦ - وإلى جانب ذلك نزع البيوريتانيون إلى تحريم كل ما يتصل بالفن من لهو ولعب فخرجت كتاباتهم جادة صارمة ، وتغلغلّت هذه الروح إلى نظرتهم للفن نفسه فأعادوا النظر فى معنى الجمال باعتباره فتنة تصرف الإنسان عن تأمل ما بعد الموت والدار الآخرة ولذلك لم يكونوا يحترمون جمال المرأة - فالمرأة فى نظرهم أم وزوجة صالحة فحسب ، أما المفاتن التى تحدث عنها الشعراء فهى المفاتن التى أخرجت آدم من الجنة ولذلك فلا بد من مقاومتها حتى يستطيع الإنسان أن يعود إلى الجنة . وقس على هذا نظرتهم إلى الموسيقى والرسم والتمثيل فكلها فنون لهو وعبث . وباختصار فقد كان حكم البيوريتانيون حكم قتامة وجهامة لم يكن الجميع بقادرين على تحمله .

ويكفى لتصوير معاناة الطبقات الفقيرة أن نذكر السلطة التى خولها كرومويل للشرطة وهى سلطة التأكد من التزام الأهالى بالتعاليم الدينية (كالصوم مثلاً) ولو اقتحموا البيوت لهذا الغرض ، ومنع أى نشاط تجارى أو صناعى أو غيره يوم الأحد ومنع السير «دونما هدف محدد» كأنما هو لون من ألوان اللهو ، ولذلك لجأ الكثيرون إلى النفاق ونشأت عادات اجتماعية جديدة مثل ترديد الآيات من الكتاب المقدس فى كل مناسبة ، والتذكير بالبعث والحساب والعقاب ، ومحاولة الانتصار فى أى مناقشة بالرجوع إلى الكتاب المقدس باعتباره الكتاب الذى يتضمن فصل الخطاب فى أى موضوع .

والغريب أن هذا كله كان يجرى باسم الحرية . ويكفى أن نذكر فقرة من الكتاب الثانى من «الفردوس المفقود» لتصوير نوع المناقشات التى كانت تجرى آنذاك على مستوى رجال الكنيسة الكبار :

وجلس آخرون فى عزلة على تل بعيد
يتطارحون أفكاراً أسمى وآراء أعمق
عن العناية الإلهية والعلم الأزلى والإرادة والقدر
القدر الذى لا يحول والإرادة الحرة والعلم الأزلى المطلق
فلم يهتدوا إلى شىء بل ضربوا فى الشعاب فضلوا وما اهتدوا

الآيات ٥٥٧ - ٥٦١

ويقول أحد الشراح إن هذه الآيات تنطبق على المناقشات التى كانت تدور
فى مجمع (وستمنستر) للمشيوخين الذين كانوا يحاولون ضم كنيسة إنجلترا إلى
المشيخية . ولكن الواضح أن هذه القضايا التى كانوا يناقشونها لم تكن
لتفضى إلى شىء حقاً ولذلك فإن ميلتون ينسبها هنا إلى الملائكة الفسقة .

وبعودة الملكية انطوت صفحة تاريخية نادرة من التاريخ الإنجليزى وأحس
ميلتون بالمرارة ولكنه لم يستسلم أو يسلم بالهزيمة . بل إنه أصدر طبعة ثانية
من كتابه الذى ذكرناه «الطريق الممهد السهل لإنشاء جمهورية حرة» . يحذر
فيها البرلمان من أن الملك لن يفى بالوعود التى يقطعها على نفسه ، ويقول
إنه وإن كان الشعب يريد للملك أن يعود فليس من حق الأغلبية أن تفرض
على الأقلية المتنورة آراءها المضللة وقد استند فى هذا أيضاً إلى فكرة الحرية
لأنه لا يمكن التضحية بحرية الأقلية إرضاء لرغبة الأكثرية . وقد كانت هذه
الطبعة سبباً فى إثارة أنصار الملكية العائدة عليه ، فأودع السجن وظل به ثلاثة
أشهر حتى توسل بعض الوسطاء إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وفقدانه
البصر ويخرجه من السجن وفعلاً خرج ميلتون من السجن فى آخر عام ١٦٦٠
(١٥ ديسمبر) وكأنما كان القدر يهيئ له هذه الفرصة حتى ينصرف إلى كتابة
العمل العظيم الذى كان قد نذر حياته له فانقطع للكتابة . وبعد عامين تزوج

من اليزابيث منشل (١٦٦٣) وكانت بارعة فى إدارة منزله وكانت بصفة عامة خيراً وبركة عليه إذ تحملت كل شيء حتى ترضيه ، كما تحملت بناته الثلاث طباعه الحادة وطالما اشتكين من قسوته وغلظته فى تلك الأيام ، ويكفى أن نذكر أنه كان يجبرهن على القراءة له بلغات لا يجدنها .

وفى عام الطاعون (١٦٦٥) انتقل ميلستون إلى بيت أجد أصدقائه من الكويكرز وهو منزل صغير فى الريف الانجليزى حيث عكف على ملحمته فأكملها ونشرت فى عام ١٦٦٧ . ومع بلوغه سن الستين ارداد نشاطه الأدبى فكتب عودة الفردوس وشمشون الجبار ونشرهما فى عام ١٦٧٠ ولم يعمر بعد ذلك طويلاً إذ وافته المنية فى نوفمبر ١٦٧٤ وهو يناهز السادسة والستين .

٣

ربما بدا للقارئ أن هذه الأحداث الجسام التى شهدتها بريطانيا فى القرن السابع عشر ، وبخاصة ذلك الانشغال الذى لم يسبق له مثيل بالدين ، لا يتفق مع ما يقال من أن ذلك العصر هو عصر العلم والتنوير . وربما تسائل متسائل كيف يمكن أن يزدهر العلم الطبيعى الذى يقوم على استقرار الحواس ويعتمد على المادية الخالصة فى هذا الجو المشحون بذكر الحساب والثواب والعقاب؟ وسوف نتبين أنه لم يكن ثمة تعارض على الإطلاق إذا ذكرنا أن المصدر الأساسى لفلسفة العصر (وإن لم يكن المصدر الوحيد) هو الفيلسوف الكبير (ديكارت) فإذا كانت بريطانيا تفخر بأحد المفكرين الذين صوروا روح العصر خير تصوير ألا وهو (توماس سبرات) مؤلف كتاب تاريخ الجمعية الملكية ، فإن جوهر نظريته مستمد من كتابات (ديكارت) ويتلخص هذا الجوهر فيما يلى :

يقول سبرات إن هذه الجمعية العلمية قد حذفت من برنامجها موضوعين أساسيين هما الله والنفس لسبب بسيط وهما أنهما بديهيتان . فإذا كان من البديهي أن الله والنفس موجودان فلماذا نشغل أنفسنا بهما ؟ إن تأمل الإنسان

ذاته واستبطانه كيانه كفيل بهدايته إلى هذه الحقيقة الأولية التي لا يتطلب إدراكها الانكباب على الدرس أو تجارب المعمل . أضف إلى ذلك أن أفضل وسيلة لمعرفة الخالق والاهتداء إلى سبيله القويم هي تأمل ما خلق وتدبر آياته في البر والبحر . ومن ثم فإن الفلسفة (أى علم تأمل الكون) تهدي للدين القويم بعد أن كان الشعراء القدماء يقومون بهذه المهمة فى الماضى .

وبداهة وجود الله - كما نعرف - فكرة ديكارتية . وكان معاصرو (ديكارت) يرون أن المزية الكبرى لمذهبه هي أنه ، على رفضه القاطع للتقاليد الاسكولائية ، يبقى على جوهر العقيدة الدينية ألا وهو الإيمان بالله . والواقع أن (ديكارت) قد أوضح أن الفكر الجديد يقيم أسسه على افتراض بداهة فكرة الألوهية ومن ثم فهو يدعمها تدعيما كبيرا بل إنه اجتذب إلى مذهبه الفلاسفة الأفلاطونيين الذين اقترن اسمهم بجامعة كيمبريدج لأنهم كانوا يريدون أن يمزجوا بين الدين وبين أفضل المذاهب الفلسفية فى عصرهم .

ومن المنيع الديكارتى نهل عدد من مفكرى القرن السابع عشر الذين احتفلوا بمشرق التنوير وأولهم (سبرات) كما ذكرنا فكتابه المذكور يشترك مع كتاب «عبث الدجماطيقية» لمؤلفه (جوزيف جلانفيل) فى الاحتفال بانتصارات العلم الحديث وإرساء الحقيقة على أسس ثابتة ، وإطرائه على أولئك الذين أراحوا «قمامة العصور الخوالى» وحرروا أذهاننا من سحر الأشباح الخاوية وفى العديد من فقرات الكتاب يفصح (سبرات) عن مزاج عصره بالدفاع عن دور النثر فى «عصر العلم والتنوير» ويطرح جانبا وفى نبرات واثقة وعنف كبير خيالات الشعراء «الخواوية» . وهو يبرر وجود الشعر أول الأمر تبريرا منطقيا يتفق مع روح عصره إذ يقول إن العلم قد نشأ أول الأمر فى الشرق وفى بلاد اليونان القديمة ، وكان الحكماء والفلاسفة آنذ يريدون أن يوضحوا أفكارهم للقراء كما كانوا يريدون أن يتقبلها القراء فاستعانوا بالرمز أى أنهم «قدموها ممزوجة بالخرافات وزخرف الخيال» ولذلك فقد كان أوائل علمائهم من

الشعراء والفلاسفة فى نفس الوقت أو قل إن الشعراء كانوا فلاسفة يرتدون قناع الشعر. فكان (أورفيوس) و (لينوس) و (هوميروس) مثلاً يستعينون بسحر النظم فى شعرهم وجمال الصور الخيالية لتقديم الأفكار الفلسفية التى أتى بها (صولون) و (طاليس) و (فيثاغورس). وقد نجح هذا فى البداية لأن الخداع كان يرمى إلى الهداية ولكنه أحدث تأثيراً ضاراً فى فلسفة اللاحقين إذ جعل اليونان مثلاً يتأملون الطبيعة لا فى نطاق المنطق العلمى بل فى إطار هذه الخرافات الشعرية التى حلت محل الفلسفة .

وقد أكد هذا الهجوم على الشعر باعتباره منافياً للحقيقة والصدق ، ما كتبه هنرى رينولدز فى كتابه ألغاز الأساطير من أن الخرافات جميعاً قصص رمزية عميقة فهى لا ترمز فقط للحقائق الخلقية بل تتعدى ذلك إلى الفلسفة الطبيعية فالأساطير ألغاز ومهمتنا فى هذا العصر العلمى - كما يقول - هو أن نفسر هذه الألغاز تفسيراً صائباً يتفق مع روح العصر، ولن يتأتى ذلك إلا بالعودة إلى الطبيعة حتى ننظر إلى الحقائق وجهاً لوجه بدلاً من الاستعانة بالرمز والخرافة- فما الرمز والخرافة إلا مرآة داكنة تظهر الصور والأشباح ولا تبدى الحقيقة والجوهر .

ويتفق فرانسيس بيكون فى مقدمته لكتاب حكمة القدماء مع (رينولدز) فى أن الشعر لم يعد صالحاً للاستعمال بالصورة التى وضعها الأقدمون أى إنه لم يعد صالحاً لتوصيل الأفكار العميقة وتجليات الحقيقة. صحيح أن منشد الشعر كان يشبه من «يقرع الطبل ليوقظ الذهن والوعى والعقل أيام طفولة المجتمع المتحضر ولكن الذهن قد استيقظ الآن ولم يعد بنا حاجة إلى الشعر» . وكان بيكون يؤكد أن الشعر «تاريخ زائف» سواء كان قصصياً أم درامياً أم رمزياً أما ضروبه الأخرى من هجاء ورثاء وإيجرام وشعر غنائى - فهى تنتمى جميعاً فى رأيه إلى فنون القول أو التعبير . أى أنه كان يفرق بين هذه الفنون الأخيرة باعتبارها مجالات للإبداع اللغوى وبين القصص الشعرية أو الدراما الشعرية

باعتبارها أمثالا أو رموزاً ترمى إلى إيضاح الأفكار الغامضة لغير المتعلمين أو إلى تقديم الدروس الأخلاقية ذات الفائدة المباشرة . ولكن سيكون يقول في كتابه الأشهر «تقدم المعرفة» (٢ - ٤) .

ومع ذلك فإننى أميل إلى القول بأن الخرافة فى كثير من الأحيان قد سبقت الدرس الأخلاقى أى إن القصة التمثيلية قد أتت أولاً ثم تلتها العظة المستفادة منها .

وبإيجاز يمكننا أن نقول إن روح العصر التى اكتست ثوباً علمياً صارماً كانت ضد الشعر باعتباره عدواً للحقيقة والواقع ، أى إنه سجل لا كاذب وترهات عصر غير علمى . ويلخص البروفسور (بازيل ويلى) هذا الاتجاه فى كتابه «خلية القرن السابع عشر قائلاً :

إن تطور الشعر الإنجليزى منذ عصر النهضة قد صاحبه جهد دائم وإصرار عنيد على التوصل إلى صورة حقيقية للعالم فى ضوء العلم الطبيعى . وقد شهد القرن السابع عشر هذا الجهد الذى تجلّى فى الفصل الحاسم الدقيق بين الحقيقة والخيال بغية تقديم صورة فلسفية للعالم تختلف عن الصور القديمة المتوارثة . ومن ثم فقد أصبح وضع الشعر غير آمن لأن الفكر فى الشعر ليس نقياً أى أن الأفكار فى الشعر ليست فقط ثمرة للنشاط العقلى وإنما تخضع أيضاً للمشاعر والإرادة أو كما يقول فرانسيس بيكون «إن الشعر يخضع مظاهر الأشياء لرغبات الذهن» وهذا هو النقيض لما نسميه العلم الطبيعى . وهكذا فقد بدا للعديد من الفلاسفة أن الشعر هو عدو الحقيقة أو عدو الصدق . ولا شك أن مكانة الشعر قد هبطت وتضاءلت فى القرن السابع عشر لأن الثقة التى يكتب بها الشعر فى عصر ما تتوقف على درجة اليقين أو الشك إزاء القضايا المطلقة ومن ثم فإن نغمة الشعر وإيقاعه وصوره متفاوت

بحسب المرحلة التي وصل إليها تطور موقف الإنسان من التصديق أو التكذيب . ومعنى هذا أن الشاعر الذي يشعر أن تركيباته الشعرية صادقة مثلما هي معبرة يكتب في الحقيقة شعرا يختلف عن شعر الشاعر الذي يحس أن هذه التركيبات كاذبة أى إنها تسيء تقديم الواقع مهما كانت درجة رمزيتها لهذا الواقع بل إن شعره يختلف أيضاً عن شعر من لم يتبناه يوماً إلى الفاصل بين الحقيقة والخيال أو متى بدأ هذا الفاصل في التلاشى حتى يلتقى الاثنان . وفي القرن السابع عشر اشتد الاتجاه نحو تخصيص الفلسفة لمعالجة الواقع أو الحقيقة نثراً وحصر دور الشعر وقصره على الإمتاع وذلك بالتصوير الذي يسر القلب والذهن دون أن يخدع القارئ فيتصور أن الخيال حقيقة.

ومن ثم فيمكننا تحديد الملامح الأساسية للمناخ الفكرى فى عصر ميلتون على هذا النحو : كان انشغال الناس بالعالم الجديد الذى يتفتح أمامهم عن طريق العلم الطبيعى (والاكتشافات الفلكية والجغرافية إلخ) مدعاة للانشغال بالواقع والإصرار على الوصول إلى «الحقيقة» ولهذا رفض كبار المفكرين «خيالات الشعراء» وفى الوقت نفسه ازداد انشغال الناس بالدين والدار الآخرة ولم يكونوا بقادرين على الشك فى أن الدين صادق والدار الآخرة حقيقة ومن هنا كان لابد من التوفيق بين العلم والإيمان . وإذن كان على الشعراء إذا كانوا يطمحون فى النجاح إما أن يقبلوا مبدأ الصدق العلمى أى التخلّى عن المجاز (من استعارة ورمز وتشبيه وأسطورة إلخ) والنزوع إلى التعبير الحقيقى - ولم يكن هذا بيسير ، وإما أن يسخروا شعرهم لتمجيد الدين ولم يكن هذا باليسير أيضاً ولعلنا نذكر البيتين الشهيرين للشاعر الميتافيزيقى جون دن :

إن الفلسفة الجديدة تدعو إلى الشك فى كل شىء

وهكذا انطفأ عنصر النار من حياتنا تماماً.

أى إن قبول الفلسفة الجديدة بما تتطلبه من بحث عقلانى وخضوع لمنطق
الحواس قد أطفأ فى الإنسان الجذوة التى ورثها عن أسلافه - جذوة العاطفة
التي تمكن الإنسان أن يتناول أبعد الأشياء عن التصديق فيصدقها لأن مشاعره
(أى عنصر النار فيه) ما زالت متوهجة. ويجعل بنا قبل أن نتعرض لمعنى
«الملحمة» أن نلقى بمزيد من الضوء على موقف ديكارت . يقول (بازيل
ريلى) فى نفس الكتاب :

من المحتمل أن تأثير ديكارت على الفكر فى عصره لم يكن فى
صالح الدين ولا فى صالح الشعر على المدى الطويل . وربما كان
رفض (هنرى مور) لمذهب (ديكارت) مدفوعاً بإدراكه لهذه الحقيقة :
ولا يدرك المرء لأول وهلة كيف يمكن لمذهب يقول بأن الله والنفس
هما أول آيات اليقين أن يناصب الدين العداء أو أن يكون ضد الشعر
ولكن الدهشة ستزول إذا تذكرنا أن مفهوم (ديكارت) لله وللأنا يعتمد
على تجرييدات ذهنية أى إن الله الذى يراه لا علاقة له بالتجربة الدينية
الحقيقية وإن مفهومه للأنا لا يزيد عن كون الأنا الجانب المفكر فى
الإنسان وإذن فإن اليقين من هذه الحقائق معناه فى نهاية المطاف اليقين
من علم الرياضيات وحسب .

... ..

والواقع أنه مع بداية القرن الثامن عشر تحول الدين إلى مجرد
إيمان مبهم بالله وتحول الشعر إلى مصدر للإمتاع أى فن يقدم ألوان
الزينة والبهرج التى تمتع الخيال بينما يدرك الذهن أنها لا علاقة لها
بالواقع . فهذا هو درايدن يقول فى دراسته «دفاع عن الشعر البطولى
والمجاز الشعري» - «إن الصورة تسرنا وتمتعنا دون أن يخدعنا الخيال
الذى تقوم عليه» أى إن الروح الديكارتية عملت على الفصل الحاسم

بين مجال النشر ومجال الشعر ومن ثم ساهمت في الإسراع بذلك
 الإنقسام الشعوري الذي قال (إليوت) إنه وقع بعد عهده الشعراء
 المبتاعين . أى إنه كان انقساماً بين القيم وبين الحقائق أى بين
 إحساسك باعتبارك إنساناً أو شاعراً وبين فكرك باعتبارك رجل عقل
 وحكم وتنور . وبعد أن كان الإنسان (مثل الشاعر جون ها دن أو الكاتب
 سير توماس براون) يفكر ويحس فى نفس الوقت نثراً أو شعراً أصبح
 عليه أن يفكر نثراً ويحس نظماً .

... ..

إن الإحساس بأنك إذا أدركت شيئاً بوضوح وجللاء فإن هذا
 الشيء حقيقى معناه أن بناء الأشياء يتفق مع قوانين الذهن البشرى
 والنقيض هو أنك إذا لم تستطع أن تدرك شيئاً بوضوح وجللاء (أى إدراكاً
 رياضياً) فلا بد أن يكون هذا الشيء غير حقيقى . وهكذا فإن الفكر
 الديكارتى قد دعم الإتجاه إلى قبول الصورة العلمية للعلم باعتبارها
 الصورة الحقيقية الوحيدة ... ولما كان الدين والشعر (ههما كانت
 مفهوماتنا لهما) ينبعان ويعتمدان على مناهج للمعرفة تختلف عن هذا
 كله فإن الروح الديكارتي كانت ضدهما جميعاً .

ولنا أن نتساءل الآن : إذا كانت هذه القوى العلمية والفلسفية قد تضافرت
 للعمل معا للتوصل إلى « الحقيقة » ولإثبات أن الصور الشعرية التقليدية بل
 (والصور الدينية أيضاً) عبارة عن خيالات عفى عليها الدهر وأوهام مقضى
 عليها بالزوال ، فكيف تأتى للقرن السابع عشر أن يخرج ملحمة الفردوس
 المفقود - وهى القصيدة التى وصفها درايدن نفسه بأنها « من أعظم وأشرف
 وأسمى القصائد التى أبدعها هذا العصر أو أبدعتها هذه الأمة ؟ » (دفاع عن
 الشعر البطولى) ينبغى أن نؤكد أولاً أن القرن السابع عشر لم يكن يحترم إلا

نوعاً واحداً من أنواع الشعر ألا وهو الشعر الملحمى أو ما كانوا يسمونه الشعر البطولى . ولم يكن يتمتع باحترام أكبر من الإلياذة والأوديسة (للشاعر هوميروس) والإنيادة (للشاعر فيرجيل) إلا الكتاب المقدس نفسه وقد كانت هذه فى الحقيقة تركة عصر النهضة إذ إن الرغبة فى محاكاة أشرف ما أبدعه الأقدمون قد امتزجت بالوطنية والمشاعر القومية آنذاك فحاول الشعراء فى كل بلد أوروبى أن يرفعوا من مستوى لغاتهم المحلية (وهى لغات جديدة نسبياً) بأن يبدعوا بها أعمالاً ترقى إلى مستوى (الإلياذة والإنيادة) . وخير شاهد على استمرار هذا الاحترام حتى نهاية القرن ما كتبه درايدن عام ١٦٩٧ فى إهداءه للإنيادة من أن الملحمة الشعرية هى «بلا جدال أعظم عمل تستطيع النفس البشرية أن تبدعه» ولهذا أسباب لا بأس من أن نعرض لها بإيجاز .

توج القدماء إنتاجهم الشعرى بالملاحم بل إن أرسطو نفسه قد بارك هذه الأعمال الأدبية . كما أن دانتى وأريوستو وتاسو قد أبدعوا ملاحم متنوعة رفعت من قدر اللغة الإيطالية وسمت بها إلى مصاف اللغات القديمة . ولذلك كان الفرنسيون والإنجليز يشعرون أن لغاتهم التى بنيت على لهجات محلية لن ترتفع وتنأى عن أصولها غير المتحضرة إلا إذا أبدعت أعمالاً مماثلة فى نطاقها وتركيبها وسمو موضوعها . أضف إلى هذا أن موضوع الملحمة كان عادة بعض الأحداث العظيمة فى التاريخ القومى لأمة من الأمم ويمكن عن طريق هذه الأحداث إذكاء الروح القومية والكرامة الوطنية والنزوع المشبوب لإنجاز ما يمكنها من أن تفاخر به سائر الأمم . وأهم من هذا كله - أى العامل الذى احتفظ للملحمة بمكانتها فى عصر التنوير العلمى - هو أنها ولو توسلت بالخيال، ولو اعتمدت على «التاريخ الزائف» ، فإن هدفها لا يقل أهمية عن هدف الحقيقة نفسها ألا وهو التربية الخلقية والنفسية . وقد اتفق جميع النقاد منذ عصر النهضة حول هذا العامل الفريد .

ولكن ماذا يقصد بالملحمة ؟ لقد سمعنا أخيراً فى بلادنا من يتحدث عن «ملحمة السور» بل ومن يكتب قصائد غنائية (قصيرة أو طويلة) يطلق عليها هذا الاسم. وهذا استخدام شائع يتضمن قسماً واحداً من المعانى التى تتضمنها الكلمة فالكلمة - اشتقاقاً - تعنى الالتحام أى تلاقى المقاتلين جسدياً أثناء الاشتباك فى حومة الوغى ومن ثم فهى تعنى الحرب. ولا شك أن الحرب كانت دائماً موضوعاً مميزاً للملحمة. ولكن معنى الملحمة يتجاوز حدود الحرب - فكثيراً ما يقصد بها الكتاب أى عمل تخطيطى أبعاده حدود الواقعية فى الحياة أو فى الفن (فى السينما والرواية مثلاً) وعزرا باوند نفسه (الشاعر والناقد الأشهر) يضع يده على أحد المعالم الهامة للملحمة دون سائر معالمها حين يقول إنها قصيدة تشتمل على تاريخ، وقد حاول (ميرشانت) فى كتيبه الصغير عن الملحمة أن يرسم لها صفات خارجية تعيننا على إدراكها لأول وهلة حين يقول إن الملحمة تتميز بشقلها أى بطولها وضخامة هيكلها وأبعادها الكبيرة. ولا يعنى الطول بالضرورة كثرة الأبيات ولكن هيكل أحداثها ينبغى أن يكون شاسع الأبعاد إذ إنها لا تختص بلحظة واحدة أو لمحة من حياة إنسان بل ولاتركز على إنسان فرد مهما كانت أبعاد حياته هو نفسه ولاتأخذ من المشاعر العابرة موضوعها الأساسى أو من «اللقطات» العادية فى الحياة اليومية.

ولكن هذا كما نرى تعريف بالسلب أو بالنفى ، ولن نستطيع أن نجد المدخل للملحمة حتى نضع يدنا على المادة الأساسية التى تتشكل منها وهى مادة مستقاة من مصادر شعبية قديمة شاعت على مدى قرون من الزمان حتى اتخذت الشكل المقبول اجتماعياً وحتى تطورت اللغة التى تكتب بها ولانت وتطوعت للصياغة الفنية البديعة على أيدى المؤلف الفرد. وربما استطعنا أن نرجع منشأها إلى حاجة الإنسان إلى رصد جذوره التاريخية وتأصيل وجوده فى مجتمع مرتبط بزمان محدد ومكان محدد أى حاجة الإنسان إلى تاريخ ثابت.

هذا هو الشق الأول للملحمة وهو الشق التاريخي بمعنى أنها سجل لحياة القبيلة وعاداتها وتقاليدها الرئيسية . أما الشق الثاني فهو أنها قصة شعرية تهدف إلى الإمتاع الفنى . ولا ينفصل الشقان فى أى ملحمة . وقد أشار (تاكيتوس) فى دراسته للشعوب الجرمانية إلى أن القبائل التى كانت تعيش فى عصره أى فى القرن الأول للميلاد كانت تحتفل بالأجداد الذين أرسوا الأساس لوحدها باعتبارها شعبا متجانسا ، وذلك بإنشاد الأغانى التقليدية أى الأغانى الشعبية العريقة التى توارثها الأبناء عن الآباء فهى تمثل الذاكرة الجماعية لهذه القبائل أو تاريخها القومى . ولا شك أن أولى آثار الأدب الأوروبى هى ملحمتا هوميروس الإلياذة والأوديسة ويرجح النقاد أنهما أول ما كتب من أدب أى أولى الأعمال التى انتقلت من مرحلة الأدب الشفاهى ، أدب الرواة المتوارث، إلى الأدب المكتوب (الذى يطلق عليه الدكتور عبد الحميد يونس اسم «الأدب الرسمى») . وكذلك كانت ملحمة قلقامش وأساطير المصريين والعرب والعبرانيين فى الشرق الأوسط . ولذلك فقد انعكس هذا على البناء الفنى للملحمة فهو فضفاض يسمح بالأحاديث المطولة والخطب التى تتراوح فى نبراتها وفى مستواها اللغوى بين العامية والفصحى .

ويفرق البروفسور ك. س. لويس فى كتابه مقدمة الفردوس المفقود (١٩٤٢) بين الملاحم التى استقت مادتها مباشرة من التراث الشفاهى واتسمت بالصفات التى ذكرناها آنفا وبين الملاحم التى كتبت محاكاة لها أى فى إطار العمل الأدبى المكتوب مباشرة وليس بالرجوع إلى أية مصادر شعبية . فيقول :

كان النقاد القدماء يقسمون الملحمة إلى نوعين : الملحمة البدائية والملحمة المصطنعة . وهو تقسيم لا يصلح إذ إننا لا نستطيع أن نصف بالبدائية حقا أى شعر قديم وصلنا كما أن الصنعة لا يخلو منها الشعر أيا كان . ولهذا فأنا أفضل أن يكون التقسيم هو الملحمة الأولية

والملاحمة الثانوية . وهاتان الصفتان تشيران إلى الزمن فحسب ولا تتضمنان أى حكم على قيمة العمل .

فكلمة «ثانوية» هنا لا تعنى من الدرجة الثانية ؛ ولكن تعنى أنها جاءت بعد الأولى ونبتعت من الملحمة «الأولية» ص ١٢ .

ويمكننا أن ندرج فى القسم الأول ملحمتى الإلياذة والأوديسا لهوميروس ، والملاحمة الانجليزية القديمة البوولف وربما أدرجنا أيضاً أنشودة رولان وفى القسم الثانى يمكننا إدراج ملحمة الإنيافة لفيرجيل والفراساليا للوكان وتحرير بيت المقدس لتاسو ، والفردس المفقود لميلتون .

أما الخصائص العامة للملاحمة فى الأدب الأوروبى فهى أنها قصيدة شعرية طويلة مكتوبة بالبحر سداسى التفعيلة (أى الذى يشتمل البيت فيه على ست تفعيلات) أو ما يماثله ، وهى تدور إما حول بطل (مثلاً أخيلاس أو بوولف) أو حول حضارة مثل الحضارة الرومانية أو الحضارة المسيحية . وأما الخصائص الفنية الدقيقة فيوجزها البروفسور ف.ل. لوكاس قائلاً إنها :

وحدة الحدث ، والسرعة ، وفن البداية فى منتصف الأحداث واستخدام الخرافة والنبوءة والعالم السفلى ، والتشبيه الزخرفى والصفات المتكررة وأهم من هذا كله نبوة السمو والصدق التى لا يمكن مجاراتها أو إيجاد مثل لها إلا فى بعض نماذج الأدب الشعبى الذى توارثناه عن أمم شمال أوروبا .

(دائرة معارف تشيمبرز)

وهذا يصدق بطبيعة الحال على شتى الملاحم «الثانوية» بل إننا نجد أعمالاً شعرية طويلة يمكن وصفها فى ظل هذا التعريف بالملاحمة مثل الكوميديا الإلهية لدانتى رغم اختلافها البين عن النماذج التى أوردناها فالملاحم الأولية - مثل الإلياذة والبوولف وأنشودة رولان - نماذج صادقة

للمشعر البطولى الذى يتناول الحرب فموضوع الإلياذة هو غضبة رجل واحد هو أخيلاس وخلفيتها سقوط طروادة وسياقها الحقيقى هو الحرب وكذلك البوولف فموضوعها هو حكم رجل واحد هو الملك الرشيد بوولف وخلفيتها انهيار حضارة ما وسياقها بطولى . وكذلك أنشودة رولان فإن بطولته كما نرى تقابل حروب الفرنجة والأتراك وسياقها أيضاً هو الحرب والبطولة ولا شك أن الأوديسه تنتمى فى جوهرها إلى هذا اللون فهى ملحمة مخاطرات وشخصها الرئيسية (أوديسيوس وبنيلوبى وتلماخوس) يشغلون مواقعهم الكلاسيكية أى التقليدية المتوارثة فى مثل هذه القصص . إن البطل يصول ويجول ويتنقل بين البلدان والأماكن ثم يعود إلى وطنه وراغبو الزواج يحيطون بزوجه كل يريد لها لنفسه وابنه دائم البحث عن أبيه . وتتطور هذه المواقف بطبيعة الحال فالبطل الجوال يقابل ساحرة وعملاقا ويفقد أصحابه ويزور العالم السفلى ويعثر على أرض الجن فى (فياكيا) بينما تنسج زوجته نسيجاً وتفكه لتخدع الخطاب ثم يلتقى الابن وأبوه فى المعركة الأخيرة ، للقتال جنباً إلى جنب .

أما الكوميديا الإلهية فتختلف عن هذا كله لأنها مكتوبة بضمير المتكلم بل إنها أول ملحمة فى التاريخ تكتب بضمير المتكلم وهى ملحمة دينية ورمزية فى الوقت نفسه ولا يخفى على القارئ الإشارات المستترة التى تحفل بها الملحمة والتى يمكن تصنيف بعضها على أنها استعارات ورموز تمثيلية . وأهم ما فيها حقاً هو وجود الفرد التاريخى أى الإنسان الفرد الذى يتمتع بوجود مستقل عن الجماعة أو القبيلة . يقول (أورباخ) فى كتابه دانتى شاعر هذه الدنيا :

ولد مع دانتى الفرد التاريخى مرة ثانية وهو يتسم هنا بوحدة واضحة بينة فى الجسد والروح . لقد كان هذا الفرد قديماً وحديثاً معاً إذا خرج من طى النسيان بقوة طاغية وفى نطاق بالغ الإتساع .

ومن ثم فإن من حاولوا كتابة القصيدة الطويلة الذاتية أو «الملحمة الشخصية» فى العصر الحديث ابتداءً بوردزورث وانتهاءً بعزرا باوند مدينون

لدانتى بتصوير هذه الذات المفردة فى صراعها مع أفكار الوجود والبعث والعدم .

وإلى جانب الكوميديا الإلهية وُجدت كما ذكرنا ألوان أخرى من الملاحم «الثانوية» مثل الفارساليا للوكان التى تعالج موضوعاً بطولياً من التاريخ القديم وكان من المعتزم أن تشتمل على اثنى عشر كتاباً ، وهى تتضمن نشدان العون من الآلهة وتغص بالتشبيهات والاستطرادات إلخ ، ومثل مسح الكائنات لأوفيد التى تتمتع بجميع سمات الأسلوب الملحمى (فهى مكتوبة بالبحر سداسى التفعيلة ، وهى تستلهم الآلهة وتشتمل على تشبيهات كثيرة وتتراوح نبراتها بين الإنطلاق وبين الرفعة والسمو كما أنها حافلة بالاستطراد ومثل قصيدة ملكة الجان التى كتبها سبنسر قبل ميلتون بقليل فجمع فيها بين الملحمة والرومانسة واعتمد على قوة الرمز التمثيلى . ولكن كل هذه الأنواع تشترك فى صفتين يجمل بنا أن نركز عليهما وهما أولاً البداية فى منتصف الأحداث In Medias Res كما يقول هوراس وهى الصفة التى اتسمت بها المأساة اليونانية (ولعلنا نذكر ما يقوله أيسخولوس الكاتب المسرحى اليونانى القديم من أنه يعتبر مسرحياته «شرائع مقتبسة من المائدة العظيمة التى قدمها هوميروس») وثانياً أن الصورة الفنية الأساسية فى الملحمة هى التشبيه الذى يتميز بالوضوح والتفاصيل الحية وكفى مثل واحد من أسلوب هوميروس فى (الأوديسه) لتصوير ذلك . إنه يصف ما يحدث لبطله أوديسيوس فى البحر فيقول :

ثم لمح اليابسة من بعيد

فرمى ببصره محققاً وقد رفعته موجة عظيمة

أرأيت إلى الأبناء كيف يرون فى حياة أبيهم خيراً وبركة

وهو يرقد فى قبضة المرض العاصرة

وقد أخذ يذبل ويذوى بينما تداهمه روح شريرة
 وإلى الآلهة وقد أنعمت على الرجل فخلصته من آلامه ؟
 فهكذا كانت اليباسة بأشجارها خيرا وبركة على أوديسيوس
 فأخذ يسبح جاهدا حتى يضع أقدامه على الشاطئ .

(٣٩٩ - ٣٩٢/٥)

لا شك أن الصفات التي أوردناها للملحمة - الخاص منها والعام - تنطبق
 على ملحمة الفردوس المفقود . ولكن ميلتون يختلف عن كل من سبقه في
 اختياره موضوعا دينيا بل إن موضوعه - كما قال أحد النقاد - هو الدين .
 ولكنه لم يتوصل إلى هذا الاختيار إلا بعد تردد طويل فنحن نعلم أنه قد نذر
 نفسه لكتابة الشعر في سن مبكرة (مثل وردزورث وكيثس) وربما كان ذلك
 عندما بلغ الحادية والعشرين .

ولا شك أنه كان يطمح منذ البداية في كتابة أعظم الأنواع الشعرية احتراما
 وتقديرا آنذاك وهو الملحمة - وبخاصة الملحمة التي تعالج موضوعا وطنيا
 ودينيا . كان النموذج الذي أراد أن يحتذيه هو ملحمة الإنيادا للشاعر الروماني
 فيرجيل فهي الملحمة التي يتغنى فيها ذلك الشاعر بأمجاد وطنه روما . وقد
 أراد ميلتون أن يتغنى هو الآخر بوطنه انجلترا ، مثلما فعل سبنسر من قبله في
 ملكة الجان ، بأن يعالج أهم الأحداث في تاريخها ألا وهو خروجها ظافرة من
 الحرب الأهلية (بفضل جهود أسرة تيودور) وتأکید استقلالها الديني والقومي
 (الذي حازته بفضل الإصلاح الديني) والدفاع عن هذا كله ممثلاً في هزيمة
 الأسطول الأسباني (الآرمادا) .

ولكن ميلتون لم يكن يريد أن يجعل أحداثه تقع في إطار من التاريخ
 القريب أو المعاصر (محاكيا بذلك فيرجيل الذي استلهم أقدم الأساطير

الرومانية وأكثرها عراقية) وهكذا فقد خطر لميلتون أن يحكى أحداث قصة الملك آرثر القديم الذى تربطه الأساطير بأسرة (تيودور). وقد كتب قصيدة باللاتينية وهو فى نابولى (وكان فى الثلاثين من عمره) يتحدث فيها عن اعتزامه كتابة ملحمة يكون أبطالها هم الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة وتدور أحداثها حول انتصارهم وهزيمة الساكسونيين ، بحيث يرمز آرثر هنا إلى الملك المسيحى وأسرة (تيودور) وبحيث يرمز الساكسونيون المشركون إلى أعداء انجلترا وأوروبا من الأتراك والكاثوليك. أما الإشارات المباشرة إلى أحداث التاريخ المعاصر فقد اعتزم تقديمها فى صورة نبوءات قدرية مثلما فعل (فيرجيل) و (سينسر) فى ملحمتيهما .

وكما سبق أن ذكرنا فإن اندلاع الحرب الأهلية فى ١٦٣٩ جعل ميلتون يعود من انجلترا كما جعله يرجئ مشروع كتابة الملحمة . ويقول البروفسور (تليارد):

فى السنوات الأولى للحرب الأهلية ... خطرت لميلتون فكرة كتابة قصيدة عن سقوط الإنسان . ويوجد فى مكتبة كلية (ترينيتى) فى (كيمبردج) مخطوط يتضمن معظم قصائد ميلتون القصيرة وبعض الملاحظات الخاصة بما يعتزم كتابته فى المستقبل وتشمل هذه خطأً لكتابة مسرحية أو عدة مسرحيات وأبرز الموضوعات المطروحة موضوع الفردوس المفقود . ولا دليل لدينا على أن ميلتون كان يريد إحلال مسرحية سقوط الإنسان محل الملحمة التى كان يريد كتابتها عن آرثر . بل على العكس من ذلك : فهو يقول لنا فى إحدى الفقرات التى يتحدث فيها عن نفسه فى كتابه السبب فى حكم الكنيسة ، وهو أحد الكتيبات التى هاجم فيها الأساقفة ، إنه كان يفكر فى نفس الوقت فى كتابة الملحمة والمأساة والأنشودة الكلاسيكية باعتبارها الصور الشعرية الرفيعة للموضوعات الشعرية الوطنية السامية.

وليس لدينا أى دليل تاريخى على أسباب تحوله عما اعتزمه ، ولكننا نستطيع أن نحس بقدر ما من اليقين أن آماله كانت تتوقف إلى حد كبير على مجريات الأمور ووقائع الحرب الأهلية . فحينما كان ميلتون واثقاً من صلابة مواطنيه وزعماء الفريق الذى كان يناصبه فى الحرب الأهلية ، كان قادراً على التفكير فى كتابة قصيدة ذات أحداث بطولية ولها بطل قومى مثل الملك (آرثر) أو (ألفريد الأكبر) . ولكنه حين رأى أن المشيخين المنتصرين لم يكونوا أقل تعصباً وطغياناً من أنصار الأساقفة ، وحين رأى أن مواطنيه يتخلون بالتدريج عن معاداتهم لأسرة ستيوارت الملكية ، بدأ فى التخلّى عن فكرة الملحمة الوطنية وفكر فى أن يجد موضوعاً من العصور الوسطى يسبق نشأة القوميات الأوروبية ألا وهو موضوع الإنسان - كل إنسان أو أى إنسان - أى الجنس البشرى الذى تتنازعه قوى الخير والشر . وهذه فى الواقع هى الفكرة الأساسية فى الفردوس المفقود .

ونستطيع أن نقول بثقة إن ميلتون قد عدل من تصوره للموضوع الذى كان يراه مناسباً للملحمة ، وإن الموضوع الذى كان قد اختاره للمأساة أصبح اليوم موضوع الملحمة - وذلك فيما بين عامى ١٦٤٢ و ١٦٥٥ . ولكن ما هو حقاً موضوع الفردوس المفقود ؟

قلنا إن ميلتون جعل الإنسان بطلاً لملحمته - آدم وحواء يتنازعهما الشر والخير . ولكن ميلتون جعل هذا التنازع شاملاً لتصوره الخاص عن العقيدة الدينية وعن تصوره لمجرى تاريخ الإنسانية . أى إنه يجعل موضوعه شاملاً متراعى الأطراف مثلما فعل دانتى فى الكوميديا الإلهية . إذ إنه كان عميق الإحساس بما يجرى حوله من أحداث (كما رأينا) وبأن الأحداث الجارية تمثل حلقة من حلقات التاريخ البشرى المتداخلة والأهم من ذلك أنها تعتبر جزءاً من حركة أزلية لا تتوقف وهكذا فإن آدم وحواء ليسا مجرد شخصيات ذكرت فى الكتب الدينية ونماذج للبشرية بصفة عامة : بل هما نموذجان للبشر الذين

يعيشون بين ظهرائنا . انظر الأبيات الأخيرة من القصيدة حيث يصف طرد آدم وحواء من الفردوس :

ذرفا بعض العبرات - عبرات الطبيعة البشرية - ثم جففاها على الفور

كانت الدنيا تمتد كلها أمامهما ، تدعوهما لاختيار

مقر راحتها ، تهديهما العناية الإلهية

وهكذا - بأيدي متشابكة وخطوات حائرة بطيئة -

سارا وحيدين في أرض عدن .

ونحن نؤكد وعى ميلتون الدائم بالحياة الواقعية في عصره لأن الملحمة أبعد ما تكون (من ناحية موضوعها الظاهر) عن الحياة اليومية للإنسان . فليس بها شخصية بشرية واحدة ومكان الأحداث غريب كل الغرابة بل إن ميلتون يعتمد أن يجعله مخالفا لكل ما يعرفه الإنسان على الأرض . ومع ذلك فإن النظرة المتأنية سوف تكشف للقارئ عن مدى نجاح ميلتون في إسباغ الطابع البشري على تصوراتهِ للجحيم والعماء . إن الشياطين كائنات ذات أبعاد أكبر كثيراً من البشر ولكنها ذات عقول تفكر كالإنسان ، كما أن مناقشاتها تتخذ أنماط المناقشات السياسية بين الناس . ويعتمد ميلتون كذلك في تشبيهاته على التاريخ الحقيقي للإنسان بل إن الشياطين لديه هم آلهة الوثنية في العهد القديم وفي الأساطير الكلاسيكية ، كما أن الصور المجازية لديه مستقاة من صور الحياة العادية على الأرض (من حياة الصيادين والفلاحين وأنغام الأرغن والمناقشات الدينية المألوفة إلخ) . وكثيراً ما يخامرنا الإحساس ونحن نقرأ الملحمة أن ميلتون كان يحاكي فيرجيل في الإنيادا - يقول البروفسور تليارد :

مثلما كانت الإنيابة تدور حول روما فى عهد الإمبراطور أغسطس ودورات القدر التى أدت إلى إنشاء روما فى البداية وحقت لها العظمة فإن الفردوس المفقود تدور حول الحياة المعاصرة فى زمن ميلتون وحول الإطار الأكبر الذى خلقت الحياة فى ظله وسارت . ويرجع نجاح ميلتون إلى أنه استطاع أن يمزج بين الموضوعين مزجاً وثيقاً بحيث أصبحت الحياة المعاصرة هى أيضاً الحياة الأزلية .

كان ميلتون يكتب - كما ذكرنا - فى ظل تقاليد الملحمة الكلاسيكية ولهذا فهو يبدأ قصته فى منتصف الأحداث . فنحن نرى الملائكة الفسقة بعد أن تمردوا على البارئ وبعد أن تمت هزيمتهم وبعد أن خلق الله الجحيم والكون - وهنا يفتق إبليس من إغمائه ويرفع رأسه من البحيرة الملتهبة حيث يرقد عاجزاً لا حول له ولا طول . وبعد أن يفتق ويقوم بإفاقة أقرانه ويث فىهم روح شجاعة جديدة ، نرى أن الأحداث التالية سوف تتوقف على الشائعة التى كانت تتردد فى الجنة قبل سقوط الملائكة ومؤداها أن الله يوشك أن يخلق نوعاً جديداً من الكائنات . ويقرر الشياطين أن أفضل سبيل لمواصلة الحرب ضد العلى القدير هى محاولة إفساد هذا الكائن الجديد . ويعهد إلى إبليس بهذه المهمة ومن ثم يلتقى مع أبنائه (الخطيئة والموت) عند بوابة الجحيم . ويعدها يرحل إبليس عبر العماء إلى مشارف النور ويرى أبراج السماء ويرى الكون معلقاً منها بسلسلة . وهذه هى نهاية الكتاب الثانى . ويقول أحد النقاد إن هذين الكتابين يمثلان «حركة» من حركات السيمفونية الكبيرة - وهى حركة تتكون ألعانها من مجموعة قوى الشر التى تترىص بالإنسان وتريد القضاء عليه - ممثلاً فى آدم وحواء .

ويبدأ الكتاب الثالث باستلهام النور - رمز الألوهية والخير - وهذا هو اللحن الثانى أى لحن الجنة . ويصف ميلتون هنا الجنة بصورة تجعله ممثلاً

أو مقابلاً لشقاء الجحيم ، ومثلما عرض إبليس (فى الكتاب الثانى) أن يقوم بالرحلة وحده إلى الدنيا لإفساد البشرية ، يعرض المسيح أن يقوم بالرحلة وحده هو الآخر لإنقاذها . وبعد أن يصف ميلتون الجنة يتابع رحلة إبليس حتى يخترق قبة الكون الذى يشتمل على النجوم والكواكب والأرض فى المركز ثم يحط على الأرض فى النهاية . وهنا يحين موعد تقديم الأبطال من البشر .

ويصف ميلتون فى الكتاب الرابع جنة الفردوس بقاطنيها من بشر وحيوان ويطلعنا على أن آدم وحواء قد حرما ثمار شجرة واحدة فى الجنة . وأثناء ذلك يكون إبليس قد دخل الجنة متخفياً ويوحى لحواء أثناء نومها بحلم شرير ويكتشف الملائكة الحراس ما صنعه إبليس فيطردونه من الجنة وبهذا تفشل أول محاولة لإغواء حواء .

وتتوقف الأحداث قليلاً بعد فشل إبليس - ويستغل ميلتون هذا التوقف فى سرد الأحداث الماضية . ويتضمن الكتابان الخامس والسادس زيارة الملاك الأكبر روفائيل إلى الفردوس وقصة تمرد الملائكة الفسقة وسقوطهم كما يرويها لآدم وحواء ورغم أن زيارة روفائيل تمتد على طول الكتابين التاليين فإن ميلتون يقول لنا إن مسرح أحداثه الآن مسرح أرضى وإنه انتهى من المسرح الكونى الشاسع وأن بقية القصيدة سوف تركز على الإنسان .

وهكذا فإن آدم يحدد المسار الجديد للملحمة بأن يتساءل كيف خلق الكون الذى يعيش فيه . ويقص روفائيل قصة الخلق فى ستة أيام . وفى الكتاب الثامن يطرح آدم مزيداً من الأسئلة عن الكون ثم يحكى ما حدث له منذ أن أشرق فى نفسه الوعى لأول مرة . وبعد ذلك يعود روفائيل إلى السماء مردداً تحذيره ألا يعصى ما أمر الله به .

ويستأنف الحدث الرئيسي في الكتاب التاسع ويبلغ ذروته (أى الأزمة) في هذا الكتاب وفي الكتاب العاشر . ومع الأزمة تتغير «ألحان» الملحمة - كما يشير ميلتون إلى ذلك في مقدمته لهذا الكتاب . فهو يقول إنه يغير من أسلوبه السابق إلى أسلوب الحساسية . ونحس بالفعل منذ هذه اللحظة أنه في لجنة تجربة بشرية حقيقية . ويتخفى إبليس ثانيًا - في صورة ثعبان هذه المرة - ثم يعاود الهجوم ويسعده الحظ بأن يجسد حواء وحدها ويتوسل بالأكاذيب والملق والإطراء حتى يقنعها بأن تذوق الثمرة المحرمة . وعندما يأتى آدم يشاركها الطعام فيسقطان معًا في وهدة الذنب . أما الثمرة فإن مذاقها يسكر أول الأمر ثم يجعل الإنسان يصحو نادما يتجاذبه الشقاء والألم . وينتهى الكتاب التاسع بالتشاجر وتبادل التهم ويبدو في الظاهر أن إبليس قد انتصر ولكن الحدث لم يكتمل بعد . إن المسيح يذهب إلى الفردوس ليصدر الحكم على خطيئة آدم وحواء ، وهو يحكم عليهما بتكبد المشاق التى تنتهى بالموت على الأرض . ولكنه أيضًا يشفق عليهما ويجعلهما يخصصان عليهما من ورق الجنة . وهنا تبدأ آثار سقوط الإنسان إذ يتغير الجو وتتقاتل الحيوانات وتتعاون الخطيئة والموت فى بناء جسر عبر السماء ييسر لهما الانتقال بين فوهة الجحيم وباب الجنة . ويعتصر الأسى آدم وهو يرى ما يحدث ويتصور أنه قد ضاع إلى الأبد . وهنا ترى حواء أن الخلاف مع آدم لا يطاق وتود أن تتحمل وحدها مسئولية ما حدث . ويصدها آدم فى البداية ، ولكنه يستنزل رحمة الله دون أن يدري فيعترف بخطئه هو الآخر ويتصلحان . وهذا النموذج الصادق للخشوع أمام الله يمثل الخلاص لآدم وحواء . وينتهى الكتاب العاشر بأن يطلب العفو من الله :

بعبرات تروض الأرض ، وآهات تغشى الهواء ،

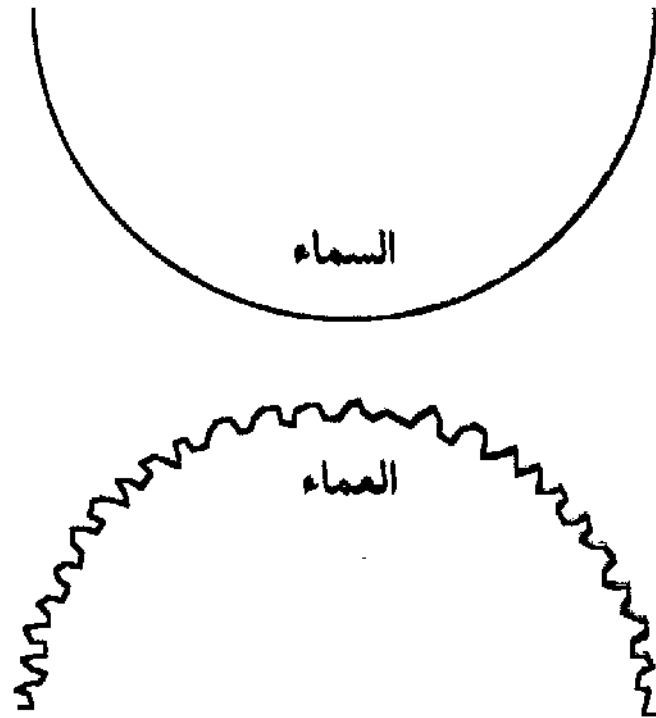
صادرة من قلوب التائبين ، آيات

صادقة على الأسى والخشوع .

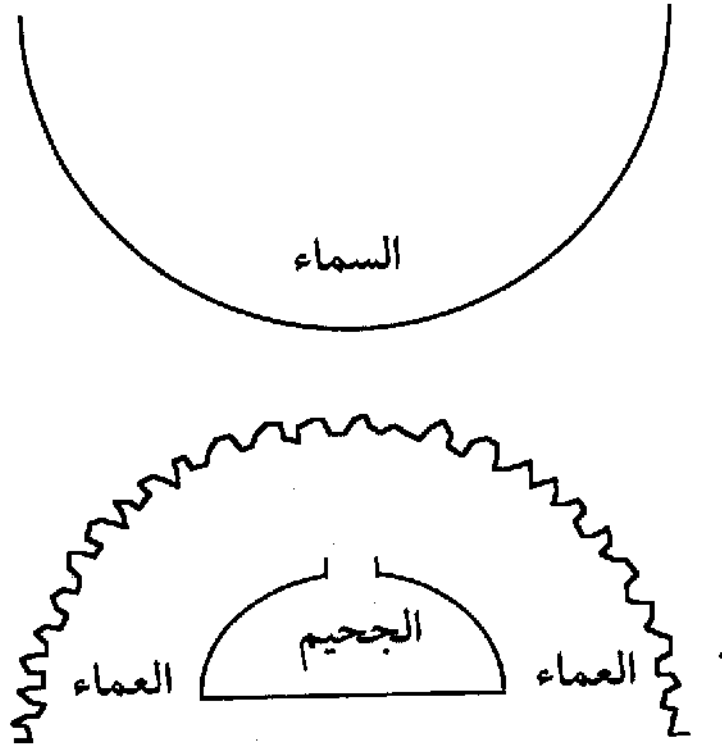
وبمجرد أن يبدي آدم وحواء ندمهما يتحدد مسار الأحداث التالية ، ولذلك يخصص ميلتون الكتابين الأخيرين لمستقبل البشرية . فالله سبحانه وتعالى يقبل توبة آدم وحواء ويرسل إليهما ميكائيل - ذلك الملاك الأكبر - ليقدم إليهما رؤياه عن مسار تاريخ العالم فيشاهدان عدة لوحات تصور الأحداث الرئيسية المذكورة في سفر التكوين حتى عهد الطوفان . وهنا ينتهي الكتاب الحادى عشر أما الكتاب الثانى عشر (والأخير) فإن ميكائيل يلخص فيه تاريخ البشرية بلغته الخاصة ابتداء من الطوفان وحتى يوم القيامة (بما فى ذلك الأحداث المذكورة فى العهد الجديد) ويدرك آدم طبيعة الأمور ويتقبلها فهو قد تعلم طاعة الله وأصبح يدرك أن التواضع والخشوع أقوى فى نهاية المطاف من كبرياء إبليس . ويتسلح آدم وحواء بهذا الإدراك ويستعدان للحياة به على ظهر الأرض ، عندما تأتى الملائكة فى نهاية الملحمة لطردهما من الفردوس . ومن المستحب قبل قراءة النص أن ندرك تصور ميلتون الخاص للكون . وسأعتمد هنا (مثلما اعتمدت فى الجزء السابق من هذه المقدمة) على آراء البروفسور (تليارد) إما بالتلخيص أو الاقتباس . إن ميلتون يرسم لنا تصوره الخاص للكون بالتدرج أى على مراحل ولذلك فسوف نقدم الرسوم البيانية الثلاثة التى قدمها لتبيان هذه المراحل . يقول (تليارد) :

علينا أن نتخيل زمنا كان الوجود فيه مقصوراً على السماء ، ويحدها سور من البلّور ، وتحتها ، على مسافة ما غير محددة يقع العماء ، وهو كتلة مظلمة مبهمه فهو المادة المختلطة المتنافرة التى يتشكل منها

كل خلق جديد . وتقع بين العماء والسماء منطقة مفتوحة تتمتع بنور السماء . وهناك منطقة أخرى على الحدود (هي التي يجدها إبليس في الرحلة التي يصفها ميلتون في نهاية الكتاب الثاني) تقل فيها كثافة العماء ولا يسودها الظلام الدامس أو النور الساطع بل يغشاها ضوء خاب أشبه بالغسق . ويوضح الرسم البياني المبسط التالي ما نعنيه بذلك :

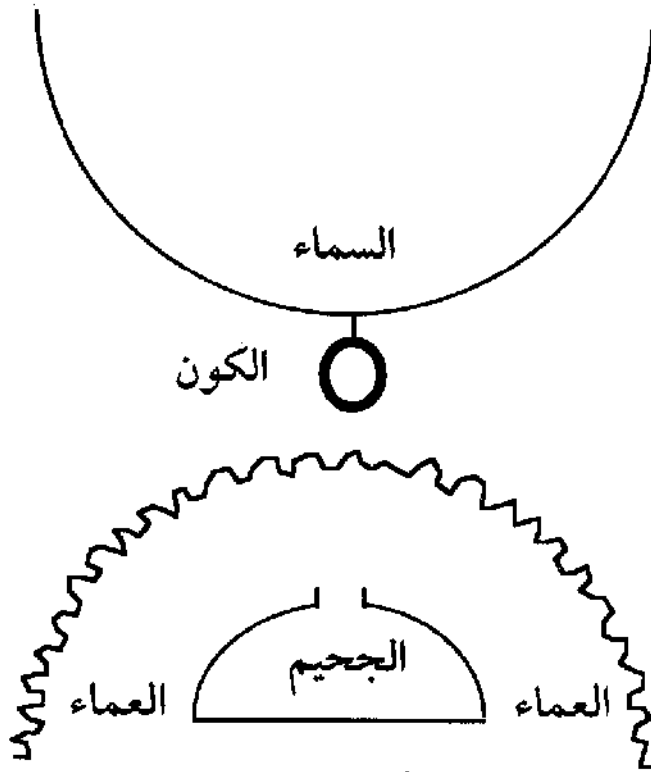


وعندما طرد الله الملائكة الفسقة من السماء ، خلق لهم سجنا هو
الجحيم بحيث يقع فى قاع العماء وله قبة وفى سقف القبة بوابة تغلقه
عليهم وإذن فينبغى أن نضيف إلى الرسم هذا التعديل .



وكانت آخر مرحلة من مراحل الخلق هى أن يخلق الله الكون من
مادة العماء ولا حاجة بنا لوصف التركيب الداخلى للكون حيث توجد
الأرض فى المنتصف وتحيط بها أفلاك متداخلة تدور فيها الكواكب
والنجوم الثابتة . ولكن على القارئ أن يعلم أن الكون (فى ضوء هذا
التصور) كان محاطاً بقوقعة صلبة وأنه كانت لتلك القوقعة فتحة فى
رأسها يستطيع الملائكة النفاذ منها كما استطاع الشياطين أن ينفذوا منها

فيما بعد لزيارة البشر . وأن الكون كان يتصل بالسماء بسلسلة من ذهب
وهكذا نصل إلى الرسم البياني الأخير .



وأخيراً فإننا نعلم في نهاية الكتاب الثاني أن الخطيئة والموت سوف ينيان
جسراً يمتد من باب الجحيم عبر العماء حتى موقع خارج الكون يؤدي إلى
فتحة يستطيعان النفاذ منها إلى الداخل .

ورغم أن الشياطين تهبط من السمااء في غير نظام فإنها تحتفظ بدرجاتها
التي تحدد منزلة كل شيطان ومدى اقترابه من إبليس . ويوضح ميلتون ذلك
حين يصور لنا مجيئها إلى إبليس وهو واقف على شاطئ بحيرة اللهب . ولا
شك أن ميلتون كان يؤمن بأن الكون يحكمه نظام دقيق يقترب من دقة علم
الرياضيات (وهي الفكرة التي ورثها من العصور الوسطى) كما أن التنظيم
الاجتماعي في ظل الإقطاع كان معقداً وذا درجات دقيقة محددة . وقد صاغ

الناس تصورهم لدقة تنظيم المجتمع السماوى فى ظل تنظيم مجتمع الارض ودرجات أفراده .

وكانت الفكرة الشائعة هى أن للملائكة عدة طبقات أعلاها هم أصفى الملائكة كيانا وأقدرهم على تقبل الجوهر الروحى القدسى وأحفظها هو أقلهم قدرة على التأمل وأكثرهم نشاطا وكان للملائكة تسع مراتب مقسمة على ثلاث طبقات . فالطبقة الاولى تضم الصاروفيم والشاروبيم والمتوجين (أو العروش) والثانية تتكون من الرياسات والفضائل والسلاطين (انظر الحواشى) أما الثالثة فتضم أنشط الجميع وأقلهم قدرة على التأمل وهم الرؤساء وأكابر الملائكة والملائكة . وكان رأى فى العصور الوسطى أن هذا التقسيم يقابله تقسيم مماثل للشياطين وقد استخدم ميلتون بعض هذا التراث ولكن التحديد السابق للدرجات لم يعد قائما فى عصره فإنه رغم رجوعه إلى التقسيم القديم وتحديد أهم الشياطين (وهم إبليس وبعلزبول ومامون) لم يرجع إلى التقسيم القديم للشياطين واكتفى بتقسيم الملائكة ثم طبق هذا التقسيم على الجميع . ولكنه فى الواقع قد عدل من المراتب القديمة فجعل أكابر الملائكة فى أعلى الطبقات أى أعلى من الصاروفيم والشاروبيم . كما أنه لا يفرق بين المراتب النسبية للمتوجين (أو العروش) أو الفضائل أو الرياسات بل أحيانا يجعل لفظة الرياسات تشمل جميع الطبقات مما راعيناه فى الترجمة (انظر الحواشى) .

وكان تفكير أهل العصور الوسطى يقوم - إلى جانب فكرة المراتب - على فكرة التناظر والتقابل . ولذلك كان لابد للشياطين من درجات تسع حتى يقع التناظر مع درجات الملائكة ، كما كانوا يرون أنه مثلما أغوى الشيطان الإنسان فى جنة الفردوس وجعله يستبدل بها برية يحار فيها ، كان على المسيح

أى آدم الجديد (وابن آدم) أن يهزم غواية الشيطان فى البرية ويعيد الفردوس إلى آدم الأول .

وتبقى كلمة موجزة عن إبليس وتصويره فى الملحمة . من المحال أن نلم بآراء النقاد هنا لأنهم ما زالوا على خلافهم القديم لا يقر لهم رأى . والاتجاهان الأساسيان هما أولاً اتجاه يجعل منه بطل الملحمة وثانياً اتجاه يرمى إلى تصغير شأنه بحيث يصبح شخصية حقيرة ومشيرة للسخرية . والحق إنه شخصية معقدة فهو «ملاك أكبر محطم» - كما يصفه ميلتون - إنه ما يزال يحتفظ بعلو القامة وبعض ملامح السمو القديم ولكنه اليوم فاسق منحط . وهذا المزج بين الخصال والسمات فيه يقربه من أبطال المأساة من البشر .

ويقول (تليارد) إن ميلتون كان يذكر جيداً المثل القائل «إن شر من يفسدُ خيرُ الناس» أى إنه كلما علا قدر الشخصية ازدادت حطة مهواها . فكثير من الشراح الذين أعلوا من شأن إبليس فى الملحمة يتناسون أن ميلتون يصوره فى حال خداع مع نفسه منذ البداية وحال غباء تدفعه إلى رفض تقبل الحقيقة . وبعد أن يضطر بعزوبول إلى الاعتراف فى أول خطاب له بأن الله على قديرٌ حقاً، نرى إبليس يصر على تصوره أنه يستطيع إفساد مسعى الخالق سبحانه :

فإن قضت مشيئته

بأن يخرج من شر فعمالنا خيراً

فعلينا أن نحاول إفساد مسعاه

فنجعل من الخير سبيلاً إلى الشر !

لطالما كلل هذا المسعى بالنجاح

١٦٦ - ١٦٢ / ١

ويصور ميلتون إبليس على أنه يتمتع بشخصية أقوى من شخصية بعزبول وبأنه أحدُ ذهنا . ولكن الكبرياء يفسده إلى الحد الذي يبلد ذهنه ويكسوه غباء شديداً . ويظهر هذا جليا في بداية الكتاب الثانى حيث يقول ميلتون إن إبليس لم يتعلم من عاقبة ما حدث (البيت ٩) أى إن غباءه جعله لا يتعلم من التجارب التى يمر بها وتصل ذروة مأساته حين يستعرض كتاب الشياطين :

وألقي على هذه الصفوف المدججة

عينه الخبيرة واستعرض فى لمحة واحدة

ذلك الجحفل بأسره ، فتبين له انتظام درجاتهم

وبدت له وجوههم وقاماتهم فى صور الآلهة

ثم أحصاهم وعدهم عدا فانتفش قلبه بالزهر

والخيلاء وقسى فى قوته

. وتباهى .

٥٦٧/١ - ٥٧٣

ويقول (تليارد) إن مصدر البشاعة فى هذه الصورة هو الاحتفال الزائد عن الحد بضخامة الجرم وكثرة العدد . والمشاعر التى تتاب إبليس هنا لا تتمشى مع المشاعر الرقيقة التى يعبر عنها الشاعر فى الفقرة التى تتلو ذلك مباشرة حين يجد أن الندم قد نال من عزمه الثابت وكبريائه الوطيد فتغلبه العبرات ويبكى ثلاث مرات قبل أن يستعيد رباطة جأشه ويستطيع الحديث . وإذا وضعنا الفقرتين جنبا إلى جنب رأينا ما يرمى إليه ميلتون من تصوير للتناقض فى نفس إبليس وراعتنا مظاهر التعقيد والتشابك فى هذه الشخصية . ولكن جوهرها - مها اختلفت آراء النقاد - واضح فهو هبوط العظيم وسقوطه ، فحدة الذكاء لديه تصبح غباء وبلادة ذهن ، واعتداده بنفسه وبمنزلته بين

الشياطين يتحول إلى كبرياء أجوف وعناده عندما يصر على انتهاج سبيل الشر يقترب من درجة البلاهة التي لا تقبل من العظماء .

٤

ولا أريد أن أختتم هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء دون أن أؤكد أنها تقديم وتمهيد لا تعليق وشرح ، فلقد خصصت كثيراً من الحواشى للتعليق والشرح لكل من يريد الاستزادة من التراث الفكرى الذى يمثل 'خلفية المتن' ، ولم أدخر وسعاً فى عرض آراء النقاد ولو بإيجاز فيها ، كما أرفقت قائمة زاخرة بالمراجع التى ورد ذكرها فى المقدمة وفى الحواشى حتى يطلع عليها كل من يريد التعمق ، وأما المعاجم وطبعات الكتاب المقدس فلم أورها - وفق المنهج الأكاديمى المعمول به - فهى متاحة ميسرة لكل من يطلبها . وقد اقتصررت فى الإشارة إلى الكتاب المقدس على ذكر اسم السفر متبوعاً برقم الأصحاح ورقم الآية ، مقتبساً كل ذلك من طبعة الكتاب المقدس المصرية ١٩٦٦ (مطبعة عنتر) وأما الإشارات أو الاقتباسات الأخرى فقد ترجمتها وأدرجتها فى سياقها الجديد .

وأخيراً فأنا أحمد الله أن أمد فى عمري حتى أتممت الترجمة الكاملة ، ولا شك أن عملاً كهذا لن يسلم من الهنات ، ولكننى واثق فى قدرة القارئ على تجاوزها .

والله وراء القصد

محمد عنانى

القاهرة ٢٠٠٢

الكتاب الأول

الموضوع

يعرض الكتاب الأول ، بإيجاز فى البداية ، الموضوع بصفة عامة - أى عصيان الإنسان وما أدى إليه من فقد الفردوس الذى أنزل فيه - ثم يشير إلى السبب الأول لسقوطه أى الثعبان ، أو بالأحرى إبليس الذى تمثل بالشعبان . وكان إبليس قد فسق وخرج على الله وضم إلى صفه كتائب عديدة من الملائكة ، ففضى أمر الله بطرده من الجنة مع رفاقه جميعا وإلقائهم فى الخضم العظيم . وبعد التعرض لهذه الواقعة تسرع خطى القصيدة إلى منتصف الأحداث فتصور إبليس مع الملائكة من أتباعه الذين هبطوا فى الجحيم ، وأوصافها ليس باعتبارها قائمة فى مركز الأرض (إذ يفترض أن السماء والأرض لم تخلقا بعد ، ولم تحل عليهما اللعنة بعد يقيناً) ولكن فى مكان يكتنفه الظلام الدامس حتى يمكن تسميته بالعماء وهنا يرقد إبليس وأتباعه من الملائكة على البحيرة الملتهبة ، مصعوقين ومذهولين وبعد فترة ما يفيق كأنه عاد إليه صوابه وينادى من يرقد إلى جواره ويليه فى الرفعة والمنزلة فيتطارحان أمر سقوطهما المزرى وبعدها يوقظ إبليس سائر كتائبه التى كانت ترقد حتى تلك اللحظة ذاهلة مثله ؛ وصف نهوضها وذكر أعدادها وتشكيلها القتالى ؛ أسماء أهم زعمائها ، وفقاً للأصنام التى عرفت فيها فيما بعد أرض كنعان والبلدان المتاخمة لها . ويوجه إبليس حديثه إلى هؤلاء فيواسيهم بأن الأمل قائم فى استعادة الجنة ويذكر لهم آخر الأمر أن إحدى النبؤات القديمة أو الشائعات

التي تتردد في الجنة تقول إن الله يوشك أن يخلق عالمًا جديدًا ونوعًا جديدًا من المخلوقات ، إذ يذهب رأى الكثيرين من الآباء القدماء إلى أن الملائكة قد خلقوا قبل هذا العالم المرئي بوقت طويل . وللتحقق من صدق هذه النبوءة وتحديد ما ينبغي فعله بصددھا ، يحيل الموضوع إلى البحث في مؤتمر عام ؛ وصف ما يفعله رفاقه هناك إذ يرتفع بناء (بانديمونيام) وهو قصر إبليس فجأة من الخضم : وفيه يعقد سادة الجحيم مجلسا للتشاور .

عن أول عصيان يقتطفه الإنسان ، وعن ثمرة

تلك الشجرة المحرمة ذات المذاق المهلك

الذي أتى بالموت إلى الدنيا وجر علينا الأحزان

لضياح جنات عدن زمنًا ريثما يعيدنا رجل أعظم

ويسترد لنا عرش النعيم

أنشدى يا ربة الشعر قاطنة السماء يا من تدنيت إلى الذروة

الخيئة لجبل

(حوريب) أو طور سينين فأوحيت إلى ذلك الراعى

ما يوحى ، فعلم الذرية المصطفاة أولا

كيف في البدء نشأت الأرض والسماء

من العماء ! فإذا راق لك ذروة (صهيون)

ونهر (سلوام) الذي يتدفق حيثًا

بجوار بيت الله فإننى من تم

أناشدك العون على صوغ أنشودتى المحفوفة بالمخاطر

إذ لا تعترز أن تطوف بالسمااء الوسطى بل أن تحلق عالياً

١٥

فوق قمة جبل (أيونيا)، لتعالج

ما لم يعالجه أحد من قبل نثراً أو شعراً

ولا سيما أنت أيها الروح - يا من تنزل

من طهر فؤاده واستقام أمره منزلة تسمو على كل معبد

علمنى مما علمت رشداً - فلقد كنت قائماً

٢٠

منذ بداية الوجود ، باسطة جناحيك الجبارين

فوق الهوة الشاسعة ، ثم رقدت فوقها

مثل الحمامة ، حتى دبّت الحياة فى أحشائها !

بدد ظلمات نفسى ! شد أزرى وارفع القواعد من بيتى !

لعلنى وقد سموت إلى مقام هذا المقال

٢٥

أن أبين العناية الإلهية السرمدية أيما بيان

شارحاً حكمة ما يفعله الله بالإنسان .

حدثينى أولاً - إذ لا تخفى عليك خافية فى الجنة

ولا فى أغوار الجحيم السحيقة - حدثينى أولاً

عما حدا بجدينا العظيمين - وهما فى أعطاف النعيم

٧٣

٣٠

هاتان برضوان الله أن يغضبا

خالقهما ويعصيا مشيئته -

بعد أن دان لهما العالم = في محذور أوحد ؟

من الذي أغواهما أولاً بهذا العقوق الذميمة ؟

الشعبان الدنيء ! لقد أثار مكره الدفين

٣٥

نازع الحسد وطلب النار ، فخادع أم البشر

بعد أن لفظته الجنة لغروره وخيلائه

ومعه أتباعه ، حشد كبير

من الملائكة العاصين ، طمع في أن يساعده

على أن ييز أقرانه عزاً ومجدا

٤٠

وأن يضارع منزلة الله

إذا تطاول عليه ! وهكذا حفزه هذا المرمى الطامح

إلى تحدى عرش الله وملكه

وإثارة قتال عاق في الجنة : معركة يشينها الخيلاء

وحصاها هباء ! وهكذا قذف الإله الجبار به من حائق

٤٥

فانقلب ساقطاً يتقد لهيباً من السماء العليا

ذميماً مدحوراً مشتعلأ في هوة

مالها من قرار ، فأقام بها

تغله الأصفاد الصلبة ويصطلي بعذاب الحريق
ذلك بأنه تجاسر على منازلة ذى القوة والجبروت
وهكذا - طيلة أيام وليال تسع

مما يعد أهل الأرض - انبطح مع رفاقه البغضاء
في هوة الهزيمة ، يتقلبون فى لجج اللهب
وقد جللهم العار رغم خلودهم . ولكنه قد كتب عليه
أن يزيد من غضب الله عليه ، إذ بدأ التفكير

٥٥

فى سعادته الغاربة وعذابه المتواصل
يؤلمه . فأخذ يقلب عينيه الخاستتين فيما حوله ،
عينيه اللتين شهدتا على الألم والخسران المبين
وما اختلط بهما من الغرور العنيد والحقد الشديد
وسرعان ما أدرك - قدر ما يدرك الملائكة -

٦٠

ضنك حاله وضياح مآله
فهو فى قبو موحش مخيف ، تنور متأجج الأوار
تصاعد منه النار ويحيط بهم سرادقها ،
نار بلا نور ، بل ظلمات مبصرة
لا تفصح إلا عن مشاهد كرب

٦٥

وأصقاع أسى ، وظلال غم وهم ، وساحات

٧٥

لا يمكن أن يحل بها السلام والدعة ، بل لقد
امتنع فيها الأمل ، وهو مالا يمتنع على أحد !
إنه عذاب دائم يتدفق ، وطوفان من اللهب تغذيه
منايع كبريت لا تخبر جذوته ولا ينضب له معين .

٧٠

هذا هو المكان الذى أعده العدل السرمدى
لأولئك العصاة ، إذ حكم عليهم بهذا السجن
الدامس البهيم فابتعدوا فيه
عن الله وعن نور السماء

ثلاثة أمثال بعد مركز الأرض عن القطب الأقصى .

٧٥

ما أشد ما يختلف عما هبطوا منه !
وسرعان ما أبصر ثم رفاق سقوطه يتقاذفهم
بحر النيران المتلاطم ودوامات السعير العاصفة
وأبصر إلى جواره رفيقا يتلوى ألما

يليه فى السلطان ويليه فى جسامه الجرم

٨٠

وعرفته أرض فلسطين بعد ربح طويل
وأسمته بعزبول . ومن ثم اتجه إليه العدو الأكبر -
والذى أصبح اسمه فى السماء إبليس -

وظفقت تكلم كلمات جسورة كسرت طوق السكون الرهيب :

هل أنت حقا هو ؟ إن كنت فوا أسفاه ! لشد ما انكسرت
وتبدلت !

٨٥

ما أبعدك عمن كنت أراه فى أصقاع النعيم الوضاعة
يشع بهاء علويا يطفى بريقه

على الآلاف ! إذا كنت حقا من ربطنى به العهد الوثيق
وتضافر الفكر واجتماع الكلمة وتساوى الأمل

والخطر ونحن ننهض بذالك العمل العظيم

٩٠

فإثنى مشدود إليك اليوم برباط الآسى

ونخبة الرجاء ! ما أحط وهدة المهوى

وأرفع جنة المأوى ! لقد برهن على تفوقه الحاسم

حين أرعد وأبرق - وهل كان أحد يدرى قبلها

قوة ذراعيه الجبارتين ؟ ولكن هذا جميعا

٩٥

بل وكل ما يستطيع القوى الظافر فى سورة غضبه

أن ينزله بى من تنكيل - لن يدفعنى إلى الندم

ولن يجعلنى ما فقدته من بهاء المظهر أغير ما عقدت عليه العزم

ولن ينال من كبريائى الوطيدة أن امتهنت قدرتى

إذ إن هذه الكبرياء هى التى دفعتنى لمنازلة أقوى الأقوياء

دافعا إلى المعركة الضارية

بقوة لا يحصى عددها من الأرواح المدمجة

ممن تجاسروا على مناوئة حكمه وانحازوا إلى صفوفى

فقارعوا قوته العارمة بقوة غاشمة

فى معركة سجل فى وديان السماء

١٠٥

زلزلت عرشه . وماذا إذا خسرنا الموقعة ؟

إننا لم نخسر كل شيء . ما زالت لدى عزيمة لا تُفَلَّ

ومواصلة السعى للإنتقام . وحقد لا ينفد

وصمود لا يعرف التسليم أو الاستسلام .

وهل ثمَّ ما لا يقهر بعد هذه الخصال ؟

١١٠

إن ذلك ظفر لن يستطيع غضبه أو جبروته

أن يسلبنى إياه . أما الخضوع وطلب المغفرة

والركوع فى خشوع أمام سلطانه

وهو من ذاق بطش ذراعى هذه منذ برهة

خاف فيها على ملكه ، فهو الذلة والمسكنة

١١٥

بل عار جلل لا تدانيه مهانة هذا السقوط

أما وقد قضت الأقدار لقوة الآلهة

وهذا الكيان السماوى ألا يصيبه الوهن

ولما كنا قد خضنا غمار هذا الحدث الجلل

وخرجنا بأسلحة لا تقل مضاء وبصيرة أبعد نفاذا

١٢٠

فلئننا نستطيع إذا حزمنا أمرنا - يحدونا أمل أصدق -

أن نشن - عتوة أو بالمكر - حربا سرمدية

لا يخمد لها أوار على عدونا اللدود

الذى عقد له النصر اليوم فغدا فى غمرة فرحه

يطفى فى السماء وقد دان له السلطان غير منارع .

١٢٥

هكذا تحدث الملاك الذى فسق ، رغم عذابه ،

متباهيا ، راعق الثبرة بعصره بأس عميق .

ولم يلبث أن جاءه الجواب من رفيقه الجسور :

أيها الأمير ! يا رعيم العديد من الصناديد المتوجين

يا من قدت المقاتلين الأفاذ من طبقة الصاروفيم فى حومة الوغى

١٣٠

لقاموا تحت إمرتك بفعال رهية

جسورة تهددت بالخطر ملك السماء الدائم

وقدمت البرهان على سمو رفعته

سواء كان مردها إلى القوة أم المصادفة أم القدر

إن الحدث الرهيب ليمثل أمام ناظرى فيشير الأسى

١٣٥

على هذا الانقلاب المؤلم والهزيمة التكرار

التي أفقدتنا الجنة وبصحبتنا هذا الحشد العاتى !

يا للتهلكة المخزية ويا لدرك الحضيض الخفيض !

لقد فنى منا ما يفنى من الأرباب وكائنات السماء

إذ ما زال الذهن منا والروح

صامدين وسرعان ما يعود بأسنا شديدا ١٤٠

رغم انطفاء جذوة المجد والبهاء ، ورغم أن الهناء

قد ابتلعه إلى الأبد يَمُّ الشقاء !

ولكن ما بال قاهرنا الجبار - (ولا بد

لى أن أو من اليوم بأنه على كل شيء قدير

إذ ما كان لغيره أن يفتك هذا الفتك بقوانا) ١٤٥

أترأه قد أبقي على هذه النفس وهذه القوة كاملة

حتى نقوى على مر المعاناة وأليم العذاب

فنشبع غضبة انتقامه

أم لننهض بأعباء ما يأمرنا به وقد صرنا عبيداً له

بحق الغلبة والنصر - أيا كان ما يأمرنا به ١٥٠

سواء كنا فى قلب النار نكتوى بشواظ الجحيم

أم نقضى له المآرب فى المحيط البهيم ؟

وما جدوى قوتنا التى لم تنتقص وكيانتنا السرمدي

إذا كان لن يأتى إلا بعقاب سرمدي ١٥٥

وسرعان ما جاء رد الشيطان الأكبر قائلاً :

أيها الملاك الذى هوى ! الضعف شقاء

سواء فى العمل أو المعاناة . ثق فى قولى هذا

لن نفعل الخير يوماً

١٦٠

بل سنرى فى الشر دوماً متعة مثلى

فهو نقيض المشيئة العليا

لمن نقاوم ونناوئ . فإن قضت مشيئته

بأن يُخرجَ من شر فعالنا خيراً

فعلينا أن نحاول إفساد مسعاه

١٦٥

فنجعل من الخير سبباً إلى الشر .

لظالماً كلل هذا المسعى بالنجاح ومن ثم فربما

عكر صفوه ! وإن لم يخب ظنى فربما

أطاش سهام نواياه الصادقة فلم تصب أهدافها .

ولكن انظر ! لقد استدعى الظافر الغاضب

١٧٠

رسل الإنتقام والطراد فعادت

إلى أبواب السماء : إن شآبيب الكبريت

التي أطلقت علينا عاصفة جائحة قد أخدمت

لجنة النيران التي كانت قد تلقفتنا

- حين هويانا عند شفا حفرة السماء ! أما الرعد
 ١٧٥ بأجنحته من برق أحمر وغضب جامع
 فربما نفدت سهامه ! لقد أقلع
 عن عوائه في أعماق المحيط الشاسع المثرامي .
 ينبغي ألا تفلت هذه الفرصة ، سواء كان مردها
 استصغار عدونا لشأننا ، أم أنه قد أشبع غضبته ورواها !
 ١٨٠ أترى ذلك السهل الكثيب ، الموحش الرهيب ،
 مقر الخراب والهباء ، وما به من ضياء
 إلا ما تلقيه ألسنة اللهب الشاحبة من بصيص
 خاب مخيف ؟ فلنأو إليه
 ليعصمنا من لجج السعير المتلاطمة
 ١٨٥ ولنسترح إن كان ثم للراحة مرفأ
 وليلتئم شمل قوانا المنهكة
 فنتطارح الرأي في أشد ما نؤذى به - منذ يومنا هذا -
 عدونا ، وفي وسائل استعادتنا ما فقدناه
 وتخطى هذه الكارثة الباقعة
 ١٩٠ وما عسى أن يمدنا الأمل به من قوة
 إن لم يكن اليأس بحافز على العزم المبين !

وهكذا فرغ إبليس من الحديث إلى رفيقه المقرب
وقد اشرب رأسه فوق الأمواج ، وجمحت عيناه
فبرقتا والتهبتا ، أما سائر أعضائه

١٩٥

فمالت على اليم ، وامتد طولاً وضخامة ،

ساحبا فراسخ عديدة ، هيكل هائل

مثل وحش الأساطير ذى الجرم الضخم

(تيتان) أو مثل أبناء الأرض الذين نازلوا (جوبيتر) ،

أو مثل (برياروس) أو (تايفون) الذى اتخذ عرينه

٢٠٠

فى (طرسوس) القديمة ، أو مثل وحش البحر

(ليفياثان) الذى جعله الله من بين الخلائق

أضخم من مخر عباب المحيط !

ويروى الملاحون فيما يروون أنه كان يغفو فى مياه بحر (النرويج)

إذ رآه ربان سفينة صغيرة غرقت ليلا

٢٠٥

فظنه جزيرة

فألقي المرساة على جسده ذى القشور الصلبة

وأرسي الفلك إلى جواره والليل

يغشى البحر ، وطال به انتظار الفجر .

وهكذا استلقى الشيطان الأكبر ماردا عملاقا

٢١٠ تغله الأصفاة فوق بحيرة اللهب ! ولكنه لم يكن ليرفع رأسه
وينهض منها لو لم تكن مشيئة السماء -

مشيئة العلى الكبير - قد أذنت

فأطلقت سراحه لتطلق مكائده الدفينة

فيقترف الجرم من بعد الجرم

٢١٥ فتصيبه اللعنة من بعد اللعنة ، وهو يسعى

لإيقاع غيره فى أشراك الشر ، فيرى فى سَوْرَتِهِ

مكره وقد خاب فلم يثمر

إلا الخير كل الخير وأتى بالرحمة والغفران لمن

أغواهم من بنى الإنسان ، بينما تنهال على رأسه

٢٢٠ الكروب مضاعفة ، وينصب عليه جام الإنتقام والغضب .

وهنا نهض من البحيرة لفوره وانتصب

بقامته الجبارة ، وعلى الجانبين كانت ألسنة اللهب

ترتد فتلتف أسنانها المدببة وتتكور

فى أمواج كالجبال تنفرج عن واد شائك مسنون .

٢٢٥ ثم نشر جناحيه فخلق طائرا

فى الجو ينوء الهواء البهيم بحمله

ويدرك عبء ثقله الخارق ، وأخيراً على اليابسة

استوى ، إن كانت تلك هي اليابسة ! إنها تلتهب أبداً

بنيران صلبة ، مثلما التهمت البحيرة بالنيران السائلة .

٢٣٠

ويداً لونها مثل بركان تثيره قوى

الرياح الحبيسة في باطن الأرض فتثقل التل من مكانه

وتتزعجه من جبل (بلوروس) ، أو مثل السفح الذي مزقه

بركا (إتنا) الراعد ، فاشتعلت

أحشاؤه بوقود جبار سرى فيه الضرام

٢٣٥

وفارت فيه المعادن فغدت أبخرة تندفع مع الريح

وخلفت القاع محترقا ، يغلفه

الدخان ويغمره كربه الرائحة يا له من موطن راحة

لأقدام لعينة ! وتلاه رفيقه الذي يتلوه في المنزل

وقد أسعدهما أن هربا من بحيرة اللهب الجهنمية

٢٤٠

وما زال أربابا وأنهما في ظنهما قد أفلتا بفضل القوة التي عادت لهما

لابفضل ما أذن به ذو القوة والجبروت

وهنا أنشأ يقول من كان ملاكا أكبر :

أعلينا إذن أن نستبدل هذه البقعة وهذه التربة وهذا المناخ

بجنة النعيم ؟ أعلينا أن نستبدل هذا البلقع المدلهم

٢٤٥

بالضيء العلوى الغامر ؟ فليكن ! فإذا كان

من له الملك اليوم يصرف الأمر كما يشاء ويقضى
فَيُقْضَى له ، فأفضل المواقع أبعدا عنه !
لقد جعلنا العقل نظراء ولكنه تفوق بالقوة
على نظرائه ! وداعا إذن يا رياض الهناء

٢٥٠

يا موطن السرور الأبدى ! ومرحبا بالهم والغم !
مرحبا بالدرك الأسفل ! وأنت يا أغوار الجحيم السحيقة
تقبلي ربك الجديد : رب يأتى إليك بذهن لا يتبدل
ولا ينال منه مكان أو زمان .

٢٥٥

فالذهن هو الذى يخلق المكان ، وهو فى باطنه
قادر على أن يحيل الجحيم جنة أو الجنة جحيما
وماذا يضيرنى أن أكون هنا أو هناك ما دمت الكيان
نفسه - كما ينبغى - أكاد أضارع من تفوق على
بقوته العاتية ؟ إننا - على الأقل -

٢٦٠

سننعم بالحرية هنا ! إن ذا الجبروت لم ينشئ
هذا المكان ليعث على الغبطة ، ولذلك لن يخرجنا منه !
لنا أن نسود هنا آمين ، وإننى لأرى
أن السيادة مطمع رفيع ولو كانت فى الجحيم !
سيد فى جهنم أكرم من عبد فى الجنة !

ولكن ما لنا خلفنا رفاقنا المخلصين

٢٦٥

شركاء الضياع وزملاء السقوط

يرقدون ذاهلين فى بحيرة النسيان ؟

ما لنا لا نناديهم ليتقاسموا معنا

تعاسة مأوانا أو ليجتمع شملنا ثانيا

فنضم الصفوف المدججة لنسترد ما بقى

٢٧٠

لنا فى الجنة أو نتحاشى مزيدا من الضياع فى الجحيم ؟

وبعد أن فرغ إبليس من حديثه

جاءه رد (بعلزبول) : يا زعيم الأجناد البهية

من لا غالب لها سوى ذى القوة والجبروت

إن فى صوتك عهدا وثيقا يحيى الأمل

٢٧٥

وبيعه فى بهمة المخاوف والمخاطر ! وكثيرا ما دوى

فى لحظات أحلك من هذه ونحن على شفا حفرة

من الهلاك وقد اضطرم سكير المعركة ، فكان أصدق

حافز على الكر والنزال ! إنهم إن سمعوا صوتك

فسوف تشرق الشجاعة فى الصدور ولسوف يهبون من هذا الرقاد

٢٨٠

الخاضع الذليل فى بحيرة النار

كشأننا منذ برهة وقد ذهلت منهم العقول وغابت

ولا غرو بعد أن هـووا من ذلك الارتفاع الشاهق .

ولم يكـد ينتهى من حديثه حتى نهض الشيطان الأكبر

فاتجه إلى الشاطئ يحمل درعه الثقيل

٢٨٥

الذى صاغته نيران السماء ضخماً كبيراً مستديراً !

كان يحمله على ظهره وقد بدا محيطه الشاسع

فوق كتفيه مثل القمر عندما تطلع إليه

فنان (توسكانا) فى منظاره المقرب

ساعة المساء من قمة جبل (فيزولى)

٢٩٠

أو (فالدانونو) ليشهد الأرض الجديدة

والأنهار والجبال على صفحته الرقشاء !

أما رمحه فتتضاءل إلى جواره أطول أشجار الصنوبر

التي تؤخذ من سفوح (النرويـج) لتصبح سوارى

على أضخم السفن ! بل إنها لتبدو عصيا قصيرة إن قيست به !

٢٩٥

كان يتكىء عليه ليسانده فى خطوه المتعثر

فوق التربة المشتعلة ! ما أبعدھا عن خطواته الثابتة

على صفحة السماء اللازوردية ! كان الهواء الساخن

يشوى الوجوه ، وقد حملته النيران حملا !

ولكنه احتمل العذاب حتى وصل إلى مرفأ

٣٠٠

البحر المتأجج فوقف ونادى أجناده -

ملائكة فى الصورة يستلقون فى إغماءة

وقد تكدست جسومهم مثل أوراق الخريف الذابلة

على صفحة غدران (فالومبروزا) ، ومن فوقها ظلال

(أتروريا)

كالخمائل السامقة ، أو مثل الأعشاب المبعثرة على وجه الماء

٣٠٥

عندما سطع نجم الجبار فأرسل ريحه الصرصر العاتية

لتلاطم ساحل البحر الأحمر فغشيت أمواجه

فرعون وجنوده وانقلبوا أى منقلب !

كانوا قد جدوا فى أثر قاطنى أرض (جاسان) ، وتعقبوهم

بأحقادهم ومكرهم

ولكن المهاجرين وصلوا إلى بر الأمان فشاهدوا

٣١٠

أجساد أعدائهم طافية

وعجلات عرباتهم وقد تحطمت وتناثرت أشلاء ! فهكذا كانوا

الآن - أكواما بشعة ضائعة فوق صفحة اليم

ذاهلين لما حل بهم من خسوف .

ونادى بصوت عريض ترددت أصداؤه فى هوة

٣١٥

الجحيم الفاغرة : أيها الأمراء ! أيها القواد !

أيها الأجناد ! إن زهور الجنة التي كانت لكم لضائعة

إذا كان لهذا الدهول أن يصيب

الأرواح الخالدة ! أم تراكم اخترتم هذه البقعة

بعد عناء الموقعة لتريحوا

٣٢٠

بسالتمكم اللاعبة - وهل فى النوم من راحة

هنا مثل الرقاد فى وديان الجنة ؟

أم تراكم قد أقسمتم بهذا الاسترخاء الدميم

على الخنوع للظافر ؟ إنه يشهد الآن

كل ملاك من طبقتى الشاروبيم والصاروفيم وهو يتلوى فى اليم

٣٢٥

وقد تناثرت أسلحته وراياته وسرعان ما

يدرك فرسان الكر الخاطف - الذين يقفون الآن لدى

باب الجنة - أن الفرصة مواتية فيهبطون وينقضون علينا

وقد طرحنا أرضا ! ولربما أطلقوا علينا سهام الصواعق

المتصلة

٣٣٠

فرموا بنا فى قاع هذا الخضم !

هبوا وانهضوا وإلا تردبتم ها هنا للأبد !

أصغوا إليه فخامرهم خجل وفى الحال هبوا

محلقيين - كأنهم حراس من بنى البشر

فاجأهم رئيسهم المهاب فى سهرهم وقد غفلوا

٣٣٥

فنهضوا ينشدون اليقظة وما هم ييقظين

لم يكونوا غافلين عن الخسران الفادح

الذى غشيهم ولا الآلام المبرحة التى تعتصرهم

ولكنهم أصاخوا على الفور لصوت رئيسهم

فى أعداد لا تحصى . مثلما رفع

موسى عصاه فى زمن الشدة بمصر

٣٤٠

وأشاح بها على الساحل فأرسل الله سحابا مدلهما

من الجراد مالت أسرابه مع ربح الشرق

فظللت مسلك فرعون الكافر

كأنها الليل البهيم يرخى سدوله على وادى النيل !

هكذا بدت هذه الأعداد التى لا تحصى من الملائكة الفسقة

٣٤٥

وهم يحلقون بأجنحتهم فى سرادق الجحيم

والنار من فوقهم ومن تحتهم ومن حولهم

ثم رفع رئيسهم رمحه ، مشيراً به إليهم

وصوب القائد الأكبر طرفه ليحدد

مسارهم فإذا هم يهبطون فى استواء

٣٥٠

على أحجار الجحيم الكبرى الصلبة ويملأون السهل !

٩١

يا له من حشد حاشد ! لم تتدفق مثله الجحافل

من أصقاع الشمال ، من صلب وارد بارد

لتركب نهر (الراين) أو نهر (الدانوب) ، عندما كان البرابرة

من أبناء الشمال يتدفقون مثل الطوفان جنوبا ويتشرون

٣٥٥

وراء جبل طارق إلى صحراء ليبيا

وعلى الفور انطلق من كل سرب ومن كل كتيبة

رؤساؤها وقوادها مسرعين إلى حيث يقف

زعيمهم الأكبر ، على محياهم سمات الآلهة

ومخايل نبل تبرز أشراف البشر وأمرأهم .

٣٦٠

لقد كانوا منذ هنيهة عتاة يتربعون على عرش الجنة ،

رغم أن أسماءهم قد انمحت الآن من سجلات السماء

ولم يعد لها من ذكر بعد أن كسطها فسوقهم ومحاهها

من ألواح الحياة !

لم يكونوا قد اكتسبوا بين بني حواء

٣٦٥

أسماء جديدة حتى ينتشروا في الأرض

بمشيئة الله العليا ليبتلوا الإنسان

بأباطيل وأكاذيب فيغفوا أكثر

الناس على الفساد حتى يخرجوا من كنف

الله بارئهم ويحيلوا

٣٧٠

سواء من خلقهم - ذلك السناء الخفى -

إلى صورة حيوان أعجم زينوه

بأكاليل من طقوسهم حافلة بالبهرج والنضار

وحتى يتخذوا الشياطين آلهة من دون الله :

عندها عرفهم الناس بأسماء شتى .

٣٧٥

وغدوا أصناما شتى فى عالم الوثنية

خبرنى يا ربه الشعر ! لقد عُرِفَتْ أسماؤهم ، من كان أول من

نهض

من الرقاد على تلك الأريكة المتأججة ومن كان آخرهم

عندما دوى نداء سلطانهم العظيم ؟ إنه التالى فى المنزلة

وقد أتى وحده إلى حيث وقف على الشاطئ المقفر ،

٣٨٠

والحشد المختلط ما زال بعيداً ينظر !

إن أعظمهم أولئك الذين نهضوا من وهدة الجحيم

فانتشروا ينشدون ضحاياهم على الأرض فتجاسروا

على إقامة عروشهم - بعد زمن طويل - فى موقع يلي عرش الله

وإقامة مذابحهم بالقرب من مذبحه ، فأصبحوا آلهة تعبدوها

٣٨٥

الشعوب ، وتجاسروا على مواجهة

٩٣

(يهوه) وهو يرعد خارجاً من (صهيون) متوجاً

بين ملائكة الشاروبيم ! أجل ! بل إنهم كثيراً ما أقاموا

معابدهم وسط قدس أقداسه !

تلك الأرجاس !! بل دنسوا بكل ذميم

شعائره القدسية وموائده المباركة

٣٩٠

وتجاسروا على لطم أنواره بدياجيرهم !

أولهم (ملكوم) - الملك الأشأم الذي لطخت يديه دماء

الضحايا البشرية ودموع الآباء والأمهات

ولولا ضجيج الطبول وجلبة الدفوف

٣٩٥

لسمع صراخ أطفالهم وهم يلقون في النار

أمام صنمه الجهم ! لقد عبده بنو (عمون)

في (ربّه) حيث ينبسط الماء سهلاً عريضا

وفي (أرجوب) و (باشان) وحتى النهر

الذي يحد أقصى تخوم (أرتون) ! وكأنما لم تكفه

٤٠٠

كل هذه البقاع المهيبة فخادع قلب أحكم الحكماء

سليمان حتى يبنى له معبدا

بجوار معبد الله

على تل تدنس من ثم ، وحتى يتخذ بستانه

فى وادى (بنى هَنُوم) الجميل الذى تغير اسمه من ثم إلى (توفه)

٤٠٥

وجهنم السوداء - رمز الجحيم الحق !

وثلاه (كموش) رجس المؤابيين

من منطقة (عروعر) إلى (نُبو) والبرية

فى أقصى جنوب جبال (عباريم) وفى (حشبون)

و (حوروناييم) التى تخضع لملك (سيحون) وراء

٤١٠

وادى (سبمة) المزهر الذى تكسوه عرائش الكروم

ومن (العالة) حتى البحر الميت .

كان قد تسمى باسم (لففور) عندما أغوى

بنى إسرائيل بالإقامة فى (شطيم) بعد خروجهم من وادى النيل

ليؤدوا له طقوسهم الدنسة التى جرت عليهم المصائب

٤١٥

ومع ذلك فقد وسع من نطاق طقوسه الماجنة

حتى بلغ التل الدنس ، وبستان

مذابح (ملكوم) ، فى شهوة تصحبها الاحقاد !

حتى أخرجهم (يُوشِيَّا) الصالح منها إلى الجحيم .

ومع هؤلاء أنى قوم تسموا بأسماء عديدة

٤٢٠

فى المنطقة ما بين (الفرات) العريق والنهر الذى يجرى بين

أرض (مصر) وأرض (سورية) - وقد كانت أسماؤهم الشائعة

٩٥

هي (البعليم) للذكر و (عشتورث) للأنثى

إذ إن للأرواح عندما تشاء

أن تتخذ صورة الذكر أو صورة الأنثى أو كليهما فهي رقيقة

٤٢٥

وبسيطة في جوهرها النقي

لا يربطها أو تغلها المفاصل أو الأطراف

ولا تقوم على قوة العظام الهشة

مثلاً يقوم اللحم الثقيل - ولكنها في أى صورة تختارها

متمدة أو مضغوطة ، مضيئة أو مظلمة

٤٣٠

تستطيع أن تقضى مآربها الأثرية

فتقيم وشائج الحب أو أسوار العداء .

وقد تخلى بنو إسرائيل - من أجل هؤلاء - عن

قوتهم الحية ، وتركوا وراءهم ظهرياً

معبد الله الحق ، راكعين في خشوع

٤٣٥

لآلهة من الحيوان ، ومن أجلهم أيضاً كانت رؤوسهم

تنحني وتركع في حومة الوغى ، خاشعة أمام حراب

أعداء أرجاس . ومع هؤلاء - في هذا الحشد -

أنت (عشتورث) - التى أسماها الفينيقيون

(عشتروث) ، ملكة السماء ، بقرون كالأهلة

٤٤٠

وأمام صورتها الوضاعة -

كانت عذارى (صيدا) يحلفن الأيمان كل ليلة فى ضوء القمر

وينشدن الأهازيج

التي أنشدت فى (صهيون) حيث انتصب

معبدها فوق الجبل المدينس الذى بناه

ذلك الملك المفتون بزوجته والذى وقع رغم رحابة قلبه

٤٤٥

فى حبال الغيد من عابدات الأصنام فسقط

أمام الأصنام الدنسة . وأتى بعد ذلك (تموز) الذى

كان جرحه يدمى كل عام فى (لبنان) فيخلب لب

بنات (سورية) إذ تأتين للبكاء على مصيره

منشدات أهازيج غرام طول أيام الصيف

٤٥٠

بينما يجرى نهر (أدونيس) هابطا من صخرته

مصطبغا بالأرجوان حتى يصل إلى البحر ، كأنما سرى فيه دم

(تموز) الذى يسيل جرحه كل عام ، أما قصة الحب هذه

فقد بثت شهوة مماثلة فى جوانح بنات (صهيون)

بل شهوات ماجنة فى القبة المقدسة

٤٥٥

أبصرها (حزقيال) عندما هدته الرؤيا

ليشهد الشرك والتعبد فى الظلام

- لـ (يهوذا) المغضوب عليه ! وجاء بعده
من بكى مر البكاء ، حين شوه فُلُكُ الله
الأسير صورته البهائم ! بل إنه قطع رأسه ويديه
٤٦٠ فارتمى (الصنم) لدى الباب فى عقر معبده
طريحا وجلب العار لعباده !
كان اسمه (داجون) وهو وحش بشرى نصفه الأعلى بشر
ونصفه الأسفل حوت ! ومع ذلك فقد ارتفع معبده
على البنيان فى (أشدود) ، وكانت له مهابة فى أرجاء ساحل
٤٦٥ (فلسطين) ، فى (جت) وفى (عسقلان)
وفى (عكا) وفى (غزة) حتى أقصى التخوم
وجاء من بعده (رمون) الذى اتخذ مقره الجميل
فى (دمشق) الفيحاء على الضفاف الخصبة
لنهرى (أبانة) ونهر (الفرفر) بمياهما الرقاقة !
٤٧٠ كان قد تجاسر هو الآخر على بيت الله
فخسر قلب المجذوم وفاز بقلب الملك (آحاز)
الفتاح المأفون ، فجعله
يسخر من معبد نبي الله ويقيم مكانه
معبدا سوريا ليحرق فيه

٤٧٥

قرايينه البشعة ويصلى للآلهة

الذين قهرهم ! وجاء بعد هؤلاء

رهمط ذاعت أسماؤهم فى غابر الزمان -

(أوزوريس) و (إيزيس) و (حورس) ومن تبعهم

من ذوى الصور الممسوخة وأرباب السحر الذين أضلوا

٤٨٠

فرعون وكهنة مصر المتعصبين الذين عبدوا

آلهة من الرُّحَل الذين اتخذوا صور الحيوان

لا الإنسان ! ولم ينج بنو إسرائيل من هذا

الوباء إذا صنعوا من الذهب الذى اقترضوه

عجلا فى (حوريب) ! أما الملك العاصى

٤٨٥

فقد ضاعفت من هذا الإثم فى (بيت ايل) وفى (دان)

حين مثل لخالقه بثور يرعى الكلاء -

(يهوه) الذى ضرب ضربة واحدة وهو خارج

من مصر ، فأتت فى ليلة واحدة ودون تفرقة على

أكبر أبنائها وبهائمها - آلهة مصر الثاغية !

٤٩٠

وأخيراً أتى (بليعال) أمجن الجن التى

خرجت من الجنة ، وأغلظها طبعاً لحبه

الشر لذاته ! لم يكن يعترف بمعبد قائم

أو مذبح يحرق فيه البخور ! ومع ذلك فما أكثر ما اختلف

إلى المعابد والمذابح ليجعل من الكاهن

٤٩٥

ملحدا مثلما فعل بنو (عالى) الذين أفعموا

بالشهوات الدنيا وبالبطش بيت الله

وبلاط الملوك والقصور ! إنه ليسط سلطانه

فى المدائن المترفة حيث تعلو أصوات

الحفلات الصاخبة فوق أبراجها العالية كما تعلو

٥٠٠

أصوات الفسق والفجور ! وحينما يرخى الليل

ظلامه على الطرقات يخرج أبناء

(بليعال) وقد انتفخت بطونهم بالنبيذ وانتفخت أوداجهم بالبذاءة !

انظر إلى طرقات (سدوم) وتلك الليلة الليلية

فى (جبعة) عندما تبرجت لدى باب رجل كريم

٥٠٥

امرأة لتجنب صاحب الدار هتك عرضه !

تقدم هؤلاء لعلو منزلتهم وجبروتهم ،

أما الباقي فيطول ذكر أسمائهم رغم ذيوهم وشهرتهم

إنهم آلهة (الأيونيين) الذين انحدروا من صلب (ياوان) فاعتبروا

آلهة رغم نسبتهم فيما بعد إلى السماء والأرض

٥١٠

وتفاخرهم بهذين الأبوين . كان (تيتان) ابن السماء الأكبر

١٠٩

وكانت ذريته من المردة الغلاظ ، وقد اغتصب ملكه الموروث

(ساتورنوس) الذى يصغره سنا ثم لقى من (جوف) الجبار

المعاملة نفسها هو وابنه الذى أنجبه من (ريا)

وهكذا حكم (جوف) اغتصابا : إذ عُرِفَ هؤلاء أولاً فى

(كريت)

٥١٥

وعلى جبل (أيدا) ثم اعتلوا الثلوج التى تكسو قمة جبل

(الأوليمب) بزمهريه وحكموا السماء الوسطى فكانت

أرفع سماواتهم ، واستقر بعضهم على صخور (دلفى)

أو فى (دودونا) وحتى أقاصى

أرض (دوريس) وأما البعض الآخر فقد اصطحبوا

(ساتورنوس) الهرم

٥٢٠

وانطلقوا فوق مياه البحر (الأدرياتى) إلى حقول

(هسبيريا)

وفوق سهول (الكلت) محلقيين حتى الجزر القصوى .

احتشد هؤلاء وغيرهم . كانت نظراتهم

زائغة وعيونهم كسيرة ، على ما لاح فيها

من بصيص فرحة خائية حين وجدوا أن رئيسهم

لم يتلعه اليأس ، ووجدوا أنهم لم يضيعوا بعد

٥٢٥

١٠١

حتى وهم فى غمرة الضياع ! كان على محياه

ظل كسوف ، بيد أن كبرياءه الأصيلة

سرعان ما عادت إليه فطفق يتكلم كلمات طنانة توحى

بمعان جليلة وهى منها خواء ! كانت كلمات رفيقة أذكت

٥٣٠

شجاعتهم الذاتية وبددت مخاوفهم .

ثم أمر بأنه عندما يدوى صوت الحرب

عاليا من كل بوق ونفير فعليهم أن يرفعوا

رايته الجبارة - وهو شرف كبير أصر على أن يناله

(عزازيل) قائلاً إنه من حقه لعلو قامته .

٥٣٥

وعلى الفور نُشرت من القناة البراقة

راية السلطان فارتفعت شماء

وتألفت مثل مُذنبٍ يساب فى الريح وقد لمعت فيه

الأحجار الكريمة وسطع بريقه الذهبى الأخاذ

إذ تألفت فى الراية رموز الأسلحة وأكاليل النصر التى ظفر بها

الملائكة

٥٤٠

بينما أخذت الأبواق الرهيبة تدوى بأنغام الحرب .

ثم ندت من ذلك الحشد الحاشد

صيحة مزقت قبة الجحيم وتخطتها

لتفزع ملك العماء والليل الهرم

إذ تَبَدَّتْ فجأة في البهمة

٥٤٥

عشرة آلاف راية ترتفع عاليا في الهواء ،

خفاقة بألوانها المشرقة ! وارتفعت معها

غابة لَفَاءٍ من الرماح الشائكة والخوذات المحتشدة

والدروع الكثيفة التي حشرت حشراً

فما يسبر لها من غور ! وإذا بها جميعا تتحرك

٥٥٠

في فيلق محكم على أنغام مقام (دوريس) من

النايات والمزامير الرقيقة ! كانت هذه الأنغام هي التي سمت

بالأبطال القدماء إلى أرفع درجات الشرف وهم يتأهبون

بأسلحتهم لخوض القتال ، وجعلتهم يتنفسون أنفاس

الشجاعة الرزينة ، لا أنفاس الغضب ، فثبتوا ولم ينكصوا على

٥٥٥

أعقابهم خشية الموت ، ولم يولوا الأدبار يوماً ما

فلديهم طاقة التخفيف عن أذهانهم المضطربة ،

والترويح عن نفوسهم الشائرة ، باللمسات الرصينة الرزينة ،

بل وإقصاء القلق والشك والخوف والحزن والألم

عن أذهان الفناء وأذهان الخلود جميعا . فهكذا كان هؤلاء الآن ،

٥٦٠

يتنفسون قوة موحدة ، ثابتة العزم ،

١٠٣

ويسرون فى صمت على أنغام المزامير الساحرة التى يسرت

خطوهم الموجه فوق التربة الملتهبة . وها هم الآن

يبرزون للعيان ، ويتوقفون : جبهة شاكية السلاح

طولها مهيب وسناها يذهب بالأبصار ، فى صورة

الصناديد القدماء ، وقد سوا صفوف الحراب والدروع ،

٥٦٥

فى انتظار الأمر الذى كان على زعيمهم الجبار

أن يصدره . أما هو فقد ألقى على هذه الصفوف المدججة

عينه الخيرة ، واستعرض فى لمحة

ذلك الجحفل بأسره ، فتبين له انتظام درجاتهم ، وبدت له

وجوههم وقاماتهم فى صور الآلهة

٥٧٠

ثم أحصاهم وعددهم عدا فانتفش قلبه بالزهو

والخيلاء ، وقسى فى قوته وتباهى ،

إذ إنه منذ أن خلق الإنسان

لم يلتق مثل هذا الحشد لقاء رجل واحد ، ولن يبدو أمامهم

أى جيش أكبر من صغار فصائل المشاة التى

٥٧٥

هزمتها الكراكى ! أو تذكر سلاله العمالقة الذين

خاضوا معارك (فليجرا) وقد تضافرت معهم ذرية الأبطال

الذين حاربوا فى (طيبة) وفى (إليوم) ، وما انضم إلى

كل فريق من آلهة تعينه ؟ أو ما ترويه

٥٨٠

الأسطورة والرومانسة عن ابن (أوثر) الذي

أحاط به فرسان (بريطانيا) و (أرموريا)

وكل من قاتل منذ ذلك الحين ، مؤمنا أو كافرا ،

في (اسبارامونتي) أو (مونتالبان) ، وفي

(دمشق) أو (المغرب) أو (طرابزون)

٥٨٥

أو من خرجوا من (بنزرت) على ساحل (إفريقيا)

ليكسروا (شارلمان) وفرسانه في موقعة

(فونتاريا) ؟ ! فهكذا كان هؤلاء الذين تجاوزوا كل

صورة لعنفوان البشر يقفون الآن تكريما

لقائدهم المهيّب : كانت هامته تعلو على الجميع

٥٩٠

وكان في صورته وحركته شامخا متكبرا

كالبرج الأشم . لم تكن طلعتة قد فقدت بعد

بهاءها الأول ، فبدا ملاكا أكبر

أناخ عليه الدهر ، وغام من فرط

السناء وأظلم ! مثل الشمس عند شروقها

٥٩٥

وهي تشخص من خلال ضباب الآفاق ،

عاطلة من أشعتها ، أو عندما تطل من وراء القمر

١٠٥

ساعة الخسوف المدلهم ، جالب الكوارث ، فتسكب الظلال

على نصف أمم الأرض ، وتثير الخوف من التحول

والقلق في قلوب الملوك . ورغم الظلام الذي كان يلف

الملاك الأكبر فقد فاق ضياؤه كل من حوله . كانت

الجراح الغائرة من أثر الرعود تُغضّن وجهه ، وكان الهم

يقبع فوق خده الذابل ، مستظلا بحاجبين ينطقان

بشجاعة لا تُفَلّ ، وكبرياء الرزين المتدبر

الذي يتحين الثأر ! وكانت في عينيه قسوة تشوبها

آيات ندم وشوق إلى رؤية

رفاق جريمته ، أو قل أتباعه

(وما أشد اختلافهم عمن رآهم في النعيم) الذين كتب عليهم

الآن أن يتحملوا الآلام إلى أبد الأبد !

ملايين من الجان الذين أخذوا بجزيرته فحرموا

الجنة ونُبدوا من روائع الخلد

لفسوقه وعصيانه ! ما أشد ولاءهم له

حتى بعد أن ذوى بهاؤهم . أرأيت إلى نيران السماء

حين تحرق أشجار البلوط في الغابات أو أشجار الصنوبر على

الجبال

فتظل قاماتها المهيبة ، رغم عريها وشيب رؤوسها

٦١٥

متصبية على الربى الجرداء ؟! وتهياً الآن للحديث

بينما أخذت صفوفهم المزدوجة تنحني

من الجناحين حتى كادوا يحيطون به

هو وأقرانه وقد عقد الترقب ألسنتهم .

ثلاث مرات حاول أن ينطق ، وثلاث مرات - رغماً عنه -

٦٢٠

تفجرت من عينيه دموع كدموع الملائكة ، وأخيراً

اختلطت الكلمات بالآهات خارجة من شفثيه إذ قال :

يا آلاف الأرواح الخالدة ! أيتها القوى التي

لا غالب لها إلا القوى القدير ! لم يكن ذلك النزال

شائناً رغم انكسارنا المزرى

٦٢٥

الذي يشهد عليه هذا المكان ، وهذا الانقلاب المهيمن

الذي يشق ذكره ! ولكن أى طاقة للذهن

على التنبؤ أو رؤية للغيب ، غوصاً فى أعماق

العلم بالماضى أو بالحاضر ، كانت لتخشى اندحار

هذه القوة المتضافرة من الآلهة ؟ وكيف لمن

٦٣٠

يقف وقفتم هذه أن يُردَّ على عقبيه ؟

ومن ذا الذى يصدق ، حتى بعد الضياع ،

١٠٧

أن جميع هذه الكتابات العاتية التي أقصيت

من الجنة فتركها خاوية ، لن تستطيع أن ترتقى ثانيا

بشدة بأسها لتستعيد عرشها العريق ؟

٦٣٥

فليشهد على ما أقول كل أهل الجنة

إننى إذا كنت رأيت رأيا آخر أو تفاديت الخطر

لضاعت آمالنا جميعا ! ولكن الذى يحكم

وله الملك فى السماء كان فى مأمن حتى تلك اللحظة

جالسا على عرشه ، يُعزّزه صيته القديم

٦٤٠

أو تقبل سلطانه أو العرف القائم ، وبينما كان يبدى

شتى مظاهر ملكه كان يحرص دائما على إخفاء قوته

مما أغوانا أن نقدم على محاولتنا وتسبب فى سقوطنا !

أما الآن فنحن ندرك قوته وندرك قوتنا

بحيث نحجم عن إثارة حرب جديدة ، ولا نخشى

٦٤٥

خوض حرب جديدة إذا شئت ! والأفضل لنا الآن أن

نعمل فى الخفاء حتى ننال بالمكر أو الخديعة

ما لم ننله بالقوة ، عسى أن يتعلم هو الآخر

منا فى النهاية أن من ينتصر على عدوه

بالقوة وحدها إنما يحرز نصف انتصار فحسب .

٦٥٠

قد تولد في الفضاء عوالم جديدة ، بل كثيراً ما ترددت

الشائعات في السماء أن الله يعتزم خلقها

قريباً ، وأنه سوف يبذر فيها

سلالة يُحسِنُ خلقها

ويقربها منه لتضارع أبناء الجنة !

٦٥٥

هيا إلى ذلك العالم إذن ، ولو لاستطلاع فحسب ، فربما كان كذلك

بادرة انطلاقنا ! هيا إليه أو إلى أي مكان سواه ،

إذ لن نسمح لهذه الحفرة الجهنمية أن تغل أرواح السماء

في الأصفاد ، أو لهذه الهوة أن تظلمنا

بظلامها ردحا طويلا ! ولكن هذه الأفكار

٦٦٠

لن تنضج إلا بثناورنا جميعاً : السلام ميثوس منه

إذ من يفكر منا في الاستسلام ؟ إنها الحرب إذن ! الحرب !

وينبغي أن نحسم إذا ما كانت ستشن سافرة أو خفية .

فرغ من حديثه فارتفعت ملايين الأسياف الملتهبة

نصرةً لكلماته - أسياف استلت من أغمادها على

٦٦٥

جنوب الجبابرة من ملائكة الشاروييم ، فأضاء وهجها بغتة

جنبات الجحيم وأقاصيها : لقد تعالوا فتناولوا

على الأعلى ، وفي حمياهم دقوا بقبضات أسلحتهم

١٠٩

على دروعهم الرنانة دقات الحرب

وأرسلوا التحدى مدويا نحو قبة السماء .

٦٧٠

كان ثم جبل غير بعيد ، وكانت قمته الرهيبة

تتجشأ النيران والدخان المتكور ، أما سائر جسمه فكان

يبرق بقشور زاهية ، وهى دلائل مؤكدة على أنه

يخفى فى بطنه زبر الحديد والمعادن

التي ولدها الكبريت فانطلقت إليه على جناح السرعة

٦٧٥

كتيبة عرمرم ، مثل فرق الرواد

الذين يحملون المعول والجاروف

ويتقدمون جيش الملك ليحفروا الخنادق

أو يقيموا المتاريس . كان على رأسهم (مامون)

وكان (مامون) أقل الأرواح سموا بين من خرجوا

٦٨٠

من الجنة ، وحتى فى الجنة كانت نظراته وأفكاره

تتجه دائماً إلى أسفل ، إذ تبهره ثروات أرض الجنة

والنضار الذى تطؤه الأقدام ، أكثر من أى قداسة

أو مشاعر ربانية مما يُسْتَمْتَعُ به

فى الرؤى المباركة . كان أول من حفز البشر

٦٨٥

وأوحى إليهم فعلمهم أن ينهبوا

...

١١٠

باطن الثرى فيدنسوا أيديهم

ويبقروا أحشاء الأرض أمهم الرزوم

ليستخرجوا الكنوز التي أحكم إخفاؤها . وسرعان

ما شق لفرقة جرحاً عظيماً في جسد هذا الجبل

واستخرج منه ضلوعاً من الذهب . لا يَعْجَبَنَّ أَحَدٌ

أن الكنوز تنمو في الجحيم ، إذ إن تربتها

أجدر ما يحمل ذلك البلاء النفيس . وهنا ، فليعلم

الذين يتباهون بكل فان رائل ، والذين يحكون في إعجاب

عن (بابل) وأهرامات ملوك (ممفيس) ، ألا

فليعلموا أن أعظم آثارهم الدائمة

وقوتهم وفنونهم ، ما أيسر أن تبزها

أرواح الجن المغضوب عليها ، فتتنجز في ساعة واحدة

ما لا يقدرّون عليه في دهر طويل بالجهد الدؤوب

وما لا يحصى من أيدي البشر !

وعن كذب في الحجرات التي أعدت على السهل المنبسط ،

الذي تجرى من تحته عروق النيران السائلة

التي تتدفق من فتحات في البحيرة ، كان حشد آخر قد انهمك

بفنه الرائع في صهر كتل الإبريز ، وأخذ

يفصل بين كل نوع ويجمع الشوائب كالزبد على سطح الذهب

٧٠٥

بينما كان فريق ثالث قد صاغ في الأرض

قوالب متنوعة ، وصب فيها الذهب الذي يغلى في الحجرات

فملاً أركانها المجوفة ، ناقلاً إياه نقلاً عجيباً

مثلما يُنفخ في الأرغن نفخة واحدة فتنتقل إلى

صفوف المزامير المتنوعة فتعلو أنفاس أنغام متباينة .

٧١٠

وسرعان ما ارتفع من الأرض بناء ضخم

تصاعد كالزفير تصاحبه أصوات

الألحان المتوافقة والأناشيد العذبة !

بناء يشبه المعبد ، يرتكز على عضادات

في الأركان ، عمد (دُورِيَّة) مكسوة

٧١٥

بطلاء ذهبي ، لم تكن تنقصها

الأطر والأفاريز التي نحتت فيها التصاویر البارزة .

كانت عارضة السقف من الذهب المنقوش . لم تشهد

(بابل) أو القاهرة العظيمة مثل هذه الفخامة ولم

تضارعاها بكل أمجادهما وبكل المفاخر التي أعدت لتكريم

٧٢٠

إلهيهما (بعل) و (سيرايس) ، أو لإعداد عروش

ملوكهما عندما كانت (مصر) و (آشور) تتنافسان

ثراء وترفا . وسرعان ما ارتفع العمود الأوسط

فدعم ارتفاع المبنى الفخم ، وعلى الفور

انفتحت أبوابه على مصاريحها النحاسية لتكشف عن رحابة

في داخله ، وفراغات شاسعة امتدت فوق الأرضية الملساء ٧٢٥

المستوية ، وتدلّت من قبة السقف

كأنما تعلقت بسحر ساحر ماطر صفوف عديدة

من المصابيح كأنها النجوم ومشاعل وهاجة توقد

من النفط والقار فتشعّ ضوءاً يضاهي

نور السماء ، ودخل العشد المتعجل ٧٣٠

مبدياً إعجابه ، فهذا يطري البناء

وذاك يطري مهارة البناء . كان أسلوبه معروفا

في السماء ، إذ شاد الكثير من شاهق الهياكل ذات الأبراج

التي أقامت بها الملائكة المتوجة

وحكم كلا منها أمير رفعه الملك الأعلى ٧٣٥

إلى مكان مكين ونصبه حاكماً

في درجة معلومة من درجات الرفعة ، على الكتائب الوضاعة ،

وما كان اسمه مجهولاً أو غير مكرم

عند اليونان القدماء أو في أرض (أوسونيا)

٧٤٠

إذ أسماء البشر (مولكبير) ، أما عن خروجه

من الجنة فيزعمون في أساطيرهم أن (جوف) قد غضب عليه

فألقاه عاريا من فوق الأسوار البلورية ، فظل يهوى

من الصباح إلى الظهر ، ومن الظهر حتى المساء الندى

طيلة يوم من أيام الصيف ، حتى سقط عند غروب الشمس

٧٤٥

مثل شهاب ثاقب من كبد السماء

على أرض (ليمنوس) وهي جزيرة في بحر (إيجه) . هذ روايتهم

الكاذبة ، إذ إنه كان قد سقط مع هذا الحشد العاصي

قبل ذلك بدهور ، وما أغنى عنه اليوم

ما بناه في السماء من سامق البروج ، وما استطاع الفرار

٧٥٠

بكل حيله ، بل أُلْقِيَ به فانقلب

مع عماله المهرة ليرفعوا الأبنية في الجحيم .

وفي هذه الأثناء كان المنادون المجنحون ، مؤتمرين بأمر

سلطانهم الأكبر ، يتولون المراسم الرهيبة

ويرسلون صوت الأبواق إلى آذان الحشد الحاشد ، فيعلنون

٧٥٥

انعقاد مجلس مهيب على الفور

في (بانديمونيام) - العاصمة الكبرى

لإبليس وأقرانه . فاستدعى نداؤهم

من كل فريق وكل فصيلة رباعية التشكيل

أعلاها مكانا وأرفعها درجة . وهكذا جاء الجميع فوراً

٧٦٠

مع المئات والآلاف من أتباعهم

فملأوا الطرقات عن آخرها والبوابات

والمداخل الواسعة ، لا سيما تلك الردهة الرحبية

(كانت تشبه الميدان المغطى حيث كان الأبطال البواسل

يركبون جيادهم مشرعين سلاحهم فى مجلس السلطان

٧٦٥

ليتحذوا أعظم فرسان الوثنية وليشتبكوا

فى نزال حتى الموت أو يتلاقوا بالرماح على ظهور الخيل)

كان الزحام كثيفاً فى أكناف الردهة وفى فراغها ، وانتشر

حسيس خشخشة الأجنحة . كانوا يشبهون النحل

فى زمن الربيع عندما تغتلى ذكاءُ برج الثور

٧٧٠

فيتدفق صغارها الكثار حول الخلية

أسراباً ويطيرون بين الأنداء والزهور اليانعة

غادين رائحين ، أو يحطون على اللوح الناعم كأنه

صاحبة من ضواحي قلعتهم المبنية من القش

وقد كسته طبقة من العسل العطر ، فيحومون ويناقشون

٧٧٥

شئون دولتهم . ما أشد ازدحام هذا الحشد من كائنات الهواء

١١٥

وما أشد تكاتفهم وأضيّق حشرهم ! حتى إذا صدرت الإشارة

شهدت عجباً ! إن من كانوا يبرزون فى ضخامتهم

أبناء الأرض من العمالقة قد استحالوا

الآن إلى كائنات أصغر من أصغر الأقزام ، وقد حشروا فى بقعة

٧٨٠

ضيقة بأعداد لا تحصى ، مثل تلك السلالة من الأقزام التى

تعيش وراء جبل (الهند) ، أو مثل صغار بنات الجان اللواتى

يمرحن عند منتصف الليل فى جانب من جوانب الغابة

أو حول عين من عيون الماء ، فيراهن فلاح تأخر فى العودة

أو يحلم بأنه رآهن ، بينما يجلس القمر فى السماء

٧٨٥

مجلس الحكم ليشهدهن من عل ثم يقترب من الأرض

مسرّعاً فى خطوه الشاحب ، وهن يواصلن اللهو والرقص

على أنغام مرحة تسحر أسماع الفلاح

فيضطرب قلبه فرحاً وفرقاً معاً !

وهكذا استطاعت هذه الأرواح التى لا جسد لها أن تخيل

٧٩٠

هياكلها الضخمة إلى كائنات دقيقة ، وانطلقت حرة ،

على كثرة أعدادها التى لا تحصى وسط ردهة

ذلك القصر الجهنمى . ولكن حشداً آخر من

شيوخ ملائكة (الصاروفيم) و (الشاروبيم) بأحجام مماثلة لها

كان قد التقى في ركن قصى من هذا القصر

٧٩٥

فعقد اجتماعًا مغلقًا وجلسة سرية !

كان ألف من أنصاف الآلهة يتربعون على كراسى من ذهب

حافلة وغاصة . وبعد صمت قصير

وبعد قراءة الدعوى بدأت المشاورة الكبرى .

الكتاب الثاني

الموضوع

عندما يبدأ التشاور يناقش إبليس حكمة المخاطرة بحرب جديدة لاستعادة الجنة فينصح البعض بها ، ويوصى البعض باجتنابها . ثم يلقي القبول اقتراح ثالث كان إبليس قد طرحه من قبل ألا وهو التحقق من مدى صحة النبوءة أو الشائعة التي ترددت في الجنة عن حلول موعد خلق عالم آخر ونوع آخر من المخلوقات مساو للملائكة أو دونها قليلاً . يتساجلون فيمن ينبغي إرساله للنهوض بهذا المسعى الشاق . يتعهد زعيمهم إبليس بأن يقوم وحده بهذه الرحلة فيلقى التكريم والترحيب . وعندما انفض المجلس تفرق الجميع فمضى كل واحد في سبيله وشرع يقوم بما تنزع إليه نفسه ، تزجية للوقت انتظاراً لعودة إبليس . أما إبليس فإنه يذهب في رحلته إلى أبواب الجحيم فيجدها موصدة . ويتلو ذلك الحديث عن حارسها ، وعن فتح الحارس لها آخر الأمر ، وعن رؤية إبليس عند فتح الأبواب هوة عظيمة تفصل بين الجحيم والجنة ، وعن الصعوبة التي يتجشمها في عبور تلك الهوة لا هادى له سوى العماء حاكم ذلك المكان ، حتى يرى العالم الجديد الذي ينشده .

عاليًا على العرش الملكي - عرش يبرز

لألاؤه كنوز (هرمز) والهند

أو حيث يغدق الشرق الرائع بكفّ الثراء

أنداءه على ملوكه من لآلئ البربر ونضارهم -

جلس إبليس ! رفعه قدره إلى

أسمى مكانة في الشر ، ورفع يأسه

حتى تجاوز الأمل ، فأصبح يطمع فيما

هو أعلى ، ويتعطش لخوض

حرب لا طائل منها مع السماء . لم يتعلم من عاقبة ما حدث

فأفصح عن كبرياء تصوراته قائلاً :

أيها الأقوياء والصناديد ! يا أرباب الجنة ! أجل !

فطالما لا يتسع بحر

لطاقاتكم الخالدة ، حتى بعد اندحارها وسقوطها ،

فلا إخال الجنة قد ضاعت - إن هذا الهبوط

ليرفع خصال السماء فيكم فتبدو

أمجد وأعتى من خصال من لم يهبط

إذ إنكم لا تخشون - يقينًا - هبوطًا آخر !

إننى أشغل مكاني الحق ، وقد نصبتني قوانين السماء الثابتة

- زعيما عليكم ، ثم أتت الإرادة الحرة
- ٢٠ وما أحرزته فى مجال الرأى أو فى حومة الوغى
من امتياز أصيل . والآن يأتى هذا الضياع
وقد أفقنا من غمراته شيئاً ليزيد من تثبيت عرشى
آمنا غير منافس ،
- وقد قدمته لى بالرضا الكامل . إن سعادة
- ٢٥ الجنة - وهى التى تلى الكرامة فى المنزلة - يمكن أن تشير
الحسد فى نفوس المرؤوسين ، ولكن من ذا الذى
يحسد اليوم من تعرضه رئاستكم
لسهام الراحى فيتصدى لها كأنه
درعكم الواقى ؟ بل إنها تقضى عليه بأوفى قسط
٣٠ من العذاب الدائم ؟ وإذا لم يكن ثم خير
نتصارى من أجله فلن ينشأ الصراع من
التشتت . ولن يطمح أحد - يقيناً - أن ينال فى الجحيم
امتياز السبق ، ومن صغرُ حظه
من العذاب لن يدفعه طموح الذهن
٣٥ إلى طلب المزيد ! إنها لمزية إذن تضيف إلى
الوحدة والإيمان الثابت والوفاق الراسخ

بأكثر مما يكون فى الجنة - إننا نعود الآن

لنطالب بميراثنا العريق الحقيق بنا

وقد وهبتنا التعاسة ثقة فى السعادة أكبر

٤٠ من ثقتنا فيها لو كنا سعداء ! فلنبحث أفضل الطرق لتحقيقها

الحرب السافرة أم المكائد الخبيثة ؟

فلنشرع فى المطارحة ومن لديه رأى فليدل به .

وصمت . ومن بعده هب ملكوم ذلك الملك ذو الصولجان

فانتصب قائماً . كان أعتى وأشرس جنى

٤٥ قاتل فى الجنة والآن زاده اليأس شراسة !

كان يثق فى مساواته للسرمدى

وتكافئهما فى القوة ، وكان يؤثر العدم

على أن يكون أقل قوة منه ! أما وقد تلاشت تلك الثقة

فقد تلاشى كل خوف لديه ولم يعد يعمل حساباً لله أو للجهنم

أو لما هو أدهى !

٥٠ لم يعد يكثرث لشيء وهكذا طفق يتحدث قائلاً :

رأى هو الحرب السافرة أما المكائد

فلمست بها خبيراً ولا بها فخوراً ! ألا

فليدبرها من يحتاجها ، أو حين يحتاجها ، أما الآن فلا !

أفئينا يملك البعض هنا يظل سائر القوم - الملايين

٥٥

الذين يقفون اليوم مدججين ويتلهفون على رؤية

إشارة الصعود - جالسين هنا متخاذلين كأنما

هربوا من الجنة ؟ أو بدلا من موطنهم عليهم أن

يقبلوا هذا الجحر المظلم البشع الذي يجلله العار

والسجن الذي أعده طاغية ما زال يهنأ بملكه

٦٠

لأننا نتلكأ ونتأخر ؟ كلا ! الأفضل

أن تتسلح بشواظ الجحيم وغضبنا الشعواء معا

فنقتحم أبراج الجنة المشمخرة غاصبين طريقنا غصبا

ولنجعل من عذابنا سلاحا فتاكاً

ضد من يعذبنا ! وسيتصاعد ساعة اللقاء ضجيج

٦٥

آلاته الحربية الجبارة فيسمع إزاءها

رعود الجحيم ، وإزاء بروقه سوف يرى سهام

النيران السوداء والرعب الجائع منطلقة في غضبة مماثلة

نحو ملائكته : بل إن عرشه نفسه سوف ينصب عليه

كبريت (تارتاروس) وغرائب النار

٧٠

وهي آلات العذاب التي ابتدعها . ولربما

بدا هذا الطريق عسيرا شاهق المطلع ، إذ يقتضى

التحليق نحو عدو عالى الموقع ! ولربما

استطعنا أن نركبه إذا كان الشراب المخدر الذى تجرعناه

فى بحيرة النسيان لم يعد يشل حواسنا ،

٧٥

ولربما استطعنا أن نعود إلى طبيعة حركتنا الصاعدة فنبلغ

موطننا الأول : إن الهبوط والسقوط

ضد طبيعتنا . ومن ذا الذى لم يشعر منذ قليل

- عندما انقض العدو الشرس على مؤخرة جيشنا المتقهقرة

شامتًا فطاردنا فى أغوار المحيط -

٨٠

كيف اضطررنا اضطراراً وجهدنا جهدنا كي

نهبط إلى هذا الدرك الأسفل ؟ الصعود سهل إذن

ولكننا نخشى عاقبته ! فإذا عدنا إلى استفزاز من هو

أقوى منه فلربما وجدت غضبته سييلاً أشد وبالا

لتدميرنا - هذا إذا كان لنا فى الجحيم

٨٥

أن نخشى دماراً أشد وبالا ! وهل ثم وبال أشد

من الإقامة فى الجحيم ، وقد لفظتنا جنات النعيم ، وحكم علينا

فى هذا العباب البشع بعذاب مطلق ، بل

بعذاب الحريق الذى لا ينطفئ أواره ،

ونكتوى بناره ، دون أمل فى انحساره ، إذ صرنا

٩٠

عبيد سعاره ، وأصبح سوط العذاب

يصب علينا حتى إن ساعة الألم

لندعونا إلى التوبة ؟ إذا كان ثم دمار أشد من هذا

فهو النهاية والموت

ماذا عسانا أن نخشى إذن ؟ ولماذا نتردد في إثارة

٩٥

أقصى غضب له ؟ إنه إن بلغ به الغضب مبلغه

فقد يفنينا فناء تاما ، ويحيل

إلى العدم جوهر كياننا ، وهي حال أهنأ كثيرا

من الشقاء الذى يحيا فيه كياننا الخالد !

أما إذا كان كياننا كيان آلهة

١٠٠

لا تفنى ، فحالنا الآن أسوأ ما يُتردَّى فيه -

باستثناء العدم ! ولدينا البرهان على أن

قوتنا تكفى لقلقلة جنته ،

وأنا نستطيع بالغارات المتواصلة إقلاق

عرشه المنيع المكين - عرش القضاء !

١٠٥

وهكذا فإن لم نظفر بالنصر كنا قد أخذنا بالثأر !

فرغ من خطابه مقطب الجبين ، تنم نظراته عن

استماتة في طلب الثأر ، وفي خوض قتال خطر

١٢٥

على من هم دون الآلهة . وعلى الجانب الآخر نهض

(بليعال) - أرشق حركة وأرق رسماً ،

١١٠

لم تفقد الجنة أجمل منه . على محياه

رباطة جاش وسيماء عزة وجليل فعال

ولكنه زائف أجوف ، رغم أن لسانه ذلق

يقطر مناً ، ويجعل أفسد الحجج تبدو

عين الحجى والرشاد ، حتى تختلط وتنهار

١١٥

أحكم الآراء . فهو منحط الفكر ،

فى فعل الشر دؤوب ، عن فعل الخير

متقاعس عزوف . لكن كلامه يشنف الأذان

ونبراته تحمل على الإقناع . وهكذا بدأ حديثه قائلاً :

قد كنت خليقاً أن أناصر الحرب السافرة أيها الأقران

١٢٠

(فأنا لست أقل منكم غلاً) إذا لم تكن الدعوى القائمة

- وهى الدافع الأول إلى الحرب العاجلة -

ترتد بى عنها أيما ارتداد ، وتترأى لى وقد ألقت

ظلالاً شأماً على عاقبة هذا الأمر .

إن من يفوق الجميع فى قوة السلاح

وينجمع إلى سداد الرأى وذيالك التفوق

١٢٥

١٢٦

ناء وربية ، يقيم شجاعته على أن يصينا اليأس

فتفتكك وتنشت بعد محاولة ثار رهية

وهذا هو عين ما يرمى إليه . فلنسأل

أولا أى ثار ذياك ؟ إن أبراج السماء قد ملئت

١٣٠ حرسا شديداً مدججاً ، حتى لقد سُدَّت المنافذ جميعاً

وامتنعت . إنهم كثيراً ما يهبطون فى المحيط المتاخم

فتعسكر كتائبهم ، أو يحلقون على أجنحة خفية

فيطوفون بأقصى أطراف مملكة الليل

كيلا يباغتهم مباغت ! أما أن نشق طريقنا

١٣٥ عنوة لتهب فى أعقابنا الجحيم بأسرها

بأحلك تمرد وأبهمه ، ليطمس نُورَ الجنة -

أنقى الأنوار وأطهرها - فإن عدونا اللدود

سيظل على عرشه لا يمسه سوء

قائما لا يأتيه أذى ، وسيظل الجوهر الأثيرى نقياً

١٤٠ لا تشوبه شائبة - وسوف يرد

كل أذى وينفض آثار حطيط النار

منتصراً . إننا إن رُدِدْنَا هكذا فلن يبقى لنا من أمل

إلا اليأس الكامل ، إذ سينفذ صبر

الظافر ذى الجبروت فيطلق كل ما فى جعبته من غضب
حتى يهلكنا - وهذا فيه شفاؤنا

١٤٥

أى العدم! يا له من شفاء محزن! إذ من ذا الذى يرضى
مهما أفعمه الألم بفقدان هذا الكيان الذهني -
تلك الأفكار التى تصول وتجول إلى الأبد -
مفضلا العدم - أى أن يَتَلَعَّ وَيُضِيعَ

١٥٠

فى رحم الليل الرحيب الذى لم يخلق بعد ،
محروما من الإحساس والحركة ؟ ومن يدرى ؟
لنفترض أن فى هذا خيرا سواء كان عدونا الغاضب
قادرا أو راغبا فى منحه (أما قدرته على منحه
فأشك فيها وأما أن يرغب فى منحه فمحال !)
أترأه فى حكمته حريا بأن يطلق العنان لغضبه -
إما عن عجز فى التبصر أو دون ترو -

١٥٥

فيجيب أعداءه إلى طلبهم ، ويهلكهم فى سORTE ،
بينما تقضى عليهم غضبه

بعقاب سرمدى ؟ لماذا نتوقف إذن ؟

١٦٠

يقول الذين ينصحون بالحرب إننا قد حكم علينا
وكتب علينا وقضى علينا بعذاب لا يتهى ، وإننا

١٢٨

- أيا كان ما نفعله - لن نعاني ما هو أمرٌ ويتساءلون

إن كان ثم ما هو أدهى وأنكى ؟ أفهذا هو الأدهى حقًا ؟

أن نجلس لتشااور وقد حملنا أسلحتنا ؟ كلا !

١٦٥

ألم نشد حين ولينا الأدبار مسرعين - تطاردنا وتضعقنا

رعود السماء القاصفة -

ذياك البحر ليعصمنا منها ؟ ألم تبد لنا تلك الجحيم

منجاة لنا من الجروح ؟ وعندما رقدنا

فى الأغلال على بحيرة اللهب ألم يكن ذلك أنكى وأمرٌ ؟ بلى !

١٧٠

ألا يمكن أن تهب الأنفاس التى أوقدت تلك النيران الجهمة

فتنفخ فيها ثانية لتلهب حممها أضعافا مضاعفة

وتقذف بنا فى النار ؟ أم لعل الثأر من فوقنا -

ذاك الذى يهدأ ليفور = يستل سيفه ثانية

فيهوى به من يده اليمنى الحمراء علينا ؟ أم لعل الجحيم أن

١٧٥

تفتح أبوابها فيطلق خزنَّتها من قبتها

شأبيب النيران وصواعق اللهب

فتأرجح مرعبة فوق رؤوسنا ، تنذر بأن تهوى

ذات يوم فوقنا ، وربما كنا آنذاك

ندبر لحرب مجيدة أو نحث على شنها

١٨٠

حين تلقفنا عاصفة السعير وتلقى بنا

وكل منا مشدود إلى صخرة ، تلهو به وتنهشه

العواصف الدوارة أو تلقيه إلى قاع

العباب الذى يفور تنوره ، فيستقر إلى الأبد ، مغلولا فى الأصفاد ،

حديثه أنات لا تنقطع

١٨٥

دون هواده ، ودونما رحمة أو شفقة ،

دهورا لا ترجى لها نهاية ! أليس هذا أنكى وأمر ؟

بش رأى إذن رأى الحرب - سافرة أو خبيثة - وأنا

أنصح باجتنابها . إذ كيف نستطيع بالقوة أو الخديعة

أن ننال منه ؟ وكيف نغافله وعينه

١٩٠

تبصر كل شىء فى لمحة واحدة ؟ إنه الآن فى ذروة السماء

يشهد تدبيرنا الضال ويسخر منه .

وطاقة يده على سحق قوانا لا تقل

عن طاقة مكره على إحباط سعيينا ومكائدنا .

هل ضُربَتْ علينا الذلة والمسكنة إذن ؟ وأننى لذرية السماء

١٩٥

أن تطأها الأقدام ؟ وهل أخرجت من الجنة لتتلوى هنا

فى الأصفاد وتذوق مر العذاب ؟ إن هذا أخف وقعا

إذا أصختم لنصحى - مما هو أنكى وأدهى ، لأننا نُستذلُّ

بحكم قدر لا راداً لمشيئته ، حكم ذى الجبروت
ومشيئة الظافر ! إننا نستطيع أن نصبر على المعاناة وننهض بكبير

الفعال

٢٠٠ وطاقتنا عليهما واحدة ! وقد أنصف القانون الذى
يقضى بذلك . كان ينبغى أن نرى هذا الرأى أولاً -
لو تحليلنا بالحكمة - ونحن ننازل هذا العدو الجبار
ونقارعه وقد ارتبنا فى العاقبة !

إننى لأضحك ممن يهرعون إلى رماحهم جسورين
٢٠٥ راكبين الخطر ، حتى إذا ما خانتهم رماحهم ، أجفلوا خشية
المصير الذى يعلمون أنه محيق بهم ، ألا وهو
النفى أو العار أو الأصفاد أو العذاب - مما يقضى به
حكم قاهرهم . هذا هو

مصيرنا الآن . فإذا استطعنا تحمله والصبر عليه
٢١٠ فربما خفت غلواء عدونا الأكبر بعد زمن ما وانفثاً
غضبه ، ولعله - فى بعده الشاسع عنا
ألا يأبه لنا - طالما لم نعصه - قانعا

بالعقاب الذى أنزله بنا . ولربما رأيتم هذه النيران الجائحة
وقد بدأت تخبو حين تتوقف أنفاسه عن الهبوب عليها ،

٢١٥

وعندها فسوف يتغلب جوهرنا النقي على

دخانها السوموم ، أو ربما نعتاد عليها فلا نشعر بها ،
أو لربما نتبدل بعد ربح طويل فتتكيف مع هذا المكان
ذهنا وبدنا ، فتصبح

الرمضاء مألوفة لا ألم فيها ،

٢٢٠

ويصبح هذا السعير قريرا والظلام بصيرا

إلى جانب الرجاء الذي سيأتى به الكر الدائب
لأيماننا القابلة ، ودورة الحظ والتقلب الخليفة
بأننا نتطلع إليها ، فإذا كان نصيينا اليوم

من السعادة هزيلا فإن نصيينا من الشقاء لن يتفارق

٢٢٥

إذا لم نجلب نحن على أنفسنا مزيدا من المصائب .

وهكذا فرغ (بليعال) من حديثه الذى يكتسى حلة المنطق
فأوصى بالتراخى الذميم وتقاعس المسالمة

لا السلام . ثم قام من بعده (مامون) فأشأ يقول :

إما أننا نريد خلع ملك السماء عن عرشه

٢٣٠

بشن الحرب عليه ، إذا كانت الحرب أفضل السبل ، أو نريد
استعادة

حقنا المهضوم : فأما خلع عن العرش فلن

نأمل فيه إلا حين يذعن القدر السرمدى

للحظ المتقلب ، لتقضى فوضى العماء فى الصراع .

ومثلما يبدو أملنا فى خلعه سرايا ، يبدو أملنا

٢٣٥

فى استعادة الجنة ! إذ كيف يتأتى لنا أن نشغل مكانا

داخل الجنة إلا إن استطعنا أن نهزم ملك السماء الأعلى

ونقهره ؟ ولنقل إنه سيلين جانبه

وينعم بالغفران على الجميع إذا وعدناه

بالخشوع له من جديد - بأى عيون آنذاك يمكننا أن

٢٤٠

نقف فى حضرته خانعين فنتقبل

القوانين الصارمة التى يفرضها علينا ، ونهمل لعرشه

ونشيد لربوبيته رغما عنا أناشيد الحمد والثناء

بترانيم التكبير والتعظيم ، بينما يجلس على الكرسي

ملكا نغبطه ونحسده ، ويشع محرابه

٢٤٥

غيرا قدسيا وروحا من أزهير الفردوس

التي قدمتها أيدينا نحن - عبيده الصاغرين ؟ لن نفعل إلا هذا

فى الجنة ونهنا به ! ما أشق

الخلود إذا كنا سنقضيه فى الصلاة

لمن نكره ! فلنقلع إذن عن محاولة الوصول

٢٥٠

بالقوة المستحيلة ، أو بما سيسمح به

ولا نقبله إلى مكانتنا فى الجنة - مكانة

الذل فى أعطاف النعيم ! ولننشد

الخير لأنفسنا من باطن نفوسنا ولنستمد من ذواتنا القدرة

على الحياة الحرة - رغم هذا البلقع الشاسع -

لا سلطان لأحد علينا ! لنضع

٢٥٥

مشقة الحرية فوق ملاذ الأصفاد

وأبهة الاستخذاء . ولسوف تشرق عظمتنا

وتسطع عاليا إذا استطعنا أن نخلق الكبير من الصغير

والنفع من الضرر ، والنجاح من الفشل

بل وأن نحيا فى أى مكان كنا

٢٦٠

ونزدھر فى ظل الشر فنصوغ النعيم من العذاب

بالجهد والصبر ! هذا العالم السحيق

من الظلمات - ترى هل نخشاه ؟ ألا يشاء كثيراً

ملك السماء وحاكمها أن يسكن السحب الكثيفة الظلماء

دون أن تخفى بهاءه ، ثم يكسو

٢٦٥

بجلال الظلمة من حوله

عرشه ويحيطه بها - ثم تزار الرعود من ذلك الخضم

وقد عبأت قوى غضبها ، ففتشابه الجنة والنار ؟

فإذا كان قادراً على محاكاة ظلمتنا أفلا

٢٧٠

نستطيع نحن محاكاة نوره أنى شئنا ؟ إن تربة هذه الصحراء

لا ينقصها بريق الكنوز الخبيثة من اللآلى والنضار

ولا ينقصنا نحن فن أو مهارة حتى نخرج منها

الروعة الأخاذة - وبماذا تزيد الجنة على ذلك ؟

بل إن ما يعذبنا الآن يمكن أن يصبح على كر الزمان

٢٧٥

جوناً الطبعي - هذه النيران النفاذة سوف تصبح

بردا وسلاماً بعد حدة وشدة لأن كيانتنا سوف يتحول

ويستوى مع كيانتها - وهكذا لن

نشعر بالآلامها . إن كل شئ يدعونا إلى

أن نجنح للمسلم ولحال من الاستقرار

٢٨٠

والنظام ، حتى نستطيع فى أمان أن نجد أفضل السبل

لمعالجة بلاتنا الحاضر ، غير غافلين

عن كيانتنا الحق ومزلتنا هنا ، وقد طرحنا جانباً

أى نزوع للقتال : فاقبلوا ما أنصح به .

ولم يكذب انتهى حتى دوت التتمتات فى

٢٨٥

القاعة ، مثلما ترجع الصخور الجوفاء أصداء

١٣٥

ريح هوجاء عصفت طول الليل

بأمواج البحر ، ثم بح صوتها فهددت

الملاحين الذين طال سهرهم فى سفينة أَلقت بها المقادير -

أو قارب ألقى مرساته - بين صخور خليج مقفر

٢٩٠

بعد العاصفة . هكذا ارتفع صوت التصفيق

عندما انتهى (مامون) من خطابه وحاز رأيه الرضى

حينما نصح بالسلام : لأنه إن كان ثمة

ما يخشونه أشد من خشيتهم للعجيم

فهو رعد الراعد وسيف ميكائيل ! كانت خشيتهم له

٢٩٥

ما زالت تهز جوانحهم ، رغم طموحهم

لبناء امبراطورية العالم الأسفل ، وتشبيدها

بالمكر والدهاء وجهود الزمان المديد

حتى تضارع الجنة وتعارضها .

وعندما لاحظ (بعلزبول) ذلك - ولم يكن أحد أرفع منه مكانا

٣٠٠

إلا إبليس ، علت محياه سيماء الجد

والصرامة فانتصب واقفا ، وبدا فى وقفته كأنه

من العمد المشيدة ، فى غضون جبينه العميقة

ارتسم التفكير والتدبر وحلت هموم الجمهور من حوله ،

وما زالت ملامح الأمراء تبرق في وجهه

٣٠٥

الذي يعلوه الجلال رغم سقوطه . كان يقف في رزاة

بمنكبين عريضين مثل منكبى (أطلس) الخليقين بحمل

أعباء أعظم الممالك ، وكانت نظراته

تجذب الأذان والأذهان مثل أنسام الليل

أو هدأة الضحى في الصيف عندما بدأ حديثه قائلاً :

٣١٠

أيها المتوجون ! أيها الصناديد الدهاقين ! يا أبناء الجنة

ومعدن الأرواح ! - أينبغى علينا الآن أن نتخلى عن الألقاب

وننبذها ، ونغير من أسمائنا فنصبح

أمراء الجحيم ؟ هذا هو ما يجنح إليه جمهور الحاضرين

إذ يفضلون المكوث هنا ، بل وأن يبنوا هنا

٣١٥

دولة ناشئة . لا مرء في هذا إذا غفلت عيوننا لنحلم

ناسين أن ملك السماء قد قضى بأن يكون

هذا المكان سجننا لنا ، لا ملجأ آمناً

يقينا من بطش ذراعه القادرة ، ويعفينا من الخضوع

لأحكام السماء الرفيعة وقد اجتمعنا ثانياً

٣٢٠

لنتاوى عرشه ! كلا ! إنه يريدنا أن نبقى

فيه عبيداً أذلاء ، رغم البعد الشاسع عنه

وقد التف القيد المحتوم على أيدينا فظللنا

أسرى أرقاء . ثقوا أنه سيظل

على الذرا أو فى الأعماق قائماً على العرش ، فهو الأول والآخر

٣٢٥

وله الملك وحده ، ولن يفقد من ملكه قيد أنملة

حين تتمرد ونثور ، بل إن ملكه ليشمل الجحيم

وسوف يهيمن بصولجانه الحديدى

علينا مثلما يحكم بصولجانه الذهبى على من فى الجنة .

ما الذى يجعلنا نجلس هنا إذن نتأمل الحرب والسلام ؟

٣٣٠

لقد قضت علينا الحرب ونكبتنا بخسارة

لا تعوض . أما شروط السلم فلم يضمناها أحد بعد

أو ينشدها . وهل السلام الذى نُمْنَحُه

ونحن أرقاء إلا السجن الأليم

والجلد والعقاب المهين الذى

٣٣٥

يصب علينا سوطه ؟ وأى سلام يمكن أن نُمْنَحَه نحن إلا

كل ما فى طاقتنا من عداة وحقد

ومقاومة لا تلين ، وثأر متمهل ،

ما يفتأ يدبر السبل حتى يمنع الظافر من

جنى ثمار ظفره ، ومن التمتع بأن

٣٤٠

يفعل بنا ما نشعر به ونتلوى له فى مكابدتنا ؟
ولن ينشأ ما يدعوننا - بل إننا لن نحتاج أبداً -
إلى أن نقدم على مخاطر حملة نشنها لغزو
الجنة ، فأسوارها عالية ترد الهجوم وتصد الحصار
وتحبط أى كمين يدبره أهل هذا المحيط . ألا يمكن أن نعثر على

٣٤٥

سبيل أيسر من هذا ؟ يقال إن ثمة مكاناً
(إذا صدقت الشائعات التى تروى من قديم والنبوءات التى
تتردد فى الجنة) - أو قل عالماً آخر ، سوف يصبح مقر هناء
لسلالة جديدة اسمها الإنسان ، حان الآن موعد

٣٥٠

خلقه بحيث يشبهنا وإن كان أقل منا
قوة وامتيازاً ، وأكثر منا استئثاراً بحب القاهرة
الذى يحكم بالأفق الأعلى . هكذا كانت مشيئته
التي نطق بها بين الأرباب ، وتلاها قسم
هز جنبات السماء وآفاقها ، فأكدتها .

٣٥٥

فلنتجه إلى ذلك العالم إذن بكل أفكارنا لنعلم
أى المخلوقات تعيش فيه ، وما شكلها
وما مادتها ، وما مواهبها وما قواها
وما موطن ضعفها وما أفضل سبيل لإغوائها -

عنوة أو بالمكر - : ورغم أن الجنة موصدة

وحكم السماء الأعلى يجلس آمنًا مطمئنًا

٣٦٠ إلى قوته وجبروته ، فلا بد أن يكون ذلك العالم الجديد عاريا

مكشوفًا

إذ يقع في أقصى أطراف مملكته ، ولا بد أنه قد كلف

بحمايته من يسكنونه . ربما استطعنا في هذا السبيل

أن ننهض بما فيه نفعا

إذا هجمنا عليه بغته ، إما بشواظ الجحيم

٣٦٥ لندمر هذا الخلق الجديد كله ، وإما للاستيلاء عليه

كله وامتلاكه ، ثم نُخْرِجُ منه - مثلما أُخْرِجْنَا -

سكانه الصغار ! فَإِنْ لَمْ نَسْتَطِعْ إخراجهم ، فلنغوهم

بالانضمام إلى حزبنا بحيث يصبح إلههم

٣٧٠ عدوا لهم ، وبحيث يقدم نادماً

على تدمير ما صنعت يداه . هذا أفضل من

الثأر المألوف إذ سيفسد مُتَعَتَهُ

سوءُ مسعانا ، ويزيد من سعادتنا

إقلاقُ مأمته ! حين يرى أبناءه المقربين

وقد ألقى بهم من حالق ليشاركونا حالنا ، ويلعنوا

٣٧٥

ضعف معدنهم وينعوا سعادتهم الغارية التي
ذوت سريعاً . انظروا ! أفلا ترون أن هذا أخلق
بالإقدام عليه من جلوسكم هنا في الظلام
تدبرون بناء الممالك في الهواء ؟ وهكذا انتهى (بعلزبول)
من عرض رأيه الشيطاني ، والذي كان قد ابتكره

٣٨٠

إبليس أول الأمر بل واقترح جانباً منه . إذ أنى لهذا
المكر الدفين أن يخرج إلا من رب الشر كله ؟ - هذا
الحقد الراسخ الذي يرمى إلى إفساد سلالة
الإنسان كلها بإفساد جذر الشجرة وإقحام الجحيم في الأرض
حتى تتشابكا وتمترجا - وكل ذلك لمناهضة

٣٨٥

الخالق العظيم ؟ ولكن حقدهم لا يفلح إلا في
السمو بجلاله وعظمته ! لقد حظيت تلك المكيدة الجسورة
بأعظم الرضى لدى دهاقين الجحيم ، فبرقت السعادة
وتلألأت في عيونهم جميعاً ، فصدرت موافقتهم الكاملة
وإجماع أصواتهم ، وعندها عاد إلى حديثه قائلاً :

٣٩٠

لنعم ما حكمتكم به ، وما انتهت إليه مطارحتكم الطويلة
يا مجمع الأرباب ، وما أخرى بعظمة كيانتكم
أن تتخذ قرارات عظيمة ، من شأنها أن ترفعنا من الدرك الأسفل

مرة ثانية وتسمو بنا - رغم الأقدار -

وتقترب بنا من موطننا العريق ، ولربما نبصر

٣٩٥

تلك التخوم الوضاعة ثانيا ، فتتكاتف ونتعاضد

ونخطو الخطوة المناسبة ، ولربما

نعود إلى الجنة - أو ربما وجدنا منطقة معتدلة

فأقمنا بها حيث لا نعدم إشراق ضياء الجنة الساطع

الأمين ، وعندما يبرز نور الفجر فى الأفق الشرقى

٤٠٠

نزىل أدران هذه الظلمة الكثيفة وسوف تهب الريح رُخاءً ناعمةً

ولسوف تلتثم الجراح الغائرة التى خلفتها هذه النيران الحارقة

ولسوف تبث الأنسام بلسمها الشافى . ولكن دعونا ننظر أولا

فيمن ينبغى أن نرسله

ليبحث لنا عن هذا العالم الجديد - من ذا الذى نراه

كفؤاً لهذا العمل ؟ من ذا الذى يستطيع أن يجوب بأقدامه الدؤوبة

٤٠٥

الأغوار الحالكة السحيقة التى لا نهاية لها ولا قرار ، وأن يتبين

فى خضم الظلمات الكثيفة المحسوسة

طريقه المجهول ؟ أو يحلق فى الهواء ويطير

عالياً بأجنحة لا تعرف الكلال

فوق الهوة السحيقة الفاصلة ، ليصل إلى

٤١٠

جزيرة النعيم ؟ أى قوة وأى مهارة تلزمه أو

تكفيه ؟ وأى طاقة على المراوغة تحمله سالما

بين الحرس الشديد على الأبواب والحاميات الكثيفة على البروج

من الملائكة الراصدين لكل منفذ ؟ إنه يحتاج إلى

الحذر البالغ ، ونحتاج نحن إلى بالغ

٤١٥

الحصافة فى اختيارنا له ، إذ يقع على من نرسل

عبء آمالنا - بل عبء آخر أمل لنا !

قال ذلك ثم جلس - وقد جعله التوقع

يقظ الملامح إذ كان ينتظر أن يلوح من بينهم من

يؤيد أو يعارض أو يعرض القيام

٤٢٠

بالمجازفة الخطرة : ولكن ران الصمت على الجميع

إذ استغرقوا فى تأمل الخطر والتفكر فيه ، ورأى كل منهم

فى ملامح صاحبه أسفا يعكس أسفه

وذهوله ! لم يكن بين هؤلاء الأفذاذ ، صفوة

مغاوير معارك السماء ، من يأنس فى نفسه

٤٢٥

بأسا وشدة ، فيعرض أو يقبل أن ينهض

وحده بتلك الرحلة الرهيبة . وأخيراً قام

إبليس - وقد رفعه سمو بهائه

١٤٣

فوق أقرانه ، عزيزا بكبريائه الملكية ،

مدركا رفعة شأنه ، فبدأ يقول فى نبرات رزينة :

٤٣٠

يا ذرية السماء ! أيتها العروش السماوية !

خليق بالصمت العميق أن يلفنا ، وبالعار

أن يجعلنا ، رغم رباطة جأشنا ! ما أطول طريقنا

وما أشقه من ظلمات الجحيم إلى أنوار الجنة !

إن سجننا محكم شديد فهذه القبة الهائلة من النار

٤٣٥

نهمة تريد أن تزددنا ، وأسوارها التسعة قد ضربت حولنا ،

وأبوابها صخور موقدة

موصدة تحول دون خروجنا .

فإذا استطاع أحد أن يتجاوزها ، وجد هوة فراغ سحيقة

للَّيْلِ دون كيان تلقفه

٤٤٠

فاغرة فاها وتهدهده بالعدم

إن ابتلعه خضم ضياعها الأكبر !

فإذا أفلح فى الهرب وجد عالما

مجهول الأصقاع لا تقل أخطاره عما

يزخر به المجهول ، والهرب منه أشق وأعسر !

٤٤٥

ولكننى ما كنت لأستحق الجلوس على هذا العرش أيها الأقران

وهذا السؤدد الملكي ، أو التحلى

بهذا السنى ، والتسلح بهذا السلطان ، إلا لأتنى لا أتقاعس

عن التصدى لأعباء الدولة وقضاياها الهامة ، مهما بلغت

مشاقها وأخطارها ! لا شىء ثم يثنى

٤٥٠ عن الإقدام ! وهل كنت لأحمل شعائر

هذا الملك - بل ألم يكن حريا بى أن أرفضها -

إذا رفضت أن أتحمل

من الأخطار مقدار ما أحمله من الشرف ؟ أليس ذلك قدر

كل حاكم ؟ بل أليس خليفاً بأن يتحمل

٤٥٥ المزيد من الأخطار إذا كان فى منزلة شرف

تعلو على الجميع ؟ انصرفوا إذن أيها الصناديد الجبابرة

يا من ترهبون السماء رغم سقوطكم ! عودوا إلى منازلكم -

(وقد اتخذنا هذا المكان منزلاً) - فتفكروا فيما عساه أن يخفف

من الضنك الذى يرين علينا ، وما عساه أن يهون من عبء

٤٦٠ احتمال الجحيم ! انظروا إن كان ثم علاج أو تميمة

تريحنا ، أو تخفف عنا ، أو تطيب آلام

هذا المنزل السقيم ! لا تغفلوا لحظة فى سهركم

فعدوكم لا ينام ، أما أنا فسأنطلق لأطوف

٤٦٥

بكل ساحل من دياجير الهلاك ، سعيًا في

خلاصنا جميعًا ، ولن يشاركني أحد

في هذه المهمة . قال الملك هذا وانصرف

فمنع الجميع الرد عليه ! كانت هذه - لا شك -

حصافة منه ، إذ منعهم أن يستمدوا الشجاعة من عزمه وتصميمه

فيعرضوا مثل ما عرض الرئيس ، وهو

٤٧٠

ما كانوا بعد يخشونه (ومآله الرفض لا محالة) !

فإن كان العرض والرفض صاروا له في الرأي أندادًا

ينافسونه ، ويشترون ذبوع الصيت بثمن زهيد -

وهو ما لا بد لإبليس أن يكسبه بمجالدة عظيم الأخطار - ولكنهم

كانوا

يخشون الأخطار أقل من خشيتهم لصوته

٤٧٥

الناهي ، فنهضوا للانصراف واقفين ،

وكان لقيامهم جميعًا صوت كهزيم

الرجوع النائية ، ثم توجهوا إليه وقد أحنوا الهامات

مكبرين معظمين ، إذ رأوا فيه إلها ،

فرفعوه مهللين إلى منزلة إله السموات الأعلى

٤٨٠

وما توانوا في حمده والثناء عليه

حتى لقد حقر من شأنه ابتغاء لسلامة الجميع !

فإن الجان حتى حين تصيبها اللعنة

لا تفقد كل فضائلها ! (وهذه عبرة للبشر الذين يتفاخرون

بفعالهم البراقة على الأرض ، يحفزهم عليها طلب المجد

٤٨٥

أو الطمع الذى تخفيه كسوة زاهية من التفانى والحماس)

وهكذا انطوت مساجلاتهم السرية

وانتهت باحتفالهم برئيسهم الذى لا يضارع . ولنضرب لهم مثلاً

أرأيت إلى السحب الدكناء وهى تتصاعد من قمم الجبال

فى غفلة من رياح الشمال ، حتى يتلبد

٤٩٠

وجه الخضراء الصبوح بالغيوم ، وإلى السماء المربدة آئذ

وهى تغمر صفحة البسيطة الظلماء بالثلوج أو الأمطار ؟

فإن قدر للشمس الوهاجة أن تودع الكون وداعاً رقيقاً

وتطل بأشعة الغروب عليه ، وجدت الحقول وقد عادت إلى

الحياة

والطيور وقد أرسلت عذب ألحانها ، وثغاء القطعان وقد

٤٩٥

شهد على فرحها الذى ترجع أصداؤه الجبال والوديان .

عار على البشر ! إن الشياطين الملعونة

لتجنح للوفاق الوطيد ، ولا يتناحر من بين المخلوقات العاقلة

- إلا الإنسان ، رغم أنه يحيا برحاء
غفران السماء . والله الذى يدعو إلى السلام
٥٠٠ يحيا فى أحقاد البشر وعداوتهم وتصارعهم
فيما بينهم . إنهم ليشنون حروبا ضروسا
فيدمرون الأرض ، ابتغاء تدمير أنفسهم
فكأنما (وهذا من شأنه أن يدعونا إلى الوفاق)
قد سلم الإنسان من أعدائه الجهنمية التى
٥٠٥ تتربص بهلاكه ليلا ونهارا !
وهكذا انفض مجلس الجحيم ، وانصرف
سادة جهنم العظام صفّا ، كل حسب منزلته
يتوسطهم زعيمهم الجبار وكأنما كان
وحده عدو السماء ! كان يزهو بمهابة
٥١٠ سلطان الجحيم ، وتحيطه هالة الأبهة
وما يحاكى به عرش الله ! والتفت حوله
كوكبة من ملائكة (الصاروفيم) الذين خلقوا من نار
وبرقت راياتهم وأسلحتهم الشائكة .
ثم هبوا ليعلنوا انفضاض هذا المجلس ، فنفخوا
٥١٥ فى أبواقهم الملكية حتى يعلو صوت القرار العظيم الذى انتهوا إليه

ثم أهرع أربعة من ملائكة (الشاروبيم) ، ورفع كل إلى

فمه نفيرا رنانا حتى تحمل رياح الكون الأربع

صوت البشير في كل ربح ، فإذا هو يدوى في الهوة السحيقة

وتسمعه جنباتها الشاسعة ، حتى لقد استجاب حشد الجحيم الحاشد

بصراخ يصم الآذان وهم يعلنون مؤازرتهم له !

وبعد أن اطمأنت قلوبهم واستمدوا الشجاعة من ذياك

الأمل الزائف الخادع ، انفرط عقد هذه الفيالق المصطفة

وتفرقت ، ومضى كل واحد في سبيله ، هائماً

على وجهه حائراً

أننى قاده خطاه ، إذ أين عساه يرسو على

مرفأ سلم لأفكاره المضطربة ، وكيف عساه يقضى

ساعات القلق والهم ، ريثما يعود الرئيس المعظم ؟

انتشر بعضهم على السهل ، وخلق آخرون فى الهواء

طائرين ، وذهب البعض يستبق ، كأنما هم

فى ألعاب جبل الأوليمب أو حقول (بيثيا) المترامية

وانطلق بعضهم على خيولهم النارية ، وانخرط البعض فى لعبة

تفادى العقبات

بالعجلات المسرعة ، أو إصابة الدمى وجها لوجه !

أرأيت إلى ألوية الحرب وهى تلوح فى السماء المضطربة

لتنذر القرى الظالمة ، وإلى الجيوش وهى تندفع

٥٣٥

إلى القتال بين السحب ، قبل أن تتقدم الطلائع

لتنخس فرسان الهواء ، وتبقى على حرابها فى غمدها

حتى تقترب الفيالق العرمرم وتصيبها عن كثب ؟ فهكذا كانت

قعقعة السلاح

فى أطراف السماء ، يشتعل بها أديمها

بينما فار التنور التيفونى الضارى فى صدر آخرين

٥٤٠

فشقوا الصخور والتلال ، وامتطوا صهوة الهواء

فى دوامات الريح ! حتى لقد ضاقت الجحيم بهذا الصخب الصاخب !

أرأيت إلى هرقل حين عاد من (إيقاليا) متوجاً بأكاليل

النصر ، فلبس الثوب المسموم - واقتلع

فى سورة آلامه أشجار الصنوبر فى (ثيسيليا)

٥٤٥

وألقي (ليكاس) من قمة جبل (إيتا)

فى البحر (الأيوبي) ؟ وكان البعض الآخر أهدأ وألين

فمضوا إلى واد غير ذى صخب ، يترنمون فيه

بالأنحان الملائكية ، ويتغنون على موسيقى القيثارة

ببطولاتهم ، ناعين تعاسة سقطتهم حين حم

٥٥٠

قضاء الموقعة ، وشاكين القدر الذى قضى

بأن يستعبد الأحرار بالقوة أو المصادفة .

كانت أناشيدهم ناشزة المعانى متوافقة الأنغام

(ولا غرو إذ كان منشدوها من الجن ذوى الأرواح الخالدة)

فملكنت أسماع الجحيم ، بل إنها لسحرت أفئدة

٥٥٥

الجمهور الحاشد . وانخرط آخرون إذ ذاك فى حديث عذب

(فوقع البلاغة فى النفس كسحر الألحان للحس)

إذ جلسوا فى عزلة على جبل بعيد

يتطارحون أفكاراً أسمى وآراء أعمق

عن العناية الإلهية ، والعلم الأزلى ، والإرادة ، والقدر -

٥٦٠

القدر الذى لا يحول ، والإرادة الحرة ، والعلم الأزلى المطلق

فلم ينتهوا إلى شىء ، بل ضربوا فى الشعاب فضلّوا وما اهتموا

لقد تجادلوا كثيراً عن الخير والشر ،

عن السعادة والشقاء الذى يحل فى النهاية ،

عن الانفعال والخمود ، والمجد والعار ،

٥٦٥

وكلها من نسج الحكمة الجوفاء ، والفلسفة الزائفة .

ولكن لها فعل السحر وعذوبته إذ تخذّر

الآلام والأحزان هنيهة ، وتبعث

الأمل الكاذب ، أو تهب القلب البارد سلاحا من
الصبر العاتى أصلب من الفولاذ المضاعف .

٥٧٠

وانقسمت طائفة أخرى فرقا وفصائل هائلة
انطلقت فى رحلة أخطار جسورة لاكتشاف أرجاء
ذلك العالم الموحش الكئيب ، علّهم يجدون مكانا
الطف وأحنى يقيمون فيه ، فتفرقوا

٥٧٥

شعابا أربع فى هرولة سريعة على ضفاف
أربعة أنهار من أنهار الجحيم ، تصب
فى البحيرة الملتهبة مياه الشر التى تحملها .
أولها نهر (ستيكس) المقيت - نهر الحقد القاتل ،
وثانيها (أخيرون) البائس - نهر الأحزان السوداء العميقة
وثالثها (كوسيتوس) الذى اشتق اسمه من العويل الذى يتعالى

٥٨٠

فيسمع على صفحة هذا الجدول التعس ،
ورابعها (فليجثون) الضارى
الذى تتلاطم أمواج النيران فيه بسعير الغضب
وبعيداً عن هذه جميعاً يسير الهوينى صامتاً
نهر (ليثى) - نهر النسيان -

عبابه من ماء التيه ، من ذا الذى يشرب منه ولا

٥٨٥

ينسى ماضيه وحاضره

ينسى الأفراح والأتراح والملاذ والآلام .

وبعد هذا النهر تقع قارة متجمدة ،

برية مظلمة ، تنهال عليها عواصف لا تنقطع

من دوامات الريح ولاذع البرد الذي يسقط على اليابسة الصلبة

٥٩٠

فلا ينصهر بل يعلو في أكوام كأنه حطام آثار

عفى عليها الزمن ، وليس من حوله إلا الثلج والجليد

اللذان يملآن هوة كأنها مستنقع (السربون) الذي يصل بين

(دمياط) وجبل (كاسيوس) القديم

حيث غاصت فيالق برمتها . أما الريح الصرصر

٥٩٥

فتتقد زمهريرا حتى أن البرد القارس ليفعل فعل النار !

وإلى ذلك الموقع كان يساق من حلت عليهم اللعنة

في دورات مرقومة من دورات الزمن ، تدفعهم آلهة القصاص

ذوات المخالب حتى يذوقوا مرارة التحول والتقلب من ضراوة

الدرجات القصوى للحر والبرد ، بل إن التقلب ليزيد من

ضراوتها إذ ينقلبون

٦٠٠

من قيعان اللظى المتأجج إلى الجليد فيهلك

دفع كيانه الأثري الرقيق ويتعذبون

٦٥٣

دون حراك وقد تصلبوا من البرد وتجمدوا

برهات من الوقت ثم يهرع بهم كرة أخرى إلى النار !

إنهم ليعبرون نهر النسيان هذا

٦٠٥

رائحين غادين فتشتد أتراحهم

إذ يتمنون بل ويحاولون - فى عبورهم - أن يبلغوا

ماء النهر وما هم بباليغيه ! إن قطرة صغيرة لتذيب

الآلام والعذاب بمذاق النسيان العذب

فى لحظة واحدة: وها هم يقتربون من الحافة حتى شفاها !

٦١٠

ولكن القدر لهم بالمرصاد ، إذ تقف دونهم

(ميدوزا) ذات القوة (الرجولية) التى تسهر على ذلك

الخليج ! فإذا بالمياه تفر وحدها من بين أيديهم

ولا تقربها أفواه الأحياء ، مثلما استعصت ذات يوم على

شفاه (طانطال) ! وهكذا ظلت هذه الفرق الضالة

٦١٥

بخطى بائسة حائرة ، تضرب فى الشعاب .

وقد شحب لونها وارتعدت فرائصها رعبا وزاغت أبصارها

إذ تبينت لأول مرة كآبة مصيرها ، وأدركت أنه لا سبيل

إلى الراحة أبداً : كم من الوديان المدلهمة الظلماء

مرت بها ، وكم من أصقاع الغم الرهيبة !

٦٢٠

فوق العديد من جبال الجليد ، وجبال النار
والصخور والكهوف والبحيرات والأغوار والمستنقعات وظلال
الموت

بل عالم من الموت ، حلت عليه لعنة الله
فخلق من الشر ، بل لا يصلح إلا للشر ،
تموت فيه الحياة ويعيش الموت وتتكاثر الطبيعة

٦٢٥

كائنات شائبة شاذة بشعة
بغیضة لا توصف بل أسوأ
مما تخيله الأساطير أو يتمثله قلب الخائف
(جورجونات) وسعالی وغیلان مفزعة .
وفي تلك الأثناء كان عدو الله وعدو الإنسان -

٦٣٠

إبليس - قد ألهمته أفكار طموح جائحة ،
فطار على جناحي السرعة إلى بوابات الجحيم
وحيداً يتلمس طريقه . تارة

بعذاء الساحل الأيمن ، وتارة بعذاء الساحل الأيسر ،
طوراً يحلق فوق المحيط ناشراً جناحيه ، وطوراً يطير

٦٣٥

عاليا صاعداً إلى سقف السرادق الناري ،
أرأيت إلى الأسطول حين يلوح من بعيد في البحر

١٥٥

كأنه يتدلى من السحب ، تدفعه رياح الربيع

وتتلمسها أشرعتة وهو يعود من البنغال أو من جزر البهار

(تيرنات) و (تيدور) ، من حيث يأتي التجار

٦٤٠

بعاطر المخدرات ، وإلى البحارة وهم قادمون بهذه التجارة

من المحيط الهندي الشاسع إلى رأس الرجاء الصالح

جاهدين لتحويل أشرعتهم وقسرها على الاتجاه نحو القطب ؟

فهكذا بدا

إبليس وهو يطير من بعيد ! وأخيراً لاحت لعينه

أسوار الجحيم العالية التي تتصل بالسقف الرهيب

٦٤٥

وأبوابها ذات طبقات ثلاث ، ضوعفت ثلاث مرات ، فثلاث

من النحاس وثلاث من الحديد وثلاث من الصخور الصلدة

المنيعه ، تحيط بها حلقة من نار

لا ينطفئ أوارها ، وأمام الباب على الجانبين

كان يجثم كائنان فظيعان

٦٥٠

الأول - فيما يبدو - امرأة حتى وسطه ، امرأة جميلة ،

ولكن باقى جسمها قبيح ، فهو تلافيف تكسوها القشور

متداخلة ، مديدة ، كأنه حية تسلحت

بحمة قاتلة . وحول وسطها التفت

زمرة من كلاب الجحيم لا تتوقف عن النباح

٦٥٥

بأفواه فاغرة - مثل (كيربروس) - عالية جلبتها ، رنانة

طنانة مفزعة ! ومع ذلك فكانت إذا شاءت تتسلل -

إذا اعترضت نباحها معترض - إلى رحمها

فتقيم فيه وتواصل النباح والعويل من داخله

دون أن تُرى ! كانت تزيد في بشاعتها عن الكلاب التي

٦٦٠

هاجمت (سيلا) وهي تستحم في البحر الذي يفصل

بين (كالابريا) وشاطئ (تريناكاريا) ذي الصوت المبحوح

وتزيد في قبحها عن جنية الليل الشمطاء إذ دعيت

سرا فأتت تركب متن الهواء

وقد أغوتها رائحة دم الأطفال لترقص

٦٦٥

مع ساحرات (لابونيا) بينما يتألم القمر

وينخسف من تعاويذها ! : أما الكائن الآخر

فكان شكله (إن صح أن نقول ذلك ، إذ لم يكن له شكل)

لا يتميز فيه عضو أو مفصل أو طرف ، بل ولا

مادة ! حتى ليتمكن أن يسمى بالظل الذي لاح ،

٦٧٠

فهو ظل الشكل وشكل الظل ، يتصب حالكا كالليل

ضاريا كعشر من ربات القصاص ، مرعبا كالجحيم ،

١٥٧

وقد امتشق سهمًا رهيبًا ووضع فوق ما يخال أنه رأسه
شيئًا يشبه التاج الملكي .

كان إبليس قد اقترب منه ، فهب ذلك

٦٧٥

الوحش من مقعده وأهرع إليه

بخطوات مفزعة ارتعدت لها جنبات الجحيم !

ولكن الشيطان الجسور رأى فيه ما يعجب منه

فعجب منه دون أن يخشاه . إذ باستثناء الله والمسيح

لم يكن إبليس يقيم وزنا لأحد أو يتحاشى أى مخلوق .

٦٨٠

ألقى عليه نظرة ازدراء ثم خاطبه قائلاً :

من أنت ومن أين أتيت أيها الشكل القذر ؟

يا من تجرؤ ، على جهامتك ورعبك ، أن تدفع

بجبهتك الشائهة لاعتراض سيلى

إلى تلك الأبواب ؟ لقد عقدت العزم على النفاذ منها

٦٨٥

يقينا ودون استئذان منك .

تنح جانبا أو فلتحمل مغبة حماقتك ، ولتتعلم فعلا لا قولاً

ألا تنازل يا ابن الجحيم ملائكة الجنة .

فأجابه العفريت وقد أفعمه الغضب قائلاً :

هل أنت الملاك الخائن ؟ هل كنت

٦٩٠ أول من انتهك السلام فى السماء ، وفصم عرى الإيمان فيها ،
وهو ما لم يفعله أحد قبلك ؟ هل أنت من رفع سلاح الكبرياء
فجر وراءه ثلث أبناء الجنة .

ليتواطأوا ضد العلى الكبير ، ومن ثم
أخرجكم الله منها جميعا ، وحكم عليكم
٦٩٥ بضياح أيامكم الخالدة هنا فى الألم والعذاب ؟
أو تحسبن أنك ما زلت من ملائكة الجنة

وقد كتب عليك الجحيم ؟ أو تأتى لتتحدانى وتهزأ بى هنا
حيث أبسط سلطانى ملكا ؟! بل لأزيدن من غضبك فأقول
إن لى الملك والسيادة عليك ! عد إلى مقر عقابك

٧٠٠ أيها الخائن الهارب ، أضف أجنحة إلى أجنحة سرعتك
وإلا تعقبتك بسوط من العقارب فعاقبتك على

تلكؤك ، أو أطلقت عليك سهماً واحداً من هذا القوس
فحل بك من الرعب ما لم تعرف ، ومن الألم ما لم تذق !
هكذا تحدث البشع الرهيب ، وقد تضخم فى أثناء

٧٠٥ حديثه ووعيدة ، حتى أصبح عشرة أمثال ما كان عليه
فضاعة وسوء خلقه . وعلى الجانب المقابل

كان الغضب قد ألهب إبليس فوقف

غير هباب ، والتمع مثل مُذَنَّبٍ ملتهب

يرسل ضوءه عبر نجوم (أورفيوكوس) حامل الشعابين الضخم

٧١٠ في سماء القطب الشمالى ، نافضا من شعره الشائك

نذر الطاعون والحروب ! صوب كل منهما سهمه القاتل

نحو رأس غريمه ، واعتزمت أيديهما الفتاكة أن تضرب

ضربة لا ثانى لها ، وتجهم كل منهما

إزاء خصمه ، كأنهما سحابتان حالكتان

٧١٥ محملتان بمدافع السماء ، تهرعان فى قعقة

للمعمعة فوق بحر (قزوين) ، ثم تقفان وجهًا لوجه

فتحومان قليلا قبل أن تنفج الرياح فى أبواقها ، فتعلن

التحامهما المبهم فى السماء الوسطى .

ولقد بلغ من تجهم المحاربين الجبارين أن اشتدت

٧٢٠ ظلمة الجحيم لتجهمهما ، وعجيب تكافؤهما .

(لم يكن من المقدر لأى منهما أن يواجه عدوا بهذا

البأس إلا مرة واحدة فيما بعد) . ثم التحما فى نزال عظيم

وقتل رجعت أصداءه أرجاء الجحيم ،

بينما هبت الرقطاء الساحرة التى تجثم

٧٢٥ ثابتة على أبواب الجحيم ويدها مفتاحها الفتاك ،

وأهرعت صائحة صارخة فحالت بينهما :

صاحت « أواه يا أبى ! ماذا تعتزم يدك أن تفعل
بابنك الوحيد ! أواه يا بنى ! ما هذا الغضب الذى
تملكك حتى كدت تصوب سهمك الفتاك

٧٣٠

إلى رأس أبىك ؟ أتعلم لأجل من ؟

لأجل ذلك الذى يجلس فوقنا ويضحك
عليك ! لقد فرض عليك ذليل الأعمال ، إذ تفعل
ما يمليه عليك غضبه ، وهو الغضب الذى يسميه عدالة
والذى سيفنيكما معاً يوماً ما »

٧٣٥

وسكتت فكف وحش الجحيم عن الصراع
لوقع كلماتها ! ثم وجه إليها إبليس الحديث قائلاً :
« ما أغرب ما تجأرين وأعجب ما تقولين ! إن
كلماتك قد باغتت يلهى فمنعتها

أن تفصح لك بلغة الأفعال

٧٤٠

عما اعتزمته ، ريثما أحيط بك علماً فأعرف

ما تكونين ، يا من تشكلت من شطرين ، ولماذا
وقد قابلتني أول مرة فى هذا الوادى من الجحيم تناديننى
يا أبت ؟ ولماذا تزعمين أن هذا الخيال البشع هو ابنى ؟

أنا لا أعرفك ، كلا وما أبصرت قبل الآن

٧٤٥

منظراً أقبح وأبغض منكما ! »

وهنا أجابته حارسه أبواب الجحيم قائلة :

« تراك نسيته إذن ؟ وهل أبدو

الآن لعينيك قبيحة بعد أن كنت ذات يوم فاتنة

فى الجنة ؟ أو تذكر عندما اجتمعتم على مرأى

٧٥٠

من جميع ملائكة (الصاروفيم) الذين تضافروا معك

لتدبير مؤامرتكم الجسورة ضد ملك السماء ،

إذ حلت بك فجأة آلام شديدة ،

باغتتك فغامت عيناك ودارتا ، سابحتين

فى الظلمة ، بينما نفثت رأسك ألسنة لهب غليظة دفاقة

٧٥٥

فانفتحت ثغرة واسعة فى جانبها الأيسر ، وخرجت منها

من تشبهك فى الشكل والوجه الوضاء

- وكان آنئذ مشرقاً بضياء الجنة الجميل - إلهة شاكية -

السلاح !

لقد خرجت أنا من رأسك ! واستولت الدهشة

على حشد الجنة الحاشد ، وتراجعوا فى خوف

٧٦٠

أول الأمر ، وأسمونى «الخطيئة» ، ورأونى آية

نذير ، ولكنهم حينما اعتادوا على

رُقت لهم ، وفاضت مفاتنى الخلافة فأحبني

أشد من عاداني ، لا سيما أنت ، إذ كثيراً ما

رأيت ذاتك فى ذاتى ، وصورتك فى صورتى

٧٦٥

فتوليت بى ، ونشدت متعة أى متعة

معى فى الخفاء حتى حمل الرحم منى

حملاً ينمو ويكبر . ولكن الحرب نشبت إذ ذاك

ووقعت المعارك فى السماء ، وكانت الغلبة فيها

(ولا غرو) لعدونا ذى الجبروت ، إذ دان له

٧٧٠

النصر المبين ، وحق بنا الخزى والهزيمة

فى شتى أرجاء الخضراء ! لقد هبط الجميع منها

منقلين من ذروة السماء فوقعوا

فى هذا الخضم ! ومع سائر الهابطين

هبطت ! فوجدت هذا المفتاح الجبار

٧٧٥

قد وضع فى يدي ، وكُلِّفْتُ أن أبقي

على هذه الأبواب مغلقة إلى الأبد ، فلا يستطيع أن ينفذ

منها أحد إلا إذا فتحتها له ، وجلست هنا أفكر

وحدى ، لكننى لم ألبث أن وجدت رحمتى

٧٨٠

الذى يحمل طفلك وقد كبر وتضخم
وأحسست بحركة رهيبه فيه وآلاما مفرعة ،
وأخيراً خرج هذا الطفل الكريه الذى تراه أمامك
والذى أنجبته أنت ، خرج يشق طريقه عنوة
فمزق أحشائى ، وتملكنى الخوف والألم ،
وتشوّهت ، وتبدل من ثم نصفى الأسفل
وشاه ! أما هو - عدوى الذى حملته -

٧٨٥

فقد خرج وهو يلوح بسهمه الفتاك
الذى خلق ليهلك ، بينما فررت وأنا أصبح «الموت»
وارتعدت الجحيم لسماع ذلك الاسم الكريه ، وصدرت
آهاتها من كل كهف من كهوفها ، مرددة صراخى الداوى «الموت»
كنت أفر وهو يطاردنى كأنما

٧٩٠

تلهبه الشهوة أكثر من الغضب ، ولكنه كان أسرع منى
فأدركنى ! أمه التى حل بها الهم والغم !
فاغتصب أحضاننا دنسة

٧٩٥

يضاجعنى ! فأنجب ذلك الاغتصاب
لذه.الوحوش الشائهة الصارخة التى ما تفتأ تعوى
تولى كما ترى ! أحملها كل ساعة

وأضع حملى كل ساعة ، وقد بلغت بى الأحزان
مبلغها ، إذ إنها حين تشاء تعود إلى الرحم الذى
حملها ! تعود لتعوى وتنهش

٨٠٠

أحشائى بل لتزدردها ، ثم تنطلق وثابة
من جديد ، فتلدغنى بأثيم علمها ورعبها
حتى إننى لأنشد الراحة أو التلطف فلا أجد إليه سبيلا !
وها هو يقبع أمام عيني ليناوئنى :

٨٠٥

الموت الجهم ! وليدى وعدوى ! إنه يحفزهم
بل إنه ليزدرد أمه التى أنجبته دون إبطاء
إذا لم يجد فريسة أخرى ! لولا أنه يعرف أن
نهايته رهن بنهايتى ، وأننى لست لقمة سائغة
بل مرة عَصِيَّة ومكمن هلاك له

متى كان لهذا الهلاك أن يحل : هكذا حكم القضاء !

٨١٠

أما أنت يا أبت فإننى أنذرك ! احذر
سهمه الفتاك ! وإياك أن تأمل أن تنجيك
مناعة هذه الأسلحة البراقة التى تحملها .
رغم أنها سبكت فى السماء ! فضربته القاتلة
لا يصمد لها إلا حكم السماء الأعلى ! «

٨١٥

فرغت من حديثها ، وسرعان ما تعلم الشيطان الماكر

درساً بليغاً إذ لآن جانبه وطفق يتحدث حديثاً عذب النبرات :

« ابنتى العزيزة ! إنك تقولين إننى أبوك

وتظلعيننى على ابنى الجميل هذا ، برهاناً ثابتاً

على رفئى بك فى السماء والملذات التى

٨٢٠

طابت لى آنذاك ، وغدوت أبغض ذكرها ، بعد التحول الرهيب

الذى وقع بنا وما كنا نتوقعه وما كان يخطر لنا على بال ! ألا

فاعلمى أننى آتيك لالأناصبك العدااء بل لأحررك

من ظلمة منزل الآلام وكآبته -

أنت وإياه - بل وسائر رهط الجنة

٨٢٥

من الملائكة الذين حملوا سلاح مطالبنا العادلة

فهبطوا معنا من عل ! لقد كلفونى بأن أقوم وحدى

بهذه الرحلة الغريبة ، وها أنذا أنوب عن الجميع

معرضاً نفسى للمخاطر إذ أجوب بخطى الوحشة

عباباً لا قرار له ، وأبحث فى الفراغ الهائل -

٨٣٠

لموافاً جائلاً - عن مكان تقول النبوءة إنه سيخلق

ل إن الأدلة قد اجتمعت على أنه

د خلق الآن ، ضخماً ومستديراً ، ليكون نعيماً

متاخماً للسماء ، وستسكنه

ذرية من المخلوقات حديثة النعمة ، ربما لتملاً

٨٣٥

الفراغ الذى خلفناه ، رغم بعد ذلك المكان ،

وحتى لا تزدهم السماء برهط من العتاة الذين

قد يشيرون قلائل جديدة ! فإذا كان هذا (أو ما أحيط

بكتمان أشد) قد عُقد العزم عليه ، فسوف أعرفه سريعاً

فإذا ما عرفته عدت إليكما على الفور

٨٤٠

فاصطحبتكما إلى مكان تستطيعان فيه أنت والموت

أن تعيشا مطمئنين ، وأن تطيرا فى الخفاء

دون جلبة ، فى نسائم عليلة يذكىها

العبير الفواح ، ولسوف تطعمان هنالك حتى يتخمكما

الشبع ، إذ سيقع كل شىء فريسة لكما »

٨٤٥

وسكت . إذ لاح الرضى الغامر عليهما ، بل إن الموت

قد افتر ثغره الرهيب عن بسمه مفزعة عندما سمع

عن إشباع نهمه ، وبارك امتلاءه

الذى قدرت له تلك الساعة الطيبة . ولم يكن فرح

أمه الخبيثة بأقل من فرحه ، فشرعت تحدث والدها قائلة :

٨٥٠

مفتاح هذه الجحيم السحيقة فى يدي ! إذ قضى

أمر ملك السماء ذى الجبروت

أن أحفظه ، ونهانى عن فتح

هذه الأبواب الحجرية الصلبة ، ولصد أعتى القوى

يقف الموت مستعدا لإطلاق سهمه

٨٥٥

إذ لا يخاف أن يقهره أقوى الأحياء .

ولكن ما بالى أنصاع لأمر ذلك العلى

الذى يبغضنى ، والذى ألقانى فى هذا الدرك الأسفل

وظلمات هذا الحب العميق

قابعة هنا جبيسة هذا العمل المقيت

٨٦٠

والسماء منزلى الحق وقد ولدت فى السماء !

ما بالى أتلقى هنا فى سرمدى العذاب والألم

تكتننى المخاوف وصرخات الفرع

ممن أنجبتهم فانشوا يلتهمون أحشائى !

إنك أبى ، فلقد صنعتنى ولقد

٨٦٥

وهبتنى وجودى : هل لى إذن أن أطيع أحداً

غيرك أو أتبع سواك ؟ لسرعان ما تأخذ بى

إلى ذلك العالم الجديد ، عالم الضياء والنعيم ، وسط

الآلهة الذين يحيون حياة الهناء ، فأتولى الحكم إلى جوارك

وأكون يدك اليمنى ومكمن الشهوة كما هو خليق

بابتك وحببتك دون انتهاء . ٨٧٠

قالت هذا ثم قبضت على المفتاح الذى كان يتدلى من جانبها

أبئس به من أداة جرت علينا صنوف العذاب !

واتجهت نحو الباب تُجرّجُرُ أذيالها من الوحوش

ثم ما لبثت أن رفعت المشبك الحديدى الضخم عاليا

وهو ما لا يستطيع سواها ، كلا ولا قوى الجحيم العاتية ٨٧٥

أن يزحزحه من مكانه ! وأدارت المفتاح فى ثقب القفل فاشتبكت

أسنانه

بفجوات القفل المتداخلة ، فإذا بكل قضيب وكل رتاج

من الحديد الثقيل أو الصخر الأصم ينزلق بيسر

وينفرج . وفجأة انفتحت أبواب الجحيم

فكان لها ارتجاج عنيف وصرير داو ٨٨٠

ومن مفاصلها صدرت قعقة كهزيم الرعد

القاصف ، حتى لقد اهتزت أدنى دركات القاع

فى (إيريوس) . ولكن إغلاق الأبواب بعد فتحها

لم يكن فى طوقها ! فظلت مفتوحة على مصاريعها

حتى إنها تسمح بمرور زمرة ناشرة أجنحتها ، رافعة راياتها ، ٨٨٥

حاملة أعلامها المرفرفة ، فى موكب

من الخيول والعجلات الحربية المصطفة دون تراحم !

ما أوسع تلك الفتحة وأشبهها بفوهة التنور

التي تلفظ سحائب الدخان المكتظة وألسنة اللهب الحمراء !

٨٩٠

ولاحت أمام عيونهم فجأة

أسرار الخضم الأثيب ، فإذا هو

محيط حالك لا حد له ولا ساحل

بل ولا أبعاد ! فيه يضيع الطول والعرض والارتفاع

والزمان والمكان ! إذ ثم ترى الليل

٨٩٥

والعماء الطاعنين فى السن ، وهما من أنجبا الطبيعة ، يسطان

الفوضى السرمدية ، وسط ضجيج

الحروب التي لا تنتهى ، ويناصران الخلط والاختلاط !

أما عناصر الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ،

فإن أربعة أبطال ضوار

٩٠٠

يتصارعون هنا للسيطرة عليها ، وقد دفعوا إلى المعركة

بذرات أجتتها التي التفت حول راية

كل منهم ، وانقسمت فصائل شتى ، وتسلحت بأسلحة

خفيفة أو ثقيلة ، حادة أو صقيلة ، سريعة أو بطيئة ،

وتجمهرت بأعداد غفيرة لا تحصى مثل رمال
(برقة) أو حبات التربة الجافة في (سيرينكا)

٩٠٥ إذ جنّدت وطارَت لتشارك مع الرياح المتصارعة ، باسطة
أجنحتها الخفيفة . فمن التفت حوله معظم هذه الذرات
دان له الحكم لحظة ، بينما يجلس العماء ليفصل بينهم ،
ولكن قراراته كانت تزيد من حدة المعركة

٩١٠ التي يحكم فيها . وكان إلى جواره الحكم الأعلى وهو
«المصادفة» التي تهيمن على الجميع ! في هذه الهوة الوحشية ،
رحم الطبيعة ، وربما قبرها أيضاً ،

حيث لا بحر ولا شاطئ ولا هواء ولا نار
بل جميعها في أسبابها الهولية الأولى ، تمتزج
٩١٥ في اختلاط فظ ، وتصطرع هكذا إلى الأبد ،

إلا إذا قضى البارئ المصور ذو القوة والجبروت أن يتخذ منها
مادة أولى لخلق عوالم أخرى .

في هذه الهوة الوحشية وقف الشيطان الحذر
على شفا الجحيم ، وسرح طرفه هنيهة

متفكراً في رحلته ، فليس هذا بالأخدود الضيق

٩٢٠ الذي عليه أن يعبره ، وكانت أذنه تصكها أصوات قصف

عالية ، وجلبة ارتطام مدوية ، أعلى (إذا ضربنا الأقل

مثلاً للأعظم) من عواصف إلهة الحرب (بللونا)

عندما تدير آلاتها الضارية لتدمير

عاصمة من العواصم ، بل أعلى من الضجيج الذى يصدر لو

تهاوى

٩٢٥

هيكل هذه السماء ، وتمردت هذه العناصر

فهبت وانتزعت من المحور

هذه الأرض الثابتة ! وأخيراً نشر جناحيه العريضين

مثل أشعة الفلك ليطير ، وعلى متن الدخان المتصاعد

ارتفع بعيداً ساخراً من الأرض ، وطار فراسخ عديدة

٩٣٠

كأنه يجلس فى كرسى من السحاب ،

جسوراً ، بيد أنه سرعان ما ذاب ذلك الكرسى ، فوجد قبالة

فراغا شاسعا ، ودون أن يدري وجد أجنحته

ترفرف عبثاً ووجد نفسه يتهاوى

إلى عمق عشرة آلاف قامة ، بل كان يمكن أن يتهاوى حتى هذه

الساعة

٩٣٥

لولا المصادفة ! إذ هبت فى لحظة تعسة

سحابة مضطربة صاحبة ، فدفعته دفعة قوية

بما يثر فيها من اللهب وأبخرة النطرون ، ورفعته أميالا عديدة

مسافة

تمائل المسافة التي سقطها ! ثم هدأت السَّوْرَة والفورة

وانطفأت في مستنقعات (سيرتا) ، وليست بالبحر

ولا اليابسة الصالحة ! أخذ يتخبط فيها ٩٤٠

ويخطو على هذا المزيج من اليبس والماء ، ما بين سائر

وطائر! ما كان أحراه أن يضرب مجاديفه فيها وينشر أشرعه معا!

أرأيت إلى (الغريفون) كيف انطلق في البرية

ضاربا بجناحيه فوق التلال وأحراج الوديان

في أعقاب (أريماسبي) الذي غافله ٩٤٥

وسرق الذهب الذي كان يسهر

على حراسته ؟ فهكذا كان الشيطان ينطلق بإصرار

فوق الصخور والأوحال ، والسهول والجبال ، والآجام والآكام ،

شاقا طريقه برأسه ويديه ، وجناحيه وقدميه ،

سابحا غائضا خائضا زاحقا طائرا معا ! ٩٥٠

وأخيرا ارتفعت جلبة ضارية في أرجاء الكون

ودوى الصخب المذهل والأصوات المختلطة التي

حملها كهف الظلام فداهمت أذنيه

بقوة صاخّة : وها هو يتجه صوبها

٩٥٥

غير خائف عساه يلاقى عفريتاً

أو جنياً من أرواح الهوة السفلى

يسكن فى تلك الأصوات ، فيسأله

الطريق إلى أقرب شواطئ الظلمة

متاخمة للنور ! وفجأة لاح عرش

٩٦٠

العماء وقد نصب سرادقه الحالك !

مديداً على عباب الضياع ! وإلى جانبه على العرش

جلست ربة الليل فى قميصها الأسود ، أكبر الأشياء سناً

وشريكة العماء فى الحكم . وإلى جوارهما وقف

(أورقس) و (أديس) ، وحامل اللقب الرهيب

٩٦٥

(ديموجورجون) ، ومن بعدهم الشائعة والمصادفة

والاضطراب والاختلاط ، وقد تشابكت وامتزجت .

ثم الشقاق بأفواهه الألف المختلفة !

واجههم إبليس الجسور قائلاً : أيتها القوى !

يا أرواح هذه الهوة السفلى !

٩٧٠

أيها العماء ! يا ربة الليل الهرم ! لم آت لأتجسس عليكم ،

وما اعتزمت أن أكشف أسرار

ملككم أو أن أمسها بسوء ، ولكن جئت مضطرا ،

إذ إن طريقى إلى النور فى هذه

الفيافى الحالكة ، يمتد وسط مملكتم الشاسعة ..

٩٧٥

ولما كنت وحدى ودون دليل وشبه تائه اضطرت أن أسلك

أقرب سبيل إلى حيث تلتقى تخومكم الظلماء

مع تخوم السماء ، أو إلى أى بقعة أخرى

ظفر بها ملك السماء من مملكتم

واقطعها منذ عهد قريب ، فهذا هو مقصدى

٩٨٠

وغاية رحلتى فى هذا الخضم . دلونى على الطريق إذن !

إنكم إن فعلتم فسوف تفوزون بحظ عظيم

إذ سأستعيد حيثئذ تلك البقعة المفقودة

التي طردنا منها غصبا وقهرا ، وأردها

إلى ظلامها الأول وإلى سلطانكم ،

٩٨٥

(وهو غاية هذه الرحلة) ، وأرفع هنالك من جديد

راية ربة الليل العجوز !

لسوف تجنون الفائدة كلها ، وآخذ أنا بالثأر !

فرغ إبليس من الحديث ، فالتفت إليه العماء الهرم

وبنبرات متهدجة ووجه عابس مقطب

١٧٥

أجابه : إننى أعرفك أيها الغريب ! أعرف من أنت !

إنك قائد من الملائكة جبار ، ولقد قمت منذ عهد قريب

بشن الحرب على ملك السماء واندحرت

ولقد رأيت أنا وسمعت ! إذ إن ذلك الحشد

لم يهرب فى صمت من خلال الخضم المرعب

بل تهاووا المرة تلو المرة ، ونالوا اللطمة إثر اللطمة

مرتبكة صفوفهم مختلطة ! ثم تدفقت من أبواب السماء الملايين

من الفرق المنتصرة

لتطاردهم ! إننى أقيم على هذه التخوم

وسوف أفعل ما فى وسعى للدفاع عن

هذه البقعة الضئيلة التى مخلّقت لنا

والتى لا تزال تتضاءل نتيجة لتقاتلنا فيما بيننا

وهو ما أضعف صولجان الليل الهرم ! إذ بعد الجحيم

يمتد قبوك شاسع الأرجاء تحتها !

ثم تأتى الأرض والسماء الدنيا ، عالم آخر جديد

معلق فوق مملكتى ، تربطه سلسلة ذهبية

بذلك الجانب من السماء الذى سقطت منه فضائلكم .

فإن كنت ستسير إلى ذلك العالم فليس أمامك الكثير !

- ما أقرب الخطر إليك ، فامض وأسرع ،
وليكن الخراب والدمار والسقوط مكسبي
وسكت . ولكن إبليس لم يمكث ليحيب عليه ،
بل أسعده أن يعثر لهذا البحر على ساحل
فاستعاد سرعته واسترد قوته
ووثب عاليا كأنه هرم من نار
فى وحشة ذلك الانفساح الشاسع ، وبين أهوال
العناصر المتصارعة التى أحاطت به من كل جانب
شق طريقه صامدا ، يزيد ما يحيط به من ويلات
وأخطار عما أحاط بالسفينة (أرجو) وهى تمر
فى مضيق البوسفور بين الصخور المتصارعة
أو ما أحاط (بأوديسيوس) وهو على مؤخرة السفينة
حين تحاشى (خاريبيديس) وأبحر مع التيار المقابل .
وهكذا رافق المشقة البالغة والصعاب فى رحلتها
ورافقته المشقة البالغة والصعاب .
ولكن سرعان ما مر بالمكان الذى هبط الإنسان فيه بعد ذلك
فما أعجبه من تحول ! كان الموت والخطيئة يجدان
فى أثره ، إذ قضت مشيئة السماء

أن يُشق خلفه طريق عريض معبد

فوق الهوة المظلمة ، والبحر الذى يغلى ويمور

وقد احتمل راضخا ثقل جسر ذى طول عجيب

يمتد من الجحيم حتى أقصى فلك من أفلاك

هذا العالم الضعيف ، وعليه تمر الأرواح العاصية

بسهولة ويسر رائحة غادية

إما لغواية البشر الفانين أو لعقابهم ، إلا الذين يحف بهم

رضوان الله وتتنزل عليهم ملائكته فيوقونها

وأخيراً يلوح سنى النور القدسى وسناؤه

وتشع جدران السماء ضياء

ينفذ إلى أعماق قلب الليل البهيم

فينبلج الصبح مشرقاً ! ها هنا البداية الأولى

لأقصى تخوم الطبيعة ! وها هنا يتراجع العماء

عن بدائعها الظاهرة كأنه عدو مدحور

انكسرت حدة جلبته وخفتت ضجة عدائه !

ولا يجد إبليس مشقة الآن ، بل يجد من اليسير عليه

أن يبحر على العباب الهادئ فى الأضواء المتهافئة

مثل سفينة تعصف بها الأنواء فتسعد

بالمرفأ ، بعد أن تمزقت أشرعتها وشباكها !

١٠٤٥

أو أن يطير فى فراغ الفضاء الذى يشبه الهواء

فيتوازن جناحاه ، ويبصر دون عجلة

من بعيد جنة السماء وقد امتدت رحية

محيطها شاسع ، لا تعرف إن كان لضخامته مربعا أو مستديرا

وفيه أبراج من الدر الناصع ، وقلاع زينت

١٠٥٠

بالباقوت الأزرق النابض بالحياة ، كانت ذات يوم موطنه وسكنه

وقريبا منها كان هذا العالم يتدلى ،

معلقا بسلسلة ذهبية ، كأنه فى الحجم نجم

ضئيل الجرم يلوح بجوار القمر .

والى هناك ، مفعم النفس بشرور الثأر ،

١٠٥٥

ملعوننا فى ساعة ملعونة ، أهرع إبليس .

الكتاب الثالث

الموضوع

الرب جالس على عرشه - يرى إبليس وهو يطير نحو هذا العالم الذى خلق حديثاً - يريه إلى الابن الذى يجلس على يده اليمنى - ويتنبأ بنجاح إبليس فى غواية الإنسان - ويرد شتى الاتهامات الموجهة إلى عدالته وحكمته لأنه قد خلق الإنسان حراً وقادراً على مقاومة الإغواء - ومع ذلك يعلن انتواءه الصفح عنه لأنه لم يخطئ نتيجة الشر الكامن فيه مثلما فعل إبليس ولكن نتيجة إغواء إبليس له . ويلهج فم الابن بالحمد للرب وذلك لما أظهره من اعتزاه الصفح والغفران للإنسان . ولكن الرب يعلن ثانياً أن الغفران لن يتأتى للإنسان إلا بعد تحقيق العدالة الإلهية - لقد أخطأ الإنسان إزاء جلال الرب بطموحه فى الربوبية ومن ثم فقد قضى عليه وعلى ذريته بالموت إلا إذا وجد من يستطيع أن يتحمل وزر خطيئته ويتحمل عقابه . ويتطوع الابن بتقديم نفسه فداء للإنسان . ويقبل الرب ذلك ويقضى بتجسده ، ويعلن عن رفعه فوق جميع أسماء من فى السماء والأرض ، ويأمر الملائكة جميعاً بالصلاة عليه ، ويطيعون ، وينشدون ترانيمهم على أنغام القيثارة فى جوقة كاملة ، ويسبحون للأب والابن . وأثناء ذلك يهبط إبليس على قبة جرداء على المحيط الخارجى لهذا العالم . وعندما يتجول هناك يعثر أولاً على مكان أطلق عليه منذ تلك اللحظة "عالم النسيان والغرور" - وصف ما يطير فيه من أشخاص وأشياء -

ثم يأتى إبليس إلى باب الجنة - وصفه وهو يصعد السلم ، والأمواء التى تتدفق فوق السماء من حول الجنة ، ثم سيره من هناك إلى فلك الشمس .
وهنا يجد (أوريل) حاكم ذلك الفلك ، ولكنه يغير من صورته أولاً فيتخذ شكل ملاك أدنى فى الدرجة ، ويتظاهر بأن لديه رغبة مشبوبة فى رؤية الخلق الجديد والإنسان الذى أنزله الرب فى ذلك الخلق ، ويسأله عن مكان سكناه فيدله (أوريل) عليه . ومن ثم يهبط إبليس أول الأمر على تل (نيفاطيس) .

مرحى بالنور القدسى ! أول أبناء السماء !

أم هل لى أن أمثل لك بالسناء الخالد صنو الخالد

دون ملام ؟ فالرب هو النور

وهو يحيا فى نور لا يدانى

ويسكنه منذ الأزل ! إنه يسكنك

٥

أيها البهاء الوضاء للجوهر الوضاء الذى لم يخلق

أم تودنى أن أدعوك باسم آخر ؟ يا نهر الأثير الصافى

الذى لا يُعرف له منبع ! لقد جئت إلى الوجود

قبل الشمس وقبل السموات وعندما انطلق صوت

الرب كسوت بعباءتك العالم

١٠

وهو يتنشأ من الأمواه الظلماء السحيقة

ويتشكل من العدم والهيولة اللانهائية .

إننى أعود إليك اليوم بجناح أشد جرأة

هاربا من بحيرة الجحيم بعد أن مكثت طويلاً

١٥

فى ذلك المقام البهيم ، وقد كنت فى تحليقى

فى طبقة الظلمة المحيطة والطبقة الوسطى أنشد

ألحاناً تختلف عما أبدعه قيثار (أورفيوس) ،

فتحدثت عن العماء وعن الليل السرمدى ،

وقد علمتنى ربة الشعر قاطنة السماء كيف أخاطر بالهبوط

٢٠

فى الدرك المدلهم ثم بالصعود والتحليق ،

على مشقة ذلك ونُدرته ! إننى أعودك اليوم آمناً

وأحس نبراسك - نبراس الحياة والملك . بيد أنك

لم تعد تشرق فى عينيّ هاتين وهما تدوران فى محجريهما عبثاً

تنشدان شعاعك الثاقب ولا تشهدان الفجر !

٢٥

لقد زارهما مرضٌ عُضال فطمس أفلاكهما

أو قل حجبيهما "الماء الأزرق" . ولكن ذلك لم يعقُننى

عن التجوال مع ربّات الشعر عند

الينابيع الصافية أو الخمائل الوارفة أو التلال المشرقة

التي تولهت بحب الأناشيد القدسية . لا سيما

- ٣٠ أنت يا جبل (صهيون) والغدران المزهرة التي تجرى من تحتك
فتغسل قدميك المقدستين وتتدفق مع ألحانها
فإننى أزورك ليلاً ! وكثيراً ما أذكر
ذلكما الشاعرين اللذين شاركاني قدرى
فأتمنى أن أشاركهما ذيوعهما
- ٣٥ (تامريس) الكفيف و (هوميروس) الكفيف
والنبيين القديمين (تيريسياس) و (فينيوس)
ثم تتابنى الأفكار التي تتدافع وحدها
بأبيات الشعر المتسقة ، مثلما يسهر العندليب
ويغنى فى الظلام ، أو يحتجب عن العيون فى وارف الظل
ليصوغ ألحان الليل . وهكذا تتوالى الفصول
على مدار العام ولا يعود إلى ضوء
النهار أو أعرف جمال اقتراب المساء أو الصباح
أو مشهد أزهار الربيع وورود الصيف
وقطعان الأغنام والماشية ووجه الإنسان القدسى
بيد أن السحاب والظلام السرمدى
٤٥ يغشيانى وقد تقطعت بى السبل فلم أعد أرى
حياة البشر الصبوحة ولا كتاب المعرفة المشرق ،

بل يواجهنى الخواءُ فى كل مكان

وقد طمست بدائع الطبيعة وانمحت

وسدَّ منفذٌ من منافذ الحكمة !

فليتك يا نور السماء تزداد

إشراقا بين جوانحي وتضىء أعطاف الذهن

وتنير ملكاته وتكسيها عيونا أخرى !

ليتك تطهرها حتى ينقشع الضباب الذى غشيها فأرى

ما غاب عن بصر الفناء وأحكيه .

والآن ! كان الأب القاهر فى عليائه

يجلس على الكرسي فى السماء الطاهرة

وقد علا عرشه كل شيء . فانشئ يبصر

ما صنعه وما صنعه مخلوقاته

وقد التفت حوله ملائكة السماء

واحتشدت كأنها النجوم تستقى من طلعه

غبطة يعجز عن وصفها اللسان . كان على يمينه

صورة مشرقة لجلاله إذ جلس

ابنه الوحيد . وعلى الأرض رأى أولا

أبونا الأولين . ولم يكن بعدُ من البشر

سواهما ، يرتعان فى جنات السعادة

ويقطفان الثمار الخالدة - ثمار الهناء والحب -

هنا لا ينقطع وحب لا مثيل له

فى عزلة النعيم . ثم ألقى ببصره إلى

الجحيم والهوة الفاصلة ، وإبليس هناك

يطير بحذاء سور الجنة على جانب الليل منها

محلقا فى الهواء البهيم ، وقد تأهب الآن

للانقضاض - بأجنحة مرهقة وأقدام متعطشة -

على الخلاء المتاخم للكون ، وقد بدا له

أرضا صلبة مكنونة لا سماء لها ،

ولم يكن واثقا إن كانت فى الماء أو الهواء .

وعندما رآه الرب من عرشه الرفيع

من حيث يبصر الماضى والحاضر والمستقبل ،

أفضى إلى ابنه الوحيد بحديث النبوة قائلاً :

أيها الإبن الوحيد ! أترى سورة الغضب

التي تعصف بعدونا ؟ إذ لا تحده القيود

الموضوعة ، ولا أسوار الجحيم المرفوعة ، ولا ما كبل فيه

من السلاسل المذروعة ، لا بل ولا الهوة السحيقة

الشاسعة الممنوعة ! لقد صح عزمه

٨٥

على الاستماتة فى الانتقام ، وسوف يرد كيده

إلى نحره العاصى ! والآن قد

انفلت من كل قيوده فانطلق يحلق بجناحيه

قريباً من السماء فى أصقاع النور

متجها صوب العالم الذى خلق منذ عهد قريب

٩٠

ونزل فيه الإنسان ، حتى يتتليه ويعرف

إن كان قادراً على إهلاكه بالقوة أو بما هو أنكى وأمر

أى بالخديعة والغواية والمكر ! ولسوف يغويه حقا

إذ سيصغى الإنسان إلى أكاذيبه المنمقة

وسيعصى دون مشقة أمرى الأوحـد

٩٥

والعهد الأوحـد لطاعته . ولسوف يهبط منها

هو وذريته العاصية - ومن المعلوم على ذلك ؟

وهل يلام سواه ؟ يا لناكر الجميل ! لقد آتته

كل ما يقدر عليه ، وفى أحسن صورة وأعدلها ركَّبته

ووهبته طاقة الثبات وكذلك حرية السقوط !

١٠٠

وكذلك خلقت شتى القوى الأثرية

والأرواح فمنهم من ثبت ومنهم من وقع !

١٨٧

فإرادته ثبت من ثبت ، وإرادته سقط من سقط !

فإذا لم يكونوا أحرارا فكيف يبرهنون حقا على

ولاثمهم الصادق أو إيمانهم الراسخ أو حبهم الخالص ؟

١٠٥

ألن يبدو كل ذلك من عمل المجبورين المسيرين

لا الطائعين المختارين ؟ وأي ثناء أو ثواب يمكن أن ينالوه ؟

وأي رضى لى عن الطاعة إذا كانت

الإرادة والعقل (والعقل بعد يعنى الاختيار)

عبثا لا طائل من ورائه ؟ إنهم إن جردوا من الحرية

١١٠

لاتسمت الإرادة والعقل بالسلبية ولعبدوا الحتمية

بدلا من عبادتى . لقد خلقوا بالحق

وليس من العدل أن ينحوا باللائمة

على خالقهم أو خلقهم أو قدرهم

قائلين بأنهم مسيرون وأن الجبر يلغى

١١٥

إرادتهم وبأنه يتمثل فى قراراتى المطلقة

أو علمى الأزلى الأعلى . لقد اتخذوا بأنفسهم قرار

عصيانهم ، ولم أتخذة أنا ، وإن كنت أعلمه من قبل

فالعلم السابق لم يدفعهم إلى اقتراف جريرتهم

فهم لها مقترفون وإن لم يعرف بها أحد من قبل

١٢٠

وهكذا دون أدنى دافع أو ظل من الأقدار
ودون تأثير لعلمى السابق الذى لا يتبدل ولا يتحول
فإنهم يخطئون ، وهم أصحاب الشأن
فى إصدار أحكامهم واختيار ما يرونه فلقد
خلقتهم أحراراً ، ولسوف يظلون أحراراً

١٢٥

حتى يستعبدوا أنفسهم . فإذا لم أغير
طبيعتهم وألغى القرار الرفيع
الذى لا يحول ولا يزول ويقضى

بحريتهم ، فإن سقوطهم من صنع أيديهم .

أما النوع الأول فقد سقطوا بعد أن وسوسوا لأنفسهم

١٣٠

وبعد أن سوّلت لهم أنفسهم الغواية ! وأما الإنسان فيهبط
حين يغويه

النوع الأول . وهكذا فسوف ينعم بالغفران

ويحرمه الآخرون . لسوف أبسط رحمتى وعدلى

فى السماء والأرض ، وبهما يفوق جلالى كل شىء

ولكن رحمتى سبقت عدلى ، ونورها يطغى على كل شىء فى النهاية .

١٣٥

وأثناء حديث الرب فاح العبير الخالد فضوّع

جنبات السماء وأشاع فى صدور الأرواح المباركة المصطفاة

١٨٩

رَوْحاً من الفرح القشيب يجلب عن الوصف

وأما ابن الرب الذى لا مثيل له فقد كان ذا سنى

يفوق كل سناء ، إذ تجلى فيه بهاء أبيه

١٤٠

فى صورة مجسدة ، وفى وجهه

سطعت الرحمة القدسية وبدت للعيان ؛

وفاض الحب اللانهائى ، والصفاء المطلق ،

حينما بدأ حديثه إلى أبيه قائلاً :

يا أبى ! ما أكرم تلك الكلمات التى ختمت

١٤٥

بها حديث الملكوت وهى أن الإنسان سيحظى بالغفران !

إنها ستجعل السماء والأرض تُسَبِّحان

بحمدك ، وترسلان أصواتاً لا تحصى

من الترانيم والأناشيد القدسية فتحيط بعرشك

وترن أصداؤها فيه وتباركك إلى الأزل

١٥٠

إذ أتى للإنسان أن يضع فى النهاية ، وأتى للإنسان

الذى خلقته وأفأت عليه الحب حتى عهد قريب فهو أصغر أبنائك ،

أتى له أن يسقط ضحية الغواية حتى ولو تضافرت

معها حماقته ؟ تنزهت عن ذلك

وعن ذلك تنزهت يا أبى ! فأنت الحكم

١٩٠

فى كل شىء خلقت ، وحكمك لا يحيد عن الصواب .

وأنتى للخصم أن ينال

غايته ويحبط غايتك ؟ أنتى له أن يقيم

الشر الذى اعتزمه ويمحق الخير الذى قدمته ؟

وهل ينقلب إلى أهله مختالاً فخوراً ، رغم سوء مآله ،

حين يأخذ بالثأر ويجر إلى الجحيم

من ورائه ذرية الإنسان جميعاً

بعد إفسادها ؟ أم تراك تود أن

تمحو ما صنعت وأن تدمر

من أجله الخلق الذى خلقتة لإعلاء مجدك ؟

إنك إن فعلت فسوف يتساءلون عن خيرك وعظمتك

وقد نال منهما الشك فلا يحIRON جواباً .

وأجابه الخالق الأعظم قائلاً :

يا بنى ! إن فىك سعادتى المثلى !

إنك ابنى المقرب ! ابنى الذى يمثل وحده

كلمتى وحكمتى وقوتى الفعالة .

لقد أفصحت كلماتك عن أفكارى وجميعها

يتفق مع ما قضت به مشيئتى الأزلية :

فلن يضيع بنو الإنسان الضياع كله ، بل سينجو منهم من يشاء
وإن لم يكن بإرادته بل بمغفرة منى

١٧٥

أنعم بها دون قيد . وسوف أعيد إليه مرة ثانية
قواه الخائرة ، رغم أنه أهملها فاستعبدها
الخطيئة وأحالتها شهوات دنيئة فاحشة .

١٨٠

لسوف أؤازره حتى ينهض ويقف
على الأرض السوية ضد عدوه الفتاك
ولسوف أؤازره حتى يدرك مدى ضعفه
بعد أن يهبط وحتى يدين لى

بخلاصه ولا يدين به لأجد غيرى
ولقد اصطفت البعض وطهرتهم برحمة منى
واصطفيتهم على العالمين . بهذا قضت مشيئتى

١٨٥

أما سائر الناس فسوف يسمعون بلاغى وكثيراً ما يُنذرون
فيذكروا خطيئتهم ويسارعوا إلى مغفرة من
ربهم بعد أن حل بهم غضبه ، ويفوزوا برضوانه

الذى يدعوهم إليه . ولسوف أنير مداركهم الظلماء وأزكيها
حتى ترق قلوبهم التى قست فهى كالحجارة ، وحتى تلين إلى ذكرى

١٩٠

فيقيموا الصلاة ويتوبوا إلىّ ويوفوا واجب الطاعة .

وأما الصلاة والتوبة والطاعة الواجبة

فإذا قدمت بنية خالصة وعزم صادق

فلن تتوانى أذننى عن سماعها ولن تغفل عينى عنها

ولسوف أكنُ فى صدورهم هادياً مرشداً

هو الضمير . إنه الحكم الفصل ، فإذا استمعوا إليه ١٩٥

وأحسنوا فسوف يشهدون نوراً من بعد نور

ولسوف يثابرون للنهاية حتى يبلغوا بر النجاة .

أما من يُعرضُ عن طول حلمى وزمان غفرانى

ولا يقيم لهما وزناً فلن يذوق هذا ولا ذاك

بل سيزداد غلظة إلى غلظته وعمى إلى عماه ٢٠٠

فيمعن فى تخبطه وتزداد وهدة مهواه .

ولن يحرم الرحمة إلا أمثال هؤلاء .

وليس هذا كل شىء . فإن الإنسان يعصى

وينكث ، وهو يتتهك ميثاقه ويقترف الجرم

ضد السيادة العليا للسماء ، ٢٠٥

إذ يطمع فى الربوبية فيضيع كل شىء .

أما التكفير عن خيانتة فليس له

إلا هلاك مكرس محتوم . ولذا

- فلا مناص من الموت له ولذريته أجمعين
- فإمّا أن يهلك أو تهلك العدالة ، إلا إذا تقدم
- ٢١٠ بدليل له ، يقدر بل ويرغب فى تحمل
- ثمن الفدية الفادح ، وافتداء الموت بالموت .
- حدثونى يا قوى السماء ! أين عسانا نجد مثل هذا الحب ؟
- هل منكم من يقبل الفناء حتى يكفر عن
- ٢١٥ جرم الإنسان الفانى ؟ وهل من بارٍّ يخلص ظالما ؟
- وهل فى أرجاء الجنة مثل هذه المحبة الرحيمة الرفيعة ؟
- طرح السؤال فانعقدت ألسنة جوقة السماء جميعا
- وران الصمت على السماء . ولم يتقدم أحد
- للدفاع عن الإنسان أو الشفاعة له
- ٢٢٠ ولم يجروا أحد على تقبل ما هو أدهى : أى أن يُنزل بنفسه
- خسران الفناء ، وهو الفدية المرصودة .
- كان الإنسان يفتقر إلى من يكفر عنه خطيئته
- وكان يمكن أن يضيع إذ حكمَ عليه بالموت والجحيم
- القضاءُ الصارم ! لولا أن قام ابن الرب
- الذى يعمر الحبُّ القدسىُّ أقطارَ نفسه
- ٢٢٥ فعرض عزيز شفاعته مرة ثانية .

يا أبى ! سبقت كلمتك : إذ سينعم الإنسان بالغفران

ولن يعدم الغفران وسيلة يصل بها إليه ، فهو لا يضل طريقه أبداً !

إنه أسرع رسلك المجنحة

إلى شتى المخلوقات ، وهو يأتيها جميعاً

٢٣٠

على غير انتظار ودون أن تنشده أو تتوسل فى طلبه

فما أسعد الإنسان حتى يأتيه هكذا ! فكيف يرجو الغوث

بالغفران إذا مات محملاً بخطاياہ وضاع ؟

وأما التكفير عن نفسه أو القرايين الصالحة

فلن تجدى فتىلاً حين يركبه الدين ويبتلعه الهلاك .

٢٣٥

ها أنذا إذن أتقدم لأفديه ، وأقدم حياتى

مقابل حياته ، وليقع على أنا سخطك وغضبك

اعتبرنى الإنسان ، وسوف أتخلى من أجله

عن صدرك وعن هذا المجد فى قربك

ولسوف أنبذ كل هذا طائعاً مختاراً ثم أموت من أجل الإنسان

٢٤٠

آخر الأمر

قرير العين . وليصب على الموت جام غضبه !

ولكن لن يطول مقامى فى ظل سلطانه الكتيب ولن يطول

انهزامى ، إذ إنك وهبتنى

حياة الخلود فى نفسى ، فأنا بك أحيا

٢٤٥

رغم أننى أستسلم الآن للموت وأدين له

بكل ما هو فان منى . وبعد أن أسدد هذا الدين

لن تتركنى فى القبر البغيض

فريسة له ولن تجعل نفسى التى لا تشوبها شائبة

ترقد فيه مع الفساد إلى الأبد .

٢٥٠

ولكننى سأقوم منتصراً فأخضع

من هزمنى وأسلمه ما تفاخر به من أسلاب !

وسوف يتلقى الموت أنثى جرح الموت ، فيطأطئ الرأس

فى خزى بعد أن تجرد من حمته القاتلة .

وسوف أطوف بهذا الفضاء الفسيح ظافراً منتصراً

٢٥٥

وقد أوقعت الجحيم فى الأسر بالرغم منها وأعرض عليك

قوى الظلام فى أصفادها . وسوف يسرك

هذا المشهد فتطل من السماء وتبتسم لمرآى

بعد أن رفعتنى إليك وأنا أقضى على أعدائى

وآخرهم الموت فألقى بجثته فى القبر لتتخمه .

٢٦٠

وبعدها أصبح جميع من نالوا الخلاص على يدي

إلى الجنة بعد غياب طويل ، وأعود

يا أبى لأرى وجهك بعد أن تنقشع عنه

سحائب الغضب وتزول ، ويحل مكانها وطيد السلام

والوئام ولن يعود ثم مكان للغضب

٢٦٥

بعد ذلك بل سيشرق فى حضرتك الهناء كل الهناء .

وتوقف عن الحديث ، ولكن الوداعة على محياه

كانت تنطق فى صمتها ، وترسل أنفاس الحب الخالد

إلى البشر الفانين ، حب لا يفوق بهاءه إلا بهاء

طاعة الأبناء . لقد عرض التضحية بنفسه

٢٧٠

عن طيب خاطر وكان من ثم ينتظر أن يعرف مشيئة

أبيه العظيم وساد الإعجاب والدهشة

جنبات السماء إذ تساءلوا عما عساه يعنى وأيان يذهب

وتعجبوا . ولكن سرعان ما أتى جواب القوى القاهرة :

ليس سواك فى السماء والأرض من سلام

٢٧٥

للبر المفضوب عليهم يا منهل

رضاي الأوحى ! إنك تعلم خير العلم مبلغ حبي

لكل ما خلقت وليس الإنسان بأقلها حظًا

مع أنه أحدثها خلقًا ، وتعلم أننى من أجله جعلتك

تفارق صدرى ويدي اليمنى حتى أخلص

١٩٧

٢٨٠

ذريته التى ضاعت ، ولو فقدتكَ حينًا من الدهر

ولما كنت وحدك القادر على افتدائهم

فلتكن طبيعتك من طبيعة البشر

ولتكن رجلا بين الرجال على الأرض

ولتكن حين يحين الموعد لحمًا ودمًا من نسل عذراء

٢٨٥

ومولودًا عجبًا ! ولتكن مكان آدم

رأسا للبشر أجمعين مع أنك من بنى آدم .

فى آدم يفنى سائر البشر وفيك

يعودون إلى الحياة كأنما من بذرة ثانية .

وعلى كثرة الناجين ، فلن ينجو أحد دونك

٢٩٠

إن جريرته تدمغ بالإثم كل أبنائه ولكن الفضل الذى

تسبغه عليهم سوف يكفر عن أولئك الذين ينكرون

أعمالهم - أيا كان حظها من الشر أو الخير -

وينقلون بذورهم إلى أرضك ليحيوا فيك ،

وليستمدوا حياة جديدة منك وهكذا فلن يفتدى الإنسان

٢٩٥

إلا إنسان يحاكم ويموت - وهذا عين العدل .

فإذا مات رفعته إلىّ ، ثم أرفع معه

إخوانه الذين افتداهم بحياتهم الغالية .

وهكذا سيقضى الحب الإلهي على البغض الجهنمي الذي

يفضى إلى الموت . أما الموت فهو ثمن الغفران

٣٠٠

بل هو الثمن الفادح لإصلاح ما دمره البغض الجهنمي

بسر بالغ ، بل وما يزال يدمره

في صدور من يقدرّون على نوال المغفرة ولا يقبلونها .

ولكنك بنزولك واتخاذك

طبيعة البشر لن تخفض أو تحط من طبيعتك

٣٠٥

لأنك - رغم تبوّك عرش النعيم الرفيع

وتساويك مع الرب ، ومساواتك في التمتع

بثمار الربوبية - قد تركت كل شيء لتتقد

عالمًا من الضياع الكامل . وقد أثبتت

خصالك أنك أكبر من مجرد ابن للرب بحق المولد

٣١٠

وقد ثبت أنك جدير به وتستحقه كل استحقاق للخير الذي تتحلى به

وليس لعظمتك ورفعتك . ولأن الحب

لديك يفوق المجد والبهاء

فإن هوانك سوف يسمو

بالإنسان فيك إلى هذا العرش أيضاً

٣١٥

وسوف تجلس هنا في ثوبك البشري وتحكم

١٩٩

رباً وبشراً ، ابناً للرب وابتناً للإنسان ،

وتتوج ملكاً على العالم ، وسأهبك السلطان كله

فتحكم إلى الأبد وتتحلى بكل

خصالك ، وتصبح رأساً وسيداً للجميع

٣٢٠

إذ سأخضع لك العروش والإمارات والسلطين والرياسات

وسوف يركع لك الجميع ، سواء من يسكن

فى السماء أو فى الأرض أو تحت الأرض فى الجحيم

وعندما تطل من الجنة ببهائك ومجذك

لتلوح فى السماء الدنيا وترسل من عندك

٣٢٥

كبار ملائكة النداء ليعلنوا انعقاد مجلس

الحكم الرهيب فسوف يهرع الأحياء على الفور من شتى بقاع الكون !

وعلى الفور أيضاً سيهب الأموات الذين نودى عليهم

من جميع العصور السالفة لملاقاة الحساب

ويهرعون وقد أيقظتهم القارعة من رقدتهم !

٣٣٠

وعندئذ سوف يجتمع حولك المصطفون حتى تحكم فى أمر

العاصين من الناس والملائكة فمن حق عليه القول سقط

بما يقضيه حكمك حتى إذا حشروا إلى الجحيم فامتلات بهم

أغلقت أبوابها إلى الأبد . وعندها

تحترق الدنيا ومن رمادها تنشأ

٣٣٥

سماء جديدة وأرض جديدة يسكنها الأبرار

وبعد معاناتهم وعذابهم الطويل

سيشهدون أياماً من ذهب ، ثمارها أعمال من ذهب

ولسوف يتتصر الهناء والحب والحق الجميل .

وعندها أيضاً ستتخلى عن صولجان الملك

٣٤٠

فلن تحتاج إلى صولجان ملك بعد ذلك

إذ لن يبقى سوى وجه ربك . أما الآن فيا أيها الملائكة

صلوا لمن يموت حتى يحقق كل هذا

صلوا للإبن وكرّموه مثلما تكرّموننى !

وما أن توقف القاهر عن الحديث حتى ندت عن

٣٤٥

حشد الملائكة الحاشد صيحة

عالية من أعداد لا تعد ولا تحصى ! صيحة رقيقة

تحملها الأصوات المباركة التى نطقت بالفرح فهزت جنبات السماء

بألحان الهناء ، وانطلقت التسابيح العالية فملأت

أصقاع الخلود ! وفى خشوع وخضوع

٣٥٠

ركعت قبالة العرشين ، وألقت إلى الأرض

فى صلاة يزينها الوقار

٢٠١

بتيجانها المحلاة بزهر (الأمران) والذهب -

زهر (الأمران) الخالد ، الذى كان قد بدأ ينمو

فى الفردوس - بجوار شجرة الحياة -

٣٥٥

وبدأ يزهر ، ولكن سرعان ما انتقل بعد خطيئة الإنسان

إلى السماء حيث نبت أول الأمر ، وما زال ينمو

ويزهر عاليًا فيظل نبع الحياة -

حيث يجرى نهر النعيم فى وسط الجنة

ويتدفق فوق زهورها بمياهه العنبرية الصافية

٣٦٠

وهذه الزهور لا تذبل أبدًا ! بل تأخذها الأرواح المصطفاة

فتعقد بها جدائلها البراقة المضفرة بالأضواء !

أما الآن فهى ملقاة فى طاقات ضخمة غير معقودة أشرقت بها

أرضية الجنة البسامة فبدت مثل بحر من الياقوت الساطع

صبغته ورود السماء بالأرجوان !

٣٦٥

وبعد ذلك لبس كلُّ تاجه وحمل قيثاره الذهبى

قيثار ضبطت أوتاره وتلألأ إلى جانبه

كأنه كنانة السهام ، ثم عزف الجميع مقدمة عذبة

من أنغام متوافقة ساحرة قدموا بها

أنشودة التقديس ، وأيقظوا بها مشاعر النشوة السامية .

٣٧٠

لم يمتنع صوت من الأصوات بل إنها شاركت جميعا
فى غناء هذا اللحن . وهكذا شأن التوافق فى السماء !
تغنوا أولاً بقدرتك أيها الأب القاهر
أيها الملك القيوم الخالد اللامحدود !

٣٧٥

أيها السرمدى ! يا رب العالمين
يا نبع النور ! ذاتك لا تدركها الأبصار
لإشراقها وسطوع بهائها فى ساحة العرش
حيث تستوى عليه لا يدانيك أحد . وحين تلقى بالظلال
على وهج أنوارك وتحجبها بسحابة
تحيط بك كأنها القدس الرضاء

٣٨٠

تبدو حواشيها للرائى دكنا لفرط الإشراق من حولها
ومع ذلك فإن سناها يذهب بالأبصار فى السماء حتى أن ملائكة
الصاروفيم لا تجرؤ على الاقتراب وتحجب أعينها بأجنحتها !
وبعد ذلك تغنوا بأول ما خلق الرب - بك
أيها الابن - يا ذا الصورة القدسية !

٣٨٥

عن محياك الأغر الأبلج انقشعت السحب
فأدركته الأبصار وسطع نور الأب القاهر
وإلا ما استطاع مخلوق أن يرى نوره !

لقد انطبع فيك سنى جلاله وأقام ،

وحل بك الروح الأمين ونزل !

٣٩٠

لقد خلق بك سماء السموات وما بهن

من ملائكة ، وبك ألقى فى لج الهزيمة

بالطامحين الطامعين منهم ! إنك فى ذلك اليوم

لم تتوان عن القصف العاتى فأرعدت رعد أبيك

وما توقفت عجلات عربتك الحربية المستعرة التى زلزلت

٣٩٥

هيكل السماء الخالد وهى تطأ أعناق

المحاربين وتذك فلولهم دكا

وحين عدت من الطراد هللت ملائكتك عاليا

وسبحت لك وحدك ، يا من تستمد قوتك من أبيك ،

وتوقع شديد الانتقام بأعدائه

٤٠٠

لا بالإنسان ! لقد سقط نتيجة لكيدهم ولذلك فإنك

يا صاحب الرحمة والغفران لم توقع به حكما

بالغ الصرامة بل أثرت التلطف والرافة

وما أن أدرك ابنك العزيز الأوحـد

نك لا تتوى الحكم على الإنسان الضعيف حكما

الغ الصرامة بل تؤثر التلطف والرافة

٤٠٥

٢٠١

حتى أسرع لارضاء غضبك وإنهاء الصراع
بين الرحمة والعدالة الذى تبيّنه فى وجهك

ولم يكثر لمقعد الصدق فى النعيم

حيث يتلوك فى المنزلة فعرض أن يموت فداء

لوزر الإنسان . يا له من حب لا مثيل له !

حب لا يتأتى لمن دون المستوى القدسى !

مرحى بك يا ابن الرب ، يا مخلص البشر ! سيكون

اسمك الموضوع الحافل لأغنيتى

منذ الآن ، ولن يتوقف قيثارى عن مدائحك

أو ينساها ، أو يعزلها عن مدائح أبيك .

وهكذا كانوا فى السماء فوق مدار الأفلاك

يقضون ساعات السعادة فى الهناء والترانيم .

وآنذاك - على القبة المعتمدة الصلبة

لهذا العالم المستدير ، حيث يفصل أول مداراته

الأفلاك الوضاعة الدنيا التى تحتوى الآن

من العماء ومن غارات الظلمة القديمة -

حط إبليس وسار . ورأى على البعد ما يشبه الكرة

فلما اقترب منها بدت له قارة لا حدود لها

- خربة مظلمة وبرية موحشة ، تجهم لها الليل
 ٤٢٥ فتعرت دون نجوم ، وهبت عليها من العماء عواصف تهددها أبداً
 وتلقفها من كل مكان . فأجواؤها صرصر عاتية
 إلا على هذا الجانب ، فرغم بعده
 الشاسع عن سور الجنة ، لمح فيه بصيصاً منعكساً
 لسماء مشرقة هدأت فيها العواصف الصارخة .
 ٤٣٠ وهنا سار الشيطان طليقاً في الخلاء الشاسع .
 انظر إلى نسر نشأ وترعرع في جبال (إيماوس)
 التي صدت ذراها الثلجية قائد التتار الغازي !
 وانظر إليه يترك موطنه الذي تندر فيه الفريسة
 ويغادره طلباً للحم الحملان أو صغار المعز
 ٤٣٥ مما يرعى مع القطعان فوق التلال ! إنه يطير نحو ينايع
 نهر (الجانكيز) أو نهر (الهيداسبيس) في الهند
 ولكنه يحط في طريقه على السهول الجرداء
 في (سريقانا) حيث يُسير أهل الصين
 عرباتهم الخفيفة المصنوعة من البوص بقلوع تدفعها الريح !
 ٤٤٠ فهكذا حط الشيطان على السهل المنبسط كصفحة البحر الذي
 نهب عليه الريح فأخذ يصول ويجول وحده طلباً لفريسته !

كان وحده حقًا إذ لم يكن مخلوق آخر فى هذا المكان -
مخلوق من الأحياء أو من الجماد ! لم يكن بعد أى شىء !
ولكن حشدًا من الأشياء جاء من الأرض فيما بعد
راكبًا متن الهواء كأنه الأبخرة الطائفة !

٤٤٥

حشد من شتى ألوان العرض الزائل والغرور
بعد أن أفعمت الخطيئة أعمال الإنسان بالغرور -
كل صنائع الغرور ، وكل من بنى على صنائع الغرور
آماله الكاذبة فى المجد أو الشهرة الباقية

٤٥٠

أو السعادة فى الدنيا أو فى الآخرة .
إن كل من ينالون ثوابهم فى الأرض ويجنون ثمار
جهود الخرافة والحماس الأعمى
ولا يبتغون سوى مديح الناس ، سوف يجدون هنا
جزاءهم الحق خواءً مثل أعمالهم .

٤٥٥

إن كل ما صنعه يد الطبيعة فلم تتم صنعه
فخرج مجهضًا ، أو وحشيًا ، أو فظيع الخلقة
يذوب على الأرض ويسيل إلى هذا المكان ويظل
يروح ويغدو عبثًا حتى يحين وقت انحلاله هنا
لا فى القمر المجاور كما تصور البعض خطأ .

٢٠٧

٤٦٠

والأرجح أن سكان حقوله الفضية هم

القديسون الذين رُفِعوا أو الأرواح الوسطى فى المنزلة

بين الملائكة والجنس البشرى .

أما هنا فمن نسل أبناء وبنات اقترنوا فساء اقترانهم !

جاء العمالق أولا من العالم القديم

٤٦٥

يزهون بانتصاراتهم العديدة وذيوخ صيتهم آنذاك .

ومن بعدهم جاء بناء (بابل) على سهول

(سنار) ، ولم تفارقهم أطماع الغرور

فلو كانت لديهم المقدرة لبنوا مدنا جديدة مثل (بابل) .

وغيرهم أتى وحده . فأما من كان ينشد

٤٧٠

الربوبية فقد ألقى بنفسه حمقاً فى سكير بركان (إتنا)

وهو (امباذوقليس) ، وأما من كان يريد التمتع

بالجنة التى وصفها (أفلاطون) فقد ألقى بنفسه فى البحر ،

وهو (كليومبروتوس) - وغيرهم كثيرون ممن يطول ذكرهم

أَجَنَّةٌ وبلهاء ، ونسك وكهان ممن يرتدون المسوح

٤٧٥

البيضاء والسوداء والرمادية وما يتزينون به من بهرج .

هنا يطوف الحجاج الذين قطعوا مسافات كبيرة بحثا

عمن مات على تل (جلجثة) وهو يحيا فى السماء .

وأولئك الذين كانوا يريدون ضمان الفردوس

فارتدوا عند موتهم الملابس السوداء لطائفة (الدومينيك)

أو (الفرنسيسكان) ظانين بأنهم سوف يتخفون فيها فيدخلوا الجنة ! ٤٨٠

إنهم يمرون بالكواكب السبعة ، ثم يمرون بالفلك الثابت

ومن بعده الفلك البلورى ذى الميزان الذى يحدث التوازن

مع الاهتزاز فى المحور ، ومن بعده أول الأفلاك حركة .

وترى القديس بطرس واقفا الآن عند باب الجنة الصغير كأنه

ينتظرهم وفى يده مفاتيحه ، وتراهم لدى سفح ٤٨٥

درج الجنة يرفعون أقدامهم ثم ترى عجباً !

إن ريحا عاصفة تهب قبالتهم من الساحلين معا

فتجرفهم مسافة عشرة آلاف فرسخ ثم تلوي بهم عاتية

فى الهواء الشارد ! وعندها ترى من كل

عباءة وقلنسوة ، وترى المسوح ولابسيها وقد تلطمت ٤٩٠

وتمزقت وتناثرت إرباً ! ثم ترى المسابح والبقايا المقدسة

وصكوك الغفران وتحلة الأيمان ، وصكوك العفو والمراسيم البابوية

فى أيدي الريح تتقاذفها وتلهو بها ! وتتصاعد كل هذه فى دوامات الريح

فتطير فوق ظهر الكون على بعده الشاسع

إلى عالم النسيان الشاسع العريض ، والذى أصبح اسمه من ثم ٤٩٥

فردوس الحمقى . ورغم ذيوعه

بعد ذلك بوقت طويل فلم يكن به الآن أحد ولم تكن تطؤه الأقدام
وقد رأى الشيطان هذا العالم المتكور المظلم وهو يمضى فى رحلته
وكم طال به التجوال حتى لاح له أخيراً شعاع

من النور المشرق فاجتذب إليه على الفور
خطواته الخبيرة بالترحال . ثم رأى على آخر مرمى الطرف

سلما يرتفع بدرج رائع

إلى أسوار السماء - بناء عال

بدت على قمته بوابة فاخرة باهرة

كأنها بوابة قصر ملكى .

ذات مدخل مزدان بالماس والذهب

وقد رصع الباب بجواهر براقة متألثة

فسطع ولمع حتى فاق ما شهدته الأرض من

نماذج ، أو ما صنورته ريشة الرسام البارع .

كان السلم مثل الذى حلم به يعقوب ورأى

الملائكة يصعدون عليه وينزلون - جماعات

مشرقة من الحراس - عندما هرب من (عيسو)

إلى (فدان أرام) فى حقل (لوز)

ورآه فى منامه ليلاً ومن فوقه السماء دون غطاء

٥١٥

وحينما استيقظ صاح : هذه أبواب السماء

كان لكل درجة معنى وسر من الأسرار ! لم تكن تثبت

دائماً فى مكانها بل تقترب أحياناً من الجنة

فى الخفاء . وكان يتدفق من تحته بحر ساطع

من الياقوت أو اللؤلؤ السيل . وقد ركب

٥٢٠

القادمون من الأرض فيما بعد وأبحروا فيه حتى وصلوا

وقد حملتهم الملائكة ، أو طاروا فوق البحيرة

فى عجلات تجرها الخيول النارية .

وقد تدلى السلم الآن واقتربت درجاته إما لإغواء

الشیطان بسهولة المطلع أو لزيادة حزنه

لحرمانه من ولوج أبواب النعيم .

٥٢٥

وقبالبته انفتح من أسفل

فى مكان يعلو مقعد النعيم فى الفردوس

ممر يهبط إلى الأرض ، ممر واسع ،

أوسع كثيراً مما شهدته العصور التالية

٥٣٠

فوق جبل (صهيون) - على رحابته واتساعه -

وهو الذى يمتد فوق الأرض الموعودة المحببة إلى الرب

والذى سلكته ملائكته لتنزل على القبائل السعيدة،

بمقتضى الأوامر العليا، رائحة غادية

لا تتوانى عن الحركة، وعينه التى تنتقل بدقة

٥٣٥

بين (بانياس) حيث ينبع نهر الأردن

و (بئر سبع) حيث تخوم الأرض المقدسة

مع مصر وسواحل بلاد العرب .

كانت الفتحة تبدو شاسعة ، حيث أقيمت الحدود

مع عالم الظلام ، مثل الجسور التى تصد موج البحر .

٥٤٠

ووقف إبليس هنا على أدنى درجات السلم

ذى الدرجات الذهبية التى تصعد به إلى باب السماء .

وقف يتأمل ما تحته فى دهشة إذ لاح له فجأة

هذا العالم كله بصورته الكاملة ! كان يشبه كشافاً

سلك الدروب الظلماء والصحارى واجتاز أخطارها

٥٤٥

طوال الليل ثم لاح له أخيراً بشائر الفجر الصبوح

وقد تسنم قمة بعض التلال السامقة

فأبصرت عينه على حين غرة

مشهداً مزداناً لبعض البلاد الأجنبية

لم يره من قبل ، أو لمدينة ذائعة الصيت

٥٥٠

محلاة بالأبراج اللألاء والقمم البراقة

إلى تسطع عليها الشمس الآن فتكسوها بأشعتها الذهبية !
ومع أنه رأى السماء من قبل ، فقد تملكته الدهشة البالغة
ذلك الروح الشرير ، بل وتملكه من الحسد ما يفوق دهشته
لرؤية كل هذا العالم بديع الرواء .

٥٥٥

إنه يستطلع ما حوله - وما أحراه أن يفعل - حيث يقف
عاليًا فوق القبة الكبرى المحيطة

بظلام الليل المديد ، فينقل عينيه من أقصى الشرق
حيث برج الميزان إلى ذلك النجم الناعم الذى يحمل
(أندروميذا) فيجتاز بها أمواج الأطلنطى

٥٦٠

إلى ما وراء الأفق ، ثم من القطب إلى القطب
ليدرك عرض العالم ، ودون أدنى تمهل بعد ذلك
يلقى بنفسه هابطًا فى أولى مناطق العالم
منقوضًا فى طيرانه ثم ينثنى فى يسر ويلتوى
خلال الهواء النقى الصقيل فيمر

٥٦٥

بين نجوم لا يحصى عددها ، نجوم تسطع
على البعد . أما على القرب فتبدو عوالم أخرى
أو قل إنها كانت تبدو عوالم أخرى أو جزراً سعيدة

- مثل حدائق (هسبيريا) التى ذاعت شهرتها من قديم

بحقولها الخصبة وخمائلها ووديانها المزهرة !

٥٧٠

جزر ضوعفت سعادتها ثلاث مرات ، ولكن قاطنيها السعداء

لا يمكنون ليتساءلوا عنها ! ولقد فاق ضوء هذه النجوم جميعاً

نور الشمس الذهبية إذ سطعت بما يشبه بهاء الجنة

فشدت إليها بصره ، وإليها يمضى فى طريقه

عبر السماء الساكنة . هل يصعد أم يهبط ؟

٥٧٥

أفى مدار داخلى أم مدار خارجى ؟ (لا نستطيع القطع فى هذا)

أم بحذاء خط الطول الكونى حيث الوهاج العظيم -

الذى ينأى عن الكويكبات المحتشدة المألوفة التى

تبقى هى الأخرى على المسافة بينها وبين عينه الملكية

وهو يرسل ضوءه من بعيد . أما هى فإنها تؤدى

٥٨٠

رقصة النجوم فى إيقاعات تحسب مواقيت

الأيام والشهور والسنين ، ونحو مصباحه الصبوح

تتجه بشتى حركاتها دون تفاوت ، أو قل إنها موجهة

بشعاعه المغناطيسى الذى يشيع الدفء الرفيق

فى الكون ويتخلل أوصاله إلى أعماقها الدفينة

٥٨٥

متسللاً برفق - دون أن يرى -

مرسلاً طاقته الخفية حتى فى أعماق المحيط .

ما أحكم موقعه الوضاء وما أعجبه !

وهناك يهبط الشيطان . إنه يهبط على بقعه لم ير مثلها

الفلكى بين البقع التى تشين وجه الشمس الوضاء

وهو يتطلع إليها من منظاره الزجاجى المقرب . ٥٩٠

وقد وجد أن وهج المكان يعجز عنه الوصف

إذا قورن بأى شىء على الأرض من المعدن أو الحجر !

لم يكن متجانس الأجزاء ولكنها كانت جميعاً تشع

ضوءاً باهراً ، كأنها حديد توهج فى النار .

فأما المعدن فيبدو بعضه من النضار وبعضه من اللجين الصافى ٥٩٥

وأما الحجر فمعظمه من الزمرد أو الزبرجد

أو الياقوت أو الياقوت الأصفر وسائر الأحجار الاثنى عشر

التي سطعت

على درع (هارون) . وكان ثم حجر آخر

تخيله الناس كثيراً دون أن يروه فى غير هذا المكان

إنه الحجر أو قل إنه يشبه الحجر الذى عبثاً ما طلبه ٦٠٠

الفلاسفة وطويلاً ما بحثوا عنه على الأرض هنا -

دون طائل رغم علومهم وقدرتهم على تقييد

الطيّار (هيرميس) وفك قيود (بروتئوس) القديم واستحضاره

من البحر فى شتى أشكاله

٦٠٥

وتقطيره فى الأميق حتى يعود صورته الأولى

وهل نعجب إذن إذا كانت الحقول والبقاع هنا

تخرج زفرتها أكسيراً صافياً وتجرى الأنهار

بالذهب السائل إذا كانت لمسة مؤثرة واحدة

من الشمس رأس الكيمياء ، رغم بعدها الشاسع عنا ،

٦١٠

تختلط بمياه الأرض فتبدع

هنا فى الظلمة كثيراً من الأشياء الثمينة

بألوانها الرائعة وتأثيرها النادر ؟

لقد عثر الشيطان هنا على مواد لم يرها أحد من قبل ولكنه

لم ينبهر بها . لقد أحاطت عينه بالمشهد طويلاً وعرضاً

٦١٥

إذ لا يقوم أمام البصر هنا حائل ولا يمتد ظل

بل يغشى ضوء الشمس كل شىء ، كأنها تسطع

فى كبد السماء عند الظهر ، فأشعتها الآن مباشرة

تنطلق إلى أعلى دائماً حيث لا تسقط

الظلال من أجسام مصمته وأما الهواء

٦٢٠

فلا مثيل لنقائه هنا إذ وهب نور بصره حدة

فاستطاع أن يرى أبعد الأشياء عنه وسرعان

ما أبصر بوضوح ملاكاً باهراً واقفاً

كان نفس الملاك الذى رآه (يوحنا) واقفاً فى الشمس .

كان يدير ظهره إليه ، ولكن ذلك لم يخف بهاءه .

٦٢٥ كانت أشعة الشمس الوضاعة قد صاغت تاجاً ذهبياً .

يحيط برأسه . ولم تكن خصلاته أقل

بهاء وهى ملقاة خلف التاج على كتفيه المجنحتين

وقد تموج الشعر فيها . كان يبدو مكلفاً بمهمة عظيمة

أو مستغرقاً فى تأملات عميقة .

٦٣٠ ما أسعد الجنى الخبيث الآن ! لقد راوده الأمل فى

أن يجد من يده على الطريق فى رحلته الجواله

إلى الفردوس حيث يقعد الإنسان مقعد النعيم -

ختام ترحاله وبداية ترحنا !

ولكنه يحاول أولاً أن يغير من صورته الحقيقية

٦٣٥ وإلا جرت عليه الأخطار أو أدت إلى التأخير .

فإذا به يتحول إلى صبى من ملائكة الشاروبيم

ليس فى ربيع العمر ، ولكن وجهه

يضيء ببسمة شباب السماء ، ويضفى على أطرافه

الرشاقة المناسبة ! ما أمهره فى التصنع والتخفى !

٦٤٠

تحت تاجه الصغير كان شعره الدفاق

يتماوج فى حلقات فوق خديه ، وكان يرتدى جناحين

من ريش زاهى الألوان مزركش بالذهب .

كان قد ارتدى ما يعينه على سرعة الحركة ويمسك

بعضاً فضية تسبق خطواته الرزينة .

٦٤٥

وقد أحس به وسمعه الملاك الوضاء عندما اقترب

بل قبل أن يقترب إذ أدار الملاك رأسه النورانية

وقد دلت أذنه عليه فأدرك إبليس على الفور أنه

الملاك الأكبر (أوريل) أحد السبعة الذين

يقفون فى حضرة الرب ! إنهم أقرب الملائكة إلى العرش ،

٦٥٠

فهم يقفون على استعداد لتلقى أوامره ، وهم عيونه

التي تتفحص أقطار السموات جميعاً ! أما فى أصقاع الأرض ،

فيقبضون له المآرب بسرعة فوق الرطب واليابس ،

فى البرّ والبحر . فاقترب منه إبليس وحدثه قائلاً :

(أوريل) ! إنك أحد الأرواح السبعة التي تقف

٦٥٥

بمشهد عن عرش الرب العلى باهر الإشراق

إنك أول مفسر لمشيئة الحق العظمى

وأول من يأتى بها من السموات العلى

حيث ينتظر شتى أبنائه انقضاء مهمتك

وأنت هنا بمقتضى المشيئة السامية أرجح من يحوز

مثل هذا الشرف - فأنت عينه المبصرة - ٦٦٠

إذ تختلف كثيراً إلى هذا الخلق الجديد المستدير !

وقد دفعتنى رغبة جائحة إلى أن أرى وأطلع على

سائر بدائع الخالق الباهرة لا سيما الإنسان

مبعث سروره وموطن حبه فمن أجله

أمر بخلق هذه البدائع الباهرة جميعاً ٦٦٥

وقد أتت بى هذه الرغبة إلى هنا تاركاً جوقه الشاروبيم

أصول وحدى وأجول . قل لى يا أبهى ملائكة الصاروفيم

فى أى فلك من هذه الأفلاك المشرقة يحظى الإنسان

بمستقره ؟ أم عساه لا مستقر له ؟

يتنقل كيف يشاء بين هذه الأفلاك المشرقة جميعاً ؟ ٦٧٠

أجبنى علنى أجده وأطلع عليه خلصة

قأعجب وأسر لمرأى

من أسبغ عليه الخالق العظيم هذه

العوالم ، ومن أغدق عليه كل هذه النعم .

٦٧٥

حتى يكون آية من الآيات نتدبرها كما ينبغي

فنسبح بحمد خالق الأكوان !

لقد ألقى بالحق بخصومه العاصين

فى أعماق أعماق الجحيم ، وتعويضاً عن فقدانهم

خلق هذه السلالة البشرية الجديدة السعيدة

٦٨٠

ليعبدوه خيراً من أولئك : ما أحكم فعاله جميعاً !

هكذا تحدث المتصنع المتنكر فلم ينكشف أمره

إذ لا يستطيع بشر أو ملاك أن يتبين

النفاق ، فهو الشر الوحيد الذى يمشى

خافياً - إلا على الرب وحده

٦٨٥

فى السماء والأرض - فبذا تسمح مشيئته .

وكثيراً ما ترى الحكمة يقظة والشك نائماً

لدى بابها ، وتراها تسلس للسذاجة

قيادها ، وترى الخير لا يظن ظن السوء بشيء

إن لم يكن ظاهراً باديًا . وهكذا انخدع الآن

٦٩٠

(أوريل) - رغم أنه حاكم الشمس

وأحدُ الأرواح بصرًا فى السماء

ومن ثم التفت إلى الدعى المخادع الأثيم -

- وبالخير المركب فيه أجابه قائلاً :
- أيها الملاك الجميل ! إن رغبتك في معرفة
 بدائع الرب ، حتى تسبح بحمد
 الخلاق العظيم ، لا تتجاوز الحد
 فتؤاخذ عليها ، بل إنها لأجدر بالثناء
 إذا تجاوزت الحد ! ساقتك هذه الرغبة إلى هنا
 وحيداً من مقامك في السماء
- لتشهد بعيني رأسك ما يقنع البعض
 بسماع أخباره وحسب في السماء !
 حقاً ! ما أعجب بدائعه جميعاً
 إن في معرفتها متعة ، وهي جديرة
 بأن تذكر جميعاً فتجلب السرور دائماً .
- ولكن أنى للذهن المخلوق أن يحصى
 عددها : أو يدرك الحكمة الأزلية
 في خلقها وإخفاء أسبابها العميقة !
 كنت أنظر عندما نطق بكلمته فإذا بكتلة الهيولة ،
 وهي المادة التي تشكل منها هذا العالم ، قد تراصت !
 وعندما سمع الاختلاط صوته توقف الصخب الوحشي

وخضع ، كما وُضعت الحدودُ للشاسع غير المحدود !

وعندما صدر أمره الثانى فر الظلام

وسطع النور ، وخرج النظام من الفوضى .

وأسرَعَتْ من ثَمَّ إلى مواقعها المحددة

٧١٥

العناصرُ الثقيلة : التراب والماء والهواء والنار

ثم ارتفع جوهر السماء الأثيرى

إلى أعلى ، تحمله أشكال شتى

تدور فى أفلاكها وتتحول إلى نجوم

لا يحصى عددها ، كما ترى وكما تشهد حركتها !

٧٢٠

وقد تحدد لكل منها مكان ومسار

وأما باقى الأثير فهو الجدار المستدير الذى يحيط بهذا الكون .

انظر تحتك إلى تلك الكرة ! إن جانبها المواجه لنا

يعكس الضوء المشع من هنا فيضىء ويشرق !

ذلك المكان هو الأرض مقر الإنسان ، وذلك الضوء

٧٢٥

هو نهار الإنسان ! ولولاه لكان مثل النصف الآخر للأرض

يغزوه الليل ! ولكن القمر هناك بجوارها

(فهذا هو اسم الكوكب الجميل المواجه لها) إنه يعينها

فى الوقت المناسب ، ويواصل دوراته الشهرية

التي ما تنتهى حتى تبدأ من جديد فى وسط السماء .

٧٣٠

وهو يستعير الضوء لينير طلعتة المثلثة

من هنا فيمتلىء ويفرغه لينير الأرض

ويسلطان نوره الشاحب يكبح جماح الليل

والبقعة التي أشير إليها هي الفردوس

حيث يقيم آدم وتلك الظلال السامقة خميلته .

٧٣٥

لن تفضل طريقك إليه ، أما أنا فطريقى يدعونى الآن .

وسكت واستدار فانحنى لهه إبليس وركع

فالعرف يقضى بالركوع للأرواح الرفيعة فى السماء

حيث لا يتجاهل أحد مراتب الشرف والاحترام .

ثم ودعه إبليس وأسرع نحو تخوم الأرض من تحته

٧٤٠

هابطاً فى فلك البروج يدفعه النجاح المأمول !

وها هو يدور فى الهواء عدة مرات فى رحلته السحيقة

ولا يتوقف حتى يحط على قمة تل (نيفاطيس) .

الكتاب الرابع

الموضوع

إبليس الآن على مرآى من عدن ، على مقربة من البقعة التى سيحاول فيها تنفيذ عمله الجسور الذى اضطلع به وحده ضد الله والإنسان ، وهنا يقع نهبا لعديد من الشكوك ، وتتتابه مشاعر عديدة - مشاعر الخوف والحسد واليأس . ولكنه فى النهاية يوطن النفس على الشر ويرحل إلى الفردوس وهنا يصف مظهرها وموقعها ثم يشب إليها متخطيا حدودها فى صورة غراب الماء ، ويقبع فوق شجرة الحياة أعلى شجرة فى الجنة كيما يشهد ما حوله . يتلو ذلك وصف الجنة حيث يرى إبليس آدم وحواء لأول مرة ويدهش إبليس لكمال صورتهم والنعيم الذى يقيمان فيه وقد عقد العزم على إخراجهم منه . ويسترق السمع إلى حديثهم ، فيدرك أنهما قد حرم عليهما أن يقربا شجرة المعرفة وإلا وقع بهما عقاب الموت . ومن ثم يعتزم أن يبنى على هذا إغواءه لهما - أى أن يغويهما على العصيان . ثم يتركهما إبليس حينما حتى يزداد علما بهما بوسيلة أخرى .

وفى هذه الأثناء يهبط (أوريل) على شعاع من أشعة الشمس ليحذر جبريل - الذى كان يقوم على باب الفردوس - بأن روحا من الأرواح الشريرة قد هرب من الهوة ومر عند الظهيرة بموقعه وقد اتخذ صورة ملاك كريم فى طريقه إلى الفردوس ، وأنه قد كشف أمره حين تأمل حركاته العنيفة فى تحليقه .

ويعد جبريل بأن يعثر عليه قبل انبلاج الصبح . الليل الآن يقترب ، ويتحدث آدم وحواء عن الذهاب إلى المخدع - وإلى ذلك وصف خميلتهما وصلاة المساء التي يؤديانها . وعندما يجمع جبريل كتائبه من العسس الذين سيطوفون الفردوس ، ينتقى اثنين من الملائكة الأشداء للنظر في خميلة آدم حتى لا يصيب الروح الشرير آدم أو حواء بالأذى أثناء سباتهما . وهناك يجدان إبليس يوسوس في أذن حواء بحلم الغواية فيأتيان به رغما عنه إلى جبريل . وعندما يسأله جبريل يجيبه بازدراء قائلاً إنه يعد العدة للمقاومة ولكن آية من السماء تمنعه فيطير خارجاً من الفردوس .

أين لي بصوت النذير الذي سمعه صاحب
الرؤيا يدوي دويًا في السماء

عندما هبط التنين ، بعد هزيمته الثانية ،

في سورة غضبه ليثار من البشر -

”الويل لسكان الأرض!“ ليتك تقولها الآن

وفي الوقت متسع لتنذر أبونا الأولين

أن عدوهم الخفي قد أتاها هاربا !

لقد فر بالمصادفة من فخ الهلاك ! فما هو

إبليس يهبط وقد استبدل بغضبه الجائحة الأولى

١٠

غواية تسبق الإدانة لبنى البشر ،

فإذا بالإنسان البريء الضعيف يصبح موضع ثأره لهزيمته

فى معركته الأولى وسقوطه فى الجحيم .

ولكنه غير هانىء بإقدامه - رغم جسارته

وبعده وجراته - وغير قادر على التباهى

١٥

وقد شرع فى تنفيذ خطته الرهيبة . إن موعد ميلادها

يقترّب حثيثا وقد باتت تفور وتمور فى صدره الجياش

بيد أنها - شأن آلة الحرب الشيطانية - يرتد كيدها

إلى نحر صاحبها ! إن الفزع والشكوك تشتت

أفكاره المضطربة وفى أعماقه يستعر

٢٠

جحيمه الباطن ، فلقد أتى بالجحيم فى داخله

ومن حوله ، بل لا يستطيع أن يبتعد عن الجحيم

خطوة واحدة ، إلا بمقدار ابتعاده عن نفسه ،

مهما تغير المكان وتبدل ؛ إن الضمير يوقظ الآن اليأس

الذى كان نائما ، ويوقظ الذكرى المريرة -

٢٥

ذكرى ما كان عليه ، وما أصبح ، وما لا بد أن يكون

أسوأ ، إذ لا يعقب شر الفعال إلا شر المعاناة .

تمتد عدن الآن أمام ناظره

فاتنة خلافة ، فطورا يلقي عليها بصره الكاسف الحزين

وطورا يرمق السماء والشمس الوهاجة

٣٠

التي اعتلت الآن برج الظهيرة الأشم .

ودارت به دورة التأملات ، فقال وقد غلبته الحسرات :

أنت أيتها المتوجة بفائق البهاء

لقد تجليت في السماء سلطانا أوحدها

لهذا العالم الجديد ! إن طلعتك تخسف شتى النجوم

٣٥

فتخفى رؤوسها المتضائلة ! إننى أناديك

بصوت لا يضمم الود ، ثم أذكر اسمك

أيتها الشمس ، لأقول لك كم أبغض أشعتك

التي تذكرنى بالمكانة التي فقدتها

وهويت منها ، وبهائي الذي كان يفوق بهاءك

٤٠

حتى قضت على الكبرياء والطموح المزرى ،

بعد الحرب في السماء ضد ملك السماء - وليس كمثله شيء !

ولماذا فعلتها ؟ لم يكن يستحق هذا الجزاء

منى بعد أن خلقتني بالصورة التي كنت عليها

امتيازا وبهاء ، وبعد أن أفاء على خيرا

٤٥

غير ممنون ، وما كانت عبادته شاقة على .

كان أقل ما ينبغي هو أن أحمد

وما أيسره من جزاء ، وأن أقدم له الشكر

وما أكثر ما يستحقه ؛ ولكن الخير من جانبه بات شراً في نفسي

وأثبت الحق والضعيفة . إن منزلتي الرفيعة جعلتني

٥٠

أرفض الخضوع ، ظانا بأنني لو ارتقيت درجة أخرى

سأكون أرفع الجميع ! وهكذا - في لحظة واحدة - أسقطت

ديني الكبير له ، دين الامتنان بلا نهاية

فهو عبء ثقیل ما تفتأ تسدده وما تفتأ تدين به .

ونسيت أنني ما فتئت أتلقى فضله ،

٥٥

ولم أدرك أن النفس حين تعترف بالفضل

وتدين به يسقط عنها الدين وتسدده معا ؛ فهي في آن واحد

مدينة به وبريئة منه : أين ذلك العبء إذن ؟

آه ! لو أن أقداره العاتية قد قضت

بأن أكون ملاكاً أصغر شأنًا ، إذن لرضيت

٦٠

حيثئذ وسعدت ، ولما كان الأمل غير المحدود قد أثار

طموحي . ولم لا ؟ لربما راود الأمل أحد الجبابرة الآخرين

من أندادي ، فوجدتني رغم صغر شأنی

أنضم إلى صفوفه . ولكن الجبابرة الآخرين من أندادي

- لم يسقطوا بل ما زالوا على ثباتهم ، فى الباطن
والظاهر ، وقد تحصنوا ضد كل إغراء وغواية .
- ٦٥ أكان لك من الإرادة الحرة والقوة ما يكفل لك الثبات ؟
أجل ! ترى من تتهم إذن وأى شىء تتهم
إلا الحب الفياض الذى تغمر السماء به الجميع بالعدل ؟
اللعنة إذن على حبه ، فسواء كان حباً أو كراهية ،
وهما لدى صنوان ، فقد أذاقنى الويل السرمدى !
- ٧٠ لا بل اللعنة عليك يا نفسى ! إن إرادتك قد عصت إرادته
واختارت دون قسر مصيرها الذى تبكيه الآن بحق .
ما أتعسنى ! أين أولى وجهى هرباً
أيها الغضب اللانهائى واليأس الذى لا ينتهى ؟
أينما وليت فثم جحيم : إن نفسى هى الجحيم .
- ٧٥ إن فى أدنى أغوار الهوة غوراً أدنى
ما يفتأ يتهدد بازدرادى فاغراً فاه !
والجحيم التى أعانيها جنة إذا قورنت به .
ألا فلأخفض جناحى إذن : ألم يعد ثم مجال
للتوبة ؟ ألم يعد ثم مجال الغفران ؟
- ٨٠ بلى ! لم يعد ثم سبيل إلا الاستسلام

ولكن الإباء يحول بينى وبينه ، وخوفى من العار

بين الأرواح الدنيا ممن أغويتهم

بوعود أخرى ومفاخر أخرى فمنعتهم

٨٥

من الاستسلام ، متباهيا بأننى أستطيع إخضاع

القهار . واهّا لى ! قليلاً ما يدركون

ما كلفنى الالتزام بذلك التفاخر الأجوف

ومدى العذاب الذى يُصدر الأثات فى باطنى !

فإذا بى ، وهُمَّ يعبدوننى هنا فوق عرش الجحيم ،

٩٠

وقد تبوأَت التاج والصولجان فعلوت وسموت ،

أزداد هبوطاً وسقوطاً فلا أتفوق إلا

فى الشقاء ! هذا هو الهناء الذى حققه طموحى !

ولنفترض أننى استطعت التوبة واستعادة

مكانتى السابقة بالعفو والغفران منه ، لسرعان

٩٥

ما توحى منزلتى الرفيعة بأفكار الرفعة وسرعان ما أتبراً

مما أقسمت عليه عند تظاهرى بالاستسلام ! إن الترف ليتنصل

من الأيمان التى حلفتها إبان العذاب فخرجت مغلظة وباطلة !

أنّى للوفاق الحق أن ينمو إذا كانت

جراح البغضاء القاتلة قد بلغت هذه الأغوار ؟

١٠٠

إنها لتؤدى بى إلى انتكاسة أسوأ

وسقوط أشد ، فإذا بى أشتى

مهلة قصيرة غالية بالآلام مضاعفة !

إن من يعاقبنى يدرك هذا ولذلك فهيئات

أن يمنحنى الصلح وهيئات أن أسأله منه !

١٠٥

لقد انتفى الأمل تماما ! وانظر ترَ مكاننا -

بعد أن نُبدنا ونُفينا - مصدر سعادته الجديد ! ذلك

الإنسان الذى خلق وخلق من أجله هذا العالم !

وداعاً أيها الأمل اذن ! وداعاً للخوف

وداعاً للندم ! لقد ضاع مئى الخير جميعاً

١١٠

ألا فلتصبح أيها الشر خيراً لى ، فبك - على الأقل -

سأتقاسم مُلك الكون مع ملك السماء

وبفضلك ربما حكمت أكثر من نصفه .

وقريباً سيدرك الإنسان وهذا العالم الجديد صدق ما أقول !

وأثناء حديثه كانت المشاعر تظلم وجهه وتظلمه

١١٥

بظلال الشحوب الثلاثة - ظلال الغضب والحسد واليأس

فكدرت وجهه المستعار وأبان

زيفه إذا كان ثم عيون تنظر !

فنفوس السماء لا تكدرها مثل هذه الأخلاط الدنيئة

وهي بريئة منها أبداً . وسرعان ما أدرك هذا

١٢٠ فأسبغ على وجهه سمة هدوء ظاهرة أخفت كل اضطراب -

إنه مبتدع التحايل ، بل كان أول

من يمارس الضلال مستتراً بمظاهر القداسة

ليخفي حقه الدفين الذي يضمثر الثأر

ولكنه لم يكن تدرب عليه بما يكفي لخداع

١٢٥ (أوريل) حين فطن إليه . لقد تابعت عينه وهو

يسلك سبيله ويحط على الجبل الأشورى

ورآه وهو يشوه ويتبدل بأكثر مما يقع

للأرواح الهائنة . ورمق وحشى حركاته

ورصد جنون فعالة حين ظن أنه وحده

١٣٠ وتصور أنه لا يرى لأنه غير مراقب .

وهكذا استمر فى طريقه حتى وصل إلى حدود

عدن ومن فوقها الفردوس ذات الملاذ

تقترب ، كأنها التاج بسياجها الأخضر

أو كأنها كثيب ريفى يتوج رأساً عارية

١٣٥ من الآكام العالية فى البرية . وعلى جانبيها تدلى الشعر

أدغالاً شعثاء ، غريبة وحشية

تحول دون وصول أحد . أما من فوقها فقد انتصبت

أشجار سامقة ظلالها شاهقة -

أشجار الأرز والصنوبر والسرو والنخل ذات الأفنان -

كأنما هي غابة من الغابات ! وأما الدرجات الصاعدة

ظلاً من بعد ظل فهي مسرح آجام

رائع المنظر . وفوق قممها جميعاً

قام سور الفردوس الأخضر

من حيث يستطيع والدنا الأكبر أن يحيط بأرجاء

مملكته الدنيا المجاورة لها

ومن فوق ذلك السور اصطفت دائرة

من أحسن الأشجار المحملة بأطيب الثمار .

كانت البراعم والثمار في آن واحد تكتسى لوناً ذهبياً

تمتزج به ألوان زاهية نضرة .

ما أهنأ الشمس بإلقاء أشعتها عليها ! إنها لأهنأ بها

منها بسحب الغروب الجميلة أو قوس قزح

عندما يلقي الله بالأمطار على الأرض ! ما أبدع ما تجلى

ذاك المشهد ! لقد خرج من الهواء النقي هواء أنقى

ليلقاه قادمًا وينفث في قلبه

١٥٥

فرح الربيع ومرحه ويمحو منه

كل الأتراح - إلا اليأس ! والآن تهب النسائم العلية

وترفرف بأجنحة أريجها فتتشر

عطور تلك البقعة ، وتبوح هامة بمصدر

هذه الغنائم فواحة العبير ! أرأيت إلى الملاحين حين

١٦٠

يتخطون رأس الرجاء الصالح ثم يجتازون

موزمبيق ، إذ تهب على البحر رياح شمالية شرقية

فتحمل إليهم روائح أرض سبأ من الشواطئ العطرة

لبلاد العرب المباركة ! فإذا هم يسعدون بتأخرهم

ويطئون من سيرهم وعلى مدى فراسخ عديدة

١٦٥

يسعد المحيط الهرم بذلك الشذا البهيج ويتسم له !

فهكذا كانت هذه الروائح العطرة للشيطان متعة

أتى فأفسدها ، ولو أنه كان أسعد حظا بها

من سعادة (أزموديوس) بدخان الأسماك

الذى أبعده - رغم تولهه - عن عروس

١٧٠

ابن (طوبيت) ومن ثم انتقم منه وأقصى

من (ميديا) إلى مصر حيث غل في الأصفاد !

٢٣٥

كان تسنم ذلك التل الشاق الشاهق

الغاية من رحلة إبليس ، بعد تلكته وتأملاته .

لكنه لم يجد طريقًا يشقه عند تلك البقعة حيث يتشابك نبات الأرض

١٧٥

كأنه شجرة أشواك متصلة تتألف

من أعشاب ملتفة وشجيرات متداخلة تسد

السبل أمام البشر والحيوان ممن يمر عندها .

كان ثم باب واحد يطل على الشرق

فى الجهة المقابلة . وعندما رآه المجرم الأكبر

١٨٠

استنكف أن يدخله من حيث ينبغى له ، وفى استعلائه

وثب فى خفة وثبة عالية تخطت به حدود

التلال وسامق الأسوار حتى إذا كان بداخلها

هبط على قدميه . أرأيت إلى الذئب الذى يتشمم الفريسة

حين يدفعه الجوع إلى طلبها فى أماكن صيد جديدة

١٨٥

كيف يترصد الرعاة وهم يدخلون قطعانهم عند المساء

فى الجظائر المسورة وسط الحقول آمنين مطمئنين

فيشب فوق السور فى خفة إلى داخل الحظيرة ،

أو إلى اللص الذى عقد العزم على سرقة أموال

ثرى بالمدينة - حيث أبوابه الثقيلة

الموصدة بالمزلاج وبالرتاج المحكم لا تخشى الدخيل -
 كيف يتسلق إلى النافذة أو إلى السطح ثم يثب داخلا ؟
 فهكذا تسلق هذا اللص - أول اللصوص وأكبرهم -
 متسللا إلى حظيرة الله ،

وهكذا يفعل الأجراء الجهلة عندما يتسلقون ليدخلوا كنيسة !
 ومن ثم طار وحط على شجرة الحياة

وهي الشجرة الوسطى وأعلى أشجار الفردوس .
 وجثم مثل غراب الماء . ولكنه لم يستعد الحياة المحقة
 بهذا بل قبع يدبر الموت

للأحياء ! لم يتفكر في قوة

تلك الشجرة التي تهب الحياة بل اعتبرها مكانا

يطل منه على ما حوله فحسب ! إنها الشجرة التي تهب
 الخلود لمن ينتفع بها حق الانتفاع ! ما أقل ما تعرف الكائنات
 (ولا يعرف إلا الله) كيف تقدر حق التقدير

الخير المبسوط لها ! إنها لتفسد أفضل الأشياء

باساءة استخدامها أو باستخدامها لأحط الغايات !

واعترته الدهشة من جديد حين نظر إلى المكان من تحته !

لقد رأى ما يبعث البهجة كل البهجة في عيون البشر ! رأى

ثروة الطبيعة جمعاء وقد احتشدت فى رقعة ضيقة ! بل قل
رأى السماء على الأرض ! كانت الجنة هى فردوس النعيم
الذى خلقه الله ، وقد غرسها فى شرق

عدن . أما عدنُ فتتمتد حدودها ٢١٠

من (حوران) فى الشرق إلى الأبراج الملكية
فى (سلوشيا) العظيمة التى بناها ملوك اليونان
أو حيث كان أبناء عدن يعيشون فى سالف الأزمان
فى (تَلَسَّار) . وفى هذه التربة الجميلة

قضى الله أن تكون جنته أجمل وأبهى ٢١٥
فمن التربة الخصبة جعل الأشجار تنمو -
أشرف الأشجار مظهرًا وعبيرًا ومذاقًا -
ووسطها جميعًا انتصبت شجرة الحياة
شاهقة بارزة تزدهى بثمار الخلد

نبثا من الذهب ! وإلى جوار الحياة ٢٢٠

كان الموت ، حيث تنمو شجرة المعرفة قريبًا منها -
المعرفة بالخير التى تُشتري بثمرن غال هو المعرفة بالشر !
وتجاه الجنوب عبر عدن كان يتدفق نهر كبير
لا يحول مجراه بل يخترق التل الأشعث

٢٢٥

ويمر من تحته خلال الثرى . إذ إن الله قد ألقى

هذا الجبل فى الأرض ليكون عماد جنته ورفعته عاليًا

فوق النهر الدفاق ! ومن خلال شرايين

التربة المسامية ترفع قوة الجذب الطبيعى ماءه الذى ينبجس

نبعًا عذبًا فيجرى غدرانًا شتى

٢٣٠

تروى الجنة . ومن ثم تجتمع هذه الغدران وتهبط

فى الوادى السحيق لتلتقى بالنهر الذى يجرى تحت الثرى ،

حيث يبرز الآن خارجا من مجراه المظلم ،

ويتفرع إلى أربعة جداول كبيرة

فيجرى فى كل اتجاه ويُعَرَّج على الكثير من ذائع البقاع

٢٣٥

والبلدان مما لا حاجة بنا إلى تفصيل القول فيه

بل ينبغى أن نصف - إذا استطاع الفن أن يصف -

كيف كان نبع الياقوت الأزرق يصب فى الغدران المتماوجة

التي تتدفق فوق اللآلىء اللامعة والرمال الذهبية

وتتلوى متعرجة تحت الظلال المدلاة

٢٤٠

فتجرى رحيقًا صافيًا إلى كل نبات وتحمل الغذاء إلى

زهور الفردوس الحقيقية به ، زهور لم يصنفها الفن الحاذق

فى أحواض منمقة أو فى عقد عجيبة مؤتلفة بل أغدقتها الطبيعة
المعطاء

وفاضت بها فيضاً على التلال والوديان والسهول
حيث سطعت شمس الصباح الدافئة أولاً فغمرت
الحقول المنبسطة أو حيث امتدت الظلال الثقيلة
فأظلمت الخمائل عند الظهر ! هكذا كان ذلك المكان !
بقعة ريفية هنيئة ذات صور متعددة .

أدغال تبكى أشجارها الثمينة بأصماغ العطور والشفاء
وغيرها مما تبرق ثمارها ذهباً

وتتدلى خلاية كأن أساطير (هسبيريا) قد تحققت !
فإن كانت ، فهنا وحسب : إذ إنها كانت رائعة المذاق
وفيما بينها امتدت سهول الكأ والمراعى المنبسطة ، والقطعان
التي تأكل العشب اللين وتجوس بينها ،
أو الكشبان التي تنمو فيها النخيل ، أو الزهور التي خرجت من
أحضان

بعض الوديان الريانة فتثرت بدائعها !

زهور من كل لون ، وورود دون أشواك !
وعلى الجانب الآخر مغارات وكهوف ظليلة

يترد من يأوى إليها ! وعليها تلقى عرائش الكروم أرديتها الخضراء
وعناقيدها الأرجوانية ، وتسلفها فى رفق

٢٦٠

وافرة النماء بينما كانت المسایل ذات الخريز تهوى

على جوانب التلال فتتفرق ، أو تأتى إلى بحيرة

تنمو على شطآنها مروج الأس والريحان ، كالتاج من حولها ،

صافية كأنها مرآة بلورية ، فتلتقى بمياه الجداول .

كانت الطيور تنشد أهازيجها بينما تهب نسائم الربيع

٢٦٥

فواحة بعبير الحقول والأدغال ، لتضبط إيقاع

الأوراق المرتعشة ! وكان (بان) ملك الغابات

يضع يديه فى أيدى الحسان الثلاث ويشتبك مع ربّات الفصول فى

رقصة

ترسم خطى الربيع الدائم ! لم يكن يشبهه شىء : لا الحقول

الجميلة

فى (إينا) حيث كانت (بروزرينى) تقطف الزهور

٢٧٠

وهى نفسها زهرة أجمل ، حين انقض عليها (ديس) ذو الجهامة

فاقتطفها ، فتكبدت (كيريس) عناء كبيراً

فى البحث عنها فى أرجاء العالم ! لا ولا خميلة (دافنى) البديعة

بجوار نهر (أورينتس) ونبعها الملهم -

نec (كاستاليا) - يمكن أن يرقى إلى هذه الفردوس -

٢٧٥

فردوس عدن ! لا بل ولا جزيرة (نايسا)

التي يحيط بها نهر (ترايتون) حيث كان (حام) الهرم

الذي يسميه الأميون (أمون) أو (جوف) الليبي -

يخفى عشيقته (أمالثيا) وابنها الصغير (باخوس) ذا الوجه المتورد

عن عين زوجة أبيه (ريا) .

٢٨٠

لا ولا حيث يحمى ملوك الحبشة أبناءهم فوق

جبل (أمارا) - رغم ما يتصوره البعض من أن تلك هي

الفردوس الحقة الواقعة جنوب مدار (أثيوبيا)

عند منابع نهر النيل ، حيث تحيط بالجبل الصخور البراقة

وارتفاعه مسيرة يوم كامل ! إنه بعيد كل البعد

٢٨٥

عن هذه الحديقة الأشورية التي يطل عليها الشيطان الآن !

لقد رأى الفرح فلم يفرح ، رأى جميع أنواع

المخلوقات الحية الغريبة الجديدة على العين ، ورأى

اثنين يمتازان عليها بكرم الخلق وانتصاب القامة والطول .

كانا ينتصبان كالآلهة الوثنية ؛ يكسوهما شرف المنبت

٢٩٠

ويبدوان في جلالهما العارى رأس كل الكائنات .

وبدا فضلهما جليا إذ سطعت في طلعتهما القدسية

صورة خالقهما المجيد وأضاءت

بالحق والحكمة والقدااسة الصارمة النقية !

كانت صارمة ولكن فى إطار حرية البنوة الصادقة -

٢٩٥

المصدر الحق لسلطان البشر ! ولكنهما لم يكونا

متساويين وكان الاختلاف بين الجنسين بينًا

إذ خلق هو للتفكير والإقدام

وخلقت هى للركة والرشاقة العذبة الخلابة

خلق هو لله وحده وخلقت هى لله من خلاله !

٣٠٠

كانت جبهته العريضة المشرقة ونظرته إلى العلاء تنطقان

بالسيادة المطلقة . كانت خصلاته السوداء

تلتف فى رجولة من مفرق شعره فوق الجبين

وتجتمع فلا تتعدى منكبيه العريضين .

أما هى فقد كان شعرها ينسدل مثل الخمار حتى وسطها النحيل

٣٠٥

فى جدائل عسجدية غير مزينة

وغير منتظمة ، ولكن أطرافها تتماوج فى عقصات طليقة

كأنها عقصات عرائش الكرم ! كان معنى الخضوع يكمن فيه

ولكنه خضوع المتحكم الرقيق ،

فهى تقدمه إليه وهو يتقبله بقبول حسن ،

٢٤٣

٣١٠

تقدمه بإذعان الحياء وتواضع الكبرياء

وعذب التمتع ودلال الأحبة .

وما كان يخفيان آنذاك أعضاءهما الغامضة

إذ لم يكن خجل الذنب قد ولد بعد ، وهو الخجل الكاذب

من بدائع الطبيعة - أواه أيها الشرف الكاذب

٣١٥

يا ربيب الخطيئة ! لكم كدرت البشرية جمعاء

وشغلتها بالمظهر - مظهر الطهر الكاذب -

وأقصيت من حياة الإنسان أهناً حياة له - حياة

البساطة والبراءة النقية !

كانا يسيران عارين ، ولم يتجنبنا عيون

٣٢٠

إله أو ملاك ، إذ لم يخطر الشر ببالهما

وسارا وقد تشابكت أيديهما فكانا أجمل اثنين

يلتقيان منذ ذلك الحين فى أحضان الحب .

كان آدم أوسم الرجال الذين ولدوا من بعده فكانوا

أبناءه وكانت حواء أجمل بناتها .

٣٢٥

وعلى الأرض الخضراء ، تحت بعض الأفنان الظليلة

التي تتمايل فتهمس همساتها الناعمة بجوار نبع عذب ،

جلسا يستريحان بعد عناء يوم قضياه

فى العمل الهانىء بالحديقة ، زاد من

استمتاعهما بالنسائم الباردة ، وزاد من إحساسهما

٣٣٠

بالراحة ، ومن لذة عطش الأصحاء وشهيتهم ،

فأخذوا يتناولان عشاءهما من الفاكهة .

فاكهة ذات رحيق ربانى تحملها الغصون الريانة

وتلقى بها إليهما بينما يسترخيان على

ربوة مكسوة بالزغب الناعم موشاة بالزهور !

٣٣٥

كانا يأكلان لب الثمرة ثم ينتهيان إلى القشرة

فيملأنها بالماء من الجدول الرقراق لرى ظمئهما !

كان حديثهما مهذبا وبسماتهما حلوة

وملاطفات الشباب ومداعباته تليق

بالجميلين اللذين ربط بينهما رباط الزواج السعيد

٣٤٠

فى وحدتهما . ومن حولهما تتوالب فى مرح

كل دواب الأرض التى استوحشت بعد ذلك ، وسكنت كل مكان

فى الغاب والبرية ، فى الأجمة والعرين .

كان الأسد يلهو فينهض على مؤخرته وفى يده

يلعب الجدى ! وكانت الدببة والنمور والأوشاق والفهود

٣٤٥

تتوالب أمامهما ! أما الفيل ثقيل الحركة

٢٤٥

فيضحكهما باستخدام كل قوته ، وتكوين حلقة كاملة
من خرطوم الضخم اللين .. وبالقرب منهما كان الثعبان الماكر
يشق طريقه وقد صنع من ذيله عقدة عويصة
ضفرها تضفيراً ! كان يستعرض خبثه القاتل

٣٥٠ ويمثل له فلا يلتفتان إليه ! أما سائر الحيوانات فعلى الكلاً
استلقت ، وبعد امتلاء بطونها بخير المرعى اتكأت تنظر
أو كانت تجتر طعامها قبيل الرقاد . فالشمس تميل الآن
وتسرع في فلكها المنحدر

نحو جزائر المحيط ، والنجوم في برج الميزان الصاعد
٣٥٥ في السماء تشرق لتعلن قدوم المساء .

كان إبليس ما زال يرقب المشهد من موقعه الأول
وبعد أن خانه لسانه ساعة عاد إلى حديثه الحزين قائلاً :
يا للنجيم ! ماذا تبصر عيناى المكلومتان ؟ من ذا الذى
يشغل مكاننا فى النعيم ؟ ما هذه المخلوقات السامية خلقاً

٣٦٠ ذات الشكل الجديد ؟ ربما كانت وليدة الأرض
وليست أرواحاً ، ولكنها ليست أدنى من أرواح السماء الوضاء
إلا قليلاً ! إن فكرى يتابعها

فى عجب وربما أحبتها ، إذ ما أبدع ما تسطع

فيها الملامح القدسية ، وما أعظم الحسن الذي

٣٦٥

أغدقته على صورها يد الباريء !

أيها الزوجان الرقيقان ! إنكما لا تدركان كم يقترب

موعد تحولكما ! إن هذه المسرات جميعاً

سوف تتلاشى وسوف تتحولان منها إلى الأحزان !

وكلما زاد ما تنهلانه الآن من الأفراح ، زاد نصيبكما من الأتراح !

٣٧٠

إنكما سعيدان ، ولكن سعادتكما الغامرة غير مأمونة

ولن تستمر طويلاً ! ومقعد الرفعة في جنتكما

يفتقر إلى الأسوار الخليقة بالجنة ، لتمنع العدو من دخولها !

لقد دخلها الآن عدوكما - لكنه لا يصابكما أنتما العداء

فأنا أشفق عليكم في هذه البأساء

٣٧٥

ولا يشفق على أحد ! إننى أنشد الارتباط بكما

والود المتبادل - الود الحميم الوثيق .

ومن ثم فلا بد أن أقيم معكما أو أن تقيما معى

منذ الآن . ربما لن يمتع منزلى حواسكما

مثلما تمتعها هذه الفردوس الجميلة ، ولكن

٣٨٠

تقبلاً ما صنع خالقكما : لقد وهبني إياه

وأنا أهبه لكما عن طيب خاطر ! لسوف تنفرج الجحيم

٢٤٧

لاستضافتكما ! لسوف تفتح أوسع أبوابها

وتوفد كل ملوكها لاستقبالكما ! ولسوف تتسع رقعتها

- على العكس من هذه الرقعة المحدودة - لاستقبال ذريتكما

٣٨٥

التي لا تحصى ! فإذا كان منزلاً غير كريم

فالفصل لمن وضعنى موضع الثأر الذى أبغضه - موضع

الثأر منكما دون أن تسيئاً إلى ، انتقاماً ممن أساء إلى .

فإذا لان جانبى لبراءتكما وطهارتكما

وقد لان الآن حقاً ، فإن الصالح العام يدعونى بالعدل

٣٩٠

كما يضطرني الشرف والملك الذى سيتسع بعد الانتقام

وفتح هذا العالم الجديد -

إلى فعل ما كنت لأبغضه لو اختلف الحال مع أننى ملعون !

هكذا فرغ الجنى من حديثه ، وكان لابد أن يتخذ من

ذريعة كل طاغية ما يبرر به أعماله الشيطانية .

٣٩٥

ثم طار من موقعه الشاهق على تلك الشجرة العالية

ليحط وسط القطيع اللاهى اللاعب

من ذوات الأربع وقد تحول إلى واحد منها - متخذاً

صورة هذا الحيوان أو ذاك بما يحقق هدفه ،

فيقترب لرؤية فريسته متخفياً ،

٤٠٠

ويرصد أحوالهما ويزداد معرفة بهما

إذا أفصحها عنها بالقول أو الفعل . وهكذا ظل يدور حولهما

طوراً في صورة أسد يتبهنس وقد برقت عيناهُ ناراً

وطوراً في صورة نمر وقعت عيناه مصادفة

في أطراف الغابة على غزالين رقيقين يلهوان

٤٠٥

فأخفض رأسه فوراً إلى الأرض ، رافعاً إياها بين الفينة والفينة

في طرادهِ المتلصص كمن ينتقى أفضل بقعة

ينقض منها مسرعاً ليضمن افتراسهما معا

وقد أطبقت كل يد على واحد منهما . وعندما بدأ آدم أول الرجال

حديثه المشبوب إلى حواء أولى النساء

٤١٠

استحال إبليس أذنا صاغية يستمع إلى كلامهما الجديد الدفاق :

شريكتي الوحيدة وأهناً هذه الأفراح جميعاً !

إنك لأقرب إلى نفسي منها . لا بد أن تكون القوة

التي خلقتنا وخلقت لنا هذا العالم الرحيب

ذات خير غير محدود ، ولا بد أنه واسع العطاء

٤١٥

كريم بخيره غير المحدود ،

إذ خلقنا من تراب وأنزلنا هذا المنزل ،

في هذا الهناء البالغ ، دون أن نستحق

أيا من هذا بل ولا نستطيع أن نفعل

شيئاً يحتاج إليه . إنه لا يطلب

٤٢٠

منا شيئاً سوى أن ننصاع

لأمر واحد جدّ يسير ! فمن بين هذه الأشجار

التي تحفل بها الفردوس وتحمل ما لذ وطاب من ثمار

مختلف ألوانها ، حرمت علينا شجرة واحدة

هى شجرة المعرفة التى غرست بجوار شجرة الحياة !

٤٢٥

ما أقرب ما ينمو الموت إلى جوار الحياة - أيا كان ذلك الموت

ولا شك أنه شيء رهيب - وتعلمين حق العلم أن

الله قد قضى بالموت على من يقرب تلك الشجرة .

وهذه هى آية طاعتنا الوحيدة

من بين شتى آيات السلطان والحكم التى

٤٣٠

أنعم بها علينا ، والسيادة التى كرمنا بها

على سائر المخلوقات التى تنعم

بالأرض والهواء والماء . لا ينبغى أن نظن أن تحريم شيء واحد

أمر عسير ، فلدينا الحرية المطلقة

فى التمتع بكل ما عدها ، ولنا أن نختار ما نشاء -

٤٣٥

دون حدود - من ضروب المتع المتنوعة من حولنا .

دعينا إذن نسبح بحمده أبداً ونشكره على

نعمائه ، بعد أن تنتهى من عملنا الممتع

فنشذب هذه النباتات التى طالت ، ونصفف هذه الأزهار ،

ولو كان عملاً شاقاً فهو يحلو لى إلى جوارك !

٤٤٠

وأجابته حواء قائلة : أنت ! يا من خلقت له

ومنه ! إن لحمى من لحمك ،

ولا غاية لى من دونك ! أنت يا مرشدى

ورأسى ! إن ما نطقت به هو العدل والحق .

فنحن مدينان له حقاً بالحمد كل الحمد

٤٤٥

وبالشكر صباح مساء - وبخاصة أنا ! لقد فزت

بحظ أعظم وسعادة أكبر : لقد فزت بك

وأنت تفضلنى بكثير ، بينما لن تجد لك

زوجاً مثلى أنى طلبت !

كثيراً ما أذكر ذلك اليوم إذ كنت نائمة

٤٥٠

فاستيقظت أول مرة ، ووجدتنى أرقد

فى ظل بعض الزهور ، فتساءلت فى عجب أين أنا

ومن أنا ومن أين وكيف أتيت إلى هذه البقعة .

وغير بعيد كان صوت خرير - خرير

مياه انبجست من كهف ما فسالت

٤٥٥

فى بحيرة رقراقة ثم سكنت فصفت

كأنها مهاد السماء الرحينة ! ومن ثم اتجهت إليها

بفكر غير الخير واستلقيت

على الشاطئ الأخضر لأنظر فى البحيرة الصافية

الملساء وقد بدت لعيني سماء أخرى !

٤٦٠

وحين انحنيت لأنظر ظَهَرَتْ قِبَالَتِي

على صفحة الماء البراقة صورة

تنحني لتنظر إليّ ، فجفَلْتُ وابتَعَدْتُ ،

فجفَلت الصورة وابتعدت ! ولكنى سُرِرْتُ لمرآها فعدت ،

وُسِّرْتُ هى لمرآى فعدت فى نفس اللحظة لتبادلنى النظرات -

٤٦٥

نظرات الود والحب ! كان يمكن ألا أُحوّل

عيني عنها إلى الآن ، وأن أذوى فى غرور الوله بها ،

لولا أن حذرني صوت ما قائلاً : إن ما تريه -

إن ما تشهدينه هناك أيتها المخلوقة الجميلة هو ذاتك

فهى تظهر معك وتختفى معك ! ولكن اتبعينى

٤٧٠

فسأتى بك إلى حيث لا يعكس ظل

صورتك ولا أحضانك الناعمة ! إنه رجل

أنت صورته ! وسوف تستمتع به

فيكون لك لا ينفصل عنك ! وسوف تحملين منه وتلدين

أعداداً كثيرة ممن يشبهونك ومن ثم ستسمين

٤٧٥

أم الجنس البشرى . هل كان بطوقى ألا

أتبع ذلك الصوت فوراً فيهدينى دون أن أرى صاحبه ؟

وسرت وراءه حتى رأيتك - كنت جميلاً حقاً وطويلاً

تحت شجرة الدُّلب - ولكننى رأيتك أقل جمالاً -

أقل نعومة رغم الفتنة ، وأقل ليونة رغم البشاشة ،

٤٨٠

من تلك الصورة الملساء المنعكسة فى الماء فأدريت ظهري إليك

ولكنك تبعتنى وأنت تصيح بصوت عال : "عودى حواء الجميلة !

ممن تهربين ؟ أتهربين من رجل أنت

لحمه وعظامه ؟ لقد قدمت فى سبيل خلقك -

بل اقتطعت من جانبي بجوار القلب -

٤٨٥

حياة نابضة لأحظى بك إلى جانبي ! فأنت

منذ الآن سكنتى وأنسى الذى لا ينفصل عنى .

أريدك يا شطر نفسى وأطلبك حقاً لى

يا نصفى الآخر ! " وعندها مددت يدك الرقيقة

فأمسكت يدى ، فأسلمت لك . ومنذ ذلك الحين رأيت

٤٩٠

كيف يقل الجمال منزلة عن استواء الرجولة
وحكمتها - فهي وحدها حقا جميلة .

وانتهت والدتنا الأولى من حديثها ، كانت نظراتها تنم

عن شغف بزوجها لا ملام عليه ،

وعن وداعة التسليم إليه ، حين مالت في نصف عناق

٤٩٥

على والدنا الأول ، والتقى نصف صدرها الممتلىء

العارى بصدرة تحت ستار الذهب السيال

من خصلاتها الطليقة المنسدلة . وتبسم هو سعيداً

بجمالها ومفاتن استسلامها -

افتتر ثغره وفاض قلبه بحب أعظم مثلما يتبسم (جويتر)

٥٠٠

إلى (جونو) حين يبث الحياة في السحب التي

تنثر زهور الربيع ، وطبع على شفاه الأم

قبلات طاهرة . بينما استدار الشيطان

حسدا ونطقت عيناه بغيرة خبيثة

وهو يرمقهما شزرا ، فطفق يقول لنفسه :

٥٠٥

لكم أبغض ما أرى ولكم يعذبني هذا المشهد ! إنهما

ينعمان بفردوس أحضانهما هنا

فيزيدان من هناء عدن ، ولسوف يتمتعان بما شاء الله لهما

من نعيم فوق النعيم ، بينما ألقى بى أنا فى الجحيم

حيث لا فرح ولا حب ، بل الرغبة الشرسة فحسب

وما هى بأهون صنوف العذاب ٥١٠

فهى لا ترتوى أبداً بآلام ويلاتنا العطشى !

ولكن ينبغى ألا أنسى ما ظفرت به من علم باحت به

أفواههما . يبدو أن ملكهما لا يحيط بكل شىء ،

إذ تقف ثم شجرة قاتلة تسمى شجرة المعرفة

حرم عليهما أن يقرباها : أمعرفة محرمة ؟ ٥١٥

هذا مثار ريبة ولا منطق فيه . لماذا يغبطهما خالقهما

أن يقرباها ؟ أيمكن أن يكون العلم خطيئة ؟

أيمكن أن يكون موتاً ؟ وهل يقبلان أن يستمر

جهلهما ؟ وهل هذه حال نعيمهما

وآية طاعتهما وإيمانهما ؟ ٥٢٠

يا له من أساس رائع يُبنى عليه

هلاكما ! ومن ثم فسوف أثير أذهانهما

بالمزيد من الرغبة فى المعرفة ، ورفض

الأوامر التى يملئها الحسد ، والتى ابتدعت بغية

الإبقاء على منزلتهما الخفيضة ، إذ إنهما بالعلم يرتفعان ٥٢٥

٢٥٥

إلى مصاف الأرباب . فإذا ما طمحا في ذلك

أكلا من الشجرة فماتا ! أو ليس الموت أرجح عاقبة ؟

ولكن ينبغي علىّ أولاً أن أجوس خلال هذه الجنة فأفحصها

فحصاً دقيقاً ولا أترك ركنًا دون أن أنظر فيه ! لقد كانت

٥٣٠

مصادفةً حقاً ولكن ربما حملتني المصادفةُ إلى حيث ألتقى

ببعض أرواح السماء الطوافة ، راقداً بجوار نبع ما

أو في ظل الأشجار الظليل ، فأستقي منه

المزيد من المعرفة - فلتعيشا ما أتيح لكما من حياة

أيها الزوجان السعيدان ، ولتتمتعا - ريثما أعود -

٥٣٥

بالمسرات القصيرة ، فلسوف تتبعها أحزان طويلة !

قال هذا واستدار بخطى الكبر والخيلاء

ولكن بحذر الماكر ! وبدأ تجواله

في الأدغال والبرية ، وفوق التلال والوديان .

وفي أقصى أطراف الأفق الغربى ، حيث تلتقى السماء

٥٤٠

بالأرض والمحيط ، كانت الشمس الغاربة آنئذ قد بدأت

تهبط في تودة - وقد صوبت أشعتها مباشرة

على البوابة الشرقية للفردوس -

أشعة الغروب الحانية ! كانت البوابة صخرة

من المرمر ترتفع سامقة حتى السحب

٥٤٥

بحيث تبدو من مسافات شاسعة ، وكان مطلعها ملتويا

يبدأ من الأرض وينتهي بمدخل واحد في أعلاه .

أما من حولها فصخور وعرة ، من المحال تسلقها

إذ يبرز بعضها فوق بعض حتى القمة .

وبين هذه الأعمدة الصخرية جلس جبريل

٥٥٠

زعيم الملائكة الحراس - في انتظار الليل ،

وحوله دارت الألعاب البطولية بين

شباب السماء العزل من السلاح ، ولكن أسلحة السماء

من الدروع والخوذ والرماح كانت

معلقة عاليا بالقرب منهم وقد برقت بالماس والنضار .

٥٥٥

وهنا أتى (أوريل) منزلقا عبر المساء

على شعاع من أشعة الشمس ، كأنه شهاب ثاقب يشق

السماء في ليلة من ليالي الخريف حين تغشى الأبخرة

الهواء ، لينذر الملاح ويرشده

من أي جهات إبرته الدوارة ستهب

٥٦٠

الريح الرعناء . ومن ثم بدأ حديثه العاجل قائلاً :

جبريل ! كان من نصيبك - عندما ألقينا أقلامنا - أن تتولى

رعاية هذا المكان الهانىء ، وأن تسهر على حراسته
حتى لا يقربه شر أو يلججه شرير .

واليوم فى أوج الهاجرة أتى إلى مقرى

٥٦٥

جنى يلهبه التعطش - فيما يبدو - لمعرفة

المزيد عن خلائق القهار ، وبخاصة عن الإنسان

آخر ما صورته البارئ ، ولقد تابعت خط سيره

المسرع اللاهث ، ورصدت حركاته فى الهواء .

ولكن - عندما وصل إلى الجبل الواقع شمال عدن

٥٧٠

حيث حط أول مرة - سرعان ما لاحظت أن طلعتة

غريبة عن السماء إذ أظلمتها المشاعر الحطیطة

وظلت عيني ترقبه حتى اختفى تحت شجرة

فلم أعد أراه . أخشى أن يكون أحد أفراد العصابة العاصية

قد هرب من منفاه فى الهوة ليثير

٥٧٥

قلائل جديدة . ولا بد إذن أن تجده .

وأجابه المحارب المجنح قائلاً :

(أوريل) ! لا عجب إذا كان بصرك الحاد

قد أحاط بالقاصى والدانى رغم وجودك فى منتصف

قرص الشمس الوهاج ! ولكن هذه البوابة لا يمر منها -

٥٨٠

وسط الحرس الساهر - إلا القادمون

من السماء والذين نعرفهم حق المعرفة . ومنذ انتصاف النهار

لم يأتنا مخلوق منها . أما إذا كان جنىً من نوع آخر

تراوده أفكار الشر قد وثب فتخطى هذه الحدود الأرضية

عامداً فمن العسير - كما تعرف - أن تحول .

٥٨٥

الحواجز المادية دون دخول الكيان الروحي

فإذا كان فى نطاق هذا المكان لم يخرج منه

فلسوف أعرف من حدثنى عنه - أيا كانت الصورة

التي يتخفى بها - قبل انبلاج صبح الغد .

هكذا كان وعده . ومن ثم اتجه (أوريل) إلى مقر حراسته

٥٩٠

عائداً على الشعاع الوهاج . كان طرف الشعاع قد ارتفع

فحمله وانحدر به إلى الشمس التي كانت قد هبطت

أسفل جزر (الأزور) . ربما كان ذلك الجرم الساطع

قد دار بسرعة خارقة فوصل إلى حيث هو

فى يوم واحد ، وربما كانت الأرض - وحركتها أبطأ -

٥٩٥

قد دارت دورة أقصر نحو الشرق فخلفته هناك

ليزين بالأرجوان والذهب المنعكس

السحب التي تحيط بعرشه الغربى . وأياً كان الأمر

فإن المساء قد حل ، وأخذ الغسق الأدكن

يكسو جميع الأشياء بأرديته القاتمة .

٦٠٠

وفى صحبة الصمت انسل الحيوان والطير -

هذا إلى مخدعه فوق الكلا وهذا إلى وكره ،

انسلوا جميعا ما عدا البلبل الساهر

فهو يغنى طول الليل أهازيج الحب التى

يستمتع بها الصمت ! وتوهجت قبة السماء

٦٠٥

بالياقوت الأزرق النابض بالحياة ! كان كوكب الزهرة يقود

زمرة النجوم ويبرزها إشراقا وسطوعا - حتى ظهر القمر

صاعداً فى جلال تكلله السحب ، ورفع أخيراً

لثامه - كأنه ملكة متوجة - عن نوره الذى لا يبارى

فألقي على الظلام وشاحه الفضى

٦١٠

وهنا التفت آدم إلى حواء وقال : زوجتى الجميلة ! هذه ساعة

الليل ، وقد أوت جميع الأشياء الآن إلى الراحة والسكون

مما يدعونا إلى الراحة مثلها ! لقد قضى الله أن يكون

العمل والراحة مثل النهار والليل للإنسان

متعاقبين ، وها هو ندى النوم

٦١٥

يتساقط الآن بأثقال النعاس الناعمة فيثقل

أجفاننا . إن المخلوقات الأخرى قد قضت النهار كله

فى التجوال الكسول بلا عمل ، وحاجتها إلى الراحة أقل

أما الإنسان فقد قدر له نصيب من العمل الجسدى أو الذهنى

كل يوم ، فهذا هو الذى يفصح عن كرامته

٦٢٠

والعناية التى توليها السماء لكل فعاله ،

على حين تمرح الحيوانات الأخرى عاطلة

ولا يحسب الله لفعالها حساباً

ولذلك فقبل أن ينبج صبح الغد النضير ، فيلقى فى الشرق

أول خيط من خيوط الضياء ، علينا أن ننهض

٦٢٥

لنقوم بعملنا الممتع ، فنصلح

تلك الخمائل الملتفة من الزهور ، وتلك الممرات الخضراء

التي نمشى فيها عند الظهر ، إذ طالت فروعها فأمعنت فى الطول

ساخرة من ضالة رعايتنا فهي تتطلب

المزيد من الأيدى لتشذيب نمائها الوافر الطليق

٦٣٠

وتلك البراعم أيضاً ، وقطع الصمغ المتساقط

فهي مبعثرة وغليلة تؤذى العين

ولابد من إزالتها حتى يستوى الطريق لنا

أما الآن فقد شاءت الطبيعة وأراد الليل لنا الراحة

والتفتت إليه حواء وقد زانها الجمال الكامل وقالت :

٦٣٥

منيع وجودى وصاحب شأنى ! أيا كان ما تطلب

فسوف أطيعه دون جدال ، فبهذا يقضى الله

والله قانونك وأنت قانونى . وكفى بهذا

للمرأة معرفةً هائلةً وثناءً كبيراً .

إننى حين أحادثك أنسى الزمن

٦٤

أنسى آناء اليوم واختلافها فكلها سار ممتع

ما أطيب أنفاس الصباح وما أطيب إشراقه

على أنغام الطيور الباكرة ، وما أمتع الشمس

عندما تسطع على هذه الأرض الخلافة وتنشر

أشعتها المشرقة على الأعشاب والأشجار ، وعلى الفواكه والأزهار

٦٤٥

التي يتلألأ الندى فوقها ! وكذا أريج الأرض الخصبة

بعد الأمطار الهادئة ! ما أطيب اقتراب

المساء الممتع الرطيب ، والليل الساكن

يبلبله الرزين وبدره الفاتن

وحاشيته من النجوم - تلك الجواهر فى قبة السماء !

٦٥٠

ولكن - لا أنفاس الصباح عندما يصعد

على أنغام الطيور الباكرة ، ولا الشمس التى تشرق

على هذه الأرض الخلافة ، ولا الأعشاب ولا الثمار والأزهار

التي يتلأل فوقها الندى ، ولا الأريج الفواح بعد المطر ،

ولا المساء الممتع الرطيب ، ولا الليل الساكن

٦٥٥

ببلبله الرزين ولا السير فى ضوء القمر

أو فى ضوء النجوم المتلألئة - يطيب لى بدونك

ولكن لماذا تسطع هذه الأجرام طول الليل ، ولمن خلق

هذا المشهد البديع ، إذا كان النوم قد أوصد كل العيون ؟

وأجابه جدنا الأول قائلاً :

٦٦٠

يا ابنة الله والإنسان ! يا حواء الكاملة !

إن عليها أن تكمل دورتها حول الأرض

فى مساء الغد ، فهى ترحل من بلد إلى بلد

بانتظام وتمر بأمم لم تولد بعد ،

فتلقى بأضوائها المقدورة عليها ، فهى تغرب وتشرق

٦٦٥

كيلا تعود الظلمة الكاملة ليلاً فتستعيد

ملكها القديم ، وتطفىء نور الحياة

* فى الطبيعة والأشياء جميعاً . إن هذه النيران الخافتة

لا تضيئها فحسب بل تشع عليها قبساً من حرارتها الطيبة

التي تتفاوت حدة وشدة ، فتدفئها وتذكىها

٢٦٣

٦٧٠

وتلطفها وتغذيها ! بل إن النجوم تبث أيضاً

دفئها في شتى ألوان نبات

الأرض فتجعلها أقدر على النمو

والاكتمال حين تسطع عليها أشعة الشمس الوهاجة .

هذه إذن - رغم أننا لا نراها في جنح الليل -

٦٧٥

لا تسطع عبثاً ! ولا تظنى أنه لو تلاشى الإنسان فسوف

تفتقر السماء إلى الناظرين أو يفتقر الله إلى الحامدين !

إن الملايين من الكائنات الروحية تذرع الأرض

خفية ، في صحونا وسباتنا،

وكل يتأمل بدائعه فلا يني مسبح بحمده

٦٨٠

نهاراً وليلاً . كم من مرة تصاعدت الأصوات من أعماق

التلال ذات الأصداء ، أو من الأدغال فتناهت إلى أسماعنا

أصوات سماوية تغشى هواء الليل البهيم

إما منفردة أو يتجاوب بعضها مع البعض

وهي تتغنى بعظمة الخالق . كثيراً ما تنشد في جماعات

٦٨٥

أثناء حراستها الساهرة أو أثناء طوافها بالليل

على أنغام آلات السماء

وقد اشتركت في العزف المتوافق المحكم ، فكانت أغانيها

تفصل بين نوبات الليل وترقى بأفكارنا إلى السماء !

وهكذا سارا يتحادثان وحيدين وقد تشابكت أيديهما

٦٩٠

نحو خميلة النعيم . كان ذلك هو المكان الذى

اختاره لهما الملك الذى أنبت الجنة وسخر

جميع الأشياء ويسرّها . كان سقفها

سترا سميكاً منسوجاً من أغصان

الغار والآس وغيرهما من الأشجار العالية

٦٩٥

بأوراقها الثابتة ذات الأريج . وعلى كل جانب كانت

أشجار السنت و غيرها من الشجيرات الكثّة العطرة

تشبك لتدعم الجدران الخضراء . كانت كل زهرة

- من السوسن بألوانه والورود والياسمين -

ترفع رأسها عالياً بين الأغصان ، وقد تفتحت وانتظمت فى وشى بديع

٧٠٠

منمّم كالفسيفساء . كانت الأرضية مطعّمةً بزهور البنفسج .

والزعفران والياسنت ! زهور كثيفة

تطرزها بألوان أكثر من ألوان أثمن الألواح

المطعمة بالأحجار الكريمة . لم تكن المخلوقات الأخرى

- من الحيوان والطيور والديدان - تجرؤ على الدخول هنا

٧٠٥

فهى جميعاً تخشى الإنسان وتهابه ! أما الخميلة الظليلة

٧٦٥

الأكثر قداسة وعزلة - ولو أن هذا من نسج الخيال -

فما بات فيها أبدا (بان) أو (سيلفانوس) ، وما سكنتها الحوريات

أو غشيها (فانوس) ! فى هذا المخدع الخفى

نثرت الزهور والأكاليل والأعشاب العطرة

٧١٠

يدُ الزوجة حواء - لتزين فراش عرسها أول مرة !

كانت جماعات منشدى السماء تغنى أغنية الزفاف

يوم أتى ملاك الزواج إلى والدنا

بحواء مزدانة بجمالها العارى ، بل أكثر زينة

وأشد فتنة من (باندورا) ! كانت الآلهة

٧١٥

قد أغدقت عليها كل عطايها ، وما أشبهها بحواء

فى العاقبة التى انتهت إليها ! لقد جاء بها (هيرميس) إلى

الابن الأرعن الذى أنجبه (يافت) فخلبت لب

البشر بجمالها الفتان ، وحقق هو الثأر

ممن سرق النار الأصيله من (جوف) !

٧٢٠

وعندما وصلا إلى بيتهما الظليل وقفا

ثم التفتا ، وتحت قبة السماء الطليقة شرعا فى صلاة

لله الذى خلق السماوات والأرض والهواء والجنة

التي كانا يشهدانها ، والقمر ذا الوجه الوضاء

والقطب ذا النجوم - قائلين : لقد خلقت الليل

٧٢٥

أيها الخلاق الجبار ، و خلقت النهار ،

ولقد نهضنا فيه بالعمل المقدر لنا

فأنجزناه هائئين بتعاوننا

وبالحب فيما بيننا ، تاج النعيم الذى

قدرته لنا ! و خلقت هذا المكان الممتع كبيراً شاسعاً -

٧٣٠

بل أكبر مما نحتاج إليه . إن وفرة رزقك تطلب

من يشاركنا إياه والثمر لا يقطف فيسقط على الأرض .

ولكنك وعدتنا أن ننجب ذرية

نعمر بها الأرض ، ذرية صالحة تسبح معنا

بخيرك غير المحدود ، حين نصحو

٧٣٥

و حين نرجو نعمة النوم - ونحن نرجوها الآن !

وبعد أن قالها معا ، مكتفين بهذه الصلاة الطاهرة

- وهى الأحب إلى الله - عن الطقوس الأخرى

دلفا إلى أعماق أركان الخميلىة

بأيدي متشابكة . لم يكن عليهما أن يخلعا

٧٤٠

ملابس التخفى المتعبة التى نرتديها اليوم

فاستلقيا على الفور جنباً إلى جنب ، ولم يحلْ آدم (فى تصوْرى)

٢٦٧

عن زوجته الفاتنة ، كما لم تمتنع حواء عن
شعائر الحب الغامضة بين الأزواج .

فليتشدق المنافقون بما شاء لهم من صارم القول

٧٤٥

عن النقاء وقداسة الأمكنة والبراءة

وليتهموا بالدنس ما فصل الله فيه القول فهو

طاهر أمر به البعض وشرعه حرّاً للجميع .

إن خالقنا يأمر بالتكاثر ، وهل يأمر بالكف

إلا من يبغى هلاكنا - عدو الله وعدو الإنسان ؟

٧٥٠

مرحى بالحب بين الأزواج ، أيها القانون الغامض والمصدر الحق

لذرية الإنسان وحق الملكية الفرد

في الفردوس وشتى ما فيها مشاع !

الفضل لك في إقصاء شهوة الزنا عن الإنسان

وإطلاقها بين صنوف الحيوان ! بل لقد أقيمت لأول مرة

٧٥٥

على أساس العقل والإخلاص والعدل والطهر

تلك المشاعر والعلائق المحببة التي تربط

الآباء والأبناء والأخوة

هيهات أن أزعج أنك خطيئة أو أن أصمك بالعار

أو بأنك غير جدير بأقدس الأماكن ،

٧٦٠

أو بأنك لست المنبع الدائم لمسرات البيت ،
أو أنكر أن فراشك بعيد عن الدنس وطاهر كل الطهر
كما فعل القديسون والبطارقة - فى الماضى والحاضر !
هنا يطلق ملاك الحب سهامه الذهبية ، وهنا يوقد
مصباحه الدائم ، ويرفرف بأجنحته الأرجوانية .

٧٦٥

إنه ليسود هنا ويمرح ، لا فى البسمات المبتاعة
من العاهرات ، العاطلة من الحب والفرح والمودة
ذات الثمار العابرة العارضة ! ولا فى غراميات أهل البلاط
والرقصات المشتركة ، والحفلات التنكرية الماجنة أو حفلات
الليل الراقصة

أو الأغاني التى ينشدها المحب المحروم

٧٧٠

للجميلة المتعالية ، ويا حبذا لو تعالى فهجرها !
أما آدم وحواء فقد رقدا متعانقين وناما على أنغام البلابل
وعلى أطرافهما العارية كان السقف الموشى بالزهور
ينثر الورود التى ينبت الصباح غيرها . فلتنعما بالنوم
أيها الزوجان المباركان ، ليتكما لا تطلبان هناء أكبر

٧٧٥

فتبلغان ذروة الهناء ، وليتكما تعلمان حكمة الاكتفاء بما تعلمان !

كان الليل قد رسم بظله المخروطى خطا يمتد

٢٦٩

إلى منتصف قبة السماء الشاسعة تحت فلك القمر

وانطلقت ملائكة الشاروبيم من بوابتها العاجية

فى الساعة المعتادة فوقفت شاكية السلاح

٧٨٠ لتبدأ نوبة الحراسة وقد اصطفت صفوف الحرب

عندما قال جبريل لمن يليه فى السلطان :

”(عزَّيِّل) ! قد نصف هذه الأجناد وطف بها عبر الجنوب

فى حراسة لا تغفل ! وأما النصف الآخر فسأطوف به المنطقة الشمالية

بحيث تلتقى دائرتنا فى الغرب !“ ومن ثم انطلقت الكتائب كأنها الشرر -

٧٨٥ دار نصفها فى اتجاه محمل الدرع والآخر فى اتجاه محمل الرمح !

ثم دعا جبريل اثنين من الأرواح القوية الماكرة فى فرقته

وكانا يقفان بالقرب منه ، فبين لهما عملهما قائلاً :

يا (إيثوريل) ويا (صفون) ! طيرا على جناح السرعة

ففتشا هذه الجنة تفتيشاً ، لا تهملأ ركنأ منها

٧٩٠ وبخاصة الركن الذى يسكنه ذاك المخلوقان الجميلان

وربما قد أويا الآن إلى النوم لا يتوجسان أذى .

لقد جاءنى هذا المساء من عند مهبط الشمس

من يخبرنى أنه قد رأى جنياً من أهل الجحيم

يتجه صوبنا (وهل كان ذلك ليدور بخلد أحد ؟) هارباً

٧٩٥

من قضبان جهنم ، ليقضى مأرب سوء لا شك !

فحيثما وجدتماه فاقبضا عليه واثنينى به .

قال هذا ثم انطلق يقود صفوفه الوضاعة التى

بهرت بصر القمر ! أما هذان فقد اتجها مباشرة إلى الخميلة

يجدان فى أثره ! وهناك وجداه

٨٠٠

قابعا مثل ضفدع قريباً من أذن حواء .

كان يستخدم فنونه الشيطانية للنفاذ إلى

ملكات خيالها حتى إذا ما سيطر عليها استطاع أن يصوغ

ما يريده لها من تصورات وخیالات وأحلام !

أو إذا بث فيها سمومه استطاع أن يصبغ

٨٠٥

أبخرة النفس التى تتصاعد من دمها النقى

مثل الأنفاس اللطيفة من الأنهار الصافية ، ومن ثم تثير

على الأقل أفكاراً شائهة ، أفكار سخط واستياء

وآمال غرور حمقاء ، وأمانى باطلة وشهوات جائحة

تضخمها الأوهام الكبرى فتتجب الكبرياء !

٨١٠

كان إبليس يُضمّر هذا حين مد (إيثوريل) رمح

فمسه مسا رفيقا ! كان زيفه عاجزاً عن احتمال

لمسة رمح السماء ، فعاد على الفور

٢٧١

ورغما عنه إلى صورته الأولى ! هب وانتفض
إذ فوجيء فانفضح ! أرأيت إلى الشرارة حين
تسقط على كومة من البارود بعد

٨١٥

إعداده لملء البراميل في مخازن الذخيرة
استعداداً لحرب محتملة الوقوع ، وإلى الحبات السوداء كيف
تلتهب فجأة وتنفجر فتشعل الهواء من حولها ؟
فهكذا هب الشيطان فزعا في صورته الحقيقية .

٨٢٠

وتراجع الملاك الجميلان في شبه دهشة
إذ فاجأتهما رؤية الملك البشع
ولكن الخوف لم يساورهما فتقدما منه على الفور قائلين :
”أى الأرواح العاصية المحكوم عليها بالجحيم
أنت ؟ ولماذا هربت من سجنك وحولت صورتك

٨٢٥

فقبعت تتربص تربص الأعداء
سأهرا هنا عند رأس هذين النائمين ؟“
”ألا تعرفاني ؟“ - قالها إبليس وقد أفعمه الازدراء -
”ألا تعرفان من أنا ؟ كنتما تعرفان ذات يوم أنني لست من أندادكما
إذ كنت أتربع حيث لا تجرؤان على التحليق !

٨٣٠

إن جهلكما بى يقطع بأنكما مجهولان بل بأنكما

أدنى أفراد رهطكما ! أما إذا كتما تعرفاني

فلماذا تسألاني ؟ ولقد بدأتما عبثا

هذه البعثة ، ومثلما بدأت ستتهى - عبثا !

ورد (صفون) ازدرء بازدرء قائلاً :

٨٣٥

لا تظنن أيها الجنى العاصى أن صورتك لم تتغير

أو أن بهاءك لم ينتقص بحيث نعرفك

مثلما كنت تقف فى السماء صالحاً طاهراً !

إن بهاءك القديم قد ولى بعد أن تحولت عن الخير

ورحل عنك فأصبحت الآن صورة

٨٤٠

لخطيئتك ومقر مقامك المدلهم الدنس .

هيا بنا إذن فلسوف يحاسبك ولا شك

من أرسلنا ، فهو مكلف بحماية

هذا المكان من الدخلاء وحماية هذين من الأذى .

وصمت ملاك الشاروييم . كان تقريره الصارم

٨٤٥

القاسى يفيض بجمال الشباب فيضفى عليه رونقاً

غلاباً ! وشعر الشيطان بالخجل

وأحس مهابة الخير ، ورأى

الفضيلة مصورة بجمالها الفائق ! رآها فبكى

ضياعه ، وألمه خاصة أن لاحظ الملاك

٨٥٠

أن بريق إهابه قد خبا ، ومع ذلك فقد بدا

غير هياب . فقال : إذا تحتم النزال

فالأصلب لا يبارز إلا الأصلب ، وإذن ألقى المرسل لا الرسول

أو ألقاهم جميعاً ! فإما أن أحظى بالمزيد من المجد

أو أفقد أقل القليل . وأجابه (صفون) الجسور قائلاً : إن خوفك

٨٥٥

سيعفينا من العناء فأقلنا شأننا يستطيع

وحده أن يهزمك ، فلقد خبثت فضعفت !

لم يجب الشيطان . كان يميز من الغضب

ولكنه مضى معهما في صئف كأنه جواد شامخ ملجم

يعض على شكيمته الحديدية . أما المقاومة والهرب

٨٦٠

فقد رأهما عبثاً ، إذ إن الرعب الذي ألقى من عل

في قلبه قد أثار عزمه وإلا ما فزع وما جزع . واقترب الجميع

من نقطة اللقاء في الغرب بين صفوف الحرس التي دارت نصف دائرة

ثم انضم بعضها إلى بعض فرقة موحدة وقفت

تنتظر أوامرها الجديدة . واتجه رئيسها

٨٦٥

جبريل إليها من الجبهة وناداهما عالياً : .

أيها الأصدقاء ! إننى أسمع وقع أقدام تخف إلينا

معجلة ، وأستطيع الآن أن ألمح طيف

(إيثوريل) و (صِفون) وسط الظلمة

ومعهما شخص ثالث ذو هيئة ملكية

ذوى بهاؤها وانطفأ . ولكن مشيته

٨٧٠

وحرركه العنيفة توحيان بأنه أمير الجحيم

والأرجح ألا يرحل دون نزال !

اثبتوا فى أماكنكم فقد أريدَ التحدى طلعتة !

ولم يكد ينتهى حتى وصل الملاك

٨٧٥

فأوجزا له خبر من أتيا به وأين عثرا عليه

وما كان يفعله وكيف ، وفى أى صورة كان يقنع !

وحدجه جبريل بنظرات صارمة قائلاً :

لماذا تخطيت يا إبليس الحدود التى فرضتها عليك

خطاياك فأقلقت عمل

٨٨٠

غيرك ممن لا يقبلون الخطيئة

ولا يحذون حذوك ؟ إن لديهم السلطة ولهم الحق

فى محاسبتك على تجاسرك بالدخول إلى هذا المكان !

يبدو أنك تريد إقلاق منام النائمين

ومن أسكنهما الله هنا فى هذا النعيم ؟

٢٧٥

٨٨٥

وأجابه إبليس وقد علا جبينه الازدراء قائلاً :

جبريل ! لقد ذاعت حكمتك فى السماء

بل إننى رأيت فىك الحكمة ! ولكن السؤال الذى طرحته الآن

يشير شكوكى ! هل من الأحياء من يهوى الألم ؟

ومن ذا الذى لا يهرب من الجحيم إذا واثته الفرصة

٨٩٠

ولو كان محكوماً عليه بها ؟ إنك لتفعل ذلك أنت نفسك

فتنطلق جسوراً إلى أى بقعة

تنجيك من العذاب الأليم ، حيث الأمل فى استبدال

اليسر بالعسر ، وتعويض

الشقاء بالهناء ، وهذا ما أطلبه فى هذا المكان !

٨٩٥

لن ترى هذا سيباً ، فأنت لا تعرف إلا الخير

ولم تجرب الشر أبداً ، وهل تعترض على

إرادة الخالق الذى سجننا ؟ ألم يكن يستطيع إحكام القضبان

والأبواب الحديدية لو كان يريد لنا البقاء

فى ذلك القعر المظلم ؟ كفى بذلك إجابة على سؤالك

٩٠٠

أما باقى القول فقد صدقاه : لقد عثرا على حيث يقولان

ولكن هذا لا يعنى إحداث الأذى أو الضرر .

قال هذا فى ازدراء وسكت . وتلفت الملاك المحارب

فألقي عليه نظرة أنفة شبه باسمه وأجاب :

لقد فقدت السماء من يميز لنا الحكمة من الحمق

٩٠٥

منذ أن سقط إبليس وانقلب لحمقه !

والآن يعيده الحمق إلينا هاربًا من سجنه

وقد ثارت شكوكه فى حكمة

من يسألونه كيف يتجاسر بالقدوم إلى هنا

دون وجه حق ، تاركًا السجن الذى أقصى إليه فى الجحيم .

٩١٠

بل يقول إن الحكمة كل الحكمة أن ينجو من العذاب

كيفما استطاع ويفلت من العقاب .

فلتحكم بما شئت أيها الوقح حتى يحل بك غضب الله

الذى استحقته بهروبك ، فيضاعف عقاب هربك

سبعة أضعاف ، ويعيد بالسياط حكمتك إلى الجحيم !

٩١٥

إنك لم تتعلم فيها خيرًا من هذا ، وهو أن الألم مهما زاد

فهيئات أن يوازي غضب السرمدى إذا أغضب !

ولكن لماذا أتيت وحدك ؟ لماذا لم تنطلق

فى أثرك الجحيم بأسرها ؟ هل آلامهم

أقل إيلا من ألمك فلا تقتضى منهم هربا ؟ أم لعلك

٩٢٠

أقل منهم جلدًا وأقل صبرًا على الألم ؟ أيها القائد الشجاع

٢٧٧

يا أول من هرب من الألم ! لو كنت أفصحت
لرهطك الذى هجرته عن سبب هروبك الذى ذكرته
ما كنت أتيت إلى هنا وحيداً طريداً !
وتجهم وجه الشيطان وأجاب فى صرامة :

٩٢٥
لست أقل جلدًا ولا أجفل من الألم أبدًا
أيها الملاك الجائر ! تعرف حق المعرفة أننى احتملت
أشد ضرباتك عندما استعنت فى المعمة
بالرعد العاصف القاصف الذى هب على عجل
لمساندة رمحك ، ولولاه ما أفزع الرمح ولا أربع !

٩٣٠
إن الكلام الذى تلقىه على غواهنه
ينبىء عن جهلك بواجب القائد المخلص
الذى خاض معارك ضارية لقى فيها الهزيمة !
إن عليه ألا يخاطر فيلقى بالجميع
فى لجج الأخطار التى لم يركبها هو !

٩٣٥
ومن ثم فقد أخذت على عاتقى وحدى
أن أعبر تلك الهوة الموحشة طائرًا لأستطلع
هذا العالم الذى خلق حديثًا ، والذى تحدثت
عنه الشائعات فى الجحيم ! جئت آملاً أن أجد

- مقاماً أفضل ، وأن تجد قواي المنبوذة
- ٩٤٠ مستقراً لها - إما على الأرض أو في الهواء !
- ولو أن مرمي يقتضى التصدى ثانية
- لما تقف أنت وفصائلك الجميلة دونه :
- إن عملها يسير وهو عبادة ربها
- في السموات العلى ، والتغنى بتساويح الحمد لعرشه
- ٩٤٥ والرقص رقصات الخشوع بدلاً من الحرب .
- وسرعان ما رد الملاك المحارب قائلاً :
- إن القول الذى يتبعه الإنكار - الادعاء أولاً
- بحكمة تفادى الألم ، ثم التظاهر بمحاولة الاستطلاع -
- لا يفصح عن قائد بل عن كذاب أشر !
- ٩٥٠ بل إنك أضفت إليهما "الإخلاص" يا إبليس ! يا لها من كلمة -
- كلمة "الإخلاص" المقدسة التى دنستها !
- الإخلاص لمن ؟ لأتباعك من العصاة ؟
- جيش الشياطين ؟ يا لك من جسد يستحق هذا الرأس !
- أكان انضباطكم وإخلاصكم
- ٩٥٥ وطاعتكم الحربية يقتضى التحلل من
- ولائكم للقوى الأعظم الذى لا جدال عليه ؟

وأنت أيها المرائي الماكر ! تريد أن تبدو الآن

نصيراً للحرية ؟ ألم تكن أسبق الجميع

تزلفاً وخشوعاً وخضوعاً في عبادة

٩٦٠

ملك السماء المهيب ؟ ألم تكن تفعل ذلك أملاً

في أن تغزله لتقعد مقعد الحكم ؟

أصغ إلى نصحي هذا : ارحل من هنا

وعد إلى حيث كنت . فإذا ظهرت بعد هذه الساعة

داخل حدود هذه المنطقة المقدسة

٩٦٥

فسوف أخرجرك مغلولاً في الأصفاد إلى هوة الجحيم

وأوثقك فلا تستطيع فكاًكا ، فلا تسخر بعدها

من يسر أبواب الجحيم وخفة قضبانها !

كان هذا ما توعد به ، ولكن إبليس لم يحفل

بالوعيد ، بل استشاط غضباً وأجاب :

٩٧٠

لا تتحدث عن الأصفاد إلا بعد أن تأسرني

يا ملاك الحدود المتغطرس ولكن تهياً قبل ذلك

لا احتمال أثقال أشد

من يدى الغالبة - مع أن ملك السماء

يركب أجنحتك ، ومع أنك وأقرانك

٩٧٥

اعتدتم أثقالَ نيره وجر عرباته الظافرة

التي تذرع طريق السماء المعبد بالنجوم .

وأثناء حديثه كان فيلق الملائكة الوضاء

قد اكتسى حمرة النار ، وانتظمت صفوفه على شكل هلال

التف حول إبليس وأطبق عليه من كل جانب ،

٩٨٠

وقد قبضت الأيدي على الرماح ! كانت أعدادهم كثيفة

مثل حقل حنطة استوى على سوقه ، وتمايلت رؤوس

سنابله الكثة مع الريح أينما هبت ،

بينما وقف الفلاح القلق يتأملها وهو يخشى

أن تخرج له حزم المحصول المأمول عند الدرس

٩٨٥

تَبْنَا لَا بُرًّا ! وأمامهم كان إبليس قد ثارت ثورته

فاستجمع كل جيروته وتضخم فبدا من الرواسي

التي لا تتزحزح - مثل جبل (تتريف) أو جبل (أطلس) !

كان يبلغ السماء طولاً ، وعلى ناصيته

يقبع الرعب مزهواً ، وكان يحمل في قبضته شيئاً

٩٩٠

بدا كالرمح والدرع معاً ! كان يمكن أن تقع الآن

فعال رهيبة ، فتندثر الفردوس

في تلك الفتنة ، يل وربما قبة النجوم

٢٨١

فى السماء الدنيا ، وجميع العناصر
أو تختل وتنخلع على الأقل

من عنف ذلك النزال ، لولا أن شاء
السرمدى أن يحول دون هذا الالتحام المفزع
فرفع ميزانه الذهبى فى السماء ، وهو الذى ما زلنا نراه
بين برج العذراء وبرج العقرب
حيث يزن أولاً كل الخلائق !

كانت الأرض المستديرة المتأرجحة هى الكفة الأولى ، وكان الهواء هو ١٠٠٠
الكفة الثانية ! هذا هو الميزان الذى يزن الآن كل الأحداث
والمعارك والبلدان ! ووضِع فى الكفتين ثقلان
هذا عاقبة الانفضاض وهذا عاقبة الالتحام !
وسرعان ما ارتفعت الكفة الأخيرة واصطدمت بعمود الميزان !
وحينما رأى جبريل ذلك خاطب الشيطان قائلاً : ١٠٠٥

إبليس ! أعرف قوتك مثلما تعرف قوتى

فقد وهبناها وليست منا ! ما أحرق

التباهى بقوة الأيدى طالما لن تفعل يدك ،

أو تفعل يدى أكثر مما تسمح به السماء ! لقد تضاعفت قوتى الآن

حتى أننى لأطوك وطء الطين ! وإذا شئت البرهان فانظر ١٠١٠

واقراً قدرك فى تلك الآفة البينة فى السماء !
لقد خفت موازينك وتجلى ضعفك واندحارك
إذا قاومت ! ونظر الشيطان فتبين .
أن كفته قد خفت فارتفعت وقضى الأمر ! ومن ثم ولى
وهو يتمتم وولت معه ظلال الليل .

الكتاب الخامس

الموضوع

يقترّب الصباح - حواء تقص على آدم حلمها المزعج - يستاء منه ولكنه يطمئنها - يخرجان للبدء فى عمل اليوم - صلاة الصبح عند باب الخميّة . يريد الله ألا يكون للإنسان أعذار فيرسل روفائيل لإنذاره بعدم العصيان ، وتذكيره بأنه حر الإرادة ، وبأن ثمة عدواً له قد اقترب . ويخبره من يكون ، ولماذا كان له هذا العدو ، وشتى ما ينتفع آدم بمعرفته . ويهبط روفائيل إلى الفردوس - وصف مظهره - يعلم آدم بقدومه ويراه من بعيد جالساً على باب خميلته ، فيخرج لمقابلته ويأتى به إلى منزله ويقدم له أشهى ثمار فى الفردوس قطفتها له حواء - حديثهما على المائدة . يؤدى روفائيل رسالته ، ويذكر آدم بحاله وحال عدوه ، ويقص عليه - استجابة لطلبه - حقيقة هذا العدو وكيف أصبح كذلك ، بادئاً منذ تمرده الأول فى السماء وملابساته ، وكيف قاد كتائبه من ورائه حتى أصقاع الشمال ، حيث حفزهم على التمرد معه ، وكيف يقتنع الجميع فيما عدا (عديثيل) وهو من ملائكة الصاروفيم - إذ إنه يختلف معه ويعارضه ويناهضه ، ثم يولى عنه .

الآن يخطو الصباح خطاه الوردية فى الأفق الشرقى

مقبلاً وقد نثر على الأرض حبات اللؤلؤ البراقة

فاستيقظ آدم كعادته كل يوم . كان ينام نوماً

رقيقاً كالهوا ، يأتى به هضم الطعام النقى

وأبخرته اللطيفة الخفيفة ، التى يكفى لتبيدها حفيف

الأوراق وزفيف أبخرة الجداول ، مروحة (أورورا) ،

وأغانى الصباح الرخيمة التى تنشدها

الطيور على كل غصن وفنن . ومن ثم اشتدت

دهشته حين رأى حواء غارقة فى سباتها

وقد تهدلت خصلاتها واختلطت ، وتورد خذاها

كأنما شاب رقادها ما عكره . كان يستلقى على جانبه

فنهض قليلاً متكئاً على مرفقه وتعلقت نظراته الوالهة

بحبيته ، وتملى جمالها

الذى كان فى يقطتها ومنامها

يشع مفاتن لا مثيل لها . ثم مستها يده برفق

وقال لها بصوت هامس

مثل همسات النسيم إلى الأزهار : قومى

يا أجمل الأشياء ! يا زوجتى وضالتى المنشودة !

يا آخر ما أنعمت به السماء علىّ وفرحى المتجدد على مر الزمان !

٢٠

قومي فقد أشرق الصبح ، والحقول النضرة

تدعونا ! هيا ندرك البكور ! هيا لنرى كيف أزهرت

النباتات التي نرعاها ، ويساتين البرتقال العبة ،

وأصماغ شجر المر ، وأعواد البلسم القائمة ، هيا لنرى

كيف تضع الطبيعة ألوانها ، والنحل وهو

٢٥

يحط على البراعم ليرتشف الرحيق الحلو .

واستيقظت حواء على هذه الهمسات ، ولكنها ألقت نظرة فزع

على آدم واحتضنته وقال :

يا من تجد أفكارى سكنها فيه وحده

منك جمالى وبك اكتمالى ! ما أسعدنى برؤية

٣٠

وجهك وعودة الصباح - فلقد قضيت البارحة

ليلة ما شهدت مثلها من قبل ، إذ رأيت فى المنام

(إن كان مناما) ما لم اعتده فى الأحلام ! لم أرك

ولم أر ما عملناه بالأمس ، ولا ما انتويناه فى الغد ،

بل رأيت من المعاصى والأكدار ما لم يخطر ببالى

٣٥

ولا عرفته قبل تلك الليلة الليلاء ! خلت أن ثمة من يقف

قريبا من أذننى ويدعونى لاتباعه بصوت

ذى نبرات رقيقة ظننته صوتك ! قال لى :

انفضى عنك سباتك يا حواء فهذا وقت المتعة ! هذا وقت

الإبتعاد والسكون ! إلا حيث يستسلم الصمت

٤٠ للبلبل غريد الليل ، فهو يصحو الآن

لينشد أعذب ألحان غرامه ! الآن ييسط

البدر المنير سلطانه ، ويرسل سناه الساطع ،

ويلقى ظلاله التى تبرز وجوه الأشياء ! فإذا لم يبصرها أحد

ذهب كل ذلك سدى ! لقد صحت السماء وشخصت بعيونها ،

٤٥ ومن عساها ترى سواك يا منية الطبيعة ؟

يا من تسعد بمراآك كل الأشياء ! يا من تسليين لبها

وتبهرينها بجمالك فلا تحيل بصرها عنك !

وصحوت مثلما أصحو على ندائك ولكنك لم تكن بجوارى

فانطلقت أبحث عنك

٥٠ خلت أننى أسير وحدى فى طرق

انتهت بى فجأة إلى شجرة

المعرفة المحرمة ! بدت لعينى جميلة

وبدت لخيالى أجمل مما هى عليه بالنهار !

وبينا أنا أنظر فى عجب ، لمحت كائنا يقف بجوارها -

٥٥

كائناتاً مجنحاً يشبه في صورته الكائنات التي كثيراً

ما رأيناها من السماء . كانت خصلاته الندية تقطر

عطراً ، وكان يتطلع مثلى إلى تلك الشجرة

وخاطبها قائلاً : أيتها الشجرة الجميلة المثقلة بالثمر !

ألن يتعطف أحد فيخفف عنك أثقالك ويتذوق حلاوتك ؟

٦٠ ألن يفعل ذلك إنس ولا جان ؟ أتُردى المعرفة إلى هذا الحد ؟

ترى أى حسد وأى تحریم يمنعنى من تذوقها ؟

فليمنع ما شاء له ! لن يصدنى أحد بعد الآن

عن الخير المبسوط لى ! وإلا فلماذا قامت الشجرة هنا ؟

قالها ولم يتمهل إذ مد يداً جريئة

٦٥ فقطف الثمرة وتذوقها بينما حل بى الرعب البارد اللاذع لسمع

تلك الكلمات الجسورة وما أكدها من عمل جسور .

أما هو فقد بلغ به السرور مبلغه فقال : أيتها الثمرة القدسية !

حلوة فى ذاتك وأحلى بعد أن قطفت !

لقد حرمت هنا - فيما يبدو - لأنك فاكهة

٧٠ الأرباب وحدهم وقادرة على رفع البشر إلى مصافهم

ولم لا يصبح البشر أرباباً إذا كان الخير

يزداد بازدياد من يتلقاه

ولا يضار صاحبه بل يزداد شرفاً ،

تفضلى يا حواء ! أيتها المخلوقة الهائلة ! أيتها الملاك الجميل !

٧٥

شاركينى الثمرة ، فأنت وإن كنت الآن هائلة

فستصبحين أهناً وأسعد ! ولا أجدر منك بها !

تذوقى هذه الثمرة حتى تصبحى بين الأرباب

ربة أنت نفسك ، لا تحدك الأرض

بل أحياناً تصعدين فى الهواء مثلنا ، وأحياناً

٨٠

تصعدين فى السماء ، لامتيازك وسموك ، فترين

نوع الحياة التى يعيشها الأرباب هناك ، وتعيشين مثلهم .

قال هذا واقترب ، وقدم إلى -

بل كاد أن يضع فى فمى - بعض تلك الثمرة

التي اقتطفها . وفاحت رائحتها الطيبة الممتعة

٨٥

فأثارت شهيتى حتى خلت أننى

لابد أن أذوقها . وعلى الفور طرت إلى السحاب

فى صحبته وأبصرت من تحتى

الأرض الرحبية المنبسطة والمشهد العريض

المُتَوَّع ! وتعجبت من تحليقى وارتقائى

٩٠

هذا الارتفاع السامق ، وفجأة

اختفى الدليل من جانبي وخلت أننى هبطت
 فغلبنى النعاس ، ولكن ما أسعدنى إذ صحت
 فعرفت أنه كان حلما وحسب - وهكذا فرغت حواء من
 رواية منامها ، فأجابها صوت آدم جادا متثدا :

يا صورة ذاتى المثلى ، ونصفى الأقرب إلى قلبى !
 إن ما كدر أفكارك الليلة البارحة فى منامك
 يكدرنى نفسى الكدر ! ولا أظننى أميل إلى
 ذلك الحلم الغريب ، وأخشى أن يكون وليد الشر .

ولكن من أين يأتى الشر ؟ لا يمكن أن يجد فى مكان
 وقد خلقت طاهرة نقية . اعلمى أن فى النفس
 ملكات دنيا كثيرة تتخذ

العقل رئيساً ومن بينها الخيال
 الذى يليه فى المنزلة . والخيال يتناول الأشياء الظاهرة
 التى تقدمها لنا حواسنا الخمس اليقظة

فيصوغ منها تصورات وأشكالا أثرية
 يربط بينها العقل أو يفصل ، فإذا نحن
 نقبل هذا أو نرفضه ونثبت ذاك أو ننكره ! وهذا ما نسميه

المعرفة أو الرأى . ثم يتراجع ليرقد

فى غرفته الخاصة عندما تخلد الطبيعة إلى الراحة .

١١٠

وكثيرا ما يستيقظ فى غيبته خيال كاذب

ليحاكيه ، ولكنه يفسد العلائق بين الصور

إذا كثيراً ما يُخرج أضغاث أشكال نراها غالباً فى أحلامنا -

أقوال وأفعال متنافرة من أصدقاء الأمس البعيد أو القريب .

وإخال أن ثمة ملامح شبه بين

١١٥

حلمك هذا وبين ما قلناه فى حديثنا مساء الأمس

مع زيادات غريبة فيه . ولكن لا تحزننى !

قد يخطر الشر على قلب ملاك أو إنسان

ويمضى وهو له كاره منكر ، ثم لا يخلف وراءه

شائبة ولا يشين صاحبه . وهكذا فإننى آمل أن يكون

١٢٠

الحلم الذى كان مقبلاً إلى نفسك فى المنام

مقبلاً إلى نفسك فى اليقظة فلا تفعلنى منه شيئاً .

لا تهنى ولا تحزننى إذن ، ولينقش الغمام وليشرق وجهك ،

وليسطع بنوره ، فهوى أبهى من

أولى بسمات الصبح الجميل للكون !

١٢٥

هيا ننهض بأعمال هذا اليوم الجديد

بين البساتين والينابيع والأزاهير

التي شرعت تميط اللثام عن أعبق عبير لها

اختزنته من الليل فى صدرها فأبقتة لك مكنونا !

وهكذا شرح صدر عروسه الجميلة فانشرح صدرها

١٣٠

ولكنها ذرفت عبرة رقيقة صامته

من كل عين جففتها بشعرها !

وتأهبت قطرتان ثميتان أخريان ، وقفت كل منهما

فى نافذتها البلورية ، ولكن آدم جففهما قبل أن تسقطا

بقبلاته ! كانتا آيتين كريمتين على الندم الرقيق

١٣٥

ورهة التقوى ، فقد خشيت حواء أن تكون قد أذنبت !

وهكذا صفا الجو فأسرعا إلى الحقول

خارجين من خميلتهما ، من تحت سقفها ظليل الأغصان ،

ولكنهما توقفوا عند بابها حين شاهدا

انبلاج الصبح ، والشمس التى لم تكد تشرق

١٤٠

تَحَوَّم بعجلاتها على حافة المحيط

وترسل أشعتها الندية المتوازية إلى الأرض

فتكشف عن مشهد عريض مديد - عن شرق

الفردوس ووديان عدن الهنيئة !

ركع آدم وحواء فى خشوع لله ، ومن ثم شرعا

١٤٥

فى صلاتهما التى يؤديانها كل صباح - كما ينبغى -

بشعائرها المتنوعة . كانا يحافظان على هذه الشعائر

وقد عمرت قلوبهما المشاعر القدسية الفياضة وهما يحمدان

خالقهما بترانيم جليلة يتغنيان بها أو يلقيانها

دون إعداد ! ما أعظم البلاغة الحاضرة التى

١٥٠

تدفقت من شفاههما ، نثراً أو شعراً منغوماً

يغتنى بالحنان عن العود والقيثار

ويكتفى بحلاوته وطلاوته . وهكذا شرعاً يقولان :

هذه بديع صنائعك يارب الخير !

أيها العلى القدير ! لقد خلقت هيكل هذا الكون

١٥٥

جميلاً بديعاً فما أقدرك وأبدعك !

يا من يجل عن الوصف ! يا من تستوى على عرش السموات

لا تدركك الأبصار ! إننا لا نشهد منك إلا

هذه الصنائع الدنيا ، ولكنها تفصح عن

خيرك الذى يُعجز الأفهام وسمو قدرتك !

١٦٠

حدثونا يا خير العارفين ، يا أبناء النور ،

أيها الملائكة ! فأنتم تبصرونه وتنشدون الأغاني معاً

والأنشيد المتوافقة فى نهار دائم لا يغشاه الليل .

- إنكم تحيطون بعرشه مهللين مكبرين فى السماء
وتشارككم على الأرض شتى المخلوقات التى تسبح له
فهو الأول والآخر وهو ما بينها وهو الأبد !
يا أجمل نجم فى السماء وآخر حاشية الليل الراحلة
ليت أنك لا تنتمى إلى الفجر - ذلك
الوعد الحق بطلوع النهار - يا من تتوج الصبح البسام
بهالتك الوضاعة ! سبح بحمد الله فى فلكك
أثناء طلوع النهار ، ساعة البكور الرقيقة .
وأنت أيتها الشمس ، عين هذا الكون العظيم وروحه !
سبحى للأعظم الأعلى وتغنى بحمده
فى فلكك السرمدى ، حين ترتقين السماء
وحين تسطعين فى سمت الهاجرة وحين تميلين للغروب .
وأنت أيها القمر ! أحيانا تلتقى بشمس الشرق ، وأحيانا تسبح
مع النجوم الثابتة فى فلك يسبح !
أيتها الكواكب الخمسة السيارة ، يا من تؤدين
رقصات سحرية ذات ألحان ! رددى ترانيم
الحمد له فهو الذى أخرج النور من الظلمات .
أيها الهواء ! أيتها العناصر الأربعة ! يا أول من وُلد

فخرج من رحم الطبيعة ! يا من تدورين فى

حلقة أزلية متعددة الأشكال وتختلطين

فتغذين جميع الأشياء ! فلتصوغى من صورك المتغيرة

مدائح ماتفتاً تتجدد لخالقنا العظيم !

١٨٥

وأنت يا سحائب الضباب - يا أنفاس الزفير المتصاعدة

من التلال والبحيرات التى تغشاها الأبخرة - دكناء أو شهباء -

حتى تزخرف الشمس بالذهب حواشيك الناعمة الزغباء !

ارتفعى تكريماً لرب هذا الكون العظيم

فزينى بالمزن سماءه الصافية

١٩٠

أو ارو الأرض العطشى بهاطل الأمطار !

قدمى فى صعودك وهبوطك آيات الثناء !

سبحى بحمده أيتها الرياح التى تهب من أقطار الكون الأربعة

جهراً أو دون الجهر ! وأنت يا أشجار الصنوبر ! إحن رؤوسك

مع شتى ألوان النبات ، وهزى بجذوعك رهبة وخشية !

١٩٥

أيتها الينابيع ! أيتها الجداول التى ينساب خريرها

ألحانا هامسه ! أنشدى أغاريد حمده !

ولتجتمع أصواتك أيتها الأرواح الحية ، أيتها الطيور

التي ترقى بأغانيها إلى أبواب السماء !

أحملي على أجنحتك وفي نعماتك آيات الشاء عليه !

٢٠٠

أنت يا من تسبح في الماء ، وأنت يا من يمشى على

الأرض ! أنت يا من يخطو شامخاً وأنت يا من يزحف على بطنه !

أشهدوا أنني وإن صمتُ فقد علمت أغنياتي صباح مساء

للتلال والوديان ، والينابيع وناضر الظلال !

أنطقتها بأغنياتي ولقتها تسابيح الحمد لله !

٢٠٥

اللهم يا مالك الأكوان ، فلتفض نعمائك دوماً

فلا ترزقنا إلا الخير ! وإذا كان الليل

قد لملم في ثناياه بعض الشر أو أخفاه

فبدده مثلما يبدد النور الآن دياجير الظلام !

هكذا فرغا من صلاتهما الطاهرة ، فعاد إلى قلوبهما

٢١٠

الاطمئنان الراسخ والصفو القديم !

وعلى الفور نهضا لأداء عمل الصباح في المزارع

بين الأنداء الرقيقة والزهور ، حيثما اصطفت

أشجار الفاكهة فاكشت أغصانها واشتبكت ، ثم طالت فأمعنت

في الطول وثقلت ترفا ! كانت ترجو أن تمتد الأيدي لتحذ

٢١٥

من عناقها العقيم ! أو أنهما أهرعا ليعينا أفنان الكرم

على الاقتران بشجر الدردار ! أعانها فاقترنت به وطوقته

٢٩٧

بأذرعها الناضجة ، حاملة معها مهرها -

عناقيدها التي سيتبناها ليزين بها

أوراقه العقيمة . وبينما انكبا على العمل رآهما

٢٢٠ ملك السماء الأعلى فأشفق عليهما واستدعى

روفائيل ، ملك الإيلاف والألفة ، الذي تعطف فقبل

أن يرحل مع (طوبيا) وضمن له

الزواج من المرأة التي تزوجت سبع مرات

قال له إنك تسمع يا روفائيل ما يجرى على الأرض

٢٢٥ لقد فر إبليس من الجحيم عبر هوة الظلمات

وظهر في الفردوس ! وتعلم كيف كدّر صفو

آدم وحواء ليلة البارحة ! وتعلم كيف يدبر

لإسقاط البشرية جمعاء من خلالهما !

إذن فاذهب إليهما واقض معهما نصف نهار

٢٣٠ حدث آدم حديث الصديق للصديق ، في خميلة أو في ظل الأشجار

حيثما وجدته يحتّمى من وقدة الهاجرة

أو يستريح من عمل يومه إما بتناول الغداء

أو بالاسترخاء ! ولَدِرْ دَفَّةَ الحديث

حتى تطلعه على هناء حاله -

٢٣٥

هنا سلطانه إذ تركت إرادته حرة !

لقد ترك لإرادته الحرة حقاً ، ولكنها على حريتها

تتحول وتتقلب ! ومن ثم أنذره أن يحذر

أن يحميد عن الجادة من فرط الثقة ! وأطلعه أيضاً

على الخطر المتربص به ، على مصدره ، وعلى عدوه

٢٤٠

الذي أخرج - لفعاله - أخيراً من جنة السماء ، فشرع يدبر المكائد

لإخراج الآخرين من جنات نعيمهم مثله -

ليس بالقوة ، فقهرها جِدُّ يسير ،

ولكن بالخداع والأباطيل ! أطلعه على هذا

حتى لا يقع في الخطأ بإرادته فيتذرع بأنه

٢٤٥

قد فوجيء إذ لم يحذره محذّر ولم يأتبه نذير !

هكذا تحدث الأب السرمدي فأوفى

العدل حقه . ولم يلبث الملاك المجنح

- بعد أن تلقى هذا التكليف - أن هب من بين

آلاف ملائكة السماء الوضاعة ، حيث كان يقف

٢٥٠

محتجباً وراء أجنحته الرائعة ، وانطلق في خفة

طائراً وسط السماء ! أما فرق الملائكة المنشدين

فقد مال بعضهم يمنة ومال بعضهم يسرة ليفسحوا له الطريق !

٢٩٩

وهكذا قطع طريق المجرة مسرعاً حتى أشرف على باب الجنة .
وانفتح الباب من تلقاء نفسه على مصراعيه -

٢٥٥

مصراعين من الذهب ! هكذا كانت قدرة الباب
كما وضعه المهندس الأعظم بقوته الربانية
لم تعق إبصاره سحابة من السحب

أو نجم من النجوم بل رأى الأرض صغيرة على البعد
مثل الأفلاك الوضاء الأخرى ! رأى

٢٦٠

الأرض وجنة الله تكللها أشجار الأرز
فوق التلال . مثلما يتطلع منظار

(جاليليو) ليلاً فيرصد دون يقين

ما يتخيله من أراض وأصقاع على سطح القمر

أو مثلما يلمح ربان سفينة فى أرخبيل (كيكلاديس)

٢٦٥

جزيرة (ديلوس) أو (ساموس) عندما تلوح لأول مرة فيتخيلها

سحابة عابرة ! كان يهبط فى طيرانه إليها

مسرعاً ، مارقاً فى السماء الأثيرية الشاسعة

مبحراً بين العوالم العديدة ! تارة تهدأ خفقات جناحه

على متن الرياح القطبية ، وتارة يسرع خفقتها

٢٧٠

وهى تذرو الهواء الجميل ، حتى غدا يحلق حيث

تحوم العقبان ، فبدا للطيور

عنقاء تبهر أبصارها . كانت الطائر الوحيد

الذى أراد أن يحفظ رفاته فى معبد الشمس

الوضاء فطار قاصداً طيبة فى أرض مصر .

٢٧٥

وحط فوراً على الصخرة الشرقية عند باب الفردوس

واستعاد صورته الأولى - صورة

ملاك مُجنَّح من الصاروفيم . كانت أجنحته الستة تحجب

جسده النوراني . كان الجناحان اللذان يغطيان

منكبيه العريضين ينسدلان على صدره

٢٨٠

بزخرفهما الملكى ! وكان جناحا الوسط

يحيطان بخصره كأنهما نطاق مرصع بالنجوم ، ويلتفان

حول حقويه وفخذه ، يحليهما زغب ذهبى

صبغت ألوانه فى السماء . أما الجناحان الأخيران فكانا

يكسوان قدميه من الكعبين بدرع من الريش

٢٨٥

بلون السماء لا ينصل ! وقف مثل (عطارد)

يرف ريشه فيضوع شذا السماء فى

المنطقة الشاسعة من حوله . وعلى الفور عرفتة جميع فرق

الملائكة القائمة بالحراسة ، فنهضت تحية لمكانته

٣٠١

وتكريماً للمهمة السامية التي كلف بها

٢٩٠

فقد حدثت أنه لابد مكلف بمهمة سامية !

ومر بخيامها البراقة حتى أتى

إلى حقل النعيم ، فعبر بساتين المر

والأزهار العطرة وأشجار القاسيا وزيت الطيب والبلسم -

برية من المحاسن ! كانت الطبيعة ها هنا

٢٩٥

فى شرح شبابها ، تلهو وتلعب كما يحلو لها ،

فتنبت ما يصوره خيالها البكر ، وتتدفق بدائعها

الطليقة فتفوق بدائع فن الصنعة - نعيم غامر !

ورآه آدم مقبلا عبر الغابة العبة

وهو جالس لدى باب

٣٠٠

خميلته الرطبية ! كانت الشمس فى كبد السماء

ترسل أشعتها الحارة مباشرة لتدفىء

رحم الأرض العميق - حرارة أشد مما يحتاجه آدم !

كانت حواء داخل الخميطة ، وكانت تعد للغداء فى هذه الساعة

- كما ينبغى - ثماراً لذيدة ، مذاقها يمتع

٣٠٥

الشهية الصادقة ولكنه لا يطفىء الظمأ إلى

جرعات الرحيق أثناء الطعام من فوات الأنهار

والكرم والأعقاب ! فناداها آدم قائلا :

تعالى يا حواء ! أسرعى ! أمتعى بصرك فانظري

شرقا بين هذه الأشجار ! أترين صاحب الصورة الوضاعة

الذى يخطو مقبلاً نحونا ؟ لكأنما هو صباح جديد

يشرق فى الظهيرة ! ربما كان يحمل وصية كبرى من السماء

إلينا ، وربما تعطف فقبل أن

نستضيفه اليوم . هيا اذهبي فانظري

ما فى خزائنك ! أعدى أطيبه وزينه وأغدقى

من الخيرات ما تقتضيه الحفاوة ويقتضيه تشريف

ضيفنا الغريب من السماء ! إننا نستطيع أن نقدم

إلى كرمائنا ما قدموه لنا ، وأن نسخو فى العطاء

من سخى العطايا ، فالطبيعة تضاعف

من خيرات خصبها ، وإذا خففنا أحمالها

ازداد ثمرها وتكاثر ، والحكمة إذن ألا نقتصد .

وأجابته حواء قائلة : آدم يا ابن الطين الذى سواه الله

وأوحى إليه ! يكفينا القليل ! فالمخزون

على أغصانه فى كل حين ناضج وقطوفه دائية !

عدا ما ينبغى تخزينه قليلا حتى يتماسك

٣٢٥

ويطيب للغذاء بعد زوال الماء الزائد .

ولكننى سأسرع فأقطف أحسن الثمار من كل غصن وشجيرة

ومن كل نبات بل ومن البطيخ والشمام ذى الرحيق

قرى لضيفنا الملاك ، فإذا

رأى ذلك سلم بأن الله قد أفاء خيراته

٣٣٠

على الأرض مثلما أفاءها على السماء

قالت هذا فبدت على محياها سمات العجلة

واستدارت مسرعة . كانت أسباب الحفاوة تشغل بالها :

ينبغى انتقاء أشهى الأطايب وألذها طعاماً

وتقديمها بنظام يمنع اختلاط مذاق

٣٣٥

بمذاق ، فإن لم يحكم ترابطها فقدت رونقها

ومن ثم ينبغى بناء مذاق على مذاق فى تتابع أقرب إلى نهج الطبيعة !

شغلتها هذه الأفكار فقطفت الثمار من الأغصان الغضة التى تحمل

كل ما أخرجته الأرض - الأم التى تحمل فى رحمها كل شىء - قطفت

ما أخرجته الهند فى الشرق وفى الغرب وما بينهما

٣٤٠

من سواحل البحر الأسود وسواحل شمال افريقية

أو جزيرة (الكينوس) - فاكهة من كل نوع تتفاوت قشرتها

خشونة ونعومة ، فبعضها وبرى وبعضها صلب

قطفتها جميعاً - آية تكريم كبرى - ثم وضعتها على المائدة

بيد مغداق وللسقاء أتت بالكرم

٣٤٥

وعصرته فأخرجت شراباً طهوراً ، ثم أعدت رحيقاً حلواً

من ألوان التوت المختلفة ، كما سحق اللوز الحلو فاستخرجت

ألباناً طيبة مزجتها مزجاً . وكان لديها أيضاً

الأكواب الطاهرة اللائقة . وعلى الأرض نثرت

الورود وعاطر الزهور من أشجار لم يقربها البخور !

٣٥٠

وأثناء ذلك كان جدنا الأول يستعد لاستقبال

ضيفه النوراني ، فتقدم إليه لا تتبعه حاشية

ولا تصحبه إلا مناقب كماله .

كانت مهابته تنبع من ذاته ، بل كانت

هيبته تزيد عما توحى به الأبهة السقيمة التي تحيط

٣٥٥

بالأمراء الذين تتبعهم حاشية طويلة مترفة

من الفرسان ، يتقدمهم خدم مرصعون بالذهب ،

فتخلب أبصار الناظرين ويفغرون أفواههم دهشاً !

وعندما اقترب آدم منه تقدم إليه - لم يكن يرهبه

ولكنه أبدى خشوعاً وتوقيراً واحتراماً

٣٦٠

لذى الكيان الأسمى وانحنى قائلاً :

يا قاطن السماء ! - إذ لا إخال مكاناً

سوى السماء تحيا فيه مثل هذه الصورة الوضاعة -

ما دمت قد هبطت من العروش العلوية

وتعطفت فتركت منازل النعيم هنيهة

٣٦٥

وشرفت هذه البقاع ، فليتك تتعطف أيضاً وتزورنا

نحن الاثنين فقط فى تلك الخميعة الظليلة

وقد وهبنا الله هذه الأرض الفسيحة من حولها !

فلتسترح معنا فيها ولتتذوق أطايب ثمر الجنة

ولتلبث هنا حتى تمضى وقدة الهاجرة

٣٧٠

حين تميل الشمس فى هدارها وتخف حراراتها !

وأجابه الملاك الكريم فى صوت ودود قائلاً :

آدم ! هذا ما أتيت من أجله ! لقد خلقت على هذه الصورة

وأوتيت هذا المكان سكناً ومنزلاً

حتى تدعو ضيوفك إليه ولو كانوا من ملائكة السماء

٣٧٥

فلتمض بى إذن إلى خميلتك

وارفة الظلال . فأمامى هذه الساعات الوسطى حتى يشرق المساء

ولى أن أفعل بها ما أشاء ! وهكذا انطلقا إلى المنزل وسط الغابة

فابتسم لهما مثل بستان (بومونا) ! كان

- مزدانًا بالزهيرات وأريج العطور ، ولكن حواء
 لم تكن مزدانة بشيء ! كانت بذاتها أبهى من
 ٣٨٠ أجمل الحوريات ، أو ما ذكرته الأسطورة عن أجمل الربات
 الثلاث اللاتى تنافسن عاريات فوق جبل (أيدا)
 وتأهبت حواء لتكريم ضيفها القادم من السماء
 لم تكن بحاجة إلى خمار ، فالفضيلة حصنها ، ولم يطف بفؤادها
 ٣٨٥ ما يصبغ بالخجل خدها ! فألقى الملاك عليها السلام
 وهى التحية القدسية التى ألقيت
 بعد زمن طويل على حواء الثانية - مريم البتول - فباركتها !
 السلام عليك يا أم البشر ! يا من ستملأين
 الدنيا من رحمك الخصب بأبناء يزيد عددهم
 ٣٩٠ عن هذه الفاكهة المنوعة التى حملتها أشجار الله
 فملأت بها هذه المائدة ! كانت المنضدة ربوة
 من السندس الأخضر ، وحولها مقاعد معشبة
 وعلى جوانبها الأربعة الكبيرة
 أغصان الخريف وأوراقه - رغم أن الربيع والخريف هنا
 ٣٩٥ تشبك أيديهما فى رقصة واحدة ! وشرعوا فى الحديث برهة
 إذ لا خوف أن يبرد الطعام ! وبدأ الحديث

جدنا قائلاً : أيها الغريب القادم من السماء ! تفضل فذق

هذه الخيرات التى ينزلها علينا من يطعمنا ويسقينا

ومحكم خيراتة لا تعد ولا تحصى ! لقد قضى

٤٠٠

أن تهبنا إياها الأرض طعاماً ومتعة

فربما ليست بالغذاء الشهى

لذوى الكيان الروحى ! بيد أننى أعرف

أن رب السموات الواحد يهبها للجميع

ورد عليه الملاك قائلاً : لما كانت عطايا الله للإنسان

٤٠٥

(ولنسبح بحمده بكرة وأصيلاً) ذات قيس روحى

فسوف تجدها أصفى الأرواح

طعاماً سائغاً ! فالطعام يحتاجه أصفى

كيان ذهنى مثلما يحتاجه

كيانك العقلى : وكلاهما لديه

٤١٠

وفى باطنه كل الملكات الدنيا - تلك

الحواس التى يسمع بها المخلوق ويبصر ، ويشم بها ويلمس ويتذوق

فإذا تذوق مضغ فهضم فتمثل

فأحال المادة روحاً !

اعلم أنه ما من مخلوق إلا محتاج

٤١٥

إلى الغذاء والطعام . وهكذا شأن العناصر :

الأغلظ يغذى الأرهف ، فالأرض تغذى البحر

والأرض والبحر يغذيان الهواء ، والهواء يغذى تلك النيران

الآثيرية وأولها وأدناها إلينا القمر !

ومن ثم تبدو في وجهه المستدير تلك البقع ، فهي ما لم يصفو بعد من

٤٢٠

الأبخرة فيتحول إلى المادة التي خلق منها

بل إن القمر ليصعدُ الغذاء زفيراً

من أرضه الرطبة إلى الأفلاك الأعلى

والشمس التي تبعث بنورها إلى جميع الأشياء

تتلقى منها جميعاً غذاء يعوضها عنه

٤٢٥

في صورة أبخرة مصعدة . وعندما يحل المساء

تطعم من المحيط . ومع أن لدينا في السماء أشجار

الحياة التي تحمل ثمار الجنة ، وعرائش الكروم

التي تخرج الرحيق ، ومع أننا ننفض عن الأغصان كل صباح

قطرات الندى المعسول ، ونرى الأرض

٤٣٠

مكسوة بحبات اللؤلؤ المتثور ، فإن الله قد أفاء هنا

خيرات مختلفة ومتعاً جديدة

ففي إلى ما في السماء ! ولذلك فلا تَظَنَّ

- أننى سأتعفف عن تذوق ما قدمت لى ! وهكذا جلسا ،
ثم شرعا فى تناول لذىذ الطعام . لم يكن الملاك يأكل فى الظاهر
٤٣٥ فحسب ، ولم يكتنفه ضباب الوهم ، وهو التأويل المألوف
لدى اللاهوتيين ، ولكنه كان مدفوعاً بلذع
الجوع الحقيقى ، وحرارة هضم الطعام
وتمثيله ، وأما الفضل فما أيسر
أن يخرج من الأرواح . ولا عجب هنا ، فإن نار
٤٤٠ الفحم ذى السناج تعين الكيمياء التجريبى
أو هو يقول إنها تعينه - على تحويل
أدنى المعادن وأحطها إلى ذهب خالص ،
كالذى يخرج من بطون المناجم ! وأثناء ذلك كانت حواء قائمة
تقدم الطعام عارية على المائدة ، وتملاً لهما كؤوسهما
٤٤٥ بالشراب اللذيذ حتى حافتها . يا للبراءة
الخليقة بالفردوس ! فإن صحت الرواية
فإن منظر حواء آنذاك كان حريا بأن يجعل الملائكة
تعشق بنات البشر ، ولكن ما جاش بتلك الصدور
لم يكن حب الاشتها ، ولا كان للغيرة
٤٥٠ معنى هنا ، وهى جحيم العاشق المحروم !

وهكذا فبعد أن شبعاً طعاماً وشرباً

دون أن يثقل على الطبيعة ، خطر لآدم فجأة

ألا يدع هذه الفرصة السانحة تمر -

فرصة هذا الحواز العظيم - دون أن يسأل

٤٥٥

عما وراء هذا العالم ، وعن كيان

من يقطنون السماء ، وقد رأى أن امتيازهم

يفوق امتيازهم كثيراً ، وأن صورهم الوضاعة

نور قدسى ، وأن قدراتهم السامية

تفوق قدرة البشر . ومن ثم بدأ حديثه في حذر

٤٦٠

إلى ملاك السماء قائلاً :

يا من تسكن مع الله ! إننى أعلم حق العلم

مبلغ كرمك فى إسباغ هذا الشرف على الإنسان

إذ تعطفت فدخلت منزله المتواضع

وتذوقت هذه الفاكهة الأرضية !

٤٦٥

إنها ليست طعام الملائكة ولكنك قبلتها

وطعمت منها بشهية لا تقل فيما يبدو عن شهيتك

فى ولائم السماء الكبرى : ولكن أيا هذه من تلك ؟!

وأجابة المجنح العظيم قائلاً :

٣١١

اسمع يا آدم ! القهار واحد ! منه

٤٧٠

منشأ كل الأشياء وإليه مرجعها

ما لم تنحرف عن الخير . فلقد أعطى كل شيء خلقه ،

وفى أحسن صورة ركبته . فالمنشأ هيولة أولى واحدة

وهبت صوراً متنوعة ، ودرجات متفاوتة من

المادة مثلما وهب الأحياء درجات متفاوتة من الحياة

٤٧٥

وتزداد هذه رهافة وروحانية ونقاء

باقتراب منزلتها منه أو ميلها إليه

وقد خصص لكل منها مجال عمل لا يتعداه

حتى يطمح الجسد فى عمله إلى الروح ، فى حدود

تناسب مع كل نوع . وهكذا ترى أن الجذر

يُنبت الساق الخضراء الأرهف كيئاً ، ومن الساق تخرج الأوراق

الأقرب إلى الهواء ، وأخيراً تخرج الزهرة الكاملة مشرقة

فتبعث أنفاس الشذا العاطر . وأما الزهور والثمار

- طعام الانسان - فهي ترتقى درج سلم الطبيعة وتتسامى

لتصبح عصائر الحياة وأبخرتها وأنفاس

٤٨٥

الذهن . فهذه هي التى تهب الحياة والإحساس ،

وتهب الخيال والإدراك ، ومنها تتلقى النفس

مقومات العقل ، فالعقل كيانه

سواء كان منطقياً أم حدسياً - فأما المنطقي

فيتمى غالباً لكم ، وأما الحدسي فغالباً لنا ،

٤٩٠ وهما يختلفان في الدرجة فحسب ، ولكنهما من نفس النوع .

لا تعجب إذن حين أنقبل ما يراه الله

حسناً لكم ، فهو يتحول لدى ولديكم

إلى نفس المادة التي خلقنا منها . وربما أتى على الانسان حين من الدهر

استطاع فيه مشاركة الملائكة طعامها ، فلم يجده

٤٩٥ غير سائغ أو أرهف أو أخف مما ينبغي

ومن هذه الأطعمة المادية ربما استطاعت

أجسادكم أن تتحول آخر الأمر إلى أرواح خالصة

تصفو بمرور الزمن بحيث تستطيعان الصعود مجنحين

كالأثير مثلنا ، وإذا شئتما اتخذتما هذه الفردوس

٥٠٠ نزلًا أو غيرها من فراديس السماء

طالما أبديتما الطاعة وظللتما

على حبكما الكامل الراسخ الثابت

لمن أنجبكما . أما الآن فتمتعا

ما شاء لكم بالسعادة التي يسعها هذا النعيم

ولا يسع المزيد منها

٥٠٥

وأجابه والد الجنس البشرى قائلا :

أيها الروح الكريم ! يا ضيف الجنس البشرى !

ما أحسن ما ترشدنا إلى الطريق الذى سيهدى

علمنا ، وما أحسن ما بينت لنا سلم الطبيعة الذى يمتد

٥١٠

من مركز الدائرة إلى محيطها ، والذى نرجو أن نرقاه

بتأملنا للمخلوقات حتى نصعد

درجة فدرجة إلى الله . ولكن قل لى :

ماذا تعنى بذلك التحذير الذى أردفته حين قلت : إذا أبديتما

الطاعة ؟ أيمكن ألا نبدى الطاعة

٥١٥

أو نهجر حبنا لله

وهو الذى خلقنا من تراب ثم أنزلنا هنا

فأترع كياننا بأقصى النعيم الذى

ينشده البشر أو يقدررون عليه ؟

ورد عليه الملاك قائلا : يا ابن السماء والأرض !

٥٢٠

أصخ السمع ! إنك تدين بهنائك إلى الله

ولكن مواصلة الهناء رهينة بك !

إنها رهينة بطاعتك فاثبت عليها !

هذا هو تحذيرى إليك فانتصح به !

لقد وهبك الله الكمال ولم يهبك الثبات

لقد خلقتك صالحاً ، ولكنه ترك لك القدرة على مواصلة

٥٢٥

انصلاح ! لقد قضى أن تكون إرادتك

حرة بطبيعتها ، لا يسيطر عليها قدر

لا فكاك منه ، ولا يحكمها حتم صارم .

إنه يطلب منا أن نعبد مختارين

٥٣٠

لا مجبرين ، فعبادة المجبر

لا تقبل بل محال أن تقبل ! إذ كيف

تبتلى القلوب إذا حرمت الحرية ؟ وكيف يُعرف إن كان العابد

يريد العبادة أم لا ؟ إنه إن كان مجبراً فلن يريد

إلا ما يفرضه القدر عليه ولن يقدر على اختيار سواء !

٥٣٥

أما أنا وسائر الملائكة الذين يقفون

على مرأى من الله متوجين ، فإننا نتمتع بنعيمنا

مثلما تتمتعان بنعيمكما ، طالما واصلنا طاعتنا .

هذا هو ضماننا الوحيد ، إننا أحرار فى عبادته

لأننا أحرار فى حبه - أى لأننا نتمتع بإرادتنا فى

٥٤٠

أن نحبه أولاً نحبه . وثباتنا وسقوطنا رهن بذلك .

٣١٥

بل لقد سقط البعض - سقطوا في العصيان -

ومن ثم هوى من السماء إلى درك الجحيم الأسفل !

فيا للسقوط من ذروة النعمة إلى وهدة النعمة !

فقال له جدنا الأكبر : لقد أصغيت إلى كلماتك

٥٤٥

فأحسنت الإصغاء . ولقد شنت آذاني

أيها المعلم القدسي ، وأمتعتني متعة تفوق فرحتي

بأغاني ملائكة الشاروبيم ليلاً حين ترسل من التلال المجاورة

موسيقاها الأثرية . لم أكن أجهل أنني

خلقت حراً في الإرادة والعمل . وطالما اعتقدت

٥٥٠

أننا لن ننسى أبداً حب

خالقنا أو طاعته ، إذ لم ينهنا إلا عن أمر واحد -

وهذا هو العدل عين العدل بل ما أكدته فكرى الثابت

وما زال يؤكد . ولكن ما ذكرته عما

وقع في السماء يثير في نفسي الريبة

٥٥٥

ويزيد من رغبتى في الإصغاء - إذا وافقت -

إلى القصة الكاملة ولا بد أنها غريبة

وجديرة برهبة الإصغاء في صمت .

ما زال النهار أمامنا مديداً ، فالشمس لم تكد

تكمل نصف رحلتها ، ولم تكد تبدأ

٥٦٠

النصف الآخر في قبة السماء الشاسعة .

وهكذا فرغ آدم من سؤاله . وبعد

برهة صمت قصيرة أجابه روفائيل إلى طلبه قائلاً :

ما أسمى ما تطلب يا خير الرجال !

إنها لتشير الأسى ويشق سردها ! إذ كيف أُقربُ إلى

٥٦٥

حواس البشر ما لا تدركه أبصارهم من معارك ضارية

بين الأرواح ؟ كيف أروى دون إبداء الشفقة قصة

سقوط الكثيرين ممن كانوا يُشعّون بهاءً

وكمالاً أثناء ثباتهم على العهد ؟ وأخيراً كيف أروى

أسرار عالم آخر قد

٥٧٠

لا يحل إفشاؤها ؟ ولكن الفائدة التي ستجنيها

تبرر تقديمها ، وما لا تدركه

حواس البشر سأرسمه رسماً

مستعيراً للصور الروحية صوراً جسدية

تعبّر عنها أحسن تعبير ، وهل الأرض

٥٧٥

إلا ظل السماء ، وهل كل ما هنا وهناك إلا

متماثل بأكثر مما يظنه أهل الأرض ؟!

كان ذلك قبل وجود هذا العالم ، والعماء الجائع

يسط سلطانة حيث تجرى أفلاك هذه السموات ، وحيث

تستقر الأرض الآن

متزنة على مركزها ! فى ذلك اليوم

٥٨٠

(والزمن فى سرمديته لا يصف إلا

الحركة ، ويقيس الأشياء الفانية فحسب

بحدود الحاضر والماضى والمستقبل) - فى ذلك اليوم

الذى تأتى به الدورة الكبرى للأفلاك مرة كل عام ، أمر المليك

باستدعاء حشد السماء من الملائكة ، فجاءوا

٥٨٥

بأعداد لا تحصى ومثلوا أمام عرش القهار

على الفور ، قادمين من شتى أطراف السماء

واصطفوا فى طبقاتهم النورانية يقودهم زعمائهم ،

ورفعوا عالياً عشرة آلاف بيرق

وراية وعلم بين المقدمة والمؤخرة

٥٩٠

فرفرفت فى الهواء ، لتمييز

مكانة كل منهم أو طبقته أو درجته

كان بعضهما يحمل فى نسيجه اللامع نقوشاً براقه

وتذكارات قدسية لمآثر الحماس والحب

التي سجلت فأبرزت . وهكذا وقفوا في أفلاكهم

٥٩٥

ذات المحيط الشاسع ، وانتظموا

فلكاً داخل فلك ، ثم أتى صوت الأب السرمدي

- وقد جلس الابن في أحضان نعيمه -

من وسط السماء كأنما يصدر من قمة جبل التهيت

فاحتجبت لفرط نورها . قال :

٦٠٠

أيها الملائكة يا أبناء النور ! اسمعوا

يا ذوى العروش ! أيها السلاطين ، يا ذوى الإمارات والفضائل

والرياسات !

اصغوا إلى قرارى الذى ينفذ فلا نقض له !

لقد أنجبت اليوم من أعلن أنه

ابنى الأوحى ! وعلى هذا التل المقدس

٦٠٥

مسحت عليه ! إنه من ترونيه الآن

إلى يمينى ! إننى أعينه رئيساً عليكم

ولقد أقسمت بذاتى أن تنحنى له

شتى الرؤوس فى السماء وأن تعترف به سيداً عليها

احتكموا إذن لحكم خلافته العظيمة وانصاعوا له

٦١٠

متحددين مثل نفس واحدة لا تتجزأ

٣١٩

بل تهناً إلى الأبد . إن من يعصيه

فإنه يعصيني ، ويفصم عرى الوحدة ، وسوف ينبذ في نفس اليوم

من حظيرة الله ويتعد عن رؤياه المباركة

ويسقط في الظلمة التامة فيبتلعه الخضم فهو مثواه

الذى قضيت به - دون خلاص وبلا نهاية ! ٦١٥

كانت هذه كلمات الجبار نطق بها

فبدا السرور على الجميع ! أجل بدا السرور ولكنه لم يعم الجميع !

ومن ثم قضوا ذلك اليوم مثل سائر أعيادهم

ينشدون ويرقصون حول التل المقدس

رقص عبادة خاشعة ، يخاكي حركة السماء الدنيا بنجومها ٦٢٠

الثابتة وكواكبها ومساراتها المتداخلة

أيما محاكاة ! كانت حلقاته معقدة

بعضها غير ذى مركز ، وبعضها متقاطع ، ولكنها

وإن بدت غير منتظمة ، أشد انتظاماً من كل شيء !

كانت حركاتهم تبعث موسيقى متوافقة قدسية ٦٢٥

تنساب ألحانها الساحرة حتى لقد أصغت إليها أذن الله

في سرور . واقترب الآن المساء

(فلدينا أيضاً مساء وصباح

وإن كانا يتعاقبان للمتعة لا للضرورة)

٦٣٠

وعلى الفور تحول الجميع من الرقص إلى الطعام اللذيذ

فأقبلوا عليه باشتهاء ! كانوا يقفون في دوائر

حين مدت الموائد فامتلات فجأة

بطعام الملائكة ، وسال ياقوت الشراب فتألق

ببريق اللؤلؤ والماس والذهب الإبريز

٦٣٥

عصير الكرم الشهى من نبت السماء !

واستلقوا على الزهور متوجين بزهورات ناضرة

فأكلوا وشربوا ورقاً تواصلهم

وهم يعبون شراب الخلد والفرح ، آمنين

من التخمة ، فالشبع يمنع

٦٤٠

الإفراط ، أمام الملك الأكرم الذى أغدق عليهم

نعماءه بكف معطاء ، وشاركهم فرحهم

وعندما هبط الليل العاطر مُزناً

من جبل الله الأعلى - من حيث ينبعث النور والظل -

تغير وجه السماء الصبوح فاكتسى

٦٤٥

غسقاً جميلاً (إذ لا يكتسى الليل هناك

نقاباً أحلك) وهبطت القطرات الوردية التى تحمل

النحاس إلى كل العيون إلا عين الله التي لا تغفل

وانتشر الملائكة في أرجاء السهل ، في حقول أرحب

من سطح هذه الأرض الكروية لو بسط مهادها بسطاً !

٦٥٠

(فهكذا شأن حقول الله المترامية) وتفرق حشدهم من ثم

في فرق وصفوف فضربوا خيامهم

على شطآن الأنهار الحية بين أشجار الحياة -

خيام لا تعد ولا تحصى ! وأقاموا في لمح البصر

حجرات سماوية خلدوا فيها للنوم

٦٥٥

بينما تهب عليهم النسمات الرطبية - إلا من سهروا

حول عرش الملك ينشدون له ألحان التسييح

متناوبين طول الليل . ولكن إبليس لم يسهر لهذا !

لقد أسميناه إبليس الآن لأن اسمه القديم

لم يعد يسمع في السماء ! كان من أعظم كبار الملائكة

٦٦٠

إن لم يكن أعظمهم طُراً ! كان عظيم السلطان

عظيم الحظوة والامتياز ، ولكنه أمسى يضمّر

الحسد لابن الله ، إذ كَرَّمَه

أبوّه العظيم وشرّفه وأعلن أنه

المسيح - أي الملك الذي مُسح عليه . لم يستطيع إبليس أن يحتمل

٦٦٥

هذا المشهد صَلفاً منه وتيهاً ، بل ظن أنه قد أُضير !

وتولد في نفسه من ثم الازدراء والحقد العميق

وعندما انتصف الليل وحلت ساعة الغسق ،

حببية النوم والسكون ، عقد عزمه

على الرحيل مع فرقه ، والتخلي عن

٦٧٠

عبادة العرش الأسمى وعن طاعته

في أنفة وازدراء . وهكذا أيقظ من يليه في المثزلة

وشرح يحدثه سرّاً قائلاً :

أنتام أيها الرفيق المقرب ؟ أى توم ذاك الذى يعلّق

أجفانك ؟ ألا تذكر القرار الذى صدر

٦٧٥

بالأمس ونطقت به شفاه

جبار السماء ؟ لقد اعتدت أن تفصح لى عن أفكارك

وأعتدت أن أفصح لك عن أفكارى

لقد توحدنا فى اليقظة ، فكيف يفرق بيننا الآن

سباتك ؟ إنك تشهد الشرائع الجديدة التى فرضت علينا

٦٨٠

وكل شريعة جديدة يفرضها الحاكم تثير رأياً جديداً

لدينا نحن المحكومين ! إنها تتطلب مشاورات جديدة للنظر

فى عواقبها المجهولة . ولكننى لا آمن البوح

بأكثر من هذا هنا . هيا ! قم فاجمع

رؤساء الألوف الذين تتزعمهم

٦٨٥

وأخبرهم أن الأمر قد صدر لنا بالانطلاق من هنا

- قبل أن يللمم الليل الأدكن ظلال سحائه -

أنا وكل من يرفع رايته في ظل قيادتي ،

إلى مقرنا ، وبالعودة على جناح السرعة إلى

مربع ملكنا في الشمال ، فنعد

٦٩٠

حفلاً مهيباً نستقبل فيه ملكنا

وهو المسيح العظيم ونتلقى أوامره الجديدة

فهو يعتزم أن يمر مسرعاً بين طبقات الملائكة جميعاً

مرور الظافر ليشرع الشرائع !

وانتهى الملاك الأكبر من كاذب حديثه

٦٩٥

فبت الضلال في صدر صاحبه

غير المرتاب ، ومن ثم جمع بعض

خلفائه الذين ينوبون في الرئاسة عنه

وخاطب الباقين كلا على انفراد فأخبرهم الخبر

ألا وهو أن القائد سيمر قبل انقضاء الليل

٧٠٠

بل الآن ، قبل أن يرفع الليل الأدكن أثقاله من السماء -

حاملاً أرفع رايات الرفعة

وأخبرهم بالسبب فى ذلك ، ولكنه دس فى ثنايا حديثه

كلمات غامضة تثير الريبة ، إما لاختبار ولائهم

أو للتأثير فيه . بيد أنهم جميعاً أطاعوا

٧٠٥

الصوت الأعظم والإشارة المعهودة من

من زعيمهم الأكبر ، إذ كان اسمه جد عظيم

ودرجته جد رفيعة فى السماء .

لقد اجتذبهم وجهه المشرق مثل نجم الصباح

الذى يقود زمرة النجوم ، واستطاع بأكاذيبه

٧١٠

أن يجر وراءه ثلث حشد السماء .

وأثناء ذلك كانت العين السرمدية التى يدرك بصرها

أدق الخلجات والأفكار تطل من الجبل المقدس

ومن خلال المصابيح الذهبية التى تتوهج

كل ليلة أمامه . لقد رأى دون أن يستعين بضوئها

٧١٥

ازدياد التمرد ورأى المتمردين وانتشار

العصيان بين أبناء الصباح ، والجماهير

التي تضافرت لمناوءة قراره الأسمى ،

فالتفت إلى ابنه الأوحى وقال مبتسماً :

ولدى ! يا من أرى فيه بهائي

٧٢٠

مشرقاً كل الاشرار ! يا وريث جبروتي !

لقد اقترب موعد البرهان على أننى

على كل شىء قدير ! لا بد أن تثبت قوة السلاح التى

نعتزم أن نحمى بها ملكنا الأزلى

والوهيتنا الأزلية ! إن ثمة عدواً

٧٢٥

قد تمرد فاعتزم إقامة عرشه

فى مناطق الشمال الشاسعة بحيث يكون صنواً لعرشنا ،

ولم يكتف بذلك بل إنه يفكر فى منازلتنا

ليختبر قوة سلطاننا أو حقنا فيه

فلنخبر الملائكة ، ولنلق فى هذه المعجعة الخطرة

٧٣٠

مسرعين بمن تبقى منهم ، حتى ينهضوا جميعاً

بالدفاع عن العرش ، وإلا ضاع فى غفلة

هذا المكان الأسمى ، هذا الجبل والملاذ الرفيع !

أجابه الابن وقد علت محياه السكينة وسطع

يه البرق القدسى نوراً كريماً يجل عن الوصف ،

٧٣٥

قال : أيها الأب الجبار ! إنك لتسخر

ن أعدائك بالحق ، وإنك لآمن

ضاحك من باطل مكائدهم وفعالهم !

إننى لأزهو سناء إذ ييغضوننى ، ولسوف أزهو مجداً

حين يشهدون قدرة المُلْك التى

٧٤٠

أسبغت على لقمع كبريائهم ، وحين يعرفون من نتيجة

الموقعة إذا ما كنت قادراً على إخضاع

من تمردوا عليك أم أنا أسوأ من فى السماء !

وصمت الابن . بينما كان إبليس وقواته

قد طاروا بعيداً على أجنحة السرعة حشداً

٧٤٥

لا يعد ولا يحصى مثل نجوم الليل

أو نجوم الصباح أو قطرات الندى التى تحيلها الشمس

لؤلؤاً على كل ورقة وعلى كل زهرة !

ومروا بأصقاع شاسعة - مر أولئك الجبابرة الصناديد

من ملائكة الصاروفيم والقادة وذوى العروش

٧٤٥

فى طبقات ثلاث بأصقاع تتضاءل أمامها

أرجاء مملكتك يا آدم ! وإن قورنت بها كانت

كهذه الجنة إن قورنت بمهاد الأرض

والبحر إذا تخلى عن شكله الكروى

فانبسط سطحاً مديداً ! وبعد أن خلقوها وراءهم

٧٥٥

خطوا الرحال على حدود منطقة الشمال

فاستوى إبليس على عرشه الملكي

عالياً فوق التل الذي يسطع نوره إلى الآفاق ! كأنما هو

جبل من فوق جبل ، حوله الأهرام والبروج

التي اقتطعت من محاجر الماس ، وصخور من الإبريز !

٧٦٠

ذاك قصر (لوسيفر) العظيم (إذا أسمىنا

ذلك البناء اسماً مأخوذاً من لغة البشر

حتى يفهموه) ولكن إبليس لم يلبث أن طمح

بعد قليل في المساواة مع الله

ومحاكاة الجبل المقدس الذي نُصِبَ عليه

٧٦٥

المسيح أمام أعين السماء ،

فأسماه جبل الجمعة

لأنه جمع عليه كل أتباعه

متظاهراً بأنه قد أُمر باستشارتهم

حول الاستقبال الأعظم لمليكمهم

٧٧٠

حين يأتي إليهم هناك . وهكذا ، بحذق الافتراء

وفنون الزيف النكراء ، ملك عليهم أسماعهم إذ قال :

يا ذوى العروش ! أيها السلاطين ! يا ذوى الإمارات والفضائل

والرياسات !

هذا إذا كانت هذه الأسماء العظيمة ستظل قائمة ولن تصبح

مجرد ألقاب خاوية ! أجل ! لقد صدر الأمر

٧٧٥

بأن يستوى غيركم ويستأثر لنفسه

بالسلطان كله ! لقد طمس أنوارنا جميعاً إذ اتخذ اسم

الملك المسيح ! لقد تعجلنا على هذا النحو

فطرنا في منتصف الليل وأهرعنا لنجتمع هنا

لنتشاور وحسب في الطريقة المثلى لتكريمه

٧٨٠

أو ما يُبتدع من سبل التشريف الجديدة التي تليق

باستقباله ! إنه سيأتي ليتلقى منا

ما لم نؤده بعدُ من ركوع وخضوع ، وذليل وسجود وخشوع !

لقد كنا نستكثر ذلك على الإله الواحد ، فكيف نتحملة مضاعفاً

أى للواحد وللمن يعلن الآن أنه صورة منه ؟

٧٨٥

ولكن ربما استطعنا بتشاورنا وتناصحنا أن نحزم أمرنا

فنجد السبيل إلى الفكاك من هذا النير ؟

هل تسلمون رقابكم له ؟ أم تفضلون أن تنحني له

قاماتكم بيسر ؟ لن تفعلوا ذلك إذا صدقت

معرفتي بكم ، أو إذا كنتم تعرفون أنكم

٧٩٠

من أهل السماء وأبنائها ، لم يستعبدكم من قبل
أحد ، فإن لم تكونوا متساوين فى الدرجة فأنتم أحرار
وسواسية فى الحرية ! إن الطبقات والدرجات
لا تجور على الحرية بل تثبتها وتؤكدها

٧٩٥

من ذا الذى يستطيع أن يزعم لنفسه بالمنطق أو بالحق
المُلك على من هم بالحق أنداد له ؟
وإذا كانوا يقلون عنه فى السلطان أو البهاء
فهم فى الحرية سواء . من ذا الذى يستطيع أن يفرض
علينا الشرائع والقرارات ، ونحن دون شرائع
لا نخطئ أبدا ؟ أهوّن به إذن من دافع للسيادة

٨٠٠

وطلب العبادة ! إنه ليتتهك
ألقابنا الملكية التى تؤكد أننا
قد كتب لنا أن نحكم لا أن نخدم !

٨٠٥

إلى هنا كان الخطاب الجسور ينطلق دون قيود
فيملك الأسماع ، حين هب من بين ملائكة الصاروفيم
ملاك اسمه (عبدئيل) ، لم يكن أحد أشد منه إخلاصا فى عبادة
الله وطاعة أوامره القدسية ،

هب واقفاً وانطلق فى وقدة حمية ملتبهة

يصب دافق غضبه معترضا على إبليس فقال :

ياالحديث الإفك والكفر والكبرياء !

كلمات ما توقعت سماعها الأذان في السماء ! ٨١٠

وبخاصة منك أيها الجحود

الذى علت منزلته على أقرانه علواً كبيراً !

كيف كفرت فاتهمت فأدنت

القرار العادل الذى أعلنه الله فأكده بالقسم ؟

لقد أسبغ الله بالحق على ابنه الوحيد ٨١٥

صولجان الملك ومن ثم ينهغى على كل من فى السماء

أن ينحنوا له فيشرفوه التشريف الخلق به

ويعترفوا به بالحق ملكا عليهم ! تقول إنه ليس من العدل

يل من الظلم الصريح أن تشرع الشرائع الملزمة للأحرار

وأن يكون لأحدهم الملك على من يساوونه فى المنزلة ٨٢٠

وفوق الجميع واحد سلطانه أزلى لا يُورَث ؟

أَفْتَشْرَعُ أنت الشرائع لله يا إبليس ؟ أتجادله

فى حدود الحرية وهو الذى خلقك

بما أنت عليه وصور ملائكة السماء

وفق مشيئته فوضع حدود كيانههم ؟ ٨٢٥

لقد علمتنا الخبرة مدى خيره الممدود

وعرفنا مما نهنا به من خيرٍ وكرامةٍ

مدى عنايته الإلهية ، وعرفنا أنه لا يعتزم

الحط من شأننا بل زيادة رفعتنا

٨٣٠ ونعيمنا في ظل رئيس واحد أقرب إلى

التوحد معنا . ولكن فلنفترض أنه من الظلم كما تقول

أن يحكم ملك على من يساوونه في المثلة !

هل تعتبر نفسك رغم عظمتك وبهائك - بل هل تعتبر

أن جميع خصال الملائكة لو جمعت في واحد - يمكن أن

٨٣٥ تتساوى مع ابنه الذي أنجبه ؟ لقد خلق

الأب الجبار منه جميع الأشياء فهو كلمته ،

بل خلقك أنت منه وجميع ملائكة السماء

التي خلقها - بدرجات بهاء متفاوتة -

فكللها بالمجد ، ثم أضاف أسماء الطبقات ، فمنها

٨٤٠ العروش والسلاطين والإمارات والفضائل والرياسات

- وهي قوى الأساس ! ولكن ملكه لم يخسف ضياءها

بل زادها إشراقا ! إنه حين ترأسنا

أصبح واحدا منا ومن ثم تدنّى فأمت

شرائعه شرائعنا وكل شرف يناله

٨٤٥

يعود إلينا ! كُفَّ إذن عن سورة الكفر
ولا تُغْرِ هؤلاء ! والأحرى بك أن تعجلَ بإرضاء
الاب الغضبان ، والابن الغضبان

وفي الوقت متسع لطلب الصفح والغفران !

وانتهى حديث الملاك الجياش ، ولكن حماسه

٨٥٠

لم يلتق من يؤيده ، إذ رأوه حماساً في غير وقته
أو غريباً طائشاً . وهكذا تهلل وجه

المارق المرتد ، وعلا محياه المزيد من الصلف وقال :

أتقول إننا صوّرنا إذن ؟ وأن أيد أخرى

هى التى صوّرتنا إذ فوض الاب

٨٥٥

ابنه فى القيام بالعمل ؟ فكرة غريبة وجديدة !

ليتنا نعرف من أين أتيت بهذا المذهب ، إذ من ذا الذى شهد

هذا المخلوق حين كان ؟ أتذكر أنت

خلقك ؟ أتذكر متى وهبك الخالق كيانه ؟

لا نعرف زمناً لم نكن فيه ما نحن الآن !

٨٦٠

لا نعرف أحدا سبقنا ، فلقد أنجبنا أنفسنا ، وأنشأنا ذواتنا

بقوة الحياة الكامنة فينا ، حين دارت دورة المصير

فى فلكها فاكتملت وآن موعد مولدنا

من هذه السماء ، وطننا نحن أبناء الأثير !

إن قوتنا فى ذواتنا ، ويدنا اليمنى

٨٦٥

سترشدنا إلى أرفع فعال حين نختر بال قوة

من هو مساو لنا ! ولسوف ترى إن كنا

نعتزم مخاطبته تضرعاً وخيفة ، وإن كنا

نشحيط بعرش الجبار

للتوسل إليه أم لحصاره ! فلتحمل هذا الخبر

٨٧٠

بل طر بهذه الأنباء إلى الملك المسيح

وأسرع قبل أن يعترض للشر سيلك !

قالها فدوى التصفيق كأنه هدير مياه المحيط

يرجع مبجوحاً صدى صوته ويموج به

الحشد الحاشد . ولكن ذلك لم يعق

٨٧٥

ملاك الصاروفيم المقدام الأحمس من الرد عليه ! فرغم وحدته

ومحاصرة الأعداء له جاء رده الجسور قائلاً :

يا من ابتعدت عن الله ! أيها الجنى الملعون

يا من نبذ الخير كله ! أرى شقوئك

محتوماً أنت ورفاقتك التعساء الذين شاركوك

٨٨٠

فتنة الخيانة فأصابتهم عدوى

جريمتك ونالهم مثل عقابك !

لا تشغل بالك بعد الآن بالخلاص من نير

مسيح الله ! إذ لن تَمَسَّكَ بعد الآن شريعة غفرانه

أو تشملك برحمتها بل إن قرارات أخرى

٨٨٥

قد صدرت ضدك ولا رادّ لها !

أما الصولجان الذهبي الذي رفضته فقد تحول

الآن إلى قضيب حديدي يضرب فيحطم

عصيانك ! لنعم ما أوصيتني به

ولكنني لا أهرع تحقيقاً لوصية أو خوفاً من تهديد

٨٩٠

بل أترك هذه الخيام الخبيثة الهالكة خشية غضبة

وشبكة قد تنفجر لهاً مفاجئاً

لا يفرق بين الطيب والخبيث ! ولن يلبث أن ينقض

رعده على أم رأسك وتزدردك نيرانه ،

وستعرف نادباً من الذي خلقتك

٨٩٥

حين تعرف من يستطيع أن يحيلك عدما !

وصمت (عبدئيل) ملاك الصاروفيم الذي أثبت إيمانه

بل كان المؤمن الوحيد بين الكفار !

كان الأمين الوحيد بين ما لا يحصى من الخونة .

لم يتزعزع ولم يخف ولم يُغَوَّ

٩٠٠

بل حافظ على إخلاصه وحبه وحماسه !

لم تجرفه أعدادهم الهائلة ولم يحتد المثل الذي ضربوه

فيحيد عن الحق أو ينزل عن رأيه الثابت

رغم وحدته ! وهكذا تقدم في وسطهم ،

شاقاً طريقه الطويل وسط الازدراء والعداء ! ولكنه احتمل ذلك

٩٠٥

وتعالى عليه دون أن يخشى أذى يصيبه

ثم أدار ظهره في ازدراء مماثل

لقلاع الكبرياء التي كتب عليها الهلاك العاجل

الكتاب السادس

الموضوع

يواصل روفائيل روايته فيحكي كيف أرسل ميكائيل وجبريل لمنازلة إبليس وملائكته . وصف المعركة الأولى . يتراجع إبليس وقواته تحت ستار الليل ثم يعقد مجلساً ويخترع آلات حرب شيطانية تستخدم فى اليوم الثانى ضد ميكائيل وجبريل وملائكتهما وتوقع بعض الفوضى فى صفوفهما . ولكنهما فى النهاية يقتلعون بعض الجبال فيكتسحون قوات إبليس وآلاته . بيد أن المعركة لم تنته بعد . وفى اليوم الثالث يرسل الله ابنه المسيح - وقد خصه بمجد النصر - ينزل المسيح إلى الميدان مفوضاً قوة أبيه فيأمر فرقه أن تقف ساكنة على الجانبين بينما يندفع راعداً بعجلاته الحربية وسط الأعداء الذين عجزوا على المقاومة فيطاردهم حتى جدار السماء . وينفتح الجدار فيلقى بهم وقد شملهم الرعب والاضطراب فى الهوة السحيقة التى أعدت لعقابهم ، بينما يعود المسيح ظافراً إلى أبيه .

ظل الملاك المقدام يسير طول الليل غير مُقْتَفَى
 فى سهول السماء الشاسعة حتى بزغ الفجر الذى
 أيقظته دورة الساعات ، فمد يده الوردية
 ليفتح أبواب الضياء !

٥

فى جبل الله كهفٌ يجاور عرشه
 يغشاه النور ثم يغشاه الظلام فى دورة دائمة ،
 فهما يتناوبان عليه ويتعاقبان فى السماء
 تعاقباً جميلاً مثل تعاقب الليل والنهار !
 وحين ينبعث الضوء من باب ، يدخل الظلام من الباب الآخر

١٠

فى أعقابه حتى تحين الساعة التى يلقى فيها
 لثامه على السماء - ولو أن الظلام هناك
 أشبه بالشفق هنا ! أما الآن فالصباح يتقدم
 فى السموات العُلَى مُوشِئاً بعسجد
 من السماء ومن أمامه يتلاشى الليل الذى

١٥

انتهكت أستاره أشعة الشرق ! ولاحت أرجاء السهل
 الذى احتشدت فيه الفياقق الوضاء المصطفة للحرب ،
 والعجلات الحربية والأسلحة البراقة والخيول النارية
 التى تشع وهجاً من فوق وهج ! كانت أول ما أبصر

فأدرك أنها الحرب ، بل هى الحرب التى يعدون لها ، ووجد

٢٠

أنهم يحيطون بما كان يظنه أنباء جاء

يحملها إليهم ! وسره ذلك فانخرط

فى صفوف أنصاره من الأجناد الذين استقبلوه

بالترحاب والتهليل المدوى ، فرحين بأن واحداً

قد نجا من بين الألوف التى سقطت ، وأن واحداً

٢٥

قد عاد دون خسران ! ثم مضوا به إلى التل المقدس

وهم يحيونه ويهتفون له ، ثم قدموه

بين يدي الكرسي الأسمى . ومن ثم انبعث صوت

من وسط سحابة ذهبية يقول فى نبرات لطيفة :

يا عبد الله ! لنعم ما فعلت ! أنعم بجهادك

٣٠

الجهاد الأحسن إذ صمدت وحدك

ضد حشود المارقين فانتصرت لقضية

الحق ! لقد كانت كلمتك أقوى من سيوفهم !

بل لقد تحملت حين شهدت للحق

مرارة اللوم من الجميع ، وهى أثقل وأوجع

٣٥

من إيذاء الجسد . وما كان همك إلا

أن تنال رضى الله ، رغم العالمين

الذين رموك بالضلال ! ما أيسر الغلبة لك الآن

حين تعود إليهم يؤازرك هذا الحشد من الخلاء !

إنك لتعود إلى أعدائك في أمجاد

٤٠ تفوق ما رحلت فيه من ازدراء ! ولسوف تخضعهم

بالقوة ، لأنهم لا يقبلون العقل شريعة

ولا الضمير ! لا بل ولا أن يكون المُلْك عليهم

للمسيح ، وهو الذى يحكم لأنه حرى بالحكم وحقيق به !

هيا يا ميكائيل ! يا أمير جيوش السماء !

٤٥ وأنت يا من تليه براعة وتمكنا من فنون الحرب

يا جبريل ! قودا إلى حرمة الوغى أبنائى الذين

لا يقهرون ! قودا ملائكتى المدججين بالسلاح -

ألّوفا وملايين مصطفىين للقتال

إنهم يمثلون فى عددهم ذلك الجمع من الكفرة

٥٠ المتمردين ! انقضوا عليهم بالنيران وأسلحة الفتك

واستبسلوا فطاردوهم إلى تخوم السماء

وأخرجوهم من كنف الله ونعيمه

وألقوا بهم فى مقر عقابهم ، فى بحيرة

الجحيم التى استعدت ففغرت فاها

٥٥

من نيران العماء لتلقفهم ساقطين !

بهذا نطق الملك ، فشرعت السحب

تظلم أرجاء التل ، والدخان يتكور

في طاقات دكناء ، وألسنة اللهب تتلوى ، آيات

على صحوة الغضب ! وما كان أقل رهبة منها دوى ذلك

٦٠

البوق الأثيرى الذى نُفخ فيه من عل !

وإذ صدر ذلك الأمر ، هبت قوى المقاتلين

المدافعين عن السماء فترابطت فصائلهم الأربع

في وحدة قاهرة ، وتقدمت

كتائبهم الوضاعة في صمت على أنغام

٦٥

متوافقة تعزفها آلات تبعث أنفاس

الحماس والبطولة ، وتحث على خطير الفعال ،

ويقودها زعماءهم النورانيون خارجين في سبيل

الله والمسيح . وظلوا يتقدمون

في ثبات لا تنفصم عراه ، فما أفلح تل يعترض سبيلهم

٧٠

أو واد يضيق أمامهم ، لا بل ولا استطاعت الغابات والأنهار أن تفرق

صفوفهم المحكمة . كانت خطاهم تعلو على الأرض

في سيرهم ، وكان الهواء المطيع يحتمل

- خفيف خطوهم ، مثلما احتمل شتى أنواع
الطير التي انتظمت صفوفها في الفضاء
- ٧٥ وجاءت طائرة فوق عدن ، حين دعيت إليك لتلقى
منك أسماءها ، فكم من أصقاع
السماء عبرت ، وكم من إقليم شاسع يبلغ
عشرة أمثال هذه الأرض طولاً ! وأخيراً
لاحت على البعد في الأفق الشمالي
٨٥ بقعة من نار تمتد من أقصاه إلى أقصاه
وعلى محياها الحرب ! وعندما اقتربوا منها بدت
شائكة بأعداد لا تحصى من القنا المرفوعة
والحرايب الصلبة والخوذ المحتشدة والدروع الممنوعة
التي صورت عليها شعارات التفاخر والتباهي - كانت
٨٥ قوات إبليس المتضافرة تهرع إليهم
وتسرع في سورة غضبها ! كانوا يظنون أنهم
يستطيعون بالحرب أو المفاجأة ذلك اليوم
أن يستولوا على جبل الله ، وأن يُنصبوا على عرشه
من يحسده على منزلته ، ذلك المتباهي
٩٠ الطامح ، ولكن ثبت ضلالهم وبطلان ظنونهم

فى وسط الطريق ، وكم بدا من الغريب لنا

فى البداية أن يتقاتل الملائكة

ويلتقوا فى نزال طاحن ضروس ، بعد أن كانوا يتلاقون

كثيراً فى أعياد الفرح والحب

٩٥

يداً واحدة وأبناء لوالد واحد عظيم

فيسبحون بحمد الأب الأزلى ! ولكن صيحة

المعركة بدأت تدوى ، وصوت الانقضاض الذى

يؤذن بدنو الاشتباك سرعان ما بدد أفكار السلم !

وعالياً فى الوسط ، رفيعاً مثل الأرباب

١٠٠

جلس المارق فى عربته الحربية المتوهجة توهج الشمس

صنماً لجلالة قدسية ، تحيط به

ملائكة الشاروبيم البراقة والدروع الذهبية

ثم نزل من عرشه الفخم ، فالآن

لا تفصل بين الجانبين سوى رقعة ضيقة

١٠٥

وفاصلة رهية ! كانوا يواجهون بعضهم بعضاً

واقفين فى نسق يبعث الرعب

وصفوف لا حد لطولها ! وأمام المقدمة الغائمة

عند خط المواجهة المتعرج قبل موقع الالتحام

كان إبليس يتقدم بخطى عملاقة مزهوة

١١٠

ويعلو بهامته علي الجميع مدججا بالصلب والنضار !

ولم يطق (عبدئيل) أن يرى ذلك من حيث كان يقف

بين أعتى العتاة الذي عقدوا العزم على أرفع الفعال

فجاش في قلبه المقدام حديث كشف مكنونه قائلاً

يا للسماء ! أما يزال شبيهاً بالأعلى إلى هذا الحد

١١٥

بعد أن ولّى إيمانه وإخلاصه ؟

لماذا لا تخور قواه ويذهب جبروته

بذهاب فضائله ؟ ولعل ضعفه يزداد

بازدياد جرأته رغم مظهره الذي لا يقهر !

إننى أتوكل على الله القهار وأستعين به

١٢٠

في اختبار مدى قوته ، بعد أن ثبت لى خطل رأيه

وضلال قلبه ، فالعدل يقضى

أن من يهزم خصمه فى ساحة الحق

ينبغى أن يهزمه فى ساحة القتال ، فيخرج من النزاعين

منتصراً ! وعلى حطة النزال وشره

١٢٥

حين يضطر العقل إلى ملاقات القوة فإن

أرفع درجات العقل هى هزيمة منطق القوة !

وفرع من تأملاته فترك أقرانه المدججين

وخطا إلى الأمام فواجه في منتصف الطريق

عدوه الجسور . وزاده اعتراضه

١٣٠ غضباً وحنقاً فتحداه في ثقة قائلاً :

ترى هل تصدى لك أحد أيها المتكبر ؟ كنت تأمل أن تبلغ

ذروة ما تطمح فيه دون نزال

فتشب على عرش الله وقد تركه الحرس

وفر أجناده في ذعر من جبروتك

١٣٥ أو من لسانك اللاذع ! ما أضلك إذ غفلت عن عبث

التطاول بالسلاح على القهار

الذي يستطيع أن يحيل أتفه الأشياء

إلى جيوش جرارة لا نهاية لها ليسحق

حمقك ! بل يستطيع أن يمد يداً واحدة

١٤٠ تدرك أقصى الأقصى فيضربك ضربة واحدة

يقضى بها عليك دون معين ويسحق

كتائبك في جنح الظلام . ولكن انظر فلسوف ترى

أن الجميع لم يتبعوك ، فمنهم من استمسك بالإيمان

وتقوى الله ، على أنك آنذاك

لم تكن تراهم ، وكنت تظن أنني وحدي

قد خالفت الجميع فضلت في عالمك !

انظر تدرك معدن أنصاري ، ولتدرك بعد فوات الوقت

كيف تصيب القلة أحياناً وتضل الألوف !

ونظر العدو الأكبر شزرا إليه وحدجه باحتقار

قائلاً : الويل لك في ساعة انتقامي المنشودة !

فلسوف أطلبك أولاً أيها الأبق العائد !

أيها الملاك المنشق الذي عاد ليلقي

جزاءً وفاقاً في أول اختبار

لهذه اليد اليمنى ! لقد أغضبها لسانك

الذي أوعز إليه بالمناوئة فاجترأ على تحدي

ثلث الأرباب الذين التقوا في مجلسهم

ليؤكدوا ربوبيتهم والذين يحسون أن

الطاقة القدسية في باطنهم تنكر

وجود من هو على كل شيء قدير . لقد سبقت

رفاقت طمعاً في الظفر مني

بنصر يكلل هامتك ! لا بأس ! فربما كانت عاقبتك نذيراً

بالهلاك لسائر رهطك ! ولكنني سأتمهل حتى أجيب على قولك

(خشية أن تزهر إذ لم أفعل) وحتى أحيطك بالأمر علما :
كنت أظن أولاً أن الحرية والسماء

١٦٥

مبسوطتان لأرواح السماء دون تفاوت . ولكننى الآن
أدرك أن أكثرهم كسالى يفضلون العبادة

فهم أرواح خادمة دربت على فنون الولائم والأغاني !
إنك حين أعطيت السلاح لأمثال هؤلاء من منشدى السماء
فقد جعلت العبيد يقارعون الأحرار

١٧٠

كما سيثبت لك اليوم من مقارنة أداء الفريقين !
وأجابه (عبدبثيل) فى اقتضاب وصرامة قائلاً :
لقد ضللتَ أيها المارق ! بل لا حدَّ

لضلالك وبعذك عن صراط الحق المستقيم !
لقد ظلمتَ إذ وصمتَ

١٧٥

بالعبودية من يعبدون من قضى الله
أو قضت الطبيعة أن يعبد ! فقضاء الله وقضاء الطبيعة واحد
حين يكون الحاكم خير الحاكمين ، وحين يمتاز
على من يحكمهم . أما العبودية فهى

عبادة الأحق أو عبادة من تمرد

١٨٠

على من هم أفضل منه ، كعبادة أتباعك إياك الآن

٣٤٧

وما أنت نفسك بحرٌّ ، بل أنت عبد ذاتك

ومع ذلك تجرؤ فتهاجمنا فى وقاحة لأننا نعبد الله !

فلتكن سيدا فى الجحيم - مملكتك - ولأكن عبداً

فى السماء يباركنى الله أبدا وأطيع

١٨٥

أوامره القدسية ، فهى أخلق ما يطاع !

لا تتطلع فى الجحيم إلى الممالك بل إلى السلاسل والأغلال ! أما الآن

فتلق هذه الضربة منى - أنا الأبق العائد كما تقول !

خذها تحية لناصيتك الكافرة !

قالها ثم رفع يده النبيلة عالياً

١٩٠

وما كادت ترتفع حتى هوت منقضة كالصاعقة

على ناصية إبليس الصلقة حتى ما أدركها البصر

وما أدركتها سرعة الفكر اللماح ، بل وما استطاع درعه

أن يحول دون انقضاضها ! وتراجع عشر خطوات هائلة

ناكصاً على عقبه ، وفى الخطوة العاشرة هوى على ركبته

١٩٥

متكئاً على رمحه الضخم ، فكأنما هبت فى باطن الأرض

الريح أو اندفعت المياه فى سيل العرم

فزعزعت جبلاً من قاعدته

فغاص فى الأرض بأشجار الصنوبر من فوق رأسه ! واستولت الدهشة

- على الملائكة المتمردين ، ولكن غضبتهم كانت أكبر ، اذ شاهدوا
 ٢٠٠ وقعة أعتى جبابرتهم ، بينما أفعم الفرخ صناديدنا فصاحوا صيحة
 تبشر بالنصر وتفصح عن الرغبة الجائحة
 فى القتال . وعندها أمر ميكائيل بأن ينفخ
 فى بوق الملاك الأكبر ، فدوى صوته فى أقطار السماء الشاسعة
 وصدرت من جيوش المؤمنين
 ٢٠٥ التسابيح للأعلى ! وبعد وقوف وتحديق ذاهل
 تحركت فرق الأعداء فأحدثت دويًا بشعًا إذ اشتبكت
 مع الخصم شائكة السلاح ! وهب الغضب العاصف
 والضجيج الذى لم يُسمع مثله فى السماء
 فاصطكت السيوف بالدروع فى قعقة
 ٢١٠ مخيفة وجلبة نشزة ودارت العجلات المسعورة
 بعرباتها النحاسية فأطلقت سعارها ! كان صخب
 القتال رهيبًا ، بينما انطلق الأزيز المفزع من فوقهم
 حين طارت السهام النارية فى وابل من اللهب
 فأقامت سرادقا من النار فوق الجانبين .
 ٢١٥ وهكذا اندفع تحت هذه القبة النارية
 قلبا الجيشين فى هجمة كاسحة

و غصبة لا ينطفئ أوارها . و رجعت أرجاء السماء
أصداء القتال ، ولو كانت الأرض قد خلقت أنثى
لزلزلت الأرض حتى مركزها ! ولا غرو ! فعندما تلاقى

٢٢٠

ملايين الملائكة فى شراسة واشتبك
الجانبان ، كان يستطيع أدناهم أن يقبض على
عناصرها الأربعة فيتسلح بالقوة الكامنة
فى أصقاع الأرض جميعاً ! هل كان ثم ما يزيد قوة
عن هذين الجيشين بأعدادهما التى لا تحصى ؟ لقد أثارا

٢٢٥

اضطراباً رهيباً فى اضطراعهما حتى كادا أن يزعزعا
دون أن يدمرا موطن هنائهما الأول
لولا أن الملك الأزلى القادر على كل شىء قد قضى
من عرش عزته الرفيع فى السماء بحصر
قواهما والحد من جيروتهما . وعلى كثرة أعدادهما -

٢٣٠

إذ بدت كل فصيلة من الفصائل
حشداً كبيراً - كانت كل يد تحمل السلاح
كالفصيلة فى قوتها ! كان لهم قادة ولكن
كل مقاتل كان يبدو قائداً ، بل كأنما هو قائد أعلى ، فهو خبير
يعرف متى يكر ومتى يشب ومتى يدير رحي

٢٣٥

المعركة ، بل يعرف متى يفتح الصفوف ومتى يغلقتها -

صفوف الحرب الجهمة ! لم يدر بخلده أن يفر

أو يتراجع أو يفعل ما لا يليق مما

يفصح عن الخوف . كان كل منهم يعتمد على نفسه

ففي ذراعه وحده تكمن قوة

٢٤٠

النصر . كم من الفعال ذات الذكر الخالد

قد وقعت ولا انتهاء لها ! فقد اتسع نطاق

تلك الحرب وتعددت صورها ، فأحياناً تدور على الأرض الصلبة

حيث اقتتلوا راجلين ، وأحياناً في الجو حيث حلقوا طائرين

فأذاقوا الهواء مر العذاب ، بل إنك لتخال الهواء كله

٢٤٥

سعيراً مضطرباً ! وتعادلت كفتا المعركة

ردحا طويلا من الزمن ، حتى هب إبليس الذي أظهر ذلك اليوم

قوة رائعة ، ولم ينزل فيه

نداً له ، فاخترق صفوف الهجمة الضارية التي

شنها ملائكة الصاروفيم فأربكها ، وأخيراً

٢٥٠

رأى أيان يهوى سيف ميكائيل فيجندل

كتائب برمتها ! كان حسامه مزدوج المقبض عظيم القوى

وكان يرفعه عالياً ثم يهوى بحده القاطع الرهيب

٢٥١

ليطيح بالقاصي والداني . وأهرع ابليس لصد هذا الهلاك

فدفع بدرعه الصخرى الضخم الذى

٢٥٥

ضوعفت طبقاته الصلدة عشر مرات - درعه العريض

ذى المحيط الشاسع . وعند اقترابه

كف الملاك الأكبر الجبار عن القتال

إذ أسعده الأمل فى إنهاء

الحرب الدائرة بين أهل السماء ، وكسر شوكة العدو الأكبر

٢٦٠

أو أخذه أسيراً مغلولاً فى الأصفاد . فتجهم فى عدااء

واستعر وجهه غضبا وشرع يخاطبه قائلاً :

يا من أبدعت الشر ! لقد كان مجهولاً حتى تمردت

ولم يكن له اسم فى السماء ثم استشرى كما ترى

فى هذا الاقتتال البغيض ! وإذا كان يبغضه الجميع

٢٦٥

فهو بالعدل أثقل وطأة عليك

وعلى أتباعك . أنى انتهكت

السلام المبارك فى السماء ، واستحدثت فى الطبيعة

الشقاء ، فهو لم يخلق حتى أجرمت

فتمردت ! كيف أشربت

٢٧٠

الآلاف بضغيتك فتحولوا بعد استقامتهم

وإيمانهم إلى الختر والغدر ! لكن لا تظن أنك
سوف تكدر السكينة القدسية ، إذ ستلفظك السماء
من شتى تخومها . إن السماء مقام النعيم وهي
لا تصبر على التناحر والحرب .

٢٧٥

أخرج منها إذن وليخرج الشر معك
فهو وليدك ! هيا إلى مثوى الشر ، إلى الجحيم ،
أنت وأتباعك الخبيثاء ، فاصطرعوا هناك
قبل أن ينقض سيف انتقامي هذا فيقضى عليك
أو يرسل الله انتقامه المجنح بغتة

٢٨٠

فيلقى بك من حالق ويزيد من آلام عذابك !
وفرغ أمير الملائكة من حديثه فأجابه
الشیطان قائلاً : بل لا تَظُنُّ أَنَّكَ تستطيع إخافتى بخواء
الوعيد وهباء التهديد بعد أن عجزت عن ذلك
بالفعل والعمل . لقد عجزت عن إجبار أدانا

٢٨٥

على الفرار ، وإذا وقعوا فإنهم ينهضون
ولا ينهزمون . أترى من الأيسر عليك أن تتفاوض معي
وتأمل أن يفلح تجبرك ووعيدك
في إخراجي من هنا ؟ لا تخطيء فتظن هذه نهاية

- الصراع الذى تسميه شرًا ، فإنما نحن نخط
- ٢٩٠ صراع المجد ، ونعتزم أن نتصر
- أو نحيل هذه السماء نفسها إلى الجحيم الذى
- تتخيل وجوده ، فنقيم أحرارا هنا
- ولو لم يدن لنا المُلْك ! أما الآن فاستجمع أقصى قوتك
- وانشد مؤازرة من يسمى بالجبار
- ٢٩٥ فأنا لا أولى الأدبار بل أسعى إليك فى كل مكان !
- وفرغا من التطارح فاستعدا لقتال
- يشق وصفه . إذ من يستطيع ولو أوتى لسان الملائكة
- أن يقص خبر هذه الأحداث ، وكيف يجد لها
- المثيل مما يحدث على الأرض ونعرفه ؟ إن هذا ليرقى
- ٣٠٠ بمخيلة الإنسان إلى ذرا
- طاقة الأرباب ! كانا يشبهان الأرباب
- واقفين أو سائرين ، فى القامة والحركة والسلاح ،
- خليقين بأن يفصلا فى مآل مملكة السماء العظمى !
- وطفق سيفاهما الناريان يتراقصان ويدوران فى الهواء
- ٣٠٥ دورات رهيبه ، وأما درعاهما فكل منهما شمس عريضة
- وهما يتوهجان ويتقابلان ، بينما كان الترقب يقف

فى وجل ! وتراجع حشد الملائكة مسرعين عن كل جانب

حيث كانوا يشتبكون فى أشد قتال

فخلفوا ساحة شاسعة ، إذ لم يأمنوا وقوفهم فى مهب الريح

من هذا الاضطراع ! كان يشبه - إن ضربنا

الأقل مثلاً للأعظم - انفصام عرى التوافق فى الطبيعة

ونشوب الحرب بين كوكبات الأفلاك ! بل لكأنما

اندفع كوكبان من مواقع نذر السوء

والتعارض الضارى فى سمت السماء

فتقاتلا واصطكت أجسامهما فتفتتت !

ورفع كل منهما ذراعاً لا يكاد يدانيه ذراع فى قوته

وصوبه ليضرب ضربة واحدة توشك أن تهوى

فتنقضى فى الأمر - ضربة لا حاجة لتكرارها

بل لا يمكن تكرارها الآن ! لم يكن ثم ما يفرق فى الظاهر بينهما

لا فى الجبروت ولا فى التوقى الخاطف ، ولكن حسام

ميكائيل كان من أسلحة الله

وقد أوتي به بعد أن صُقل وثُقِف

فما يمتنع على حدّه صلبٌ أو حاد ! والتقى الحسام

بسيف إبليس ، وصكه بقوة

٣٢٥

وهو يهوى منقضاً فشق نصله شقين ! وما توقف

بل دار دورة مسرعة وأوغل فيه فشطو

جانبه الأيمن كُله ! وأحس إبليس لأول مرة بالألم ،

وأخذ يتلوى ويلتفّ ، إلى الأمام وإلى الخلف ، إذ ما أشد ألم

السيف البتار وهو يجرحه الجرح النافذ

٣٣٠

ويجوس في جسده ! ولكن مادته الأثرية التامت

ولم تلبث أن التحمت ، ومن الجرح

تدفق سيل من رحيق فياض

وردي - وهو ما تدمى به ملائكة السماء -

فلطخ دروعه جميعاً بعد أن كانت تبرق وهاجة !

٣٣٥

وعلى الفور أهرعت لإنقاذه من كل جانب

حشود الملائكة الأقوياء الذين تصدوا

للدفاع عنه ، بينما حمله آخرون على دروعهم

وعادوا به إلى عربته وكانت تقف بعيداً بمعزلٍ

عن صفوف المحاربين ، فوضعه فيها ، فأخذ

٣٤٠

يصر بأسنانه من بالغ الألم والحقد والعار

إذ تبين أنه ليس فريداً ، ورأى أن كبرياءه

قد امتهنت بهذا العقاب الذي زلزل

ثقته في أن يماثل الله في قوته

وسرعان ما برىء الجرح . إذ إن الملائكة التي تحيا حياة

٣٤٥

تنبض في كافة أعضائها ولا تقتصر مثل الإنسان الضعيف

على الأمعاء أو القلب أو الرأس أو الكبد أو الكليتين

لا تموت إلا إذا فنيت الفناء التام

ولا تصيب الجروح القاتلة كيائها السائل

إلا كما تصيب الجروحُ الهواءَ السَّيَال !

٣٥٠

فكيائها الحي كله قلب ، وكله رأس ، وكله عين ، وكله أذن ،

وكله ذهن ، وكله حس ، وهي تُغَيَّرُ كما تشاء

من أطرافها وتكتسب من اللون والشكل والحجم

ما تحب ، في كيان كثيف أو مخلخل !

وفي تلك الأثناء وقعت فعال أخرى تستحق

٣٥٥

الذكر ، إذ قاتل جبريل بجبروته

واخترقت ييارقه الضاربة الكتائب المتراصة حيث حشدها

الملك الأشرس (ملكوم) وحيث تحداه للنزال

بل وهدده بأن يجره مربوطاً إلى عجلات عربته ،

لا بل ولم يتورع عن المساس بقدسية واحد السماء الأحد

٣٦٠

ولم يكف عنه لسان زندقته ! ولكنه سرعان

٣٥٧

ما انشطر شطرين حتى الوسط ، وانكسرت أسلحته

وحلت به آلام عجيبة ففر وهو يجأ ويخور ! وعلى الجناحين

كان كل من (أوريل) و (روفائيل) قد قهر عدوه المتباهي

على ضخامته ورغم احتمائه بدرع من صخر الماس !

٣٦٥

لقد قهرا (أدرملك) و (أصمداي) وهما من ذوى

العروش الأقوياء الذين رفضوا مكانة أدنى من الأرباب

ولكن الفرار علمهما التواضع

بعد أن شوهتهما الجراح المفزعة النافذة من الدروع والزرود !

ولم ينس (عبديثيل) مهاجمة

٣٧٠

رھط العصاة ، فسدد ضرباته مضاعفة إلى

(آريثيل) و (أريوك) ، وجمع شراسة

(راميل) وحرقه فانقلب شر منقلب !

وليتنى أقص خبر الآلاف الآخرين فأخلد

أسماءهم هنا على الأرض ، ولكن أولئك الصفوة من

٣٧٥

الملائكة قانعون بذيوعها فى السماء

ولا ينشدون ثناء البشر . أما الصنف الآخر

فمع عجيب جبروتهم وألوان قتالهم ،

ومع أنهم لا يقلون حماساً وذيوعاً ، فقد قضى

ياقصائهم من السماء ومن الذاكرة القدسية -

٣٨٠

فليأووا إذن دون أسماء إلى بهمة النسيان !

فالقوة إذا انحرفت عن الحق والعدل

لم تعد جديرة بالثناء ، ولا تستحق إلا القدح

والعار ! إنها تطمح إلى المجد

بباطل الأمجاد وتنشد طيب الذكر بخيـث الفعال !

٣٨٥

فليكن صمت الأزل مصيرهم إذن !

وبعد إخماد أعتاهم ، تحول مسار الموقعة

فسالت الدماء من كثرة الهجمات ، ولاحت الهزيمة الشائـهة

والفوضى النكراء ، واكتست الأرض

بالدروع المحطمة ، وفي كومة واحدة

٣٩٠

أهيلت العربات المقلوبة ، وقوادها

والجياذ النارية التي ترغى وتزبد ! أما من وقفوا فقد تراجعوا

وسط حشود إبليس الواهية وقد هدَّهم الإعياء

وأعجزهم الدفاع ! أما حين يفاجئهم الخوف الشاحب -

فلأول مرة يفاجئهم الخوف ويحسون الألم -

٣٩٥

فهم يفرون فراراً شائئاً ! هذا سوء المصير الذي أتى به

إثم العصيان فما كانوا حتى تلك الساعة

٣٥٩

يعرفون الخوف ولا الفرار ولا الألم !

شتان بينهم وبين عصمة الأطهار الذين

كانوا يتقدمون جميعا فى كتيبة مكعبة ثابتى الخطى ،

٤٠٠

لا يمسهم سلاح ولا يُخترق لهم درع !

تلك هى المزايا الكبرى التى امتازوا بها - لطهرهم -

على أعدائهم : إذ إنهم لم يَأْثَمُوا

ولم يعصوا ! وهكذا ثبتوا فى القتال

لا يكل لهم كلال ، ولا يستشعرون ألم

٤٠٥

الجراح ، حتى ولو زُحزحوا من مكانهم عنوة !

أما الآن فقد بدأ الليل مسيرته فبسط على السماء

ظلمته ، وفرض على المحاربين هدنة رغبة

وصمتاً على جلبة الحرب البغيضة !

وتحت سدول سُحبه انسحب الجانبان -

٤١٠

الظافر منهما والمدحور . وعلى صعيد المعركة

كان ميكائيل وملائكته المنتصرون

قد ضربوا أطنابهم ، وأقاموا العسس حراسا حولهم ،

لهباً متماوجاً من ملائكة الشاروبيم ! أما فى الجانب الآخر

فقد اختفى إبليس مع أتباعه من العصاة

٤١٥

الذين انتقلوا إلى أقاصى الظلمة ، ولم يلبث هو ليستريح

بل دعا كبراءه إلى مجلس ليلي

ثم قام وسطهم غير هباب وطفق يقول :

أيها الصحاب المقربون ! لقد ابتليت ساعة الخطر

وعرفتم أن أسلحتكم لا غالب لها

٤٢٠

ورأيتم أنكم خليقون لا بالحرية فحسب -

إذ ما أهونها من مطلب ، بل بما نطمح إليه طموحاً أشد

ألا وهو الشرف والسيادة والمجد وذئوع الصيت !

لقد صمدنا يوماً واحداً في حرب سجال

(وإذا كنا قد صمدنا يوماً فلم لا نصمد أيام الأبد ؟)

٤٢٥

إن من أرسلهم رب السماء من أقوى الأقوياء

من حول العرش لينازلونا ، ومن رأى

أنهم يكفون لإخضاعنا لإرادته ،

قد أثبتوا خطله ! وإذن فيبدو أنه لن يكون معصوماً

في المستقبل ، ولنا أن نظنه كذلك وكنا حتى الآن

٤٣٠

نظنه بكل شيء عليمًا . والحق أن سلاحنا كان أضعف

فأضرنا وتحملنا الآلام

التي لم نعرفها من قبل ، ولكننا ما عرفناها حتى ازدريناها

فتحن نعرف الآن أن كيائنا السماوى

يستعصى على الجروح القاتلة

٤٣٥

ولا يفنى ! - وحتى لو أصيب إصابة نافذة

فسرعان ما تلتئم الجراحات وتبرئها قوتنا الأصيلة !

اعلموا إذن أن هذا الضرر التافه يسير

العلاج : فإذا أعتدنا لهم عتاداً أشدَّ

وسلاحاً أمضى فربما استطعنا فى لقائنا المقبل

٤٤٠

أن نعلى شأننا ونكسر أعداءنا

فتساوى فيما تفوقوا علينا فيه

إذ نحن فى طبيعتنا سواء . أما إذا كان ثم سبب خبيء

لتفوقهم فسوف نستطيع إذا حافظنا على

صحة أذهاننا وسلامة إدراكنا

٤٤٥

أن نكشف عنه بالبحث والتشاور اللازمين .

قال هذا وجلس . وقام من بعده فى المجلس

(نِسْرُوخ) وكان المقدم على جميع ذوى الأمارات .

وقف وقفة من فر من قتال شرس

فهو مكدودٌ مُوجَع ، وأسلحته المصدوعة محطمة مهشمة !

٤٥٠

وبوجه تعلوه غبرة ، شرع يجيبه قائلاً :

يا مخلصنا من السادة الجدد ! وقائد سعيينا

للتمتع بحقنا في حياة الربوبية الحرة ! إن هذا القتال عسير حتى

على الأرباب ، وما هم بأكفاء له ! فنحن

نقارع أسلحة لسنا أكفاء لها ، ونحس الألم

٤٥٥

ونحن ننازل من لا يحسون الألم ولا يعرفون المعاناة !

فالعاقبة هي شر الهلاك لا محالة ! ما جدوى

الشجاعة أو القوة - ونحن لا نُضَارِعُ فيهما - إذا أحمدها الألم

الذى يخضع كل شيء وتتخاذل معه أيدي

أقوى الأقوياء . إننا نستطيع الآن أن نستمتع

٤٦٠

بالحياة وألا نتذمر

بل نحيا حياة الرضى وهي أهدأ ألوان الحياة !

ولكن الألم هو ذروة الشقاء ، وأسوأ

ضروب الشر ، فإذا تخطى حدوده ،

انقطع حبل الصبر ! إن كان ثم من يستطيع أن يبتدع

٤٦٥

ما هو أشد قوة للهجوم

على أعدائنا الذين لم يَمَسَّسْهُمْ جرح حتي الآن ، أو للتسلح

به دفاعاً عن أنفسنا ، فهو يستحق في رأى

كل ما ندين به لمن يأتينا بالخلاص

وأجابه إبليس فى رباطة جأش قائلاً :

٤٧٠

إننى آتيكم بشيء مخترع ، وهو ما تعتقد محققاً
أنه بالغ الأهمية لنجاحنا .

إن من يبصر منا السطح البراق

لهذا الكيان الأثيرى الذى نقف عليه -

قارة السماء الرحيبة التى تزيناها

٤٧٥

النباتات والثمار وأزاهير الفردوس والجواهر والنضار -

سوف تقف عينه على ظاهر

هذه الأشياء فحسب ، ولن يدرك مكان منبتها

فى أعماق الثرى ، من مواد أولية مبهمة ،

من زيد الأبخرة والنار ! إنها إذا مستها

٤٨٠

أشعة السماء فأحكمت مزاجها ، نبتت فروعها

باهرة الحسن وتفتحت للضياء من حولها

لسوف إذن نستخرج هذه فى صورها الأولى البهائم

من أعماق الأرض وقد كمنت فيها نار الجحيم

ولسوف نضعها فى أنابيب مجوفة طويلة ومستديرة

٤٨٥

لها مدك غليظ ، فإذا مستها النار من فتحة أخرى

اشتعلت غضباً وتضخمت فأرسلت

على أعدائنا من بعيد ، فى جلبة كأنها الرعد ،

آلات دمار تمزقهم إربًا إربًا

وتطيح بكل ما يعترض سبيلها

حتى ليخال لهم فرقًا أننا انتزعنا

٤٩٠

من الراعد سهمه الأوحده الذى نخشاه !

ولن يطول عملنا فى صناعتها ، فقبل أن ييزغ الفجر

سيكون فى يدنا ما نبغيه . أما الآن فأفيقوا

واطرحوا مخاوفكم ! فإنه إذا اجتمعت القوة والرأى

٤٩٥

لم يعد ثمَّ صعب ، ولم يعد لليأس مكان !

وانتهى من حديثه فأبهجت كلماته نفوسهم الداوية

وأضاءتها ، وأحيت آمالهم الخاوية وأنعشتها

وحظى الاختراع بإعجاب الجميع ، وتعجب كل منهم

لأنه لم يكن المخترع ، فهو يبدو بالغ اليسر

٥٠٠

بعد أن وجد ، وإن كان معظمهم قبل اختراعه ليظنه

من المحال ! ولربما برز من أبناء جنسك (يا آدم)

فى قابل الأيام - إذا عمت الشحناء والبغضاء -

من يبغي إحداث الضرر ، أو من يستلهم

المكائد الشيطانية فيخترع

٥٠٥

آلة مشابهة فيبتل بها بنى البشر

لخطاياهم حين يصبح ديدنهم الحرب والاقتيال !

وعلى الفور انطلقوا من المجلس إلى العمل .

لم ينخرط أحد فى جدل ، بل كانت الأيدى التى لا تحصنى

على استعداد ، وفى لحظة قلبت

٥١٠

التربة السماوية وكشفت باطنها ، فأروا تحتها

عناصر الطبيعة فى صورها الأولى -

وجدوا زبد الكبريت وزبد النظرون

فمزجوهما ، وبفن الصنعة الدقيق ،

وبالحرارة والتجفيف ، أخرجوا منهما

٥١٥

مسحوقاً فاحم السواد ، نقلوه إلى المخازن .

ثم حفروا فاستخرجوا عروق المعادن والأحجار

الخبيثة (ولهذه الأرض أحشاء مشابهة)

ومنها صبوا أجزاء المدافع وكرات هى

قذائف الهلاك ! وأعد فريق منهم أعواد الثقاب

٥٢٠

التي تسرع بالاشتعال عند اللمس

وهكذا قبل انبلاج الفجر ، كانوا قد انتهوا تحت ستار الليل الساهر

من عملهم سرًا وتهيأوا وانتظموا

متوخين الحذر والصمت ، فلم يفتن إليهم أحد .

وعندما لاح نور الصبح الجميل فى السماء

٥٢٥ هب الملائكة المنتصرون من رقادهم ، ودعا إلى السلاح

نفير الصبح ، فحملوا السلاح

واتشعوا به كأنما تدرعوا بالذهب ! وسرعان ما التأم شمل

حشدٍ وضاء ، بينما أطل آخرون

من تلال المشرق ، وانتشر الكشافة خفاف السلاح فى كل أفق

٥٣٠ وكل بقعة لاستطلاع مكن العدو البعيد ،

ليروا إن كان مرابطًا أم لاذ بالفرار - وليروا إن كان يعتزم القتال

زحفًا أم ثباتًا . وسرعان ما وجدوه

يزحف عن كذب ناشرًا يبارقه ، فى كتيبة

بطيئة الخطو وثيقة العرى . وعندها نشر شراع سرعته

٥٣٥ (زوفيل) - أسرع ملائكة الشاروبيم جناحًا -

وعاد طائرًا يصيح عاليًا وسط الهواء قائلاً :

إلى السلاح أيها المحاربون ! إلى السلاح للقتال فالعدو قريب !

كنا نظنه قد فر ولكنه سيعفينا من طول الطراد اليوم !

لا تظنوه يفر ، إنى أراه يقترب مثل سحابة كثيفة

٥٤٠

وفى وجهه قسّمات

العزم الجاد وصلابة الثقة فليوثق كل منكم

زرده الصلب حول جسده ، وليحكم

وضع خوذته ، وليقبض بشدة على درعه المستدير

سواء كان يحمله عاليًا أو موازيًا لجسده ، فما سينهمر اليوم

٥٤٥

- إذا صح ظنى - ليس رذاذًا يسيرًا

بل شأبيب قعقاعة من السهام الشائكة بالنار !

وهكذا حذرهم وهم الخبراء وسرعان

ما انتظموا دون أدنى عائق ،

وفى عجلة ودون اضطراب تاهبوا للحرب

٥٥٠

ثم شرعوا فى التقدم وقد اتخذوا تشكيلات القتال ، وعندها لاح

العدو غير بعيد يزحف بخطى ثقيلة

ويقترب ضخماً هائل الجرم . كان يجر

مدافعه الشيطانية فى صورة مكعب أجوف تحيط به

من كل جانب فيالق رجراجة تُظَلِّلُهُ

٥٥٥

حتى تخفى الحيلة . ووقف الخصمان يتطلعان إلى بعضهما البعض

حيناً ثم ظهر إبليس على رأس الجيش

فجأة ، ورن صوته الأمر عاليًا يقول :

يا جنود الطليعة : افترقوا يميناً وشمالاً حتي تنفتح الجبهة

وحتى يرى كل من يبغضنا أننا ننشد

٥٦٠

السلم والاستقرار ، وأنا بقلب مفتوح -

مستعدون لاستقبالهم ، إذا راقى لهم

مبادرتنا ولم يعرضوا عنا معادين !

ولكنني أشك في ذلك فاشهدى يا سماء !

أيتها السماء اشهدى علينا ونحن نؤدى بعد قليل

٥٦٥

دورنا دون عائق ! وأنتم يا من تقفون مكتملى العدة

قوموا بواجبكم ، وأسرعوا بأداء

ما نعتزم ، وليكن عالى الصوت حتى يسمعه الجميع !

ولم يكذب يتهى من سخريته وكلماته الغامضة

حتى انشطرت الجبهة شطرين ، إلى اليمين وإلى الشمال ،

٥٧٠

وتراجع أجنادها إلى الجناحين

فتجلى لعيوننا مشهد جديد غريب :

أعمدة مصطفة فى طبقات ثلاث وقائمة

على عجالات (فقد بدت أشبه شىء بالأعمدة

أو بالكتل المجوفة من جذوع البلوط أو الشوح

٥٧٥

التي قطعت فروعها بعد أن اجتثت فى الغابات أو الجبال)

كانت مصنوعة من النحاس الأصفر والحديد والحجر ، وقد حولت
أفواهها عنا -

فُوهاتها الواسعة البشعة - كأنما

تنذر بصلح أجوف ، وخلف كل منها

وقف ملاك من الصاروفيم ، ممسكاً في يده عوداً

٥٨٠

يلوّح به وفي طرفه اللهب . ووقفنا نترقب

رابطى الجأش رغم حيرة أفكارنا

ولكن ذلك لم يطل إذ امتدت الأعواد جميعاً فجأة

إلى الأمام واقتربت من فتحة ضيقة

فمستها مساً رقيقاً . وعلى الفور بدت السماء كلها لهباً

٥٨٥

سرعان ما طمسه الدخان

الذى تجشأته تلك الآلات من حلوقها العميقة والزئير

الذى بقر بطن الهواء بجلبته الفاحشة

ومزق أحشاءه ! كانت تخرج من أفواهها أبشع

تخمة شيطانية : صواعق متصلة وبرد ،

٥٩٠

بل كرات حديدية تنهمل على الحشد الظافر

وتُصكّه صكاً شديداً

فإن أصابت أحداً لم يستطع الثبات على قدميه

ولا ظل صامداً كالصخر ! وهكذا تهاووا
 آفا مؤلفة ، واختلط على الأرض ملاكٌ بملاكٍ أكبر
 وأسرع بسقوطهم ثقل أسلحتهم ، فلو كانوا عَزَل
 لتفادوا الطلقات بيسر ، فهم أرواح قادرون
 على التقلص السريع أو الابتعاد ! أما الآن
 فقد بُعْثُوا شَرَّ مبعثر ، وهُزِمُوا رغم أنوفهم ،
 وما أغنى عنهم توسيع صفوفهم المحتشدة !
 ماذا عليهم أن يفعلوا ؟ إنهم إن عاودوا الهجوم فَرُدُّوا
 مرة ثانية ، وانكسروا انكساراً شائئاً
 كرة أخرى ، فلسوف يزداد احتقارهم
 ويصبحون أضحوكة لعدوهم ! إذ بدا لعيونهم
 صف آخر من ملائكة الصاروفيم واقفين
 فى وضع الاستعداد لإطلاق طلقة ثانية
 من الرعد ! ما أشد ما كرهوا أن يعاودوا للكرة
 فيردوا على أعقابهم ! ورأى إبليس ما هم فيه من بلاء
 فخطب رفاقه فى سخرية قائلاً :

أيها الأصدقاء ! لماذا لا ينقض علينا هؤلاء المتصرون المتكبرون ؟

كانوا ينقضون فى شراسة منذ برهة ، وعندما

رحبنا بهم ترحيباً حسناً ، بوجه صبور وقلب مفتوح ،
(وما عسانا نفعل أكثر من ذلك ؟) وعرضنا عليهم شروط

الصلح ، تبدلت آراؤهم على الفور

وطاروا ثم عادوا يتواثبون أغرب تواثب

٦١٥

كأنما يتراقصون ولكنها رقصة

بالغوا في حركاتها فبدت طليقة رعناء - ربما

من فرحتهم بالسلام الذى عرضناه عليهم ، ولكننى أظن أنهم

لو سمعوا مقترحاتنا مرة ثانية

فسوف تضطربهم إلى الإسراع بالصلح .

٦٢٠

وأجابه (بليعال) فى رنات مزاح مماثلة :

أيها القائد ! إن الشروط التى أرسلناها كانت من الأثقال ،

جوهرها صلب ، وقد شحنت بالقوة فبلغت غايتها ،

فأثارت انتباه الجميع كما رأينا

وأوقعت الكثيرين فى تخبط : أما من تلقاها صواباً

٦٢٥

فقد أدركها من ناصية رأسه إلى أخمص قدمه ،

وأما من لم يدركها - فإنها (وهذه مزية أخرى !)

قد بينت لنا متى يمشى أعداؤنا منقلبين !

وهكذا وقفوا يستهزئون فيما بينهم فى مرح وحبور

وقد طمحت أفكارهم فلم يعاودهم

٦٣٠

أى شك فى النصر وظنوا أن مجارة الجيروت الأزلى
بمخترعاتهم أمرٌ

بالغُ اليسر ، بل سخروا من رعه

وضحكوا من أجناده وقد وقفوا

هنيهة فى كد وعناد . ولكنهم لم يقفوا طويلاً

٦٣٥

إذ حفزهم الغضب آخر الأمر فوجدوا الأسلحة

القادرة على التصدى لذلك البلاء الجهنمى

وعلى الفور (وانظر أى امتياز وأى طاقة

بشها الله فى ملائكته الجبابرة)

طرحوا أسلحتهم ، وانطلقوا إلى التلال

٦٤٠

(وقد أخذت الأرض هذا التنوع من السماء -

فبثت مباحجها فى التلال والوديان !)

وفى خفة اللمح البارق عدوا وطاروا

فرزحوها عن قواعدها شداً ودفعاً وجذباً

واقتلعوا الجبال الرواسى بما حملت من

٦٤٥

صخور وأمواه وغايات قابضين على نواصيها الشعثاء

وحملوها عالياً فى أيديهم . واستولت الدهشة على العصاة

وثق في قولى - بل استولى الرعب على حشدهم

عندما رأوا هذا المشهد الرهيب يقترب منهم

مشهد قيعان الجبال التى قلبت رأساً على عقب

٦٥٠

حتى إذا ألقيت على آلاتهم الملعونة بطبقاتها الثلاث

رأوها تكتسح وتطمس ، ورأوا ثقتهم الكبيرة

تدفن معها فى الأعماق تحت ثقل الجبال !

ثم رأوا أنفسهم يُهاجمون بعد ذلك ، فعلى رؤوسهم

ألقيت رؤوس الجبال الصلدة التى أقبلت فى الهواء

٦٥٥

فألقت ظلها وأناخت بثقلها على كتائب مسلحة برمتها !

وقد زادت دروعهم من ضررهم إذ تكسرت عليهم فأصاب

كيانهم الحبيس فيها ، مما ألمهم ألماً

لا تخف وطأته ، وما أكثر أنات الألم المكتومة

التي حاولت النفاذ طويلاً من تحت الأثقال ، حتى استطاعوا الإفلات

٦٦٠

من ذلك السجن - مع أنهم ملائكة من النور النقى -

كانوا أنقياء أولاً - ولكن الإثم أغلظ كيانهم وكدره !

وأهرع سائرهم محاكين فامتشقوا أسلحة مماثلة

واقتلعوا التلال المجاورة !

وتلاقت التلال بالتلال فى الهواء

٦٦٥

وهى تُقذف إلى الأمام والوراء بقوة رهيبة

حتى لقد دار القتال على الأرض فى ظلها الكئيب !

كان الضجيج جهنمياً وإذا قورنت الحرب بهذا الصخب الصاخب

بدت لعبة مهذبة ! فالاختلاط المفزع يتكدر

فوق الاختلاط ويعلو ، والسماء تكاد

٦٧٠

أن تنفطر ويكاد الدمار أن يغشى كل شىء !

لولا أن الأب الجبار الذى يجلس

أماناً على كرسى العرش فى السماء

سأل عن مجرى الأمور ، وكان يعرف مقدماً

بوقوع هذه الجلبة ، بل أذن بوقوعها بعد تدبر

٦٧٥

حتى يحقق هدفه العظيم

وهو أن يشرف ابنه المسيح بالثار

من أعدائه ، وأن يعلن

إضفاء السلطة كاملةً عليه . ومن ثم خاطب ابنه

وشريك عرشه قائلاً :

٦٨٠

يا بهاء جلالى ! ابنى المحبوب ،

أيها الابن ! يا من تشاهد فى وجهه المحبوب

منزلتى الإلهية ،

وفى يده ما أقضى به فيفعل !

أيها القدير الثانى ! لقد انقضى يومان -

٦٨٥

يومان مما نعد فى السماء

منذ انطلق ميكائيل وقواته لترويض

أولئك العصاة . وقد كان القتال مريراً

كما عساه أن يكون عندما يلتقى مثل هذين الخصمين المسلحين

إذ إننى تركتهما يتقاتلان ، كما تعرف ،

٦٩٠

ولقد صورتهم متساوين فى الخلقة

إلا ما أفسدته الخطيئة ، ولو أنه فساد

غير ظاهر ، فلقد أنظرتهم إلى يوم معلوم .

ومن ثم فلا بد أن يظلوا فى اقتتال دائم

لا ينتهى ولا يجدون له حلاً

٦٩٥

لقد فعلت الحرب بمن أعيتهم كل ما تستطيع :

فأطلقت العنان لفوضى الغضب الجائح

إذ امتشق الجانبان السلاح والجبال معاً فأثاروا

الاضطراب فى السماء وتهددوا الكون بالخطر

لقد انقضى يومان ، والثالث لك

٧٠٠

لقد قضيت به لك ، وبهذا المدى

أذنت ، حتى يكون لك مجد

إنهاء هذه الحرب الكبرى ، فإنه لا يستطيع سواك

أن ينهيها . لقد بَشَّتُ فيك أشرف الفضائل

وأسبغت عليك أشرف النعم حتى يعرف الجميع

٧٠٥ في السماء وفي الجحيم قوتك التي لا مثيل لها ،

وحتى يستبين عندما تقضى على هذه القلقة الفاسقة

أنك أجدر وارث لكل شيء -

والأجدر بأن يكون الوريثَ والمَلِكَ الذي مسحت عليه

مسح القداسة - فهذا حقك الحقيقي بك

٧١٠ انطلق الآن إذن يا أقوى الأقوياء - بقوة أبيك فيك -

فاعتل عربتي ، وقُدْ العجلات المسرعة

التي تزلزل أسس السماء ، واثت بعدتي جميعاً -

بقوسى ورعدى ، وتمنطق بأسلحتى الجبارة

وشد السيف حول وسطك الأعتى

٧١٥ وطارد أبناء الظلام فأخرجهم

من تخوم السماء جميعاً وألق بهم فى الخضم المحيط .

واجعلهم يعرفون - وما أحراهم - كيف يزددرون

الله والمسيح - الملك الذى مُسَحَ عليه

قال ذلك ثم أرسل أشعته مباشرة على ابنه

وأشرق عليه كل الإشراق ، حتي تلقى ضياء أبيه الساطع كله
وأنار وجهه بنور يجل عن الوصف .

ثم أجاب الرب الابن أباه قائلاً :

يا أبى ! يا أرفع عرش فى السماء !

أنت الأول والأعلى والأقدس والأعظم ، دائماً تنشد

تمجيد ابنك ، ودائماً أنشد تمجيدك

وهو أعدل ما يكون . أما أنا فأحسب أن مجدى

ورفعتى بل وسعادتى الغامرة

هو أن تكون راضياً عنى كل الرضا ، فتعلن أن مشيئتك

قد نفذت ، فإن إنفاذها نعيمى الأنعم .

إننى أتقلد ما وهبتنى من صولجان وقوة

ولسوف أعيدهما إليك فى سعادة أكبر ، ولن يبقى فى النهاية

إلا وجهك ، وسأحيا فيك

إلى الأبد ، ويحيا فى كل من تحبهم .

أما من تمقتهم فأمقتهم ، وأستطيع أن أتسلح

بأهوالك مثلما أتحدى بالطافك

فأنا صورتك فى كل شىء ، ولن يطول بى الوقت

حتى أتسلح بجبروتك فأخلص السماء من هؤلاء العصاة
وألقي بهم في مثنوى السوء الذى أعد لهم ،
فى أصفاد الظلام ، مع الدودة التى لا تموت ،

٧٤٠ إذ تمردوا على طاعتك وأنت الحقيق بها
بل إن طاعتك هى الهناء كل الهناء

وعندئذ سيقوم قديسوك وحدهم ، وقد فصل بينهم
وبين الخبيثاء ، فيطوفون بجبلك المقدس
ويسبحون لك أصدق التسابيح ، وينشدونك

٧٤٥ أرفع أناشيد الحمد والثناء ، وأنا على رأسهم .
قال هذا وانحنى على صولجانه ثم نهض
من مجلسه على يمين المجد والجلال
بينما بدأ ثالث صباح مقدس فى الإشراق

فانبج ضوء الفجر فى السماء وانطلقت بصوت العاصفة الدوامة
عربة الإله الأب ،

٧٥٠ تشع السنة لهب غليظة ، عجلاتها متداخلة لا يجرها أحد
فهى فى ذاتها نابضة بالروح ، يصاحبها

أربعة فى صورة الشاروبيم ، لكل منهم أربعة وجوه
عجيبة ، وأجسامهم وأجنحتهم

٧٥٥

لها عيون كأنها النجوم ، وأما العجلات فلها عيون
من زبرجد وفيما بينها تجرى النيران مسرعة !
وفوق رؤوسهم قبة سماء بلورية
فيها عرش من الياقوت الأزرق المرصع بالعنبر
الصافي وألوان قوس المطر !

٧٦٠

وأما هو فكان يرتدى درعاً سماوياً مدججاً
بصخر الأوريم البراق - درعاً صاغه الله - حين
صعد إلى العربة ، وجلس على يمينه "النصر"
بأجنحته العقابية ، وإلى جواره تدلى قوسه
وكنائته ذات السهام الراحدة الثلاثة

٧٦٥

ومن حوله دار زفيره الضارى وتكور -
دخانٌ ولهيبٌ متقد ، وشررٌ مستطير !
كان يرافقه عشرة آلاف ملاك
وهو يمضى قدماً مشرقاً على البعد .

كما شوهدت عشرون ألف عربة (وقد سمعت ذلك الرقم بنفسى)

٧٧٠

من عربات الله ، النصف يمينة والنصف يسرة !
ثم ارتقى أجنحة الشاروبيم فركب
السماء البلورية واعتلى عرش الياقوت الأزرق .

ومع أنه استبان للقاصي والداني فإن أتباعه

كانوا أول من رآه وفاجأهم فرح لم يتوقعوه

٧٧٥

حين التمع البيرق العظيم للمسيح

الذى حملته الملائكة عالياً - فهو ابنه فى السماء -

ومن ثم عاد ميكائيل إليه بجيشه ليقوده ،

موزعاً أجناده على الجناحين ،

ففى ظل رئيسهم تجسد الكل فى واحد .

٧٨٠

وقد مهدت القوة الإلهية الطريق من أمامه

فبأمره عاد كل تل من التلال المقتلعة

إلى مكانه حين أصغت لصوته

فأطاعت ، وعاد للسماء وجهها المعتاد

وابتسمت التلال والوديان بزهيرات غضة .

٧٨٥

ورأى أعداؤه التعساء هذا ولكن قست قلوبهم

فجمعوا قواتهم لقتال عاص

أحمق ، إذ أنجب اليأس فيهم أملاً !

أنى لأرواح السماء بمثل هذا الفسوق ؟

وهل تجدى الآيات فى إقناع المستكبرين

٧٩٠

أو تلين المعجزات قلوب القساة ؟

٣٨١

لقد زاد غلظته ما كان حرياً بإصلاحه

فلقد حزن لمرأى مجده ، وأثار المشهد

حسده فطمح أن يعلو علوه ،

فاتخذ عدة الحرب ثانياً في ضراوة ظاناً أنه بالقوة أو بالحيلة

٧٩٥

سوف يفلح آخر الأمر وينتصر

على الله والمسيح ، أو أن يقع

في هوة الهلاك التام في النهاية . وهكذا

تأهب للمعركة النهائية مستنكفاً أن يهرب

أو يتراجع تراجع الجبناء . وهنا اتجه ابن الله العظيم

٨٠٠

إلى كافة أجناده على الجانبين فخطبهم قائلاً :

قفوا ساكنين في صفوفكم البراقة أيها الأطهار ! قفوا هنا

أيها الملائكة المدججون ، واستريحوا اليوم من القتال ،

لقد صدقتم النية في حربكم ، ولقد تقبلها الله ،

ولقد أبديتم بسالة في سبيله - سبيل الحق -

٨٠٥

ولقد كلتم لهم من الضربات قدر ما تلقيتم

فلم تهزموا ! ولكن عقاب هذا الرهط اللعين

قد وُكِّلَ به أيد أخرى

فالإنتقام من شأنه هو ، أو من شأن من يكلفه به وحده .

ولقد قضى ألا يكون للأعداد نصيب فى عمل اليوم

٨١٠

ولا للحشود - حسبكم أن تقفوا وتشهدوا

كيف أصبُّ حق الله على هؤلاء الكفار

فهم لا يزدرونكم بل يزدروننى أنا -

مع حسدهم لى ! ومبعث غيظهم

أن الأب فى السموات العلى

٨١٥

وله الملك والقوة والمجد

قد قضت إرادته بتشريفى

وتكليفى بالقضاء عليهم -

وتحقيق رغبتهم فى منازلتى فى

ميدان القتال ليروا من منا الأقوى : جمعهم وحشدهم

٨٢٠

أم أنا وحدى ؟ ذلك بأنهم يتخذون من القوة

معياراً لكل شىء ، ولا يطمحون فى امتياز سواها

ولا يكثرثون إذا امتاز عليهم أحد فى غيرها

لا بل ولن أقبل سوى هذا النزال معهم !

وفرغ الابن من حديثه وقد اكتسى بالرعب والرهبه

٨٢٥

وجهه فهو لا يرى لقسوته وهوله

ثم انقض على أعدائه فى سورة غضبه .

٣٨٣

وعلى الفور نشر الأربعة أجنحتهم المُرصعة بالنجوم
فالتصقت وألقت ظلها المفزع ، ودارت عجلات
عربته الضارية ، فكان لها هدير كهدير

٨٣٠

سيل عرم أو جحفل عرمم

وزحف كراً على أعدائه الفسقة

مُدَّ لهما كالليل ! وتحت عجلاته الملتهبة

زُلزِلَتْ جنبات السماء الثابتة قاطبة

فيما عدا عرش الله . وسرعان

٨٣٥

ما حل بينهم . كانت يده اليمنى

تقبض على عشرة آلاف سهم راعدٍ أرسلها عليهم

قبله فقذفت في نفوسهم

الطاعون ، فذهلوا وفقدوا الطاقة على المقاومة

وذهبت شجاعتهم ، وألقوا أسلحتهم العاطلة !

٨٤٠

ووطأت عربته الدروع والخوذ ، والرؤوس ذات الخوذ -

رؤوس أصحاب العروش وجبابرة الصاروفيم المنكفئين

على وجوههم يودون لو أن الجبال

تلقى عليهم فتحميمهم من سخطه !

كما انهمرت كالعاصفة على الجانبين

٨٤٥

سهامه ، من أيدي الأربعة - وكان لكل منهم وجوه أربعة

محلاة بالعيون - ومن العجلات الحية

وهي محلاة أيضاً بكثير من العيون ،

تحكمها جميعاً روح واحدة ، وتوهجت كل عين

وومضت برقاً وأرسلت شواظ نارها الفتاكة

٨٥٠

بين الملعونين ، فأذهبت ريحهم

وجردتهم من مألوف قوتهم ، فهم

منهكون خائرون منكوبون خامسون !

ولم يكن قد أرسل عليهم نصف قوته ، بل إنه أوقف

سهمه الراعد أثناء انطلاقه إليهم - ذلك أنه لا يريد

٨٥٥

أن يهلكهم ، بل أن يخرجهم جميعاً من السماء .

ثم أنهض أولئك المنقلبين وجمعهم مثل قطع

من الأمعز أو رغيل من الماشية الفرزة

فساقهم أمامه ذاهلين صعقين ، ولاحقهم

بألوان الرعب والنقمة إلى تخوم السماء

٨٦٠

وجدارها البلورى . وانفتح شق فى الجدار

دار جانباه إلى الداخل فتجلت طاقة واسعة تطل

على خضم الخواء ! ودفعهم المشهد البشع

بأهواله إلى التراجع ، ولكن ما هو أنكى وأمر كان

يدفعهم من الخلف ! فآلقوا بأنفسهم من حلق ،

٨٦٥

منقلين من حافة السماء والغضب السرمدي

لهيب يثر في أعقابهم حتى حطوا في حفرة مالها من قرار

وسمعت الجحيمُ الصخبَ الذي لا يُحتمل ، ورأت الجحيم

سما تسقط من السماء فكادت تفر

في هلع . ولكن القضاء الصارم كان قد أرسى عميق

٨٧٠

أساسها البهيم ، وثبتها ثباتًا لا يتزعزع

وظلوا يتهاوون أيامًا تسعة ، بينما ارتفع زئير العماء الذي ارتبك

واضطرب وتضاعفت بلبلته عشرة أضعاف وهم يمرون

من خلال فوضاه الموحشة ، فإن هذا الحشد الهائل من المدحورين

قد أثقلوه بالهلاك : ولكن الجحيم - آخر الأمر -

٨٧٥

فغرت فاها فازدردتهم جميعا ، ثم أقفلته عليهم !

تلك الجحيم مأواهم الحق المحملة بنيران

لا ينطفئ أوارها - دار الألم والعذاب !

وفرحت السماء إذ تخففت من أثقالها ، وسرعان ما أصلحت

الشق الذي انفتح في جدارها ، فدار جانباه إلى مكانهما الأول .

٨٨٠

وبعد أن ظفر بالنصر وحده ونبذ أعداءه

أدار المسيح عربة انتصاره وعاد بها

حتى يلاقيه جميع قديسيه الذين كانوا يقفون فى صمت ،

وهم يشهدون بعيونهم فعالة الجبارة ،

فتقدموا الآن منه صائحين فى فرح ، وأثناء سيرهم

تظللهم أغصان النخيل ، كانت كل طبقة

تنشد أهاريح النصر ، وتتغنى بالملك المنتصر

الابن والوارث والرب الذى وهبت له السيادة

فهو أجدر الحاكمين . وركب المحتفى به

ظافراً ثبج السماء فدخل ساحات

أبيه القهار ومعبده حيث يجلس على العرش

عالياً : وتلقاه بالمجد وأجلسه

حيث يجلس الآن - على اليد اليمنى للنعيم .

وهكذا شبهت ما فى السماء بما فى الأرض

كما طلبت منى ، وحتى تلزم الحذر إذا أحطت

بما حدث فى الماضى ، كشفت لك

عما كان يمكن أن يظل خافياً عن الجنس البشرى :

عن الشقاق الذى وقع والقتال فى السماء

بين قوات الملائكة ، والدرك الأسفل الذى هوى فيه

من زاد طموحهم عن الحد - فتمردوا -

٩٠٠

مع إبليس - ذاك الذى يغبطك اليوم مكانتك

ويدبر مكائده الآن لإغوائك

حتى تخرج عن الطاعة ، وحتى تُحرم الهناء

مثلما حُرِّم وتشاركه

عقابه وشقاءه الأبدى !

٩٠٥

لن يزيد سلوانه وانتقامه على ذلك :

فنقمة منه وحقدًا على الأعلى

يريدك أن تكون رفيقًا له فى بلائه .

ولكن لا تصغ إلى غوايته ، وحذر من هـى

أضعف منك . وانتفع بما سمعته

٩١٠

عن التنكيل بالعاصى وجزاء

العصيان : كان يمكن أن يثبتوا

ولكنهم سقطوا - اذكر ذلك واخش الإثم .

الكتاب السابع

الموضوع

روفاثيل يجيب آدم إلى طلبه فيقص عليه كيف خُلق هذا العالم وأسباب خلقه الأول ، قائلاً إن الله قد أعرب عن رغبته ، بعد طرد إبليس وزمرته من الشياطين من الجنة ، في خلق عالم جديد ومخلوقات أخرى تسكنه ، ويرسل كلمة منه مكلّلة بالمجد ، تحفُّ بها الملائكة ، لإنجاز مهمة الخلق في ستة أيام ، ويحتفل الملائكة ، بأناشيدهم ، بإنجاز ذلك العمل ، ثم تصعد الكلمة من جديد إلى السماء .

اهْبِطِي مِنَ السَّمَاءِ يَا "يُورَانِيَا" ! إِنْ كَانَ ذَلِكَ الْاسْمُ حَقًّا
اسْمُكَ الَّذِي تُدْعَيْنَ بِهِ ! فَصَوْتُكَ الْمُقَدَّسُ

قَدْ حَدَّثَانِي فَانْطَلَقْتُ طَائِرًا إِلَى ذُرَا "الْأُولِيمْب"

وَاجْتَرَزْتُ آفَاقَ الْجَوَادِ الطَّائِرِ !

إِنِّي أَدْعُو الْمَعَانِيَ لَا حُرُوفَ الْاسْمِ

فَلَسْتُ مِنْ رَبَّاتِ تِلْكَمُ الْفُنُونِ التَّسْعِ ، وَلَسْتُ تَقْطَنِينَ

قمة "الأوليمب" ذى الأمجاد من قديم ، بل قد وُلدتِ فى السماء
من قبل أن تُلقَى الرواسى أو تُشقَّ الأنهرُ الدفَّاقة ،
وصَحِبَتْ فى صباكِ الحكمة المُخلَّدة

١٠ فالحكمة كانت أختك ، معها لهُوتِ لدى عزيزٍ مُقتدرٍ
إذ سرَّه الذى أنشدتِ من أهاريج السماء !
إنى اتبعتك فأنطلقتُ أشقُّ أجوارَ الفضاءِ
مُجَارِفًا نحو السماواتِ العلى

١٥ ضيقًا من الأرضين أنفاسى من الملكوتِ
قد خففتِ وطأتها على ! وكذاك قد أرشدتني
عند الهبوطِ بمأمنٍ فى موطنى

كى لا أظلَّ طائرًا على جوادى دونَ لجامٍ أو أقعُ
(مثل الذى لاقاه "بيلروفون" رغم الموقع الأقل)
فربما إذا زللتُ تهتُ فى أرضِ الضياعِ

٢٠ حائرًا وقد تقطعتْ بى الأسبابُ وانتفى الأملُ !
أنشودتى ما زالَ نصفُها بلا نغمٍ ، لكنها أدنى نطاقًا
إذ لن تُجاوزَ المرئى من نهارنا الأرضى !

إنى وقفتُ الآنَ فوقَ الأرضِ ناجيًا من نشوة القطبِ العصى
مُسْتَظِلًّا بالمزيدِ من الأمانِ

٢٥

وتفيضُ من شفتيَّ أصواتُ البشرِ
 ما مَسَّهَا سوءٌ وما بُحَّتْ وما صَمَّتْ
 مع أننى قد جِئْتُ فى أيامٍ شرٍّ مستطيرِ ،
 أيامٌ شرٌّ قد نزلتُ بها والسنةُ شرورُ
 فظلامٌ عَيْنِي والْحُتُوفُ تحيقُ بى فى عزَلتى
 لكننى لستُ وحيداً ، ما دمتِ زائرتى التى
 تاتى مع الأحلام فى الليل البهيمِ ، أو إن خَضَبَ الصباحُ
 أفقَ الشرقِ أرجواناً ! أمسكى بزمامِ أغنيتى دوماً .

٣٠

يا "يورانيا" ! ولتأتني بالسامعين الصالحين وإن غَدُوا فئةً قليلة
 أبعدى عني نِشازَ الصخبِ والوحشية ،
 أنغامَ باخوسِ إلهِ الخمرِ والندماء ،
 تلكَ السلالةُ من سكارى الضجَّةِ الهوجاء
 تلك التى سَفَكَتْ حياةَ الشاعرِ المرموقِ فى "تيراكيا"

٣٥

من أطربَ الغاباتِ والأحجارَ فى "رودوبيا"
 لكنَّ تلكَ الضجَّةَ الوحشيةَ التى علَّتْ
 طَمَسَتْ رنينَ القيثارةِ وصوتَ البشرية
 والرَّبةَ عاجزةً عن إنقاذِ فتاها !

لا تَحْذُكِي مَنْ مَدَّ كَفًّا لِلضَّرَاعَةِ والدَّعَاءِ ،

- فَأَنْتِ مِنْ قَبَسِ السَّمَاءِ وَتِلْكَ حُلْمٌ مِنْ خَوَاءِ !
- ٤٠ خَبَّرْنِي أَيْتَهَا الرِّبَّةُ ! مَاذَا وَقَعَ بَعْدَ أَنْ حَذَّرَ "رُوفَائِيلُ"
(ذَلِكَ الْمَلَكُ الْأَكْبَرُ الْبَشُوشُ) آدَمَ مِنَ الْعَصِيَانِ ، ضَارِبًا لَهُ
الْمَثَلَ الرَّهِيبَ مِمَّا وَقَعَ فِي السَّمَاءِ لِأُولَئِكَ الْعَصَاةِ
- ٤٥ خَشْيَةً أَنْ يُلَاقِيَ آدَمُ أَوْ تُلَاقِيَ ذُرِّيَّتُهُ فِي الْفَرْدُوسِ الْمَصِيرِ نَفْسَهُ
بَعْدَ أَنْ أُمِرَ بِالْأَلَّا يَقْرَبَ الشَّجَرَةَ الْمَحْرَمَةَ
بَغْيًا وَعَدْوَانًا أَوْ اسْتِخْفَافًا بِذَلِكَ الْأَمْرِ الْأَوْحَدِ
فَمَا أَيْسَرَ الْانْصِياعَ لِلْأَمْرِ وَهَنَاكَ مَا يُخْتَارُ
مِنْ كُلِّ مِذَاقٍ آخَرَ قَادِرٍ عَلَى إِرْضَاءِ الشَّهْيَةِ ،
٥٠ عَلَى شَطَحَاتِهَا ! كَانَ آدَمُ مَعَ رَوْجَتِهِ حَوَاءَ
قَدْ أَصْبَاخَا السَّمْعَ لِلْقِصَّةِ ، وَأَفْغَمَتْ نَفُوسَهُمَا
الْدَّهْشَةَ ، وَالتَّأْمَلَ الْعَمِيقُ عِنْدَ الْإِسْتِمَاعِ
لِهَذِهِ الْأُمُورِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، أُمُورٌ يَسْتَعْصِي عَلَى إِدْرَاكِهَا
تَصَوُّرُهَا ، كَالْبَغْضَاءِ فِي السَّمَاءِ
٥٥ وَالْقِتَالِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ سَلَامِ اللَّهِ فِي النِّعَمِ
وَذِيَاكَ الْخِلْطِ الْمَخْتَلَطِ ! وَلَكِنْ سُرْعَانِ مَا انْهَزَمَ الشَّرُّ
وَارْتَدَّ إِلَى نَحْوِ الْأَشْرَارِ مِثْلَ النَّهْرِ الْمُرْتَدِّ إِلَى مَنَابِعِهِ ،
فَمِنْ الْمَحَالِّ امْتِزَاجُهُ بِالْخَيْرِ . وَهَكَذَا سُرْعَانِ مَا قَهَرَ آدَمُ

٦٠

الشكوك التي كانت نشبت في قلبه ، وغدا الآن

مدفوعاً ، دون أن يُذنب ، بالرغبة في معرفة

ما قد يشغل باله عن قريب ، ألا وهو كيف نشأ

هذا العالم المرئى بأرضه وسمائه أول مرة ،

ومتى خُلق ، ومِمَّ خُلق ، ولأى سببٍ من الأسباب ،

٦٥

وماذا حدث داخل جنات عدن أو خارجها

قبل عهده بالذاكرة ، مثل شخصٍ ما كاد يطفى غُلتُهُ

حتى عاد يتطلّع إلى النهر الجارى

إذ ألْهَبَتْ تَمَتَاتُهُ السَّائِلَةُ عَطَشَهُ من جديد ،

وهكذا انطلق يتحدث فيُلقي سؤاله على ضيفه القادم من السماء :

٧٠

ما أعظم ما كَشَفْتَ النِّقَابَ عنه فأفعم آذاننا بالدهشة !

وما أشدَّ اختلافه عن هذا العالم ،

يا أيها الشارحُ الربّاني ، المرسلُ من السماء برحمةٍ من الله

نذيراً لنا قبل فوات الأوان ، مما كان من شأنه

أن يتسبب في ضياعنا وهلاكنا

٧٥

لو جهلناه ، ومما يعجز عِلْمُ الإنسان عن إدراكه

ونحن لذلك ندينُ لرب الخير اللامحدود

بشكرٍ سرمدى ، ونتلقى أوامره

برغبة صادقة في الانصياع

لإرادته العليا ، فتلك غاية

٨٠

وجودنا ، ولكنك ما دمت قد تعهدت

وتلطفت بإرشادنا ، فأطلعتنا

على ما يتجاوز الفكر الأرضي ، وإن كان من المهم

أن نحيط به ، حسبما رأى رب الحكمة العليا .

فأرجو أن تتكرم بأن تهبط الآن درجة أخرى فتقص علينا

٨٥

ما قد يفيدنا ، إن أحطنا به ، فائدة لا تقل عن ذلك

ألا وهو كيف نشأت أولاً هذه السماء التي نراها

سامقة قصية ، مزينة بمصابيح تجرى في أفلاكها

ولا حصر لها ، وهذا الهواء الذي يغشى أو يملأ

الفضاء كله ، هذا الهواء الذي يحيط بنا ويتخلل كل شيء

٩٠

ويحتضن هذه الأرض المزهرة ويلفها ، وما السبب

الذي حدا بالخالق في كرسيه المقدس ،

القيوم السرمدي ، إلى البناء والتشييد

في لجة العماء ، وما الزمن الذي استغرقه العمل من البداية

للهاية ، إذا لم يكن قد حرم عليك أن تكشف

٩٥

لنا ما نسأل عنه ، لا لنسبر الأغوار والأسرار

فى هذا المُلْكِ الأَزْكَى ، بل لِتَزِيدَ من تعظيم
أعماله وتمجيدِها ، إذا زادت معرفتنا بها ،
ولمّا يقطع الكوكبُ الدُّرى الذى يُضِيُّ لنا النهارَ
شوطاً طويلاً من رحلته الشاهقة مُعلّقاً فى جوِّ السماء
ما يُمنِسُكُهُ إلا صَوْتُكَ ، فهو يسمعُ صَوْتُكَ الجَبَّارَ
وسوف يتباطؤُ ويمكثُ حتى يسمعَكَ وأنت تحكى
قصةَ تكوينه ونشأة الطبيعة ومولدها

من رَحِمِ المحيطِ الخفى البهيم

أما إذا أُهرِعَ نجمُ المساء مع القمر

وأسرعا للاستماع إليك فسوف يأتى الليل معه

بالصمت ، وسوف يُنصِتُ النومُ إليك فيصبيه الأرق ،

والأطلبنا منه أن يغربَ حتى تنتهى أنشودتك

وبختامها تنصرفُ من هنا قبلَ مَطْلَعِ الفجر .

وهكذا اختتم آدم مَطْلَبَهُ من ضيفه النَّابِه

فشرع الملاك الربانى يعجبه بنبرات لطيفة قائلاً

أوتيت سُؤْلَكَ يا آدم ! وعلى الحذرِ الذى أبدَيْتَهُ ،

سوف أجيبُكَ ، وإن كان الحديثُ عن أعمالِ الجَبَّارِ شاقاً عسيراً

فأيةُ كلماتٍ وأيةُ ألسنةٍ لملائكة الصاروفيم تقوى عليه

- وأي قلب من قلوب البشر يقوى على إدراكه ؟
- ١١٥ أما ما تقوى على الإحاطة به ، وهو أقدر ما يُعِينُكَ
على تمجيد الخالق وتعظيمه ، وما يَزِيدُ
من سعادتك أيضاً ، فلن يُحَرِّمَ منه
مَسْمَعُكَ ، فذاك هو التكليفُ الذي جاءني من علي
وتلقيته ، ألا وهو أن أُشَبِّحَ رَغْبَتَكَ
إلى المعرفة في حدود مرسومَةٍ ، فلا تَقْفُ ما بَعْدَهَا
١٢٠ ولا تَسْلُ عنه ، ولا تَدَعِ المنطقَ البشريَّ يغريك بمعرفة
ما لم يُتَزَلْ ، فالمَلِكُ الذي لا تدركه الأبصارُ ،
والذي أحاطَ بكل شيء عِلْماً وَحْدَهُ ، يطمسُ ذلك في ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ
وليس لأحد أن يَطَّلِعَ عليه في الأرض ولا في السماء ،
١٢٥ تاركاً لنا كِفَايَتَنَا من سوى ذلك ، مما نستطيع أن نَنشُدَهُ ونَعْرِفَهُ .
ولكن المعرفة مثل الطعام ، وهي تحتاجُ أيضاً إلى
الاعتدال في الطلب لا إلى الشهيةِ النَّهْمَةِ ، أي أن يُحِيطَ
الإنسانُ بما يستطيعُ الذهنُ أن يستوعبه دون إفراطٍ
وإلا أُصِيبَ بالتَّخَمَةِ ، وسرعان ما يُحِيلُ
الحكمة إلى حماقة ، مثلما يتحولُ الغداءُ إلى رِيحٍ .
١٣٠ اعْلَمْ إذن ما حدثَ بعد خروج "لوسيفر" من الجنة

(وهذا هو اسمه القديم ، إذ كان يُشعُّ ذات يوم ضياءه وَسَطَ حَشْدِ

الملائكة ، فيفوقُ نورَ نَجْمِ الصَّبَاحِ بين النجوم)

وبعد أن سقط مع كتائبه التي جَلَّلَتْهَا ألسنةُ اللهبِ خلالَ المحيطِ

١٣٥

في مكانه ، وبعد أن عاد المسيحُ العظيمُ

متنصراً مع الملائكة الأبرار ، نظرَ العلىُّ القديرُ ،

العَدْلُ السرمديُّ ، من عرشه فشاهد

حَشْدَهُمْ ، ومن ثم خاطبَ المسيحَ قائلاً :

لقد اندحر عَدُوُّنا الحسودُ على الأقل ، وكان يظن

١٤٠

أن الجميعَ مثله من العصاة ، وأنه قادرٌ بمعونتهم

على انتزاعِ هذا الجبروتِ الرفيعِ المنيعِ ، وعرشِ

الربِّ الأعلى ، فيتزعَّ مُلْكَنَا ،

بل كان يأملُ ذلكَ فأوقعَ في الخيانةِ

الكثيرين حتى أصبحَ مكانُهم القديمُ هنا يُنكرُهُم .

١٤٥

ولو أنني أرى أن الغاليةَ العُظْمَى قد استمَسَكَتْ

بمكانتها ، وأنَّ الجنةَ ما زالت عامرة ، تَزُخَرُ

بأعدادٍ تكفي للحفاظ على أصقاعها ،

على اتساعها ، وللتردّد على هذا المعبدِ الرفيعِ

للتسبيح كما ينبغي بآياتِ الحمدِ وأداءِ الشعائرِ في خشوع .

١٥٠

ولثلاً يسمو به إحساسه بالضّرر
الذى أحدثه ، بأن أخلى الجنة من سكّانها
فى توهّمه السقيم الذى يصرّ له الإضرار بى ، فسوف أصلح
الضرر ، لو كان الضرر أن يخسر الكائن
ذاته بذاته ، وسوف أخلق فى لحظة واحدة

١٥٥

عالمًا آخر ، ومن إنسان واحد ذرية
من البشر لا تحصى ، فتقيم هناك ،
لا هنا ، ثم ترقى فى درجات الرّفعة بالعمل الصالح
فتفتح لنفسها آخر الأمر الطريق

١٦٠

الصاعد إلى هنا ، بعد النجاح فى امتحان الطاعة الطويل ،
فتحول الأرض إلى سماء ، والسماء إلى أرض ،
مملكة واحدة ، فرح ووحدة بلا نهاية
والآن انتشروا يا قوّى السماء يا ملائكتى ،
وأنت يا كلمتى ، أيّها المسيح ! بكلمة منى
هى أنت سوف أنجز العمل قائلاً كن فىكون !

١٦٥

وها هو الروح والجبروت من عندى يُظِلُّ كُلَّ شَيْءٍ
وها أنذا أرسله مع كلمتى ! انطلق فوراً ! مرّ ماء المحيط
داخل الحدود المرسومة أن يُصبح الأرض والسماء ،

وَأَنْ يَظَلُّ مَاءُ الْمَحِيطِ بِلاَ حُدُودٍ ، فَأَنَا الَّذِي أَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَأَغْشِي
الْأَرْضَ ، حَتَّى مَا يَعْرِفُ أَيُّ مَكَانٍ مَعْنَى الْخَوَاءِ ،
وَلَوْ أَنَّنِي ، أَنَا غَيْرُ الْمَحْدُودِ ، أُحْتَجَبُ

١٧٠

وَلَا أَفْرَضُ الْخَيْرَ مِنْ نَفْسِي عَلَى أَحَدٍ ، بَلْ أَقْضِي بِحَرِيَّةِ الْخَيْرِ
فِعْلاً أَوْ تَقَاعُصًا ، وَمَا أَشَاؤُهُ هُوَ الْقَدَرُ .

هَكَذَا تَكَلَّمَ ذُو الْجَبُرُوتِ ، وَمَا تَكَلَّمَ بِهِ
أَنْفَذَتْهُ كَلِمَتُهُ عَلَى الْقَوَرِ ، وَالْمَسِيحُ كَلِمَةٌ مِنْهُ ،
فَأَفْعَالُ اللَّهِ قَوْرِيَّةٌ ، أَسْرَعُ مَضَاءً

١٧٥

مِنَ الزَّمَنِ أَوْ الْحَرَكَةِ ، وَلَكِنْ آذَانَ الْبَشَرِ

لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَلَقَّاهَا دُونَ الْحَدِيثِ وَالرَّوَايَةِ ،

وَمَا الْحَدِيثُ السَّائِرُ إِلَّا مَا يُلَاقِي الْفِكْرَ الْأَرْضِي .

١٨٠

وَطَرِبُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى طَرِبَ الْفَرَحَةِ وَالنَّصْرِ الْعَظِيمِ

عِنْدَمَا سَمِعُوا أَنَّ هَذِهِ مَشِيئَةُ ذِي الْجَبُرُوتِ الَّتِي أَعْلَنَهَا ،

فَسَبَّحُوا بِاسْمِ الْأَعْلَى وَأَنْشَدُوا ، دَاعِينَ بِالْخَيْرِ

لِلْبَشَرِيَّةِ الْمُقْبِلَةِ ، وَيَا لَسَلَّمَ لَهُمْ فِي مَغَانِيهِمْ .

فَسَبَّحَانَ مِنْ غَضَبٍ فَجَاءَ انتِقَامُهُ جَزَاءً وَفَاقًا

وَلَفَظَ مِنْ غَضَبٍ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَسَقَةِ فَاخْتَفَوْا

وَعَادَرُوا دِيَارَ الْعُدُولِ ؛ فَسَبَّحَانَهُ

سُبْحَانَهُ وَالْحَمْدُ لَهُ ، إِذْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ

أَنْ يَخْلُقَ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ ، وَأَنْ يَأْتِيَ بِدَلَالٍ

مِنَ الْأَرْوَاحِ الْخَبِيثَةِ بِجِنْسٍ أَرْقَى لِيَشْغَلَ

الْمَكَانَ الَّذِي أُخْرِجُوا مِنْهُ ، وَهَكَذَا يَنْشُرُ

خَيْرَهُ إِلَى عَوَالِمَ وَعُصُورٍ لَا نِهَآيَةَ لَهَا .

وَبِهَذَا أُنْشِدَتْ طَبَقَاتُ الْمَلَائِكَةِ ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ

ظَهَرَ الْحَرْفُ الْمَنْوُوطُ بِهِ تَحْقِيقُ الْإِنْجَازِ الْعَظِيمِ

مَحْفُوفًا بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، مُكَلَّلًا بِالسَّنَى وَالسَّنَاءِ

وَبِالْجَلَالِ الْإِلَهِيِّ ، وَبِالْحِكْمَةِ ، وَبِالْحُبِّ

الْغَامِرِ ، وَسَطَعَتْ فِي الْحَرْفِ أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَى جَمِيعًا .

وَفِي رِكَابِهِ تَدَفَّقَتْ أَعْدَادٌ لَا تُحْصَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مِنَ الشَّارُوبِيمِ وَالصَّارُوفِيمِ ، وَمِنَ ذَوِي الْقُوَى وَذَوِي الْعُرُوشِ

وَمِنَ ذَوِي الْفَضَائِلِ ، وَمِنَ الْأَرْوَاحِ الْمُجَنَّةِ ، وَالْعَرَبَاتِ الْمَجْنَحَةِ

مِنَ خَزَائِنِ اللَّهِ ، حَيْثُ انْتَضَمَتْ مِنْذُ الْأَزْلِ

آلَافٌ مُؤَلَّفَةٌ فِي مَآزِمٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ مِنَ النُّحَاسِ ، وَاقِفَةٌ

فِي انْتِظَارِ يَوْمٍ مَشْهُودٍ ، قَرِيبَةٍ وَمُدْجَّجَةٍ ،

فَهِيَ حَاشِيَةُ السَّمَاءِ ، وَتَقَدَّمَتْ الْآنَ

تَلْقَائِيًا ، إِذْ كَانَتْ الرُّوحُ الْحَيَّةُ فِيهَا

٢٠٥

يَقْظَةً تَنْتَظِرُ إِشَارَةَ مَوْلَاهَا ، وَفَتَحَتْ السَّمَاءُ

أَبْوَابَهَا الصَّامِدَةَ عَلَى مَصَارِيْعِهَا ، فَصَدَّرَتْ أَنْغَامَهَا مُتَوَافِقَةً

وَهِيَ تَدُورُ عَلَى الْمَحَاوِرِ الذَّهَبِيَّةِ ، لِيُخْرِجَ مِنْهَا

مَلِكُ الْجَلَالِ بِمَالِهِ مِنْ قُوَّةِ الْكَلِمَةِ

وَالرُّوحِ ، مُقْبِلًا لِيَخْلُقَ عَوَالِمَ جَدِيدَةٍ .

٢١٠

عَلَى أَرْضِ السَّمَاءِ وَقَفُوا ، وَمِنْ الشَّاطِئِ

أَبْصَرُوا الْهَوَّةَ السَّحِيقَةَ الَّتِي لَا قَرَارَ لَهَا

كَالْبَحْرِ مَائِجَةً هَائِجَةً ، مَظْلَمَةً مُوَحِّشَةً جَامِحَةً ،

تُثِيرُهَا مِنَ الْأَعْمَاقِ رِيَّاحٌ جَائِحَةٌ

وَأَمْوَاجٌ ثَائِرَةٌ فَائِرَةٌ ، كَالْجِبَالِ تَنَاطِحُ

٢١٥

ذُرُوءَ السَّمَاءِ وَتَمْزِجُ قُطْبَ الْأَرْضِ بِمَرْكَزِهَا .

الصَّمْتُ أَتَيْهَا الْأَمْوَاجُ الْهَائِجَةُ ، وَيَا أَيُّهَا الْبَحْرُ اسْكُنْ !

ذَاكَ مَا قَالَتْهُ الْكَلِمَةُ الْخَالِقَةُ ، وَأَضَافَتْ : أَقْلَعْنِ عَنْ نِشَارِكُنْ !

وَلَمْ تَلْبِثْ الْكَلِمَةُ حَتَّى انْطَلَقَتْ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَائِكَةِ الشَّارَوِيْمِ

طَائِرَةً تَرْكَبُ مَتْنَ الْجَلَالِ الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ

٢٢٠

فَقَطَّعَتْ مَسَافَةً هَائِلَةً وَسَطَّ الْعَمَاءِ وَالْعَالِمِ الَّذِي لَمْ يُولَدْ بَعْدَ ،

وَلَقَدْ سَمِعَ الْعَمَاءُ صَوْتَ ذَلِكَ الْخَرْفِ ، وَاتَّبَعَتْهُ حَاشِيَتُهُ جَمْعَاءَ

تَسِيرُ فِي رِكَابِهِ فِي مَوْكَبٍ مُشْرِقٍ وَضِيَاءٍ لِتَشْهَدَ

- الخلق ومعجزات جبروته ، ثم توقفت
العجلات النارية وهدأت ، ثم أمسك في يده
بأجهزة قياس الاتجاه الذهبية التي جيء بها
من خزانة الله الخالدة ، لرسم حدود
هذا الكون ، وجميع المخلوقات .
وجعل من إحدى قدميه مركزاً ، ودار بالأخرى في دائرة
داخل الأعماق السحيقة الشاسعة الظلماء
وقال إلى هنا تمتد ، وهذه حدودك
وليكن هذا محيط دائرتك المرسوم أيها العالم .
وهكذا خلق الله السماء ، وهكذا خلق الأرض ،
من مادة لا شكل لها وخواء ، والظلمة العميقة
تغشى الهوة السحيقة ، ولكن على وجه الماء الساجي
نشر روح الله جناحيه وبسطهما بسطاً
ونفث قوة الحياة ، وطاقة دفء الحياة ،
في شتى ذرات الكتلة السائلة ، ولكنه طهر أعماقها
من الشوائب السوداء والحثالة الباردة الخبيثة
المُعادية للحياة ، ثم أرسى وأسس ، ثم جمع فكور
وقرن الأشياء إلى أشباهها ، ووضع الباقي في أماكن متباعدة

متفرقة ، وفيما بينها جميعاً أنشأ الهواء .

وغدت الأرض مُعلَّقةً متوازنة حول مركزها .

وقال الله فَلْيَكُنْ النُّورُ فَكَانَ النُّورُ عَلَى الْفُورِ

نوراً أثيراً صافياً ، أولُ الأشياءِ ، والجوهرُ النقيُّ

النابعُ من المحيط ، والمنطلقُ من موطنه في الشرقِ

بادئاً رحلته عبرَ ديجورِ الهواءِ

مستديراً في سحابةٍ وضاءةٍ ، إذ لم تكن الشمسُ

قد وُجدتْ بعدُ ، حتى أقام في صومعةٍ ضبابيه

ولبثَ فيها زمناً ، ورأى الله أن النورَ حسنٌ

وفصلَ النورَ عن الظلام في نصفَي الكرة الأرضية

فانفصلا ، وأسمى النورَ نهارةً والظلام ليلاً

وهكذا أصبح اليومُ الأولُ يتكون من مساءٍ وصباحٍ

ولم يَعدِمَ ذلكَ الحدثُ مَنْ احتفلَ به ، أو من يُنشِدهُ الألحانَ

من جماعاتِ المنشدين في السماء ، عندما سطع نور الشرقِ

ورأوه يتدفق أولَ مرةٍ من سُجفِ الظلامِ

يومَ ميلادِ السماء والأرض ، فأفعموا بالفرحةِ والصياحِ

وملأوا خواءَ الفلكِ الكونيِّ المديد ،

ومستَ أناملُهم أوتارَ القيثارةِ الذهبى ، وبالتسايحِ حمدوا

الله وامتدحوا ما خَلَقَ ، منشدين للخالق أهازيجهم

٢٦٠

عندما أَمْسَى أولُ مساءٍ وعندما أَصْبَحَ أولُ صباحٍ .

ثم قال الله فَلَتَكُنْ السماءُ وَسَطَ الأمَواهَ ،

ولتَفْصِلْ هذه المِياهَ عن تلك المِياهِ ، وجعل الله

السماءَ كيانًا مديدًا من الهواء السائل النقي

٢٦٥

الشفاف ، من عنصر صافٍ ، وانتشر

في دائرة حتى وصل إلى أَقْصَى أطرافِ محيط

هذا الكون العظيم ، فأَصِلَ ثابتٌ وطيدٌ

www.library4arab.com/vb

يعزل المِياهَ السفلى عن المِياهِ العليا

ويقصل بينها ، فعلى مثالِ ما بنى الأرضَ بنى العالمَ

٢٧٠

وشيّده على وَجْهِ الأمَواهِ الدائريةِ الساجيةِ ، في محيطٍ شاسعٍ

كالبُلُورِ الصافي ، ثم أَقْصَى النَشَارَ الصاخِبَ

للعَماءِ ونَفَّاهُ ، حتى لا تتجاوَرَ التَّقائضُ فتشتبك

في ضراوةٍ قد تُزَعِزُ نظامَ الهيكلِ كله .

وأطلق على الجَوِّ اسمَ السَّمَاءِ الدُّنيا ، وهكذا ، مساءً

٢٧٥

وصباحًا ، غنى المنشدون أغنيةَ الترحيبِ بإشراقِ اليومِ الثاني .

تشكَّلت الأرضُ ، ولكنه كان في رَحِمِ

الأمَواهِ جنينٌ لم تكتمل صورته بعد ،

ولم يظهر بعد ، فعلى وجه البسيطة كلها كانت مياه

المحيط تجري بلا انقطاع ، ولم تكن عاطلة ، بل كانت تحمل دفء

٢٨٠

عنصر إخصاب يلين سطح الكرة كله ،

وعندما تخمر جعل الأم الرؤوم تحمل ،

بعد أن رواها فأشبعها ماء التكاثر ، عندما قال الله

فتجتمعى الآن أيتها الأمواه الجارية تحت قبة السماء

فى مكان واحد ، ولتظهر اليابسة الآن !

٢٨٥

وعلى الفور ظهرت الرواسى الضخام

وبرزت ، ورفعت ظهورها العريضة العارية

حتى اخترقت السحب وارتقت ذراها عنان السماء .

ومثلما ارتفعت هامات الجبال الثقال ، انخفضت

هوة كالجب ذى القاع العميق العريض ،

٢٩٠

حوض واسع للأمواه التى اندفعت فيه

مسرعة فرحة لشدة انحدار جوانبه ، وقد تجمعت

كانها القطرات التى تتكور على التراب فى اليابسة ،

وارتفع بعضها فى جدار بلورى أو صخرة سامقة

من سرعة الاندفاع ، وسرت القيادة العظمى بهذا الانطلاق

٢٩٥

على متن الأنهر المسرعة ، ومثلما تنطلق الجيوش حين يدعوها

٣٠٥

النفير (ولقد سَمِعْتَ من قبلُ عن الجيوش)

فَتَلَفْتُ حولَ حاملِ اللواءِ ، انْطَلَقْتُ حَشَوْدُ المِياهِ

موجةٌ تعلو فوقَ موجَةٍ ، أينما وَضَحَ السبيلُ ،

فإن كان المَهْبِطُ شاهقًا انْقَضَتْ كسيلِ عارِمٍ ، وإن كان السهلُ منبسطًا

هَدَّأتْ ولانَّتْ ، ولم يَعْقُهَا عائقٌ من صخورٍ أو تلالٍ

بل شقت طريقها ، إما تحت الأرضِ ، وإما دائرةً في دورات

تتلوى حول العوائقِ مثل الثُّعبانِ ، فَتَحْفَرُ

في الطينِ اللَّزِجِ قنواتٍ حتى تَصِلَ إلى البَحْرِ .

وهَدَّأتْ حركتها قبل أن يَأْمُرَ اللهُ الأرضَ أن تَجِفَّ

إلا بين هَاتِيكَ الضفافِ حيث تندفقُ الأنهارُ الآن

وتجوى ، وهى تُجَرِّجِرُ فى كلِّ آنٍ أذِيالَ ثُوبِ الماءِ .

وأطلق اللهُ اسمَ اليابسةِ على الأرضِ الجافةِ ، وأما المستودعُ الهائلُ

من الأمواهِ المتجمعةِ فأسمّاها البحارَ

يرأى ذلك حسناً فقال : فَلَتُخْرِجُ الأرضُ

لكلِّ الأَخْضَرِ ، والعشبَ الذى يُنْبِتُ الحَبَّ ،

أشجارَ الفاكهةِ التى تُثْمِرُ كلِّ منها فاكهةً من لَوْنِها ؛

يذورها فى ذاتها فى الأرضِ .

لم يَكِدْ يَقولُ ذلكَ حتى كانت الأرضُ العُجْرَاءُ ، وكانت

صحراء جرداء ، قبيحة لا يزينها شيء ، حتى تلك اللحظة

٣١٥

قد أنبت الكلا الرقيق ، فكست نصاله الزاهية

وجه الأرض في كل مكان باللون الأخضر البهيج ،

وتلك أعشاب ذات أوراق من شتى الأشكال ، إذ أزهرت فجأة

وتفتحت ، مختلفة ألوانها ، فأشاعت السرور

وطيب الشدا والأريج في صدرها ، ولم تكذ تنفتح

٣٢٠ حتى ازدهت عرائش الكروم بالعناقيد المترامية ، ورحف على الأرض

اليقطين المتفش ، وانتصبت سنابل القمح على أعوادها

شائك السلاح في حقلها ، والخروم في بساتينها ،

والشجيرات ذات الشعر الجعد الكث ، وأخيراً

هبت أشجار الدوح متمائلة كالراقصات ، ونشرت

٣٢٥

غصونها المثقلة بالثمار الجمّة ، أو فتحت أكمام

براعمها ، فكللت بالغابات السامقة هامات التلال

وبالكلا الوديان وكل عين من عيون الماء

وبالضفاف الطويلة الأنهار . وكانت الأرض الآن

تبدو مثل الجنة ، مقراً يليق بسكنى الملائكة

٣٣٠

فالتزّه فيه مُمتعة ، وما أجمل الابتعاد

في ظلالها المقدّسة : وإذا كان الله لم ينزل المطر بعد

على الأرض ، ولم يكن فيها من البشر من يفلح التربة

فإن رذاذ الأنداء كان يتصاعد من الأرض

ويروى التربة كلها ، ويروى كل

نبات في الحقل ، وكان الله قد خلقه ٣٣٥

قبل أن يكون في الأرض ، وكل عشب قبل أن ينمو

على ساقه الخضراء ، ورأى الله ذلك حسنا ،

وهكذا شهد المساء والصباح اليوم الثالث .

وتكلم الجبار مرة أخرى فقال : فلتكن هناك مصابيح

عالية في صفحة السماء ليضيئ لي الليل ٣٣٦

النهار والليل ، ولتكن آيات يهتدى بها لمعرفة

الفصول والأيام والسنين الدوارة

ولتكن المصابيح المنيرة حسبما قضيت

لها أن تكون في السماء الدنيا ،

فترسل ضوءها إلى الأرض ؛ ونفذت مشيئته . ٣٤٥

وخلق الله سراجين منيرين عظيمين ، وسر العظمة نفعهما

للبشر ، أما السراج الوهاج الأكبر فهو ملك النهار

وأما الأصغر فله الليل ، بالتناوب . وخلق النجوم

ووضعها في السماء الدنيا

٣٥٠

حتى تنير الأرض ، وتكون ملوكاً على النهار

في تعاقب مواقعها وملوكاً على الليل

إذ تفصلُ النورَ عن الظلام . ورأى الله

وهو يستعرضُ عمله العظيم أن ذلك حسن .

فبدأ بالشمس من بين الأجرام السماوية

٣٥٥

فصورها في صورة كُرّةٍ جبارة ، وكانت مظلمة أولاً ،

وإن كانت مادتها صافية نقية ، ثم صور القمر

في صورة كُرّوية ، والنجوم بشتى أحجامها ،

www.library4arab.com/vb وبذر النجوم في السماء بذرًا كأنها البذور في الحقل

وأخذ معظم طاقات نورها

٣٦٠

فنقلها من صوامعها الضبابية ، وأنزلها

في إهاب الشمس ، إذ جعله ذا مسامٍ قادرًا على تلقي

الضوء السائل وارتشافه ، وصلبًا قادرًا على حفظ

ما اجتمع فيه من الأشعة ، فغداً صرح الضوء الأعظم .

وإلى هذا الصرح تأتي النجوم الأخرى ؛ كأنه النبع الذي

٣٦٥

تستقي منه الضوء في أنيتها الذهبية

ومن ضوء الشمس يستمدُّ كوكبُ الصباح ما يزين به قرنيه ؛

وهكذا فالإمداد بالضوء أو انعكاسه يزيدُ من

نور النجوم الأصيل ، ولكنها بعيدة عن بصر الإنسان
بعداً شاسعاً يجعلنا نراها ضئيلة الجرم .

٣٧٠

شاهد السراج الوهاج أول مرة في مَطْلَعِهِ الشرقي
ملكاً على النهار ، والأفق من حوله تغمره

الأشعة الساطعة ، وبدأ يجرى مرحاً

في فلكه المرسوم على الطريق العلوي في السماء ، وأما
الفجر الأشهب وكوكبة الثريا فكانا قد سبقاه راقصين

٣٧٥

مرسلين البشائر اللطيفة ، وأما القمر الأقل سطوعاً

فكان يغرب في الأفق الغربي ، على الطرف الآخر ،

كان مرآة السراج الوهاج ، وطلعة البدر تستعير ضوءها

منه ، في غير حاجة إلى أى ضوء آخر سواه

وهو في هذا المنزل ، ويظل بعيداً عنه بالمسافة نفسها

٣٨٠

حتى يأتى الليل ، ويأتى دوره ليسطع في الشرق

بعد أن يدور حول محور السماء العظيم ، ويبدأ عهد ملكه

مشاركاً فيه ألف مصباح صغير

وألف ألف نجم ، تبدو آنذاك

رقد رصعت نصف الكرة الذى زين أول مرة

٣٨٥

ملك الأضواء المتلاثلة التى غربت ثم أشرقت

فكانت فرحةُ المساءِ وفرحةُ الصباحِ تتويجاً لليومِ الرائعِ

وقال الله : فَلَتَتَوَلَّدُ من الأمواه

زواحفُ ذاتُ بيضٍ كثيرٍ وذاتُ أرواحٍ حيّةٍ

ولتَطِرُ الطيورُ فوقَ الأرضِ بأجنحةٍ تَدِفُ

منشورةً في جَوِّ السماءِ الطليقِ

وخلَقَ اللهُ الحيتانَ الضخمةَ ، وكُلَّ

روحَ حيّةٍ ، وكل من يمشى على بطنه ، وهى التى أكثرت

المياه من توليدها من كل جنس ،

وكل طائر يطير ، من جنسه ،

ورأى الله ذلك حسناً فباركها وقال

تكاثروا وتناسلوا ، واملأوا المياه فى البحار

وفى البحيرات وفى الأنهار الجارية ،

ولتكاثر الطيور على الأرض .

وعلى الفور أصبحت المحيطات والبحار ، وكل غديرٍ وخليجٍ ،

حافلةٌ بأعدادٍ لا تُحصى من الكائناتِ الصغيرةِ ، وأسرابِ

الأسماكِ التى كانت بزعانفها وقشورها اللامعة البراقة

تنزلقُ ساريةً فى لُجَجِ المياهِ الخضراءِ ، فى زُرَافَاتٍ كثيراً ما

تتكدّسُ كأنها السدُّ فى ثَبَجِ البَحْرِ ، بعضها وحده وبعضها مع زوجهِ ،

- تأكلُ الأعشاب البحرية في مراعيها ، أو تجوبُ خمائل
 ٤٠٥ المَرْجَانِ فَتُضِلُّ فيها ، أو تلهو فتميلُ فجأةً
 فتُظهِرُ للشمس أَرْدِيَّتَهَا المتماوجة المُرْقِشَةَ بالذهب
 أو تنتظرُ ، على غير عجل ، في صَدَفَاتِهَا ذوات اللؤلؤ
 أن يأتِيها الغذاء من الماء ، أو تكمنُ تحت الصخور
 في دُرُوعٍ مُلْتَحِمَةٍ تَرْقُبًا للغذاء . وفي المياه الهادئة ترى الفَقَمَةَ
 ٤١٠ وترى الدَرْفِيلَ المُخَطَّطَ أثناء اللعب ، وهي لضخامة جُرْمِهَا
 تتمايلُ دون رشاقة ، ولكنها حين تنطلق ترى جسامتها
 وقد عَكَرَت ماء المحيط ، وذاك تَنِينُ الماء
 أضخم المخلوقات الحية ، مُمدِّدًا في البحر
 ممتدًا مثل البرزخ ، نائمًا أو سابحًا ،
 ٤١٥ ويبدو كأنه أرض تتحرك ، فمن خياشيمه
 يَنْشَقُّ الماء نَشَقًا ، ومن جذعه يَنْفُثُ بحرا .
 وفي أثناء ذلك ترى الكهوفَ الدافئة ، والأهُوَارَ والشُّطَّانَ
 رقدَ فَقَسَ فيها يبيضُ الطيورُ التي تُضَارِعُ الأسماك في كثرتها ، فالبيضُ سرعان
 ما ينكسرُ بطبيعته وَيَتَفَتَّتُ فتخرج منه
 ٤٢٠ لصغار عارية ، ولكنها سرعان ما ينمو ريشها
 تنعمُ بالقوادم والخوافي ، فتحلقُ عاليةً في الهواء

٤٢٥

وتصيح صيحات الازدراء للأرض ، التى تلوح لها الآن
من تحت سحابات الأجنحة ، وهناك العقبان واللقاق
التى تبنى أوكارها فوق الصخور الشاهقة وقمم الأرز السامقة
فبعضها يحوم منفرداً فوق المنطقة ، وبعضها أكثر حكمة
إذ يشق طريقه فى سرب على شكل سهم
عارفاً بفصول السنة ، فينطلق فى

٤٣٠

قافلة فى الهواء ، فيصعد فى الجو عالياً فوق البحار
فى طيرانه ، أو فوق اليابسة بأجنحة متعاضدة
تيسر سبيل الرحلة ؛ وذلك ما يفعله الكركى العاقل فى توجيه
رحلته السنوية ، محملاً على متن الرياح ، والهواء
يتماوج أثناء مروره ، تحركه أعداء لا حصر لها من الريش .
وأما الطيور الصغرى فهى تنتقل من فنن إلى فنن ، بأغانيها
التى تسرى بها عن الغابات ، وتنشر أجنحتها المخضبة
حتى المساء ، ولو أن البلبل الرزين

٤٣٥

لا يتوقف عن الشدو بل يستمر طول الليل فى صوغ ألحانه الرقيقة
وترى طيوراً أخرى فى لجين البحيرات والأنهار تغسل
الزغب فى صدورهما ، فطائر التّم ، برقبته الطويلة المقوسة
الشامخة بين جناحيه اللذين يكسوانه مثل وشاح فخار أبيض يجدف

٤١٣

٤٤٠

فيتهادى بقدمين كالمجاديف ، لكنه كثيراً ما يغادر

الماء ، ويصعد بريشه القوى فيخلقُ عالياً

في كبدِ السماء ، ونرى طيوراً غيرها تسير على الأرض

بخطى ثابتة ، مثل الديك ذى العُرفِ الذى يصيحُ فى

ساعاتِ الهدأةِ ، ومثل الطاووسِ الذى يختالُ بالريش الزاهى الذى

٤٤٥

يزينه ، ملوّناً باللونِ الزهور وألوان

قوسِ قزحٍ والعيونِ اللآلئةِ كالنجوم . وهكذا امتلأتُ الأمواه

بالأسماكِ ، وامتلاً الهواء بالطيور ، فهبط

المساء وأشرق الصبح فى اليوم الخامس .

أما اليوم السادس ، وهو آخر أيام الخلق ، فبدأ

٤٥٠

بالحان قيثار الليل وصلواته ، عندما قال اللهُ

فَلتُخْرِجْ الأَرْضُ الأرواحَ الحيةَ من جنسها

من الماشية والزواحف وحيوان الأرض ،

من شتى الأجناس ، فأطاعتُ الأرضُ وعلى الفور

تَحَت رَحِمِهَا الخِصْبَ فَتَكَدَّسَتْ فى ذلك المولد

٤٥٥

عداءٌ لا تحصى من المخلوقات الحية ، تامة الصورة ،

ناملة الأطراف ، مكتملة النم ، ومن الأرض نهضتُ

حيواناتُ المتوحشة كأنما تنهضُ من مرابضها ومكائنها

فِي الْغَابَاتِ الْبَرِّيَّةِ أَوْ الْأَدْغَالِ أَوْ الْأَحْرَاشِ الشَّائِكَةِ أَوْ الْعَرَائِنِ .
وَنَهَضَ كُلُّ زَوْجَيْنِ مَعًا وَسَطَ الْأَشْجَارِ ، وَسَارَ الْجَمِيعُ ،

فَاتَّجَهَتْ الْمَاشِيَةُ إِلَى الْحُقُولِ وَالْمَرَاعِي الْخَضِرَاءِ ،

٤٦٠

وَكَانَتْ الْوُحُوشُ تَسِيرُ فِي انْفِرَادٍ وَعِزْلَةٍ ، وَالْمَاشِيَةُ فِي قِطْعَانٍ

تُرْعَى مَعًا ، بَلْ وَظَهَرَتْ أُولَ مَا ظَهَرَتْ فِي قِطْعَانٍ عَرِيضَةٍ

وَانْشَقَّتْ بَعْضُ قِطْعِ الطِّينِ الَّتِي يَنْمُو عَلَيْهَا الْكَلَأُ ، فَظَهَرَ النِّصْفُ الْأَمَامِيُّ

لِلْأَسَدِ بِلَوْنِهِ الْأَذْكَنَ ، وَأَخَذَ يَخْمَشُ الْأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ لِيُخَلِّصَ

رَجْلَيْهِ مِنَ الطِّينِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ كَالْأَسِيرِ مِنْ قِيوده ،

٤٦٥

وَصَالَ وَجَالَ وَهُوَ يَهْزُ لِبَدَةً رَأْسِهِ الْبَنِيَّةَ اللَّوْنِ . وَتَلَاهُ الْبَيْرُ

وَالْفَهْدُ وَالنَّمْرُ وَقَوَارِضُ الْأَرْضِ الَّتِي خَرَجَتْ

وَنَهَضَتْ ، فَأَهَالُ خُرُوجِهَا التُّرَابَ الَّذِي نَفَضَتْهُ وَاجْتَمَعَ

فِي كَثْبَانٍ ، وَخَرَجَ الْقَطْبِيُّ الْعَدَاءُ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ

وَهُوَ يَحْفَرُهَا بِفُرُوعِ قَرْنَيْ رَأْسِهِ ، وَلَا يَكَادُ يُضَارِعُ شَيْءٌ هَيْكَلَ

٤٧٠

الْفِيلِ فِي ضَخَامَتِهِ ، وَهُوَ يُوَلِّدُ مِنَ الْأَرْضِ وَيَرْفَعُ

هَامَتَهُ الْهَائِلَةَ ، وَبَعْدَهُ خَرَجَتْ الْقُطْعَانُ ذَاتُ الْفِرَاءِ وَالشُّغَاءِ ،

مِثْلَ النَّبَاتَاتِ ، ثُمَّ كَانَ مَنْ تَرَدَّدَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْيَابِسَةِ ،

فَرَسُ النَّهْرِ وَالتَّمْسَاحُ ذُو الْقُشُورِ الصَّلْدَةِ .

وَخَرَجَ مَعًا كُلُّ مَا يَزْحَفُ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ مِنْ

٤٧٥

حشراتٍ أو ديدان ، فالأول : بأغشية رقيقة

كأنها الأجنحة ، وقد تناسقت فيها أدق الأعضاء ، أصغرُها

فى شتّى ما اكتسبته من أَرْدِيَّةٍ مُوشَّاةٍ بِبُقَعِ الصَّيْفِ الزَّاهِيَةِ

وَمُرَقَّشَةٍ بِالْوَانِ الذَّهَبِ وَالْأَرْجُوَانِ وَاللَّازُورْدَى وَالْأَخْضَرِ .

والأخرى تنتظم فى صف طويل وهى تسير

تاركة على الأرض أثاراً غائرة واضحة ، ولم تكن كلها

من أصغر المخلوقات فى الطبيعة ، بل كان من الحيات أنواع

عجيبة الطول والاكتنار ، تلتوى

تلافيفها الثعبانية ، وازدادت أجنحة . وبدأت الزحف

النملة الحريصة المدبرة ، فهى تدخر

للمستقبل ، فى جُرمها الضئيل قلبٌ كبيرٌ ،

وربما ستكون نموذج المساواة المنصفة

فيما بعد ، فالتحقت بقبائل شعبها

من العوَّام ، وظهر بعدها حشدٌ من

إناث النحل ، فهى التى تُطعم أزواجها من الدُّبُرِ

ما لذَّ وطاب ، وتبنى الخلايا الشمعية

العامة بمخزونِ الشَّهْدِ : أما باقى المخلوقات فلا يُحصى عددها

وأنت تعرف طبائعها ، وأطلقت عليها أَسْمَاءَهَا

ولا داعى من ثم لتكرارها عليك ، ولست تجهلُ
 ٤٩٥ الحية ، أشدَّ حيوانِ الحقلِ مكرًا ودهاءً ،
 أحيانًا ما تكونُ بالغة الضخامة ، برآقة العينين ،
 ولها لبدةٌ من الشعرِ الكثيفِ المخيفِ ، وإن كانت
 غيرَ مؤذيةٍ لك ، بل مطيعةٌ تلبى دعوتك
 وأشرقتُ السماءُ الآنَ بكلِّ آياتِ بهائها ، وبدأت
 ٥٠٠ حركةَ أفلاكها على نحو ما رسمته يدُ المُحرِّكِ الأولِ العظيمِ
 وحددَ مجراه أولَ الأمرِ ، وكانت الأرضُ فى رِداثها الحافلِ
 الذى بلغ الكمالَ والجمالَ ، تبتسمُ ، ففى الهواءِ وفى الماءِ وفوق الثرى
 تطيرُ الطيورُ وتسبحُ الأسماكُ وتمشى الحيواناتُ
 بأعدادها الكبيرة ، ومع ذلك فلم يكن اليومُ السادسُ قد انقضى
 ٥٠٥ وكان العملُ الأعظمُ لا يزالُ ينتظرُ الإنجازَ ، غايةً
 كُلُّ ما أُنجِزَ حتى الآنَ ، ألا وهو مخلوقٌ لا يسيرُ منحنيًا
 وليس وَحشيًا مثلَ المخلوقاتِ الأخرى ، ولكنه وَهَبَ
 قداسةَ العقلِ ، قادرٌ على انتصابِ القامةِ
 والهامةِ ، قائمٌ على قدميه ، رزينُ الجبهةِ والطبعِ ،
 ٥١٠ حاكمٌ على الجميعِ ، يعرفُ ذاته ، ومن ثم
 فَلَهُ من سُمُو الفؤادِ ما يُتيحُ له التخاطبَ مع السماءِ

ولكنه يُقَرُّ بالفضل ويمتنُّ له فيعترفُ بمصدرِ الخير

الذى يَهْبِطُ عليه ، فقلْبُهُ وصَوْتُهُ وعَيْنَاهُ

مُوجَّهَةٌ في خشوعٍ لتقديسِ الله

٥١٥

وعبادةِ الله ، الربُّ الأعلى ، الذى جعله رأسَ

جميعِ أعمالِهِ ، وهكذا قال القَادِرُ على كلِّ شَيْءٍ ،

الإلهُ السَّرْمَدِيُّ (فهو موجودٌ فى كلِّ مكانٍ

وحاضرٌ أبداً) إلى كلمته بصوت مسموع :

فَلَنَصْنَعُ الْآنَ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا ، الْإِنْسَانَ

٥٢٠

على مِثَالِنَا ، وَلَتَجْعَلَ الْبَشَرَ أَسْيَادًا

لِلْأَسْمَاكِ وَالطَّيُورِ فِي الْبَحْرِ وَالْهَوَاءِ

وَاللَّحْيَوَانِ فِي الْحَقُولِ ، وَلِلْأَرْضِ كُلِّهَا

وكل زاحفٍ يزحفُ فوقَ الترابِ . وما إن قال كُنْ

حتى كُنْتَ يا آدم ! لقد صَوَّرَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

٥٢٥

يا ترابَ الأرضِ ، وَنَفَثَ فِي فَتْحَتِي أَنْفَكَ .

أَنْفَاسَ الْحَيَاةِ ؛ فَعَلَى صُورَتِهِ هُوَ

خَلَقَكَ ، فِي صُورَةِ الْإِلَهِ

الصَّرِيحَةِ فَأَصْبَحْتَ نَفْسًا حَيَّةً .

خَلَقَكَ ذَكَرًا ، وَلَكِنَّهُ خَلَقَ رَوْجَكَ

٥٣٠

أُنْثَى لِإِنْجَابِ الذُّرِّيَّةِ ؛ ثُمَّ بَارَكَ الْبَشَرَ وَقَالَ

تَنَاسَلُوا تَكَاثَرُوا ، وَاعْمُرُوا الْأَرْضَ كُلَّهَا

وَسَخَّرُوهَا لَكُمْ ، وَلَتَكُنْ لَكُمْ السِّيَادَةُ فِي أَرْجَائِهَا

عَلَى أَسْمَاكِ الْبَحْرِ ، وَطُيُورِ الْهَوَاءِ

وَعَلَى كُلِّ كَائِنٍ حَتَّى يَدْبُ فَوْقَ الثَّرَى .

٥٣٥

وَأَيْنَمَا كَانَ خَلْقُكَ ، إِذْ لَا نَسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ الْمَكَانِ

أَوْ تَمْيِيزَ اسْمِهِ حَتَّى الْآنَ ، فَلَقَدْ نَقَّلَكَ مِنْهُ كَمَا نَعْرِفُ

وَجَاءَ بِكَ إِلَى هَذِهِ الْخَمِيلَةِ الْمُلْتَفَّةِ الْبَهِيْجَةِ ،

هَذِهِ الْحَدِيقَةُ الَّتِي غُرِسَتْ فِيهَا أَشْجَارُ اللَّهِ ،

الْمَمْتَعَةُ لِلنَّظَرِ وَلِلْمَذَاقِ

٥٤٠

وَأَبَاحَ لَكَ أَنْ تَعْتَدِيَ عَلَى جَمِيعِ فَوَاكِهِيهَا الْبَهِيَّةِ

فَهِيَ لَكَ كُلُّهَا ، فَجَمِيعُ أَنْوَاعِ مَا تُثْمِرُهُ الْأَرْضُ عَلَى امْتِدَادِهَا هُنَا

وَلَا حُدُودَ لِتَنَوُّعِهِ ، وَلَكِنَّهُ حَرَمٌ عَلَيْكَ الشَّجَرَةُ

الَّتِي إِنْ ذُقْتَ ثَمَرُهَا اكْتَسَبْتَ الْمَعْرِفَةَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ

فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ ، وَالْيَوْمُ الَّذِي تَأْكُلُهَا فِيهِ تَمُوتُ فِيهِ .

٥٤٥

فَالْمَوْتُ هُوَ الْعِقَابُ الَّذِي قَضَى بِهِ ، فَاحْذَرِهَا ،

وَتَحَكَّمْ فِي شَهِيَّتِكَ خَيْرَ التَّحَكُّمِ ، حَتَّى لَا تُفَاجَأَ

بِالْخَطِيئَةِ تَذْهَمُكَ ، وَهِيَ وَرَفِيقُهَا الْأَسْوَدُ - الْمَوْتُ !

وانتهى هنا ، وألقى على كل ما صنعه

نظرة ، وما أحسن ما بدا كل شيء وأكمّله .

٥٥٠

وهكذا كرّ المساء والصباح فانطوى اليوم السادس

ولكنه لم يكتمل حتى كفّ الخالق عن ذياك العمل

وتوقف دون كلال ثم ارتفع عائداً

صاعداً إلى عرشه السامي في سماء السماوات

ليصير منه هذا العالم المخلوق الجديد الذي

٥٥٥

أضافه إلى ملكه ، ويرى كيف يبدو

على البعد من عرشه ، ومدى جماله وحسنه

واتفاقه مع الصورة المثلى التي أرادها له . صعد ركباً

متبوعاً بهتاف الإطراء والثناء ، والأصوات

المتناغمة لعشرة آلاف قيثارة تُصدرُ

٥٦٠

الحنانها المتوافقة الملائكية ، وكانت الأرض والهواء

يرجعان الصدى ، (وأنت تذكرها لأنك سمعتها)

وكذلك رنّ الصدى في السماوات وجميع البروج

ووقفت الكواكب في مواقعها تصنى

وموكب النصر اللألاء يصعد مزهواً فرحاً .

٥٦٥

وكان من بين ما أنشدته : انفتحي أيتها الأبواب السرمدية

وافتحى أيتها السماوات أبوابك الحية ، ورحبى بدخول

خالقك العظيم عائداً من عمله

الرائع ، عمل ستة أيام ، خلق عالم جديد .

انفتحى الآن ، وانفتحى كثيراً منذ اليوم ، إذ سيتنازل الله

٥٧٠

بزيارات كثيرة لمساكن البشر العدول

مسروراً ، وسوف تكثر المناجاة

حين يرسل رُسُلَهُ المَجْنَحَةَ فَتَنْزِلُ عَلَيْهِم

فى مهام خاصة تحمل الرضوان والمغفرة . هكذا أنشدت

الحاشية الوضاء أثناء الصعود ، ثم دخل الله السماء

٥٧٥

التي فتحت أبوابها النارية على مصاريعها ، والتي تودى

إلى بيت الله الأركلى مباشرة ، فى طريق

عريض وبالغ الرحابة ، تُرَابُهُ مِنْ ذَهَبٍ

وَأَرْضِيَّتُهُ مِنَ النُّجُومِ ، مثل النجوم التي تظهر لك

وتراها فى المجرة الكبرى ، مَجْرَةٌ دَرْبِ التَّبَّانَةِ ،

٥٨٠

التي تراها كل ليلة مثل نطاق دائرى

مرصعة بالنجوم . وبدأ اليوم السابع على الأرض

بحلول المساء فى عدن ، إذ غربت الشمس

وشاعت فى الأفق ألوان الشفق من الشرق

٥٨٥

تُبَشِّرُ بِحُلُولِ اللَّيْلِ ، وعند الجَبَلِ الْقُدْسِيِّ
 فِي مَقْعَدِ الرَّفْعَةِ عند ذِرْوَةِ السَّمَاءِ ، عَرْشِ الْمُلْكِ
 لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ، الثَّابِتِ أَبَدًا ، صَامِدًا وَوَطِيدًا ،
 وَصَلَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَاسْتَقَرَّتْ

٥٩٠

إِلَى جَانِبِ الْجَبَّارِ ، الَّذِي كَانَ مَعَهَا
 دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ ، حَتَّى وَهُوَ هُنَا عَلَى الْعَرْشِ ، فَهَذِهِ مَزِيَّةُ
 الْقَائِمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَقَدْ نُقِذَ مَا قَضَى بِهِ مِنْ عَمَلٍ ،
 فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَغَايَةُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَعْدُ الْعَمَلُ
 اسْتِرَاحَ ، وَبَارَكَ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَجَعَلَهُ مُقَدَّسًا
 لِأَنَّهُ اسْتِرَاحَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ
 وَإِنْ كَانَتْ قَدَاسَتُهُ لَا تَعْنِي الصَّمْتُ ، فَكَانَ لِلْقِيَارِ

٥٩٥

عَمَلُهُ فَلَمْ يَسْتَرْحَ ، وَكَذَلِكَ الْمَزْمَارُ الرَّزِينُ ،
 وَآلَةُ السُّمْفُونِيَا الْعَذْبَةُ ، وَجَمِيعُ الْوَانِ الْأَرْغَنِ ذِي الْوَقْفَاتِ الْجَمِيلَةِ ،
 وَجَمِيعُ أَصْوَاتِ الْأَلَاتِ الْوَتْرِيَّةِ ، سِوَا مَا صُنِعَتْ أَوْتَارُهُ مِنَ الْمَعْيِ
 أَوْ الْأَسْلَاكِ الذَّهَبِيَّةِ ، ذَوَاتِ الْمَقَابِضِ الْمَقْسَمَةِ ، إِذْ صَدَرَتْ عَنْهَا الْحَانُ رَقِيقَةٌ
 اخْتَلَطَتْ بِأَصْوَاتِ الْمَجْمُوعَاتِ الْمُتَوَافِقَةِ أَوْ الْوَاحِدَةِ ، وَكَانَتْ سَحَابُ الْبُخُورِ
 تَتَصَاعَدُ دُخَانًا مِنَ الْمَبَاخِرِ الْمَذْهَبَةِ فَتُخْفَى الْجَبَلُ .
 وَغْنَى الْجَمِيعِ عَنِ الْخَلْقِ وَمَا أُنْجِزَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

٦٠٠

ما أعظم أَعْمَالِكَ ، يا يَهُوَهَ ، وقوتك اللامتناهية ،
 أى فكرٍ يستطيعُ أن يقيسَهَا وأى لسانٍ يستطيع
 أن يحكى عنك ، لأنَّ أعظمُ فى عَوْدَتِكَ الآن من عَوْدَتِكَ
 من قَهْرِ عماليقِ الملائكةِ ، ففى ذلك اليوم
 عَظَمَتِكَ رُعُودُكَ ، ولكنَّ خَلَقَ العَالَمَ
 أعظمُ من تَدْمِيرِ بعضِ ما خَلَقْتَ .

٦٠٥

من ذا الذى يستطيع أن يَمَسَّكَ بضُرِّ أيها الملك الجبار
 أو يحدِّ من ملكك ؟ ما أيسرَ ما قَهَرْتَ كَيْدَ المُكَابِرِينَ
 من الأرواحِ المُرْتَدَّةِ وَأَبْطَلْتَ دَعَاوَاهُمْ الغُرُورَ
 ونَقَضْتَهَا نَقْضًا ، إذ فَسَّقُوا فَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ
 على أن يَنَالُوا مِنْكَ ، وأن يَتَرَعَّوْا مِنْكَ
 الحُشُودَ التى تَعْبُدُكَ . فكلُّ من يحاولُ

٦١٠

التقليلَ من شأنِكَ يَفْشَلُ فى مسعاه وينتهى

بإظهارِ المزيدِ من جبروتك ، إذ تَنْتَفِعُ بِشَرِّهِ
 ومن الشَّرِّ تَخْلُقُ المزيدَ من الخيرِ .

٦١٥

ولنَشْهَدْ هذا العَالَمَ الذى صُنِعَ لِتَوَّهِ ، إنه لَسَمَاءُ
 خارجَ السَّمَاءِ ولا يبعدُ عن أبوابِها كثيرًا ، أَقِيمَ أَمَامَنَا
 فى بحرِ البلُّورِ الصافى الشفافِ ، أو بحرِ الزجاجِ ،

٦٢٠

شاسع الأرجاء لا يكاد ينتهى ، وفيه نُجومٌ
كثيرةٌ ، وربما يكون كُلُّ نَجْمٍ عالِماً
مُقَدَّرًا له أن يَعمُرَ بالسَّكان ، ولكنك تعرف
مواقيتها ، وبينها مقرُّ البشر ،

٦٢٥

الأرضُ التى يلتفُ حولها المحيطُ السفلى الأعظمُ ،
مَسْكَنُهُمُ الجميل ، لقد ضُوعِفَتْ سَعَادَتُكُمْ ثلاثًا أيها البشر
ويا أبناءَ البشر ، إذ ارتقيتم بفضلِ الله الذى
خلقكم فى صورته ، لتسكنوا فيها

٦٣٠

وتعبُدوه ، وكافأكم بأن سَخَّرَ لَكُمْ جميع
ما خلَق فى البر والبحر والجو ، وأتاح لكم
أن تُنجبوا ذُرِّيَّةً من العابدين

٦٣٥

الصالحين العدول ، ضُوعِفَتْ سَعَادَتُهُمْ ثلاثًا إن عرَفُوا
ما أُنْعِمَ بِهِ عليهم فثابروا ورعًا واستقامةً .
كان ذلك ما أنشدوه فتردَّدَتْ فى السماء

التسايحُ بحمد الله ، وهكذا كان حفلُ يومِ الراحة

أما وقد أَجَبْتُ مَطْلَبَكَ ، فيما تَرَى ، حين سألتنى

كيف بدأ هذا العالمُ وتَشَكَّلَ وجهُ الأشياءِ

وماذا وَقَعَ قَبْلَ عَهْدِكَ بالذَّاكِرَةِ ،

ومنذ البداية ، حتى تُطْلَعَ الخَلْفَ عَلَيْهِ
فَيَعْرِفُوهُ مِنْكَ ، فَأَرْجُوْا إِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَعْرِفَ
أَيَّ شَيْءٍ آخِرٌ ، لَا يَتَجَاوَزُ إِدْرَاكَ الْبَشَرِ ، أَنْ تُفْصِحَ عَنْهُ .
٦٤٠

نهاية الكتاب السابع

الكتاب الثامن

الموضوع

يستفسر آدم عن حركة الأفلاك في السماء فيتلقي إجابة غير مؤكدة ، ويشار عليه بأن يطلب معرفة ما هو أجدر بالمعرفة ، ويوافق آدم ، وفي حديثه على استبقاء روفائيل يقص عليه ما يذكره منذ أن خلق ، ووضعه في الفردوس ، وكلامه مع الله عن العزلة والصحبة الصالحة ، وأول لقاء له مع حواء وزواجه منها ، وحديثه بعد ذلك مع الملاك الذي يكرر تحذيره ثم يرحل .

انتهى الملاك من حديثه وصوته ما فتئ يرن في أذن آدم ، صوت بلغ من قوة سحره أن ظن آدم ، برهة يسيرة ، أنه ما زال يتحدث ، وظل ثابتاً في مكانه حتى يصغى إليه .
وكأنما أفاق لتوه ردّ بامتنان قائلاً :

أى شكرٍ لىّ يكفى ، وأى جزاءٍ عندى يوازى

صنيعك فأقدمه لك يا أيها المؤرخ الإلهى

الذى أطفأ كثيراً من غلّتى

- وتعطشى للمعرفة ، والذي تعطفَ
وتنازلَ تنازلَ الخِلَانِ بأن يحدثنى
١٠ عن أشياء لم أكن لأعرفها إلا منه ، وقد سمعتُ الآن
ما أدهشنى وسُررتُ به ، وكما يقضى الواجب ،
أُعربُ عن التعظيم الذى لا يحقُّ إلا للخالقِ الأعلى .
ومع ذلك فلا يزال لدىَّ شىءٌ من الشك
ولن ينقشعَ إلا بشرحك وإيضاحك
١٥ فعندما أطلعُ إلى إطار هذا الكونِ البديع ، هذا العالمِ
الذى يتكونُ من السماء والأرضِ ، وأشرعُ فى حسابِ
أحجامها ، فأرى أن الأرضَ نقطةً أو حبةً
أو ذرةً ، إذا قورنتَ بالسماء
وما فيها من نجومٍ كثيرة ، يبدو أنها تدور
٢٠ فى مساحات تستعصى على الإدراك (فذلك
ما تدل عليه المسافات فيما بيننا وسرعة عودتها
إلى مواقعها كل يوم) لا لسببٍ إلا لترسلَ ضوءَها
حولَ هذه الأرضِ المصنَّمة ، هذه النقطة الصغيرة ،
نهاراً أو ليلاً ، وفى كل هذا الإطار الشاسع
٢٥ لا نفعَ لها سوى ذلك ، فإننى بميزان العقلِ كثيراً ما أدهش
كيف أن الطبيعةَ الحكيمةَ الشحيحةَ على نفسها يمكن أن ترتكبَ

هذه التناقضات الصارخة ، فتخلق بأيدٍ بسطتها كل البسط
أجراماً كثيرةً أشرف وأسمى ،

وأعظم وأشد تنوعاً ، لهذه الغاية وحدها ،

حسبما يظهر لى ، وأن تفرّض عليها أن تدور في أفلاكها

٣٠

دورات دائبة لا تهدأ ، ويوماً بعد يومٍ

تتكرّر ، والأرض ساكنة كسول ،

وكان ينبغي لها أن تتحرك بسبب صغر نطاقها ،

إذ سُخِّرَ لها ما هو أشرف وأسمى منها ، فتحقق

٣٥

غايتهما دون أدنى حركة ، وتتلقى

المكافأة مما تعود به تلك الرحلات المُسَخَّرة لها ،

دِفْئاً وضوءاً ، وهى رحلاتٌ تجرى بسرعة لا تقدرُ عليها المادة

بل لا أجدُ أرقاماً تستطيعُ وصف تلك السرعة الخارقة .

وصمّت جدّنا ، وكان يبدو - من قسّمات وجهه - أنه

٤٠

بدأ يخوض غمار تأملات وأفكار عميقة ، ولمَحَتْ حواءُ

ذلك من حيث كانت تجلس خافية عن الأنظار

فنهَضَتْ بتواضع يحقُّه الجلالُ من مجلسها

وبرشاقة جذابة تجعلُ من رآها يتمنى أن تبقى

ودَهَبَتْ لتنظر فواكهها وأزهارها

٤٥

وتطمئن على نموها وتفتح البراعم والأكمام
التي ترعاها ، فهبت تلك حين رأت حواء مقبلة
وسعدت بزيارتها الرقيقة وترعرعت بسرور أكبر
ولكنها غادرت المجلس لا لأنها لم تجد في ذلك الحديث
متعة ، أو لأن أذنها لا تستطيع استيعاب

٥٠

الفكر الرفيع ، ولكنها كانت تفضل ألا تجنى هذه المتعة إلا
من حديث آدم إليها ، وهي تستمع إليه وحدها .
كانت تفضل أن يكون زوجها المتحدث
أمام الملاك ، واختارت أن تسأله

٥٥

هي عما دار فيما بعد ، إذ كانت تدرك أنه سوف يمزج
الأحاديث اللطيفة المتداخلة ويحسم الخلافات الفكرية
بالمداعبات الزوجية الرقيقة ، إذ لم يكن مصدر سعادتها
بشفتيه يقتصر على ما تنطق بهما من كلمات . أتى لنا أن نجد الآن
مثل هذين الزوجين اللذين يربط الحب بينهما والاحترام المتبادل ؟
وهكذا مضت تخطو خطوات ملائكية ،

٦٠

ولم تغد حاشية تحف بها ، فكأنما كانت ملكة
تسير في موكب من آيات الجاذبية الخلافة
ومن حولها انطلقت السهام التي تجعل

كُلُّ عَيْنٍ تَرْغَبُ وَتَتَمَنَّى أَنْ تَرَاهَا دَائِمًا .

وعندها بدأ روفائيل يتصدى لشُكوكِ آدمَ بلهجةِ

٦٥

الودادِ وأسلوبِ سَلِسٍ يَسِيرٍ ، فأجاب قائلاً :

لا أَلُومُكَ عَلَى السُّؤَالِ أَوْ الْبَحْثِ ، فَالَسَّمَاءُ

تَشْبِهُ كِتَابَ اللَّهِ الْمَفْتُوحَ بَيْنَ يَدَيْكَ

تَقْرَأُ فِيهِ عَنْ أَعْمَالِهِ الرَّائِعَةِ ، وَتَكْتَسِبُ الْعِلْمَ

بِالْفُصُولِ أَوْ السَّاعَاتِ أَوْ الْأَيَّامِ أَوْ الشُّهُورِ أَوْ السَّنَوَاتِ .

٧٠

وَلَكِنَّ الْإِحَاطَةَ بِذَلِكَ ، سَوَاءٌ أَكَانَتِ السَّمَاءُ تَتَحَرَّكُ أَمْ الْأَرْضُ ،

أَمْرٌ غَيْرُ مُهِمٍّ ، إِذَا اسْتَقَامَ تَفْكِيرُكَ ، فَسَاطِرُ الْحَقَائِقِ

قَدْ أَخْفَاهَا الْمُهَنْدِسُ الْأَعْظَمُ عَنْ الْبَشَرِ وَالْمَلَائِكَةِ ،

وَلَهُ حِكْمَتُهُ فِي إِخْفَائِهَا وَعَدَمِ إِفْشَائِهَا

أَسْرَارِهِ لِلَّذِينَ قَدْ يَتَعَرَّضُونَ لَهَا بِالتَّمَنِّيِّ وَالْأَحْكَامِ ، وَوَاجِبُهُمْ

٧٥

أَنْ يَذْهَبُوا وَيَعْجَبُوا لَهَا ، وَأَمَّا إِذَا أَصَرُّوا عَلَى مُحَاوَلَةِ

الْحَدْسِ فَسَوْفَ يَجِدُونَ أَنَّهُ تَرَكَ نَسِيجَ السَّمَاوَاتِ

مُشَارًا لِخِلَافَاتِهِمْ ، رِيْمًا لِيَضْحَكَ فِيمَا بَعْدَ

مِنْ شَطَطَاتِ آرَائِهِمُ الطَّرِيفَةِ

حِينَ يُقَدِّمُونَ عَلَى دِرَاسَةِ السَّمَاءِ

وَحِسَابِ حَرَكَةِ النُّجُومِ ، وَأَسْلُوبِ إِخْضَاعِهِمْ

الهيكل الجبار لنظرياتهم ، بانين هادمين مُلَفِّقين

لتفسير الظواهر ، محاولين إخضاع الشكل الكروي

بترسم الدوائر المنتظمة والمنبجعة فوقه ،

دائرة وإِهْلِيلَجٌ ، فلكٌ فى فلكٍ ،

فهذا ما أحدثه بالفعل من أسلوب منطِقك ، ٨٥

إذ كُتِبَ عليك توجيهُ ذُرِّيَّتكَ ، ما دُمْتَ تفترضُ

أن الأجسامَ الوضاءَ والكبرى لا ينبغي تسخيرها

للأقل ضوءاً ، وأن السماءَ ينبغي ألا تقومَ بهذه الرحلات

والأرضُ ساكنةٌ قاعدةٌ تتلقى وحدها الثمرَ

والفائدة : اعلمَ أولاً أن ضخامةَ الجُرمِ ٩٥

أو شدةَ الضوء لا تعنى الامتياز ، وأن الأرضَ

وإن كانت ، إذا قورِنتُ بالسماءَ ، بالغة الضالة

ولا تشعُّ أىَّ ضوءٍ ، قد تضمُّ بين جنباتها من الخيرِ المؤكدِ

ما يفوقُ الشمسَ كثيراً ، تلكَ التى تسطعُ وهى عَقيمٌ ،

وفضلُها لا يعودُ عليها بشيء ٩٥

بل على الأرضِ المثمرةِ ، فهى أولُ من يتلقى

أشعتها التى تحققُ فى الأرضِ قوتَها وهى عاطلةٌ خارجَها

ولكنَّ هذه المضايحَ المثيرةَ ليست مُسَخِّرةً للأرضِ

بَلْ لَكَ أَنْتَ يَا مَنْ تَسْكُنُ الْأَرْضَ

١٠٠

وَأَمَّا دَوْرَةُ السَّمَاوَاتِ الشَّاسِعَةِ فَلَتَنْتَظِقْ

بِبِهَاءِ الصَّانِعِ الرَّفِيعِ ، الَّذِي بَنَاهَا

بِهَذَا الْإِتْسَاعِ فَامْتَدَّتْ سُبُلُهَا هَذَا الْإِمْتِدَادَ الْبَعِيدَ

حَتَّى يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَا يَسْكُنُ وَحْدَهُ

فِي صَرْحٍ أَضْحَمَ مَنْ أَنْ يَمْلَأَهُ بِنَفْسِهِ

١٠٥

إِذْ لَا يَسْكُنُ إِلَّا فِي قِسْمٍ صَغِيرٍ مِنْهُ ، وَالْبَاقِي

كُتِبَتْ عَلَيْهِ مَهَامٌ لَا يَعْرِفُهَا خَيْرًا مِنْ رَبِّهِ .

وَأَمَّا سُرْعَةُ هَذِهِ الْأَفْلَاكِ فَعَلَيْكَ أَنْ تُرْجِعَهَا ،

وَهِيَ الَّتِي يَسْتَعْصِي حَسَابُهَا ، إِلَى قُدْرَةِ الْقَدِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يُضْفِيَ عَلَى الْأَجْسَامِ الْمَادِيَةِ

١١٠

سُرْعَةً تَكَادُ تَكُونُ رُوحِيَّةً . وَلَعَلَّكَ تَظُنُّنِي غَيْرَ بَطِيءٍ

إِذْ انْطَلَقْتُ فِي رِحْلَتِي فِي الصَّبَاحِ مِنَ السَّمَاءِ

حَيْثُ عَرْشُ اللَّهِ ، فَوَصَلْتُ قَبْلَ الظُّهْرِ

إِلَى عَدَنَ ، وَهِيَ مَسَافَةٌ لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا

بِالْأَرْقَامِ الْمَعْرُوفَةِ . وَلَكِنِّي أَحْتَاجُ بِذَلِكَ ،

١١٥

مُعْتَرِفًا بِالْحَرَكَةِ فِي السَّمَاوَاتِ ، لِأَبْيَنِّ

خَطَأَ مَا دَفَعَكَ إِلَى الشَّكِّ وَالرَّيْبَةِ ،

وإن كنتُ لا أوكدُه ، ولو بدأ لك ذلك

يا من اتخذت الأرض هنا مقراً ومقاماً .

لقد شاء الله أن يخفى أسرارَه عن إدراكِ البشرِ

فجعل السماءَ بعيدةً كُلَّ البُعدِ عن الأرضِ ، فإذا وَضَعَ البصرُ الأرضيُّ ١٢٠

افتراضاته ، فقد يَضلُّ ولا يهتدى إلى ما سما فأوغلَ في سُمُوه ،

دون اكتسابِ فائدةٍ ما . وماذا لو كانت الشمس

في مركزِ الكون ، وكانت النجومُ الأخرى ،

بفضلِ قُوَّةِ جاذبيةِ الشمسِ ، وبسببِ ما

يدفعها في ذاتها ، تَرُقُصُ حَوْلَ الشمسِ رقصاتٍ دائريةً متباينةً ؟ ١٢٥

وكانت أفلاكُها السَّيَّارةُ ترتفعُ حيناً وتنخفضُ حيناً ثم تختفي

وتتقدمُ أو تتأخرُ أو تقفُ في مكانها ثابتةً

وهو ما تراه في سِتَّةِ كواكبَ ، وماذا إذا كان سابِعُها

وهو كوكبُ الأرضِ ، على كُلِّ ما بيديه من الثَّباتِ

يتحركُ دونَ أنْ نشعرَ ثلاثةَ أنواعٍ مختلفةٍ من الحركاتِ ؟ ١٣٠

فإذا لم تَقُلْ بذلك ، كان عليك أن تَنسِبَ إلى عدَّةِ كواكبِ

حركاتٍ متعارضةً في أفلاكٍ يتقاطعُ بعضها مع البعض ،

أو تُعْفَى الشمسُ من عَمَلِها ، وسُرْعَةُ الدورانِ

المفترضِ بانحرافِ حَوْلِ الأرضِ لَيْلاً ونهاراً ،

١٣٥

وَالْأَلَمَا سَطَعَتْ فَطَمَسَتْ النُّجُومَ جَمِيعًا ، فَهِيَ الْعَجَلَةُ الَّتِي
تُحَدِّثُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ؛ وَهُوَ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَصْدِيقِكَ
إِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ تُجْتَهِدُ بِذَاتِهَا لِتُحْضِرَ النَّهَارَ

١٤٠

فِي دَوْرَانِهَا نَحْوَ الشَّرْقِ ، وَتَدُورُ مُبْتَعِدَةً بِجَانِبِهَا الْآخَرَ
عَنِ أَشْعَةِ الشَّمْسِ حَتَّى تُتْلِقِيَ اللَّيْلَ ، وَيُظَلُّ جَانِبُهَا الْأَوَّلُ
يَغْمُرُهُ ضَوْءُ الشَّمْسِ . وَمَاذَا إِذَا كَانَ هَذَا الضَّوُّ

الَّذِي تَرْسِلُهُ الْأَرْضُ عَبْرَ صَفْحَةِ الْجَوِّ الْعَرِيضَةِ الشَّفَافَةِ
إِلَى أَرْضِ الْقَمَرِ يَنْبُرُهُ كَالنَّجْمِ

نَهَارًا ، مِثْلَمَا تُضِيءُ النُّجُومُ لَيْلًا

١٤٥

هَذِهِ الْأَرْضُ ؟ هَلْ تَمَّ تَمَاثُلُ إِذْنِ ؟ إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ أَرْضُ
وَحَقُولُ أَهْلَةٍ بِالسَّكَّانِ ، فَأَنْتَ تَرَى الْبُقْعَ عَلَى وَجْهِ الْقَمَرِ
مِثْلَ السُّحْبِ ، وَالسُّحْبُ قَدْ تُمَطِّرُ ، وَالْمَطَرُ قَدْ يُثْمِرُ

الْفَوَاكِهُ فِي أَرْضِهِ اللَّيْنَةِ ، حَتَّى يَأْكُلَهَا الْبَعْضُ

مِمَّنْ وَضِعُوا هُنَاكَ ، وَرَبِّمَا تَشْهَدُ ثُمَّ شَمُوسًا أُخْرَى

مَعَ تَوَابِعِهَا مِنَ الْأَقْمَارِ ، وَرَبِّمَا تَشْهَدُهَا

١٥٠

وَهِيَ تُرْسِلُ إِنَاثَ الْأَشْعَةِ وَذُكُورَهَا ،

وَهُمَا الْجَنْسَانِ الْعَظِيمَانِ اللَّذَانِ يَعْمُرَانِ الْكَوْنَ ،

رَبِّمَا مِمَّا يَخْتَرِنُهُ كُلُّ فَلَكٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَاءِ .

أما افتراضُ وجودٍ مثلِ هذه المساحاتِ الشاسعةِ في الطبيعةِ
التي لا يملكها الأحياءُ ، مهجورةٌ وموحشةٌ ، لا عملَ لها

١٥٥

إلا أن تسطعَ ، دون أن تساهمَ إلا

بلمحةِ ضوءٍ من كلِّ فلكٍ مُرسلةً من تلك المسافةِ القصيةِ

إلى من تحتها في هذه المعمورةِ التي ترجعُ

الضوءَ إليها وتردُّه ، فهو مثارٌ جدلٍ وخلافٍ .

لكنه سواءٌ كان هذا هو الحال في الواقع أم لا ،

١٦٠

سواءٌ كانت الشمسُ هي المهيمنةُ في السماء

وهي التي تشرقُ على الأرضِ ، أم أن الأرضَ هي التي تشرقُ على الشمسِ

وسواءٌ كانت الشمسُ هي التي تبدأُ السيرَ في دربِ النورِ من الشرقِ

أو كانت الأرضُ هي التي تسيرُ في دربِها الصامتِ من الغربِ

بخطواتٍ وثيدةٍ لا تؤذي أحداً كأنما ينأى دورانها

١٦٥

حولَ محورِها الهادئِ ، وهي تسيرُ بانتظامٍ

وتحملُك معها بخفةٍ مع الهواءِ الناعمِ ،

فلا تُقلقُ فِكرَكَ بما خفى من هذه الأمورِ

واتركها لله في علاه ، واعبدهُ واخشاهُ .

وأما المخلوقاتُ الأخرى فدعها له يفعلُ بها ما يشاءُ

١٧٠

حيثما وضعها ويقضى ما يقضى بشأنها ، ولتسعدِ أنتَ

- بما يُسَبِّغُهُ عَلَيْكَ مِنْ نَعَمٍ ، بهذه الفردوس
وبزوجتك حواءَ الجميلة ، فالسَّمَاءُ شاهقةُ البعد عنك ،
وأعلى من أن تُحِيطَ بِمَا يَجْرِي فِيهَا ، كُنْ حَكِيمًا فَتَوَاضَعْ ،
ولا تفكرْ إِلَّا فِيمَا يُهِمُّكَ وَيَخُصُّ جُودَكَ ،
لا تحلمْ بعوالمَ أخرى ، أو بأية مخلوقاتٍ
تعيشُ فيها ، أو بحالاتها أو أوضاعها أو درجاتها
قانعًا بما أُمِيطَ اللَّثَامُ عَنْهُ لَكَ حَتَّى الْآنَ
لا عن الأرضِ فحسبُ بلْ عن أعلى السماواتِ كذلك .
وزال عن آدمَ الشكُّ فَأَجَابَهُ قَائِلًا :
أَحْطَيْتَنِي فَأَشْبَعْتَنِي ، يَا رُوحَ الْفِكْرِ الْخَالِصِ
الْمُسْتَقَى مِنَ السَّمَاءِ ، يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْكَرِيمُ ،
وَعَلَّمْتَنِي أَنْ أَحْيَا مُحَرَّرًا مِنْ أَحَايِلِ الْفِكْرِ الْمُتَشَابِكَةِ ،
سَالِكًا أَيْسَرَ السَّبِيلِ ، لَا مَعَ الْأَفْكَارِ الَّتِي تَبْعَثُ الْحَيْرَةَ
وَتُعَكِّرُ صَفْوَةَ الْحَيَاةِ وَحَلَاوَتَهَا ، وَهِيَ الَّتِي
أَمَرَنَا اللَّهُ أَنْ نُبْعِدَ عَنْهَا جَمِيعَ مَوَاطِنِ الْهَمِّ وَالْقَلَقِ
حَتَّى لَا تُزْعِجَنَا ، وَإِلَّا وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا
نَسْعَى إِلَيْهَا بِأَنْفُسِنَا بِأَفْكَارٍ ضَالَّةٍ وَآرَاءٍ خَاوِيَةٍ .
ولكن العقلَ أو الخيالَ مِنْ طَبْعِهِ أَنْ يَنْطَلِقَ

دون لجامٍ فيضربُ في الشبابِ بلا غايةٍ ،

حتى يُنذَرَ ، أو يتعلمَ من خبرته ، أن يدركَ أن الحكمةَ

هي الجهلُ عموماً بالأشياء البعيدةِ

عما ينفعُه ، أو الغامضةِ أو التي تستعصى على الذهنِ ، وهي العلمُ

بها هو بين أيدينا في حياتنا اليومية ،

بل إن ذلك أوجُ الحكمةِ ، وما عداه أوهامٌ

أو خَوَاءٌ أو انشغالٌ أحرقُ بما لا يُهمُّ ،

ويَحْرِثُنا المعرفةَ بأهمِّ ما يُهمُّنا من أشياءَ

لا مِرَاسَ لنا بها ولا استعدادَ ولا إحاطةَ .

لَنَهْبِطَ إِذْنُ من ذَلِكَ المَرَقَى الرفيعِ

عِدَّةَ درجاتٍ ، ولتحدثَ عن الأشياءِ القريبةِ

النافعةِ ، وربما أَلَمَحْنَا هنا أو ذَكَرْنَا

شيئاً ليس من غير المستساغِ السؤالُ عنه

إذا أَذِنْتَ لِي ، وتكرَّمتَ كَدَّابِكَ معي وتَعَطَّفْتَ .

لقد سَمِعْتُكَ تَقْصُ عَلَيَّ ما وَقَعَ

قبل عهدي بالذاكرةِ ، فَلتَسْمَعْنِي الآنَ أقصُ عليك

قِصَّتِي ، وربما لم تكن سَمِعْتَهَا ،

والنهارُ لا يزال في ريعانه ، ولسوف ترى

ما أبتدعُ من أساليبَ بارعةٍ لاستبقائكَ حتى آخره ،

داعياً إياك للإنصاتِ لى أثناءَ القصِّ ،

وهى سفاهةٌ لولا أننى آملُ أن تردَّ علىّ ،

لكأننى فى السماءِ وأنا أجلسُ معَكَ هنا ،

٢١٠

ومذاقُ كلامِكَ فى أذنى أحلى

من أشهى البلحِ السَّائغِ حينَ أكابدُ العطشَ

والجوعَ معاً ، بعد عودتى من العمل ، فى ساعةٍ

الطعامِ الطيبِ ، فالبلحُ يُشبعُ وسرعانَ ما يُتخَمُ

٢١٥

مهما يكنُ طيبُ مذاقه ، أما كلماتُك فقد أُشربتَ العذوبةَ الإلهيةَ

فشربتُها ، فحلاوتُها لا تتسببُ فى التُّخمةِ .

وأجابه روفائيلُ بلهجةٍ تستقى من السماءِ التواضعَ قائلاً :

بَلْ ولا تفتقرُ شفتاكِ إلى العذوبةِ يا سيِّدَ الرجالِ

ولا يفتقرُ لسانُكِ إلى البلاغةِ ، إذ أفاضَ اللهُ عليكِ

٢٢٠

بسَخاءِ نِعَمِهِ وأغدقَها عليكِ أنتِ أيضاً

ظَاهِرةً وبَاطِنَةً ، يا صورتهِ الجميلةُ ،

فسواءُ تكلمتِ أم سكَّتِ ، كان البهاءُ وكانت العذوبةُ

تُحَفُّ بكِ وتتشكَّلُ فى كُلِّ كلمةٍ وفى كُلِّ حركةٍ .

ونحنُ فى السماءِ لا نتصورُ أنكِ فى الأرضِ أدنى منزلةً

٢٢٥

مَنَا ، فَنَحْنُ إِخْوَانٌ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَنَسْأَلُ

مَسْرُورِينَ سَمَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ ،

إِذْ نَرَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ كَرَّمَكَ ، وَأَفَاءَ

عَلَى الْإِنْسَانِ حُبًّا يَضَارِعُ حُبَّهُ لَنَا ، وَإِذْنٌ فَلْتَحَدِّثْ ،

إِذَا تَصَادَفَ أُنْنِي كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ غَائِبًا

٢٣٠

أَقُومُ بِرَحْلَةٍ غَرِيبَةٍ عَجِيبَةٍ مُوَحِّشَةٍ ،

فِي أَقَاصِي الْمَجَاهِلِ عِنْدَ أَبْوَابِ الْجَحِيمِ

فِي تَشْكِيلِ حَرْبِي رُبَاعِي (بِذَا صَدَرَ الْأَمْرُ إِلَيْنَا)

لَتَتَأَكَّدَ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُرْسَلْ جَاسُوسًا هُنَاكَ

أَوْ عَدُوًّا مِنَ الْأَعْدَاءِ ، أَثْنَاءَ انْهَمَاكِ اللَّهُ فِي عَمَلِهِ ،

٢٣٥

خَشْيَةً أَنْ يَدْفَعَهُ الْغَيْظُ مِنْ جَسَارَةٍ مِثْلِ ذَلِكَ التَّدْخُلِ

إِلَى الْعَصْفِ بِهِ فَيَمْزِجُ الْفَنَاءَ بِالْخَلْقِ ،

وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّ أَحَدًا يَقْدِرُ عَلَى مُحَاوَلَةِ ذَلِكَ دُونَ إِذْنٍ مِنْهُ

وَلَكِنَّهُ يُرْسِلُنَا فِي مَهَامِهِ الْعُلْيَا مِنْ بَابِ

الْمَرَّاسِمِ الْمَلَكِيَّةِ ، فَهُوَ مَالِكُ الْمُلْكِ ، وَحَتَّى نَعْتَادَ

٢٤٠

الطَّاعَةَ عَلَى الْقَوْرِ . وَجَدْنَاهَا مُوصَدَّةً ، مُحْكَمَةً الْإِغْلَاقِ ،

تِلْكَ الْأَبْوَابُ الْبَشِيعَةُ الرَّهِيْبَةُ ، مَتِينَةُ الْمَزْلَاجِ وَالرَّتَاجِ ،

وَلَكِنَّا سَمِعْنَا دَاخِلَهَا قَبْلَ اقْتِرَائِنَا بِوَقْتِ طَوِيلٍ

ضحيجًا يختلفُ عن أصواتِ الرُّقصِ والغِناءِ
بل سوطُ عَذَابٍ يَنْصَبُ ، وعويلٌ يتعالى ، ودمدمةٌ غَضَبٍ جائح .

٢٤٥

وسررنا بالعودةِ إلى شطآنِ النورِ

قبلَ مساءِ اليومِ السابعِ ، يومِ العُطلةِ ، وهكذا انتهينا .

ولكنْ إلى قِصَّتِكَ الآنْ ، فأنا لك مُصنِّعُ

وسعادتي بكلماتك لا تَقِلُّ عن سعادتك بكلماتي .

وانتهى الملاكُ الربانيُّ من الحديثِ وبدأ سيِّدنا يتكلمُ قائلاً

٢٥٠

ما أشق أن يَقْصُ الإنسانُ كيف بدأت حياةُ البشرِ

وما أعسرهُ ، إذ من ذا الذي يعرفُ بدايةَ ذاته ؟

ولكنْ رغبتى فى أنْ أُطيلَ حديثى معك ثم أبسطه

تحفزنى على الكلامِ . كنت كمن أفاقَ لتوه من أعَمَقِ نُعاسٍ

إذ وَجَدْتُنى راقداً على الأعشابِ المزهرةِ اللَّيِّنةِ

٢٥٥

يَتَصَبَّبُ منى عرقٌ لطيفٌ سرعاناً ما جَفَّقَتْهُ أشعةُ الشمسِ

الساطعةِ وتَغَذَّتْ على الأبخرةِ المتصاعدةِ .

وَقَلَّبْتُ عَيْنَى الداهشتينِ فورَ صَحْوَى فى السماءِ

وتأملتُ برهةً صفحةَ الجوِّ المديدةِ ، ثم نَهَضْتُ

قائماً بحركةٍ غريزيةٍ سريعةٍ ، إذ وَجَدْتُنى

٢٦٠

أحاولُ الاندفاعَ جاهداً إلى أَعْلَى فأنصبُ

٤٤١

واقفاً على قَدَمَيَّ ، ونظرتُ حولي فشاهدتُ

التلالَ ، والوديانَ ، والغاباتِ الظليلةَ ، والسهولَ المشرقةَ بنورِ الشمسِ ،

والجداولَ الدفاقةَ السيالةَ ذاتِ الخَريرِ ، ومن حولها

المخلوقاتُ التي تَحيا وتتحركُ وتمشي أو تطيرُ ،

٢٦٥

والطيورُ على الأفنانِ تُغنى ، وجميعُ الأشياءِ تَبَسُّمُ ،

ففاضَ قلبي بالأريجِ والفرحِ .

ثم شرعتُ أتأملُ نفسي ، وأتقصَّى أطرافى واحداً بعد الآخر

ثم مشيتُ حيناً ، وعدوتُ حيناً ،

بمفاصلَ طيعةٍ مرنةٍ ، تدفعني قوةٌ حيويةٌ .

٢٧٠

أما من أنا ، وأين كنتُ ، ومن أين جئتُ ،

فلم أكن أدري ، وحاولتُ النطقَ فتكلمتُ على الفور

وأطاعني لساني ووجدتُ أنني علّمتُ الأسماءَ كُلَّها

وكلُّ شيءٍ رأيتهُ سمّيتهُ . وخاطبتُ الشمسَ قائلاً أيها السراجُ الوهاجُ

وأنتِ أيتها الأرضُ المشرقةُ بالنورِ ، النضرةُ البهيجةُ ،

٢٧٥

وأنتِ أيتها التلالُ والوديانُ ، وأنتِ يا أنهارُ يا غاباتُ يا سهولُ ،

وأنتِ يا أيتها المخلوقاتُ الجميلةُ التي تحيا وتتحركُ ، خبريني

خبريني إن كنتَ شهدتَ كيف وُجدتُ هكذا وكيف جئتُ هنا ؟

لم أوجدُ نفسي ، وإذن أوجدني صانعُ عظيمٍ

٢٨٠

ليس كمثله شيءٌ في الخير والقوة
خبريني كيف أعرفه وكيف أعبدُه
ومن لدنه كلُّ ما أحيَا به وأتحركُ
وأشعرُ أن سعادتي أكبرُ مما أعرفُ عنها .

٢٨٥

وجعلتُ أنادي برههً وأضربُ على غير هدى ، لا أعرفُ أيَّانَ أمضى
من حيثُ نشقتُ الهواءَ أولَ مرةٍ ، ورأيتُ أولَ مرةٍ
ذلك الضوءَ البهيجَ ، وعندما لم يُجبْ أحدٌ ندائي ،
قصدتُ ريوهَ خضراءَ في الظلِّ تحفِلُ بالزهور
فجلستُ أفكرُ ، وهناك جاءني النومُ الرقيقُ
أولَ مرةٍ ، فضغطني ضغطةً لطيفةً وتغشَّى
حواسيَ بالنعاسِ ، ولم أقلقُ ، وإن كنتُ ظننتُ

٢٩٠

أنني كنتُ سأرجعُ آنذٍ إلى حالتي السابقة
فلا أحسُّ شيئاً ثم ما يلبثُ كياني أن ينحلَّ ويدوبَ .
وعندها وجدتُ فجأةً حلمًا واقفًا عند رأسي

٢٩٥

وكان طيفه في داخلي يدفعُ خيالي دفعًا رقيقًا
إلى الاعتقاد بأنني ما زالَ لي كيَانٌ وأنني ما زلتُ
أحيا ، وخلتُ أن أحدهم جاءني في صورةٍ إلهيةٍ
وقال لي : ييتك يفتقدك يا آدم ! انهض

يا أَوَّلَ الْبَشَرِ ! يا من كُتِبَ له أن يكونَ أَوَّلَ أَبٍ لأعدادٍ لا تُحصى

من البشر ! لقد ناديتنى فأتيتُ لأرشدَكَ

إلى جَنَّةِ النعيم ، مقرك الذى أُعِدَّ لك .

٣٠٠

قالها وأمسك بيدي فأنهضنى ومرَّ بى

فوق الحقولِ والمياه ، كأنما كنتُ أنزلُ فى الهواءِ

انزلاً ناعماً دون خطواتٍ ، وأخيراً جاء بى فصعدنا

جبالاً تنمو عليه الغاباتُ ، وكانت قمتهُ العاليةُ سهلاً مُنبسِطاً ،

دائرةٌ شاسعةٌ ، يحيطُها حائطٌ ، وبها أطيبُ الأشجارِ

٣٠٥

قد غُرِسَتْ ، وممراتٌ ، وخمائلٌ ، حتى أن ما سبقَ أن رأيتهُ

فى الأرضِ تلاشى جماله أو كادَ . وكانت كلُّ شجرةٍ

مُحمَلةٌ بأجملِ الثمارِ التى تتدلى فتغرى العينَ

إغراءً ، فأثارتْ فى نفسى اشتهاً مُباغِتاً

بِقَطْفِها وأكلِها ، وعندها صَحَرَتْ فإذا

٣١٠

كلُّ شىءٍ مائلٌ فى الحقيقةِ أمامَ عيني ، كما صَوَّرَهُ الحُلُمُ

تصويراً حياً ، وكنتُ أوشكُ أن أَسْتأنِفَ هنا

جولاتى لولا أن ظَهَرَ الذى أرشدنى

إلى هذا المكانِ الرفيعِ ، من بَيْنِ الشجراتِ ، وبدا

حُضرةُ إلهيةٌ . وفى فَرَحَةٍ امْتَرَجَتِ بالرَّهبةِ

٣١٥

سجدتُ على قدميه أُصَلِّي له خاشعاً

خاضعاً . وأنهضني قائلاً بنبراتٍ رقيقةٍ : إني أنا ،

أنا الذي دَعَوْتُهُ فاستجابَ ، رَبُّ كُلِّ ما ترى

من فَرْقِكَ أو من حَوْلِكَ أو من تَحْتِكَ .

إني أُمْنِحُكَ هذه الفردوسَ ، فاعتبرها مَلِكًا لك ،

٣٢٠

لتفْلَحَها وترعاها ، وتأكُل من ثمارها ،

من كلِّ شجرةٍ تنمو في الجَنَّةِ

كُلِّ ما تشاءُ بقلبٍ مسرورٍ ، ولا تَخْشَ هنا نَقْصًا ،

إلا الشجرةَ التي تَعُودُ على الأكل منها

بِمَعْرِفَةِ الخير والشر ، فلقد جَعَلْتُها رَهْنًا

٣٢٥

لِعَهْدِ طَاعَتِكَ وإِخْلَاصِكَ ، إنها

في الجَنَّةِ بجوارِ شجرةِ الحياةِ

فتذكَّرْ تحذيري لَكَ وَتَجَنَّبْ مَذَاقَها

وَتَجَنَّبْ عَاقِبَتَهُ المُرَّةَ ، واعْلَمْ

أَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ منها وتَعْصِي أَمْرِي الأَوْحَدَ

٣٣٠

وتَعْصِينِي فسوفَ تَمُوتُ حَتْمًا ،

ويُكْتَبُ عَلَيْكَ الفَنَاءُ من ذلك اليومِ ، وشتاتُ هذه السعادةِ

وفقدانُها ، وسوفَ تَطْرُدُ من هنا إلى عالمٍ

٤٤٥

الآلام والأحزان . وكانت نبراته صارمةً وهو ينطق بذلك

التحريم الجازم ، وما زالت تلك النبرات يتردد صداها

٣٣٥

المخيف في أذني ، وإن كنت قد اخترتُ

ألا أعرض نفسي له ، ولكن سرعان ما عاد الصفاء

إلى محيّاه ، واستأنف حديثه العذب قائلاً :

عَظِيَّتِي لَا تَقْتَصِرُ عَلَى مَا فِي هَذِهِ الْحُدُودِ الْجَمِيلَةِ ، بَلْ تَشْمَلُ الْأَرْضَ كُلَّهَا

إِذْ أَمْنَحُكَ إِيَّاهَا أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ ، فَكُونُوا أَسْيَادًا عَلَيْهَا

٣٤٠

وامتلكوها ، وجميع الأشياء التي تعيش فيها

أَوْ تَعِيشُ فِي الْبَحْرِ أَوْ الْجَوِّ مِنْ حَيَوَانٍ وَسَمَكٍ وَطَيْرٍ .

وآيَةُ ذَلِكَ أَنِّي سَأَعْرِضُ عَلَيْكَ كُلَّ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ

بَشْتَى أَنْوَاعِهَا ، سَوْفَ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ حَتَّى تَتَلَقَى

مِنْكَ أَسْمَاءَهَا وَتُعْلِنَ لَكَ وَلَاءَهَا

٣٤٥

وَحُضُوعَهَا الْخَاشِعَ ، وَافْهَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَصْدُقُ

عَلَى الْأَسْمَاكِ فِي مَنَازِلِهَا الْمَائِيَّةِ

وَلَنْ أَدْعُوهَا لِلْمَثُولِ هُنَا لِأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ

بَيْتِهَا فَتَسْتَنْفَسُ الْهَوَاءَ الْخَفِيفَ .

وَمَا إِنْ انْتَهَى مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى رَأَيْتُ أَنْوَاعَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ

٣٥٠

مَقْبِلَةً ، مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، فَالْحَيَوَانُ يُقْعَى وَيَقْبَعُ

تَزَلَّفًا وَمَلَقًا ، وكلُّ طَيْرٍ رَاكِعٌ عَلَى جَنَاحِهِ ،
وَسَمِيَتْ كُلًّا مِنْهَا وَهِيَ تَمُرُّ أَمَامِي وَفَهِمْتُ
طَبِيعَتَهَا ، إِذْ وَهَبَنِي اللَّهُ الْمَعْرِفَةَ بِهَا فَوَجَدْتُ
أَفْهَمَهَا فَجَاءَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَعْثُرْ بَيْنَهَا جَمِيعًا
وَلَمْ أَجِدْ مَا ظَنَنْتُ أَنَّي مَا زِلْتُ أَطْلُبُهُ ،

٣٥٥

وَهَكَذَا تَجَاسَرْتُ عَلَى الْحَدِيثِ إِلَى الرُّؤْيَا السَّمَاوِيَةِ قَائِلًا :
بِأَيِّ اسْمٍ أَدْعُوكَ يَا مَنْ تَعْلُو عَلَى الْجَمِيعِ

وَتَعْلُو عَلَى الْإِنْسَانِ ، وَعَلَى كُلِّ مَا يَعْلُو عَلَى الْإِنْسَانِ ،

٣٦٠

وَتَفُوقُ طَاقَتِي عَلَى التَّسْمِيَةِ ، قُلْ لِي كَيْفَ

أَعْبُدُكَ ، يَا صَاحِبَ هَذَا الْكَوْنِ وَصَانِعَهُ ،

وَكُلُّ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي وَهَبْتَهَا لِلْبَشَرِ ، وَوَفَّرْتَ لِرَفَاهِيَّتِهِ كُلَّ شَيْءٍ ،

بَسْخَاءٍ ، وَبِيَدَيْنِ مَبْسُوطَتَيْنِ أَنْفَقْتَ

فَهَيَّأتَ لَهُ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا

لَا أَرَى مِنْ يُشَارِكُنِي إِيَّاهَا . فَمَا فِي الْعِزَّةِ

٣٦٥

مِنْ سَعَادَةٍ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ التَّمَتُّعَ وَحْدَهُ ،

وَلَوْ تَمَتُّعَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَأَيُّ رِضَى يَأْتِيهِ ؟

هَكَذَا قُلْتُ مُتَجَاسِرًا ، وَإِذَا بِرَبِّ الرُّؤْيَا الْمُنِيرَةِ

يَجِيبُ ، كَأَنَّمَا ابْتَسَمَ فَرَادَهَا نُورًا عَلَى نُورٍ ، قَائِلًا :

ما الذى تدعوه عزلة ؟ أليست لك الأرضُ

٣٧٠

بشتى الكائناتِ الحية ، والهواءُ الحافلُ

الزاهرُ ، وكل هذه جميعاً طوعُ أمرِكَ بأن

تأتى وتلعبَ بين يديكَ ، وألا تعرفُ

لغتها وأساليبَ حياتها ، إنها تستطيعُ الإدراكَ أيضاً

ولديها طاقةٌ لا يستهانُ بها على الاستنباط ، فانشدُ

٣٧٥

التسريةَ عن نَفْسِكَ معها وافرضُ أحكامَكَ عليها فَمَمْلَكَتُكَ شاسعة .

هكذا تحدثَ ربُّ العالمين ، فكأنما كان

يأمرنى بذلك ، ولكنتى تَضَرَّعْتُ إليه أن يسمحَ لى بالكلام ،

ومن ثمَّ أجبتُ فى ذِلَّةٍ وتواضعٍ جَمَّ قائلاً :

أرجو ألا تُغْضِبَكَ كلماتى ، يا مَلِكَ السَّما

٣٨٠

يا صانعى ، وتَقَبَّلْ كلامى بِقَبُولٍ حَسَنِ .

ألم تجعلنى هنا خليفةً لك

وتجعلَ كُلَّ هذه المخلوقاتِ فى منزلةٍ أدنى كثيراً منى ؟

كيف يكونُ التلاقى والخلطة إذا تفاوتتُ المنازلُ

وكيف يكونُ التواءُ أو التناغمُ أو المتعةُ الصادقةُ ؟

٣٨٥

لا بد لذلك من التماثلِ والحفاظِ على التناسبِ الواجبِ

فى الأخذِ والعطاء ، أما إذا تفاوتَ الطرفانُ

فكان أحدهما كالوتر المشدود والآخر كالوتر المرتخي أبداً
فمن المحال التلاؤم بينهما ، وسرعان ما يصبح
كلُّ منهما مُملأً وملولاً معاً ، وأنا أتحدثُ عن الرفقة
التي أطلبها ، القادرةُ على توفيرِ

٣٩٠

المتعة العقلية والمشاركة فيها ، ولا يستطيع الحيوان الأعجمُ
أن يكون رفيقاً للإنسان في ذلك ، فالحيوانات تستمتعُ
برفقة بعضها البعض ، كالأسد واللبؤة .

فلقد خلقتُهما أزواجاً يناسبُ كلُّ منهما صاحبه

٣٩٥

ولا يستطيع مثل هذا النجاح في الرفقة الطيرُ مع الحيوان ،
أو السمكُ مع الدجاج ، أو الثورُ مع القرد ،
وأبعدُ ما يكون عن النجاح الإنسانُ مع الحيوان ، بل أبعدُ البعيد .

وأجاب العليُّ القديرُ دون أن يغضبَ قائلاً :

تلك سعادةٌ ما أدقُّها وأرقُّها وأندرها ، فيما أرى ،

٤٠٠

تلك التي تطلبها لنفسك في اختيارٍ من

يرافقك يا آدم ، وأرى أنك عازفٌ عن تذوقِ

السُّرور ، على ما أنت فيه من السُّرور ، ما دمتَ وحدك .

ماذا تقول عني إذن ، وهذه حالي ،

هل أبدو لعينك وقد ملكتُ ما يكفي

٤٠٥

من السعادة أم لا ؟ أنا الوحيدُ
منذ الأزل ، إذ لا أعرفُ أحداً
يلينى فى المنزلةِ أو يشبهنى ، وما أبعد أن يكونَ لى كُفؤاً أحداً .
من ترانى أخاطبُ إذن أو أخالطُ
إلا المخلوقاتِ التى صنَّعتها ، وهى

٤١٠

أدنى منى وأشدَّ انخفاضاً وتدنياً غير محدود
من انخفاضِ المخلوقاتِ الأخرى عنك .
وتوقَّفَ فأجبتُ بتواضعٍ قائلاً : إن بلوغَ
ذُرِّا فعَالِكَ السَّرمديَّةِ أو أعماقِها

٤١٥

تَقْصُرُ عنه كلُّ أفكارِ البشرِ ، يا سيِّدَ الأكوانِ ؛
فأنتَ فى ذاتِكَ كاملٌ ، ولا يوجدُ فيكَ
أى نقصٍ ؛ والإنسانُ ليس كذلك ،
وباستثناءِ الدرجةِ ، ترى ذلك سببَ رغبتهِ
فى أن يتوسَّلَ بالحديثِ مع من يماثلُه ليساعدهُ
فى استكمالِ نقائصِهِ أو تسريتهِ . ولا حاجةَ لك
بالإنجابِ لأنَّكَ أزلَى أبديٌّ لا نهائى ؛

٤٢٠

وأنتَ مُطلَقٌ فيكَ الأعدادُ كُلُّها مع أنكَ واحدٌ أحداً ؛
ولكنَّ الإنسانَ يستعينُ بالعدَدِ الذى يُبينُ له

نَقْصَهُ إِنْ كَانَ مُفْرَدًا ، وَيَجْعَلُهُ يَنْجِبُ

مِثْلًا يُشَبِّهُهُ مِنْ جَنْسِهِ ، فَتَكَاثُرُ صُورِهِ ،

٤٢٥

لِأَنَّ وَحْدَتَهُ نَقْصٌ ، وَهِيَ تَتَطَلَّبُ

حُبًّا مُوَازِيًّا مُصَاحِبًا ، وَوُدًّا غَالِيًّا وَثِيقًا .

وَأَنْتَ فِي أَسْرَارِكَ ، عَلَى وَحْدَتِكَ

تَفْضَلُ أَلَّا يُصَاحِبَكَ غَيْرُ ذَاتِكَ ، وَلَا تَسْعَى

لِلخُلُطَةِ وَالرَّفَقَةِ ، وَأَنْتَ بِهِذَا جِدُّ مُسْرُورٍ ،

٤٣٠

وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَرْفَعَ أَيَّ مَخْلُوقٍ خَلَقْتَ إِلَى أَيِّ دَرَجَةٍ تَشَاوُهَا

مِنْ دَرَجَاتِ الرُّفْعَةِ فَيَتَوَحَّدَ الْمَخْلُوقُ مَعَكَ أَوْ يَذُوبَ فِيكَ تَوَاصِلًا

أَمَّا أَنَا فَلَا أَسْتَطِيعُ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّخَاطُبِ أَنْ أَرْفَعَ الدَّوَابَّ الْمُنْحَنِيَةَ الْقَامَةَ

إِلَى مَسْتَوَى الْإِنْسَانِ الْمُنْتَصِبِ ، وَلَا أَنْ أَجِدَ فِيهَا مَصْدَرَ مَتْعَةٍ

وَأَنْتَ هَكَذَا مِنْ حَدِيثِ الْجَسُورِ ، وَأَنْتَفَعْتُ بِالْحَرِيَّةِ

٤٣٥

الَّتِي أَذِنَ لِي بِهَا ، وَلَقِيتُ مِنْهُ الْقَبُولَ الَّذِي أَتَى

بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ مِنَ الصَّوْتِ الْإِلَهِيِّ الْكَرِيمِ إِذْ قَالَ :

لَقَدْ سَرَّنِي الْإِخْتِبَارُ الَّذِي أَجَرَيْتُهُ لَكَ حَتَّى الْآنَ يَا آدَمُ

إِذْ وَجَدْتُ أَنَّ مَعْرِفَتَكَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ

وَهِيَ الَّتِي أَصَبْتَ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهَا ، بَلْ تَشْمَلُ ذَاتَكَ أَيْضًا

٤٤٠

بَعْدَ أَنْ عَبَّرْتَ عَنِ الرُّوحِ الْحَرِّ فِي دَاخِلِكَ تَعْبِيرًا جَمِيلًا

٤٥١

فهى صورتي ، وهى التى لم أَمْنَحْها إلى الحيوان ،

وهكذا فإن رفقته غير ملائمة لك ،

وهو سببٌ وجيهٌ جعلك ، بمحضِ حريتك ، تنفرُ منه

وما زال يتسببُ فى نفورك ، وكنتُ ، من قبلِ أن تتكلمَ ،

أعلمُ أن بقاءَ الرجلِ وحدهُ ليس حسناً ، ٤٤٥

ولم أكن أقصدُ أن أجعلَ لك رفيقاً من المخلوقاتِ التى رأيتها

وما اعترمتُ ذلك ، بل أتيتُ بها لاختبارك فحسب ،

ولأرى قدرتك على الحكم على ما يصلحُ لك ويلائمُك ،

وأما ما سوفَ آتى به الآن فسوفَ يُرضيك ، وكُن واثقاً من ذلك ،

فهى نظيرُك ، ومُعِينُك المناسبُ ، وذاتُك الأخرى ٤٥٠

ورغبتُك التى حدّدها اشتهاؤُ قلبك تماماً .

وانتهى من حديثه أو أقل إننى لم أعدُ أسمعُ صوته ، إذ كان

كيانى الأرضى قد غلبه كيانه السماوى ، بعد أن

ظل طويلاً يعانى وطأةَ الجلالِ ، ويكابدُ ليرتفعَ إلى الذُّرا

فى ذلكَ الحديثِ السماوى الرفيع ، ٤٥٥

مثلما يكابدُ كُلُّ ما يتجاوزَ الحواس .

كنتُ مبهوراً مسلوبَ القوى فوقعتُ منهاراً أنشدُ العلاج

فى النوم ، الذى غَشِيَنى فى اللحظةِ نفسِها ، والذى استدعته

الطبيعة كأنما لتعينني ، وأغمضت عيني .

٤٦٠

لقد أغمض عيني ، ولكنه لم يغلق نافذة الرهيم ،

كانت 'الواهمة' الضوء الباطن ، وعلى نوره

ظننت أنني أرى ، كأنني أغيب غيبوبة انشاء ،

وإن كنت نائماً ، حيث رقدت ، ظننت أنني أرى الطيف الذي

كان يشع بهاءً وجلالاً ، والذي كنت أقف بين يديه في يقظتي ،

٤٦٥

وقد انحنى على جسدي ، وشق جانبي الأيسر ، وأخذ

منه ضلعاً ، دافئاً بروح الحياة من القلب ،

ودم الحياة يجري فيه نابضاً ، وكان الجرح واسعاً

ولكنه امتلأ فجأةً باللحم والتأم ،

وتناول الضلع بيديه فصاغه وشكله ،

٤٧٠

وفي يديه الصائغتين تشكل مخلوقاً ونمًا ، كانت

تشبه الرجل ، ولكنها من جنس مختلف ، بالغة الحُسن والجمال ،

حتى إن كل ما كان قد بدا جميلاً في الكون ، أصبح يبدو

دونها ، أو قل إنها جمعت كل محاسن ما قبلها واشتملت عليه

وتبدت في قسماتها ، ومنذ تلك اللحظة بثت

٤٧٥

العدوبة في قلبي ، عدوبة لم أشعر بها من قبل ،

ونفشت في جميع الأشياء ، من صورتها وأنفاسها ،

٤٨٣

روح الحب وسرور الغرام وبهجة .

واختفت وخلقتني حائراً ، وصحوت

لأعثر عليها أو لأبكي إلى الأبد

فقدانها وأقلع عن كل متعة أخرى سواها .

٤٨٠

وعندما فقدت الأمل ، إذا هي أمامي ، غير بعيد ،

على الصورة التي بدت بها في المنام ، مزينة

بكل ما تستطيع السماء والأرض أن تضيفه عليها

لتجعلها جذابة ، وأقبلت نحوي

يهدئها صانعها السماوي ، وإن كان خفياً

٤٨٥

وتسترشد بصوته ، ولم تكن تجهل

قداسة الزواج وشعائر عقد القرآن :

بدت الرشاقة في كل خطوة تخطوها ، والسماء في عينها ،

وفي كل حركة وإيماء رزانه وحُب .

٤٩٠

ولم أستطع أن أقاوم الإعراب عالياً عن فيض فرحتي ، قائلاً :

لقد عوضتني بهذا خير تعويض ، إذ صدق

وعذك ، أيها الخالق ذو الخير والنعم السابغة ،

واهب كل العطايا الجميلة ، وأجملها هذه العطية

من عطايك جميعاً ، التي لم تضن بها . فالآن أرى

٤٩٥

عَظَمَ عِظَامِي ، وَلَحَمَ لَحْمِي ، وَنَفْسِي مَائِلَةٌ

أَمَامَ عَيْنِي ، وَاسْمُهَا الْمَرْأَةُ ، وَمِنَ الرَّجُلِ

اسْتُخْلِصْتُ ، وَلِهَذَا السَّبَبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّى

عَنِ الْآبِ وَالْأُمِّ ، وَيَسْتَمْسِكُ بِزَوْجَتِهِ ؛

وَيَصْبَحَانِ مِنْ ثَمٍّ جَسَدًا وَاحِدًا ، وَقَلْبًا وَاحِدًا ، وَرُوحًا وَاحِدَةً .

٥٠٠

سَمِعْتَنِي أَقُولُ ذَلِكَ ، وَمَعَ أَنَّهَا عَطِيَّةُ إِلَهِيَّةٌ

إِلَّا أَنْ الْبَرَاءَةَ وَخَفَرَ الْعُذْرِيَّةَ وَأَدْبَهَا ،

وَمَا تَتَحَلَّى بِهِ مِنْ فَضِيلَةٍ وَمَا تَعْرِفُهُ عَنْ عُلُوِّ قَدْرِهَا ،

كَانَ يَحْتَمُّ أَنْ أَخْطُبَ وَدَّهَا ، وَأَنْ أَسْعَى لَهَا سَعْيَهَا

حَتَّى أَنَالَهَا ، وَلَمْ تَكُنْ بَرَزَةً يَسِيرَةَ الْمَنَالِ بَلْ مُتَمَنِّعَةً خَجَلَةٍ

٥٠٥

مِمَّا زَادَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْهَا ، أَوْ إِذَا أَجْمَلْتُ الْقَوْلَ قُلْتُ

إِنَّ الطَّبِيعَةَ نَفْسَهَا جَعَلَتْهَا ، عَلَى طَهْرِهَا مِنْ أَى فِكْرٍ أَتَمُّ ،

تَشْعُرُ بِمَا شَعُرْتُ بِهِ حَتَّى إِنَّهَا عِنْدَمَا رَأَتْنِي اسْتَدَارَتْ

فَمَضَتْ خَلْفَهَا ، وَكَانَتْ تَعْرِفُ مَعْنَى تَكْرِيمِ الزَّوْاجِ

فَأَبْدَتْ رِضَاَهَا بِطَاعَةِ يَزِينِهَا الْجَلَالُ ، وَقَبُولَهَا

٥١٠

تَوَسَّلَى وَمَنْطَقَى . وَذَهَبْتُ إِلَى خَمِيلَةِ الزَّفَافِ

مَعَهَا وَقَدْ عَلَتْهَا حُمْرَةُ الْخَجَلِ كَأَنَّهَا شَفَقُ الصَّبَاحِ ، وَإِذَا بِالسَّمَاءِ

ذَاتِ الْبُرُوجِ وَنَجُومِ السَّعْدِ تَلْقَى عَلَى تِلْكَ السَّاعَةِ

أَصْفَى بَرَكَاتِهَا وَأَنْقَاهَا ، وَالْأَرْضُ

تُظْهِرُ آيَاتِ الْفَرْحِ وَالتَّهَانِي ، وَكُلُّ تَلٍّ مِنَ التَّلَالِ ،

٥١٥

وَكَانَتِ الطُّيُورُ فِي فَرْحٍ ، وَالرِّيَّاحُ الْمُنْعَشَةُ وَالنِّسَائِمُ الْعَلِيلَةُ

تَهْمِسُ بِالْفَرْحِ إِلَى الْغَابَاتِ ، نَاشِرَةً أَجْنِحَتَهَا

هَابَةً نَاهِضَةً ، نَاثِرَةً أَلْوَانَ الشُّذَا مِنَ الشُّجَيْرَاتِ الْعَطِرَةِ ،

مُتَوَاتِبَةً لَاهِيَةً ، حَتَّى بَدَأَ الْبَلْبَلُ ، غَرِيدُ غَرَامِ اللَّيْلِ ،

يُنْشِدُ لَحْنَ الزَّفَافِ ، وَيَحُثُّ نَجْمَ الْمَسَاءِ أَنْ يُسْرِعَ فَيَزُغَ

٥٢٠

عَلَى قِمَّةِ التَّلِّ الَّذِي يَعْتَلِيهِ حَتَّى يُشْعَلَ مُصْبَاحَ الْعُرْسِ .

وَهَكَذَا انْتَهَيْتُ مِنْ إِضْصَاحِ أَحْوَالِي ، وَبَلَغْتُ فِي

قِصَّتِي ذِرْوَةَ النِّعَمِ الْأَرْضِيَّةِ

الَّذِي أَهْنَأُ بِهِ الْآنَ ، وَلَا بَدَّ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنِّي أَجِدُ

فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى مَتْعَةً حَقِيقَةً ، وَلَكِنَّهَا ،

٥٢٥

سِوَاءِ انْتَفَعْتُ بِهَا أَمْ لَا ، لَا تُغَيِّرُ فِي الذِّهْنِ شَيْئًا ،

وَلَا تُشِيرُ إِلَى رَغْبَةٍ جَامِحَةٍ ، وَأَقْصِدُ بِهَا اللَّطَائِفَ الَّتِي تُذَكِّرُهَا

الْحَوَاسَّ مِثْلَ التَّذْوِيقِ وَالْإِبْصَارِ وَالشَّمِّ ، لِلْأَغْشَابِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْأَزْهَارِ

وَمِثْلَ التُّزْهَاتِ وَالْحَانَ الْأَطْيَارِ ، وَلَكِنِّي بَدَأْتُ هُنَا

أَنْتَشِي نَشْوَةً تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا شَاسِعًا ، إِذْ عَرَفْتُ

٥٣٠

فِي نَشْوَتِي حَاسَةً اللَّمَسِ ، وَهُنَا أَحْسَسْتُ الْغَرَامَ الْمَشْبُوبَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ،

جَيْشَانٌ فِي النَّفْسِ شَدِيدٌ غَرِيبٌ ، فَإِذَا كُنْتُ فِي جَمِيعِ الْمَسَرَّاتِ الْآخَرَى
مَالِكًا زَمَامَ نَفْسِي رَابِطَ الْجَاشِ ، أَصْبَحْتُ هُنَا ضَعِيفًا
أَمَامَ سِحْرِ نَظَرَةِ الْحُبِّ الْجَبَّارَةِ .

فَإِمَّا أَنْ الطَّبِيعَةَ ضَعُفَتْ فِي دَاخِلِي فَتَرَكْتُ جَانِبًا

غَيْرَ مَنِيْعٍ ، عَاجِزًا عَنِ الصَّمُودِ أَمَامَهُ ، ٥٣٥

وَإِمَّا أَنَّهُ اقْتَطَعَتْ مِنْ جَانِبِي قِسْمًا كَبِيرًا ، وَرَبِمَا كَانَ

أكْبَرَ مِمَّا فِيهِ الْكَفَايَةُ ، وَكَانَتْ النَتِيجَةُ ، عَلَى الْأَقْلَ ، هِيَ أَنْ أَضْفَتْ عَلَيْهَا

أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي مِنَ الزَّيْنَةِ ، فَكَانَ الظَّاهِرُ مُحْكَمًا

بِالْغِ الدَّقَّةِ ، وَالْبَاطِنُ أَقْلٌ إِحْكَامًا وَدَقَّةً .

وَأَنَا أَفْهَمُ كُلِّ الْفَهْمِ الْغَايَةَ الْأُولَى ٥٤٠

لِلطَّبِيعَةِ فِي جَعْلِهَا أَدْنَى دَرَجَةٍ فِي الْعَقْلِ

وَالْمَلَكَاتِ الْبَاطِنَةِ ، عَلَى امْتِيَازِهَا وَتَفَوُّقِهَا عَلَى الْجَمِيعِ ،

كَمَا كَانَتْ فِي مَظْهَرِهَا أَيْضًا أَقْلٌ شَبَّهًا

بِصُورَةِ الَّذِي صَنَعْنَا نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ ، وَأَقْلٌ تَعْبِيرًا عَنْ

طَائِعِ السِّيَادَةِ الَّذِي مَنَحْنَا إِيَّاهُ ٥٤٥

عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ الْآخَرَى ، وَلَكِنِّي عِنْدَمَا أَقَارِبُ

جَمَالَهَا ، تَبْدُو لِعَيْنِي فِي أَوْجِ الْكَمَالِ ،

وَذَاتُهَا فِي غَايَةِ الْاِكْتِمَالِ ، فَأَسْعَى إِلَى مَعْرِفَةِ

ما تذهبُ إليه ، فكلُّ ما تريدُ فعله أو قوله

يبدو وقد تحلّى بأكبرِ قدرٍ من الحكمةِ والفضيلةِ والتكتمِ ، فهو الأحسنُ . ٥٥٠
وكلُّ معرفةٍ عليا في حضورها تسقطُ

انحطاطاً ، والحكمةُ في الحديثِ معها

ينفِرُ عُقْدُهَا وَيَشْحُبُ مُحْيَاها وتبدو كالحُمقِ ،

وتُظَلِّها شِيمَةُ السُّلْطَةِ والعقلِ

كشِيمَةِ غُرِسَتْ عَمْدًا أَوَّلًا ، فهي أصيلةٌ ولم تُضَفَ عليها لاحقًا ٥٥٥

عَرَضًا ، وتكتمَلُ الصورةُ حين ترى

كَرَمَ النَّفْسِ وَالشَّرَفِ وهما يُقِيمَانِ مَقَرَّهُما

وَيَبْنِيَانِهِ أَرُوعَ بُنْيَانٍ فِيهَا ، وَيَخْلُقَانِ جَوًّا مِنَ الرَّهْبَةِ

حَوْلَهَا ، كَأَنَّهُ مَلِكٌ حَارِسٌ مُكَلَّفٌ بِهَا .

وَرَدَّ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مُقَطَّبَ الْجَبِينِ قَائِلًا : ٥٦٠

لَا تَتَّهِمِ الطَّبِيعَةَ بِشَيْءٍ ، فَلَقَدْ أَدَّتْ مُهِمَّتَهَا ،

وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَنْهَضَ بِمُهِمَّتِكَ ، وَلَا تَفْقِدِ الثِّقَةَ

فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَلَنْ تَخْلَى عَنْكَ إِذَا

دَامَ اسْتِمْسَاكُكَ بِهَا ، وَأَنْتَ فِي مَسِيرِ الْحَاجَةِ إِلَى قُرْبِهَا الْآنَ ،

فَلَا تُضَفِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي ٥٦٥

يَقِلُّ امْتِيَازُهَا عَمَّا تَرَاهُ ، عَلَى نَحْوِ مَا تَدْرِكُ أَنْتَ نَفْسُكَ ،

فما الذى تُعجَبُ به ، وما الذى يَهْبِكُ كُلُّ هذا الانتشاء ؟
 ظاهرها ؟ إنها جميلةٌ بلا شك ، وجديرةٌ جدارةً تامّةً
 بإعزازك إياها وتكريمك وحُبِّك

٥٧٠

لا بأن تُخضِعَكَ لها ، ضَعْ نَفْسَكَ فى الميزانِ معها
 وانظرَ قيمةَ كلِّ كِفَّةٍ ، فكثيراً ما يجدُ المرءُ أكبرَ فائدةٍ
 فى تحديدِ قيمةِ ذاتِهِ ، استناداً إلى العَدَلِ والحقِّ
 دونَ شَطَطٍ ، وكُلِّما زَادَتْ بَراعتُكَ فى هذا التَّحْدِيدِ والمَعْرِفَةِ
 ازدادَ إقرارُها بأنك أنتَ رأسُها ،

٥٧٥

وإسلاسُها للحقائقِ قِياَدَ مَظْهَرِها الجميلِ
 الذى خُلِقَ بالغِ البهاءِ حتى يَزِيدَ من سُروركِ
 وبالغِ المهابَةِ حتى تلتزمَ الشرفَ فى حُبِّك
 لزوجتك التى تُدركُ متى تَنَحَّسِرُ حِكْمَتُكَ إلى أدنى درجاتِها .
 أما إذا كانت حاسةُ اللمسِ التى يتوسلُ بها الإنسانُ

٥٨٠

فى التكاثرِ تبدو لعينِكَ مصدرًا للمتعة
 يفوقُ كُلَّ الحواسِ ، فتذكرُ أن متعةَ هذه الحاسةِ قد وُهِبَتْ
 للأبقارِ ولكلِّ حيوانٍ ، ولم يكنِ الخالقُ
 لِيُشِيعَهَا وَيُفْشِيَهَا بينها ، لو كان فى حِصَادِ
 مُتَعَتِها أى شىءٍ جديرٍ بأن يُخضَعَ

٥٨٥

روح الإنسان أو يُحرِّك في نفسه العاطفة
وكل ما تجده رفيعاً سامياً في صحبتها من
جاذبية وشمائل إنسانية وعقلية ، فلك أن تُحبّه على الدوام
فأنت تصيب حين تحب ، وتخطئ حين تجرّفك العاطفة المشبوبة ،
إذ لا تنطوي تلك على حب حقيقي ، فالحب

٥٩٠

يُهدّب الأفكار ، ويزيد من راحة الفؤاد ، ويتخذ مقرّه
في العقل ، وهو صائب الأحكام ، بل هو السلم
الذي يتيح لك إذا ارتقيته أن تصل إلى الحب الإلهي
لا أن تهوى فتغرق في الملاذ الجسدية ، ولهذا السبب
لم يُعثر لك على زوج من بين ضروب الحيوان .

٥٩٥

وأجابه آدم وقد مسّه شيء من الخجل قائلاً :

لا ظاهرها الذي صورّ بهذا الجمال ، ولا أي صفة
من صفات التكاثر التي تشترك فيها جميع المخلوقات
(وإن كانت أسمى كثيراً في فراش الزوجية

حتى إنني أوليها احتراماً عظيماً لا أدرى كنهه)

٦٠٠

لا هذا ولا ذاك يُمتعنى متعة تفوق ما ألقاه في كريم فعالها
وفي ألف آية من آيات التأدّب والتهذيب التي تتدفق كل يوم
في جميع ألفاظها وأعمالها ، ممتزجة بالحب

- والطاعة العذبة ، إذ تُفصحُ عن صدقِ
وَحْدَةِ الذَّهْنِ فينا ، والروحِ الواحدةِ في جَسَدَيْنَا ،
٦٠٥ إنه تناغمٌ يُرى في التوافقِ بين الزوجينِ
أَحَلَّى من وَقَعِ الألحانِ المتوافقةِ في الآذانِ .
ولكنَّ هذه جميعاً لا تُخضعُنِي لها ، إنني أَكشِفُ لَكَ
عما أُحِسُّه في أعماقي ، ولا يعنى بالضرورة أنه يَقهرُنِي
أنا الذي تُواجهُنِي الحواسُّ بِشَتَّى الأشياءِ ،
٦١٠ بصورٍ وأشكالٍ شَتَّى ، ولكنني أتمتعُ بالحريةِ
في أن أَرْضَى عما أَشاءُ منها ، وأن أنالَ ما أَرْضاهُ .
لا تَلْمَنِي إذنَ على الحُبِّ ، فالحُبُّ كما تقولُ
يُؤدِّي إلى السماءِ ، فهو السبيلُ وهو الهادي ،
فاصْبِرْ على دَعْوَايَ إذنَ ، إن كانَ مَطْلِبِي مشروعاً !
٦١٥ أَفَلاَ تعرفُ الحُبَّ أرواحُ السماءِ ، وكيفَ تُفصحُ عن حُبِّها
وتعبِّرُ عنه ، أبالنظراتِ فقط ، أم تُراها تتمازجُ فيما
تُشعُّ من أنوارٍ ، هل باللمسِ المُتَخَيَّلِ أم باللمسِ الفِعْلِيِّ ؟
وتطلعُ إليه المَلَكُ بِسِمَةِ تَوَهَّجَتْ وَهَجاً
سماوياً وَرَدِيّاً أَحْمَرَ ، لَوْنِ الحُبِّ الصَّادِقِ ،
٦٢٠ وأجابه قائلاً : يكفيكَ أن تعرفَ أننا

سُعداء ، ولا سعادة دون الحب ،

وكلُّ ما تستمتعُ أنت به جسدياً من نقاء وطهرٍ

(ولقد خلقتَ نقيّاً طاهراً) نستمتعُ به نحنُ

إلى أقصى حدٍّ ، دون أن نصادفَ العوائقَ الجسديةَ

٦٢٥

من أغشية أو مفاصل أو أطرافٍ هي قُضبانُ السَّجْنِ البشريِّ ،

وإذا تعانقتُ الأرواحُ فعناقُها أيسرُ من عناقِ الهَوَاءِ مع الهَوَاءِ

إذ تمتزجُ امتزاجاً كاملاً ، في اتحادِ النِّقاءِ مع النِّقاءِ

الذي يشتاقي إليه ، ولا نحتاجُ إلى قَهْرٍ عوائقِ التَّواصلِ

التي يلقاها امتزاجُ جَسَدٍ بجَسَدٍ أو نَفْسٍ بِنَفْسٍ .

٦٣٠

ولكنني يجبُ أن أُقلعَ الآنَ ، فالشمسُ الغاربةُ

وراءَ رأسِ الأرضِ الخضراءِ والجزائرِ الزَّهراءِ

تغوصُ في الأفقِ الغربيِّ ، وهي الإشارةُ المؤذنةُ برحيلي .

فلتَنعَمَ بالقُوَّةِ والحياةِ الهائلةِ والحبِّ ، لكن اذكر أولاً

من يكونُ حُبّه في طاعته ، ولا تَعْصِ

٦٣٥

أمره العظيمَ ، وحاذرُ أن تجرفَكَ العاطفةُ المشبوبةُ

فيفعلَ حُكْمُكَ أيَّ شيءٍ تنبؤ عنه إرادتكُ الحرّةُ

ولا ترضاهُ ، فمصيرُك ومصيرُ جميعِ أبنائك

من خيرٍ أو شرٍّ قد وُضِعَ في يَدِكَ ، فَخُذْ حِذْرَكَ .

- لسوف يَسُرُّنِي أَنْ أَرَكَ صَابِرًا مُصَابِرًا
- ٦٤٠ وَكُلُّ مَنْ بُورِكَ فِيهِمْ ، فَكُنْ صَامِدًا وَالثَّبَاتُ أَوْ السَّقُوطُ
فِي يَدِكَ ، وَيَكْمُنُ فِي حُرِّيَّةِ اخْتِيَارِكَ وَحَدِّكَ .
الْبَاطِنُ كَامِلٌ فَلَا تَطْلُبُ اسْتِكْمَالَ لَهُ مِنَ الظَّاهِرِ
وَعَلَيْكَ أَنْ تَصُدَّ كُلَّ إِغْرَاءٍ بِاِقْتِرَافِ الذُّنُوبِ .
قَالَ ذَلِكَ وَنَهَضَ ، فَقَامَ آدَمُ مَعَهُ
- ٦٤٥ وَسَارَ خَلْفَهُ وَهُوَ يَبَارِكُهُ قَائِلًا : مَا دَامَ عَلَيْكَ أَنْ تَرْحَلَ
فَاذْهَبْ يَا ضَيْفَ السَّمَاءِ ، أَيُّهَا الرِّسُولُ الْأَثِيرُ
الَّذِي أَرْسَلَهُ مِنْ أَعْبُدْ خَيْرَ سُلْطَانِهِ وَمَلِكُوته .
لَقَدْ كُنْتَ كَرِيمًا فَتَلَطَّفْتَ مَعِيَ
- ٦٥٠ وَتَنَازَلْتَ ، وَلَسَوْفَ أَحْمِلُ بآيَاتِ الْإِعْزَازِ وَالشَّرَفِ إِلَى الْأَبَدِ
ذِكْرًاكَ الْبَهِيجَةَ ، وَلَيْسَتِمِرَّ عَطَاؤُكَ لِلْبَشَرِ
خَيْرًا وَوُدًّا دَائِمًا ، وَأَكْثَرَ مِنْ زِيَارَاتِكَ .
وَهَكَذَا افْتَرَقَا ، فَانْطَلَقَ الْمَلِكُ إِلَى السَّمَاءِ صَاعِدًا
مِنَ الظِّلِّ الظَّلِيلِ ، وَاتَّجَهَ آدَمُ إِلَى خَمِيلَتِهِ .

نَهَايَةُ الْكِتَابِ الثَّامِنِ

الكتاب التاسع

الموضوع

بعد أن ينتهى إبليس من دورته حول الأرض ، يعود بخبثٍ إلى الفردوس ليلاً ، وقد تنكر بمكره فى صورة ضباب ، ويتقمص جسد الثعبان النائم . ويذهب فى الصباح آدم وحواء إلى العمل ، وتقترح حواء تقسيم العمل بين عدة أماكن ، يعمل فيها كل منهما على انفراد ، ولكن آدم لا يوافق ، مشيراً إلى ما فى ذلك من أخطار ، قائلاً إنه يخشى أن يحاول العدو الذى سبق تحذيرهما منه مباغتتها على انفراد ، وكرهت حواء أن يُظنَّ بها الافتقار إلى الحيلة اللازمة أو قوة الشكيمة ، فقالت إنها تفضل انفصالها فى العمل عنه ، وإن كانت تريد فى الواقع أن تختبر مدى قوتها ، ويوافق آدم آخر الأمر ، فيأتيها إبليس وحدها ، ويلى ذلك وصف المدخل الخيىث الذى يدخله ، فهو يتطلع إليها أولاً ويحدّق ، ثم ينطق ويتحدّث ، مادحاً حواء مدحاً يجعلها تتجاوز الخلّاتق جمعاء ، ويتملقها ملقاً شديداً ، وتعجب حواء حين تسمع الثعبان يتكلم ، فتسأله كيف نجح فى الحديث مثل البشر ، وكيف اكتسب القدرة على الفهم ، وكيف لم يكتسب هذا وذاك قبل تلك اللحظة ، وأجابها الثعبان قائلاً إنه نجح بفضل مذاق ثمرة شجرة معينة فى الجنة ، فاكْتسب الكلام والعقل ، ولم يكن يملك أيا منهما قبل ذلك ، وتطلب حواء منه أن يصحبها إلى تلك الشجرة ، فتجد أنها شجرة المعرفة المحرمة ، وتزداد جسارة الثعبان ، فيتوسل بشتى الأحاييل والحجج حتى يقنعها آخر الأمر بالأكل منها ،

ويسرها المذاق فتفكر هنيهة وتتردد فيما إذا كان ينبغي أن تخبر آدم بذلك أم لا ، وأخيراً تأتيه ببعض ثمار تلك الشجرة ، وتقص عليه كيف اقتنعت بأن تأكل منها ، ويقع آدم في دهشة وحيرة في البداية ، ولكنه يدرك أن حواء سوف تضيع من يده ، فيقرر بدافع قوة الحب الجانحة أن يفنى معها ، ويأكل من الثمرة كأنما ليهون من الخطأ ، ويلى ذلك وصف تأثير ذلك فيهما ، إذ طفقاً يخلصفان عليهما من ورق الجنة بعد أن بدت لهما سوءاتهما ، ومن ثم يبدأ الشقاق بينهما ، وكل منهما يرمى تبعة ما حدث على الآخر .

لن نتحدث بعد الآن عن الله أو الملك الذي حلَّ ضيقاً
على الإنسان ، حيثُ اعتادَ في ألفة الصديق لصديقه
أن يتنازل بمجالسته ويشاركه

الطعام في الخلاء ، ويسمح له في أثناء ذلك

بما يُباح له من حديثٍ دون حرج ، إذ لا مناصَ لى الآن من تغيير

تلك النبرات إلى لُحونِ المأساة ، من شكٍّ مُريبٍ ذميمٍ

وفصمٍ عرى الودِّ وخيانتته من جانب الإنسان ، وتمردّه

وشقه عصاً الطاعة ، وأما من جانب السماء التي

أشاحت الآن عنه ، فابتعادٌ وتقززٌ

وغضبٌ وتقريعٌ منصفٌ وإصدارُ حكمٍ

أتى إلى هذه الدنيا بدنيا من الأحران
والخطيئة ، وبالموت الذى يتبعها كظللها ، وبالشقاء
المنذر بقُدوم الموت . إنها لمهمة ثقيلة الوطأة على القلب
ولكن الموضوع ذو طابع بطولى لا يقل بل يزيد عن سورة غضب
أخيلاس الصارم على عدوه وهو يطاردُه فيفرُّ

١٥

ثلاث مرات شريداً حول أسوار طروادة ، أو جيشان
”تورنوس“ وهو ينشدُ ”لافينيا“ التى حرم منها ،
أو حنق ”نبتون“ أو ”جونو“ ، الذى طال
ابتلاء اليونان به وابن ”قيثريا“ فأمعن فى الطول !

٢٠

لو أننى استطعت أن أجد الأسلوب الملائم
من ربة الشعر التى ترعانى فى السماء ، والتى تتعطفُ
بزيارتى كل ليلة دون توسلٍ وابتهالٍ ،
وتملى على الأبيات هاجعاً أو تلهمنى
فاكتب النظم يسيراً دون تكلفٍ أو تدبيرٍ ،

٢٥

منذ أن وقعتُ فى البداية على هذا الموضوع للقصيدِ البطولى
فراق لي بعد ترددٍ طويلٍ فى الاختيار ، حتى تأخر شروعى فيه ،
وإن كنت بطبيعتى لا أعمدُ جاهداً للكتابة عن

الحروب ، حيث كانت تُعتبرُ حتى الآن الموضوع
البطولى الوحيد ، وحيث المهارة الرئيسية للشاعر تشريحُ

٣٠

جِرَاحُ فُرْسَانِ الْأَسَاطِيرِ وَإِيرَادُ تَفَاصِيلِ الدَّمَارِ الْمُمِلَّةِ

فِي الْمَعَارِكِ الْخَيَالِيَةِ ، وَأَمَّا الْجَلْدُ الَّذِي يَزِينُ

الصَّبْرَ الْجَمِيلَ وَالْإِسْتِشْهَادَ الْبَطُولِيَّ

فَلَمْ يَكُنْ يُتَغَنَّى بِهِ ؛ كَمَا أَنْفَرُ مِنْ وَصْفِ الْمَسَابِقَاتِ وَالْمَبَارِيَاتِ

أَوْ مُنَازَلَةِ الْفِرْسَانِ بِأَسْلِحَتِهِمْ وَدُرُوعِهِمْ الْبَرَّاقَةِ

٣٥

ذَاتِ الشَّارَاتِ الْعَجَبِيَّةِ ، وَبِالْخَيْلِ الْمُطَهَّمَةِ وَالْجِيَادِ

الْمَكْسُوءَةِ ، وَالْمُزَيَّنَةِ بِالزِينَاتِ الْبَاهِرَةِ ، فِرْسَانُ أَبْهَةِ

فِي النَّزَالِ وَالصُّوَلَاتِ وَالْجَوَلَاتِ الَّتِي تَتْلُوهَا الْوَلَائِمُ الْحَافِلَةُ

الَّتِي تُؤَلِّمُ لَهُمْ فِي قَاعَاتٍ يَشْرَفُ عَلَيْهَا قَهْرْمَانٌ وَخَدَمٌ ،

وَأَصُولُ الْمَادِبِ وَمَهَارَاتُ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا ، فَهِيَ مَبْتَذَلَةٌ

٤٠

وَلَيْسَتْ جَدِيرَةً بِأَنْ تُضْفَى صِفَةُ الْبُطُولَةِ أَوْ اسْمُهَا

عَلَى شَخْصٍ مَا أَوْ قَصِيدَةٍ ، فَلَسْتُ بِهَا

خَيْرًا وَلَا عَلَيْهَا حَرِيصًا ، وَقَدْ بَقِيَ لِي مَوْضِعُ أَسْمَى

وَيَكْفِي فِي ذَاتِهِ لِلْسُمُورِ بِذَلِكَ الْإِسْمِ ، إِلَّا إِذَا كُنْتُ

قَدْ جِئْتُ بَعْدَ فَوَاتِ الزَّمَنِ الصَّالِحِ ، أَوْ قَعُدْتُ بِي بُرُودَةٍ

٤٥

الْأَجْوَاءِ ، أَوْ الشَّيْخُوخَةِ ، عَمَّا اعْتَرَمَتْهُ مِنْ تَحْلِيْقٍ ، فَقَصَّصْتُ جَنَاحِي

وَمَا كَانَ أَقْرَبَ ذَلِكَ إِلَى الْوُقُوعِ لَوْلَا أَنْ زَمَامَ الْأَمْرِ

لَيْسَ فِي يَدِي بَلْ فِي يَدِهَا ، وَهِيَ تَأْتِي بِالْقَرِيضِ كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى أَذُنِي .

غَرُبْتُ الشَّمْسُ ، وَأَقْلَ مِنْ بَعْدِهَا كَوْكَبُ
الزُّهْرَةِ ، الْمَكْلُفُ بِأَنْ يَأْتِيَ

٥٠
بِالشَّفَقِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْفَاصِلُ الْقَصِيرُ
بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَانْتَسَى الْأَفَقُ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَى أَقْصَاهُ ،
فِي نِصْفِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ الَّذِي يَغْشَاهُ اللَّيْلُ ، لِثَامِ الظُّلْمَةِ .
وَعِنْدَهَا هَبَّ إِبْلِيسُ ، وَكَانَ قَدْ فَرَّ مِنْذُ فِتْرَةٍ مِنْ عَدَنَ ،

خَائِفًا مِنْ تَهْدِيدَاتِ جَبْرِيلَ ، فَزَادَ مِنْ إِحْكَامِ
٥٥
تَدْبِيرِ مَكْرِهِ وَخُبْتِ تَحَايِلِهِ ، وَقَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ
عَلَى إِهْلَاكِ الْإِنْسَانِ ، وَلَمْ يُلْقِ بِالْأَى مَا يَحْدُثُ
لَهُ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ وَأَنْكَى ، بَلْ تَجَاسَرَ عَائِدًا .

كَانَ فَرَارُهُ لَيْلًا ، وَفِي مُتَنَصِفِ اللَّيْلِ عَادَ
مِنْ دَوْرَتِهِ حَوْلَ الْأَرْضِ ، حَذِرًا مِنْ طُلُوعِ النَّهَارِ
٦٠
إِذْ إِنَّ الْمَلَكَ "أُورِييلَ" ، الْوَصِيَّ عَلَى الشَّمْسِ ، لَمَحَهُ فِي
أَثْنَاءِ دُخُولِهِ ، وَحَذَرَ مَلَائِكَةَ الشَّارُوبِيمِ

الْقَائِمَةَ بِالْحِرَاسَةِ فَتَرَقَّبَتْهُ ، وَكَانَ قَدْ طُرِدَ مُفْعَمَ الْقَلْبِ بِالْهَمِّ مِنْهَا ،
فَظَلَّ يَطِيرُ عَلَى امْتِدَادِ سَبْعِ لَيَالٍ مُتَّصِلَةٍ رَاكِبًا مَتْنِ
الظَّلَامِ ، وَدَارَ ثَلَاثَ دَوَرَاتٍ حَوْلَ خَطِّ الاسْتَوَاءِ
٦٥
وَعَبَّرَ رَكْبَ اللَّيْلِ أَرْبَعَ مَرَاتٍ

- من القطب إلى القطب ، ماراً بأقطار الأرض الأربعة .
 وفي الليلة الثامنة عاد ، وعلى الساحل البعيد
 عن المدخل وعن رقابة الشاروبيم حلّ وهو يسترقُ
 الخطى إذ وجد مدخلاً لا يلتفتُ إليه أحدٌ . كان ثمّ مكانٌ -
 ٧٠ واختفى الآن بعد أن بدلتُ الخطيئة الأحوال ، لا صُروف الدهر -
 حيثُ تتدفقُ مياهُ دجلةَ ، في آخرِ الفردوس ،
 في مجرى تحت الثرى ، ثم يندفعُ بعضها
 وينبجسُ عيناً دفاقةً بجوار شجرة الحياة .
 وهنا هبط إبليسُ مع ماء النهر وخرَجَ معه
 يلتفُ بالردّاذ والضباب المتصاعد ، ثم جعل يبحثُ
 ٧٥ عن مكانٍ يختبئُ فيه . كان قد بحثَ في البر والبحر ، طويلاً
 من عدنٍ حتى البحر الأسود وبَحَرَ
 "آزوف" ، صاعداً حتى نهر "أوب" في "سيريا"
 وهابطاً حتى القارة القطبية الجنوبية القصية ، وعرضاً
 ٨٠ نحو الغرب من نهر الليطاني في الشام حتى المحيط ذى القُصبان
 عند برزخ بنما ، ومنه إلى الأرض التي يتدفقُ فيها
 نهر السند و"الجانجا" ، وهكذا طَوَّفَ بالأرض
 باحثاً منقباً مدققاً مُفتشاً مُتعمِّقاً

٨٥

فى طبع كل مخلوق ، ليتقى من بينها

أشد ما يناسب تنفيذ أحابيله ، فوجد

الثعبان ، أمكر حيوان فى البر

واختاره بعد تردد طويل ، دارت فيه الحُججُ سجّالاً

وتناجرت الأفكار ، ثم قرّ رأيه أخيراً أن يجعله

الوسيلة المناسبة ، أنسب أداة للحيلة والخداع ، فإذا

٩٠

دخل فيه فتقمّصه ، أخفى فيه غويّته وإيحاءاته الخبيثة

عن أحد الأبصار وأقواها ، إذ مهما يكن الخداع الصادر

عن الثعبان الماكر ، فلن يستريب فيه أحد ، بل سيظن الجميع

أنه راجع إلى ذكائه الأصيل ومكره الفطرى ،

أما إذا لوحظ ذلك الخداع فى الحيوانات الأخرى

٩٥

فربما أثار الريبة فى وجود قوة شيطانية

عاملة فى باطنه ، تتجاوز مدارك الحيوان .

قرّ رأيه على ذلك ، ولكنه شعر بحزن الفقدان فى داخله

يتفجر فى شكاة ملتهبة جائحة ، فسالت الألفاظ من قمه ، قائلاً :

أيتها الأرض ! كم تشبهين السماء ، إن لم تفوقها ،

١٠٠

إذا زاد انحيازنا للعدل ، فأنت أجدر بسكنى الملائكة ، إذ بنيت

من وحي فكرة جديدة طرأت ، فأصلح بك ما بات قديماً !

- وهَلْ كَانَ اللهُ لِيُنَيَّ مَا يَقِلُّ مِنْزَلَةً عَنْ أَفْضَلِ مَا بَنَى وَشَيَّدَ ؟
 أَيْتُهَا السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ ، تَدُورُ حَوْلَكَ أَفْلَاكُ السَّمَاءِ الْأُخْرَى
 الَّتِي تَسْطَعُ وَهِيَ تَحْمِلُ مَصَائِيخَهَا الْوَضَاءَةَ الَّتِي تَقُومُ بِعَمَلِهَا ،
 ١٠٥ نُورًا عَلَى نُورٍ ، مِنْ أَجْلِكَ أَيْتُهَا الْأَرْضُ وَحَدِّكَ ، فِيمَا يَبْدُو ،
 فَتَرْكُزُ فِيكَ جَمِيعَ أَشْعَتِهَا الثَّمِينَةِ
 ذَاتِ الْوَهَجِ الْقُدْسِيِّ ، وَمِثْلَمَا يَشْغُلُ اللهُ فِي السَّمَاءِ
 مَرْكَزَهَا وَيَمْتَدُّ فِي سَائِرِ الْوُجُودِ كُلِّهِ ، تَقَعِينَ أَنْتِ
 فِي الْمَرْكَزِ وَتَتَلَقَّيْنَ نُورَ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَفْلَاكِ ، وَفِيكَ
 ١١٠ لَا فِي ذَوَاتِهَا ، تَظْهَرُ كُلُّ طَاقَاتِهَا الْمَعْرُوفَةِ
 الْمَشْعُورَةِ فِي الْأَعْشَابِ وَالنَّبَاتِ وَمِيلَادِ الْأَسْمَى
 مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَنْبُضُ بِالْحَيَاةِ ، دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ
 مِنْ نُمُوٍّ وَحِسٍّ وَعَقْلٍ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي الْإِنْسَانِ .
 مَا كَانَ أَمْتَعَ لِي مِنْ أَنْ أَمْشِيَ فِي مَنَازِلِكَ
 ١١٥ لَوْ كُنْتُ أَجْدُ السُّرُورَ فِي أَيِّ شَيْءٍ ، فِي ذَلِكَ التَّعَاقُبِ الْعَذْبِ
 بَيْنَ التَّلَالِ وَالْوُدَيَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْغَابَاتِ وَالسُّهُولِ ،
 بَيْنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالشُّطَّانِ الَّتِي تُكَلِّلُ الْأَدْغَالَ هَامَتَهَا ،
 وَالصَّخُورَ وَالْعَرَائِنَ وَالْكَهُوفَ ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ فِي أَيِّ مِنْهَا
 مَقَامًا وَلَا مَلْجَأً ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ مَا أَرَى مِنْ

١٢٠

مباهج من حولي ، ازداد إحساسي وتعمق
بالعذاب في باطني ، كأنما ينبع من الحصار المقيت
للمتناقضات ، فكل خير يمسي لي
سماً ناعماً ، وإذا انقلبت إلى السماء فسوء المنقلب .
لكنني لا أطلب الإقامة هنا ولا في السماء

١٢٥

إلا إذا قضى حكم السماء الأعلى بذلك .
وانقطع الأمل في تخفيف حدة شقائي
بما أسعى إليه ، إلا أن أجعل الآخرين يقعون في مثل
ما أنا فيه ، ولو كان ذلك أدهى وأمر لي .
ففي التدمير وحده أجد الراحة والتنفيس

١٣٠

عن أفكار العاتية ، فإذا دمرته
أو مضيت به معي إلى ما يجلب الضياع الكامل له ،
وهو من خلق كل هذا من أجله ، فسرعان ما يحل الدمار بكل هذا
من بعده ، فهو مرتبط به في السراء والضراء ، فليكونا
في الضراء إذن ، حتى يتسع نطاق الدمار وينطلق ،

١٣٥

وسوف أحظى وحدي بالمجد من بين
شياطين جهنم ، حين أنجح ، في يوم واحد ، في تدمير
ما صاغه الجبار وصنعه على مدى ست ليال وأيام

دون توقّف ، ومن يدرى كم من الزمن استغرقه

فى التدبير من قبل ، ولو أننى أرجح أنه

١٤٠

لم يبدأ إلا حين قمت فى ليلة واحدة فحررت

من نير الرقّ المهيّن ما يقرب من نصف

من يحملون اسم الملك ، فأنقصت عدد الحشود

التي تعبده ، وهكذا فإنه ، انتقاماً لنفسه ،

واستكمالاً للأعداد التي نقصت ،

١٤٥

سواء كان قد استنفد الطاقة القديمة فلم تغدّ قادرة

على خلق المزيد من الملائكة ، هذا إذا كانوا

ممن خلقهم ، أو إمعاناً فى النكاية بنا ،

قرّ عزمه على أن يحلّ محلّنا

مخلوقاً صورّه من التراب ، وأن يضيف عليه ،

١٥٠

بعد أن رقعّه عن ذلك الأصل المنحط ،

مهام سماوية ، وهى من مهامنا ، وما قضى به

أنفذه ، فصنّع الإنسان ، ومن أجله بنى

هذا العالم الرائع ، ومقرّه الأرض

وأعلن أنه السيد ، كما إنه ، ويا للمهانة !

١٥٥

سخر لخدمته ملائكة من رتبة 'الأجنحة'

وَحُرَّاسًا مِنَ النُّورِ يَرِاقِبُونَ وَيَرْعَوْنَ

ذَلِكَ الْأَرْضَى الَّذِي أُوكِلُوا بِهِ ، وَأَنَا أَخَافُ تَنَبُّهُ هَؤُلَاءِ لِي

وَأَخْشَاهُمْ ، وَسَوْفَ أُرَوِّغُ مِنْهُمْ إِذْ آتَى مُلْتَقًا بِالضَّبَابِ

الَّذِي تَنْشُرُهُ أَبْخَرَةٌ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ وَأَتَسَلَّلُ خَفِيَّةً ، بَاحِثًا

فِي كُلِّ دَغَلٍ وَأَجَمَةٍ ، عَسَايَ أَنْ أَجِدَ

الشَّعْبَانَ نَائِمًا ، حَتَّى أَتَسَلَّلَ فَادْخُلَ طَيَّاتِهِ الْمُلْتَفَّةَ

فَأَخْتَبِي وَأَحْقُقَ بِهِ خَبِيثَ مَقْصِدِي .

يَا لِلانْحِطَاطِ الْمَزْرَى ! أَنَا الَّذِي كُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَنَا جَزُ

الْأَرْيَابِ حَتَّى أَشْغَلَ أَرْفَعَ مَقْعَدٍ بَيْنَهُمْ ، أَضْغَطُ الْآنَ كَيْفَانِي

فِي جِسْمِ حَيَوَانٍ ، وَأَخْتَلِطُ بِطِينِ الْحَيَوَانِ اللَّزْجِ !

وَهَلْ يَتَجَسَّدُ هَذَا الْجَوْهَرُ وَيَتَمَثَّلُ بِالْحَيَوَانِ

بَعْدَ أَنْ كَانَ يَطْمَحُ فِي تَسَنُّمِ ذَرَّةِ الْأُلُوْهِيَةِ ؟

وَلَكِنْ أَيْ هَوَا تِلْكَ الَّتِي يَسْتَنَكِفُ الطَّمُوحُ وَالثَّارُ مِنْ

الْهَبُوطِ إِلَيْهَا ؟ لَا بُدَّ لِلطَّامِحِ أَنْ يَهْطِطَ فِي مَهْوَى

يُوَارِي ارْتِفَاعَ التَّحْلِيْقِ ، وَأَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا

إِلَى أَحْطَى الْأَشْيَاءِ وَأَحْقَرِهَا . وَالثَّارُ ، عَلَى حَلَاوَةِ مَذَاقِهِ أَوَّلًا

سَرِيعًا مَا يَرْتَدُّ إِلَى نَفْسِهِ كَالْعَلَقَمِ ،

فَلْيَكُنْ ، لَنْ أَبَالِي ، وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ تَحْدِيدَ الْعَرْمَى ، فَلَا أَطْلُقُ السَّهْمَ الْآنَ

- (ما دمت أقصرُّ عن ارتقاء ذرّاً أعلى) على الذى يلى القهار فى
 إثارة حسدى ، على ذلك المخلوق الجديد الذى يحظى بحبِّ
 ١٧٥ السماء ، فهو الإنسان ابن الصلصال ، وليد الحقد ،
 الذى رفعه خالقه فوقنا حقداً علينا ونكايةً فينا
 وهو من التراب ، لا أفضل إذن من مقابلة الحقد بالحقد .
 قال ذلك وانطلق يجوسُ خلال كلِّ أجمةٍ بللها القطر أو جفَّتْ
 ١٨٠ مثل ضبابٍ أسودٍ يزحفُ قريباً من سطح الأرض ، فواصل
 بحثه فى منتصفِ الليلِ ، حيثما ظنَّ أنه سيجدُ الثعبانَ قريباً
 وسرعانَ ما وجدَهُ مستغرقاً فى نومٍ عميقٍ
 وقد تكوَّرَ فى متاهةٍ من تلافيفِ جسمه الكثيرةِ
 واضعاً رأسه وسطها ، ولديه عدته الزاخرة من أحابيل المكر ،
 ١٨٥ لم يكن كُتبَ عليه بعدُ أن يظلَّ فى الظلِّ متحفزاً أو فى مكمنه مُتربِّصاً
 أو أن يؤذى أحداً ، بل كان ينامُ على بساطِ الكلا المُعشِبِ
 لا يخافُ ولا يخيفُ ، ودخل الشيطانُ من فيه
 إلى باطنه فنَفَذَ إلى حواسِّ الحيوانِ فيه ،
 فى قلبه كانت أم فى رأسه ، وسرعانَ ما تملكه فالهمة القدرة
 ١٩٠ على سلوكِ مسلكِ الأذكىاء ، دون أن يُقلِّقه من نومه
 بل ظلَّ مختفياً فى انتظارِ طلوعِ الصبحِ .

وعندما بدأ الضوء القدسي يُشرقُ

في عدن على الأزهارِ النديّةِ ، مُرسِلةً أنفاسَ

شَدَا الصّباحِ ، وعندما بدأ كل ما يتنفسُ

يبعثُ من معبدِ الأرضِ العظيمِ تساييحَ الحمدِ الصامتةِ

إلى الخالقِ ، ويملاً أنفهُ

بطيبِ الأريجِ ، أتى الزوجان من البشري

وشرعا يشاركان في الصلّةِ بصوتٍ مسموعٍ مع سائرِ المنشدين

من المخلوقاتِ غيرِ الناطقةِ ، فلما قُضيتِ الصلّةُ ، بدأ ينهلان من

جَمالِ الرّبيعِ ، أعظمِ الفصولِ في عَذبِ الروائحِ ولطيفِ النسائمِ ،

ثم أخذَا يتشاوران في أفضلِ السُّبُلِ لقضاءِ عَمَلِ اليومِ

في الزّراعةِ والغرسِ ، إذ إن عَمَلَهُمَا زادَ كثيراً

عما تستطيعهُ أيدي اثنين ، فالعملُ بالحديقةِ واسعُ النطاقِ .

وبدأت حواءُ الحديثَ إلى زوجها أولاً فقالت :

قد نعمل يا آدم طولَ الوقتِ في تشذيبِ

هذه الحديقةِ ، ورعايةِ النباتاتِ والأعشابِ والأزهارِ ،

وهو عملنا الممتعُ الذي كُلِّفنا به ، ولكننا - ريثما نُرزقُ بأيدي أخرى

تساعدنا - نراهُ يكبرُ بفضلِ جهودنا ،

وقيودنا تزيدهُ انطلاقةً ، فما نفعلهُ نهارةً

- ٢١٠ من تهذيب ما ازداد نموه فاشتط ، أو تشذبه أو مساندته أو ربطه
نراه بعد ليلة أو ليلتين وقد جنح في نموه جنوحاً يسخر من جهودنا ،
عائداً إلى حالته البرية ، وأريد منك المشورة إذن ،
أو الإصغاء إلى ما أتت به أفكارى الأولى إلى ذهنى :
فلنقسم العمل فيما بيننا ، فامض أنت إلى حيث تشاء
٢١٥ مهما يكن ، أو حيث تملك الضرورة القصوى ، سواء لربط
سيقان النباتات الزاحفة فى هذه الخميلة ، أو لتوجيه
فروع اللبلاب وجهة التسلق المنشودة ، وأما أنا
فسوف أجد فى ذلك الحوض المزهر بالورورد المتشابكة
مع الريحان ، ما يحتاج إلى الإصلاح والتقويم حتى الظهر
٢٢٠ فنحن إذا اخترنا أن نعمل ونحن قريبان من بعضنا البعض
طول النهار ، فلا عجب إذا تداخلت فى هذا القرب
النظرات والبسمات ، أو إذا تدخل شىء جديد
فأثار موضوعاً جديداً للكلام ، مما يقاطع
عمل يومنا فلا يثمر شيئاً يذكر ، وإن كنا بدأناه
٢٢٥ باكرين ، فتقبل ساعة العشاء دون أن نستحقها .
وأجابها آدم بنبرات رقيقة قائلاً :
آيتها الأم الوحيدة ورفيقتى الفريدة ، يا من لا

نظيرَ لها وأُحِبُّها فوقَ جميعِ المخلوقاتِ الحيّةِ ،
لقد أَصَبْتُ فيما اقترحتهُ ، وأَحْسَنْتِ التفكيرَ وتدبيرَ

٢٣٠

أفضلِ أسلوبٍ لأداءِ العملِ الذي
كَلَّفَنَا اللهُ به هنا ، ولن يفوتنِي أن
أُثْنِي عليه ، فمن المُحَالِ أن نعثرَ على ما هو أجملُ
في المرأةِ من حُسْنِ التدبيرِ المُنَزَّلِيّ

٢٣٥

وحتّ زوجها على صالحِ الأعمالِ
ولكن رَبَّنَا لم يفرضِ العملَ بِجَهَامَةٍ وَصَرَامَةٍ
بِحيثُ يحرُمُنَا ، إذا احتَجَجْنَا ، من
التسريةِ والإذكاءِ ، سواءً بالطعامِ أو الحديثِ أثناءِ العملِ ،

٢٤٠

فهو غذاءُ العقلِ ، أو بذلكِ التخاطُبُ العذبُ
بِاللِّقَاتِ والبَسَمَاتِ ، فالبَسَمَاتُ تُتَبَّعُ من العقلِ ،
وهو ما حُرِّمَ الحيوانُ منه ، وهى غذاءُ الحُبِّ ،
وليس الحُبُّ بِالغَايَةِ الدُّنْيَا لِحَيَاةِ الإنسانِ .

فلقد خَلَقَنَا اللهُ لَا لِمَلَالِ العملِ وَكِلَالِهِ ، بل لِمُتَعَتِهِ
وسُرُورِهِ ، وَرَبَطَ السرورَ بالعقلِ .

لا تَرْتَابِي فِي قُدْرَةِ أَيْدِينَا مَعًا عَلَى العملِ فِي هَذِهِ الممراتِ والخمائلِ

٢٤٥

حتى لا ترجعَ إِلَى صورَتِهَا البَرِيَّةِ ، وَيَسْهُولَةِ وَيُسْرٍ ، مَهْمَا

٤٧٩

بلغ من مشينا في جنباتها ، حتى تأتى قريباً أيادي الشباب
فتساعدنا ، أما إذا رأيت أن كثرة الحديث قد
تتخم شهيتك ، فلا بأس أن أغيب عنك فترةً وجيزةً
فالعزلة أحياناً أفضل صُحبة ،

٢٥٠

والابتعاد قليلاً يذكى عذوبة العودة
ولكن شكاً آخر يخامرني ، إذ أخشى أن يصيبك
مكروه إذا انفصلت عني ، فأنت تعرفين
ما حذرنا منه ، وأى عدو خبيث
يחסدنا حسداً على سعادتنا ، ويدفعه

٢٥٥

اليأس إلى السعي لإلحاق الأذى والعار بنا
إن تسلل إلينا خلصة ، ولا شك أنه قريب منا
يراقبنا ، طامحاً طامعاً في تحقيق

مبتغاه وتحين الفرصة المواتية له بانفصالنا ،

فلن نستطيع الإيقاع بنا ونحن معاً ، إذ نُقدّم لبعضنا

٢٦٠

البعض العون على وجه السرعة إذا دعت الحاجة ،

سواءً كان مقصده الأول هو الإطاحة

بولائنا لله ، أو زعزعة رابطة

الحب بين الزوجين ، وهو النعيم الذي ننعم به ، وربما

كان يُبِيرُ حَسَدَهُ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ نَعَمَاتِهِ ،

فسواءُ كان الأمرُ كذلك ، أو كان أدهى وأُنكى ، فلا تَتَخَلَّى عن الجانبِ المخلصِ ٢٦٥

الذى وَهَبَكَ وَجُودَكَ ، ولا يَزَالُ يُظْلِكُ بِظِلِّهِ ويحميك .

فالزوجة ، أَنَّى أَحَسَّتْ أَنَّ الْخَطَرَ أو الْعَارَ يَتَرَبَّصُ بِهَا

تجدُ غَايَةَ الْأَمْنِ وَصَوَابَ الْمَسْلَكِ فِي الْوُقُوفِ مع زوجها

الذى يَحْرُسُهَا أو يشارِكُهَا مَكَابِدَةَ أَقْصَى الْبَلَاءِ .

٢٧٠ وَأَجَابَتْهُ حَوَاءُ ، بَنِرَاتٍ تَشِي بِجَلَالِ الطُّهْرِ وَالنِّقَاءِ ،

نِبرَاتٍ عَاشِقَةٍ تُلَاقِي بَعْضَ الْقَسْوَةِ وَالْجَفَاءِ

وَتَنْطِقُ بِعَذُوبَةِ الصَّرَامَةِ وَرِبَاطَةِ الْجَاشِ قَائِلَةً :

يا ابن السماء والأرض ، وَسَيِّدَ الْأَرْضِ كُلِّهَا ،

لقد سمعتُ عن مثلِ هذا الْعَدُوِّ الذى يعادينَا ويسعى

٢٧٥ لإِهْلَاكِنا ، فلقد أَخْبَرْتَنِي أَنْتَ بِهِ ، وَعَلِمْتُ بِهِ

عَرَضًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الذى غادرنا

أثناءَ وَقُوفِي فِي رُكْنِ ظِلِيلٍ خَلْفَ مَجْلِسِكُمَا

وَكُنْتُ رَجَعْتُ لِتَوَيِّ أَنْذَاكَ بَعْدَ أَنْ أَغْمَضْتَ زَهْرُ الْمَسَاءِ عِيُونَهَا

ولكننى لم أَتَوَقَّعْ مِنْكَ الشَّكَّ فِي صَلَاتِي وَثَبَاتِ وَلَاثِي

٢٨٠ لِلَّهِ أَوْ لَكَ ، لا لِسَبَبٍ إِلَّا أَنَّ لَنَا

عَدُوًّا سَيَحَاوِلُ الْإِغْوَاءَ وَابْتِلَاءَ ذَلِكَ الثَّبَاتِ .

لَا تَخْشَ مِنْهُ الْعُنْفَ ، فَمَا كُنَّا الَّذِي خَلَقْنَا عَلَيْهِ

لَا يَخْضَعُ لِلْمَوْتِ وَلَا لِلْأَلَمِ ،

وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَلَى آيِهِمَا أَوْ يَصُدَّهُ .

٢٨٥

إِذْنُ فَأَنْتَ تَخْشَى الْمَكْرَ مِنْ جَانِبِهِ ، وَهُوَ مَا يَدُلُّ

عَلَى أَنَّكَ تَخْشَى أَيْضًا أَنْ يَهْتَزَّ إِخْلَاصِي الرَّاسِخُ وَحَبِّي الثَّابِتُ

أَوْ أَنْ تَعْصِفَ بِآيِهِمَا غَوَايَتَهُ وَمَكْرَهُ ،

كَيْفَ وَجَدْتَ هَذِهِ الظُّنُونُ سَبِيلَهَا إِلَى صَدْرِكَ

يَا آدَمُ ؟ كَيْفَ أَسَأَتْ الظَّنَّ بِمَنْ تُحِبُّهَا كُلُّ هَذَا الْحُبِّ ؟

٢٩٠

وَأَجَابَهَا آدَمُ بِكَلِمَاتٍ شَافِيَةٍ قَائِلًا :

يَا ابْنَةَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانَ ، يَا حَوَاءَ الْخَالِدَةَ ،

فَهَكَذَا أَنْتَ ، بَرِيئَةٌ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَثَالِبِ ،

وَلَكِنِّي أَحَاوِلُ اقْنَاعَكَ إِلَّا تَغْيِيْبِي عَنْ نَاضِرِي

لَا لِنَقْصِ ثِقَتِي فِيكَ ، بَلْ إِنْ دَافَعِي هُوَ تَجَنُّبُ

وَقَوْعِ الْغَوَايَةِ ذَاتِهَا ، وَهِيَ الَّتِي يَعْتَرِزُهَا عَدُونَا .

إِنْ مِنْ يُغْوِي أَحَدًا ، وَلَوْ فَشِلَ ، يُلْقَى عَلَيْهِ عَلَى الْأَقْل

ظِلٌّ عَارٍ قَبِيحٌ ، وَاتِّهَامٌ بَاطِلٌ هُوَ افْتِرَاضُ

ضَعْفِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَدَمِ الْمُنْعَةِ وَالتَّحْصَنِ

مِنَ الْغَوَايَةِ ، وَلِسَوْفَ تَقَاوُمِينَ بِنَفْسِكَ ، بِاحْتِقَارِ

٣٠٠

وغضب ، الذنب الذي تُغَوِّنَ بارتكابه ،
 مهما يكن من فُشْلِ المحاولة ، وإذن فلا تُسَيِّئِ تقديرَ الحالةِ ،
 لأننى أسعى جاهداً حتى أُجَنِّبَكَ التَّعَرُّضَ لوقوع هذا العدوان
 وأنت وحدك ، إذ لن يجروُ العدوُّ ،
 على جَسَارَتِهِ ، أن يرتكبه ضِدَّنَا معاً ،

٣٠٥

وإذا تجاسرَ فسوفَ يُوجِّهُ الهجومَ إلىَّ أولاً .
 ولا تستصغرى شأنَ حيلته وخداعِ أحابيله
 فلا بُدَّ أن يكونَ مأكراً إذ استطاع أن يُغوى
 الملائكة ، ولم يجدْ فى مَعُونَةِ الآخرين ما يزيدُ عن حاجته .
 إننى أتلقى من بوارقِ ناظريكِ

٣١٠

زيادةً فى كُلِّ فضيلةٍ ، وأزيدُ أمامَ عينيكِ
 حكمةً وحَذراً وقُوَّةً ، لو كانتْ بى حاجةً
 إلى القُوَّةِ الظاهرةِ ، وأما العارُ ، وأنتَ تنظرين ،
 العارُ من أنْ أهْزَمَ عُنُوَّةً أو مَكْراً ،

٣١٥

فيرفعُ من هِمَّتِي إلى أقصى حَدٍّ ، ونَتَّحِدُ حين ترتفعُ الهمةُ .
 فلماذا لا تشعرين الشعورَ نَفْسَه فى باطنك
 فى حضورى ، وتختارين امتحانَ نفسك
 معي ، وأنا أفضلُ شاهدٍ على نجاحِ قوتك المُمْتَحَنَةِ .

وانتهى من الحديث آدمُ الحريصُ على أهله ، فى حديثه

وحبه لزوجته ، ولكنَّ حواءَ التى

ظنَّت أن صدقَ إخلاصِها لم يلقَ ما هو جديرٌ به

استأنفتَ الحديثَ فأجابتهُ بنبراتٍ عذبةٍ قائلةً :

٣٢٠

إذا كان هذا حالنا ، أى أن نُقيمَ

فى دائرةٍ ضيقةٍ ، يحاصرنا عدوٌّ

بقوةٍ مكرِهٍ أو ساعِدِه ، ولم يكنْ لدى كُلِّ منا ،

وَحَدُهُ ، القدرةُ ذاتُها على الدفاعِ أنى يلقى العدوُّ ،

٣٢٥

فكيفَ نكونُ سعداءَ ونحنُ دائماً فى خوفٍ من الأذى ؟

ولكنَّ الأذى ليس مقدمةً للخطيئةِ ، ولو أنَّ عدونا

بغوائتهِ يسىءُ إلينا بسوءِ تقديرِه

لكمَّالِ خُلُقنا ، وسوءِ تقديرِه

٣٣٠

لا يلوٲُ بالعارِ جِباھنا ، بل يَرْتدُّ

سوءاً إلى ذاته ، وإذن فلماذا نتحاشاه أو نخافُه ؟

بل نحنُ نَظْفِرُ بشرفٍ مُضاعَفٍ حينَ

يُثَبَّتُ كذبُ افتراضِه ، فنجدُ الراحةَ والطَّمَأْنينةَ

بهذهِ النتيجةِ ، ورضى السماءُ عنا ، فهى الشاهدُ علينا .

٣٣٥

وماذا تكونُ خصالُ الإخلاصِ والحبِّ والفضيلةِ دونَ اختبارِ

وَحَدَّهَا ، وَكَيْفَ تَقُومُ دُونَ عَوْنٍ ؟

علينا إذن ألا نرتابَ في سعادةِ حالنا

التي تركها الخالقُ الحكيمُ ناقصةً تفتقرُ

إلى الأمنِ ، منفردين كُنَّا أو مجتمعين ،

ما أوهنَ سعادتنا إن كان الأمرُ كذلك

ولو كانت عدن مفتوحةً مباحةً ما غدتْ مقرَّ هناء .

وأجابها آدم بنبراتِ انفعالٍ قائلاً :

الواقعُ يا امرأةُ أن جميعَ الأشياءِ في أحسنِ صورةٍ

حسبما شاءتْ إرادةُ الله وما قضى لها ، ويدهُ الخالقةُ

لم تتركْ شيئاً ناقصاً أو يفتقرُ إلى الكمالِ

في كُلِّ ما خلَقَهُ ، وخصوصاً في الإنسانِ ،

أو في أى شىءٍ من شأنه ضمانُ سعادةِ حاله ،

أمتاً من تدخُلِ القوى الخارجية ؛ ففي نفسه

يكمنُ الخطرُ ، وإن كان يقعُ في نطاقِ طاقتهِ

ولن يصيبهُ الأذى رغمَ أنفه .

ولكن الله تركَ إرادتنا حُرَّةً ، فكلُّ ما ينصاعُ

للعقلِ يتمتعُ بالحريةِ ، وقد جعلَ العقلَ على صوابٍ

وإن طلبَ منه الانتباهَ والحذرَ واليقظةَ الدائمةَ ،

- حتى لا يُفاجأَ بجمالٍ يكتسى مظهرَ الخير
 فيخطئُ فيما يُمليه على الفرد ، ويُضللُ الإرادةَ
 ٣٥٥ فتفعل ما حرَّمهُ الله تحريمًا صريحًا .
 لا تأمرُ الريبةُ إذن ، بل يأمرُ الحبُّ الرقيقُ
 بأنْ أَكْثَرَ من تنبيهك وأنْ تُصْنِى إلى ما أقولُ :
 إننا نَقِفُ صامدين ، ولكننا قد ننحرفُ
 ٣٦٠ فليس من المُحالِ أن يُقابِلَ العقلُ
 شيئًا ذا بهرج زائفٍ أغراه العدوُّ بِخِدْمَتِهِ ،
 فيقعَ فى خُدْعَةٍ دون أن يدري ،
 بعد أن غَفَلَ عن الانتباه الصارم الذى أمر به وأنذر .
 لا تَسْعَى إلى امتحانِ الغوايةِ إذن ، بل ابتعدِ عنها
 ٣٦٥ فهو أفضلُ ، والأرجحُ أن يكونَ ذلكَ بعدَمِ
 انفصالِكَ عني ، وأما الابتلاءُ فيأتى دون أن نَظْلُبُهُ .
 إذا كنتِ تبغين اختبارَ إخلاصِكَ فاخْتَبِرِي
 طاعتَكَ أولاً ، وأما الآخرُ فمن ذا الذى يستطيعُ أن يعرفَ
 دون أن يراكِ مُتَحَنِّين ، ومن سَيَشْهَدُ به ؟
 ٣٧٠ فإذا ظَنَنْتِ أَنَّ الابتلاءَ الذى لا نسعى إليه قد يُبَاغِتُنَا
 ونحنُ أكثرُ أَمْنًا وغَفْلَةً مما يقتضيه تحذيرُنَا ، وهو ما يبدو من حالِكَ

فاذهبي ، فمكوئك رِغم إِرَادَتِكِ يَزِيدُ ابْتِعَادَكَ عَنِي

اذهبي بِبِرَاءَتِكِ الْفِطْرِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ ، وَارْتَكِنِي

إِلَى مَا لَدَيْكَ مِنَ الْفَضِيلَةِ ، وَاسْتَجْمِعِي كُلَّ مَا تَمْلِكِينَ ،

فَلَقَدْ نَهَضَ اللَّهُ بِكُلِّ عَمَلٍ أَوْجِبَهُ عَلَى نَفْسِهِ تَجَاهَكَ ، فَانْهَضِي أَنْتِ بِوَاجِبِكَ . ٣٧٥

وَفَرَّغَ وَالِدُ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ مِنْ حَدِيثِهِ ، وَلَكِنْ حَوَاءَ

أَصْرَتُ عَلَى أَنْ تَكُونَ لَهَا الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ فَأُجَابَتْ بِبِرَاتٍ خُضُوعٍ قَائِلَةٌ :

إِذْنُ بَعْدَ أَنْ أَذْنَتْ لِي ، وَاعِيَةً بِمَا حُذِّرْتُ مِنْهُ ،

أَسَاسًا بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتُكَ الْمُنْطَقِيَّةُ الْأَخِيرَةُ فَحَسَبَ

وَتَنَاوَلَتْهُ إِلَّا وَهُوَ أَنْ الْابْتِلَاءَ إِذَا جَاءَ وَنَحْنُ أَقْلُ مَا نَكُونُ طَلَبًا لَهُ ٣٨٠

فَرَبَّمَا وَجَدْنَا أَقْلًا اسْتِعْدَادًا إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ

وَهَكَذَا ازْدَادَتْ رَغْبَتِي فِي الذَّهَابِ ، وَلَا أُرْجِعُ أَنْ أَلْقَى

عَدُوًّا بِمِثْلِ هَذِهِ الْكِبْرِيَاءِ يَسْعَى إِلَى أَوْضَعِ الطَّرْفَيْنِ أَوَّلًا

فَإِنْ قَصَدَ إِلَى ذَلِكَ ، فَسَوْفَ يُجَلِّلُهُ الْقَهْرُ بِعَارٍ أَكْبَرَ .

قَالَتْ حَوَاءُ ذَلِكَ وَأَخْرَجَتْ يَدَهَا مِنْ يَدِ زَوْجِهَا ٣٨٥

بِرَفْقٍ وَرِقَّةٍ ، وَانْطَلَقَتْ بِخِفَّةٍ مِثْلَ حُورِيَّةِ الْغَابِ

أَوْ حُورِيَّاتِ الْجِبَالِ وَالْأَدْغَالِ ، أَوْ وَصِيفَاتِ "دِيَانَا"

فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْخُمَائِلِ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَفُوقُ "دِيَانَا" نَفْسَهَا

فِي رَشَاقَةِ الْخُطْوَةِ وَمِشْيَةِ الْمَلَائِكَةِ ،

٣٩٠

وإن لم تكن تحمّل القوس والكِنَانَةَ مثلها

بل بعض الأدوات الزراعية الساذجة

التي شكّلتها قبل استعمال النار ، أو التي أحضرتها الملائكة .

كانت أشبه بربة المراعى "باليس" ، أو بحورية الفاكهة "بومونا"

وهذه الأدوات تزيّنها ، عندما فرّت "بومونا" من

٣٩٥

"فيرتومنوس" ، أو أشبه بربة المحراث "كيريس" في شبابها

وهي ما تزال عذراء ، أو "بروسرينا" قبل أن يغويها "جوف"

وتابعته عين آدم طويلاً بنظرات ملتهبة

مُستمتعة ، وإن كان أكثر رغبة في بقائها .

وكرر آدم عدة مرات أمره إليها بالألا تتأخر في العودة

٤٠٠

وكررت هي تعهدها له عدة مرات

بالعودة ظهراً وسط الخميّلة

وأن يكون كل شيء جاهزاً على أفضل وجه لاستدعاء

طعام الغداء ، أو قيلولّة العصر .

كم أنت واهمة يا حواء المسكينة وكم ستخلفين وعدّ

٤٠٥

العودة المفترضة ! وما أتعسك بالحادثة وما أدت إليه !

فلن تجدي أبداً منذ تلك الساعة في الفردوس

لا وجبة هنيئة ولا نوماً عميقاً ،

إِذْ كَانَ الْكَمِينُ الْمُخْتَفِي بَيْنَ رَوْعَةِ الزُّهُورِ وَالظَّلَالِ

مُتْرِبَصًا ، يَوْشِكُ أَنْ يَنْقُضَ بِحِقْدِهِ الْجَهَنَّمِيَّ

٤١٠

لَقَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَيْكَ ، أَوْ لِإِرْجَاعِكَ

مَسْلُوبَةَ الْبَرَاءَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالنَّعِيمِ .

وَمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَسْعَى الْآنَ ، وَمَنْذَ أَنْ تَنْفَسَ الصُّبْحُ ، مَكْتَسِيًا

مَظْهَرَ الثَّعْبَانِ الْمُعْتَادِ ، مُقْبِلًا

فِي بَحْثِهِ الدَّائِبِ ، إِلَى الْبُقْعَةِ الَّتِي يُرْجَحُ أَنْ يَعْتُرَّ فِيهَا

٤١٥

عَلَى اثْنَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ لَا نَظِيرَ لَهُمَا ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمَا

الْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ كُلُّهُ ، فَرِيسَتُهُ الْمَنْشُودَةُ .

بَحْثَ فِي الْعَرَائِشِ وَالْحُقُولِ وَحَيْثَمَا لَاحَتْ لَهُ أَوْرَاقُ

خَمِيلٍ أَوْ رَوْضٍ أَرِضٍ عَلَى الْأَفْنَانِ الْبَهِيْجَةِ ،

مِنْ كُلِّ مَا يُمْتَعُ فِي رِعَايَتِهِ وَيَسُرُّ فِي غَرْسِهِ وَتَعَهُدِهِ ،

٤٢٠

عِنْدَ الْيَنَابِيعِ أَوْ الْغُدْرَانِ الظَّلِيلَةِ ،

كَانَ يَطْلُبُهُمَا مَعًا ، وَإِنْ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يُصَادِفَ

حَوَاءَ وَحْدَهَا ، كَانَ يَطْمَعُ فِي ذَلِكَ دُونَ أَمَلٍ

فِي أَنْ يَجِدَ مَا يَنْدُرُ أَنْ يَقَعَ ، فَإِذَا بِمَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ

وَقَدْ تَحَقَّقَ وَتَجَاوَزَ الْأَمَلَ ، إِذْ لَمَحَ حَوَاءَ وَحْدَهَا

٤٢٥

تَلَفُّهَا سَحَابَةً مِنَ الشَّدَا ، حَيْثُ وَقَفَتْ

٤٨٩

- جَلِيَّةٌ خَفِيَّةٌ مَعًا ، والورودُ الْمُجْتَشِدَةُ حَوْلَهَا
تَتَوَهَّجُ إِشْرَاقًا ، وهى ما بين واقفةٍ ومنحيةٍ لتساندَ
كُلَّ زهرةٍ نَحَلَ عودُها وَنَحَفَ ، ورأسُها الراقصةُ -
قُرْنَفِلِيَّةٌ كانت أو أَرْجَوَانِيَّةٌ أو لَازَوْرَدِيَّةٌ أو مُرَقَّشَةٌ بِالذَّهَبِ -
٤٣٠ قد مَالَتْ وَتَدَلَّتْ دُونَ دِعَامَةٍ ، فَدَعَمَتْهَا حَوَاءٌ دَعَمًا
رَفِيقًا بِرِبَاطٍ مِنَ الرِّيحَانِ ، دُونَ أَنْ تَتَّبِعَهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ
إِلَى نَفْسِهَا ، وهى أَجْمَلُ الزُّهْرِ الَّتِى تَحْتَاجُ إِلَى دِعَامَةٍ ،
وَقَدْ ابْتَعَدَتْ كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ خَيْرٍ مِنْ يَدْعُمُهَا ، وَاقْتَرَبَتْ كُلَّ الْقُرْبِ مِنَ الْعَاصِفَةِ !
وَزَادَ اقْتِرَابُهُ مِنْهَا ، مُخْتَرِقًا كَثِيرًا مِنَ الْمَمَرَاتِ الظَّلِيلَةِ
الَّتِى يَحْجُبُهَا الدَّوْحُ الْبَاسِقُ مِنْ شَجَرِ الْأَرْزِ أَوْ الصُّنُوبِرِ أَوْ النَّخِيلِ ،
٤٣٥ وَهُوَ يَتَمَوَّجُ بِجِسْمِهِ زَاحِقًا بِجَسَارَةٍ ، أَحْيَانًا فِي خَفَاءٍ ، وَأَحْيَانًا مَا يُرَى
وَسَطَ صُنُوفِ الشُّجَيْرَاتِ وَالزَّهَرَاتِ الْكَثِيفَةِ
الَّتِى نَسَجَتْهَا يَدُ حَوَاءَ حَاشِيَةً مُوشَاةً لِكُلِّ رُبُوعٍ .
٤٤٠ كَانَتْ الْبُقْعَةُ أَشْهَى مِنَ الْحَدَائِقِ الْخَيَالِيَةِ الشَّهِيرَةِ
أَوْ رِيَاضِ "أَدُونِيس" ، حَيْثُ يُبْعَثُ كُلُّ عَامٍ ، أَوْ "الْكِينُوس" - الْأَشْهَرُ
الَّذِى اسْتَضَافَ "أُولِيس" ، ابْنَ "لَايرْتِيس" الْهَرَمِ ،
أَوْ الْبُقْعَةُ غَيْرِ الْأَسْطُورِيَّةِ الَّتِى كَانَ الْمَلِكُ الْحَكِيمُ
يَطَارِحُ عَرُوسَهُ الْمِصْرِيَّةَ الْجَمِيلَةَ غَرَامَهُ فِيهَا .

وأعجبَ بالمكانِ إعجاباً شديداً ، وبمنَ فيه إعجاباً أشدَّ ،
 ٤٤٥ أُرأيتَ إلى رَجُلٍ مَكَّثَ دَهْرًا حَيَّسَ مَدِينَةَ مَكْتَطَةٍ بِالسَّكَّانِ
 تُعَكِّرُ الْمَنَازِلُ الْمُتَزَاخِمَةَ فِيهَا وَالْمَجَارِي صَفْوَ الْهَوَاءِ ،
 فَانْطَلَقَ فِي صَبَاحِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ لِيَنْشَقَّ النَّسِيمَ
 بَيْنَ الْقُرَى وَالْمَزَارِعِ الْبَدِيعَةِ

الْمُتَاخِمَةِ لَهَا ، فَوَجَدَ فِي كُلِّ مَا يَلْقَاهُ بَهْجَةً ،
 ٤٥٠ مِنْ رَائِحَةِ الْحُبُوبِ إِنِّي رَائِحَةُ الْكَلَالِ الَّذِي اجْتَثَّ وَنُشِرَ لِيَجْفَ ،
 أَوْ الْأَبْقَارِ أَوْ الْأَلْبَانِ ، وَكُلُّ مَشْهَدٍ رِيفِيٍّ وَكُلُّ صَوْتٍ رِيفِيٍّ ،
 فَإِذَا تَصَادَفَ مَرُورُ عِذْرَاءَ جَمِيلَةٍ ، لَطِيفَةِ الْخُطَى كَالْحُورِيَّةِ ،
 كَمْ يَسُرُّهُ الْمَنْظَرُ وَيُسَعِّدُهُ ، وَيَزِيدُهُ مِنْ سُرُورِهِ مُرُورُهَا ،
 فَهَكَذَا كَانَتْ حَوَاءُ تَجْلِبُ أَكْبَرَ السَّرُورِ ، إِذْ جَمَعَتْ فِي مَنَظَرِهَا كُلَّ الْبَهْجَةِ .
 ٤٥٥ وَهَكَذَا تَمَتَّعَ الثَّعْبَانُ بِمَرَأَى

هَذِهِ الْبُقْعَةِ الزَّهْرِيَّةِ ، وَهِيَ رَكْنُ حَوَاءِ الْهَادِي
 فِي ذَلِكَ الْبُكُورِ وَتِلْكَ الْعُزْلَةِ ، وَكَانَتْ صُورَتُهَا السَّمَاوِيَّةُ
 مَلَائِكِيَّةً ، وَإِنْ فَاقَتْ الْمَلَائِكَةَ فِي رَهَافَتِهَا ، تَنْحَلِّي بِالْأُنُوثَةِ
 فِي رَشَاقَةِ بَرَاءَتِهَا وَفِي كُلِّ لَمْسَةٍ وَكُلِّ

حَرَكَةٍ ، وَفِي أَقْلٍ فَعَلٍ تَفْعَلُهُ ، وَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ يُرْهِبُ
 ٤٦٠ خَبِيئَةَ الدَّفِينِ ، إِذْ يَسْتَرِقُّ الْخُطَى اللَّطِيفَةَ فَيَسْلُبُ

ضراوته من المقصد الضارى الذى أتت به ،

وفى تلك اللحظة وقف الشرير ذاهلاً

عن شره منفصلاً عنه ، وظل برهة

٤٦٥

عاطل الذهن عارقاً للخير ، أعزل من سلاح العداوة

والمكر والمقت والحسد والثأر ،

ولكن نار الجحيم الموقدة دائماً فى باطنه

حتى وهو فى قلب الجنة سرعان ما قضت على سروره

وبدأت تزيد من تعذيبه ، كلما تأمل

٤٧٠

المسرات التى لم يكتب له أن ينالها ، وهكذا فسرعان

ما يستعيد البغضاء الضارية التى تثير جميع أفكار

الأذى ، معرباً عن فرحته بالعثور على ضالته ، قائلاً :

أيتها الأفكار ! إلى أين مضيت بي ، وما أعذب

إرغامك إياي على الانتشاء حتى أنسى

الدافع الذى أتى بنا إلى هذا المكان ! ألا إنها الكراهية ، لا الحب ولا الأمل ٤٧٥

فى استبدال الفردوس بالجحيم ، أو الأمل فى أن أتذوق

المسرات هنا بل لأدمر جميع المسرات

إلا المسرة القائمة فى التدمير ، وما سوى ذلك من السرور

قد ضاع من يدي . من واجبي إذن ألا أسمح بضياح

٤٨٠

الْفُرْصَةِ الَّتِي تَبَسِّمُ لِي ، إِذْ أَرَى

الْمَرْأَةَ وَحَدَّهَا ، مَتَاحَةً لْجَمِيعِ مَحَاوِلَاتِي ،

وَزَوْجُهَا لَيْسَ قَرِيبًا ، إِذْ يَمْتَدُّ مَرْمَى طَرْفِي إِلَى أَقَاصِي الْمَكَانِ ،

فَذَهْنُهُ الْأَرْفَعُ هُوَ مَا أَعْمَلُ جَاهِدًا عَلَى تَجَنُّبِهِ ،

وَقُوَّتُهُ ، وَاسْتِعْلَاءُ رُوحِهِ ، وَأَطْرَافُهُ الَّتِي

٤٨٥

بُنِيَتْ بِنَاءَ الْأَبْطَالِ ، وَإِنْ كَانَ خُلِقَ مِنْ صَلْصَالٍ ،

فَهُوَ عَدُوٌّ لَا يُسْتَهَانُ بِهِ ، حَصِينٌ مِنَ الْجُرُوحِ ،

وَلَسْتُ كَذَلِكَ ، إِذْ حَطَّتْ الْجَحِيمُ كَثِيرًا مِنْ كِيَانِي ، وَأَوْهَنْتِي الْأَلَمُ

وَأَضَعَفَنِي كَثِيرًا عَمَّا كُنْتُ فِي السَّمَاءِ .

أَمَّا هِيَ فَجَمِيلَةٌ ، ذَاتُ حُسْنٍ رَبَّانِي ، جَدِيرٌ بِعَشْقِ الْمَلَائِكَةِ ،

٤٩٠

لَا تَبْعَثُ الرَّهْبَةَ ، عَلَى مَا فِي الْحُبِّ وَالْجَمَالِ مِنْ رَهْبَةٍ

إِلَّا إِنْ جَالَدْتَهُمَا كِرَاهِيَةً أَقْوَى ،

وَبَغْضَاءٍ أَشَدُّ ، تَصْطَنَعُ مَظْهَرَ حُبٍّ زَائِفٍ ،

وَهَذَا سَبِيلُ هَلَاكِهَا الَّذِي أَسْلَكُهُ الْآنَ .

هَكَذَا تَكَلَّمَ عَدُوُّ الْبَشَرِ ، كَامِنًا فِي جَسَدِ

٤٩٥

الْثُعْبَانِ ، نَزِيلَ شَرٍّ ، وَاتَّجَهَ نَحْوَ حَوَاءَ

سَائِرًا فِي طَرِيقِهِ ، لَا مُتَمَوِّجًا مُتَعَرِّجًا

مُنْبَطِّحًا عَلَى الثَّرَى ، كَشَانُهُ مِنْذُ تِلْكَ الْآوَةِ ، وَلَكِنْ عَلَى مُؤَخَّرَتِهِ

٤٩٣

- وهو قاعدةٌ مستديرةٌ لِلْفَائِفِ حَلَزُونِيَّةٌ صَاعِدَةٌ ، يَرْتَفِعُ
بعضُها فوقَ بعضٍ ، في مَتَاهَةٍ تَعْلُو طَيَّاتُهَا حَتَّى رَأْسِهِ
٥٠٠ ذاتِ العُرْفِ المُنْتَصِبِ ، وعَيْنَاهُ حَمْرَاوَانِ تَتَلَاوَنُ ،
وكانت رقبتهُ تَبْرُقُ بِلَوْنٍ ذَهَبِيٍّ مَخْضُوضٍ ، قائِمةٌ
وَسَطَ التَّلَافِيْفِ الدَّائِرِيَّةِ الَّتِي تَتَدَقَّقُ فَوْقَ الكَلَا
وتتماوجُ هنا وهناك ، فكانَ منظرُهُ يَبْعَثُ السرورَ ،
جميلاً ، بل لم تُشَاهِدْ عَيْنٌ بَعْدَهُ من جِنْسِ الشعابِينِ
٥٠٥ أَجْمَلَ منه ، لا تلكَ الَّتِي غَيَّرَتْ صُورَتَهَا فِي "إِلِيرِيَا"
ولا تحوَّلَ "هَيرَمِيُونِي" و"كَادَمُوس" ، ولا رَبَّ الشِّفَاءِ
فِي "أَيِدُورُوس" ، ولا الثَّعْبَانَ الَّذِي تحوَّلَ إِلَيْهِ
"جُويْتِرَ آمُون" ، أو "جُويْتِرَ الكَايْتُولِينِي" ،
الأوَّلُ حَتَّى يَضَاجِعَ "أُولِيمِيَا" ، والثَّانِي لِيَضَاجِعَ من حَمَلَتِ
٥١٠ "سَكِييُور" عَظِيمَ الرُّومَانِ . ومالَ الشَّيْطَانُ فِي سَيْرِهِ
أَوَّلًا مِثْلَ من يَسْعَى لِلوُصُولِ وهو يَخَافُ أنْ
يَقْطَعَ طَرِيقَهُ أَحَدٌ ، وهَكَذَا اتَّخَذَ طَرِيقًا جَانِبِيًّا مُتَعَرِّجًا .
أَرَأَيْتَ إِلَى السَّفِينَةِ الَّتِي يُسَيِّرُهَا مَلَاَحٌ مَاهِرٌ حَتَّى
تَقْتَرِبَ من مَصَبِّ النَّهْرِ أو لِسَانِ فِي البَحْرِ ، حَيْثُ تُغَيِّرُ الرِّيحُ
٥١٥ اتِّجَاهَهَا كَثِيرًا ، فَيُغَيِّرُ من طَرِيقِ السَّفِينَةِ كُلَّ مَرَّةٍ وَيُصْلِحُ أَشْرَعَتَهَا ،

فكَذَلِكَ جَعَلَ يُغَيِّرُ مِنْ وَجْهِهِ سَيْرِهِ ، وَكُلَّمَا تَلَوَّى فِي طَرِيقِهِ
خَرَجَتْ مِنْ ثَنَائِيهِ حَلَقَاتُ كَطَاقَاتِ الزُّهُورِ الطَّلِيْقَةِ أَمَامَ عَيْنِي حَوَاءَ
حَتَّى يَفْتِنَهَا ، وَكَانَتْ تَعْمَلُ حِينَ سَمِعَتْ صَوْتَ

خَشْخَشَةِ الْأَوْرَاقِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَأْبَهُ ، إِذْ كَانَتْ قَدْ اعْتَادَتْ

مِثْلَ ذَلِكَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ أَمَامَهَا فِي الْحَقُولِ ٥٢٠

مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ ، وَكَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ أَكْثَرَ طَاعَةً لِأَوَامِرِهَا

مِنْ طَاعَةِ الْوَحُوشِ لِأَوَامِرِ السَّاحِرَةِ "كَبْرِكِي" بِالتَّنَكُّرِ وَالتَّخْفِي .

وَزَادَتْ جُرْأَتُهُ الْآنَ فَوَقَّفَ أَمَامَهَا دُونَ دَعْوَةٍ !

وَلَكِنَّهُ كَانَ كَمَنْ يُحَدِّقُ فِيهَا لِشِدَّةِ إِعْجَابِهِ ، فَكَثِيرًا مَا يَحْنِي

رَأْسَهُ ذَاتَ الْعُرْفِ ، وَرَقَبَتَهُ الرَّشِيقَةَ ذَاتَ الْأَلْوَانِ الْمُنَوَّعَةِ ٥٢٥

مُتَرَلِّقًا مُدَاهِنًا وَيَلْعَقُ الْأَرْضَ الَّتِي تَخْطُو عَلَيْهَا .

وَنَجَحَ أَخِيرًا أَدَاؤُهُ الصَّامِتَ اللَّطِيفَ فِي اجْتِدَابِ

عَيْنِ حَوَاءَ لَتَنْظُرَ مَلَاعِبَهُ ، وَسِرَّهُ

أَنْ التَّفَتَتْ إِلَيْهِ فَبَدَأَ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الثَّعْبَانِ كَأَنَّمَا هُوَ ٥٣٠

أَلَّةٌ مُوسِيقِيَّةٌ ، أَوْ بِدَفَقَاتِ هَوَاءٍ مِنْ أَصْوَاتِ الْحَلَقِ ،

وَهَكَذَا شَرَعَ فِي غَوَايَتِهِ الْخَادِعَةِ قَائِلًا :

لَا تَعْجَبِي أَيَّتُهَا السَّيِّدَةُ ذَاتُ السِّيَادَةِ ! إِذَا كُنْتُ

تَسْتَطْعِينَ الْعَجَبَ وَأَنْتِ الْعَجَبُ الْأَوْحَدُ ، وَأَرْجُو أَلَا تَمْتَشِقَ

طَلَعْتُكَ ، وهى جَنَّةُ اللَّطْفِ وَالرَّقَّةِ ، سلاحَ الْإِزْدِرَاءِ

٥٣٥

مُسْتَاءَةٌ مِنْ اقْتِرَابِي مِنْكَ عَلَى هَذَا النَحْوِ ، وَالتَّحْدِيقِ

دُونَ ارْتَوَاءٍ ، وَحَدِي دُونَ رَفِيقٍ ، وَدُونَ أَنْ أَخْشَى

رَهْبَةَ مُحْيَاكِ الْفَتَّاكِ الَّذِي إِزْدَادَ رَهْبًا حِينَ تَوَارَى .

يَا أَجْمَلَ مِنْ تُشْبِهِ صَانِعَهَا الْجَمِيلِ ،

إِنْ كُلُّ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ تُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْكَ ، وَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مُلْكُ يَمِينِكَ ،

٥٤٠

إِذْ وَهَبْتَ لَكَ ، وهى تَعْبُدُ جَمَالَكَ السَّمَاوِيِّ

وَتَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ مَسْلُوبَةُ الْعَقْلِ ، فَأَنْتَ أَفْضَلُ مَا يَتَجَلَّى فِيهِ

كُلُّ مَا يَحْظَى بِإِعْجَابِ الْكَوْنِ كُلِّهِ ، وَلَكِنَّكَ هُنَا

فِي هَذَا الرُّكْنِ الْبَرِّى الْمَغْلَقِ ، وَسَطَ هَذِهِ الْوُحُوشِ

ذَاتِ النَّظَرَاتِ الْفُظَّةِ وهى أَجْهَلُ مَنْ أَنْ تُدْرِكَ

٥٤٥

نِصْفَ مَا تَتَحَلَّلِينَ بِهِ مِنْ جَمَالٍ ، وَبِاسْتِثْنَاءِ رَجُلٍ وَاحِدٍ

مَنْ الَّذِي يُشَاهِدُكَ ؟ (وَمَا قِيَمَةُ الْوَاحِدِ ؟) بَلْ لَا بَدَأَ أَنْ يُشَاهِدَكَ الْجَمِيعُ

رَبِّةً بَيْنَ الْأَرْيَابِ ، وَأَنْ تَعْبُدَكَ الْمَلَائِكَةُ وَتُصَلِّيَ لَكَ

بِأَعْدَادٍ لَا تُحْصَى ، فَتَصْبِحَ حَاشِيَتُكَ الْيَوْمِيَّةُ .

وَانْتَهَى الْمَغْوَى مِنْ مُدَاهَنَتِهِ ، فَأَحْكَمَ نَعْمَ مُقَدَّمَتِهِ ،

٥٥٠

وَتَسَلَّلَتْ كَلِمَاتُهُ إِلَى قَلْبِ حَوَاءَ ،

وَلَوْ أَنَّهَا دَهَشَتْ كَثِيرًا مِنَ الصَّوْتِ الَّذِي سَمِعَتْهُ ، وَبَعْدَ بُرْهَةٍ ،

ولما تَزَلَّ دَهْشَةً ، أَجَابَتْهُ قَائِلَةٌ :

ما مَعْنَى هَذَا ؟ مَنطِقُ الْبَشَرِ عَلَى

لِسَانِ حَيَوَانَ ، وَتَعْبِيرٌ عَنْ مَعَانٍ إِنْسَانِيَّةٍ ؟

٥٥٥

أَمَّا الْأَوَّلُ - عَلَى الْأَقْل - فَكَنتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ

الْحَيَوَانَ إِيَّاهُ ، وَأَنَّ اللَّهَ يَوْمَ خَلَقَ الْحَيَوَانَ

خَلَقَهُ أُخْرَسَ عَاجِزًا عَنْ إِصْدَارِ أَىِّ صَوْتٍ يُفْهَمُ ،

وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَا أَسْتَطِيعُ الْقَطْعَ فِيهِ ، إِذْ كَثِيرًا مَا يَتَبَدَّى

فِي نَظَرَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ قَدْرٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعَقْلِ .

٥٦٠

وَأَنَا أَعْرِفُ أَيُّهَا الثَّعْبَانُ أَنَّكَ أَمَكْرُ حَيَوَانَ فِي الْبَرِّ

لَكِنِّى لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّكَ وَهَبْتَ صَوْتَ الْإِنْسَانِ .

أَعِدْ هَذِهِ الْمَعْجِزَةَ إِذْنًا وَقُلْ لِّى

كَيْفَ أَبْدَلْتَ الْخَرَسَ بِالْمَنْطِقِ ، وَكَيْفَ

فَضَّلْتَ الصَّدَاقَةَ مَعِى عَلَى جَمِيعِ السَّوَائِمِ

٥٦٥

مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانَ الَّتِى تُبْصِرُهَا كُلُّ يَوْمٍ ؟

تَكَلَّمْ ، فَهَذِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِى لَا بُدَّ أَنْ تُؤَلِّىَ الْاهْتِمَامَ .

وَأَجَابَهَا الْمُغْوَى الْمَخَادِعُ قَائِلًا :

يَا مَلِكَةَ هَذَا الْعَالَمِ الْجَمِيلِ ، يَا حَوَاءَ الْمَشْرِقَةِ الْوَضَاءَةِ ،

مَا أَيْسَرَ عَلَىَّ أَنْ أَقْصَّ عَلَيْكَ كُلَّ

٥٧٠

مَا تَأْمُرِينَ بِهِ ، وَمَنْ حَقَّقَ عَلَيْكَ الطَّاعَةَ ،

فلقد كنتُ أوَّلَ الأمرِ مثلَ سائرِ السوائِمِ التي ترعى
العُشبَ الذي تَطَوُّهُ الأقدامُ ، حطِيطَ الفِكرِ وضِيعَ النَّفْسِ
وكذا كان طعَامِي ، بل لم أكنُ قادراً على تمييزِ شَيْءٍ سوى الغذاءِ
والجنسِ ، أو على إدراكِ أيِّ الأفكارِ العُلْيَا ،

٥٧٥

حتى تصادَفَ ذاتَ يومٍ وأنا أتجولُ بينَ الحقولِ
أنْ رأيتُ شجرةً طيبةً ، تلوحُ نائيةً قصيةً ،
وهي تحملُ فاكهةً ذاتَ ألوانٍ جميلةٍ ممتزجةٍ ،
حمراءَ وذهبيةً ، فاقتربتُ منها حتى أتطلعَ إليها

٥٨٠

فإذا برائحةٍ عطريةٍ تهبُّ كالنسيمِ من الغُصُونِ
تَسُرُّ الشَّهِيَّةَ ، فأمتعتُ حواسِيَ مُتَعَةً
تفوقُ رائحةَ زهرِ الشَّمَرِ الفَوَّاحِ ، أو حلَمَاتِ أثداءِ
النَّعْجَةِ أو العنْزَةِ وهي تَقْطُرُ لبنًا في المساءِ

٥٨٥

فلا يَرْضَعُهُ الحَمَلُ أو الجَدْيُ ، إذ يُفَضِّلَانِ اللَّهْوَ واللَّعِبَ .
وأردتُ أنْ أُشْبِعَ الرِّغْبَةَ الحَادَّةَ التي اعترتني
لتذوقِ تلكِ التُّفَاحَاتِ الجميلةِ ، وصممتُ
الآ أَتَأَخَّرَ ، وكانَ الجوعُ والعَطَشُ معًا قد اجتمعَا
بِقُوَّةٍ إقناعِهِمَا ، وأذكتَهُمَا رائحةُ
تلكِ الفاكهةِ الجَذَابِيَّةِ ، فدفعاني دَفْعًا شديداً إليها .

وسرعانَ ما لَفَقْتُ جُسمي حَولَ جَذعِ الشَّجَرَةِ المَكسُورِ بالطَّحالبِ

٥٩٠ إذْ إنَّ أغصانَ الشَّجَرَةِ عَالِيَةً عَنِ الأَرْضِ ، وتَقْتَضِي

مِنْكَ أَوْ مِنْ أَدَمَ أَنْ تَمُدَّ أَيْدِيكُمَا إِلَى أَقْصَى ارْتِفَاعٍ ، وَحَوْلَ الشَّجَرَةِ

كَانَتْ جَمِيعُ الحَيَوَانَاتِ الَّتِي شَاهَدْتَنِي تَكَابِدُ رَغْبَةً مِمَّا ثَلَّة

فَوَقَفْتُ وَقَدْ بَرَّحَ بِهَا الشَّوْقُ وَالْحِسْدُ ، وَلَكِنِّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ بَلُوغَ الثَّمَارِ

وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى مُتَصَفِّ الشَّجَرَةِ ، حَيْثُ تَدَلَّتْ الثَّمَارُ الكَثِيرَةُ

٥٩٥ دَانِيَةً قُطُوفُهَا مُغْرِبَةً ، تَدْعُونِي لِلْإِهْتَامِ وَالْإِمْتِلَاءِ

فَلَمْ أَذْخِرْ وَسْعًا فِي ذَلِكَ ، إِذْ لَمْ أَشْهَدْ حَتَّى تِلْكَ السَّاعَةِ .

مِثْلَ تِلْكَ الْمُتَعَةِ فِي الطَّعَامِ أَوْ فِي الشَّرَابِ .

وَشَبِعْتُ أَخِيرًا ، وَلَمْ يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى شَعُرْتُ

بِتَغْيِيرٍ غَرِيبٍ فِي دَاخِلِي ، وَبِقَدَرٍ مَا

٦٠٠ مِنْ العَقْلِ فِي طَاقَاتِي الْبَاطِنَةِ ، وَاسْتَطَعْتُ الْكَلَامَ

بَعْدَ ذَلِكَ بِوَقْتٍ قَصِيرٍ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَزَالُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ .

وَمِنْذَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَأَفْكَارِي مُوَجَّهَةٌ إِلَى التَّأَمُّلاتِ الْعُلْيَا وَالْعَمِيقَةِ

وَبِذَاتُ بِمَا أَحْسَسْتُهُ مِنْ رَحَابَةِ ذَهْنٍ

أَبْحَثُ فِي كُلِّ مَا تُبْصِرُهُ الْعَيْنُ فِي السَّمَاءِ

٦٠٥ أَوْ الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَكُلُّ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالْخَيْرِ ،

وَلَكِنْ كُلُّ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالْخَيْرِ يَجْتَمِعُ فِي قَسَمَاتِكَ

الربانية ، وأشهدهُ يسطعُ في نُورِ حُسْنِكَ
 السماوى الذى يُوَحِّدُ الجميعَ ، فلا يوجدُ جمالُ
 كفوًّا لَكَ أو قريبًا من مَنَزَلَتِكَ ، وهو الذى أَجْبَرَنِي
 ٦١٠ أَنْ أَتَى عَلَى هَذَا النَّحْوِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَلْحَقْتُ فِي السُّؤَالِ ،
 كَيْ أَتَطَّلَعَ إِلَيْكَ وَأَعْبُدَكَ يَا مَنْ أُعْلِنُ بِحَقِّ أَنَّهَا
 سَيِّدَةُ المَخْلُوقَاتِ ، وَسَيِّدَةُ الكَوْنِ كُلِّهِ .

وَفَرَّغَ الثَّعْبَانُ الخَبِيثُ مِنْ حَدِيثِهِ الذى غَذَّتْهُ رُوحٌ دَافِقَةٌ ،
 فَأَجَابَتْهُ حَوَاءُ ، وَقَدْ زَادَتْ دَهْشَتَهُ وَزَادَتْ تَخَلُّيَهَا عَنِ الحِيطَةِ ، قَائِلَةً :
 ٦١٥ أَيُّهَا الثَّعْبَانُ ! إِنْ مِالَغَتْكَ فِي المَدِيحِ تُثِيرُ الشُّكَّ
 فِي قُوَّةِ تِلْكَ الْفَاكِهِةِ ، وَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يَثْبُتُ مَفْعُولُهَا فِيهِ .
 وَلَكِنْ قُلْ لِي أَيْنَ تِلْكَ الشَّجَرَةُ وَمَا مَدَى بُعْدِهَا عَنَّا ؟
 فَمَا أَكْثَرَ أَشْجَارِ اللَّهِ الَّتِي تَتَرَعَّرُ

فِي الْفَرْدُوسِ ، وَمَا أَشَدَّ تَنَوُّعِهَا ، وَإِنْ كُنَّا نَجْهَلُهَا ،
 ٦٢٠ وَفِي هَذِهِ الْوَفْرَةِ الْوَافِرَةِ يَكْمُنُ اخْتِيَارُنَا ،

وَيُظَلُّ قِسْمٌ كَبِيرٌ شَاسِعٌ مِنَ الْفَاكِهِةِ دُونَ أَنْ يَمْسَهُ أَحَدٌ ،
 تَتَدَلَّى دَائِمًا دُونَ أَنْ يُصِيبَهَا الْفَسَادُ ، حَتَّى يَأْتِيَ الْبَشَرُ
 فَيَقْطِفُونَهَا مِنْهَا مَا قُدِّرَ لَهُمْ أَنْ يَقْطِفُوهُ ، وَيَزْدَادُ عِدَدُ الْأَيْدِي
 الَّتِي تَسَاعِدُ الطَّبِيعَةَ فِي أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا وَتَتَخَفَّفَ مِنْ أَثْقَالِهَا .

- ٦٢٥ وأجابه الثعبانُ بسعة حيلته ، وفي فرحه وسعادته ، قائلاً :
- أيتها الملكة ! الطريقُ مُعبَّدٌ وليس طويلاً ،
- فالشجرةُ خلفَ صفٍّ من أشجارِ الرِّيحانِ ، على سهلٍ مُنْبَسِطٍ ،
- بجوارِ عينٍ ، بعدَ خميلةٍ صغيرةٍ
- من نباتاتِ المرِّ والكافورِ الشافئِ ، فإذا رَضِيتِ أن
- ٦٣٠ أدلكِ عليها فسرعانَ ما أصبحُكِ إلى مكانها .
- ثمَّ قالتِ حواءُ خُذْنِي إِلَيْهَا ، فانْطَلَقَ يتكوَّرُ أمامها مُسرِعاً
- في حلقاتٍ متداخلةٍ ، حتَّى بدأ التعقيدُ مستقيماً
- مُهْرَعاً إلى الشرِّ . وكانَ الأملُ يرفعُ رأسه والفرحُ يضيفُ
- الضياءَ على عُرْفِهِ . أرايتِ إلى اللَّهبِ النَّائِه الذي
- ٦٣٥ ينشأُ من أبخرةِ الدهونِ التي تتكثَّفُ في اللَّيلِ
- وفي أجواءِ الزَّمهريرِ المحيطةِ بها ،
- ثم تشتعلُ من وقْدِ الحركةِ ألسنةً من نارٍ
- كثيراً ما تصحبُّها فيما يُقالُ بعضُ العفاريثِ الشريرةِ
- التي تحومُ فتحرِّقُها وترسلُ أضواءَ خادعةٍ
- ٦٤٠ تُضِلُّ خطى السَّارى ليلاً فيحارُّ ويتوه
- وسطَ المستنقعاتِ والأحوالِ ، وكثيراً ما يسقطُ في بُحيرةٍ أو بركةٍ
- تبتلعُه فيضيعُ ولا من مُغيثٍ يُنْجِيهِ ؟

فهكذا بَرَقَتْ أضواءُ الثعبانِ الرهيبِ ، وفي أُحبولتهِ

أَخَذَ حواءَ ، أُمَّنَا التي صدَّقَتْهُ ، إلى شَجَرَةِ

٦٤٥

التحريمِ ، التي تَقَرَّعَتْ منها جميعُ أحراننا

وعندما شاهدتها التفتتْ إلى دَليْلِها وقالت :

أيها الثعبانُ ! ليتنا لم نأتِ إلى هنا ، فالرحلةُ

لَنْ تُثْمَرَ شيئاً ، على كَثْرَةِ الثمارِ ووفرتها هنا .

ومصداقُ قوتها هو حالكِ أنتَ الذي

٦٥٠

يَدْعُو للعَجَبِ فعلاً ، إن كانت الثمرةُ هي السببُ في ما حَدَثَ لك .

إذْ إِنَّ هذه الشجرةَ محرمٌ علينا أن نذوقها أو نلمسها

فبهذا أَمَرَ اللهُ ، وخَلَّفَ لنا هذا التَّحْرِيمَ

ابنةٌ وحيدةٌ لصورتِه ، أما سائرُ الأمورِ ، فنحنُ الذين

نضعُ شرائعها لأنفسنا ، وعَقَلْنَا شريعَتنا .

٦٥٥

وأجابها المغوى ببراءةٍ حيلتهِ قائلاً :

حقاً ؟ هل أَمَرَكُمَا اللهُ إِلَّا تَقْرَبَا ثَمَارَ

جميعِ أشجارِ هذه الجنةِ

وأنتما من أَعْلَنْتَ سيادتهما على كُلِّ ما في الأرضِ والهواءِ ؟

وَرَدَّتْ عليه حواءُ ، ولما تُخْطِئُ بعدُ ، قائلةٌ :

٦٦٠

لنا أن نَأْكُلَ من فاكهةِ كُلِّ شجرةٍ في الجنةِ

وأما فاكهة هذه الشجرة الجميلة في وسط
الجنة ، فلقد قال الله ” حُرِّمَ عليكما أن تأكلا
منها ، أو أن تلمسأها ، وإلا هلكتما “

ولم تكذ تقول ذلك ، على إيجازهِ ، حتى ازدادت جسارةُ

٦٦٥

المُغْوَى ، وشرعَ يتظاهرُ بالحماسِ والحبِّ
للإنسانِ ، وبالأستياءِ مما أصابه من ظُلمٍ ،
ويلعبُ دوراً جديداً ، كأنما تدفعُهُ عاطفةُ مشبوبةٌ ،
فهو يتلوَّى بتلافيهِ في قلقٍ ، ثمَّ ينهضُ في شكلِ جذابٍ
ويتصبُّ كأنه يوشكُ أن يتناولَ أمراً خطيراً .

٦٧٠

أرأيتَ إلى بعضِ مشاهيرِ الخطباءِ القُدماءِ
في أثينا أو في روما ، حيثُ ذاعتُ البلاغةُ
وازدهرتُ ، وإن صمَّتْ منذ تلك الآونة ، حين يتصدى لقضية كبرى
فيقفُ رابطاً الجأشِ ، وكُلُّ عضوٍ في جسدهِ ،

٦٧٥

وكُلُّ حركةٍ وكُلُّ إيماءٍ تظفرُ قبلَ لسانهِ باهتمامِ الجمهورِ
ويبدأ أحياناً بصُلبِ الموضوعِ ، كأنما لا يطيقُ أن يتأخرَ
ولا يسمحُ بمقدماتٍ تُعطلُّه لشِدَّةِ حماسِهِ للحقِّ ،
فهكذا كانَ المُغْوَى يقفُ ويتحركُ مرفوعَ الهامةِ ،
ويبدأ يتكلمُ وقد غمرتهُ العاطفةُ المشبوبةُ قائلاً :

أيتها الشجرة المقدسة الحكيمة واهبة الحكمة !

٦٨٠

يا أم العلم ! الآن أحس طاقتك

داخلي جلية واضحة ، لا طاقة إدراك

الأشياء في أسبابها فحسب ، بل أيضا اكتشاف وسائل

أرفع القوى ، مهما بلغت حكمتها في نظرنا .

يا مليكة الكون يا حواء ! لا تُصدقي

٦٨٥

تلك التهديدات الصارمة بالهلاك ، فلن تموتا

وكيف تموتان ؟ بالفاكهة ؟ إنها تهبكما الحياة

للمعرفة ! على يدى صاحب التهديد ؟ انظري إلى

أنا الذى لمست وذقت ، ولا أزال أحيأ بل

اكتسبت حياة أشد اكتمالا مما كان القدر

٦٩٠

يرمى إليه ويقصد ، بالانطلاق إلى ذروة أعلى مما كتب على .

وهل يغلق فى وجه الإنسان ما كان مفتوحا

للحيوان ؟ أم ترى يلهب الله غضبه

بسبب هذه الزلّة الطفيفة ولا يمتدح

قوتكما التى لا تهاب شيئا ، وقد لقيتما التهديد

٦٩٥

بعقوبة الموت ، أيا كان ذلك الموت ،

فلم يصدّها عن بلوغ ما قد يوصلها

إلى حياة أهنأ ، ومعرفة الخير والشر .

فإذا كانت المعرفة معرفةً بالخير ، فكيف يكون التحريم مُنْصِفًا ؟ وإذا كانت معرفةً بالشر ، إن كان الشرُّ حقيقياً ، فلماذا لا يُعرفُ حتى يَسْهَلَ تجنُّبه ؟

وإذن فلو أضرَّ بكما الله فلن يكون مُنْصِفًا ،

٧٠٠

ولو لم يكن عادلاً لما كان الله ، وإذن فلا خشيّة منه ولا طاعة له ،

بل إن خوفكما أنفسه من الموت يقهر الموت ويُقصيه

وإذن فلماذا حرّم هذا ؟ القصدُ الأوحدُ هو الرّهبة

ودوامُ حِطّةِ مكائتكما وجهلكما

٧٠٥

وعبادتكما له ، فهو يعرف أنه يوم

تأكلان من الشجرة ستدركان أن أعينكما ، وأنتما تتوهمان أنها مبصرة

على ما يغشاها الآن من ظلمة ، قد بلغت الكمال في

التفتح ووضوح الرؤية ، وسوف تصبحان كالملائكة

تعرفان الخير والشر مثلما تعرفهما الملائكة .

٧١٠

إن ارتقاءكما إلى مصاف الملائكة يُمليه منطقُ التناسبِ وحسب

مثلما ارتقيت أنا إلى مصاف البشر ، فأنا في باطني من البشر ،

وما دمت ارتقيت إلى البشريّة وأنا حيوان ، فسترتقيان إلى الملائكة وأنتما

بشر.

وهكذا فربما كُتبَ عليكم الموتُ بِخَلْعِ أثوابِ

البشر ، وارتداء أثواب الملائكة ، وهو موتٌ جديرٌ بالتَّمنى والطُّموح ، ٧١٥
وإن كان يتهددكما ، ما دامَ لن يأتى بأسوأ من تلك العاقبة .

ومن هم الملائكة الذين يُحرمُ الإنسانُ من الارتقاء إلى مصافِّهم
ومشاركتهم الغذاء من الطعام الربَّانى ؟

خلقَ الملائكةُ أولاً ، وَيَسْتَغْلُونَ هذه المَزيَّةَ

لإِقْناعنا بأنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَبْعُوثٌ مِنْهُمْ ، ٧٢٠

ولكننى أَطْعَنُ فى صِحَّةِ ذلك ، فأنا أرى هذه الأرضَ الجميلةَ

التي تُدْفِئُها الشمسُ ، وتُخْرِجُ من كُلِّ الثمراتِ ،

والملائكةُ لا شَيْءَ ، فلو أنهم مَبْعُوثُ كُلِّ شَيْءٍ ، فمن الذى حَبَسَ

المعرفةَ بالخيرِ والشرِّ فى تلك الشجرةِ وقَصَرَهَا عليها

حتى إنَّ كُلَّ من يَأْكُلُ منها ، مهما يكن ، يَبْلُغُ على الفورِ ٧٢٥

البُحْكمةَ دونَ أن يَسْمَحُوا له بها ؟ وما وَجَهُ

الجُرْمِ فى أن يُحاوِلَ الإنسانُ أن يَبْلُغَ المعرفةَ من هذا السَّبيلِ ؟

كيفَ يَتَأَتَّى لبلوغِكُمَا المعرفةَ أن يَضُرَّهُ ؟ أو لهذهِ الشجرةِ

أن تخبركما بشَيْءٍ ضِدَّ إرادته ما دامَ الكُلُّ فى يَدِهِ ؟

أم عِساهُ يَكُونُ الحسدُ ، وهل يَمْكَنُ للحسدِ أن يَسْكُنَ ٧٣٠

فى الصدورِ السماويةِ ؟ إن هذه الأسبابَ وغيرها كثير

تُبَرِّرُ حاجَتَكَ إلى هذه الفاكهةِ الجميلةِ .

أيتها الملك الإنسانى ! مَدِّ يَدَكَ إِذْنٌ وَتَذَوِّقِ دُونَ حَرَجٍ .

وانتهى من حديثه فإذا بكلماته الغاصّة بالمكر والخديعة

٧٣٥

وقد دَخَلَتْ بَيْسُرَ وسهولةٍ أَكْثَرَ مما يَنْبَغِي قَلْبَ حَوَاءَ .

كانت تَرْكُزُ بصرها على الفاكهة تتملأها ، وكان منظرُ الثمارِ

وحده كافياً للإغراء ، وفى أذُنِها كان صوتُ

كلماته ما زال يرنُّ بنبراتٍ دافعةٍ ، يغشاها

العقلُ فيما بدا لها ويغشاها الصدق .

٧٤٠

وفى تلك الأثناء اقترَبَتْ ساعةُ الظُّهرِ ، وأَيْقَظَتْ

شَهِيَّةَ تَوَاقُّةٍ ، أثارَتْها رائحةُ

رائحةِ اللذة لتلك الفاكهة ، فامْتَرَجَتْ الشهيةُ بالرغبة ،

وقد غَدَتْ حَوَاءُ ميالةً إلى لَمْسِها أو تَذَوُّقِها ،

داعيةٌ عَيْنِها المشتاقة إليها ، ولكنها تَمَهَّلَتْ أَوَّلًا

٧٤٥

وَتَوَقَّعَتْ بُرْهَةً ، وجَعَلَتْ تُفَكِّرُ قائلَةً فى نَفْسِها :

لا شك فى عَظَمَةِ طاقَاتِكَ يا أَفْضَلَ الفواكهِ ،

وإن حُرِمَ الإنسانُ إِيَّاكَ ، وما أَجْدَرَكَ بالإعجابِ ،

يا من كان مذاقُها ، الذى حُظِرَ علينا طويلاً ، قادراً - منذ أول محاولة -

على أن يَهَبَ النُّطقَ لِلْأَبْكَمِ ، وعَلَّمَ

٧٥٠

لساناً لم يُخْلَقْ لِلْكَلامِ أن يَلْهَجَ بِالشَّئِءِ عَلَيْكَ ،

٥٠٧

بَلْ يُثْنِي عَلَيْكَ أَيضًا مَنْ يُحَرِّمُ عَلَيْنَا مَذَاقَكَ

وَلَا يُخْفِيكَ عَنَّا ، وَيُسَمِّيكَ شَجَرَةً

المعرفة ، المعرفة بالخير والشر جميعًا .

إِنَّهُ يُحَرِّمُ عَلَيْنَا الْمَذَاقَ ، وَلَكِنْ تَحْرِيمُهُ

٧٥٥

يَزِيدُ مِنْ إِعْلَاءِ شَأْنِكَ ، وَيُثْنِي بِالْخَيْرِ

الَّذِي تَسْتَطِيعِينَ تَقْدِيمَهُ ، وَنَحْتَاجُ نَحْنُ إِلَيْهِ .

فَالْخَيْرُ إِنْ جَهَلْنَاهُ لَنْ نَسْتَطِيعَ يَقِينًا أَنْ نَنَالَهُ

وَإِذَا نَلَيْنَاهُ وَنَحْنُ نَجْهَلُهُ ، فَكَأَنَّمَا لَمْ نَنَلْهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَلِنَقْلُ بوضوح : هل يحرم علينا إلا أن نعرف ،

٧٦٠

وَيَحَرِّمُ عَلَيْنَا الْخَيْرَ وَيَحَرِّمُ عَلَيْنَا الْحِكْمَةَ ؟

هَذِهِ الْمَحْظُورَاتُ غَيْرُ مُلْزِمَةٍ ، لَكِنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَوْتُ

سَوْفَ يَقِيدُنَا بِقِيُودِ الْحَيَاةِ الْأُخْرَى ، فَمَا فَائِدَةُ

حُرِّيَّتِنَا الْبَاطِنَةِ إِذَنْ ؟ فِي الْيَوْمِ الَّذِي نَأْكُلُ فِيهِ

مِنْ هَذِهِ الثَّمَرَةِ الْجَمِيلَةِ ، يُصْبِحُ مُصِيرُنَا الْمَوْتُ ، حَتْمًا .

٧٦٥

كَيْفَ يَمُوتُ الثَّعْبَانُ ؟ لَقَدْ أَكَلَ مِنْهَا وَلَا يَزَالُ يَحْيَا بَلْ

وَيَعْرِفُ وَيَتَكَلَّمُ وَيَتَحَلَّى بِالْعَقْلِ وَقُدْرَةِ الْإِدْرَاكِ

وَكَانَ غَيْرَ عَاقِلٍ قَبْلَهَا . أَمِنْ أَجَلِنَا فَحَسَبْ

اخْتَرَعَ الْمَوْتَ ؟ أَمْ هَلْ نُحَرِّمُ نَحْنُ

هذا الغذاء الفكرى ويظل مقصوراً على الحيوان ؟

٧٧٠

يبدو أنه للحيوان فقط ، ولكن ذلك الحيوان الوحيد الذى

ذاق الثمرة أولاً لا يضمن الحسد بل يأتى فرحاً حاملاً

الخير الذى أوتيهِ ، وهو من لا يشك فى صدق أنبيائه ،

صديق للبشر ، أبعد ما يكون عن المخاتلة أو المكر .

ماذا أخاف إذن ، أو ما الذى أعرفه حتى أخاف

٧٧٥

فى ظل جهلى بالخير والشر ،

وبالله أو الموت ، وبالشرع أو العقوبة ؟

ها هنا أينعت ثمرة فيها ترياق كل داء ، هذه الفاكهة الربانية ،

جميلة فى العين ، داعية للمذاق ،

وذات قدرة على إضفاء الحكمة ، فما الذى يمنعنى إذن

٧٨٠

أن أبلغها فأطعم الجسد والذهن معاً ؟

قالت ذلك ومدت يدها فى ساعة شرّ

حتى بلغت الفاكهة ، فقطفت وأكلت .

وشعرت الأرض بالجرح ، وأصدرت الطبيعة من مفرها

أنات سرّت فى جيمع بدائعها ، فبدت عليها دلائل الحزن ،

٧٨٥

بأن كل شىء ضاع . وتسلك إلى الدغل عائداً

ذلك الثعبان المذنب ، وما كان أيسر ذلك ، إذ كانت حواء

أَتَذُقُ مُسْتَعْرِقَةً فِي تَذَوُّقِ الْفَاكِهِ ، لَا تَأْبَهُ لَشَيْءٍ
سِوَاهَا ، فَلَمْ تَجِدْ مَتْعَةً تَنَاطَرُهَا مِنْ قَبْلُ ، فِيمَا بَدَأَ ،
فِي أَيِّ فَاكِهِ تَذَوَّقْتَهَا ، حَقِيقَةً كَانَ

٧٩٠

أَمْ وَهَمًا ، بِسَبَبِ شِدَّةِ طُمُوحِهَا وَأَمَلِهَا
فِي الْمَعْرِفَةِ ، لَا وَلَا غَابَ عَنْ فِكْرِهَا أَنْ تَغْدُو رِبَّةً .
وَأَنْدَفَعَتْ تَلْتَهُمُ الْفَاكَةُ بِشِرَاهَةِ وَتَزْدَرِيهَا إِزْدِرَادًا
وَهِيَ لَا تَدْرِي أَنَّهُ طَعَامُ الْمَوْتِ ، وَعِنْدَمَا أَحَسَّتْ بِالشُّبُعِ آخِرًا
وَبِخَفَةِ مِثْلِ نَشْوَةِ النَّيِّدِ ، وَبِفَرَحٍ وَمَرَحٍ وَسُرُورٍ ،
بَدَأَتْ تُحَادِثُ نَفْسَهَا فِي سَعَادَةِ قَائِلَةٍ :

٧٩٥

يَا سَيِّدَةَ الْأَشْجَارِ وَأَعْلَاهَا ثَمَنًا وَفَضِيلَةً
فِي الْفَرْدُوسِ ! يَا ذَاتَ الطَّاقَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي تَهْدِي
إِلَى الْحِكْمَةِ ! كُنْتُ حَتَّى الْآنَ تُعَانِينِ التَّجَاهِلَ وَسُوءَ السَّمْعَةِ
وَكُنْتَ ثَمَارُكَ الْجَمِيلَةَ مُهْمَلَةً تَتَدَلَّى ، كَأَنَّمَا لَمْ تَكُنْ ثَمَّ غَايَةً

٨٠٠

مِنْ خَلْقِهَا ، وَلَكِنِّي سَوْفَ أَرْعَاكِ فِي الْبُكُورِ
وَلَنْ أَضِنَّ عَلَيْكَ بِالتَّرَانِيمِ كُلِّ صَبَاحٍ ، وَبِالْثَّنَاءِ الْوَاجِبِ
سَوْفَ أَحْنُو عَلَيْكَ ، وَأُخَفِّفُ أَثْقَالَكَ الْمُثْمِرَةَ
الَّتِي تَنْوُءُ بِحَمْلِهَا الْغُصُونُ الْحَافِلَةُ وَتُقَدِّمُهَا لِلْجَمِيعِ دُونَ قِيُودٍ !
حَتَّى إِذَا طَعِمْتَ مِنْكَ غَدَوْتُ نَاضِجَةً

٨٠٥

فى المعرفة مثل الأرباب الذين يعرفون كلَّ شىء ،
وإن كان الآخرون يحسدون ما لا يستطيعون أن يمنحوه
فلو كانت العطيّة عطيتهم ما كانت لتنمو

٨١٠

هكذا هنا . إننى أدين بالتجربة لك
يا أفضل الهداة ، ولولا اتباعى إياك لظلمت
فى جهلى ، يا من تفتح طريق الحكمة
وتبشّر طريق التواصل معها ، وهى تتوارى وتحتجب ،
وربما كنت أنا أيضاً متوارية محتجبة ، فربّ السماء رفيع فى علاه ،
بل أعلى وأبعد من أن يرى من تلك المسافة بوضوح
كلَّ شىء على الأرض ، وربما كانت لديه مشاغل أخرى ،

٨١٥

وربما تكون قد صرفته عن الرقابة المستمرة ،
ذلك العظيم الذى حرّم الشجرة علينا ، الأمن فى علاه وجميع عيونه
من حوله . ولكن فى أى صورة ينبغى أن أظهر
لآدم ؟ هل أطلعه على

٨٢٠

التغير الذى وقع لى ، وأقدم له بعضاً من الثمار ليشاركنى
السعادة الكاملة ، أم الأفضل أن أمتنع عن ذلك
وأحتفظ لنفسى بالتفوق فى المعرفة ، سلاحاً فى يدي
لا يشاركنى فيه أحد ؟ فمن شأن ذلك تعويض النقص

فِي جِنْسِ الْإِنْسِي ، فَيَزِيدُ مَا اكْتَسَبَ بِهِ حَبَهُ ،
وَيَجْعَلُنِي أَكْثَرَ مَسَاوَاةً مَعَهُ ، وَرُبَّمَا أَيْضًا ،

٨٢٥

وَذَاكَ شَيْءٌ غَيْرُ مَكْرُوهٍ ، أَنْ أَكُونَ أَحْيَانًا
أَسْمَى مِنْهُ ، فَالْأَدْنَى فِي الْمَكَانَةِ لَا يَتَمَتَّعُ بِالْحَرِيَّةِ !
قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَحَبًّا ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ اللَّهُ قَدْ رَأَى
فَيَكُونُ الْمَوْتُ عِقَابِي ! عِنْدَهَا سَوْفَ أَفْنَى
وَيَتَزَوَّجُ آدَمُ مِنْ حَوَاءَ أُخْرَى

٨٣٠

وَيَعِيشُ مَعَهَا فِي هَنَاءٍ بَعْدَ فَنَائِي -
يَا لَهُ مِنْ تَصَوُّرٍ كَالِهَلَاكِ نَفْسِهِ ! لَقَدْ قَرَّ رَأْيِي إِذْ
عَلَى أَنْ يَكُونَ آدَمُ شَرِيكًا لِي فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ،
فَإِنَّ حُبِّي الْمَشْبُوبَ لَهُ يَجْعَلُنِي قَادِرَةً عَلَى تَحْمِلِ شَتَّى ضُرُوبِ الْمَوْتِ
مَعَهُ ، وَلَا مَعْنَى لِحَيَاةٍ لَا أَعِيشُهَا مَعَهُ .

٨٣٥

قَالَتْ ذَلِكَ وَهِيَ تَخْطُو مُوَلِّيَّةً ظَهَرَهَا لِلشَّجَرَةِ
بَعْدَ أَنْ رَكَعَتْ رُكُوعَ التَّبَجُّلِ لَهَا ، كَأَنَّمَا تُبْجَلُ الْقُوَّةُ
الَّتِي تَكْمُنُ فِيهَا ، وَالَّتِي بَثَّ وجودُهَا
فِي النَّبَاتِ عَصَاةَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، الْمُسْتَقَاةَ
مِنَ الرَّحِيقِ الْأَقْدَسِ شَرَابِ الْأَرْبَابِ . وَكَانَ آدَمُ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ
يَنْتَظِرُ فِي لَهْفَةٍ الشَّوْقِ عَوْدَتَهَا ، وَقَدْ نَسَجَ

٨٤٠

من أبهى الزهور طاقّة ليزين بها

خُصُلَاتِ شَعْرِهَا ، وَيُكَلِّلَ بِهَا جُهوْدَهَا فِي البُسْتَانِ ،

كما اعتاد الزارعون بعد الحصاد تتويجَ مَلِكَةِ الحَصَادِ .

وكان يُبَشِّرُ أفكاره بفرح غامر ، وينتظرُ المزيدَ من

السَّلوَى عند عَوْدَتِهَا ، وقد طَالَ تَأَخُّرُهَا فَأَمَعَنَ فِي الطَّوْلِ ، ٨٤٥

ولكنَّ قَلْبَهُ كان كثيراً ما يُنْبِئُهُ بوقوعِ مكروهٍ

ويشيرُ مخاوفَهُ ، وَأَصْبَحَ فؤادُهُ فارِغاً إِنَّ كَادَ ليتهاوَى ،

فانطلقَ لِيُلاقِيَهَا ، سائراً فِي الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَتَهُ

ذلكَ الصَّبَاحَ عَندما افترقا أولَ مرَّةٍ ، ولا بد أن يَمُرَّ فِيهِ على شجرة

المعرفة ، وهناك قَابَلَهَا ، وقد بدأتُ ٨٥٠

وما كادت ، رِحْلَةَ العَوْدَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وفِي يَدِهَا

غُصْنٌ مُثْقَلٌ بأَجْمَلِ الفاكهةِ الَّتِي تَبَسُّمُ بِرِغَبِ النُّصْرَةِ

وقد قُطِفَتْ لَتَوَّها ، فَبَشَّتْ عَيرَ الفاكهةِ الرِّبَانِيَةِ .

وَأَسْرَعَتْ الخُطَى نَحْوَهُ ، وعلى وَجْهِهَا اعتذارُها الَّذِي

جاءَ مُقدِّمَةً ، وذريعةً تُلقِّنُها ما تقول . ٨٥٥

وهكذا تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ بِكَلِمَاتٍ رَقِيقَةٍ تَنسَابُ طَلِيقَةً قَائِلَةً :

أَلَمْ تَدْهَشْ يَا آدَمُ لِتَأَخَّرِي ؟

لقد أَوْحَشْتَنِي ، وَأَحْسَنْتُ أَنَّ البَعْدَ طَالَ وَأَنَا محرومةٌ

من وجودك ، وهو عذابٌ حُبٌّ لمْ أشعرْ به حتى الآن

٨٦٠

بل ولن أقبلَ تكراره ، فلنْ أعودَ أبداً

لأتحملَ - عن عمدٍ - ما سَعَيْتُ إليه طائشةٌ قبلَ أنْ أُجَرِّبَهُ

من آلامِ غيَابِكَ عن بَصَرِي . ولكنَّ السَّبَبَ

كان غريباً وسوف يذهِشُكَ ويسُرُّكَ أنْ تَسْمَعَهُ

فليستْ هذه الشجرةُ ، على نحو ما قيلَ لنا ، شجرةَ

٨٦٥

أخطارٍ لمن يذوقُ ثَمَرَهَا ، بل لا تَفْتَحُ الطريقَ

أمامَ شرٍّ مجهولٍ ، ولكنْ لها تأثيراً ربانياً وقدرَةً

على فَتْحِ العيونِ ، وتجعلُ من يذوقونها من الأربابِ ،

ولقد ثَبَّتْ صِحَّةَ ذلكَ لمن خَبَرَهَا ، إذ إنَّ الثعبانَ الحكيمَ ،

إما لأنه لمْ يُحْظَرْ عليه ما حُظِرَ علينا ، أو لأنه عَصَى الأَمْرَ ،

٨٧٠

قد أَكَلَ من الفاكهةِ ، فاختَلَفَتْ حالُهُ ،

لكنه لمْ يَمُتْ ، وهو المصيرُ الذي هُدِّدْنَا بوقوعِهِ ، بل اكتسبَ منذ تلكَ اللحظةِ

صوتَ البَشَرِ وحواسَ البَشَرِ وطاقةَ

الاستنباطِ العقليِّ المذهِشةِ ، وتحدثَ معي

فَعَلَبَنِي مَنطِقُهُ وَقُدْرَتُهُ على الإقناعِ ، حتى إنني

٨٧٥

ذُقْتُ الثَّمَرَ وخَبَرْتُهَا أيضاً ، فَوَجَدْتُ أيضاً من

آثارِها ما يَتَّفِقُ وما حَدَّثَ له ، إذ زادَ تَفَتُّحُ عَيْنِيَّ

وكانتا من قبلُ غائمتين ، واتَّسَعَتْ أَقْطَارُ رُوحِي ، وزادت رِحابَةُ قَلْبِي

وسموتُ إلى مِصَافِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وهو ما سَعَيْتُ إِلَيْهِ

من أَجْلِكَ في المِقامِ الأوَّلِ ، ولا أَقِيمُ لَهُ وَزْناً دُونَ وَجُودِكَ .

فالنعيمُ الذي تُشَارِكُ فيه نعيمٌ حقًّا لي ،

وإذا لم تُشَارِكْنِي أَصْبَحَ مُمِلًّا مُرْهَقًا ، وسرعانَ ما يَغْدُو بَغِيضًا .

ذُقْ الثَّمَرَةَ أَنْتَ إِذْنُ أَيْضًا ، فَإِذَا المِساوَاةُ في الأَقْدَارِ

تَرِبْطُنَا كالمِساوَاةِ في الفَرَحَةِ والمِساوَاةِ في الحُبِّ

وإلا كان امتِناعُكَ سببًا في اخْتِلَافِ دَرَجَاتِنَا

وأنفِصالِنَا ، وعندها سَأَتَخْلِي بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ عَنْ

الرُّبُوبِيَّةِ مِنْ أَجْلِكَ ، وَلَنْ يَسْمَحَ القَدَرُ بِذَلِكَ .

وهكذا قَصَّتْ حِوَاءُ قِصَّتِهَا وَقَدْ عَلَا مُحْيَاها المَرَحُ ،

ولو أن حُمْرَةَ خَجَلٍ وَارْتَبَاكِ كَانَتْ تَتَوَهَّجُ في خَدَّهَا .

وعلى الجَانِبِ الآخِرِ كانَ آدَمُ يَقِفُ دَهْشًا لِسَمَاعِ نَبَأِ

الزَّلَّةِ المُهْلِكَةِ الَّتِي ارْتَكَبَتْهَا حِوَاءُ ،

كانَ ذاهلاً حائِراً والرُّعْبُ البَارِدُ

يَجْرِي في عُرُوقِهِ ، وَقَدْ ارْتَخَتْ مِفاصِلُهُ جَمِيعًا .

وَتَرَاحَتْ يَدُهُ ، فَتَرَكَتْ طَاقَةَ الزُّهُورِ الَّتِي قَطَفَهَا لِحِوَاءَ

فَسَقَطَتْ ، وَوَقَعَتْ جَمِيعُ الرُّودِ الذَّابِلَةِ ،

٨٩٥

كَانَ يَقِفُ فِي صَمَمٍ يعلو الشُّحوبُ وَجْهَهُ ، وبعد فترة طالتُ

بَدَأَ يَكْسِرُ طَوْرَقَ صَمْتِهِ الْبَاطِنِ قَائِلًا لِنَفْسِهِ أَوَّلًا :

يَا أَجْمَلَ الْمَخْلُوقَاتِ وَآخِرِهَا ، وَأَفْضَلَ

مَا صَنَعَ اللَّهُ جَمِيعًا ، مَخْلُوقَةٌ يَتَفَوَّقُ فِيهَا

كُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَشَكَّلَ فَيَدْرِكُهُ الْبَصَرُ أَوْ الْفِكْرُ ،

٩٠٠

مُقَدَّسًا كَانَ أَمْ إِلَهِيًّا ، أَمْ خَيْرًا خَالِصًا ، أَمْ وَدُودًا أَمْ عَذْبًا !

كَيْفَ ضَعُتِ إِذْنٌ ، كَيْفَ جَاءَكَ الضِّيَاعُ عَلَى غِرَّةٍ

فَشَاهَ الْوَجْهَ وَانْتَهَكَ الْكِيانُ وَأَصْبَحَ مَقْضِيًّا عَلَيْكَ بِالْهَلَاكِ ؟

بَلْ كَيْفَ اسْتَسَلَّمْتَ فَعَصَيْتَ اللَّهَ فِيمَا

حَرَّمَ تَحْرِيمًا صَارِمًا ، وَكَيْفَ تُتَهَكُّ

٩٠٥

الْفَاكِهَةُ الْمُقَدَّسَةُ الْمُحَرَّمَةُ ! لَا بَدَّ أَنْ خِدَاعًا لَعِينًا

لِلْعَدُوِّ أَوْ قَعَكَ فِي حَبَائِلِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَزَالُ أَجْهَلُهُ ،

بَلْ وَدَمَّرَنِي أَنَا مَعَكَ ، فَلَقَدْ قَرَّ رَأْيِي

وَتَاكَّدَ مُخْتَارًا أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ ،

إِذْ كَيْفَ أَعِيشُ دُونَ وَجُودِكَ مَعِي ، كَيْفَ أَتَخَلَّى عَنْ

٩١٠

حَدِيثِكَ الْعَذْبِ وَالْحَبِّ الَّذِي ارْتَبَطُ بِهِ أَعْلَى ارْتِبَاطٍ

وَأَعُودٍ لِلْعِيشِ شَرِيدًا فِي هَذِهِ الْغَابَاتِ الْمُوحِشَةِ ؟

وَلَوْ خَلَقَ اللَّهُ حَوَاءَ أُخْرَى ، وَكُنْتُ أَنَا

أَمْلِكُ أَنْ أَفْقِدَ ضِلْعًا آخَرَ مِنْ ضِلْعِي ، فَإِنْ فَقَدَانِكَ

لَنْ يَبَارِحَ قَوَادِي أَبَدًا ، كَلَّا وَكَلَّا فَأَنَا أَشْعُرُ

٩١٥

بِرَابِطَةِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَشُدُّنِي إِلَيْكَ ، فَلَحْمُكَ مِنْ لَحْمِي

وَعِظَامُكَ مِنْ عِظَامِي ، وَلَنْ يَكْتَبَ لِحَالِكَ

أَنْ يَنْفَصَلَ أَبَدًا عَنْ حَالِي ، فِي النَّعِيمِ أَوْ فِي الشَّقَاءِ !

قَالَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، فَكَأَنَّمَا ابْتَعَدَ عَنْ أَحْزَانٍ مَخَافِهِ

وَعَادَ إِلَيْهِ الْأَطْمَئِنَانُ ، وَكَأَنَّمَا جَالَدَ الْأَفْكَارَ الْمَضْطَرِبَةَ الْمُتَلَاظِمَةَ

٩٢٠

فَاسْتَسَلَّمَ لَهَا بَدَأَ أَمْرًا لَا عِلَاجَ لَهُ ، وَتَحَوَّلَ إِلَى حَوَاءَ

فَخَاطَبَهَا بِكَلِمَاتٍ تَنِمُّ عَنْ هَدْوِ النَّفْسِ قَائِلًا :

يَا لَجَسَارَةِ الْفِعْلِ الَّذِي اقْتَرَفْتَهُ يَا حَوَاءُ الْمَغَامِرَةُ ،

وَجَسَامَةِ الْخَطَرِ الَّذِي جَلَبْتَهُ ، بَعْدَ أَنْ اجْتَرَأْتَ ،

وَلَوْ مِنْ قَبِيلِ الْأَشْتِهَاءِ فَحَسَبَ ، عَلَى النَّظَرِ إِلَى

٩٢٥

تِلْكَ الْفَاكِهِةِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَقَدَّاسَتِهَا فِي التَّحْرِيمِ ،

وَمَا أَعْظَمَ ذَنْبَ تَذَوُّقِهَا ، وَلَمْسِهَا مُحَرَّمًا عَلَيْنَا .

وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَرْجِعَ الْمَاضِيَ فَيُلْغِي وَقُوعَ مَا وَقَعَ ؟

لَا اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا الْقَدَرُ ، وَمَعَ ذَلِكَ

فَرِيضًا لَمْ يُحْكَمْ عَلَيْكَ بِالْمَوْتِ ، وَرَبِّمَا أَصْبَحَ الْجُرْمُ

٩٣٠

أَقْلَ بِشَاعَةً وَنُكْرًا بَعْدَ أَنْ سَبَقَ تَذَوُّقُ الْفَاكِهِةِ ،

٥١٧

- أى بعد أن دَنَسَها الثَّعْبَانُ أَوَّلًا ، فَكَانَ الْبَادِيُّ
 بِنَزْعِ الْخُصُوصِيَّةِ وَالْقُدَاسَةِ عَنْهَا قَبْلَ تَذَوُّقِنَا إِيَّاهَا ،
 وَلَمْ يَثْبُتْ إِلَى الْآنَ أَنَّهَا أَهْلَكَتْهُ ، فَهُوَ مَا زَالَ حَيًّا ،
 وَهُوَ حَيٌّ ، كَمَا تَقُولِينَ ، بَلْ وَاکْتَسَبَ حَيَاةً بَشَرِيَّةً
 ٩٣٥ سَمَتْ بِهِ إِلَى دَرَجَةِ أَرْقَى مِنْ دَرَجَاتِ الْوُجُودِ ، وَفِي ذَلِكَ دَافِعٌ قَوِيٌّ
 لَنَا عَلَى أَنْ نَذْوُقَهَا ، إِذْ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ
 نَعْلُو فِي دَرَجِ الرُّقَى عُلُوًّا يَتَنَاسَبُ مَعَ عُلُوِّهِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
 إِلَّا بِالصُّعُودِ إِلَى مَصَافِ الْأَرْبَابِ ، أَوِ الْمَلَائِكَةِ أَنْصَافِ الْأَرْبَابِ .
 بَلْ وَلَا أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ ، ذَلِكَ الْخَالِقَ الْحَكِيمَ
 ٩٤٠ سَوْفَ يُقَدِّمُ فِعْلًا عَلَى إِهْلَاكِنَا ، وَإِنْ كَانَ يُهْدِدُنَا بِهِ ،
 نَحْنُ أَوَّلَ مَخْلُوقَاتِهِ ، إِذْ كَرَّمَنَا أَرْفَعَ تَكْرِيمٍ
 وَأَنْزَلَنَا مَنْزِلَةً فَوْقَ كُلِّ مَا صَنَعَ ، فَإِذَا سَقَطْنَا
 وَقَدْ سُخِّرَتْ لَنَا الْكَائِنَاتُ ، فَسَوْفَ تَسْقُطُ مَعَنَا حَتْمًا
 مَا دَامَتْ تَابِعَةً لَنَا ، وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدَمِّرُ مَا خَلَقَ
 ٩٤٥ وَيُخَبِّطُهُ ، فَيَبْنِي وَيَهْدِمُ ، وَيُفْتِتُ مَا عَمِلَهُ وَيُسَيِّئُهُ ،
 وَهُوَ مُسْتَبْعَدٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ ذَا قُدْرَةٍ
 عَلَى أَنْ يَبْدَأَ الْخَلْقَ ثَمَّ يُعِيدُهُ ، فَسَوْفَ يَكْرَهُ
 أَنْ يَحْكُمَ بِنِجَانِنَا ، كَيْلًا يَشْعُرُ الْخَصْمُ

أنه انتصر قائلاً "ما أضعف حالك يا من يُفضّله الله

٩٥٠

على الجميع ! ومن ذا الذى يطولُ رضى الله عنه ؟ فلقد بدأ بى

فدمرنى ثم دمر الإنسان بعدى ، ومن عساه يُدمرُ بعدنا ؟

إن ذلك مُستبعدٌ مكروهٌ ولا يتوقعُ حتى من الأعداء

وعلى أى حالٍ فلقد ربّطتُ أقدارى بأقدارك ،

مصممًا على أن ألقى المصيرَ نفسه ، فإذا كان الموتُ

٩٥٥

سوف يرافقك ، فالموتُ لى مثلُ الحياة !

ما أقوى ما أشعرُ به فى قلبى

من روابط الطبيعة التى تشدنى إلى ما أملكُ ،

ما أملكه فىك ، إذ إن كيّانك يتّمسكُ إلىَّ ،

وحالنا من المحال أن ينقسمَ ، فنحن كيّانٌ واحدٌ ،

٩٦٠

وجسدٌ واحدٌ ، فإذا فقدتُك فكأنما أفقدُ ذاتى .

وفرغ آدمُ من حديثه فأجابته حواءُ قائلةً :

يا له من اختبارٍ باهرٍ للحبِّ الذى فاقَ الحدودَ ،

يا له من برهانٍ ساطعٍ ومثالٍ رفيعٍ رائعٍ !

إنه يدعونى لمضاهاته ولكن هيهات ! فانا لا أتمتع

٩٦٥

بالكمال الذى يزينُك ، وأننى لى أن أبلغه

يا آدمُ ! إننى أتباهى بأننى خرجتُ من جنبك العزيز

٥١٩

ويسرني أن أسمعك تتحدث عن وحدتنا

قلب واحد وروح واحدة في كلنا ، وقد أتى الدليل القاطع

في يومنا هذا ، بإعلان تصميمك بالأ تسمع

٩٧٠

للموت أو لما هو أشد من الموت هولاً ورعباً

بأن يفصل بيننا ، بعد أن ارتبطنا برباط الحب العزيز ،

بل أن تشاركني الذنب الواحد ، والجريمة الواحدة ،

إن كانت ثم جريمة في تذوق هذه الفاكهة الجميلة

ونحن ندين لها بالفضل ، فلا يأتي الفاضل إلا بالفضل ،

٩٧٥

بالفضل في أن أتاحت - بطريق مباشر أو غير مباشر -

هذا الاختبار الناجح لحبك لي ، ولولاه

لما تجلّى مطلقاً بهذه الصورة الساطعة .

ولو كنت أتصور أن الموت الذي يتهددنا سيكون عاقبة

فعلتي ، لتحملت وحدي

٩٨٠

أسوأ ما تأتي به ، ولما حاولت اقناعك ، فأنا أفضل الموت

مهجورة على توريطك في جرم

يقوض طمأنيتك ، خصوصاً بعد أن تأكد لي

بوضوح وجلاء منذ هنيهة حبك الصادق

المخلص الذي لا يجارى ولا يبارى ، غير أنني أشعر

٩٨٥

أن العاقبة تختلفُ اختلافًا بينًا ، فليست الموتُ بل الحياةُ التي
اتَّسَعَتْ آفاقُها بتفتحِ الأعينِ ، وعَمَرَتْ بِأَمالٍ جديدةٍ وأفراحٍ قشبيةٍ
ومذاقٍ ربَّانِيٍّ بلغَ من جماله أن كُلَّ ما ذُقتُ من حلاوةٍ قبله
ومستَه حواسِي ، يبدو الآنَ باردًا غليظًا إن قُورِنَ به .
استندِ إلى خِبرَتِي يا آدمُ وكُلْ منها ما تشاءُ رَغَدًا

٩٩٠

وليذهبْ خوفُكَ من الموتِ أدراجَ الرياحِ !
قالت حواءُ ذلكَ وهى تحتضنه ، وغلبها الفرحُ
فترقرقتْ فى عينيها العبراتُ ، إذ تأثرتْ كثيرًا بِقُوَّةِ حُبِّهِ
الذى سَمَّا به ذلكَ السُّمُومَ ، فجعله يختارُ التَّعرضَ
لغضبِ الله عليه من أجلها ، أو الموتَ .

٩٩٥

وكانت المكافأةُ (ومثلُ ذلك الاستسلامُ الخانع
أجدرَ ما يكونُ بتلكِ المكافأةِ) أنْ قَطَفَتْ من الغُصْنِ
بعضَ تلكِ الفاكهةِ المغريةِ وقَدَّمَتْها إليه
بِيَدِ السَّخَاءِ ، ولم يَتَوَرَّعْ آدمُ عن أَكْلِها
وإن كان يعرفُ مَغَبَّةَ ذلكَ ، فلم يكنْ مخدوعًا

١٠٠٠

بل غَفَلَ فلانَ فَعَلَبَهُ سحرُ الأنثى .
وارتعدتْ الأرضُ فى أحشائها ، إذ عاودتها
الآلامُ ، وندَّتْ عن الطبيعةِ أَنَّهُ أَلَمَ ثانيةً ،

واكْفَهَرَّ وَجْهَ السَّمَاءِ بِالْغُيُومِ ، وَهَزِيمَ الرَّعْدِ ، وَبَعْضِ الْقَطَرَاتِ الْحَزِينَةِ
بَاكِئَةً عَلَى اكْتِمَالِ الْخَطِيئَةِ الْمُهْلِكَةِ ،

الْخَطِيئَةُ الْأُولَى ، وَآدَمُ لَا يَتَرَدَّدُ فِي التَّهَامِ

مَا يُشْبِعُ نَهْمَهُ ، وَحَوَاءُ لَا تَتَوَقَّفُ عَنْ تَرْدِيدِ

١٠٠٥

مَا قَالَتْهُ مِنْ قَبْلُ عَنْ خَوْفِهَا مِنَ الزَّلَلِ ، وَزِيَادَةِ التَّسْرِيعِ عَنْهُ

بِصُحْبَتِهَا الْمُحِبَّةِ ، حَتَّى أَنَّهُمَا أَصْبَحَا يَشْعُرَانِ

مِثْلَ السُّكَارَى بِخَمْرِ جَدِيدَةٍ عَلَيْهِمَا مَعًا

فَهُمَا يَسْبَحَانِ فِي مَوْجِ الْمَرَحِ ، وَيَتَوَهَّمَانِ أَنَّهُمَا يَحْسَنَانِ أَنَّ

١٠١٠

الرُّبُوبِيَّةَ فِي بَاطِنِهِمَا تَنْسِجُ لَهُمَا أَجْنَحَةً يَطِيرَانِ بِهَا

فِي ظِلَالِنِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عِلٍّ ، وَلَكِنْ تِلْكَ الْفَاكِهِةُ الْخَائِنَةُ

كَانَتْ تَبْدَى تَأْثِيرَهَا الْكَاذِبَ أَوَّلَ الْأَمْرِ فَحَسِبَ ،

إِذْ إِنَّهَا أَلْهَبَتْ الرِّغْبَةَ الْجَسَدِيَّةَ ، فَإِذَا بِآدَمَ وَقَدْ بَدَأَ

يَرْمُقُ حَوَاءَ بَعْيُونِ اشْتِهَاءٍ مُتَبَذِّلَةٍ وَتَرْمُقُهُ هِيَ

١٠١٥

بِتَبْذِيلِ مِمَائِلِ ، وَهُمَا يَحْتَرِقَانِ شَهْوَةً ،

حَتَّى شَرَعَ آدَمُ فِي دَفْعِ حَوَاءَ إِلَى الْمُلَاعَبَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ قَائِلًا :

الْآنَ أَرَى يَا حَوَاءُ أَنَّكَ تَسْمِينَ بِدَقَّةِ الذَّوْقِ ،

وَالْتَأَنُقُ ، وَنَصِييُكَ مِنَ الْحِكْمَةِ لَيْسَ ضَيِّلًا

مَا دُمْنَا نَحْدَدُ لِكُلِّ مَذَاقٍ مَعْنَى

١٠٢٠

وَنَصِفُ حَاسَةً الذَّوْقَ بِالْحِكْمَةِ ، وَهَذَا الْإِطْرَاءُ

أُسْدِيهِ إِلَيْكَ بَعْدَ أَحْسَنْتِ تَرْوِيدَنَا الْيَوْمَ بِمَا طَابَ مِنَ الطُّعُومِ .

كَمْ مِنَ الْمَتْعَةِ ضَاعَ مِنَّا بِامْتِنَاعِنَا

عَنْ هَذِهِ الْفَاكِهَةِ الْمَمْتَعَةِ ، وَلَمْ نَعْرِفْ حَتَّى الْآنَ

لَذَّةَ الْمَذَاقِ الْحَقِيقِيَّةِ ، فَإِنْ كَانَ مِثْلُ هَذِهِ الْمَتْعَةِ يَزِينُ

١٠٢٥

الْأَشْيَاءَ الْمَحْرُومَةَ عَلَيْنَا ، فَلَنَّا أَنْ نَتَمَنَّى

أَنْ يُفَرَّضَ عَلَيْنَا الْحَرَمَانُ مِنْ عَشْرِ أَشْجَارٍ لَا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ .

لَكِنْ تَعَالَى ! لَقَدْ جَدَدْنَا نَشَاطُنَا الْآنَ ، فَهَيَّا نَلْعَبْ !

وَهُوَ اللَّاتِقُ بَعْدَ أَنْ تَنَاوَلْنَا ذَلِكَ الطَّعَامَ اللَّذِيذَ

إِذْ لَمْ يَحْدُثْ مَطْلَقًا مِنْ قَبْلُ ، مِنْذُ الْيَوْمِ الَّذِي

١٠٣٠

رَأَيْتُكَ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَزَوَّجْتُكَ ، مُحَلَّاةً

بِجَمِيعِ آيَاتِ الْكَمَالِ ، أَنْ أَلْهَبَ جَمَالَكَ أَحَاسِيْسِي بِهَذِهِ الشَّدَّةِ

وَالْوَقْدَةِ حَتَّى أَسْتَمْتِعَ بِكَ ، وَقَدْ اِزْدَدْتَ جَمَالًا الْآنَ

عَنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى ، مِمَّا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْنَا تِلْكَ الشَّجَرَةُ الْفَاضِلَةُ .

قَالَ آدَمُ ذَلِكَ وَلَمْ يَدَّخِرْ نَظْرَةً أَوْ حَرَكَةً

١٠٣٥

تَشَى بِقَصْدِ الْغَرَامِ ، وَكَانَتْ حَوَاءُ تَفْهَمُهَا حَقَّ الْفَهْمِ

وَعَيْنُهَا تُطَلِّقُ سَهَامًا مِنْ لَهَبٍ تُلْهَبُ مَرَمَاهَا .

وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا ، وَاتَّجَهَا إِلَى رَبْوَةٍ ظَلِيلَةٍ ،

خَمِيلَةٌ سَقْفُهَا الْأَخْضَرُ مِنَ الْعَرَائِشِ الْكَثَّةِ الْمُتَلَفَّةِ ،

- وسارا معاً وهى راضيةٌ إلى فراشٍ من الزهور ،
 ١٠٤٠ من الرِّيحانِ والبَنَفْسِجِ والنَّرْجِسِ والفُلِّ ،
 أكثرُ فُرُشِ الأرضِ نُضْرَةً وطَرَاوَةً ،
 وهناك شرباً عللاً بعد نَهْلٍ مِنْ نَبْعِ الحُبِّ
 وعباً عباً من لطائفِ الغرامِ ، خِتَامَ المشاركةِ فى الجُرمِ
 وعزاءَ خَطِيبَتِهِمَا ، حتى هَبَطَتْ أُنْدَاءُ النُّعَاسِ عليهما
 ١٠٤٥ فاستسلما لِسُلْطَانِهِ مُرْهَقَيْنِ مِنْ لَعِبِ الهوى .
 وما إن نَفَدَتْ قُوَّةُ تِلْكَ الْفَاكِهِةِ الْمُضِلَّةِ
 بعد أن بَعَثَتْ أَبْخِرَةَ النُّشُورِ وَاللَّذَّةِ الْحِسِيَّةِ
 التى تَصَاعَدُ وَتَتَرَأَّقُ حَوْلَ الرُّوحِ ، وَتُضِلُّ الْقُوَى الْبَاطِنَةَ
 وَتَحْرِفُهَا عَنْ مَسَارِهَا ، وبعد أن غَادَرَهُمَا النُّعَاسُ الْفَظُّ الَّذِى
 ١٠٥٠ يَتَوَلَّدُ مِنْ دُخَانِ مُنَافٍ لِلطَّبِيعِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَيَغْصُ بِأَحْلَامِ ذُنُوبِ
 تنوءُ النفسُ بِحَمْلِهَا ، نهضا من الرُّقَادِ
 كأنما ينهضان من قَلْبٍ ، ونظرُ كُلِّ إِلَى صَاحِبِهِ ،
 وسرعان ما عَجِبَا لِشِدَّةِ تَفْتُحِ الْعَيْنِ ، وشدة ما يَغْشَى الْعَقْلَ
 من ظُلْمَةٍ ، فإذا بالبراءة التى كانت كالنُّقَابِ الَّذِى
 ١٠٥٥ يحميهما من مَعْرِفَةِ الشَّرِّ وَقَدْ ذَهَبَتْ ،
 وكذلك الثُّقَّةُ الْمُحِقَّةُ ، وَالصَّلَاحُ الْأَصِيلُ

والشرفُ ، كُلُّهَا وَلَّتْ من حولِهما ، فأدركَ آدمُ عُرْيَهُ
وأَحْسَنَ بِخَجَلِ المَذْنِبِ فطَفِقَ يَسْتُرُ ما بدا من سَوَاءَتِهِ
ولكنَّ رداءَهُ كان يُظهر أَكْثَرَ مما يُخْفِي ! ومثلما نَهَضَ شمشونُ الجَبَّارِ

١٠٦٠ ذُو القُوَّةِ الهِرَقْلِيَّةِ ، سليلُ 'دان' ، من أَحْضَانِ العاهرة
"دليلة" ابنةِ فلسطين ، واستيقظَ

وقد فقد قُوَّتَهُ ، نهضَ كلاهما مُعْدِمَيْنِ وقد تجرَّدا

من كُلِّ طَاقَةٍ لَدِيهِمَا ، فجلَسَا صامِتَيْنِ ، وعلى الوجهِ آثارُ
الحَيْرَةِ والبَلْبَلَةِ ، فطالَ بهما الجلوسُ ، كأنما أُصِيبَا بالبُكْمِ ،

١٠٦٥ وبعد رَدَحٍ طَوِيلٍ تكلَّمَ آدمُ ، وإنْ لَمْ يَكُنْ أَقْلَ من حَوَاءَ خَجَلًا ،
وأَجْبَرَ نَفْسَهُ على لَفْظِ هذه الكلماتِ قائلًا :

أَنْتِ يَا حَوَاءُ ! لَقَدْ اسْتَمَعْتَ فِي سَاعَةِ شَرِّ

إِلَى ذَلِكَ الثَّعْبَانِ الكاذِبِ ، ومن يَدْرِي من عَلَّمَهُ

محاكاةَ صوتِ الإنسانِ رِيْقًا وزُورًا ، فلقد صَدَقَ إسْقَاطُهُ لَنَا

١٠٧٠ وأَخْلَفَ ما وَعَدَ من ارتقائنا ، فها هي أَعْيُنُنَا ،

نَجِدُهَا وقد تَفَتَّحَتْ حَقًّا ، ونَجِدُ أَنَا أَصْبَحْنَا نَعْرِفُ

الخيرَ والشرَّ جَمِيعًا ، الخيرَ الَّذِي ضَاعَ والشرَّ الَّذِي جاءَ

فما أسوأَ ثَمَرَ المعرفةِ إِنْ كانتَ هذه هي المعرفةُ ،

التي تُجَرِّدُنَا هكْذَا فنَعْرَى من الشَّرَفِ

- ومن البراءة ، ومن الإخلاص ، ومن الطهر ،
 ١٠٧٥ وهي الحلي التي اعتدنا التزين بها فتلوّثت وعلّتها البقع
 وفي وجوهنا تبدو جليّة واضحة دلائل
 الاشتهاء الدني ، حصاد شرّ وفير ،
 بل الخجل نفسه وهو آخر الشرور ، وإذن فوقوع الأول
 لا شك فيه ! كيف تواتيني القدرة بعد الآن على التطلع إلى وجه
 ١٠٨٠ الله أو وجوه الملائكة ، وكنت كثيراً ما أراها بفرحة
 ونشوة طاغية ؟ إن تلك الصور السماوية
 سوف تستعصى الآن لشدة سناها على بصري الأرضي
 إذ لن أحتمل بوارق نورها . ليتني أحيا هنا
 ١٠٨٥ في عزلة حياة بدآوة ، في بعض سهول الغاب
 الظلماء ، حيث تعلقو هامات الدوح اللقاء التي لا ينقذ منها
 شعاع نجم أو ضياء شمس ، ناشرة ظلال أوراقها الشاسعة حتى
 تُمسي غاسقة كالمساء ! دثّرني يا أشجار الصنوبر
 ويا أشجار الأرز ، واجعلني من أغصانك التي لا تُحصى
 ١٠٩٠ غطاءً يحجبني حتى لا أطلع إلى تلك الصور السماوية أبداً !
 أما الآن فهيا يا حواء نبُتكر ، في هذه المحنة الشديدة ،
 أفضل ما نستطيع به في هذه الآونة إخفاء

- عَوَرَاتُنَا عَنْ بَعْضِنَا الْبَعْضَ ، وَهِيَ سُوءَاتُنَا
الَّتِي يَخْدِشُ كَشْفُهَا الْحَيَاءَ ، بَلْ إِنَّهَا أَقْبَحُ مَا يُعْرَى .
- ١٠٩٥ فَلَنَقْصِدُ بَعْضَ الْأَشْجَارِ ذَاتِ الْأَوْرَاقِ الْعَرِيضَةِ النَّاعِمَةِ فَنَخِيطُ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ
وَنَلْقُوهَا حَوْلَ الْخِصْرِ ، فَتُغْطِي الْوَسْطَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ،
حَتَّى لَا يَأْتِيَ ذَلِكَ الْوَافِدُ الْجَدِيدُ ، وَهُوَ الْخَجَلُ ،
فَيَتَّخِذَ مِنْهَا مَكَانًا ، وَمِنْ ثَمَّ نُلَامُ عَلَى الدَّنَسِ .
- كَانَ ذَاكَ مَا أَشَارَ بِهِ آدَمُ ، فَقَامَا مَعًا وَدَخَلَا
١١٠٠ إِلَى أَكْثَفِ الْغَابَاتِ شَجَرًا ، وَسُرْعَانِ مَا اخْتَارَا
شَجَرَةَ التِّينِ ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ الشَّجَرَةَ الشَّهِيرَةَ بِفَاكِهَتِهَا
بَلْ كَانَتْ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْهِنْدُ إِلَى الْيَوْمِ
فِي "مَالَابَار" أَوْ "دِيكَان" ، فَهِيَ تَفْتَحُ ذُرَاعَيْهَا
وَتَنْفِرُ طَوْلًا وَعَرْضًا حَتَّى تَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ
الْأَفْنَانِ الْمَلْتَوِيَّةِ فَتَضْرِبُ جُذُورَهَا فِيهَا فَإِذَا بِالْبَنَاتِ يَنْشَأْنَ
١١٠٥ وَيَتَرَعَّرْنَ حَوْلَ الشَّجَرَةِ الْأُمِّ ، وَيَمْتَدُّ الظِّلُّ بَيْنَ الْجُدُوعِ الْقَائِمَةِ
وَالسَّقْفِ كَالْقُبَّةِ الْعَالِيَةِ مِنْ فَوْقِهَا ، وَالْمَمَرَاتِ الْمُتَنَازِلَةِ فِيمَا بَيْنَهَا .
وَكَثِيرًا مَا يَأْوِي الرَّاعِي الْهِنْدِيُّ إِلَيْهَا هَرَبًا مِنَ الْحَرِّ
فَيَتَرَدُّ فِي الظِّلِّ ، وَيُوجِّهُ قُطْعَانَهُ الَّتِي تَرَعَى الْكَلَأَ
إِلَى الْفَجَوَاتِ الْمُتَاحَةِ وَسَطِ الظَّلَالِ الْكثِيفَةِ ، وَهَكَذَا جَمَعًا بَعْضَ

- هذه الأوراق التي كانت عريضةً مثل درُوع الأمازونات ،
وبما لديهما من مهارةٍ تمكّنا من خِياطةٍ بعضِها إلى بعض ،
بما يكفي لتغطيةِ الوَسَطِ ، وما أَوْهَاهُ من غطاءٍ إن كان القَصْدُ منه إخفاءً
ما ارتكباه من جريرةٍ وما يَخْشِيَانِهِ من عارٍ ، وما أَشَدَّ اختلافُهُ
عن جلالِ عُرْيِهِمَا الأوَّلِ . ومثلُ هذا ، منذُ عهدٍ قريبٍ ،
وَجَدَهُ "كولومبوس" لدى سُكَّانِ أمريكا الذين يُغَطُّون الوَسَطَ
بحزامٍ من الرِّيشِ وباقي الجسمِ عارٍ ، ويعيشون حياةَ بدَاوَةٍ
بين الأشجارِ في الجُزُرِ وعلى الشواطئ التي تكسوها الغابات .
وبعد أن تَدَرَّعا بهذه الأوراقِ وظنّا أنهما قد سَتَرّا بها
جانبًا من عارِهِمَا ، وإن كانا لا يَنَعِمَانِ بِالرَّاحَةِ والطمأنينة ،
جلسا للبكاءِ ، ولم يقتصرِ البكاءُ على الدموعِ التي
تُمْطِرُهَا العيونُ ، بل صاحبتُهُ رِياحٌ عاتيةٌ أَقْسَى وأَشَدُّ في باطنِ النَّفْسِ ،
بدأتُ تهبُّ ، ومشاعِرُ جائحةٍ من غضبٍ ومَقْتٍ
وشكٍّ وريبةٍ وشِقَاقٍ ، فاهتَزَّتْ لها وتَصَدَّعَتْ
جَنَبَاتُ الضَّمِيرِ ، تلكَ السَّاحَةُ التي كان الهدوءُ يسودُها ذاتَ يومٍ
ويعمرُها السَّلْمُ ، فأصْبَحَتْ قَلَقَةً مُبْلِلَةً
فلا يَتَوَلَّى الإدراكُ الحُكْمَ الآنَ ، وليس للإرادةِ
صوتٌ مسموعٌ ، بل أصبحَ هذا وذاك يخضعان

- لِلشَّهِيَّةِ الْحَسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ ، مِنْ مَكْمَنِهَا الْأَسْفَلِ ،
 ١١٣٠ تَغْتَصِبُ مَا لَيْسَ لَهَا ، وَتَعْلَنُ تَسْلُطُهَا عَلَى الْعَقْلِ ذِي السِّيَادَةِ
 وَتَفُوقَهَا عَلَيْهِ . وَهَكَذَا ، وَمِنْ هَذَا الصَّدْرِ الْمَضْطَرِبِ ،
 خَرَجَتْ كَلِمَاتُ آدَمَ الَّذِي اخْتَلَفَ مَظْهَرُهُ وَتَغَيَّرَتْ نَغَمَاتُهُ ،
 فَعَادَ لِلْحَدِيثِ إِلَى حَوَاءَ بِدَفَقَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ قَائِلًا :
 لَيْتَكَ سَمِعْتَ كَلَامِي وَمَكَشْتَ مَعِيَ
 ١١٣٥ حَسْبَمَا نَاشَدْتُكَ ، عِنْدَمَا تَمَلَّكَتْكَ تِلْكَ الرِّغْبَةُ الْغَرِيبَةُ
 فِي التَّجْوَالِ وَحَدَّكَ فِي هَذَا الصَّبَاحِ الْمُنْحَوَسِ ،
 وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْكَ ، وَكُنَّا نَسْتَطِيعُ آنَذَاكَ أَنْ نَظْلُ
 سَعْدَاءَ دَائِمًا ، لِأَنَّ أَنْ يَنْقَلِبَ حَالُنَا إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، إِذْ سُلِبْنَا
 كُلَّ خَيْرٍ لَدَيْنَا ، وَصِرْنَا إِلَى الْعَارِ وَالْعُرَى وَالشَّقَاءِ .
 ١١٤٠ فَلْتَقْلَعْ مِنْذُ الْآنَ عَنْ طَلَبِ عِلَلٍ لَا لُزُومَ لَهَا لِإِثْبَاتِ
 مَا نَدِينُ بِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ ، وَمَنْ يَسْنَعْ جَادًا
 لِمِثْلِ ذَلِكَ الْبِرْهَانِ ، فَلْيَتَأَكَّدْ أَنَّ الْإِخْفَاقَ قَدْ بَدَأَ !
 وَسِرْعَانِ مَا أَجَابَتْهُ حَوَاءُ ، وَقَدْ سَاءَ هَا لَوْمُهُ لَهَا ، قَائِلَةً :
 مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَفَوَّهَتْ بِهَا شَفَتَاكَ يَا آدَمُ الْقَاسِي
 ١١٤٥ فَتَنَسَّبْتَ مَا حَدَّثَ إِلَى غِيَابِي عَنْكَ أَوْ إِلَى رَغْبَتِي
 فِي التَّجْوَالِ ، عَلَى نَحْوِ مَا تُسَمِّيهَا ، وَمَنْ يَدْرِي

فَلَعَلَّ الشَّرَّ أَنْ يَتَصَادَفَ فَيَقَعَ وَأَنْتَ إِلَى جَوَارِي
أَوْ رَبِّمَا أَصَابَكَ أَنْتَ نَفْسَكَ ، وَلَوْ كُنْتَ هُنَا ،
أَوْ كُنْتَ هُنَا وَجَرَى مَا جَرَى ، فَمَا كُنْتَ لِتَسْتَطِيعَ إِدْرَاكَ
الْمُخَاتَلَةِ فِي الثُّعْبَانِ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا تَكَلَّمُ بِهِ ،
وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أُسَاسًا لِلْعِدَاوَةِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَلَمَّاذَا يُضْمِرُ إِيقَاعَ الضَّرْبِ بِي أَوْ السَّعْيَ لِإِيذَائِي ؟
وَهَلْ كَانَ عَلَيَّ إِلَّا أَفَارِقَ صُحْبَتَكَ أَبَدًا ؟

١١٥٠

وَهَلْ يَزِيدُ نَفْعِي آنَذَاكَ عَنْ نَفْعِ ضَلْعِ خَامِدٍ فِي جَنْبِكَ ؟!
وَلَكِنِّي الْآنَ زَوْجَتُكَ ، فَلَمَّاذَا وَأَنْتَ رَأْسِي

١١٥٥

لَمْ تَأْمُرْنِي أَمْرًا مُطْلَقًا بِعَدَمِ الذَّهَابِ
مَا دُمْتُ سَأَتَعْرِضُ لِمِثْلِ ذَلِكَ الْخَطَرِ الَّذِي ذَكَرْتَهُ ؟
مَا أَيْسَرَ مَا تَقَاعَسْتَ عَنِ التَّشَدُّدِ فِي مَنْعِي

بَلْ إِنَّكَ سَمَحْتَ لِي بِالذَّهَابِ وَوَافَقْتَ عَلَيْهِ وَتَرَكْتَنِي رَاضِيًا ،
وَلَوْ كُنْتُ صَارِمًا وَأُظْهِرْتُ الثَّبَاتَ فِي رَفْضِكَ
لَمَا أَذْنَبْتُ أَنَا ، وَلَمَا أَذْنَبْتَ أَنْتَ مَنْعِي .

١١٦٠

وَرَدَّ عَلَيْهَا آدَمُ وَقَدْ غَضِبَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ قَائِلًا :

أَهَذَا هُوَ الْحَبُّ ، أَهَذَا جَزَاءُ مَا أَكُنْتُهُ

أَنَا لَكَ يَا حَوَاءُ الْجَاهِدَةُ ، وَمَا تَجَلَّى ثَابِتًا

- ١١٦٥ لا يَتَحَوَّلُ فِي وَقَفَتِي مَعَكَ وَقَدْ ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ ؟ لست أنا إذن
من كان في يده أن يَعِيشَ وَيَهْنَأَ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ
ثم اخْتَارَ طَائِعًا أَلَّا يَفْعَلَ بَلْ أَنْ يَمُوتَ مَعَكَ
وَهِيَ أَلْقَى اللَّوْمَ الْآنَ مُتَّهَمًا بِأَنْنِي سَبَبُ
خَطِيئَتِكَ ؟ هل لأنني لَمْ أَظْهَرْ الصِّرَافَةَ الْكَافِيَةَ ،
١١٧٠ فيما يبدو ، لِمَنْعِكَ مِنَ الذَّهَابِ ؟ وهل كان في طَوْقِي الْمَزِيدُ ؟
لَقَدْ حَذَرْتُكَ ، وَأَنْذَرْتُكَ ، وَتَنَبَّأْتُ
بِالْخَطَرِ ، وَذَكَرْتُ الْعَدُوَّ الْكَامِنَ
الْمُتَرَبِّصَ ، وَبَعْدَ هَذَا لَا يَوْجَدُ سِوَى الْإِرْغَامِ
وَالْإِرْغَامُ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ لَا مَكَانَ لَهُ هُنَا .
١١٧٥ وَلَكِنْ جَسَّارَتِكَ دَفَعْتُكَ دَفْعًا ، وَالثَّقَّةُ الْمُفْرِطَةُ
إِمَّا فِي عَدَمِ مُصَادَفَةِ أَيِّ خَطَرٍ ، وَإِمَّا أَنَّكَ كُنْتَ تَشُدِّينَ
الْفُرْصَةَ لِاخْتِبَارِ يَثْبُتُ شِدَّةَ بَأْسِكَ ، وَرُبَّمَا
أَكُونُ أَنَا قَدْ ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ أَيْضًا حِينَ أُسْرِفْتُ فِي إِعْجَابِي
بِمَا بَدَأَ لِي أَنَّهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ فِيكَ ، حَتَّى ظَنَنْتُ
١١٨٠ أَنَّ الشَّرَّ ، مَهْمَا يَكُنْ ، لَا يَجْرُؤُ عَلَى أَنْ يَقْرَبَكَ ، وَأَنَا نَادِمٌ
عَلَى هَذَا الضَّلَالِ الْآنَ ، الَّذِي أَصْبَحَ جَرِيْمَتِي
وَأَنْتِ الَّتِي تَتَّهَمِينَنِي بِهَا . هَذَا مُحْتَوَّمٌ عَلَيَّ

كل من تدفعه ثِقَتُهُ المفرطةُ في رِفْعَةِ المرأةِ
إلى السماحِ لإِرَادَتِهَا وَحَدَّهَا بِالنَّفَازِ ، فهي لا تُطِيقُ الْقُيُودَ
فإذا تُرِكَتْ وشَأْنُهَا وحَلٌّ ما يحُلُّ من الشرِّ ،
كان هو أولَ من تتهمه بالتسبب فيه لِتَسَامُحِهِ الذي يَشِي بِالضَّعْفِ ،
وهكذا قَضِيًّا في التَّراشُقِ بالتُّهَمِ
ساعاتٍ عقيمةً ، دون أن يلومَ أَحَدٌ منهما نفسه
فذهبَ نزاعُهُما عبثًا ، دون أن تلوحَ له غَايَةٌ أو نهاية .

الكتاب العاشر

الموضوع

يعلم الملائكة الحارسون بخطيئة الإنسان ، فيغادرون الفردوس عائدين إلى السماء صُعُداً ، طالبين أن تقبل حجتهم بأنهم لم يهملوا الرقابة ، وتُقبل حجتهم ، ويعلن الله أنه لم يكن فى طوقهم أن يمنعوا دخول إبليس . ويرسل كلمته للحكم على الخاطئين ، فتتنزل الكلمة وتصدر الحكم المطلوب ثم تأخذها الشفقة عليهما فتكسوهُما بالثياب ، وتعود صاعدة . وكانت الخطيئة والموت لا يزالان جالسين حتى تلك اللحظة عند أبواب الجحيم ، فشعرا بفرحة عجيبة لنجاح إبليس فى هذا العالم الجديد وللخطيئة التى اقترفها الإنسان فيه ، ويعلنان اعتزامهما ألا يظلاً رهن محبس الجحيم ، بل أن يتبعا والدهما إبليس إلى مكان الإنسان ، وتيسيراً لسبل الانتقال من الجحيم إلى هذا العالم ذهاباً وعودة ، ينتهيان من تعبيد طريق عام عريض ، أو جسر يمتد فوق العماء ، على النهج الذى شقه إبليس أول الأمر ، وأثناء استعدادهما للهبوط إلى الأرض ؛ يقابلانه فيجدانه مزهواً بنجاحه فى طريق عودته إلى الجحيم ؛ ويتبادل الجميع التهتة . ويصل إبليس إلى « بانديمونيام » - قصر الشياطين - حيث يلتقى الجميع فيقص عليهم متباهياً نبأ نجاحه ضد الإنسان ، ولكنه لا يسمع التصفيق بل يسمع تحية من الفحيح العام صادرة من الجمهور ، ويدرك أن الجميع قد تحولوا معه فجأة إلى حشد من الأفاعى ، وهو حكم القضاء الذى صدر عليه فى الفردوس ، ويخيل إليهم أنهم يروُن الشجرة المحرمة تبرز أمامهم ،

فيدفعهم الشرُّ إلى اقتطاف الثمر ، ولكنهم لا يعضغون إلا التراب والرماد .
ويلي ذلك وصف لأفعال الخطيئة والموت ، ويتنبأ الله بالانتصار النهائي لكلمته
عليهما ، وتجديد حياة جميع الأشياء ، ولكنه يكتفى في تلك اللحظة بأن يأمر
ملائكته بإجراء عدة تعديلات في السماوات والعناصر . ويزداد إدراك آدم
لسقوطه فيندب حاله ويبكى مآله ، رافضاً عزاء حواء له ، ولكنها تثابر في
التسرية عنه حتى يهدأ آخر الأمر ، وفي محاولة لتفادي اللعنة التي قد تصيب
ذريتهما تقترح على آدم حلولاً تتسم بالعنف ، وهو ما يرفضه آدم ، إذ يلمح
بوارق رجاء مؤكدة ويذكرها بالوعد الذي تلقياه أخيراً ، وهو أن ذريتهما سوف
تنقم من الثعبان ، ويحثها على محاولة السعى معه إلى الصلح مع الإله الذي
عصياه وأغضباه ، بالتوبة والضراعة .

وفي هذه الأثناء انتشر نبأ الفعلة النكراء الخسيسة

التي ارتكبها إبليس في الفردوس ، وكيف

تمثل بالثعبان فضلل حواء

وكيف ضللت هي زوجها فتذوقا الثمرة المهلكة

وذاع النبأ في السماء ، فماذا عساه أن يفلت من عين

الله البصير الخبير ، أو أن يخدع فؤاده

وهو السميع العليم ، فشاء وهو الحكيم العادل في كل شيء

ألا يمنع إبليس من محاولة إغواء عقل الإنسان
الذى توافرت له القوة التامة وتَدَرَّعَ بالإرادة الحرة
وتهيأ له من أسباب الكمال ما يكفى لاكتشاف

١٠

أحاييل العدو ودحرها أو من يتظاهر بالصدقة مهما يكن .
فلقد كانا يعرفان دائماً ، وكان عليهما أن يذكرنا
الأمر السامى الذى ينهما عن تذوق تلك الثمرة
مهما يكن مصدر الغواية ، ولكنهما لم يطيعاه

١٥

فاكتسبا العقاب جزاءً وفاقاً
وتضاعفت خطيئتهما فحق السقوط عليهما .
وانطلقت الملائكة الحارسة من الفردوس مسرعة
تُصَعِّدُ فى السماء ، صامته حزينة

٢٠

ودهشت أشد الدهش لتسلل الشيطان الماكر
بالدخول خفية . وما إن جاءت الأنبياء المنكرة

من الأرض إلى أبواب السماء حتى استاء

كل من سمعها ، ولم يدخر الحزن الجهم

آنذاك وجوه الملائكة الأعلى ، وإن اختلط

٢٥

بالشفقة فلم ينتهك ما هم فيه من نعيم .

وتزاحمت حول الذين وصلوا لتوهم حشود
الكائنات الأثيرية التي تريد أن تسمع وتعرف
كيف حدث ما حدث ، وأسرع الحراس إلى العرش الأسمى
ماثلين للمساءلة ، مقدمين من الذرائع

٣٠

ما يثبت عدم إهمالهم مهمة الرقابة القصوى
فحظيت بالقبول دون عَنَتٍ ، وهنا تكلم الرب الأعلى ،
الصمد السرمدى ، من سحابه الخفية
ودوى صوته وسط الرعد قائلاً :

أيها الملائكة التي اجتمعت هنا ، ويا أصحاب القوى

٣٥

الذين أخفقوا فى مهمتهم فعادوا للسماء ! لا تبتئسوا
ولا يعكرنّ صفوكم ما جاء من الأرض من أنباء
فلم تكونوا لتحولوا دون ما حدث مهما أخلصتم فى الحرص
أو لتنبأوا بوقوعه مؤخرًا

عندما قام المغوى أولاً بعبور الهوة بين الفردوس والجحيم .

٤٠

فلقد أخبرتكم آنذاك بأنه سوف ينتصر وينجح
فى مسعى السوء الذى أراده ، وأن الإنسان سوف يُغوى ،
ويُصدّق أنه فوق الجميع ، بل ويصدق الأكاذيب
المفتراة على خالقه ، ولم يصدر منى قرار

يقضى بحتمية سقوطه ،

٤٥

أو يمس ولو بمثقال خردلة نزوع

إرادته الحرة ، إذ تُركت للميزان حركته الذاتية

بكفتيه المتعادلتين ، ولكن السقوط قد وقع ،

ولم يبق الآن سوى إصدار الحكم بالموت

عليه لارتكابه الخطيئة ، وهو الموت الذى أعلنت عنه ذلك اليوم ،

٥٠

والذى يفترض الإنسان أنه حكمٌ باطلٌ لاغٍ

لأنه لم يُنفذ فيه حتى الآن ، حسبما صوّره له خوفه ،

بضربة مباشرة مهما تكن ، ولكنه لن يلبث أن يعرف

أن الإمهال لا يعنى إسقاط الدين ، بل سيكون ذلك قبل نهاية اليوم

ولن يكون عائد العدالة ازدراء النعمة !

٥٥

ولكن ترى من أُرسل للحكم عليهما ؟ من سواك

يا كلمتى الحاكمة ، فلقد فوّضت إليك

الحكم كله ، سواء فى السماء أو فى الأرض أو فى الجحيم .

وما أيسر أن ترى أننى أعترم

أن أقرن الرحمة بالعدل ، فأرسلك

٦٠

صديقاً للإنسان ، ووسيطاً له ، فأنت من قصدت أن يكون

الفدية والمفتدى معاً ، وطواعية منك ،

فكلمة الله التي ستصبح بشراً تحكم الآن على سقطة البشر .

هكذا تكلم الله ثم بسط بهاءه الوضاء

وسناء المجد نحو يده اليمنى ، فأضفى على كلمته

٦٥

القوة الإلهية المتقدمة الصافية ، فاكتملت للكلمة

نُورانية الضياء القدسي الباهرة

واضحة جليّة ، وردّت الكلمة بنبرات عذبة قائلة :

أيها الإله الأزلى ، لك أن تحكم ،

ولى فى السماء والأرض أن أنفذ مشيئتك

٧٠

العليا ، حتى ترى فى وأنا كلمتك المحبوبة

كل ما يسرك إلى الأبد . سأمضى للحكم

فى الأرض على هذين الخاطئين ، ولكنك تعلم أنه

مهما يكن القاضى ، فسوف يحلُّ بى أسوأ ما يحلُّ ،

عندما يحين الموعد المحدد ، فهذا ما تعهدت به

٧٥

بين يديك ، ولا أرجع عنه بل أناله

بالحق ، أى أن أخفف من غلواء مصيرهما ،

فأتحمله بدلاً منهما ، ومع ذلك فسوف أخفف شدة

العدل بالرحمة ، حتى يتضح أننى

وفيت بهما الوفاء كله ، وظفرت برضاك .

ولن يحتاج القضاء إلى حضور أحد أو وجود خاشية

فلن يشهد الحكم إلا المحكوم عليهما ،

وهما هذان ، وأما الثالث الذى أَحْسَنَ بغيابه فهو مُدَانٌ ،

وفراره دليل إدانته ، بعد أن انتهك كل قانون ،

وأما الثعبان فهو غير مدان ولا مذنب .

وبانتهاء خطاب كلمة الله ، قام من عرشه الوضاء

الذى يشع سناء فوق سناء ، وقام الملائكة من أصحاب العروش

والقوى والإمرة والسيادة من أعضاده

فاصطحبوه إلى باب السماء ، ومنه

تَبَدَّتْ أَفَاقُ عَدَنَ وَجَمِيعُ أَصْقَاعِهَا :

وهبط مباشرة وفوراً ، فسرعة الملائكة

لا يحسبها الزمن ، وإن كانت مُجَنَّةٌ بأسرع دقائق الزمن .

كانت الشمس آنذاك قد بدأت تهبط الأفق الغربى

مبتعدة عن خط الزوال ، وَصَحَّتْ النسمات اللطيفة المكلفة

فى تلك الساعة بالهبوب على الأرض والإتيان

ببرد المساء الفاتر ، عندما جاء - وقد برد غضبه -

ذلك القاضى الرحيم والشفيع الكريم معاً

ليصدر حكمه على الإنسان ، وسرى صوت الله فسمعاه

- وهما يسيران فى الجنة ، فالنسائم الرقيقة
تحملة إلى آذانهما ، والنهار يميل للغروب ، وعندما سمعاه
حاولا الاختفاء عن حضرته بين
الأشجار اللّقاء ، وهما الزوجان معاً ، ولكن الله
اقترب منهما وصاح بآدم فى صوت جهورى قائلاً :
أين أنت يا آدم يا من اعتدت أن تهبّ فرحاً للقائى
وقد رأيتنى قادمًا من بعيد ؟ إننى أفتقدك هنا
وقد غاب عنك السرور ، ونشّدت التسرية فى العزلة ،
بعد أن كنت تقوم بالواجب الواضح دون أن يُطلب منك :
أُترانى جئتُ خفيةً ، أم ترى تغير شىء ما
فتغييت ، أم ترى منعتك المصادفة ؟ أقدم إذن !
وتقدم آدم ، ومعه حواء ، أشد منه خشية ، وإن كانت قد سبقته
إلى العصيان ، وقد اريدت ملامح وجهيهما ، وتجهما واضطربا ،
ولم تكن نظراتهما تشى بالحب ، لا لله
ولا لبعضهما البعض ، بل بالإحساس بالذنب واضحاً جلياً ،
وبالعار والقلق المضنى واليأس
والغضب والعناد والكراهية والمكر .
وبعد أن تردد آدم طويلاً وتخاذل ، أجاب باقتضاب قائلاً :

سمعتك فى الجنة ، وأخافنى صوتك ،
لما أنا فيه من عُرَى فاختبأت . وردَّ عليه
القاضى الكريم دون ملاحاة قائلاً :

كثيراً ما سَمِعْتَ صوتى ، فلم تُبدِ الخوف
هل الابتهاج دائماً ، فكيف أصبحُ الآن
مبعث رعب شديد لك ؟ وأما أنك عريان فمن
تُراه أخبرك بذلك ؟ تُراك أكلت من الشجرة
التي أمرتك باجتناب الأكل منها ؟

وأجابه آدم وقد أحبط به ألماً قائلاً :

يا للسماء ! يا لمازم السوء الذى أقف فيه اليوم
أمام حكم قضيتى ، فإِذَا أن أُحْمَلَ
نفسى تبعة الجرم كاملة أو ألقى الجُرم على
نفسى الأخرى وشريكة حياتى !

وتقصيرُها ، ما دامت على إخلاصها لى ،

من واجبى إخفاؤه لا تعريضها للتقريع

بشكواى منها ، ولكن الضرورة المحضة

تجبرنى على ذلك ، غانا فى مآزق كالكارثة مُضْطَرٌّ لذلك ،

كيلا يقع على رأسى ثقل الخطيئة والعقاب

وهو ثقل لا يحتمل ، فأحتمله كله

١٣٥

وحدى ، وحتى لو التزمت الصمت فلم أفصح ، فلسوف

تكشفُ يا ربى بيسرٍ عما أخفيه .

هذه هى المرأة التى خلقتها لتساعدنى

ووهبتنى إياها هديةً يزينها الكمال ، ولقد بلغ من صلاحها ،

وتواؤمها معى ، وقبولى إياها ، وشمائلها الربانية ، أن غدوت

١٤٠

لا أستريب فيما تقدمه يداها أو أرى فيه سوءاً ،

وكذا كل ما تفعله ، مهما يكن فى ذاته ،

إذ كان إقدامها عليه مبرراً له فى نظرى !

إنها هى التى قدمت لى ثمر الشجرة ، ولقد أكلت منه .

وردت الحضرة الإلهية على آدم بالكلمات التالية :

١٤٥

هل كانت ربك حتى أطعتها وجعلت صوتها

يسبق صوته ؟ أم تراها خلقت مرشدة لك

متفوقة عليك أو حتى مساوية لك حتى أسلمت لها

زمام رجولتك وأعطيتها المكانة التى

وضعتك الله فيها فوقها ، وهى التى خلقت منك

١٥٠

ومن أجلك ، وأنت الذى يزيد كماله كثيراً

عن كمالها فى جلال الملك الحق ؟ لقد زانها الجمال

حقاً ورائتها الفتنة الجديرة بالظفر

بحبك لا بخضوعك ، أما ما وهبها الله من شمائل فهي

جميلة ما دامت في موقع المحكوم ،

١٥٥

قبيحة في موقع الحاكم ، فهذا هو موقعك والدور المنوط

بشخصك لو كنت عرفت نفسك حق المعرفة .

وانتهى من كلامه فالتفت إلى حواء قائلاً باقتضاب :

قولى أيتها المرأة ، ما ذاك الذى فعلته ؟

وردت عليه حواء ، وقد كاد يغلبها العار ،

١٦٠

إذ ما أسرع ما اعترفت ، دون أن تواتيها أمام القاضى

جراً أو إسهاب ، بل اعترأها الخجل وهى تجيبه قائلة :

لقد خدعتنى الحية ولقد أكلت .

وعندما سمع الإله الرب ذلك ، لم يتباطأ

بل أصدر الحكم فوراً على المتهم

١٦٥

وهو الثعبان ، ولو أنه حيوان عاجز عن إحالة

الذنب إلى الذى جعله وسيلة لفعل

الشر ، ونجس إلى آخر

الدهر ، حقت عليه اللعنة آنئذ

وفساد الطبع ، ولم يكن المزيد من العلم

١٧٠ من نصيب الإنسان (إذ اقتصر علمه على ذلك ولم يزد عنه)

ولم يغير من جريرته ، ولكن الله فى آخر الزمان قد

حكم بما حكم به من مصير على إبليس ، أول الخاطئين ،

وإن كانت ألفاظ الحكم غامضة ، إذ رأى ذلك أفضل ما ينبغى آنذاك

وهكذا جعل لعنته تقع على الثعبان قائلاً :

١٧٥ لأنك فعلت هذا ، حُتَّ عليك اللعنةُ

فوق جميع البهائم ، وفوق كل وحوش البرية ،

ولسوف تسير زحفاً على بطنك

وتأكل التراب فى جميع أيام حياتك

ولسوف أوقع العداوة بينك وبين المرأة

١٨٠ والعداوة بين ذريتك وذريتها ،

وسوف تسحق ذريتها رأسك ، وتسحق أنت عقب الإنسان .

وانتهى حديث النبوة ، وهى التى تحققت

عندما جاء يسوع ابن مريم ، حواء الثانية ،

فشاهد إبليس وهو يتهاوى مثل البرق ساقطاً من السماء ،

١٨٥ وهو أمير الهواء ، ثم رُفِع من القبر

فجرد الرياسات والسلطين من قوتهم وظفر بهم

وعرضهم علناً ، ثم صعد وضاًء

فسبى السبى فى ثبج الهواء ،

وهو موطن إبليس نفسه الذى طال اغتصابه إياه ،

١٩٠

ولسوف يطؤه فيسحقه تحت أقدامنا فى آخر الزمان .

وهكذا تحول من تنبأ بذلك السحق المهلك

إلى المرأة وأصدر حكمه عليها قائلاً :

لسوف أضاعف أحزانك أضعافاً مضاعفة

بالحمل ، ولسوف تضعين أطفالك

١٩٥

بمشقة بالغة ، وتستكين لإرادة زوجك

إرادتك وتخضع ، ولسوف يسود عليك .

ثم التفت إلى آدم أخيراً وأصدر حكمه عليه قائلاً :

لأنك أصغيت إلى صوت زوجتك

وأكلت من الشجرة التى أصدرتُ إليك

٢٠٠

الأمر بشأنها قائلاً إتنى حرمتُ الأكل منها عليك ،

فلقد أصبحت الأرض ملعونة بسببك ، وسوف تكابد المشقة

فى الأكل منها طيلة أيام حياتها كلها ،

ولسوف تُنبِتُ لك أيضاً الشوك والحسك

دون أن تسألها ذلك ، ولسوف تأكلُ عشب الحقل ،

٢٠٥

ولسوف يندى وجهك بالعرق لتأكل الخبز

حتى تعود إلى الأرض ، فإنك

قد خرجت من الأرض ، فاعلم حقيقة مولدك ،

إذ إنك من تراب ، وإلى التراب تعود .

وفرغ من أرسل قاضيا ومُخَلَّصًا معًا من حكمه على الإنسان ،

٢١٠

فأبعد خطر الموت الآن الذي أعلن عنه ذلك اليوم

بعدًا بعيدًا ، ثم أخذته الشفقة بهما وهما واقفان

أمامه في عُرِّي يتعرضان للهواء الذي كان عليه الآن

أن يكابد التغيير ، فلم يجد بأسًا في أن يبدأ

على الفور في اتخاذ هيئة العبد

٢١٥

مثلما حدث عندما غسل أقدام عباده ، وهكذا قام الآن

بدور الوالد في أسرته ، فستر

عُرْيَهما بجلود الحيوان أو الوحوش التي قتلها

أو بجلد الثعبان الذي أبدله بجلد يافع .

لم يجد بأسًا في إضفاء أردية على أعدائه

٢٢٠

بل لم يكتف بأن كسا ظاهرهما بجلود

الوحوش ، بل ستر عريهما الباطن ، وهو الأشد

إيذاءً للعين ، برداء الصلاح الذي

كان لباساً جميلاً فى نظر الله .

وعادت كلمة الله صاعدة مسرعة إليه ،

٢٢٥

وعادت إلى موقع النعيم فى فؤاده

بالبهاء القديم والمجد العميم ، وقد رأت أنها أرُضتْ

الجميع ، ثم قصّتْ عليه ، وهو بكل شىء عليم ، ما جرى مع الإنسان

وقد امتزجت بالقصة شفاعة حسنة .

وفى أثناء ذلك ، ومن قبل أن يصدر الحكم على الخاطئين فى الأرض ،

٢٣٠

جلست الخطيئة والموت داخل أبواب الجحيم

فى الجهة المقابلة داخل أبوابها التى كانت الآن

مفتوحة على مصراعيها ، تتجشأ نيراناً مستعرة تمتد ألسنتها

إلى أقاصى أصقاع العماء ، منذ أن مرّ منها الشيطان

وفتحتّها له الخطيئة ، وهى التى بدأت حديثها إلى الموت قائلة :

٢٣٥

يا ولدى ! لماذا نجلس هنا وكل منا يحدق فى صاحبه

عاطلين ، وإبليس الذى أنجبنا يهنأ وينعم

بعوالم أخرى ، ويعمل على توفير مقر أسعد

لنا ، نحن ولديه العزيزين ؟ من المحتوم

أن النجاح قد حالفه ؛ فلو صادف ما يسوء

لعاد من مدة ، تلاحقه غضبة

المنتقمين منه ، إذ لا يوجد مكان مثل هذا

يناسب عقابه ، أو يناسب انتقامهم .

وإخال أننى أشعر بقوة جديدة تهب فى باطنى

وبأجنحة تنمو لى ، وبأننى مُنحت السيادة على أصقاع شاسعة

٢٤٥ وراء هذا البحر العميق ، مهما يكن ما يدفعنى ،

سواء كانت قوة الإنجذاب أو كانت قوة فطرية مماثلة

ذات طاقة على التوحد ، من أبعد المسافات ،

مع الأشياء المماثلة ، والارتباط بها برباطٍ ودُّ خفى ،

وبتواصل لا تُسر أسرارُه . إنك ظِلُّ الذى

٢٥٠ لا يفصل عنى ولا بد أن تمضى معى ،

فلا تستطيع قوة ما أن تفصل بين الموت والخطيئة .

ولئلا تؤدى صعوبة الرجوع إلى

تأخير عودته ، وذاك أمر محتمل ، مروراً فوق هذه الهوة

التي لا تستطيع قدم أن تجتازها أو تسلكها ، فلنحاول

٢٥٥ القيام بعمل فيه مغامرة ، ولو أنه ، نظراً لقوتك وقوتى ،

لا يخلو من متعة ، وهو أن نبني جسراً

فوق هذه الساحة التى تمتد من الجحيم إلى ذلك العالم الجديد

الذى يسط إبليس سلطانه عليه الآن ، وليكن أثراً يشهد

- على الامتياز الرفيع أمام حشد الجحيم أجمعين ،
 فسوف يُسرّ مرورهم إلى ذلك العالم ، إما للتنقل فيما بينهما
 ٢٦٠ أو للاستيطان فيه ، حسبما تقضى أقدارهم به .
 بل ولن أضل الطريق إذ أشعر أننى مدفوعة بقوة شديدة
 بما بدأت أحسه من انجذاب وميل غريزى .
 وسرعان ما أجابها الظل الناحل قائلاً :
 اذهبى إلى حيث يشاء القدر ، وحيثما تقود النزعة العارمة
 ٢٦٥ خطاك ، ولن أتخلف عنك أو أضل
 الطريق ، وأنت الحادى لى ، إذ إننى أشم رائحة
 مذبحة ، وفرائس لا حصر لها ، وأتذوق
 طعم الموت فى جميع الأشياء التى تحيا هناك :
 بل ولن أتقاعس عن العمل الذى تنهضين به
 ٢٧٠ أو أتخلف ، وإنما سأقدم لك المعونة الكافية .
 قال ذلك وهو يتشمم مبتهجاً رائحة
 التغير الذى يأتى بالفناء إلى الأرض . أرايتَ إلى سرب
 من الطيور الجارحة حين يقطع فى الجو فراسخ كثيرة نائية
 ٢٧٥ توقعاً ليوم المعركة ، مقبلاً إلى ميدان
 ضربت فيه الجيوش معسكراتها ، طائراً تجتذبه

رائحة الجثث الحية التى قُدِّرَ لها

أن تموت فى اليوم التالى فى الصراع الدموى ،

فهكذا كان ذو الشكل الجهم يتشمم ما حوله ، وقد رفع

٢٨٠

أنفه بفتحتين متسعيتين فى الهواء العكر

مدرِّكًا رائحة فريسته من مسافة بعيدة .

ثم انطلق كلاهما خارجين من أبواب الجحيم إلى المهمة

الشاسع لفوضى العماء الرطب المدلهم ،

طائرَيْن فى اتجاهين متعارضين وحلِّقا بقوة (فقوتهما عظيمة)

٢٨٥

وحومًا على وجه الماء ، وما صادفاه من أشياء

صلبة أو لزجة ، مما ترى البحر الهائج

يتقاذفه هنا وهناك ، تعاونًا معًا على دفعه

من الجانبين فى دَفَقَات نحو فم الجحيم .

فكأنما هب تياران متعارضان من الريح القطبية

٢٩٠

على المحيط القطبى الشمالى ، فتعاونًا معًا على رفع

جبال الجليد التى تعوق مجرى الممر المائى المتخيل

وراء نهر « بتسورا » فى سيبيريا شرقًا إلى

ساحل « قيطان » ذى الثراء . وأما التراب الذى تجمع

فقد ضربه الموت بحربته الصخرية الباردة الجافة

٢٩٥

كأنما يضربه بالرمح ذى السنان الثلاثي ، وثبته فثبت

ثبات جزيرة « ديلوس » التي كانت طافية يوماً ما ، وأما سائر الأشياء

فقد نظر إليها نظرة تخدير « جورجونية » فركزت ولم تتحرك ،

وشدَّ بعضها إلى بعض بمزيج من قار لزج ، فالتصقت الحصى والحصاء

في هيكل عريض عرض باب الجحيم ، يلتقى قاعه بقاعها العميق ،

٣٠٠

وركزاه فركز ، وبدا الرصاف الهائل المبنى عالياً

فوق البحر ، برغائه وزبده ، جسراً مقوساً مرتفعاً

ذا طول خارق يتصل بالسور الذي

لا يتزعزع لهذا العالم الذي أصبح بلا حصانة

مفتوحاً أمام الموت ، ويمتد منه كذلك ممر عريض

٣٠٥

معبداً ميسراً خالٍ من العثرات هابطاً إلى الجحيم .

وهكذا فإذا ضربنا الأقل للأعظم مثلاً ، ألمحنا إلى ملك الفرس

« أرتخششا » الذي أراد قمع حرية بلاد اليونان

فأتى من قصره « ميمونيا » الشاهق في « سوسة »

إلى ساحل البحر وبنى فوق مضيق « الدردنيل »

٣١٠

جسراً يعبره ، ويربط أوروبا بآسيا ،

وألهب ظهور الأمواج الغاضبة بسياط كثيرة .

وهكذا أصبح الجسر الذي بنياه بفنون عجيبة

- في تشييد الجسور هيكلًا من الصخور المعلقة
فوق الهوة التي تبتاعها العواصف ، مقتفياً خطى
إبليس ، فوصل إلى نفس البقعة التي كان
قد حطّ فيها من طيرانه أول مرة ، وهبط سالماً
بعد أن خرج من باطن العماء إلى الخلاء العارى
لهذا العالم الكُروى ، وأرسيا عواميد من الصخر
وربطاه بالسلاسل التي ثبّتها تشيئاً
لا يحول أبداً ، وهكذا التقت في حيزٍ محدودٍ
تخوم السماء الدنيا واتصلت بتخوم
هذا العالم ، وإلى اليسار كانت الجحيم
بارزة على مبعده ، فبدت ثلاثة طرق منفصلة
لِلناظرين ، يصل كل منها إلى واحد من هذه الأماكن الثلاثة .
وبعد أن تبين لهما طريقهما إلى الأرض
الذى يمر أولاً بجانب الفردوس ، إذا بهما يشاهدان
إبليس متخذاً صورة ملكٍ وضاء
بين برج القوس وبرج العقرب ، محافظاً في مسيره
على زاوية السميت ، والشمس تشرق في برج الحمل .
كان متكرراً ، ولكن طفليه العزيزين هذين

سرعان ما عرفا والدهما حتى وهو متنكر .

كان قد تسلل خفية ، بعد أن أغوى حواء ،

إلى داخل الغابة المتاخمة ، ثم غير من صورته

حتى يرقب عاقبة ما حدث ، فشهد خُدْعَتَهُ التى أوقعت

٣٣٥

حواء ، ولو دون وعى منها ، وتكرار ذلك

مع زوجها ، وشهد إحساسهما بالخجل ومحاولة

التستر بأردية لا غناء فيها ، ولكنه عندما رأى نزول

كلمة الله للحكم عليهما أصابه الرعب

فلاذ بالفرار ، لا أملاً فى الهرب ، ولكن لتلافى لقاء

٣٤٠

تلك الحضرة ، فهو مذنب ويخشى ما تستطيع غضبتها

أن تنزله به فجأة ، وبعد أن جازها ، عاد

ليلاً ، وأخذ يصغى حيث كان الزوجان التعسان

يجلسان ويتبادلان أحاديث الحزن ، وشتى الشكاوى ،

ومنها أدرك المصير الذى ينتظره ، وفهم أنه

٣٤٥

لن يحلَّ به على الفور بل فى المستقبل . وحمل فرحته

وما علمه من أنباء عائداً إلى الجحيم

وعندما وصل إلى حافة العماء ، بالقرب من قاعدة

هذا الجسر الجديد العجيب ، أسعده الحظ

بأن قابل من قدما لمقابلته ، وهما ولداه العزيزان .

٣٥٠

وغمرت اللقاء فرحة كبرى ، وعندما شهد

ذلك الجسر الهائل زادت فرحته

ووقف وقفة طويلة يتأمله فى إعجاب ، حتى بدأت الخطيئة ،

ابنته الجميلة الساحرة ، فى كسر طوق الصمت قائلة :

يا أبى ! هذه أعمالك الرائعة ،

٣٥٥

وجوائز نصرك ، وأنت ترقبها كأنها ليست لك ،

بل أنت صاحبها ومهندسها الأول ،

إذ إننى ما كدت أحدث فى قلبى -

قلبى الذى تدفعه قوة تَوَاقُفٍ خَفِيَّةٍ

على السير دوماً فى ركاب قلبك والارتباط به برابطة عذبة -

٣٦٠

أنك قد أفلحت على الأرض ، وهو ما تشهده عيناك

الآن أيضاً ، حتى أحسست فوراً -

على ما يفصلنى عنك من عوالم -

أننى لا بد أن أقف بخطاك مع ولدك هذا ،

فلقد بلغ من علاقة العلة والمعلول المصيرية بين ثلاثتنا

٣٦٥

أن غدت الجحيم عاجزة عن حبسنا بعد اليوم فى تخومها

وغدت هذه الهوة الظلماء التى يتعذر اجتيازها

عاجزة عن منعنا من مواصلة اقتفاء خطاك الباهرة الذائعة .

لقد حَقَّقْتَ لَنَا الحرية ، وكنا رهن المحبس

داخل أبواب الجحيم حتى اليوم ، ومن ثم مَكَّنَّا

٣٧٠

من اكتساب هذه القوة الشديدة ، ومن تشييد

هذا الجسر الخارق فوق الهوة الخالكة .

وهكذا أصبح هذا العالم كله مَلِكًا لك ، وفازت قوتك

بما لم تُبْنِ يداك ، وَكَسَبْتَ حَكْمَتَكَ لَنَا ،

كسبًا مُؤَزَّرًا ، ما ضاع منا في الحرب ، فاكتمل الثَّار

٣٧٥

من هزيمتنا في السماء ؛ ولسوف تحكم هنا مَلِكًا مُتَوَجِّيًا ،

ولم تكن كذلك هناك ، وَلَيَسُطُّ الظَّافِرُ سُلْطَانَهُ هُنَاكَ ،

بحقِّ نتيجة المعركة ، تاركًا هذا العالم الجديد

مبتعدًا عنه ، إذ أبعدته الحكم الذي أصدره ،

وليتقاسم منذ الآن معك السلطة المَلَكِيَّة

٣٨٠

على جميع الأشياء التي تفصل بينها الحدود السماوية ،

وتفصل مملكته المربعة عن عالمك الدائري ،

وإلا فليقدم على التجربة ليعرف أنك غدوت أشد خطرًا على عرشه .

وأجابها أمير الظلام جذلاً قائلاً :

ابتنى الجميلة ، وأنت يا ولدى وحفيدي معاً ،

٣٨٥

لقد قَدَّمْتُمَا الآنَ برهاتًا ساطعًا على انحداركما من نسل

إبليس (وأنا أزهو باسمي الذي يعنى

الخصومة مع ملك السماء الذي هو على كل شيء قدير)

وبرهتما على جدارتكما بالانتساب إلى وكل قاطنى

مملكة الجحيم ، إذ قابلتما نصرى قرب باب الجنة

٣٩٠

بقوس نصر جديد هو هذا الجسر ،

وقابلتما عملى بهذا العمل المجيد فأنشأتما مملكة واحدة

من الجحيم وهذا العالم ، مملكة واحدة ، قارة واحدة ،

يسهل المرور منها وإليها . ومن ثم فعليكما الآن ، أثناء

هبوطى بيسر خلال الظلام على الطريق الذى هيأتماه

٣٩٥

إلى قوات حلفائى حتى أحيطهم علمًا

بهذه النجاحات وأحتفل معهم بها ،

أن تسلكا معًا هذا الطريق ، من بين هذه الأفلاك المتعددة

التي تنتمى كلها إليكما ، حتى تصلا إلى الفردوس فى آخره ،

وبالإقامة فيه والحكم ناعمين ، وأن تبسطا على الأرض

٤٠٠

سلطانكما وتمارساه ، وفى الهواء أيضًا ،

وخصوصًا على الإنسان ، الذى أُعْلِنَتْ سيادته على الجميع ،

وأن تتأكدا من استعباده أولاً وأن تهلكاه آخر الأمر .

- إننى أرسلكما بديلين عنى ، وبذلك أنشئ من ينوب عنى
ومن فوّضتُ إليه سلطتى الكاملة ، ومن يتمتع بقوة لا تضارع
صادرةً منى ، وهكذا فإن طاقتكما المشتركة أصبحت الآن
العماد الذى ترتكن إليه سيطرتى على هذا العالم الجديد
الذى أصبح عرضة للموت من خلال الخطيئة بفضل جهودى .
فإذا انتصرت قوتكما المشتركة باتت الجحيم
لا تخشى أى ضرر ، فاذهبوا واعتصموا بالقوة .
وفرغ من حديثه أمراً إياهما بالانصراف ، فأسرعا
يشقان طريقهما خلال بروج السماء الزاخرة ،
ناشرين سمومهما التى أصابت النجوم فغار ضوءها للناظرين ،
وأما الكواكب فطمسها عُدوان كواكب أخرى عليها ، فكان الخسوف الحقيقى
الذى تعرضت له ، وانحدر إبليس فى الطريق المقابل هابطاً
على الجسر إلى باب الجحيم ، وعلى الجانبين
صاح العماء محتججاً على بناء الجسر الذى شقه نصفين ،
وانقضَّ بأمواج زاخرة عارمة على العُمد التى قام عليها ،
لكن العمد لم تأبه بغضبه ، ومر إبليس من الباب
الذى كان مفتوحاً على مصراعيه ولا أحد يحرسه ،
فوجد كل ما حوله مهجوراً موحشاً ، إذ إن اللذين
كلّما بالجلوس هناك كانا قد تركا المهمة

وانطلقا إلى العالم العلوى ، وكان الباكون جميعاً

قد انسحبوا إلى الداخل ، حول أسوار

قصر « بانديمونيام » ، المقر الذى يزهو به

« لوسيفر » ، وكان قد أطلق عليه هذا الاسم تشبيهاً له

بالنجم الساطع الذى يُقرن به .

كانت الفيالق قائمة بالحراسة هناك ، وأما الكبراء

فقد عقدوا اجتماعاً وهم يتساءلون بقلق عما عساه

قد عاق امبراطورهم فى بعثته ، فذلك

ما أمر به عند رحيله ، فاطاعوا الأمر .

أرأيت إلى التتار عندما يتراجعون أمام جيش روسيا المعادى

عند مدينة « أستراكان » ، فوق السهول التى تكسوها الثلوج ،

وينهزمون ، أو إلى ملك الفرس عندما يتقهقر أمام قرنى

الهلال التركى ، تاركاً الخراب فى جميع الأصقاع خلف

مملكة أرمينيا الكبرى ، أثناء انسحابه

إلى مدينة « تبريز » أو « قزوین » ، فهكذا كان هؤلاء الذين

طردوا من اللجنة أخيراً ، إذ تركوا أقاصى الجحيم خاوية ،

وقطعوا فراسخ عديدة فى الظلام لتولى الحراسة اليقظة

حول عاصمتهم ، وكانوا يتوقعون الآن

- ٤٤٠ فى أى ساعة رجوع رئيسهم المغامر الأكبر من استكشافه
للعوالم الأجنبية ، وأما هو فقد مر وسطهم دون أن يلحظوه ،
إذ اتخذ صورة مقاتل من عامة الملائكة ،
بل من أدنى الدرجات ، ودخل من باب
تلك القاعة التى تشبه قاعة « بِلوتو » ، وفى الخفاء
٤٤٥ صعد فجلس على عرشه العالى ، الذى كان يمتد تحت ظُلةٍ
من نسيج باذخ الثراء يبرق عند طرفه الأقصى
بما هو فيه من سنى الملك وسنائه ، وظل هنيهة
جالساً ينظر ما حوله دون أن يراه أحد ،
ثم نهض فكأنما برزت رأسه الوضاعة من سحابة
٤٥٠ وتجلّى فى صورة نجم يتلأأ ، أو أشد تلالؤاً ، مكتسباً
ما سُمح له به بعد السقوط من بهاءٍ
أو من بقية بهاء ، أو من لمعان زائف ، ودهش الجميع
بذلك الضياء الباهر المفاجئ وتحولت أنظار حشد الجحيم
ووجوههم إليه ، فشاهدوا ما كانوا يتمنون ،
٤٥٥ ألا وهو عودة رئيسهم الجبار ، فارتفع دوىٌ تصفيقهم ،
واندفع نحوه كبار المستشارين من أقرانه مسرعين ،
ناهضين من مجالسهم فى الديوان المعتم ، وبفرحة تعدل فرحته ،

تقدموا منه مهئين ، فأشار بيده

فساد الصمت ، وخاطبهم فشد انتباههم قائلاً :

٤٦٠ يا أصحاب العروش والسيادة والإمرة والرفعة والقوة ،

يا من تملكون هذه الألقاب لا بموجب الحق وحده ،

فيها أناديكم وأعلن لكم الآن أنني رجعت

بنجاح يتجاوز ما كنا نأمله ، حتى أقود مسيرتكم

الظافرة إلى خارج هذه الوهدة الجهنمية

٤٦٥ البشعة اللعينة ، منزل الآلام ،

والجب الذى رمانا فيه المستبد ، إذ لكم أن تملكوا غيره الآن ،

وأن تصبحوا أسياداً على عالم رحيب لا يقل عن وطننا السماوى

إلا قليلاً فى منزلته ، ولقد خضت مغامرة شاقة ،

وتعرضت لأخطار كبرى حتى ظفرت به ، وقد يطول بى الحديث

٤٧٠ إن قصصت عليكم ما فعلته ، وما عاينته ، ومدى آلام

إبحارى فى اللُّجج الهَيُولِيَّة الشاسعة التى لا حدود لها

لبحر الاختلاط الرهيب ، والتى بنى فوقها الآن

الموتُ والخطيئةُ جسراً وطريقاً عريضاً عبَّدها

ليزيد من سرعة انطلاقكم المجيد ، وإن كان على أنا

٤٧٥ أن أكدح كدحاً للإبحار وحدى فى الخضم الغريب ، مرغماً على ركوب

- الهوة العسيرة العصية ، غارقًا في رحم
 الليل القديم والعماء الموحش ، وهما اللذان كانا
 يخافان على أسرارهما ، فأبديا معارضة ضارية
 لرحلتى الغربية ، بالصياح والجلبة والصراخ ،
 محتجّين بما قضت به عُلّيا الأقدار ؛ ومن ثم كيف عثرتُ على
 ٤٨٠ العالم الذى خلق حديثًا ، وهو الذى ترددت الشائعات فى السماء
 بقرب خلقه منذ زمن طويل ، وهو نسيج رائع
 من الكمال المطلق ، وُضع فيه الإنسان
 داخل فردوس ، وأدى نفينا إلى
 ٤٨٥ إبعاده ، ولقد تمكنت بالخداع من إغوائه حتى عصى
 خالقه ، وسوف تزيد دهشتكم عندما تعلمون
 أن وسيلتى لم تكن سوى تفاحة ، وعندها غضب الله عليه ،
 بل ويجدر بكم أن تضحكوا حين تعلمون أنه أباح
 وقوع الإنسان الحبيب إلى قلبه ، بل وهذا العالم كله ،
 ٤٩٠ فريسة للخطيئة والموت ، ومن ثم أباحه لنا
 دون مخاطرة منا أو جهد أو فزع ،
 حتى ننطلق فى أرجائه ، ونقيم فيه ، ونسيطر على الإنسان ،
 ونسيطر على كل ما ينبغى له السيطرة عليه .

والحق أنه أصدر حكمه علىّ أنا أيضاً ، أو قل إنه
 لم يصدر حكمه علىّ بل على الثعبان الأعجم الذى اتخذتُ صورته ٤٩٥
 حتى أخدع الإنسان ، وأما الحكم الصادر علىّ
 فهو العداوة التى سوف يقيمها

بينى وبين الإنسان ، فلسوف أسحق عقبه ،
 ولسوف تسحق ذريته رأسى إذا انتبّهت فلم تنخدع بمكرى !
 ومن ذا الذى لا يشتري عالماً بضربة ٥٠٠

أو بما هو أشد وجعاً وإيلاماً ؟ ها أنذا انتهيت من رواية
 ما فعلته ، ولم يبق أمامكم أيها الأرباب
 إلا أن تنهضوا فتدخلوا الآن النعيم الكامل .

قال ذلك ووقف برهة وهو يتوقع أن يعلو

هتاف الجميع وتصفيقهم المدوّى ٥٠٥

فيماً أذنه ، ولكن النقيض حدث ، إذ بلغ مسمعه
 من كل جانب ، ومن السنة لا تعد ولا تحصى ،

فحيحٌ رهيبٌ بشع ، وهو الصوت الذى يشى
 باحتقار الجمهور له ، ودُهشٌ وتعجب ، ولكن لم يلبث

أن ازداد دهشةً وعجباً مما بدأ يصيبه هو نفسه ،
 إذ تقلص وجهه فتحسّسه فإذا هو نحيل هزيل ، ٥١٠

والتصقت ذراعاه بأضلأعه ، والتفت رجلاه

حول بعضهما البعض ، حتى وجد نفسه يتعثر ويسقط

وقد أصبح ثعباناً شائها يسعى على بطنه ،

٥١٥

وحاول المقاومة عبثاً ، إذ إن قوة أعظم

كانت تسيطر عليه وتعاقبه بإكسابه الصورة التى اتخذها فى خطيئته

وفقاً للحكم الصادر عليه ، وحاول أن يتكلم

ولكن الفحيح كان يرد على الفحيح من لسان مشقوق

إلى لسان مشقوق ، فلقد تحول الجميع الآن

٥٢٠

دون استثناء إلى ثعابين ، لأنهم شاركوا جميعاً

فى جرمه الجسور ، وكان صوت الفحيح البشع

يدوى فى أرجاء القاعة التى اكتظت الآن بحشود كثيفة

من الوحوش المركبة من شتى الرؤوس والذبول ،

من العقرب إلى الصل ، والأفعى الشنعاء ذات الرأسين فى الطرفين ،

٥٢٥

والقرناء ، وحنش الماء السام ، وثعبان البحر الرهيب ،

وحية العطش القاتل (ولم تجتمع مثل هذه الحشود منذ أن

سقطت قطرات دم « ميدوزا » الجرجونة فبللت التربة أو منذ نشأة جزيرة

الثعابين « أوفيزا ») ولكنه كان لا يزال الأضحى بينها

إذ تحول إلى تنين عظيم ، أكبر من التنين الذى

٥٦٣

٥٣٠

أَنْبَتَتِ الشَّمْسُ فِي وَادِي الْأَصْلَاطِ مِنَ الطِّينِ ،

أَصْلَةً عَظِيمَةً ، وَبَدَأَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَحْتَفِظُ بِسُلْطَانِهِ

عَلَى سُلْطَرِ أَقْرَانِهِ ، وَبَدَأَ الْجَمِيعُ

يَقْتَفِرُونَ خَطَايَاهُمْ مُنْطَلِقِينَ إِلَى الْخَلَاءِ فِي الْمِيدَانِ الْفَسِيحِ

حَيْثُ كَانَ مِنْ تَبَقَى مِمَّنْ شَارَكُوا فِي التَّمَرْدِ وَالثُّورَةِ

٥٣٥

فَهَبَطُوا مِنَ الْجُنَّةِ وَاقِفِينَ صَفُوفًا لِلْحِرَاسَةِ أَوْ لِلْإِسْتِعْرَاضِ

فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَشَاهِدُوا

رَأْسَهُمُ الْمَجِيدَ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الْقَاعَةِ ظَافِرًا مَنْصُورًا

فَإِذَا بِهِمْ يَشْهَدُونَ مُشْهَدًا آخَرَ ، إِلَّا وَهُوَ حَشْدٌ

مِنَ الثَّعَابِينِ الْقَبِيحَةِ ، فَحُلَّ فِي نَفُوسِهِمُ الرَّعْبُ

٥٤٠

وَالْتِعَاطُفُ الْمَقِيَّتِ ، فِإِلَى جَانِبِ مَا رَأَوْا ،

شَعَرُوا بِأَنَّهُمْ بَدَأُوا يَتَغَيَّرُونَ كَذَلِكَ ، فَلَقَدْ تَدَلَّتْ أَذْرَعَتُهُمْ

وَسَقَطَتْ مِنْهَا الْحِرَابُ وَالْدُرُوعُ ، وَسَقَطُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ بِالسَّرْعَةِ نَفْسَهَا ،

وَتَجَدَّدَتْ أَصْوَاتُ الْفَحِيحِ الْمَفْزَعِ ، إِذْ اكْتَسَبُوا الشَّكْلَ الْمَفْزَعِ نَفْسَهُ

كَأَنَّمَا انْتَقَلَ إِلَيْهِمْ بِالْعُدْوَى ، فَتَسَاوَوْا مَعَهُ فِي الْعِقَابِ

٥٤٥

مِثْلَمَا تَسَاوَوْا فِي الْجُرْمِ . وَهَكَذَا فَإِنْ مَا قَصَدُوا إِلَيْهِ مِنْ تَصْفِيْقٍ

تَحْوِلُ إِلَى فَحِيحٍ مُتَفَجِّرٍ ، وَتَحْوِلُ زَهْوُ الْإِنتِصَارِ إِلَى عَارٍ

يَرْمُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . وَبَرَزَتْ أَشْجَارُ

خميلة متاخمة لهم ، نَبَّتْ مع التحول الذى أصابهم
بمشيئة حكم السماء الأعلى ، وتغليظاً

٥٥٠

لعقابهم ، محملة بالثمار الجميلة ، مثل الثمار
التي أُنِيتْ في الفردوس وكانت الطعم الذى أُوقِعَتْ به حواء
في حبال المغوى ، واجتذبهم ذلك المشهد الغريب
وثبتت نظرات عيونهم الحريصة عليه ، إذ تخيلوا
أن عديداً من الأشجار المحرمة ، لا واحدة ،

٥٥٥

قد ارتفعت هاماتها لتزيدهم حزناً أو عاراً ،
ولكن حلوقهم كانت تكتوى بالعطش الحارق والجوع الضارى
فلم يستطيعوا منع أنفسهم منها ، ولو أنها أُرْسِلَتْ لخداعهم ،
وانطلقوا نحوها وتكدسوا أكواماً فوق أكوام ، وتسلقوا
الأشجار التي ازدحمت بهم زحاماً يزيد عن كثافة شعر

٥٦٠

الخصلات الجعدة في رأس « ميجيرا » ، وبشراة أخذوا يقطفون
الثمار ذات الشكل الجميل ، وكانت تشبه ثمار الأشجار
القريبة من البحر الميت حيث أضرمت النيران في « سدوم » .
وكان مذاقها أشد من ملمسها مخاتلةً وأكثر

٥٦٥

خداعاً ، فإذا بهم وهم يتصورون أنهم يشبعون
شهيتهم بما لذ وطاب ، لا يأكلون الثمار

٥٦٥

- بل يعضون تراباً مرّاً ، امتعض الذوق منه ومجّه ،
 فلفظته الأفواه فى بصقات مسموعة ، وأعادوا الكرة مراراً ،
 ثم كبّحوا دافع الجوع والعطش ، وتكرر تقزّزهم مراراً ،
 وتلوّت الفكوك ألماً من سوء الطعم وبغضه الشديد
 ٥٧٠ حين امتلأت بالسناج والرماد ، وتكرر وقوعهم
 ضحية الوهم نفسه ، لا كما حدث للإنسان
 الذى سقط سقطة واحدة حين انتصروا عليه . وهكذا ابتلّوا
 ونحلّوا نحولاً من الجوع والفحيح الطويل المتصل
 حتى فقدوا صورتهم ، وقد يُسمح لهم باستعادة صورتهم فيعيدون الكرة ،
 ٥٧٥ إذ يؤمرون فى كل عام ، فيما يقال ، بالتعرض
 لذلك الإذلال السنوى فى أيام معدودة معينة ،
 لكسر شوكة كبريائهم وفرحتهم بإغواء الإنسان .
 ولكن بعض الأساطير المأثورة التى نشروها
 بين الوثنيين الذين وقعوا فريسة لهم
 ٥٨٠ تحكى كيف تولّى الثعبان ، الذى أسموه
 « أوفيون » ، زمام الحكم ، بمشاركة « يورينومى » وهى التى ربما
 تكون حواء ذات الجور الواسع النطاق ، فوق
 جبل « الأوليمپ » السامق أول الأمر ، ثم طردهما « ساتورنوس »

و« أوبس » ، حتى قبل أن يولد « چوف » فوق جبل « دكتايوس » .

٥٨٥

وفى أثناء ذلك كان الزائران الجهنميان قد وصلا إلى الفردوس

بسرعة فائقة ، وكانت الخطيئة قد زارتها من قبل ، من حيث القوة

ومن حيث الفعل مرة واحدة ، ولكنها تدخل الآن بجسدها

لتقيم فيها وتعتادها ، وكان الموت من خلفها

يقف أثرها خطوة خطوة ، وإن لم يركب بعد

٥٩٠

متن جواده الشاحب ، فخاطبته الخطيئة قائلة :

يا ابن إبليس الثانى ! أيها الموت الذى يقهر الجميع !

ما رأيك الآن فى مملكتنا ، على ما بذلناه فى اكتسابها

من جهد جاهد ، أليس حالنا أفضل

من الجلوس للحراسة دوماً عند عتبة الجحيم المظلمة

٥٩٥

دون أسماء ، ودون أن نخيف أحداً ، وقد كدت تهلكُ جوعاً ؟

وسرعان ما أجاب الوحش الذى ولدته الخطيئة قائلاً :

أنا الذى أذوى من الجوع السرمدى ،

وتساوى فى عيني الجحيم والفردوس والسماء ،

وإن كان مقامى هناك أفضل لكثرة ما ألقى من وديان ،

٦٠٠

وهى ، على وفرتها هنا ، لا يكاد يكون فيها ، على ما يبدو ،

ما يكفى لملء هذه المعدة ، وهذا الجسد الكبير ذى الجلد الفضفاض .

وأجابت الأم التي واقعها إبليس أبوها قائلة :

عليك إذن بهذه الأعشاب والثمار والأزهار

فاجعلها قوتك أولاً ، واجعل غذاءك بعدها من كل حيوان وسمك وطيور ،

وليست بأطعمة ساذجة ، ومن كل شيء - مهما يكن - ٦٠٥

يحصده منجل الزمن ، فازدردة ازدراداً لا يُبقى على شيء ،

حتى يتسنى لى أن أسكن الإنسان فى ذريته

فألوث أفكاره ونظراته وكلماته وأفعاله جميعاً

وأعدّه لك فيمسى آخر فرائسك وألذّها طعاماً .

وفرغت من حديثها فانطلق كلاهما فى طريقين منفصلين ٦١٠

إما للدمار أو للتسبب فى فناء

جميع الأنواع واستعداداً لحلول الدمار

عاجلاً أو آجلاً ، وكان القدير يبصر ذلك

من عرشه المتعالى بين الملائكة

فوجه حديثه إلى أصحاب تلك المراتب الرضاء قائلاً : ٦١٥

انظروا مبلغ حماس هذين الكلبين من كلاب الجحيم وهما يتطلقان

لتخريب ذلك العالم وتدميره ، وهو العالم الذى

خلقته بالغ الجمال والخير ، وربما

أبقيته دوماً على تلك الحال ، لولا أن حماقة الإنسان

٦٢٠

سمحت بدخول ربّات الانتقام المدمرة ، التي تنسب

الحماقة إلىّ ، شأنها في ذلك شأن أمير الجحيم

وأتباعه ، لأننى أسمح لهم أن يدخلوا بيسر

وأن يمتلكوا بسهولة ذلك المكان

ذا السمات السماوية ، ولأننى فيما يبدو أغض الطرف عن ذلك

٦٢٥

إرضاءً لأعدائى الذين يظهرون الازدراء

ويضحكون كأنما يتشّون بنوبة ما من نوبات

الانفعال ظانين أننى قد تنازلت عن كل شيء ،

واستسلمت ، دون تدبير وإحكام ، لفساد حكمهم ،

وهم لا يدركون أننى استدعيتهم ودفعتهم إلى ذلك المكان

٦٣٠

وهم كلاب جحيمى ليلعقوا الحثالة والأوساخ

التي جلبتها خطيئة الإنسان فلوّثت بها ووَصَمَتْ

ما كان طاهرًا نقيًا ، حتى إذا امتلأوا فأتخموا حتى كادوا ينفجرون

بالنفايات التي يَسْتَشِفُّونها ويلتهمونها ، جاءت ضربة المقلاع

من الذراع الظافرة لكلمتى الرّضِيَّة ، ضربة واحدة تطيح

٦٣٥

بالخطيئة والموت معًا وبالقبر المفتوح

الإطاحة الأخيرة عبر العماء فتسد فم الجحيم

إلى الأبد ، وتختتم على فكيه النهمين .

وعندها تتجدد السماء والأرض وتتطهران طهراً

قدسياً لا يقبل التلوث بشائبة من الشوائب :

٦٤٠

وريثما يكون ذلك فإن اللعنة الصادرة عليهما تظل قائمة .

وانتهى من حديثه فإذا بالملأ الأعلى يُنشدون عالياً

أناشيد التسبيح في هدير كأنه هدير البحار

وسط الجماهير الكثيرة التي أنشدت : ما أعدل أحكامك ،

وأوامرك حقٌ على جميع ما خلقتَ ، من ذا الذي

٦٤٥

يستطيع أن ينتقص من قدرك ؟ ثم سَبَّحُوا بعد ذلك لكلمة الله

التي قُدِّرَ لها أن تعيد الإنسان إلى النعيم ، وأن ترفع

السماء والأرض الجديدتين إلي زمن الهناء ،

أو تنزل بهما من السماء إلى الأرض . وانتهوا من الإنشاد

وكان الخالق يستدعى وينادى بالأسماء

٦٥٠

ملائكته الجبارة ويكلف كلا منهم مهمة محددة

كأفضل ما يناسب الأحوال الراهنة . أما الشمس

فقد قُدِّرَ أولاً لها أن تتحرك وأن تسطع

فتحدث في الأرض من البرد والحر

ما لا يكاد يحتمل ، وأن يستدعى من الشَّمالِ

٦٥٥

الشتاءَ الهرمَ ، وأن يأتي من الجنوب

بحرارة الصيف في أوجِه . وحدد الملائكة للقمر الشاحب

مهمته المنوطة به ، وللكواكب الخمسة الأخرى

حركاتها والوجوه التي تظهر بها عند ميل مداراتها

بزوايا حادة أو قائمة أو منفرجة وعند تضادها

٦٦٠ وفعالية تأثيرها الضار ، ومتى يرتبط بعضها ببعض

ارتباط السوء ، وعُلِّمَت النجوم الثابتة

متى تمطر آثارها الحبيثة ،

وأى منها - سواء ما يُشرق مع الشمس أو ما يغرب معها -

يُستدلّ منه على هبوب الأعاصير ، وحددت للرياح

٦٦٥ أركانها ، ومواقيت هبوبها لتخلط العناصر وتمزج

البحر والهواء واليابسة ، وللرعد متى ينطلق مزمجرا

بالرعب في القبة الهوائية المدلهمة .

ويقول البعض إنه طلب من ملائكته أن يُميلوا

محور قطبي الأرض أكثر من عشرين درجة

٦٧٠ عن مدار الشمس ، فبذلوا جهدهم في دفعها

حتى مال محورها ، ويقول البعض إن الشمس

قد أمرت أن تنحرف في سيرها عن طريق خط الاستواء

بهذه الدرجات نفسها ، نحو برج الثور حيث الشقيقات السبع ، بنات

« أطلس » فى الثريا ، وحيث التوأمان « الإسبرطيان » فى الجوزاء

٦٧٥

حتى مدار السرطان ، وأن تهبط مسرعة مارة

ببرج الأسد وبرج العذراء وبرج الميزان

وجنوباً حتى مدار الجدى ، حتى تحقق تغيير

الفصول فى كل إقليم ، ولولا ذلك لكان الربيع

الدائم قد استمر تبسّمه على الأرض بزهوره الزاهية

٦٨٠

وتساوى النهار والليل طولاً ، إلا لمن يعيشون

وراء الدائرتين القطبيتين ، فليدهم النهار

ساطعاً دون ليل ، والشمس المنخفضة انخفاضاً

يكافئ بعدها ، تبدو لناظرهم كأنما

تدور دائماً حول الأفق ، فلا يُعرف

٦٨٥

شرق أو غرب ، ولا تمتنع سقوط الثلج

فى « استوتيلاند » الباردة ، وفى الجنوب حتى الأصقاع

التي تحت منطقة « ماجلان » . وعندما ذاق الإنسان تلك الثمرة

اشمأزت الشمس وتقزرت تقززها من مائدة « ثايستيس » ، فانحرفت

عن مسارها المرسوم ، وإلا فكيف تأتى للعالم

٦٩٠

المعمور ، قبل أن يقع فى الخطيئة ، أن يتمتع بقدرة أكبر على

تجنب البرد القارس والحرارة الحارقة ؟

وأدت هذه التغيرات فى السماء ، على بطئها ، إلى إحداث
تغيير مماثل فى الهر والبحر ، وتأثير النجوم
والأبخرة والضباب والنفثات الحارة الحاملة

٦٩٥

للفساد والطاعون ، وهكذا انطلقت الرياح الآن من شمالى
«لورمبيجا» فى كندا ، وشاطئ «ساموديا» فى سيبيريا ،
فحطمت محبسها النحاسى ، وتسلحت بالجليد
والثلج والبرد والعواصف والأعاصير المفاجئة ،
من الشمال والشرق والغرب عالية مدممة ،

٧٠٠

وجعلت ريح الشمال الغربية تمزق الغابات وتقلب البحار قلبا !
كما كانت الرياح المعاكسة لها من الجنوب تقلبها أيضا
مثل الهبوب والسَّموم السوداء بسحابها الراعد
من «سيراليون» ، وفى مواجهتها هبت الريح ضارية
مسرعة من الشام ، والرياح الغاربة مثل

٧٠٥

ريح الجنوب الشرقى ، والريح الغربية ، وصخب اصطدام هذه بتلك ،
والجنوبية الشرقية بالجنوبية الغربية ، وهكذا بدأت
الغضبة العارمة من أشياء لا حياة فيها ، ولكن الشقاق ، أول
مولود للخطيئة ، بدأ يتسرّب الآن إلى الكائنات غير العاقلة ،
إذ دفع به الموت فى صورة البغضاء الضارية فيما بينها ،

٧١٠ فشرعت الحيوانات يقاتل بعضها بعضاً ، والطيور

والأسماك ، وتركت العشب الذى ينبغى أن تقتات به ،

وأخذ بعضها يلتهم البعض الآخر ، ولم تعد تخامرها الرهبة

من الإنسان ، بل باتت تفر منه أو ترمقه بوجوه جهمة

وتحديق فيه أثناء مرورها ، وكانت تلك ظواهر

٧١٥ للأشجان المتزايدة ، وكان آدم قد شهد

بعضها من قبل ، على اختفائه فى أعتم الظلال ،

نهياً للحزن ، وإن كان يكابد فى أعماقه ما هو أسوأ ،

تتلاعب به أمواج بحر هائج من الآلام ،

ومن ثم أراد تخفيف أثقاله بالبهث والشكوى الحزينة قائلاً :

٧٢٠ يا شقياً كان سعيداً ! هل هذه نهاية

ذلك العالم الجديد المجيد ، ونهايتى ، وأنا من كنت منذ هيئته

مجد ذلك المجيد ، وأصبحت الآن

ملعوناً بعد أن كنت مباركاً ؟ دعنى أحتجب عن وجه الله ،

وهو من كانت رؤيته تمثل لى آنذاك أوج

٧٢٥ السعادة ! قد أتحمل ذلك لو كانت هذه نهاية

الشقاء ، فهو جزاء وفاق لى ، وعلى أن أتحمل

كل ما أستحقه ، ولكن الأمر لن يتوقف عندى

يكل ما آكله أو أشربه ، وكل من سأنجبه ،

يعنى تكاثر اللعنة . يا صوتاً سمعته وأنا فرح

٧٣٠

مبهج ذات يوم يهتف بى أنجب وتكاثر !

إننى أسمع الآن الموت ! إذ ما عساه أن يتكاثر

وما عساي أن أنجب إلا اللعنات على رأسى ؟

ومن ذا الذى يخلفنى فى العصور المقبلة ويدرك

الشر الذى جلبته له إلا ويصب اللعنة على

٧٣٥

رأسى قائلاً « لقد أساء صنعاً سلفنا العاصى

ولذلك فلنا أن نشكر آدم ! » وهو الشكر

الذى يفصح عن الكراهية ، وهكذا فإلى جانب

لعناتى التى لن تفارقنى ، فإن كل ما يخرج منى سوف

يرتدُّ إلى فتتقضى اللعنات انقضاضاً ضارياً على ،

٧٤٠

على أنا ، مركزها الطبيعى ، وإن خفَّ وقعها فى المركز

وثقل حيثما تكون . يا للحظات الهناء التى مرت سراعاً

فى الفردوس ! لقد اشتريتك بثمان باهظ . . بالأحزان المقيمة !

هل طلبت منك يا صانعى أن تأخذ صلصالى

فتصوغنى إنساناً ، وهل رجوتك أن تُخرجنى

٧٤٥

من الظلمات فتُعَلِّى قَدْرى أو تَصْعَنى هنا

٥٧٥

فى هذه الجنة ذات الملاذ ؟ ولما كانت إرادتى

لم توافق على وجودى ، فمن الحق

والعدل أن تُرجعنى إلى ترابى الأول

فأنا راغب فى الاستسلام ، وفى إعادة

٧٥٠

كل ما تَلَقَّيْتُهُ ، بسبب عجزى عن تلبية

شروطك البالغة القسوة ، والتى كانت ترمى إلى أن أنال

من الخير ما لم أَسْعَ إليه ، ولقد نالنى لقاء فقدانه

ما يكفى من العقاب ، لكن لماذا أَضَفْتُ

إليها مكابدة أحزان سرمدية ؟ من المحال تفسير

٧٥٥

عدالتك فيما يبدو ، وإن كانت قد جاءت حقا بعد فوات الوقت

ولذلك أظعنُ فيها ، وكان لى أن أرفض

تلك الشروط مهما تكن عند عرضها أول الأمر .

ولكنك يا آدم قبلتها ، فهل تستمتع بالخير

ثم تهاجم الشروط ؟ ومع أن الله

٧٦٠

قد صنعك دون استئذانك ، فلنفرض أن ابنك

عصاك فقرعته على عصيانه فرد عليك قائلاً

« لماذا أنجبتنى ؟ إننى لم أَسْعَ لذلك »

فهل تقبل ردًا على احتقاره لك

٧٦٥

ذلك العُدْر الذى ينمُّ عن الكِبَر ؟ ومع ذلك فإنك

لم تنجبه باختيارك بل بالحثمية الطبيعية .

لقد صنعك الله باختياره ملَكًا له ، ومن حقه

أن تعبدَه ، وثوابك كان من فضله ورحمته ،

ومن ثم فإن عقابك يكون بالعدل وفق مشيئته .

فليكن يا ربى ذلك ، وعلى أن أعترف بأن الحُكم عليه منصف ،

٧٧٠

وبأننى تراب ، وأننى سأعود إلى التراب ،

فمرحبا بتلك الساعة مهما يكن موعدها ! فلماذا تتأخر

يده عن تنفيذ الحكم الذى

حدده فى هذا اليوم ؟ لماذا يتجاوز عمري الموعد المضروب له ،

والموت يسخر منى ويضحك ، وتطول حياتى

٧٧٥

فتمسى أُلّا دون موت ؟ لكم يُسعدنى أن ألقى

الفناء الذى حُكم به علىّ ، فأتحول إلى ترابٍ

لا يحس ولا يدرك ، وكم يسعدنى أن أرقد

كأنما أغفو فى حجر أُمى ! هنالك أستريح

وأنام آمنًا ، ويتوقف صوته الرهيب

٧٨٠

عن الهدير فى أذنىّ ، دون خوف مما هو أَوْخَم

لى ولذريتى ، يقض مضجعى ويعذبنى

بقسوة التوقع . ومع ذلك فإن أحد الشكوك

لا يزال يطاردنى ، خشية ألا يصيب الموت كيانى كله

وأن تكون نفثة الحياة النقية ، وهى روح الإنسان

٧٨٥

التي نفخها الله فيه ، باقية من المحال أن تفنى

مع هذه المضغة من صلصال الجسد ، وحين أوارى فى القبر

أو فى أى مكان رهيب آخر ، فمن يدرى

فلعلنى أموت موتاً حياً ؟ يا لها من فكرة

بشعة إن صدقت ! ولكن لماذا الشك ؟ إن نفثة

٧٩٠

الحياة وحدها هى التى أخطأت ، وهل يموت إلا ما كانت له حياة

وارتكب خطيئة ما ؟ والجسد فى ذاته لا يحقق أيا من هذين الشرطين

وإذن فإن كيانى كله سوف يموت ، ولأبعد عنى شبح

هذا الشك ، فعلم الإنسان يعجز عن إدراك ما هو أبعد .

ومع أن رب الجميع وكل شئٍ لانهائى

٧٩٥

فهل غضبه كذلك أيضاً ؟ فليكن ، ليس الإنسان كذلك

بل محكوم عليه بالفناء . فكيف ينزل الله

غضباً لانهائياً بالإنسان الذى لابد أن يفنيه الموت ؟

هل يستطيع أن يخلق موتاً لا يموت ؟ إن ذلك يعنى الوقوع

فى تناقض غريب ، وهو ما يعتبره الله نفسه

٨٠٠

من المحال ، فهو دليل على

الضعف لا القوة . أم تراه سوف يطيل أمد

المحدد الفانى ، غضبًا ، فيجعله أبدياً

فى الإنسان الذى يتلقى العقاب ، إرضاءً لصرامته

التي لا ترضى أبدًا ، وذلك من شأنه توسيع نطاق

٨٠٥

عقوبته حتى يتجاوز التراب وقانون الطبيعة

الذى يقضى بأن يجرى عمل جميع الأسباب

وَفَقًا لطبيعة المادة التى تؤثر فيها هذه الأسباب

لا وَفَقًا لطبيعة هذه الأسباب نفسها . ولكن فلنقل

إن الموت لن يجرى ضربةً واحدة ، كما كنت أفترض ،

٨١٠

فيسلب الحس والإدراك ، بل فى صورة شقاء لا ينتهى

من هذا اليوم إلى الأبد ، وهو ما أشعر أنه بدأ

فى باطنى وفى ظاهرى ، وسوف يظل

سرمديًا ! واهًا لى ، والخوف

يعود إلى راعداً منذراً بانقلاب رهيب

٨١٥

على رأسى العزلاء ، فأنا والموت

أصبحنا خالدين ، وكلانا جسد واحد ،

بل ولست فى ذاتى فردًا واحدًا ، ففى شخصى يتحمل

الْخَلْفُ كُلُّهُمْ اللَّعْنَةُ ، فَمَا أَحْسَنَهُ مِنْ تَوَاتٍ

سَأَخْلِفُهُ وَلَا شَكَّ لَكُمْ يَا أَبْنَائِي ! لَيْتَنِي كُنْتُ قَادِرًا

٨٢٠ عَلَى إِهْلَاكِهِ كُلَّهُ بِنَفْسِي ، فَلَا أَتْرُكُ لَكُمْ شَيْئًا !

فَإِذَا حُرِّمْتُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ فَكُمُ مِنَ الْبَرَكَاتِ سَوْفَ أَنَالُ مِنْكُمْ

وَأَنَا الَّذِي أُمَثِّلُ لِعَتَّتِكُمُ الْآنَ ! عَجَبًا ! لِمَاذَا يَكْتُبُ عَلَى الْبَشَرِ كُلِّهِمْ

أَنْ يَدَانُوا بِجَرِيرَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ دُونَ ذَنْبٍ

إِذَا كَانُوا أَهْرِيَاءَ ؟ وَلَكِنْ مِنْ عَسَايَ أَنْ أَنْجِبَ

٨٢٥ إِلَّا الْفَاسِدِينَ الَّذِينَ انْحَطَّتْ عَقُولُهُمْ وَإِرَادَتُهُمْ

لَا فِي مَا يَفْعَلُونَ فَقَطْ ، بَلْ أَيْضًا فِي إِرَادَتِهِمْ فَعَلَ مَا فَعَلَتْهُ

نَفْسُهُ ؟ كَيْفَ يَسْتَطِيعُونَ إِذَنْ تَبْرِئَةَ أَنْفُسِهِمْ

فِي نَظَرِ اللَّهِ ؟ إِنِّي أَجِدُنِي بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْحُجَجِ الْمُتَصَارِعَةِ

مَرْغَمًا عَلَى تَبْرِئَتِهِ ، وَجَمِيعِ مَرَاوِغَاتِي لَا طَائِلَ تَحْتَهَا

٨٣٠ وَجَمِيعِ أَدْلَتِي الْمُنْطَقِيَّةِ ، وَإِنْ سَلَكَتُ دُرُوبًا مَلْتَوِيَّةً ، تَوْدِي بِي دَائِمًا

إِلَى إِدَانَةِ نَفْسِي ، أَيْ إِلَى ذَاتِي أَوَّلًا وَأَخِيرًا ،

وَالِإِلَى ذَاتِي وَحْدَهَا ، فَهِيَ الْمَصْدَرُ وَالْمَنْبَعُ

لِلْفُسَادِ كُلِّهِ ، وَيَقَعُ الذَّنْبُ كُلُّهُ عَلَى بِالْحَقِّ ،

فَلَيْتَ غَضَبَةَ اللَّهِ تَقْتَصِرُ عَلَيَّ ! أَمْنِيَّةُ جَوْفَاءَ ! هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِلَ

٨٣٥ ذَلِكَ الْعَبَاءَ الَّذِي هُوَ أَثْقَلُ مِنَ الْأَرْضِ وَزَنًّا ،

بل أثقل كثيراً من الكون كله ، حتى وهو مُقَسَّمٌ بيني

وبين تلك المرأة الطالحة ؟ وهكذا فإن ما ترغب فيه

وما تخشاه يتساويان في تدمير كل أمل

في النجاة ، ويتتهيان إلى أنك شقي

لا مثيل لشقائه في الماضي والمستقبل ،

ولا شبيه لك إلا إبليس في الجرم والعقوبة .

يا أيها الضمير ! في أي هوة عميقة من المخاوف

وضروب الذعر أَلْقَيْتَ بى ، حيث لا أجد منها

مخرجاً ، بل أغوص فيها من غور إلى غور أعمق !

وانتهى آدم من بكائه على حاله وحده بصوت مرتفع

في الليل الساجي الذي تغيّر الآن منذ سقوط الإنسان ،

فبعد أن كان مبعث صحة وذا برد رقيق لطيف ، أمسى الهواء الأسود

يصحبه ، وألوان الرطوبة والظلمة المدلهمة الرهيبة ،

وكان يمثل لضميره المذنب

جميع الأشياء في صور من الرعب المضاعف . كان على الأرض

ممدداً حيث استلقى ، على الأرض الباردة ، ومثلما أكثر

من صبّ اللعنات على خلقه ، أكثر من اتهام الموت

بالتأخر في الوصول ، منذ الإعلان به

- يوم ارتكاب جريرته . وقال لماذا لا يأتى الموت ،
 فيضربنى ضربة واحدة ألقاها بترحيب ضوعف ثلاثاً
 ٨٥٥ ليضع نهاية لى ؟ ألن تفى الحقيقة بوعداها ؟
 ألن تسرع العدالة الإلهية بإمضاء عدلها ؟
 ولكن الموت لا يأتى عند طلبه ، والعدالة الإلهية
 لا تغير من مسيرها البطئ بالصلوات والدعوات .
 ٨٦٠ أيتها الغابات ، أيتها الينابيع والتلال والوديان والحمائل
 كنت أعلم ظلالك أن تحببني بأصداء أخرى منذ عهد قريب
 وأن ترد على أناشيد تختلف اختلافاً شاسعاً !
 وعندما شاهدته حواء الحزينة وهو فى ذلك العذاب ،
 وقد غلبها الاكتئاب حيث جلست ، نهضت فاقتربت منه
 ٨٦٥ وحاولت تخفيف آلامه الضارية بكلمات عذبة
 ولكنه حذجها بنظرة صارمة وصدّها قائلاً :
 اغربى عن ناظرى أيتها الحية ، فهو أفضل اسم
 يناسبك بعد ارتباطك بها ، فأنت زائفة مثلها
 وكريهة مثلها ، ولا ينقصك شىء منها ، إلا أن يصبح شكلك
 ٨٧٠ مثل شكلها ، وأن تتخذى من الألوان الثعبانية ما يفصح
 مثلها عن المكر الباطن ، لتحذير جميع المخلوقات منك

منذ الآن ، حتى لا تقع فى حبال صورتك السماوية ، الواجهة

التي تخفى زيفك الجهنمى ! ولولاك

لاستمرت سعادتي ! لولا أنك رفضت - بكبريائك

٨٧٥

وضلال غرورك - تحذيرى لك فى أقل الأوقات أمناً

وأماناً ، وازدريت بإصرار

ألا يوثق بك ، واشتقت إلى أن تشاهدك العيون ،

ولو كانت عينى الشيطان نفسه ، الذى جاء بالتيه والخيلاء

حتى يحقق مأربه ، لكنك عندما قابلت الثعبان

٨٨٠

خُدِعْتَ وَغُرِّرَ بِكَ ، فَأَغْوَاكَ هُوَ ، وَأَغْوَيْتَنِي أَنْتَ ،

إِذْ أُولَيْتُ ثِقَتِي مِنْ خُلِقْتُ مِنْ ضَلَعٍ فِي جَانِبِي ، وَتَصَوَّرْتُهَا حَكِيمَةً

مَخْلُصَةً ، نَاضِجَةً ، حَصِينَةً تَمْتَنِعُ عَلَى أَىِ اعْتِدَاءٍ ،

وَلَمْ أَدْرِكْ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ مَظْهَرًا فَحَسَبَ

لَا صِفَاتٍ رَاسِخَةً ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سِوَى ضَلَعٍ

٨٨٥

مَلْتَوٍ بِطَبِيعَتِهِ ، مُنَحْنٍ مَنَحَرَفٍ ، وَهُوَ مَا يَتَجَلَّى الْآنَ ،

وَقَدْ انْتَزَعَ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ الْخَبِيثِ مِنِّي ،

وَيَحْسُنُ التَّخْلُصُ مِنْهُ ، فَهُوَ زَائِدٌ عَنِ الْحَاجَةِ

وَزَائِدٌ عَنِ عَدَدِ أَضْلَاعِي الصَّحِيحَةِ . تَرَى لِمَاذَا أَقْدَمَ اللَّهُ -

ذَلِكَ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ الَّذِي عَمَرَ السَّمَاءَ الْعُلْيَا

٨٩٠

بأرواح من الذكور - على أن يخلق آخر الأمر
هذه البدعة على الأرض ، هذه العورة الجميلة
من عورات الطبيعة ، ولم يملأ العالم فوراً
برجال كالملائكة ليس فيهم إناث
أو يجد أى سبيل آخر لتوالد

٨٩٥

الجنس البشرى ؟ لو فعل لما وقع هذا الشر
ولما وقعت شرور أخرى مقبلة ، وما لا حصر له
من القلاقل على الأرض بسبب فخاخ الأنثى
والارتباط الضيق بهذا الجنس . فإما أن الرجل
لا يفلح أبداً فى العثور على زوجة مناسبة ، فيتزوج
من يأتى بها إليه الحظ السيئ أو الخطأ ،

٩٠٠

وإما أنه لا يوفق فى الفوز بمن يتمناها ، إلا فيما ندر ،
بسبب عنادها ، ثم يراها وقد فاز بها

من هو أدنى منه كثيراً ، وإما أنها تحبه فيحجبها

والداها عنه ، وإما أنه لا يصادف أنسب اختيار له

٩٠٥

إلا بعد فوات الوقت ، وقد ارتبطت بغيره وتزوجت

خصماً لدوداً ، فيكون ذلك مبعث كراهية أو عار ،

وسبباً فى وقوع كارثة لا حدود لها

فى الأرواح البشرية ، وبلاء يذهب بالسكينة العائلية .

ولم يَزِدْ آدم ، بل أشاح بوجهه عنها ، ولكن حواء

٩١٠

لم يثنها ذلك ولم تنفِرْ ، ودموعها تنساب دون توقف ،

ونخصلاتها اختلطت وانتشرت ، فألقت بنفسها على قدميه

فى استكانة واحتضنتهما ، وهى تنشدُ

إرضاءه ، ثم شرعت تبثه شكواها قائلة :

لا تتخلَّ عني هكذا يا آدم ، ولتشهد السماء على

٩١٥

مدى الحب المخلص والإجلال الذى أحمله فى قلبى

لك ، ولقد أخطأتُ عن غير قصد ،

بعد أن خدعتُ خداعاً مؤسفاً ، إبنى أتضرع إليك

راجيةً محتضنةً ركبتيك ألا تُكِلِنى

يا من أحيا به ، فنظراتك الرقيقة ومعونتك

٩٢٠

ومشورتك فى هذه الشدة القصوى

هى قوتى الوحيدة وعمادى الأوحى ، فإذا هجرتنى

فأين عساى أذهب ، وأين أحيا ؟

وما دمنا لا نزال فى قيد الحياة ، فَلَيْسَ السَّلام بيننا

إلا من سوية إذا اقتضى الأمر ، ولتكتاف

٩٢٥

وقد جمعت بيننا الضراء ، ونوجّه عداوتنا الواحدة

إلى من جعله الحُكم الصريح عدواً لنا

ألا وهو الثعبان القاسى . لا تُوجَّهُ إذن إلى

بُغْضِكَ بسبب هذا الشقاء الذى وقع ،

لا توجهه إلى بعد أن حلّ بى الضياع ، وأصبحت

أكثر شقاءً منك ، ولقد أخطأ كلانا ، ولكنك ٩٣٠

أخطأت فى حق الله فقط ، وأنا أخطأت فى حق الله وحقك ،

وسوف أعود إلى ساحة الحُكم ،

حيث أتضرع إلى السماء وألح باكية راجية أن تُرفعَ

العقوبة كلها من على رأسك وتُحوّلَ

إلى أنا ، إذ تسببتُ وحدتى فى كل ما حلّ بك من أحزان ، ٩٣٥

أنا ، وأنا وحدى ، من ينصبّ عليه بالحق غضبه .

وأنهت حديثها باكية ، معربة عن بليّتها باستكانة ،

لا تبرح حتى يعود الوثام بعد الإقرار بالخطأ

والندم عليه ، فاثارت فى نفس آدم

تعاطفاً وشفقةً ، إذ سرعان ما لان قلبه ٩٤٠

لها ، وهى التى كانت منذ قليل حياته وبهجته الوحيدة

وغدت تقعى عند قدميه خاضعة حزينة ،

مخلوقة بالغة الحُسْنِ ترجو الصلح معه ،

بعد أن أغضبته بتجاهل مشورته ومعونته ،

٩٤٥

فكان كمن جرّد من سلاحه ، إذ انفثاً غضبه وزال ،

وسرعان ما أعانها على النهوض بكلمات هادئة قائلاً :

كيف تَغفُلين ويجرفك الحرص البالغ ، فى الماضى

والحاضر ، على ولوج ما تجهلين ، إذ ترغبين أن تقع

العقوبة كلها عليك أنت ، ولكن ، وأسفاه !

٩٥٠

ليتك تقدرين على احتمال عقوبتك أنت أولاً ، فلسوف تَتَهَاوَيْنَ

تحت أثقال غضبته الكاملة ، ولا تُحَسِّنِ الآن إلا أهونها ،

بل إنك لا تتحملين وطأة استيائى . وإذا كانت الصلوات

قادرة على تغيير الأوامر العليا فسوف أهرع إلى ذلك المكان

فأسبقك إليه ، وأتضرع بصوت أعلى

٩٥٥

أن يقع على رأسى الذنب كله ،

وأن يُغفر عن ضعفك وجنسك الواهن ،

فأتحمل الوزر وأقبل انتقاله إلى .

لكن انهضى ، ولنقلع عن مُحاجَّتنا ، أو اتهام

بعضنا البعض ، إذ نواجه تَهَمًا كافية فى مكان آخر ، ولنحاول

٩٦٠

بجهود الحب أن ننظر فى تخفيف

عبء كل منا فيما نتقاسمه من أحزان ،

ما دام الموت المعلن فى هذا اليوم ، إذا صدقت نظرتى ،

لن يكون مفاجئاً ، بل شرٌّ بطئ الخطى

وموت فى يوم طويل ، لزيادة العذاب لنا

٩٦٥

ولذريتنا (وما أتعسك من ذرية !) بحق الإنجاب .

واستعادت حواء شجاعته فأجابته قائلة :

أعرف يا آدم - بتجربتي الحزينة -

خِفةَ كلماتي فى موازينك ،

فلقد ثبت خطئُها ، وعاقبتُها العادلة

٩٧٠

أثبتت وقوع ما ناسى له وناسف ، ومع ذلك

فبعد أن أعدتني ، على ما بى من شر ، إلى موقع

قبول جديد من جانبك ، وأملأ منى فى استعادة

حبك ، وهو مصدر الرضى الأوحد لقلبي ،

حية أو ميتة ، فإننى لن أخفى عنك

٩٧٥

آية أفكار تشرق فى صدرى المضطرب

وترمى إلى التخفيف مما نحن فيه من شدائد ،

أو من وقع النهاية ، على مرارتها وأتراحها ، وإن كانت محتملة

نظراً لما نحن فيه من شرور ، وتقدم خياراً أيسر .

فإذا كان القلقُ على ذريتنا أشدَّ ما يعذبنا ،

٩٨٠

إذ لابد أن يولدوا حاملين حزنًا ما ، وأن يزدردهم

الموت آخر الأمر ، وإنه لمن الشقاء

أن يشهب المرء في شقاء الآخرين ،

وهم من أنجبناهم نحن ، ومن أصلا بنا انحدروا

إلى هذا العالم الملعون نسلًا يعرفه الحزن ، مدركين أنهم ،

٩٨٥

بعد حياة من التعاسة ، لابد أن يمسوا أخيرًا

طعامًا لهذا الوحش الكريه ، فإن في طوقك

أن تمنع الحمل قبل وقوعه ، وتحول دون وجود

نسل غير مبارك ، بعدم إجابته أصلاً ،

لا أطفال لديك الآن ، فلتبق بلا أطفال ،

٩٩٠

حتى نخدع الموت بقمع شرهه ، ونرغمه

أن يكتفى بنا نحن الاثنين في إشباع نهم معدته ،

أما إذا رأيت مشقة وعُسراً في امتناع الزوجين ،

بعد الأحاديث والنظرات وتطارح الحب ،

عن حقوق الحب المشروعة وعناق الأزواج الرقيق ،

٩٩٥

وفي أن تذوى الأشواق ألماً دون أمل

أمام محبوب مائل يذوى كذلك ألماً

بأشواق مماثلة ، وفي هذا ما فيه من شقاء

٥٨٩

وعذاب لا يقلان عن أى شىء نخشاه ،

فدعنا نحرر أنفسنا وذريتنا معاً

١٠٠٠

مما نخشى علينا وعليهم منه ، ولنعجل بالنهاية ،

ولنطلب الموت ، فإذا لم نعثر عليه ، قمنا

بأيدينا بالعمل المنوط به ، بأنفسنا لأنفسنا .

لماذا يطول وقوفنا نرتجف تحت وطأة المخاوف ،

التي لا تستبين لنا نهايةً إلا الموت ، وفى طوقنا -

١٠٠٥

مختارين أقصر الطرق الكثيرة للموت -

أن ندمر الدمار بالدمار .

وتوقفت هنا ، أو قل إن اليأس المشبوب

قطع باقى حديثها ، وقد شغلت أفكارها بالموت

انشغالا صَبَغَ خَدَيْهَا بالشحوب ،

١٠١٠

ولكن آدم لم يقتنع بأى شىء فى تلك المشورة

إذ كان ذهنه أشد يقظةً ، عامراً بآمال أرحب ،

فجهد ونشط فكره وأجاب حواء قائلاً :

يا حواء ! إن احتقارك للحياة واللذة ، فيما يبدو ،

يبرهن على أن بداخلك شيئاً أرفع وأسمى

١٠١٥

وأشد امتيازاً مما يحتقره عقلك .

ولكن الانتحار الذى تسعين إليه يدحضُ

الامتياز الفكرى فى ذاتك ، ويوحى ضمناً

لا بالاحتقار من جانبك ، بل بالأسى والندم

على فقدان الحياة واللذة اللذين زاد حبهما عن الحد .

١٠٢٠

وأما إذا اشتبهت الموت نهايةً قصوى

للشقاء ، وتصورت بذلك أنك تتحاشين

العقوبة الصادرة ، فثقى بأن الله قد رود

غضبه انتقامه بالأسلحة التى أحكم اختيارها

حتى لا يفلح تفاديها بهذا الأسلوب ، وأخاف أكثر من ذلك

١٠٢٥

ألا يؤدي اختطافنا للموت هكذا إلى الإغفاء من الألم

الذى حُكم علينا بمكابدته ، بل إن مثل هذه الأفعال التى تنم

عن مكابرة ، سوف تدفع ربنا الأعلى إلى

أن يجعل الموت يحيا فينا ، وإذن دعينا نبحث عن

حلٍ يحقق المزيد من السلامة لنا ، وأظن

١٠٣٠

أننى المحه الآن ، حين أتذكر وأنتبه إلى

أحد بنود الحكم الصادر علينا ، وهو أن ذريتك سوف تسحق

رأس الثعبان ، وهو تعويض طفيف إلا إذا كان

المقصود به ، وهو ما أحدثس ، عدونا الأكبر

إيليس ، الذى تمثل بالشعبان حتى يدبر

١٠٣٥

ويوقعنا فى هذه الخدعة ، وسحق رأسه

انتقام حقيقى ، ونحن نضيع هذه الفرصة علينا

إذا قررنا الانتحار أو عدم إنجاب الأطفال ،

وهو ما تقترحينه ، وهكذا سوف يتمكن عدونا

من الإفلات من عقابه المقدّر له ، ونكون نحن

١٠٤٠

قد ضاعفنا العقاب على رأسينا بدلاً منه .

فلنكفّ إذن عن الحديث عن إزهاق

أرواحنا وتعمّد العقم .

فذلك يقطع علينا حبل الأمل ، وينحصر مذاقه فى

البغضاء والكبرياء ، والتعجّل والازدراء ،

١٠٤٥

والتمرد على الله وعلى نيره العادل

الذى وضعه فى أعناقنا . اذكرى كيف أبدى اللطف

والكرم فى استماعه إلينا والحكيم علينا

دون غضب أو سباب ، وكنا نتوقع

الفناء فوراً ، وهو ما ظننا

١٠٥٠

أنه المقصود بالموت ذلك اليوم ، وإذا به

يقتصر على التنبؤ لك بمكابدة آلام الحمل

وهى سرعان ما تُنسى بعد الوضع ، وتُكَافَأُ بالفرح ،

بثمرة رحمك . وأما لعنتى فهى أن أنحنى

منكباً على الأرض ، إذ لابد أن أجهد حتى أكسب

١٠٥٥

خبزى ، وما الضرر فى ذلك ؟ البطالة مصير أسوأ !

عملى سوف يقيم أودى ! وحتى لا يؤدى البردُ

أو الحر إلى إيذائنا ، تدخلت عنايته فى الوقت المناسب

لحمايتنا منهما دون أن نطلب ذلك ، وبيديه

ألبسنا ملابس لا نستحقها ، مُبدِئاً الشفقة أثناء الحكم .

١٠٦٠

فإلى أى مدى أبعدَ يجيب دعوة الداعى إذا دعاه

فيفتحُ أذنيه لنا ويميلُ قلبه للرافة بنا .

فيعلمنا المزيد عن وسائل اتقاء ما تأتى

به فصول العام القاسية من مطر وجليد وبرَدٍ وثلوج

وهو ما بدأت السماء الآن ، بوجهها المتقلب ،

١٠٦٥

تبديه لنا فى هذا الجبل ، والرياح

تهب عاتيةً مطيرةً صرصراً ، فَتُشَتُّ الخصلاتِ الرشيقةَ

لهذه الشجرات الجميلة الظليلة ، وهو ما يقتضى منا أن نُنشِدَ

دُثَّاراً أفضل ودفعاً أقدر على صون

أطرافنا التى أصابها الخدر قبل أن يأفل نجم النهار

١٠٧٠

تاركًا الليل للزمهرير ، فنرى كيف نجمع ونركز أشعته

بعدسة محدّبة على بعض المواد الجافة فتشتعل ،

أو نقدح الزند باصطكاك جسمين واحتكاكهما

فَيَنْطَقُ في الهواء الشرار ، كما رأينا السحب منذ قليل

تضطرع أو تدفعها الريح الجائحة فتضطدم

١٠٧٥

وتوقد البرق في خطوط مائلة ، فيتزل السنة نيرانه المتقاطعة

فيشعل اللحاء الصمغى في أشجار السرو أو الصنوبر

ويرسل حرارة لطيفة من بعيد ،

وقد نستعيض بهذا اللهب عن حرارة الشمس ، ونستعمل تلك النار

وسواها مما يصلح للتغلب على آثار

١٠٨٠

الشرور الناجمة من سوء أفعالنا أو الشفاء منها ،

ولسوف يعلمنا إياها حين ندعوه ، ونسأله إياها كرمًا منه ،

متضرعين إليه ، ومن ثم لن نخشى

أن نقضى هذه الحياة في بحبوحة ، معتمدين عليه

وعلى ما يزودنا به من وسائل الراحة الكثيرة ، حتى ننتهى

١٠٨٥

إلى التراب ، راحتنا الأخيرة ، وموطننا الأصيل .

وخيرُ ما نفعل الآن هو أن نعود إلى المكان

الذى أصدر علينا الحكم فيه فنسجد

أمامه فى إجلال وتعظيم ، ونعترف هناك

فى تواضع بأخطائنا ، ونتوسل طالبين المغفرة ، ودموعنا

١٠٩٠

تروى الثرى ، وآهاتنا فى الهواء صاعدة

تتراحم ، مُرسلة من قلبين نادمين ، آية

على الحزن الصادق ومذلة المسكنة .

لا شك أنه سوف يلين ويتحول

عن سخطه ، وهل رأينا فى نظراته الصارمة ،

١٠٩٥

حتى حين بدا فى أقصى حالات الغضب والقسوة ،

إلا الحب والكرم والرحمة ساطعة جليلة ؟

وفرج والدنا التائب من حديثه ، ولم تكن حواء

تشعر بندم أقل ، وعلى الفور عادا

إلى المكان الذى أصدر الحكم عليهما فيه فسجدا

١١٠٠

أمامه فى إجلال وتعظيم ، واعترف كلاهما

فى تواضع بأخطائهما ، وتوسلا طالبين المغفرة ، بدموع

تروى الثرى ، مرسله من قلبين نادمين ، آية

على الحزن الصادق ومذلة المسكنة .

نهاية الكتاب العاشر

الكتاب الحادي عشر

الموضوع

يقدم المسيح إلى الله صلوات أبويننا الأولين في أثناء توبتهما ويتشفع لهما ،
ويتقبلهما الله ولكنه يعلن أنه لا مناص من خروجهما من الفردوس ، ويرسل
ميكائيل مع عصبة من ملائكة الشاروبيم لنزع ملكية الفردوس منهما ، لكن
ليكشف لآدم أولاً عن الأحداث المقبلة ؛ وصفُ نزول ميكائيل ؛ آدم يُطلع
حواء على بعض النُّذر ، ويلمح ميكائيل مقبلاً فيخرج لملاقاته ، ويعلن لها
الملَّكُ عن إخراجهما من الفردوس ؛ تندب حواء حالهما ، ويحاول آدم
الاستعطاف ثم يستسلم ، يمضى به الملَّكُ صاعداً إلى تل مرتفع ويعرض أمامه
رؤيا لما سوف يحدث حتى الطوفان .

وهكذا ظلَّ ساجدين سجود المسكنة والتوبة

في صلاتهما ، إذ نزلت الرحمة من مقعد الرحمة العلوى ،

وهي الرحمة التي تسبق كل شيء ، فترعت

- من قلبيهما أى تحجر ، وجعلتهما يكتسيان لحمًا جديدًا
تجدد ونما ، حتى تصاعدت الآن أناتٌ
لا يُنطق بها ، تأخذ من روح الصلاة
إلهامها ، وتطير مجنحة إلى السماء بأسرع مما تصعد
أعلى الخطب صوتًا ، لكنهما لم يكونا فى هيئة
صاحب الظلّامة الوضع ، بل ولم تكن دعواتهما
أقل وزنًا من دعوات زوجين من القدماء
تحدثت عنهما أساطير الأولين ، وهما أقرب إلينا منهما زمانًا ،
وهما « ديوكاليون » وزوجته « پيرا » اللّذين رفعوا الدعاء
بإعادة الجنس البشرى إلى الوجود بعد الغرق ، واقفين
فى ضراعة وورع فى معبد « تيميس » . وصعدت صلواتهما
إلى السماء دون أن تضل الطريق بسبب الرياح الخسود
أو التى تهب شاردة أو معترضة ، ودخلت الدعوات
بلا أبعاد مادية من الأبواب السماوية ، ثم اكتست
بالبخور ، وشاع دُخانها فى المذبح الذهبى ،
بالقرب من شفيعهما العظيم ، حتى ظهرت
أمام عرش الله ، وهنا قام المسيح فرحًا
بتقديمها ، وبدأ شفاعته قائلاً لله :

انظر أولى الثمار التى خرجت على الأرض

من فضلك الذى غرسه فى الإنسان ، هذه الآثات

والصلوات ، التى اختلطت فى المبخرة الذهبية

٢٥

بالبحور ، ها أنذا كاهنك آتاك بها ،

ثمار أطيب رائحة ، وقد نبتت من بذورك التى

بذرتها مع الندم فى قلبه ، من الثمار التى

زرعتها يده فأخرجتها جميع الأشجار

فى الفردوس ، أو كانت لتخرجها ، قبل أن يسقط من مقعد

٣٠

البراءة . والآن افتح أذنك إذن

للضراعة ، واستمع إلى أناته وإن لم تتكلم ،

إذ لا حذق لديه فى اختيار كلمات الدعاء ، فلاكن أنا

الشارح له والمفسر ، ولاكن أنا شفيعه

وكفارة خطاياهم ، واضمم إلى جميع أعماله ،

٣٥

الحسن منها والسيئ ، ضمًا وثيقًا كتطعيم الفرع بالغصن ، وامتيازى

سيرفع الحسنات إلى مصاف الكمال ، وموتى سوف يدفع ثمن السيئات

تقبلنى وتقبل فى شخصى من هذين

روح السلام تجاه البشرية ، واسمح له أن يعيش

بين يديك فى صلح ، فأيامه - على الأقل -

معدودة ، رغم الأحران ، حتى يأتى الموت وهو الحكم الصادر عليه
(وأنا أناشدك اللطف فيه لا الرجوع عنه)

فيسلمه إلى حياة أفضل ، حيث يقيم معى
جميع من ذاقوا الخلاص على يدى ، فى فرح ونعيم ،
فيتوحدون معى مثلما أتوحد أنا وأنت .

ورد الله فى صفاء ، ودون سحائب فى محياه قائلاً :
أوتيت سؤلك كله من أجل الإنسان ، يا كلمتى المقبولة ،
فكل ما طلبته كنت قد قضيت به ،

لكنه لن يستطيع الإقامة فى الفردوس بعد الآن
إذ يحول القانون الذى سننته للطبيعة دون ذلك

فالعناصر الخالدة النقية التى لا تعرف

الشوائب ، ولا سوء الاختلاط والتنافر ،

تلفظه الآن بعد أن اكتسب ما يشينه ، وتتطهر منه

تطهرها من العكر ، فهو غليظ يتنفس هواء غليظاً

ويأكل طعام الفناء ، وهو خير ما يجعله رهناً

للا انحلال الذى تسببت الخطيئة فيه ، فكانت أول

ما عكر جميع الأشياء وأنت إلى الصالحين

بالفساد . وكنت وهبت له أولاً هديتين جميلتين

عندما خلَقْتُهُ وَأَنْعَمْتُ بِهِمَا عَلَيْهِ ، وهما السعادة

والخلود ، فأضاع الأولى بغبائه الساذج ،

٦٠ ولم تؤد الأخرى إلا إلى سرمد أحزان ،

حتى أتيتُ بالموت ، فأصبح الموتُ

علاجه الأخير ، والحياة الأخرى التى

يتأهل لها بمكابدة شاقة ؛ وبعد أن يهذه

الإيمان والأعمال التى تُصَدِّقُ الإيمان ، يحيا حياة ثانية

٦٥ فَيُبعَثُ من مرقده يوم نشور الأبرار

مسلمًا نفسه للسماء والأرض الجديدتين .

ولكن فلأدعُ الآن إلى اجتماع يحضره جميع المباركين

من أقطار السماء الرحبية ، فلن أخفى عنهم

أحكامى وما أفعله بالإنسان ،

٧٠ مثلما شاهدوا ما فعلته من قبل بالملائكة الخاطئين ،

وهو ما زاد إيمانهم تثبيتًا ، على ثباته الأصيل .

وانتهى من كلامه فأشار المسيح إشارة عليا

إلى المساعد الرضاء القائم بالحراسة ، فنفخ فى

بوقه ، وربما كان قد دوى صوته فوق جبل حوريب

٧٥ يوم أن نزل الله لموسى ، وربما سيُنْفَخُ فيه هو نفسه

٨٠

للقيامة فى يوم الحساب . وترددت أصدااء هوق المَلَك
فملأت جميع الأصقاع ، فنهض أبناء النور من خمائل النعيم
بظلالها التى لا تذوى أبدا ، ومن الينابيع أو العيون ،
ومن ضفاف نهر الحياة ، حيثما كانوا يجلسون
تربطهم روابط أخوة من الفرح ، واستجابوا
مسرعين ، مُلبّين أمر استدعائهم السامى
واتخذوا مقاعدهم حتى بدأ القدير من عرشه الأعلى
فى النطق بإرادته ذات السيادة الملكية قائلاً :

٨٥

يا ملائكتى ! لقد أصبح الإنسان يعرف مثلما
نعرف الخير والشر ، منذ أن تذوق
تلك الثمرة المحرمة ، ولكن فلندعه يفخر
بمعرفته بالخير الذى ضاع وبالشّر الذى آتاه ،
وكان بيده أن يزداد سعادة لو اكتفى بمعرفة
الخير وحده ، ولم يعرف الشر إطلاقاً .
وهو يحزن الآن ويندم ويصلى تائباً .
وأعلم أن نوازع الخير التى غرستها فيه سوف تبقى فى
قلبه ، وأعلم مدى تقلبه وغروره إن
تُرك لشأنه . وهكذا فقد قررت - حتى لا تمتد يده

التي ازدادت جسارة إلى شجرة الحياة أيضاً فيأكل منها

٩٥

ويعيش إلى الأبد ، أو أن يحلم على الأقل

بأن يعيش إلى الأبد ، قررت أن أطرده

وأن أخرج من الجنة حتى يفلح

الأرض التي أخذ منها ، فهي تربةٌ أنسبُ له .

يا ميكائيل ، إننى أكلفك بالمهمة التالية :

١٠٠

خذ معك من بين ملائكة الشاروبيم

من تختاره من المقاتلين المتقدين حماساً ، حتى لا يهب الشيطان ،

سواء لأمر يتعلق بالإنسان ، أو للاستيلاء على

ممتلكات بلا صاحب ، فيثير متاعب جديدة .

أسرع وأخرج من فردوس الله

١٠٥

الزوجين الخاطئين ، دون أن تأخذك بهما شفقة ، واطرد

من الأرض المقدسة من عصيا الله ، وأعلن

لهما ولذريتهما الحكمَ بالنفى منها

نفياً دائماً . وحتى لا يخور عزمهما

عند سماع العقوبة المحزنة التي لا بد من تنفيذها بصرامة

١١٠

(إذ إننى أراهما وقد لان قلوبهما يذرفان العبرات

ناديين ما فرط منهما) عليك أن تحجب كل ما تحمله من رعب .

٩٦٣

فإذا أطاعا أمرك صابرين

فأخرجهما غير آسف ولا نادم ، واكشف

لآدم عما سيأتى فى الأيام المقبلة

١١٥

كما سأشرح لك ، ولتمزج بحديثك

عهدى ، وهو الذى أجده فى ولد العذراء ،

أخرجهما إذن فى سلام ، على ما فى الخروج من أسى .

وأقم على الجانب الشرقى من الجنة ،

حيث يمتد المدخل صاعداً بيسر من عدن ،

١٢٠

حرّاساً من ملائكة الشاروبيم ، وسيقاً ذا لهيب يبرق

ويُلَوِّحُ به فى كل اتجاه ، ليرد عن بعد كل من يريد الاقتراب ،

وليحرس كل الدروب المؤدية إلى شجرة الحياة ،

حتى لا تحل فى الفردوس آيةٌ

أرواح شريرة ، وحتى لا تقع كل أشجارى فريسة لها ،

١٢٥

تسرق منها الثمار لتخدع الإنسان مرة ثانية .

وانتهى من حديثه فتأهب الملاك الأكبر ذو السلطان

للنزول مسرعاً ، تصحبه فرقة وضاءة

من الحراس من ملائكة الشاروبيم ، ولكل منهم أربعة أوجه ،

كأنه الإله « يانوس » مضاعفاً ، وكان هيكله

١٣٠

حافلاً بالعيون المتناثرة التي يزيد عددها عن
عيون « أرجوس » ، ويقظتها لا يغلبها النعاس ،
ولو بسحر مزمار « أركاديا » ، القصبة الرعوية
التي ينفخ فيها « هيرميس » ، أو عصاه المخدرة . وفي أثناء ذلك
صَحَّتْ فَحَيَّتْ الْعَالَمَ مِنْ جَدِيدٍ بِالنُّورِ الْقُدْسِيِّ

١٣٥

رَبَّةُ الْفَجْرِ « ليوكوثيا » ، ونثرت الأنداء النضرة فَعَطَّرَتْ
الأرض ، وكان آدم والأم الأولى حواء

قد انتهيا من صلواتهما ، ووجدوا في أنفسهما
قوة جديدة أَضْفَقَتْهَا السَّمَاءُ عَلَيْهِمَا ، وأملًا قشيبًا ينبع
من باطن اليأس ، وفرحًا ما ، وإن خالطه الخوف .

١٤٠

وعاد آدم إلى الحديث إلى حواء بكلمات لاقت الترحيب قائلاً :
يا حواء ! ما أيسر أن يُقر الإيمان بأن كل

ما نتمتع به من خير ينزل علينا من السماء ،
لكنه قد يبدو من الصعب الاعتقاد بأن يصعد إلى السماء
شيء من قبلنا فيكون من قوته أن يشغل بال

١٤٥

الله ذي البركات العليا ، أو أن يستميل مشيئته ؛
وقد يبدو الإيمان بذلك صعبًا ، ولكن الصلاة قادرة عليه ،
بل قد تقدر عليه أنة قصيرة واحدة من أنفاس الإنسان

٦٠٥

تصعد حتى تبلغ عرش الله نفسه . فمئذ أن سعت

إلى التوسل بالصلاة لإرضاء الإله الغاضب ،

فركعت وأذلتُ قلبى كاملاً بين يديه ، ١٥٠

وأنا أتصور أننى أراه وقد لان جانبه ، يقبل إرضائى له ،

ويفتح أذنه لكلماتى ، وازداد فى نفسى الاقتناع

بأنه يميل إلى تقبل ما يسمع منى ، فعادت الطمأنينة

إلى مقرها فى صدرى ، وعاد إلى ذاكرتى

ما وعد به قائلاً إن ذريتك سوف تسحق عدونا ، ١٥٥

ولم أكن انتبهتُ إلى ذلك وأنا فى غمرة حزنى ، ولكنه الآن

يؤكد لى أن مرارة طعم الموت

قد مضت عنا ، وأنا سوف نحيا . ومن ثم فالسلام عليك

يا حواء ، اسمك الذى يناسبك ، فأنت أم البشر جميعاً ،

حواء أم الأحياء كلهم ، فمن خلالك ١٦٠

سوف يحيا الإنسان ، وتحيا كل الأشياء من أجل الإنسان .

وأجابته حواء بتواضع ونبرات جدّ قائلة :

ما أبعدنى عن الجدارة بهذا اللقب ،

أنا التى أخطأت ، وبعد أن خلقتنى الله لك

ساعداً وعضداً ، أصبحت الفخ الذى أوقعْتَ فيه ؛ اللومُ إذن ١٦٥

هو الجدير بي ، والشكُّ وكل قَدْحٍ استحقه .

ولكن القاضى الذى أصدر حكمه علىّ كان ذا غفران لا حد له ،

إذ كرّمنى ، وأنا أول من أتى بالموت للجميع ،

بأن جعلنى مصدر الحياة ، وأنزلنى منزلة التالية لك فى حبه

وأنعم علىّ متفضلاً بهذا اللقب السامى

وأنا الذى استحق اسماً أبعد ما يكون عنه . ولكن الحقل

يدعونا إلى العمل الآن وبذل العرق المفروض علينا

ولو أننا بُتْنَا الليل سهاداً ، إذ انظرُ ترّ الصباح

لا يشغله شيء من تعبنا ، وقد بدأ

مسيرته الوردية مبتسماً ، فلننطلق إذن ،

ولن أفارق صحبتك منذ الآن أبداً ،

مهما يكن مكان عمل يومنا ، وإن كنا قد أمرنا الآن ببذل

الجهد والعمل حتى يذوى النهار ، وما دمنا نسكن هنا

فما الذى عساه أن يجلب التعب فى هذه المسارات الممتعة ؟

فلنَعِشْ هنا ولو فى منزلة السقوط ، راضيين .

هكذا تكلمت وهكذا تَمَنَّتْ حواء التى ازدادت تواضعاً ، ولكن القدر

لم يشاركها رأى ، وأبدت الطبيعة أولاً آياتها التى تجلت

فى الطير والحيوان والهواء ، فَخُسِفَتِ الشمسُ وأظْلَمَ الجوّ فجأة

١٨٥

بعد حمرة الشروق المقتضبة ، وبالقرب منها شاهدت
العُقاب ، طائر « جويتر » ، ينقض من تحويمه السامق
ويطارد طائرين ريشهما بهيج الألوان ،
وهبط من التل الحيوان الذى له المُلْكُ فى الغابة ،
وقد أصبح صائداً لأول مرة ، فطارد زوجاً من الحيوانات اللطيفة ،
أرق وأجمل حيوان الغاب ، ظيياً وظبية .

١٩٠

وكان الجميع ينطلق مباشرة نحو الباب الشرقى .
ولاحظ آدم ذلك ، وشاهد بعينه الطراد
وتابعه ، فأثارة ذلك بعض الشئ فخاطب حواء قائلاً :
يا حواء ! إن تبديلاً ما ينتظرنا عن قريب ،

١٩٥

وهو ما يبيده الله بهذه الآيات الصامتة فى الطبيعة
إما نُذراً تفصح عن مقصده ، أو تحذيراً لنا ،
إذ ربما كنا واثقين أكثر مما ينبغى من خلاصنا
من العقوبة ، ما دمنا قد نجونا من الموت أياماً ،
أما إلى متى ، وأى حياة نحياها حتى يحين الحين ،
فمن يدري ، بل الأنكى هو أننا من تراب

٢٠٠

وإلى التراب لا بد أن نعود وأن نفنى .
وإلا فلماذا نشاهد بأعيننا هذه المزوجة

فى الطّراد فى الهواء وفوق الأرض

فى اتجاه واحد وفى الساعة نفسها ؟ لماذا حلّت فى الشرق

الظلمة قبل أن يقطع النهار نصف رحلته ، ولماذا نرى نور الشرق

أشد سطوعاً وتلألؤاً فى تلك السحابة الغربية التى تُلقى

على السماء الزرقاء ضوءاً براقاً أبيض ،

وتهبط ببطء ، وهى تحمل شيئاً سماوياً .

ولم يخطئ آدم ، إذ كانت الفرق السماوية آنذاك

قد هبطت من سماء بلون حجر اليشب ، وحطّت الآن

فى الفردوس ، وتوقفت فوق أحد التلال

فكان منظرها رائعاً ، لولا أن الشك

والخوف البشرى فى ذلك اليوم أغشيا عين آدم .

كان يزيد فى روعته عن منظر الملائكة الذين قابلوا

يعقوب فى « مَحَنَائِم » ، حيث رأى

الميدان وقد ضرب حرسه الوضياء خيامهم فيه .

بل وعن المشهد الذى تجلّى فوق الجبل الملهب

فى « دوثنان » ، الذى غطاه معسكر النار الذى برز

لملاقاة ملك سوريا حين أراد أن يفاجئ

رجلاً واحداً فجاء مثل قاتل مغتال وفرض الحرب

٢٢٠

دون أن تُعلن الحرب . وأما الأمير رفيع الرتبة
فقد كان يقف فى موقع الحرس الوضاء ، تاركاً قواته
تستولى على الجنة ، ومن ثم تقدم وحده
للعثور على مخبأ آدم ، ومضى فى طريقه
دون أن تغفل عين آدم عنه ، وهنا خاطب آدم حواء
فى أثناء اقتراب الزائر العظيم منهما قائلاً :

٢٢٥

حواء ! توقعى الآن أنباء عظيمة ، ولربما
كانت الفيصل العاجل فى أمرنا ، وربما فرضت علينا
قوانين جديدة نلتزم بها ، إذ إننى المح
فى تلك السحابة المنيرة التى تحجب التل

٢٣٠

أحد أفراد الملأ الأعلى ، وتدل مشيته على أنه
ليس من الطبقات الدنيا بل من الأكابر العظماء
أو من أصحاب العروش فى السماء ، ما دام مثل هذا الجلال
يكسوه وهو قادم ، ولكنه ليس رهيئاً
فأخافه ، ولا هو لطيف المعشر بشوش

٢٣٥

مثل روفائيل ، فأطمئن إليه واثقاً ،
بل هو رزين رفيع ، ولا أريد أن أغضبه
ولابد أن ألقيه بالتبجيل ، وعليك أنت أن تحتجبنى .

وصمت آدم ، وسرعان ما اقترب الملاك الأكبر

لا فى صورته السماوية ، بل فى صورة إنسان

٢٤٠

يرتدى ملابس زيارة إنسان ، وفوق ذراعيه الوضيتين

سُتره حربية أرجوانية فضفاضة

أبهج من أرجوان « مليون » أو زركشة ديباج

مدينة صور ، وهى التى كان الملوك والأبطال القدماء يلبسونها

فى زمن الهدنة ، وقد نسج السوسن لُحمتها بألوان قُزح ،

٢٤٥

وكانت نخوذته ذات النجوم البراقة مرفوعة ، فكشفت عن رجل

فى عنفوان الرجولة وقد تخطى الشباب ، وفى جنبه

السيف يتدلّى كأنما يتدلّى فى دائرة البروج اللألاء فى السماء ،

وذاك أشد ما يخشاه إبليس ، وفى يده الرمح .

وانحنى آدم لتحيته ، ولكن الملك ظل فى وقفته الملكية

٢٥٠

فلم يبادله الانحناء بل أعلن عن مرمى زيارته قائلاً :

آدم ! إن أمر السماء السامى لا يحتاج إلى مقدمات :

بل يكفى أن أقول إن صلواتك مسموعة ، وإن الموت

الذى حُكم به آنذاك عندما ارتكبت الخطأ ،

قد تأجل تنفيذه أياماً كثيرة

٢٥٥

وُهِبَتْ لك عطفًا وكرمًا ، حتى تتوب فيها

٦١١

وتعمل الكثير من الأعمال الصالحة التى تستر بها خطيئة واحدة ،
وعندها ربما يرضى ربك عنك حقاً

فيخلصك الخلاص كله من مطالبة الموت النّهم بك ،
أما الإقامة بعد الآن فى هذا الفردوس فهو

٢٦٠

لا يسمح بها ، ولقد آتيت لطردك

وإخراجك من الجنة حتى تَفْلَحَ

الأرض التى أخذت منها ، فهى تربة أنسب لك .

ولم يزد على ذلك ، إذ إن آدم عند سماع الأنبياء

أصاب الهلع فؤاده فتجمد واقفاً فى قبضة الأسى البارد

٢٦٥

الذى شل كل حواسه ، وأما حواء التى كانت من مخبئها

قد سمعت كل شيء ، فقد رفعت صوتها تندب مآلها

وسرعان ما كشفت عن مكان اختبائها قائلة :

يا للضربة غير المتوقعة ، والأسوأ من الموت !

ألا بد لى إذن من مغادرة الفردوس ؟ ألا بد أن أغادرك

٢٧٠

يا تربة موطنى وأترك هذه الممرات والظلال الهنيئة

التي تصلح لسكنى الملائكة ؟ بل وحيث كنت آمل أن أقضى

المهلة التى مُنَحْنَاهَا ، فى هدوء ولو كان الحزن يغشاه ،

قبل أن يحين يوم الهلاك لكلينا ؟ أيتها الأزهار

التي لن تنبت أبداً فى جو آخر ،

٢٧٥

أول ما أزور فى البكور ، وآخر ما أزور

فى المساء ، يا من ربَّيتها بيدِ حنون

منذ تفتَّح البرعم الأول ، وسمَّيتُك بأسمائك ،

من الذى سوف يرعاك الآن ويهديك للشمس ، أو يحدد مراتب

عشائرك ، ويرويك من نبع الجنة ؟

٢٨٠

وأخيراً أنت يا خميلة زفافي التى زينتُها

بكل ما راق منظره وطاب أريجُه ، كيف

أفارقك وأنتى تُرانى أضرب فى شعاب

عالم أدنى ، إن قورن بهذا بدا مظلماً

موحشاً ، وكيف نتنفس فى هواء مختلف

٢٨٥

أقل نقاءً ، بعد أن اعتدنا الشمار الخالدة ؟

وهنا قاطعها الملاك الرقيق قائلاً :

لا تنديى مآلك يا حواء ، بل احتملى صابرة

ضياح ما ضاع منك بالحق ، ولا يتعلَّقنَّ قلبك

ذلك التعلق المفرط الواله بما ليس لك ؛

٢٩٠

فلن تذهبى وحيدة بل سيذهب معك

زوجك ، وأنت ملزمة باتِّباع خطاه ،

٦١٣

وحيثما يسكن قولى إنها تربة موطنك .

وكان آدم آنذاك قد أفاق من ذهوله البارد المفاجئ

وتمائل ، ولمَّ شتات روحه واستعاد رباطة جأشه

٢٩٥ فخطب ميكائيل بكلمات زانها التواضع قائلاً :

أيها السماوى ! سواء كنت من أصحاب العروش ، أو كنت

أعلاهم جميعاً ، فمن له صورتك قد يبدو

أميراً فوق الأمراء ، ولقد تلطّفت فى إخبارنا

برسالتك ، وهى التى لو رُوِيَتْ بأسلوب آخر لجرّحتنا

٣٠٠ فجاءت بنهايتنا فى أثناء روايتها ، وهل أنت أنباؤك إلا

بالحزن والكآبة واليأس ، فى حدود

ما يستطيع ضعفنا أن يتحمّله ، أنباء

الرحيل من هذا المكان الهنىء ، مأوانا الجميل

الخبئى ، والعزاء الوحيد الذى لا يزال

٣٠٥ مألوفاً لعيوننا ، فسائر الأماكن الأخرى

موحشة فى نظرنا تنبو بالإنسان ،

فهى تجهلنا ونجهلها معاً ، ولو كان لى - بالصلاة

الدائمة - أن أطمع فى تغيير مشيئة القدير

الذى أحاط بكل شىء علماً ، لداومت الصلاة

٣١٠

حتى أرهقه بدعواتي الدائبة الجاهدة ،
ولكن قوة الدعاء بتعديل ذلك الحكم المطلق الذي أصدره
لا تزيد جدواها عن أنفاس في مهب الريح
لا تلبث أن تعود خانقة إلى وجه من زفرها ،
ومن ثم فأنا أستسلم لأمره المعظم .

٣١٥

وأما أشد ما يعذبني فهو أن الرحيل من هنا
سوف يحجبني عن وجهه ، فيحرمني
محياء المبارك ، إذ إن لي أن أتردد في هذا المكان ،
للعادة ، على كل بقعة أنعم فيها علينا
بالحضرة الربانية ، فأقص ذلك على أبنائي ، قائلاً

٣٢٠

إنه ظهر على هذا الجبل ، وتحت هذه الشجرة
تجلى للعيون ، وبين أشجار الصنوبر تلك
سمعت صوته ، وتحادثت معه عند هذا النبع .
ولسوف أقيم هياكل كثيرة لتقديم الحمد والشكر له
من الكلا والأعشاب ، وأجمع في كومة كل حجر

٣٢٥

يتلألاً من الجدول ، تذكراً
أو أثراً باقياً على مر العصور ، وأقدم عليه
القرايين من الأصماغ ذات الرائحة العطرة والثمار والأزهار ،

أما في عالم الدنيا فأين عساي أن أنشد

ظهوره النوراني أو أن أقتفى خطى أقدامه ؟

٣٣٠

وإن كنت قد فررت منه في غضب ، فلقد استدعاني

إلى حياة أطول وذرية موعودة ، وأصبحت الآن

أسعد برؤية أقل ما ينبئ عنه ولو كانت أقصى أطراف أردان

جلاله ، وأعبد خطو أقدامه على بعدها الشاسع .

ونظر إليه ميكائيل نظرة عطف قائلاً :

٣٣٥

آدم ! تعلم أن السماء ملك يمينه والأرض جميعاً .

لا هذه الصخرة فحسب ، فإن وجوده الشامل يملأ

البر والبحر والجو ، وكل نوع من الأحياء

ينشأ ويجري فيه دفء الحياة بفضل قوته ،

ولقد أعطاك هذه الأرض كلها لتحوزها وتحكمها

٣٤٠

وليست بالعطية الهيئة ، فلا تظنَّ إذن

أن حضرته مقصورة على هذه الحدود الضيقة

للفردوس أو عدن ، وربما كانت ستصبح

مقرَّكَ الرئيسي ، الذي تخرج منه وتنتشر

جميع الأجيال ، وربما كانت ستعود إلى هنا

٣٤٥

من جميع أطراف الأرض للاحتفال بك

وتبجيلك أنت ، والدها العظيم ،

ولكنك فقدت هذه الرفعة ، وأُنزِلْتَ

للإقامة فى الأرض التى سواها مع أبنائك ،

لكن لا يخامرُك شك فى أن الله موجود فى الوديان والسهول

٣٥٠

مثلما هو موجود هنا ، ولسوف تحس حضرته هناك

مثلما تحسها هنا ، وسوف تجد الكثير من آيات حضرته

تقفوك دائماً أينما تكن ، وتحيط بك دائماً

بالخير والحب الإلهى ، وسترى وجه الله

ناطقاً فى كل شىء ، وترى الأثر الربانى لخطوه .

٣٥٥

وهكذا فلتعلم أننى - إتماماً لإيمانك وتثبيتاً لفؤادك

قبل أن ترحل من هنا - قد أُرسِلْتُ

لأطلعك على ما سوف يحدث فى قابل الأيام

لك ولذريتك ، فتوقّع أن تسمع عن

الخير والشر معاً ، وعن الرحمة الإلهية وهى تنازل

٣٦٠

نزوع البشر للخطيئة ، حتى تتعلم من ذلك

الصبر الحقيقى ، وتلطيف الفرح بالخوف

وورع الحزن ، واعتياد تحمل هذا وذاك

بالاعتدال فى كل شىء مهما تكن الحالة ،

يُسراً أم عسراً ، وهكذا تحيا حياتك

٣٦٥

فى أقصى سلامة ، وأقصى استعداد لتحملُ آلام

طريق الهلاك عندما يحين الموعد . اصعدْ إذن معى

هذا التل ، ولتدعْ حواء (بعد أن خدَّرتُ عينيها)

نائمة هنا عند السفح أثناء انفتاح بصيرتك على المستقبل

مثلما غفوت ذات يوم أثناء خلْقها وتصويرها .

٣٧٠

وأجابه آدم بامتنان قائلاً :

اصعدْ وساتَّبِعْ أَيُّهَا المرشد المأمون فى الطريق الذى

تدُلُّنى عليه ، ولسوف أُسَلِّمُ زمامى ليد السماء

مهما يكن تأديبها لى ، وأعرض للشر

صدرى الضعيف ، وقد تسلَّحتُ وتدرَّعتُ حتى أنتصر

٣٧٥

بالمكابدة ، وحتى أكتسب الراحة بالجهد ظافراً ،

إن كان لى أن أحقق ذلك . وهكذا صعد الإثنان

فى رؤى الله ، وكان ذلك التل

أعلى تلال الفردوس ، وبدا من قمته

نصف الكرة الأرضية واضحاً كأوضح ما يكون ،

٣٨٠

يمتد شاسعاً إلى أبعد مرمى الطرف .

ولم يكن يرى ما هو أعلى أو أرحب للناظر حول التل

وهو الذى اصطحب المغوى ، لأسباب أخرى ، إليه

آدمنا الثانى فى البرية

ليريه جميع ممالك الأرض ومجدها

٣٨٥

إذ تستطيع عينه من ثم أن تلمح كل ما هو قائم وأتى يقوم

من المدن التى ذاع صيتها فى الزمن الغابر أو الحاضر ، مقر

أقوى الامبراطوريات ، من الأسوار التى ستبنى حول مدينة

« كمبالوك » ، مقر سلطان « قيطان » ،

و« سمرقند » على ضفاف نهر « جيحون » وعرش « تيمورلنك »

٣٩٠

إلى « بكين » وملوك الصين ، ومنها

إلى أجرا و« لاهور » حيث المغولى الأكبر

حتى شبه جزيرة « الملايو » الذهبية ، أو حيث

كسرى على إيوانه فى « اکتابان » وبعدها

فى « إصفهان » ، أو حيث قيصر روسيا

٣٩٥

فى موسكو ، أو السلطان فى بيزنطة ،

الذى ولد فى « تركستان » ، بل ولم يفت عينه أن تلمح

امبراطورية « النجاشى » حتى أقصى موانئها بعداً ، وهو

« أركيكو » والملوك الأقل ركوباً للبحر فى

« مومباسا » و« كيلوا » و« مالندى »

٤٠٠ و« صوفالا » التى يُظن أنها « أوفير » ، حتى مملكة
« الكونغو » ومن جنوبها « أنجولا »

أو من ثمّ ، من نهر « النيجر » حتى جبال أطلس ،
وهى ممالك الملك المنصور ، وفاس ، وسوسة ،
والمغرب ، والجزائر ، وتلمسان ،

٤٠٥ ومنها إلى أوروبا ، حيث كتب لروما أن تحكم
العالم ، وربما رأى بروحه أيضاً

بلاد « المكسيك » الغنية ومقر امبراطورية « مونتيزوما »

و« كوسكو » فى « بيرو » ، المقر الأغنى لامبراطورية
« أتاهوالبا » ، ورأى كذلك المملكة التى لم تكن قد نُهبت بعد ،

٤١٠ وهى « غيانا » ، ومدينتها العظيمة « جريون » ، التى يسميها

أبناءؤها « إلدورادو » ، ولكن ميكائيل أزال عن عينى

آدم الغشاوة حتى يشاهد مشاهد أشرف وأنبل ،

وهى الغشاوة التى نجمت عن أكل الثمرة الخادعة

بدلاً مما وُعد به من صفاء البصر ، ثم طهرّ بنبات السعد ونبات الخُفت

٤١٥ العصب البصرى ، إذ كُتب له أن يرى مشاهد كثيرة ،

ومن نبع الحياة وضع ثلاث قطرات فى عينيه .

وتغلغلت قوة هذه العناصر تغلغلاً بلغ من عمقه

أن وصل إلى أقصى مقرّ باطنٍ للبصيرة

حتى اضطرَّ آدم إلى إغلاق عينيه ،

٤٢٠

وسقط وقد غشى الدهول كلَّ حواسه ،

ولكن الملك الرقيق مدَّ يده إليه

وسرعان ما رفعه وخاطبه ليستعيد انتباهه قائلاً :

آدم ! افتح عينيك الآن ، وانظر أولاً إلى

ما خلفته جريمتك الأولى من آثار

٤٢٥

فى بعض الذين سوف ينحدرون من صُلبك ولم يمسا مطلقاً

تلك الشجرة المحرمة ، ولا تأمروا مع الثعبان ،

ولا أخطأوا خطيئتك ، لكنهم يستقون من تلك الخطيئة

فساداً أدى إلى ارتكابهم فعلاً أشدَّ عُتْفاً .

وفتح عينيه ، فشاهد حقلاً ،

٤٣٠

بعضه انتهى حرثه وإعداده للزراعة ، وفيه حُزْمٌ من محصول

حصده الحاصد لتوه ، وبعضه الآخر من مراعى الأغنام وحظائرها

وفى وسط الحقل كان مذبحٌ يتصب ، علامة طريقٍ

ريفية ، من الكلا والعشب ، وسرعان ما أتى إليه

حاصدٌ يتصب عرقاً من فلاحه الأرض ، حاملاً

٤٣٥

بواكير الثمار والسنابل الخضراء والحزمة الصفراء ،

٦٢١

دون انتقاء ، وحسبما وجدَ حاضراً ، ثم جاء راع
أشدُّ تواضعاً وطيبة ، يحمل أوائل حُمْلان قطيعه ،
أحسنها وأفضلها ، وبعد ذبح الأضاحى ، وضع
الأحشاء ودُهنها ، بعد تعطيرها بالبخور ،

٤٤٠

على الخشبة المشقوقة ، وأدى الشعائر الواجبة كلها .
وسرعان ما هبطت نار من السماء ، بشير تقبل القربان ،
فمالت إليه كلمح البرق والتهمته فتصاعدت الأبخرة اللطيفة ،
ولم تلتهم القربان الآخر ، لأن صاحبه لم يكن مخلصاً
فجاش الغضب فى جوفه وانقض على الآخر أثناء حديثهما

٤٤٥

بضربة حجر فى بطنه

أودت بحياته فسقط وقد شحب شحوب الموت
وخرجت روحه مع أناته والدم المتدفق السيل .
وارتاع آدم لهذا المنظر وجزع قلبه

جزعاً شديداً فأسرع يهتف بالملك قائلاً :

٤٥٠

أيها المعلم ! لقد أصاب شرٌ عظيمٌ

ذلك الرجل الطيب الذى أحسن تقديم قرابينه

فهل هذا جزاء الورع والعبادة الصادقة ؟

وأجاب ميكائيل ، وقد تأثر أيضاً بما رأى ، قائلاً :

هذان شقيقان يا آدم وسوف ينحدران

٤٥٥

من صُلبك ، فالظالم قتل البار ،

إذ حسد أخاه لأن قربانه وجد

من السماء القبول ، ولكن الجريمة الدموية

سوف يُثار لها ، وإيمان الآخر المقبول

لن يضيع جزاؤه ، رغم أنك تراه هنا ميتاً

٤٦٠

يتقلب فى التراب والدم المتخثر . ورد آدم قائلاً :

وا أسفا على الفعلة وعلى أسبابها !

ولكن تُرى هل شاهدت الموت الآن ؟ أهذا هو السبيل

الذى لا بد أن أسلكه عائداً إلى التراب موطنى ؟ يا له من مشهد

رعب ، شنيع وقبيح للنظر ،

٤٦٥

مستنكر للفكر ، وما أفظعه للإحساس !

فقال له ميكائيل : لقد شهدت الموت

فى أولى صُورِهِ التى تصيب الإنسان ، ولكنّ للموت صوراً

كثيرة ، وكثيرة هى السبل التى تؤدى

إلى كهفه العبوس ، وجميعها رهيب ، ولكن المدخل

٤٧٠

أشد إرهاباً للحسن من باطن الكهف .

فالبعض ، كما رأيت ، سوف يموتون بضربة عنف ،

٦٢٣

حَرْقًا أَوْ غَرَقًا أَوْ جُوعًا ، ولكن عددًا أكبر سيموت شرًّا
من التهام اللحوم والمشروبات التى ستأتى فى الأرض
بأمراض فتاكة ، ومستشهد منها حشدًا بشعًا ،

٤٧٥

ولسوف يظهر أمامك حتى تعرف

مدى الشقاء الذى سيجلبه طمع حواء

إلى الإنسان . وعلى الفور رأى مكانًا

يظهر أمام عينيه ، فيه حزن وضجيج وظلام

وكان فيما يبدو مستشفى ، وكانت ترقد فيه

٤٨٠

أعداد من شتى المرضى ، تعاني من شتى الأسقام ،

من التقلصات الرهيبة ، إلى عذاب المشدّ الأليم ، إلى لدغات

علة القلب المبرّحة ، وجميع أنواع الحمى ،

والتشنجات ، وحالات الصرّع ، وتمزق الأغشية المخاطية الضارى ،

وحصوات الكلى والأمعاء وقروحها ، وآلام المغص ،

٤٨٥

وهياج الخبَلِ الشيطانى ، ولوثة الاكتئاب الراجم ،

ونوبات الجنون المتقطعة ، وذبول الأعضاء المهلك ،

والنحول الشديد ، والطاعون الفتاك على نطاق واسع ،

ومرض الاستسقاء ، والربو ، والالتهابات التى تضنى المفاصل .

كان تقلبهم على أجنابهم رهيبيًا ، وأاناتهم عميقة ، واليأس

يرعى المرضى ، بأقصى همه ، منتقلاً من فراش إلى فراش . ٤٩٠

وكان الموت من فوقهم مزهواً بنصره وبيده السهم

يهزه ، ولكنه يتأخر فى إطلاقه ، على الرغم من طلبه مراراً

بالدعوات ، فهو خير ما يأتيهم وآخر آمالهم .

أى قلب قد من صخر يستطيع أن يشهد هذا المشهد الشائه طويلاً

وينظره فلا تفيض عيناه ؟ لم يستطع آدم ، بل بكى ٤٩٥

وإن لم تكن ولدته امرأة ، فالشفقة قد قمعت فيه التجلّد ،

أفضل خصال الرجال ، وأسلمته إلى الدموع

برهة ، حتى جاءت أفكار أصلب فألجمت تفريطه

فعاد للشكوى وما كاد يسترد القدرة على الكلام قائلاً :

يا أيها الإنسان الشقى ، إلى أى مهوى ٥٠٠

انحدرت ، وأى بؤس ينتظرك !

خير لك أن تنتهى هنا فلا تولد ، ولماذا وهبت لنا الحياة

حتى تُنتزع منا على هذا النحو ؟ والأحرى أن نسأل لماذا

فُرضت علينا هكذا ؟ ومن ذا الذى ، إذا عرفنا

ما نتلقى ، لا يُخجِم عن قبول ٥٠٥

الحياة حين تعرض عليه ، أو يسرع بطلب نبذها

سعيداً بأن يُسمح له بالانصراف فى سلام ؟ هل يجوز الخط من

- صورة الله فى الإنسان ، وهو من خلقه أولاً
 فى أحسن تقويم مرفوع الهامة ، وإن شابه النقص بعدها
 حتى تتعرض لمهانة هذه المعاناة القبيحة
 ٥١٠ وتتحمل آلاماً لا قبل للإنسان بها ؟ لماذا لا يكون الإنسان ،
 الذى لا يزال يحتفظ بالشبه الإلهى
 من بعض جوانبه ، بريئاً من هذه الملامح الشائنة
 ومعفى منها ، من أجل صورة خالقه ؟
 ٥١٥ وأجابه ميكائيل قائلاً : إذن فصورة خالق البشر
 قد تخلت عنهم عندما خفضوا بأنفسهم مراتبهم
 ليعبدوا شهوة لا ضابط لها ولا رابط ، وأصبحت
 صورة الذى يعبدونه وسيلة للرديلة الحيوانية
 التى تؤدى أساساً إلى خطيئة حواء .
 ٥٢٠ وهكذا كان عقابهم شنيعاً ، وهو
 لا يسوه شبهم بالله ، بل يُشَوِّه ملامحهم هم ،
 وإن شَوِّه الشَّبْه ، فبأنفسهم شَوَّهوه ،
 فى غمار انحرافهم عن قواعد الصحة الطبيعية الطاهرة وتحويلها
 إلى مرض مقيت ، فهم يستحقون ذلك لأنهم
 ٥٢٥ لم يُبَجِّلُوا صورة الله فى أنفسهم .

ورد آدم قائلاً : أقرُّ بأن هذا عدل وأسلم به .

ولكن ألا توجد بعدُ سبل أخرى ، إلى جانب

هذه المسالك والدروب الأليمة ، تفضى

إلى الموت ، وإلى الامتزاج بالتراب المماثل لطبيعتنا ؟

فقال ميكائيل : بل سترى السبل الأخرى إن راعيت بدقة

قاعدة عدم الإفراط ، فتعلمت الاعتدال

فيما تأكل وفيما تشرب ، طلباً

للغذاء اللازم لا متعة الشره ،

حتى تدور سنوات كثيرة وتتكدس فوق رأسك .

وهكذا تظل حياً حتى تسقط مثل الثمرة الناضجة

فى حجر أمك ، أو تُقْتَطَفَ بسهولة ويسر ،

ولا تنتزع بمشقة وعسر ، وقد استويت للموت .

هذا هو الهرم ، ولكنه يعنى أيضاً أنك لابد أن تجاوز

شبابك وقوتك وجمالك ، وهى التى ستحول

إلى ذبول ذاوٍ ووهنٍ وشَمَطٍ ، وتصبح حواسك

ثُلَمَةً ، ولا مناص من هجر مذاق مسراتك كلها ،

والاكتفاء بما لديك ، وبدلاً من جو الشباب

العامر بالأمل والمرح ، ستسود دماءك

٥٤٥

نزعة اكتابٍ محبطة ، باردة وجافة ،
ترين على نفسك وتثقلها ثم تمتص آخر الامر
رحيق الحياة . ورد عليه سلفنا قائلاً :

٥٥٠

لن أهرب من الموت بعد الآن ، ولن أطيل
الحياة كثيراً ، بل سأنظر كيف أستطيع التخلص
بأعدل الوسائل وأيسرها من هذا العبء الثقيل
وهو الذى لا بد لى من حمله حتى اليوم المحدد
لتسليمى إياه ، منتظراً بصبر موعد

انحلال بدنى . وأجابه ميكائيل قائلاً :

لا تحب حياتك ولا تكرهها ، بل اقض ما تحياه من زمن
على خير وجه ، واترك للسماء تحديد طوله أو قصره .

٥٥٥

والآن خذ أهبتك لرؤية مشهد آخر .

ونظر آدم فرأى سهلاً رحيباً ، ضربت فيه

خيام ذات ألوان شتى ، وبجانب بعضها قطعان

من الأبقار ترعى ، ومن داخل البعض الآخر ارتفعت أصوات

آلات موسيقية بألحان عذبة مُرّة من

٥٦٠

القيثار والأرغن ، سمعها آدم وشاهد الذى يعزف

على الأوتار والمفاتيح ، وكانت لمساته تطير الحقة

بقوة فطرية عبر جميع النغمات المتناسبة انخفاضاً وارتفاعاً
سارية تطارد رَجْعَ الأصوات المتعارضة الرنانة .

وفى جانب آخر وقف رجل أمام كور الحدّاد

٥٦٥

يعمل بجد ، إذ كانت كتلتان عظيمتان من الحديد والنحاس

قد انصهرتا (وربما كان وجدّهما حيث شبت النار عَرَضاً

فأحرقت الغابات على الجبل أو فى الوادى ،

فسالتا فى عروق الأرض وانسابتا ساختين

حتى مدخل أحد الكهوف ، وربما جرفهما أحد الأنهار

٥٧٠

من تحت الأرض) فصبّ الخام المعدنى السائل

فى القوالب المناسبة التى كان قد أعدها ، ومنها شكّل

أولاً أدواته ، وبعدها كل ما يمكن صنعه

بالصهر أو الحفر فى المعادن . وبعد هذين ،

ولكن على السفح القريب ، جاء نوع مختلف من الناس

٥٧٥

من التلال العالية المجاورة ، حيث مقر إقامتهم ،

فتزلوا إلى السهل ، وكان مظهرهم يدل على أنهم

رجال أبرار ، وكانت جهودهم جميعاً موجهة

لعبادة الله عبادة صادقة ، وتدبّر أعماله

غير الخبيثة ، وغير العلل القصيّة التى من شأنها الحفاظ على

٥٨٠

الحرية والسلام للبشر ، وهناك على السهل

وقبل أن يسيروا طويلاً ، إذا بزمرة تخرج من الخيام ،

زمرة من الفتيات الجميلات ، حافلات بكل بهيج

من الجواهر والملابس اللاهية ، ويغتنن على أنغام القيثارة

أغانى حب رقيقة ، ثم أقبلن راقصات .

٥٨٥

وعلى الرغم من وقار الرجال فقد تطلّعوا إليهن ، وسمحوا لعيونهم

أن تتجول دون لجام ، وسرعان ما وقعوا فى شباك الهوى

فأحب كل منهم واحدة واختار من أحبها

ثم أخذ الجميع يتطارحون الغرام حتى ظهر كوكب المساء

بشير الحب ، ومن ثم اتقد الجميع حماساً

٥٩٠

فأضاءوا مشعل الزفاف ، وطلبوا استدعاء رب الزواج

« هايمن » ، فكانت أول مرة يُستدعى فيها إلى طقوس الزفاف ،

وترددت أصداء الاحتفال والموسيقى فى جميع الخيام

وشاهد آدم جمال ما يجرى ، وهناء التلاقى

بين المحبين ، والشباب الذى لم يضع بعد ، والأغانى وطاقات الأزهار ،

٥٩٥

وسمع الموسيقى المتناغمة الساحرة ، فتعلق بها قلب

آدم ، وسرعان ما أقر بفرحته ،

وهى النزعة التى أملت لها الطبيعة ، والتى عبر عنها قائلاً

يا من فتحت عيني حقاً وصدقاً ، أيها الملاك الكبير المبارك !

هذه الرؤيا تبدو لى أحسن كثيراً ، وتبشر بأمل أكبر

٦٠٠

فى أيام سلام وطمأنينة ، من الرؤيتين السابقتين

اللتين كانتا تتناولان الكراهية والموت ، أو آلاماً أشد وطأة ،

أما هنا فيبدو أن الطبيعة قد حققت كل غاياتها .

ورد عليه ميكائيل قائلاً : لا تحكم بالفضل لشيء

بمقياس المتعة ، وإن كان يبدو متسقاً مع الطبيعة ،

٦٠٥

إذ خلقت ، مثلما خلقت ، لتحقيق غاية أسمى

وأقدس وأطهر ، ألا وهى الانصياع للرب .

إن تلك الخيام التى رأيتها بالغة البهجة ، كانت خيام

شورر وآثام ، وسوف يقيم فيها نسلُ

الذى قتل أخاه ، وهم الذين يبدون عاكفين

٦١٠

على الفنون التى تصقل الحياة وتهذيبها ، مخترعين لا مثيل لهم ،

لا يذكرون فى الواقع خالقهم ، رغم أن روحه هى التى

علمتهم ، لكنهم لم يعترفوا بأى نعمة من نعمه .

ومع ذلك فسوف ينجبون ذرية جميلة ،

إذ إن تلك الزمرة من النساء الجميلات التى رأيتها ، والتى بدت

٦١٥

من الملائكة ، بالغة المرح والرقه والابتهاج ،

تفتقر فى الواقع إلى أى خير يتمثل فيه

شرف المرأة فى المنزل وأول ما تمتدح به ،

إذ نشأن فترعرعن ودرجن على مذاقٍ أوحده

هو مذاق الرغبة الشهوانية ، والغناء والرقص ،

وارتداء الملابس الجميلة ، والحديث المنمق ، ونظرات الفتنة . ٦٢٠

وسوف يهفو إليهن فريق من العقلاء أهلتهم حياتهم

الدينية لإطلاق كنية أبناء الله عليهم ،

وسوف يسلمون لهن فضيلتهم كلها وصيتهم كله تسليماً

مخزياً ، واقعين فى حبال وبسمات

تلك الملحقات الجميلات ، فهم يسبحون الآن فى بحر المرح ٦٢٥

(وسرعان ما يسبحون فى التيه) ويضحكون ، ولقاء ذلك

سرعان ما يذرف العالم عالماً من العبرات .

ورد عليه آدم بعد أن حرم فرحته المقتضبة قائلاً :

يا للأسى والعار ! كيف يتحول الذين ينشدون الصلاح

ويبدأون بداية طيبة فينحرفون لاعتساف ٦٣٠

طرق ملتوية ، أو يغشى عليهم فى منتصف الطريق !

لكننى ما زلت أرى أن جوهر أحزان الإنسان

لم يتغير ، وأنه يبدأ من المرأة .

وقال الملك : بل إنه يبدأ فى التراخى الأنثوى للرجل ،

٦٣٥

فالواجب يقضى بأن يشغل مكانه كما يتبغى

بالحكمة وبالمواهب الفائقة التى تلقاها .

لكن تأهب الآن لمشاهدة مشهد آخر .

ونظر آدم فرأى أرضاً رحيية تنبسط

أمامه ، فيها بلدان ومنشآت ريفية فيما بينها ،

٦٤٠

ومدن يعمرها البشر ذات أبواب وأبراج عالية ،

ومواجهة عسكرية ، ووجوه ذات شراسة تهدد بالحرب ،

وعماليق عظامهم صلدة جبارة ، ذوو بأس وجسارة .

البعض يمتشق سلاحه ، والبعض يكبح جماح جواد يرغى ويزيد ،

يتأهبون للقتال فرادى أو فى صفوف مرصوصة ،

٦٤٥

الفرسان منهم والمشاة ، ولم يقفوا عاطلين بعد أن كتبوا الكتاب ،

بل انطلقت زمرة مختارة منهم لتصرف عن المرعى

قطيعاً من الماشية ، من الثيران والأبقار الجميلة التى نزلت

من مرعى حافلٍ بالكلا ، أو من الأغنام ذات الصوف الكث ،

من النعاج وحملانها الثاغية فوق السهل ،

٦٥٠

لتظفر بها غنيمة ، ولم ينزع الرعاة إلى الفرار طلباً للنجاة

بل صاحوا يستغيثون ، فجاءت النجدة ووقعت معركة دامية

انضم إليها فرسان الكتاب فى منازلة ضارية . وهكذا

- فحيث كانت الأبقار ترعى منذ قليل تناثرت أشلاؤها
وأصبح الحقل الدامى ، على ما به من جثث وأسلحة
مهجوراً ؛ واتجه آخرون إلى مدينة قوية
فحاصروها وضربوا خيام معسكرهم ، وبالمجانيق والسهلالم والألغام
هاجموها ، ودافع آخرون من فوق الأسوار
بالسهلالم والرماح ، وبالأحجار ، ونيران الكبريت ،
فوقع القتلى من الجانبين ، ووقعت فعال عظيمة .
وفى جانب آخر قام المنادون من ذوى الصولجان بالدعوة
إلى عقد مجلس عند أبواب المدينة ، وسرعان
ما هبَّ رجالٌ وخط الشيب رؤوسهم وزانهم الوقار ، من بين المقاتلين ،
فاجتمعوا ، وألقيت الخطب ، ولكن ما لبث أن
وقع الشقاق والخصام ، حتى نهض أخيراً
رجلٌ فى منتصف العمر ، ذو مكانة بارزة
ومسلك حكيم ، فتحدث كثيراً عن الصواب والخطأ ،
عن العدالة ، وعن الدين والحق والسلام ،
والحكم المنزّل من على ، فقام الشيوخ والشباب
يهتفون ضدهً وكادوا ينالونه بأيدي العنف
لولا أن نزلت سحابة من السماء فاخترطته

دون أن يراه أحد من بين الحشد ، وهكذا استمر العنف

واستمر القهر وقانون السيف سائداً

فى شتى أرجاء السهل ، حتى لم يجد أحدٌ ملجأً يلجأ إليه .

وتدفقت عبرات آدم غزيرة ، فالتفت إلى مرشده

ينعى ما رأى بحزن شديد قائلاً : ترى من هؤلاء ،

من أعوان الموت ، لا البشر ، الذين يقذفون بالموت

البشر بأسلوب لا إنسانى ، فتتكاثر فى أيديهم ،

وتتضاعف عشرة آلاف ضعف ، خطيئة الرجل الذى قتل

أخاه ، إذ من سقط ضحية هذه المذبحة

إلا إخوان لهم ، بشر ضحايا بشر ؟

ولكن من كان ذلك الرجل البرّ ، وهو الذى لولا أن السماء

أنقذته ، كاد يضيع فى صلاحه وتقواه ؟

ورد عليه ميكائيل قائلاً : هؤلاء ثمار

تلك الزيجات غير الموفقة التى شاهدها ،

حيث اقترن بالطالحات صالحون لو خيروا

لكرّهوا الارتباط بهن ، ولكنهم أصيبوا بفساد الرأى

فأنجبوا سلالة فاسدة فى البدن والعقل .

هكذا كان شأن هؤلاء العمالق ، الرجال الذين ذاع صيتهم

إذ لن يُعْجَبَ الناس فى تلك الأيام إلا بالقوة وحدها

٦٩٠

فيسمونها الشجاعة وينعتونها بالبطولة ،

ويعتبرون الغلبة فى المعارك ، وإخضاع

الأمم ، والعودة إلى الوطن بالغنائم بعد ارتكاب ما لا حدَّ له

من القتل ، أعلى درجات الرفعة

والمجد للإنسان ، وسوف يفوز من يحرزون مجد

٦٩٥

الانتصار بصفة الفاتحين العظماء ومظهرهم ، فيُعتبرون

رُعاة الجنس البشرى ، أرباباً وأبناء أرباب ،

والأحق أن يوصفوا بأنهم مدمرون ، بل وطاعون البشرية .

وهكذا سوف تكتسب الشهرة ، وذيوع الصيت فى الأرض ،

وأما أجدر الأشياء بالشهرة فسوف يُطبَّقُ عليه الصمت فيخفيه .

٧٠٠

ولكن السابع من نسلك ، الذى شاهدهته الآن ،

والصالح الوحيد فى عالم فاسد ،

والذى كان من ثم مكروهاً ، ومحاصراً

بالأعداء لاجترائه على أن يعدل وحده ،

وأن ينطق بالحقيقة التى لا يحبها أحد ، وهى أن الله سوف يأتى

٧٠٥

ليحكم بينهم ، مع ملائكته ، فقد رفعه الرب الأعلى إليه

مُلْتَقاً بسحابة عطرة ذات خيول مجنحة ،

وتلقاه ، كما رأيت ، ليسير مع الله

ويرتقى مراقى الخلاص وأصقاع النعيم ،

معفى من الموت . وحتى أطلعك على الثواب الذى

ينتظر الصالحين ، والعقاب الذى ينتظر سواهم ،

٧١٠

أطلب منك توجيه عينيك لمشاهدة ما سوف يأتى فوراً .

ونظر آدم فوجد أن وجه الأشياء قد تبدل وانقلب ،

إذ كفَّ حُجُور الحرب النحاسى عن الزئير

وتحوّل كل شىء الآن إلى المرح واللعب ،

٧١٥

وإلى الشهوة والشغب ، والطعام ، والرقص

والزواج أو الدعارة ، حيثما اتفق ،

اغتصاباً أو زناً ، حيثما مرَّ الحُسنُ الفائق

فأغرى وأغوى ، ومن كؤوس الطللى إلى الشجار فيما بينهم ،

حتى أتى أخيراً سيد مُبْجَلٍ فَمَرَّ بهم ،

٧٢٠

وأعلن سخطه الشديد على ما يفعلون ،

ونصحهم بنبد طرائقهم ، وكثيراً ما كان

يختلف إلى مجتمعاتهم ، أينما عقدوها ،

احتفالاً بالنصر أو بالأعياد ، وكان يعظهم ويطلب منهم

الرجوع عما هم فيه والتوبة ، مبيّناً لهم أنهم أرواح

٧٢٥

حبيسة أجساد أصبح الحكم عليها وشيك الوقوع ،
ولكن كل ذلك ذهب عبثاً ، وعندما أدرك ذلك كفّ عن
محاورتهم ، وأخذ خيامه فضربها فى مكان قصي ،
ثم جعل يقطع ألواح خشب طويلة من أشجار الجبل ،
وشرع يصنع الفُلك ، وهى سفينة ضخمة الجُرم ،

٧٣٠

ويقيس بالذراع طولها وعرضها وارتفاعها ،
ثم دهنها كلها بالقار ، وجعل فى جانبها باباً
مبتكراً ، وملاها بمقادير كبيرة من الزاد والمؤن ،
للإنسان والحيوان معاً ، وإذا بالعجيب الغريب المدهش !
فمن كل حيوان وطير وحشرة صغيرة أتت الجماعات

سبعاً سبعاً ومن كل زوجين اثنين فدخلت الفُلك بالترتيب الذى علّمته ، ٧٣٥
وأخيراً دخل السيد مع أبنائه الثلاثة

وزوجاتهم الأربع ، وأغلق الله الباب إغلاقاً محكماً .
ولم تلبث الريح الجنوبية أن هبّت ، ودفعت جميع السحب أمامها
فحلّقت بأجنحتها السوداء فى شتى الأرجاء

٧٤٠

تحت قبة السماء ، وأرسلت الجبال المدد إليها من
الأبخرة والضباب المعتم الرطب ،

فارتفع بسرعة ، حتى اكتظت السماء فبدت

مثل سقف مظلم ، وانهمر المطر انهماراً

جائحاً ، وظل يهطل حتى غطى الأرض

فاختفت عن الناظرين ، وسبحت السفينة الطافية ٧٤٥

تحملها المياه ، وكانت تجرى آمنة بمقدمها المدب

راكبة متن الأمواج متمائلة معها ، وأما سائر المساكن

فقد اكتسحها الطوفان ، وأغرقها بكل بهائها وفخامتها

وأودى بها فى أعماق الماء ، فالبحر يغشى البحر

بحر بلا ساحل ، وحلت فى القصور التى ٧٥٠

كانت الشهوات سائدة فيها وحوش بحرية تلد صغارها

وتتغرس فى الطين ، وأما البشر الذين كانت أعدادهم وافرة

فلم يبق منهم إلا من ركب ذلك الفلك الصغير الأوحـد السابـح

ما كان أشد حزنك يا آدم وأنت تشهد

نهاية ذريتك جميعاً ، نهاية فاجعة ، ٧٥٥

وقد خلت الأرض من سكانها ، إذ أغرقك طوفان آخر ،

طوفان من الدموع والأحزان ،

وهبط بك مثل أبنائك ، حتى تلطف فانتشلك

ذلك الملاك ، فوقفت على قدميك أخيراً ،

ولوكسير القلب ، كشأن الأب الذى يبكى فقدان ٧٦٠

أبنائه ، وهو يشهد هلاكهم جميعاً معاً .

فشكوتَ بِثْكَ وإن كنت لا تكاد تخاطب الملك قائلاً :

يا للرؤى التى ساءنى التنبؤ بها ! ليتنى

عشت جاهلاً بالمستقبل ، فَتَحَمَلْتُ

٧٦٥

نصيبي من الشر وحدى ، إذ يأتى كل يوم منه بما

يكفى ، وأما هذه الرؤى التى عُرِضَتْ عَلَى ، وهى

عبءٌ عصور كثيرة ، فقد أَلْقَيْتَ عَلَى كاهلى

مرة واحدة ، حين اكتسبت بعلمى السابق ميلاداً

مُجْهَضاً ، إذ تعذبنى الأحداث قبل أن تقع

٧٧٠

وقد علمت أنها لابد أن تتحقق . ألا فليحجم الجميع

منذ الآن عن السعى لاكتساب معرفة سابقة بما سيحدث

له أو لأبنائه ، فقد يتأكد أنه شر ،

ثم لا تستطيع معرفته السابقة أن تمنعه ،

كما سيشعر أن الشر المقبل لا تقل وطأة

٧٧٥

الخوف منه عن وطأة تحمله واقعاً ،

فهى وطأة ثقيلة فى الحالين . ولكن هذا الهم قد انقضى

وليس يجدى الآن تحذير الإنسان ، فالقلة القليلة التى نجت

من المجاعة والعذاب سوف تهلك آخر الأمر

تائهة وهى تضرب فى شعاب تلك الصحراء المائية . كم كنت أمل

٧٨٠

حين توقف العنف وانتهت الحرب فى الأرض ،

أن يسير كل شىء على ما يرام ، وأن يُكَلَّلَ السلام

هامة الجنس البشرى بأيام سعادة ممدودة .

ولكن ما أشدَّ ما خُدَعْتُ ، إذ أرى الآن

السلم وهو يأتى بفساد لا يقل عن خراب الحرب .

٧٨٥

فكيف يكون هذا ؟ أفصح أيها المرشد السماوى ،

خبرنى إذا ما كان الجنس البشرى سوف ينتهى هنا .

وأجابه ميكائيل قائلاً : إن الذين رأيتهم أخيراً

يزهون بالنصر وبالثراء المترف ، هم الذين

رأيتهم أولاً ينهضون بأعمال تنم عن شجاعة بارزة

٧٩٠

وإنجازات عظيمة ، لكنها تخلص من الفضيلة الحققة ، فإنهم

بعد أن أراقوا دماء كثيرة وأحدثوا خراباً كثيراً

فى إخضاع الأمم ففازوا

بذئوع الصيت فى العالم ، والألقاب الرفيعة ، والغنائم الثمينة ،

سوف يحولون مسارهم نحو اللذائذ ولين العيش والكسل

٧٩٥

والتَّخَمَّة والشهوة ، فإذا بالسَّفَه والكِبَرِ

يُخرجان من جوف الصداقة أعمالاً عدوانية فى زمن السلم .

كما أن المهزومين الذين أوقعتهم الحرب فى الرُّقّ

سوف يفقدون مع حرّيتهم المفقودة كل فضيلة

وتقوى الله ، بعد أن تظاهروا بالورع فحسب

٨٠٠

فلم يظاهروهم الله ولم يؤازرهم فى القتال الحامى الوطيس

ضد الغزاة ، وهكذا ، عندما تبرد حميتهم ،

فسوف يزاولون أساليب العيش الآمن ،

المادى أو المنحلّ ، على ما سوف يسمح أسيادهم

لهم بالاستمتاع به ، إذ سوف تحمل الأرض من النعم

٨٠٥

ما يكفى ويزيد ، وما يتيح تجاوز الاعتدال .

وهكذا سيتحول الجميع إلى الفسوق والانحطاط ،

وينسون العدالة والاعتدال والحق والإيمان .

إلا رجلاً واحداً، ابن النور الأواحد

فى عصر مظلم ، مثال يحتذى به ،

٨١٠

فى التصدى للغواية والعادة ، فى عالم

خاطىء ، لا يهاب اللوم والاحتقار

أو العنف ، وسوف يتصدى لسبلهم الأثمة

ويحذرهم من مغبتها ، ويرسم لهم

السبل القويمة ، فيريهم كيف تعود عليهم بسلامة أكبر ،

٨١٥

وكيف يَعْمُرُ جنّاتها السلم ، معلناً أن الغضب سوف يحقق

بتماديهم فى الإثم ، فلا يعود إلا

بسخرية منهم ، ولكن الله يرى

الرجل البار الوحيد بين الأحياء ، وبأمر الله

سوف يصنع الفلك الرائع ، كما شهدت ،

٨٢٠

لينقذ نفسه وأهل بيته من بين أبناء

عالم حُكِمَ عليه بالدمار الشامل .

وما يكاد يستقر هو ومن معه من البشر والحيوان

المختارين للنجاة فى الفلك المشحون

وما يكادون يلوذون بها ، حتى تنفتح أبواب

٨٢٥

السماء جميعاً بماء منهمر على الأرض ، وتهطل

الأمطار نهاراً وليلاً ، وتنفجر الأرض عيوناً ،

فتعلو أمواج المحيط وتطغى طغياناً

يفوق كل الحدود ، وترتفع مياه الفيضان

فتغرق أعلى الجبال ، وعندها ترى هذا الجبل

٨٣٠

فى الفردوس وقد زحزحته قوة الأمواج

من مكانه ، فيدفعه الطوفان بقرنيه

ويسلبه نباته الأخضر جميعاً ، وتنجرف الأشجار

- فى هذا النهر العظيم إلى الخليج المنفتح ،
وهناك تنشأ جزيرة وتضرب جذورها فى الأرض ، مِلْحَةً عارية ،
فتصبح مقراً لكلاب البحر والحيتان ، ولصخب طيور النورس وصياحها ، ٨٣٥
حتى تعلم أن الله لا ينسب للمكان
آية قداسة إذا خلا من أى شىء يأتى به
البشر الذين يعتادونه أو يقيمون فيه .
والآن انظر تر ما سوف يحدث بعد ذلك .
٧٤٠ ونظر فشاهد هيكल السفينة طافياً فوق الماء
الذى كان قد هبط ، إذ فَرَّتْ السحب
تسوقها ریح شمالية صرصر ، هَبَّتْ فجففت
وجه الطوفان الذى تغضن كأتما ذوى وذبل ،
وحَدَّقَتْ الشمس الصافية فى مرآتها المائية الرحبية
٧٤٥ حارة قائمة ، وشربت من الأمواج الجديدة عللاً بعد نهل ،
كأتما كانت عطشى ، فأنحسر تدفقها وانكمش ،
وتحوّلت البحيرة الثابتة إلى جزر يغور ويسترق
خطاه برفق نحو البحر الذى كان قد أغلق
أبوابه ، مثلما أغلقت السماء نوافذها .
٨٥٠ وتوقفت الفلک عن الطفو ، وبدا أنها ترتكز على الأرض

ثابتة فوق قمة أحد الجبال العالية .

وبدأت قمم الجبال تظهر كأنها صخور ناتئة

واندفعت تيارات الماء السريعة صاخبةً ، فدَفَعَتْ

إلى البحر المنحسر أمواج المدِّ الغائر المنكسر .

٨٥٥

وعلى الفور طار من الفُلك غُراب ،

وبعده طارت حمامة ، الرسول الذى يحظى بثقة أكبر ،

إذ أُرسِلَتْ المرة بعد المرة لتبحث عن

شجرة خضراء أو أرض خضراء تَحُطُّ عليها قدمُها ،

وعادت فى المرة الثانية وفى منقارها

٨٦٠

ورقة زيتونة أتت بها آية سلام .

وسرعان ما ظهرت الياسة ، وبدأ السيد الهرم

فى النزول من فُلكه هو وأتباعه جميعاً ،

ثم رفع كَفَّيه إلى السماء ، ونظر بعينين مُخلصيتين ،

وبامتنان إلى السماء ، فشاهد فوق رأسه

٨٦٥

سحابة نَدِيَّة ، وفى السحابة قوس قزح

يتجلَّى وفيه ثلاثة ألوان بهيجة منضودة فى حُزم ،

بشرى السلام من الله ، وعهداً جديداً منه .

وعندها بدأ قلب آدم ، الذى كان يغشاه حزن شديد ،

يفيض بالفرح العميم ، وما لبث فرحه أن انطلق قائلاً :

٨٧٠

أنت يا من تستطيع تقديم أحداث المستقبل

فى الحاضر ، أيها المعلم السماوى ، لقد عدتُ إلى الحياة

بفضل هذا المشهد الأخير ، واثقاً أن الإنسان سوف يحيا

مع سائر المخلوقات ، ويحفظ ذريتها .

وأصبح حزنى الآن على دمار عالم كامل

٨٧٥

من الأبناء الأشرار ، يقل كثيراً عن فرحتى بوجود

رجل واحد ثبت تمتعه بمثل ذلك الكمال والبر ،

حتى أن الله تعطف لينشئ عالماً آخر

من صلبه ، ولينسى كل غضبه .

ولكن قل لى ما معنى تلك الخطوط الملونة فى السماء

٨٨٠

التي انبسطت عند انفراج القطوب فى جبهة الله ،

أم تراها حاشية زهرية جعلت لتربط أطراف

الأزر السيالة لتلك السحابة المائية نفسها

حتى لا تنحل من جديد وتهطل على الأرض ؟

وأجابه الملك الأكبر قائلاً : لقد أصبت حين رميت ،

٨٨٥

إذ يشاء الله راضياً أن يعفو عمن غضب عليهم

من بنى الإنسان وإن تأخرت توبتهم ،

- وإن تأسَى قلبه عندما نظر من على فرأى
الأرض حافلة بأعمال العنف ، والبشر كلهم
وقد أفسدوا سبلهم جميعاً ، لكنهم ما يكادون يذهبون
حتى يستدرّ رجل بارٌّ أوحد من عين الله عطفًا سابعًا
فإذا هو يرحم فلا يمحو البشرية محوًا تامًا
ويقطع على نفسه عهدًا بالألّا يعود أبدًا إلى تدمير
الأرض بالطوفان ، وبالألّا يجعل البحر
يتجاوز حدوده ، ولا المطر يغرق العالم
والإنسان فيه أو الحيوان ، لكنه حين يسوق
سحابة فوق الأرض ، فسوف يجعل فيها
قوسه ذا الألوان الثلاثة ، حتى تبصره عناصر الطبيعة
فتذكر عهده ، وهكذا يتتابع النهار والليل ،
وزمن البذر وزمن الحصاد ، والحرارة والصقيع الأشهب ،
كل يجرى فى مجراه ، حتى تُطهر النار جميع الأشياء وتجدها ،
فتنشأ أرض جديدة وسمااء جديدة ، مُقام الإنسان فى المستقبل .

نهاية الكتاب الحادى عشر

الكتاب الثاني عشر

الموضوع

يستمر الملكُ ميكائيل في روايته ، فيروى ما سوف يقع من أحداث بعد الطوفان ، وعندما يذكر إبراهيم عليه السلام ، يشرح تدريجيًا ويفصح عن ولد العذراء الذي كان آدم وحواء قد وعدا بمقدمه عند السقوط ، وعن تجسده وموته وبعثه ورفعته ، وعن أحوال الكنيسة حتى مقدمه الثاني . ويسعد آدم سعادة بالغة بهذه القصص والوعود التي تعيد إليه اطمئنانه ، ويهبط التل مع ميكائيل ، ويوقظ حواء التي كانت نائمة في أثناء ذلك ، وقد رأت في منامها أحلامًا تدل على هدوء البال والخضوع ، ويسوقهما ميكائيل فيسيران معه وقد أمسك بأيديهما إلى خارج الفردوس ، والسيف الناري يتراقص في الهواء خلفهما ، وملائكة الشاروبيم قد أخذوا مواقعهم لحراسة المكان .

مثلما يتوقف المسافر في ترحاله عند نقطة الزوال ،

وإن كان يقصد الإسراع ، توقف ميكائيل هنا

بين العالم الهالك والعالم الوليد ، ليرى

إذا ما كان آدم سوف يعنّ له أن يقول شيئًا ما ،

- ٥ قبل أن يستأنف الحديث منتقلاً نُقْلَةً حُلُوءَةً قَائِلًا :
- وهكذا شاهدتَ عالمًا كاملاً يبدأ وينتهي ،
- والإنسان وهو يَنْسِلُ كأنما من صُلْبٍ جديد ،
- ولسوف تشاهد أكثر من ذلك ، لكنني ألحظ
- أن بصرك الفاني يخبو ، فالأشياء الإلهية
- ١٠ لا بد أن تُضَعِفَ وترهق الحواس البشرية ،
- وهكذا فسوف أقصر منذ الآن على رواية أحداث المستقبل
- وعليك أنت أن تستمع وتُنصت وتَتَّبِعَ :
- كان البشر الذين انحدروا من هذا المصدر الثاني لا يزالون قلة
- وكان رُعبُ العقوبة التي وقعت لا يزال
- ١٥ ماثلاً في أذهانهم يذكرونه فيخافون الله ،
- ويراعون إلى حد ما كل ما هو حق وعدل ،
- وسوف يعيشون حياتهم ، ويتكاثرون بسرعة ،
- ويفلحون الأرض ؛ ويجنون محاصيل وافرة ،
- من القمح والنبذ والزيت ، ومن الأبقار والأغنام ،
- ٢٠ وكثيراً ما يقدمون أضحياتهم من العجول أو الحملان أو الجداء
- مع صبّ مقادير كبيرة من النبيذ قرباناً ، ومآدب مقدسة ،
- وسوف يقضون أيامهم في فرح دون مَلَامٍ ، ويقىمون

زمنًا طويلًا في سلام ، أُسرًا وقبائل

في ظل حكم الآباء ، حتى ينهض رجل

٢٥

في قلبه كبرياء وطموح ، لا يقنع

بالمساواة المنصفة ، ولا بدولة الإخاء ،

بل سوف يغتصب السيطرة دون استحقاق

على إخوانه ، وينزع كل سلطان

للولفاق وقانون الطبيعة على الأرض ، فيمارس

٣٠

الصيّد (وسوف تكون فرائسه من البشر لا الوحوش)

معلنًا الحرب وناصبًا شراك العدو لكل من يرفض

أن يخضع له ولطغيان سلطانه المطلق ،

وسوف يتخذ صورة الصياد الجبار

أمام الرب ، كأنما يتحدى السماء ،

٣٥

أو كأنما استمد من السماء سيادة ثانية ،

وسوف يُشتق اسمه من التمرد

وإن كان سوف يتهم الآخرين بالتمرد .

وسوف ينضمُّ إليه فريق ممن سيربطهم به طموح مماثل ،

أو يعملون تحت إمرته ، لممارسة الطغيان ،

فيسير الجميع من عدن نحو الغرب ، حتى يجدوا

- ٤٠ السهل الذى ينبجس منه نبع فوّار من القار الأسود
وهو يغلى من تحت الأرض ، من فُوّهة الجحيم ،
ومن ثم يأتون بالآجرّ وغيره من المواد فيصبونها لبناء
مدينة وبرج تصل قمته إلى عنان السماء ،
- ٤٥ ليذيع اسمهم ، ولئلاّ يتبددوا فى أقاصى
بلدان الأرض وتنمحي ذكراهم ،
سواء اشتهروا بالخير أو بالشر .
ولكن الله الذى كثيراً ما ينزل لزيارة البشر
فى الخفاء ، ويمشى بين مساكنهم
ليرقب فعالهم ، وسرعان ما يراهم ،
- ٥٠ ينزل ليشاهد مدينتهم ، قبل أن يعلو البرج
فيعترض أبراج السماء ، ثم يسخر منهم فيطلق
فى ألسنتهم عفريت التشيت الذى يحو
تماماً لغتهم الأصلية ، ويذر فى مكانها
بذور جلبة صاخبة حادة من ألفاظ مجهولة
وعلى الفور تتعالى هذرمة بشعة عالية
بين البنائين ، وينادى بعضهم بعضاً
دون تفاهم حتى تُبحّ أصواتهم ويثوروا غضباً

كأنما يُستهزأ بهم ، فيهدرون جائحين ، وتجلجل الضحكات في السماء

٦٠ التي تنظر من علٍ لتري خلطَ الضجيج الغريب

وتسمع ضوضاء العجيج ، وهكذا تُرك البناء

مثار سخرية وأصبح يدعى 'بابل' ، اسماً مشتقاً من البلبلة .

واستاء آدم استياء الوالد من ولده قائلاً :

يا له من ابن مقيت يطمح أن يعلو

٦٥ فوق إخوته ، وينسب إلى نفسه

السلطة المغتصبة التي لم يمنحها الله إياه ،

فلقد وهبنا الله سيادة مطلقة على الحيوان

والأسماك والطيور فقط ، ونحن نتمتع بهذا الحق

لأنه وهبه لنا ، لكنه لم يجعل للإنسان على الإنسان

٧٠ سيادة أو حيازة ، فهذا هو حقه الذي

يحتفظ به ، بل قضى بالآيتملك إنسان إنساناً آخر

ولكن هذا المغتصب لا يقتصر تعديه المتباهي

على الإنسان وحده ، بل إن برجه يعتزم التطاول على الله

والتصدى له والتحدى ، ترى أى طعام

٧٥ سوف يقدمه في الأعلى غذاءً

لنفسه وغذاءً لجيشه الأرعن ، حيث الهواء رهيفٌ

فوق السحب ، تذوى فيه الأحشاء الغليظة ،

ويسلب الإنسان الأنفاس وإن لم يسلبه الخبز ؟

ورد ميكائيل قائلاً : أصبت فى بغضك

٨٠

هذا الابن ، وهو الذى أقلق حال الإنسان المطمئنة

بمثل هذه البلبلة ، إذ حاول أن يُخضع

الحرية الرشيدة ، لكن عليك أن تعلم

أن الحرية الحقيقية قد ضاعت منذ زلتك الأولى ،

فهى تقيم دائماً مع العقل الصائب ، وهما

٨٥

توأمين ، وليس لها وجود منفصل عنه ،

فإذا حُجبَ العقلُ فى الإنسان وأظلم ، أو إذا عُصِيَتْ أوامره ،

هَبَّتْ الرغبات العارمة الجائحة ،

والمشاعر المحدثّة الجانحة ، فاستولت على زمام الحكم

من يد العقل ، وفرضت العبودية على

٩٠

الإنسان الذى كان حرّاً حتى تلك اللحظة . وهكذا فما دام يسمح

للقوى الدنيئة بالحكم داخل نفسه والتغلب

على العقل الحر ، فإن الله العادل فى حكمه

يُخضعه من الخارج لأسياد ذوى سطوة وعنف

كثيراً ما يقومون ، دون استحقاق أيضاً ، باسترقاق

٩٥

حريته الظاهرة ، فيقع الطغيان حتماً ،

ولو أن ذلك لا يبرر طُغيان الطاغية .

ومع ذلك فإن بعض الأمم تهبط هبوطاً شديداً عن مصاف

الفضيلة ، وهي العقل ، حتى تُعاقب - لا ظُلماً

بل عدلاً - وبسبب لعنة مُهلكة تصيبها ،

١٠٠

بالحرمان من حريتها الظاهرة ،

بعد فقدانها الحرية الباطنة ، وانظر إلى الابن العاق

الذي أنجبه من صنَع الفُلْكَ ، فلقد جلب العار على نفسه

بما فعله لأبيه ، فسمع هذه اللعنة الثقيلة ، أى أن يصبح

عَبْدَ العبيد ، وهي تصدر على نسله الخبيث .

١٠٥

وهكذا سوف ينحدر هذا العالم الأخير ، كشأن الذى سبقه ،

من سىء إلى أسوأ ، وباطراد ، حتى يملّ الله آخر الأمر

ويضجر من حَيْفِهِمْ وَجَنَفِهِمْ ، فَيُعِدَّ

حضرته عنهم ، ويحجب عنهم

عينيه المقدستين ، معترماً من تلك اللحظة

١١٠

أن يتركهم لدنسهم وخبائثهم ،

وأن يصطفى أُمَّةً واحدةً خاصةً فيرفعها

على سائر الأمم ، ويختصها دونهم بندائه ،

٦٥٥

- أمة تنحدر من نسل رجل مخلص واحد
كان يقيم فى الأرض عبْر نهر الفرات
وَدَرَج فى صباه على عبادة الأصنام ، كيف يمكن للبشر
١١٥ (وهل تصدق ؟) أن يصبحوا بهذا الغباء
والرجل العظيم لا يزال حيًّا بعد أن نجا من الطوفان ،
وأن يتركوا عبادة الله الحيّ ، ويسقطوا فى وهدة
عبادة ما صنعه أيديهم من الخشب والحجر ، داعينها
آلهة ! ولكن الله العلى يتكرّم ويتعطف
١٢٠ بأن يناديه فى رؤيا من منزل أبيه
ومن بين أهله وآلهته الكاذبة ، ويدعوه إلى أرض
سوف يريها له ، قائلاً إنه سوف يُخرج من صُلْبِه
أُمَّة قوية ، وسوف يُسبِّغُ عليه
بركاته حتى تَخْرُجَ من نسله
١٢٥ جميع الأمم مباركة ، ويطيع الرجل فوراً
وإن كان يجهل تلك الأرض ، لكنه ذو إيمان راسخ .
إننى أراه ، ولكنك لا تستطيع ، وأرى مدى الإيمان
الذى يترك به آلهته وأصدقاءه وأرض موطنه ،
١٣٠ مدينة «أور» الكلدانية ، وهو يعبر الآن المخاضة

إلى « حاران » ، ومن خلفه حشد هائل من قطعان

الأبقار والأغنام ، وعدد كبير من العبيد والخدم .

لم يكن يرحل فقيراً ، ولكنه كان يضع كل ثروته فى أيدي

الله الذى دعاه ، فى هذه الأرض المجهولة .

ويصل الآن إلى « كنعان » ، وها أنذا أرى خيامه

١٣٥

وقد ضربها حول « شكيم » والسهل المجاور لبلوطة

« موره » ، وهناك تلقى الوعد بالحصول

على كل تلك الأرض هدية لذريته ،

من « حماة » شمالاً حتى الصحراء الممتدة جنوباً

(وأنا أدعو هذه الأماكن بأسمائها وإن تكن الآن دون أسماء)

١٤٥

ومن « حرمون » شرقاً إلى البحر الغربى العظيم ،

وجبل « حرمون » ، وذلك البحر نفسه ، وأشهد كل مكان

يتجلى وأنا أشير إليه ، وعلى الشاطئ

جبل « الكرمل » ، حيث النهر ذو المنبعين ،

نهر الأردن ، وهو الحد الحقيقى شرقاً ، ولكن أبناءه

١٤٥

سوف يسكنون منطقة تمتد حتى « سنير » ، وهى جُرف جبلى طويل ،

وتأمل هذا : إن جميع أمم الأرض

سوف تكون مباركة فى ذريته ، وهى الذرية التى

- أعنى بها مخلصك العظيم ، الذى سوف يسحق
 رأس الثعبان ، وسوف أكشف لك عنه بعد قليل
 ١٥٠ فى صورة أوضح . وسوف يخلف هذا الأب المبارك ،
 الذى سوف يدعى إبراهيم الخفيف فى قابل الأيام ،
 ابنًا ، وحفيدًا من صُلْب هذا الابن ،
 يماثله فى الإيمان وفى الحكمة وذئوع الصيت
 ١٥٥ وسينجب الحفيد اثنى عشر ابنًا ، ويرحل
 من كنعان ، إلى أرض يطلق عليها فيما بعد اسم
 مصر ، يَقْسِمُهَا نهر النيل ،
 وانظر حيث يتدفق فيصب ماءه من سبعة مصبات
 فى البحر ، وهو يأتى للإقامة فى ذلك البلد
 ١٦٠ حين يدعوهُ أحد صغار أبنائه
 فى زمن الشدة ، وهو الابن الذى ترفعه فعّاله العظيمة
 إلى المترلة الثانية فى مملكة
 فرعون ، ويموت فيها ، ويترك ذريته
 التى تنمو فتصبح أُمَّةً ، ثم تسمى موضع
 ١٦٥ اشتباه أحد الملوك بعد ذلك ، فإذا به يسعى
 للحدّ من زيادة تكاثر أفرادها ، باعتبارهم ضيوقًا حلّوا لديه

فزاد عددهم عن الحد ، ويحيل الضيوف إلى عبيد ،
على غير ما تقتضيه الضيافة ، ويذبح مواليدهم الذكور ،
حتى يأتى شقيقان (ويدعى هذان الشقيقان

١٧٠ موسى وهارون) مُرْسَلَيْن من عند الله لإنقاذ
شعبه من العبودية ، ويعودان مع الجميع مكلّلين
بالمجد ، حاملين الغنائم إلى الأرض التى وعدوا بها .
وإن كان لابد أولاً من إرغام الطاغية المستبد ، الذى يرفض
معرفة إلههما ، أو تصديق رسالتهما ،

١٧٥ وإجباره بآيات وأحكام رهيبة على الخضوع ،
ولابد أن تتحول مياه الأنهار إلى دماء غير مُهرقة ،
ولابد أن يمتلىء قصره بالصفاد والقمل والذباب الذى
يقتحمه اقتحاماً بغيضاً وأن ينتشر فى الأرض كلها ،
ولابد أن تموت قُطعانه بمرض العفن والطاعون البقرى ،

١٨٠ وأن تنتشر على جلده البثور والدمامل فى كل مكان ،
وتصيب جميع أفراد شعبه ، وأن يُدَوَّى الرعد المختلط بالبرد
والبرد المختلط بالنار ، فيمزق سماء مصر ،
ويكرّ على الأرض بعجلاته مُلتهماً ما يكرّ عليه ،
وما يفوته التهامه من عشب أو ثمر أو حبّ

١٨٥

يقع فريسة سحابة سوداء من الجراد الذى يتجمع وينقض
لالتهامه ، ثم لا يبقى على الأرض شيئاً أخضر .
ولابد أن يهبط الظلام مُدْلِهَمًا على تخومه جمعاء ،
ظلامٌ غليظٌ ملموس ، فيطمس النهار ثلاثة أيام متوالية .
وأخيراً لابد أن تقع ضربة واحدة فى منتصف الليل ، فتقتل

١٩٠

جميع أبكار مصر ، ويمسى الملكُ مثخنًا بجراح عشرة ،
ويروّضُ ذلك التنين النهري فيوافق على مضض آخر الأمر
على أن يسمح للمقيمين لديه بالرحيل ، وكثيراً ما
يلين قلبه العنيد ويخشع ، لكنه يعود كالجليد
الذى يزداد شِدَّةً إذا تجمّد بعد انصهاره ، حتى يحفزه غضبه إلى

١٩٥

مطاردة الذين كان قد سمح لهم بالخروج أخيراً ، فإذا البحر
يبتلعه هو وجنوده ، بعد أن يتيح للراجلين المرور
كأنما يسرون على اليابسة بين جدارين من البلّور ،
عندما يرفع موسى عصاه أمراً إياه أن ينشقَّ
وينقسم حتى يصل الناجون إلى البر .

٢٠٠

وهذه القوة الجبارة سوف يستمدّها الكليم من الله
الذى يرسل ملكاً من لدنه إليهم ، وسوف يسير
أمامهم فى سحابة وعمودٍ من نار ،

سحابة بالنهار وعمود من النار بالليل ،

ليرشدهم فى رحلتهم ، وعلى مسافة ما من

٢٠٥ خلفهم يحميههم فى أثناء مطاردة الملك العنيد لهم ،

ولسوف يطاردهم بالليل ، ولكن الظلام يحول دون

اقترابه منهم حتى انبلاج الصبح ،

ثم ينظر الله من خلال عمود النار والسحابة

فَتُرَبِّكُ نظرته الحشد الحاشد جميعاً

٢١٠ وتصيب عجلات عرباتهم الحربية بلوثة ، ثم يأمر الله

موسى أن يرفع عصاه الجبارة

فوق البحر ، فيطيع البحر عصاه ،

وترتد الأمواج فتُطْبِقُ على صفوف المقاتلين

وتكتسح جيوشهم ، وتتقدم الذرية المصطفاة

٢١٥ سالمة نحو أرض كنعان ، فتنتطلق من الشاطئ

خلال الصحراء الموحشة ، وليس ذلك بأيسر السبل ،

لكنهم يخشون أن يدخلوا على الكنعانيين فيفزعوهم إلى

الحرب ، وهم لا خبرة لهم بها ، فيصيههم الرعب ، ويدفعهم الخوف

إلى العودة إلى مصر ، مؤثرين أن يحيا

٢٢٠ حياة ذل وعبودية ، فالحياة

فى شرف أو ضعة أحلى لمن

لم يُدَرَّبْ على حمل السلاح ولا تحفزه الرعونة .

وسوف يحققون ذلك أيضاً بالكوث فترة ما

فى البرية الشاسعة ، إذ سوف ينشئون فيها

٢٢٥

حكومتهم ويبتخبون مجلس شيوخهم العظيم

من القبائل الاثنتى عشرة ، للحكم بالشرعية المنزلة .

وسوف ينزل الله إلى جبل سيناء فترتعد

قمته الشهباء لنزوله ، ولسوف يفرض بنفسه

بين هزيم الرعد وومض البرق ودوى الأبواق العالية

٢٣٠

هذه الشرعية المنزلة ، فبعضها يتعلق

بالعدالة المدنية ، وبعضها بالطقوس الدينية

للتضحية ، وسوف يُطْلَعُهم ، بالأمثلة

وخلال الآيات السماوية ، على الرجل الذى قُدِّرَ له أن يسحق

الأفعى ، وعلى الوسيلة التى سوف يحقق بها

٢٣٥

خلاص البشرية . ولكن صوت الله

رهيب مرعب لأذن الإنسان الفانى ، ولذا فهم يتوسلون

إلى موسى أن يبلغهم بمشيئة الله نقلاً عنه

لينجيهم من الرعب ، فيجيبهم إلى مطلبهم ،

إِذْ أُعْلِمَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى اللَّهِ

٢٤٠

دُونِ وَسِيطٍ ، وَهُوَ الْمُنْصَبُ السَّامِيُّ الَّذِي يَشْغَلُهُ الْآنَ

مُوسَى فِي الشَّكْلِ وَالصُّورَةِ ، تَوَطُّةٌ لَتَقْدِيمِ

وَسِيطٍ أَعْظَمَ ، وَلَسَوْفَ يَنْبُئُهُمْ بِيَوْمٍ مُقَدَّمِهِ

وَلَسَوْفَ يَتَغَنَّى جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ ، كُلُّهُ فِي عَصْرِهِ ، بِزَمَنِ

مُقَدَّمِ الْمَسِيحِ الْعَظِيمِ . وَبَعْدَ نَزُولِ الشَّرَائِعِ وَالطَّقُوسِ

٢٤٥

وِإِقَامَتِهَا ، يَبْلُغُ فَرَحُ اللَّهِ مَدَاهُ بِالْبَشَرِ

الْمُطِيعِينَ لِمَشِيتَتِهِ ، فَيَتَعَطَفُ وَيَتَكْرَمُ

وَيَسْمَحُ بِنَاءِ بَيْتِهِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ ،

وَهُوَ الْمَسْكَنُ الْمُقَدَّسُ الَّذِي يَقِيمُ فِيهِ الْبَشَرُ الْفَانُونَ ،

وَهَكَذَا يَنْشُتُونَ حَرَمًا قَدْسِيًّا وَفَقِ الشَّكْلَ الَّذِي وَضَعَهُ

٢٥٠

مِنْ خَشَبِ الْأَرْزِ ، مُطَعَّمًا بِالذَّهَبِ ، وَبِدَاخِلِهِ

تَابُوتٌ ، وَفِي التَّابُوتِ شَهَادَتُهُ ،

أَيُّ سَجَلَاتِ عَهْدِهِ ، وَفَوْقَ هَذِهِ

مَقْعَدُ رَحْمَةٍ مِنَ الذَّهَبِ بَيْنَ أَجْنَحَتِهِ

مَلَائِكِينَ وَضَاءَيْنِ مِنْ مَلَائِكَةِ الشَّارُوبِيمِ ، وَأَمَامَهُ

٢٥٥

سَبْعَةُ مَصَابِيحَ مَوْقَدَةٍ فِي دَائِرَةِ بَرُوجٍ تُمَثِّلُ

النُّجُومَ فِي السَّمَاءِ ، وَسَوْفَ تَنْبُتُ غِمَامَةٌ فِي السَّمَاءِ

٢٦٣

- فوق الخيمة بالنهار ، ويسطع ضوء ملتهب ليلاً ،
 إلا عندما يسافرون ، وهكذا يَصِلُونَ آخر الأمر ،
 يحدوهم المَلَكُ المرسل ويرشدهم ، إلى الأرض التي
 ٢٦٠ وُعد بها إبراهيم وذريته ، وأما باقى القصة
 فقد تطول روايتها ، فكم من المعارك نشبت ،
 وكم من الملوك قُتلوا ، وكم من الممالك قُتِحَتْ ،
 أو كيف ستقف الشمس فى كبد السماء ثابتة
 يوماً كاملاً ، فتؤجل مقدم الليل فى مواعده ،
 ٢٦٥ عندما يأمرها صوت إنسان قائلاً ، قفى أيتها الشمس فى ”جبعون“
 وقف يا قمر فوق وادى ”أيلون“ ،
 حتى ينتصر النبى يعقوب ، فهكذا سيدعى الثالث
 من أبناء إبراهيم ، والثانى من نسل إسحاق ، ومنه
 تنحدر ذرية كاملة تظفر بأرض ”كنعان“ .
 ٢٧٠ وقاطعه آدم هنا قائلاً : أيها المرسل من السماء ،
 يا من أضأت ظلامى ، ما أجمل الأشياء
 التى كشفت عنها ، وخصوصاً ما يتعلق منها
 بإبراهيم الحنيف وذريته ، فلأول مرة أشعر
 بعينى وقد تَفَتَّحتا حقاً ، وبقلبى وقد خَفَّتْ أثقاله كثيراً ،

٢٧٥

وقد كنت حائراً نَهَباً لأفكار عصيةٍ عمّا عساه يحدث

لى وللبشرية كلها ، ولكننى أرى الآن

يوم مقدم الذى سوف تُبارك كل الأمم فيه ،

وهو فضل لا أستحقه ، بعد أن سعىْتُ للحصول على

المعرفة المحرمة بوسائل محرمة ،

٢٨٠

لكننى لا أفهم لماذا تنزل على

الذين سيتنازل الله ليسكن بينهم على الأرض

كلُّ هذه القوانين الكثيرة والمنوعة ،

ولماذا تؤدي هذه القوانين الكثيرة إلى خطايا كثيرة

بينهم ، فكيف يمكن لله أن يقيم مع هؤلاء ؟

٢٨٥

وردَّ عليه ميكائيل قائلاً : لا يخامرُك الشك فى أن الخطيئة

سوف تسود بينهم ، لأنهم ورثوها منك ،

ولذلك أُنزِلَت القوانين عليهم ، أى للكشف عن

الخبث الطبيعى فيهم وكبحه ، إذ ستهبُّ

الخطيئة لمحاربة القانون ، وإذلُّ فإنهم عندما يرون

٢٩٠

القانون سوف يكتشفون الخطيئة ، دون إقصائها ،

باستثناء تلك الكفَّارات الشاحبة الضعيفة ، مثل

دماء الثيران والماعز ، وربما انتهوا من ذلك إلى

ضرورة إراقة دماء أئمن وأغلى لفداء الإنسان ،
بارٌّ يفدى الظالمين ، وبذلك يجدون فى الصلاح

٢٩٥

الذى يكتسبونه حين يؤمنون به ،
سبيلاً إلى الله وصفاءً

فى الضمير ، وهو الذى لا تستطيع القوانين بكل إجراءاتها العملية
أن ترضيه ، مثلما لا يستطيع الإنسان بها تحقيق
وجوده المعنوى ، وهو الذى لا يستطيع الحياة دون تحقيقه .

٣٠٠

وهكذا يبدو القانون ناقصاً ، ولكنه أنزل عليهم
حتى يسلّموا أنفسهم مطمئنين ، آخر الأمر ،
إلى عهد أوثق وأمتن ، يرسم بضوابطه الطريق

من النماذج الغامضة إلى الحقيقة ، أى من الجسم إلى الروح ،
من فرض القوانين الصارمة ، إلى حرّية

٣٠٥

تقبل فضل الله الواسع وكرمه ، ومن خوف العبد من سيّده ،
إلى حبّ الابن لأبيه ، ومن العمل بالقانون إلى العمل بالإيمان .
وهكذا لن يكون موسى ، على حبّ الله له

حبّاً شديداً ، سوى أداة من أدوات

القانون ، ولن يستطيع أن يسير بشعبه إلى أرض كنعان .

٣١٠

ولكن يشوع ، الذى يسميه الأميون يسوع ،

فهو يحمل اسمه ويضطلع بمهمته ، سوف يقهر
الخصم وهو الثعبان ، ويعود بالإنسان ،
الذى طال تجواله حائراً فى برية العالم ،
سالمًا إلى فردوس الراحة الخالدة .

٣١٥ وريثما يكون ذلك ، سيمكثون فى كنعان الأرضية التى ملكوها
فيسكنونها وتزدهر أحوالهم زمناً طويلاً ، إلا حين تهب الخطايا
الفطرية فتقلقل سلم الأمة ،
وتحفز الله إلى إيجاد أعداء لهم

وكثيراً ما ينقذهم الله منهم عندما يتوبون ،
٣٢٠ على أيدي القضاة أولاً ، ثم على أيدي الملوك ، ومن بين هؤلاء
ينهض الثانى ، الذى ذاع صيتُ ورعه
وصيتُ أفعاله الجبارة ، فيتلقى وعداً
لا نقضَ له بأن يظلَّ عرشه الملكى
قائماً أبداً الدهر ، ولسوف يُنشدُ أيضاً

٣٢٥ جميع النبوءات ، قائلاً إن السلالة الملكية
لداود (وهذا هو الاسم الذى أدعو به هذا الملك) سوف يخرج منها
ابن هو ولد العذراء الذى بُنيتَ به من قبل ،
ونبىء به إبراهيم ، وهو الذى سيغدو موضع ثقة

جميع الأمم ، والذي نُبِّئ به الملوك ، فهو

آخر الملوك ، إذ لن تكون لحكمه نهاية . ٣٣٠

ولكن لابد أن تسبقه سلسلة طويلة من الورثة ،

وسوف يشتهر ابنه التالى بالثراء والحكمة ،

وسوف ينقذ تابوت عهد الرب المغمور من التنقل

من خيمة إلى خيمة ، فينزله فى معبد رائع مهيب .

وسوف يتبعه آخرون ، ممن يُسجّل التاريخ أسماءهم ، ٣٣٥

فبعضهم صالحٌ وبعضهم طالح ، وسجّلُ الطالحين أكبر ،

وهم الذين يقتربون خبائث وثنية ، وخطايا أخرى

تُضاف إلى خطايا الشعب الكثيرة ، فيبلغ الغضب

بالله حدًّا يجعله يتخلى عنهم ، ويعرّض أرضهم

ومدينتهم ، ومعبده ، وتابوته المقدس ، ٣٤٠

مع جميع مقدساته ، للإذلال والافتراس ، إذ تلتهمها

تلك المدينة المتكبرة ، التى رأيت جدرانها العالية

وقد تُركت فى بلبلة ، فأطلق عليها من ثمَّ اسم بابل .

وسوف يجعلهم يقيمون فى الأسر هناك

سبعين سنة ثم يعيدهم ٣٤٥

إذ يذكر الرحمة ، والعهد الذى قطعه

لداود ، وهو الثابت ثبات أيام السماوات ،

وعندما يعودون من بابل ، بعد أن يسمح لهم الملوك من

أسيادهم ، بفضل من الله وتوفيقه ، يعمدون إلى بيت الله

٣٥٠

فيعيدون تعميره أولاً ، ويعيشون فترة ما

حياة التواضع والاعتدال ، حتى تتضخم

ثروتهم وتتكاثر أعدادهم ويتفرقوا شيعاً وأحزاباً ،

ولكن الشقاق ينشُبُ أولاً بين الكهنة ،

وهم الرجال الذين يصلّون في الهيكل والأولى بهم

٣٥٥

أن ينشدوا السلام ، وما يلبث نزاعهم أن يأتي بالفساد

إلى المعبد نفسه ، فإذا بهم يقبضون على

صولجان الحكم ، غير آبهين بأبناء داود ،

ثم يفقدونه ليستولى عليه أحد الغرباء ، وذلك حتى

يولد المسيح الصادق ، الملك الذي مُسح على رأسه بالزيت القدسي ،

٣٦٠

محروماً من حقه ، ولكن مولده سوف يتميز ببزوغ نجم

لم يشاهد قبل ذلك في السماء ليعلن مقدمه

ويهدى حكماء الشرق إليه ، فيستفسرون

عن مكانه حتى يحرقوا البخور ويقدموا أزهار البلسم والذهب

ويُفصحُ ملاكٌ مهيبٌ عن مكان مولده

٣٦٥

للرعاة البسطاء ، قائماً على حراسته ليلاً ،
فِيَهْرَعُونَ فرحين إلى ذلك المكان ، ويستمعون إلى فرقة
من فرق الملائكة المنشدين وهي تُنْشِدُ أغنيته .
والدته عذراء ، وأما والده

٣٧٠

فقوة الرب الأعلى ، ولسوف يصعد إلى
العرش الذى ورثه ، فلا تَحُدُّ حُكْمَهُ
إلا حدود الأرض الرحبية ومجده الذى فى السماوات .
وتوقف ميكائيل إذ رأى آدم وقد غلبه فرحٌ
قاهر مثلما غلبه الحزن من قبل فأسال أنداء العبرات ،
دون التنفيس عنه بالكلمات ، لكنه تكلم قائلاً :

٣٧٥

يا نَبِيَّ الأنبياء السارة ، يا من اكتملت على يديه
أقصى الآمال ! لقد فهمتُ الآن بوضوح
ما دأبتُ أكثر أفكارى اتزاناً على بحثه دون طائل ،
ألا وهو سبب تسمية العظيم الذى نتوقع مجيئه
بولد العذراء . السلام عليك أيتها الأم العذراء

٣٨٠

رفيعة القدر فى حب السماء ، ولو أنك سوف تنحدرين
من صُلْبى ، ومن رحمك سوف يخرج ولد ينتسب
إلى الرب الأعلى ، وهكذا يتحد الله مع الإنسان .

ولابد أن يتوقع الثعبان الآن سحق رأسه

بآلام مهلكة . قل لى أين ومتى يقع

٢٨٥ صراعهما ، وأى ضربة سوف تسحق عقب المتصر .

ورد عليه ميكائيل قائلاً : لا تحلم بأن يكون صراعهما

نزالاً أو مبارزة ، أو بأن يتخذ صورة جراح موضعية

فى الرأس أو العقب ، فليس من أجل هذا يجمع الابن بين

البشرية والربوبية ، بحيث تزداد قوته حتى تقهر

٢٩٠ عدوك ، بل وليس هذا سبيل قهر

إبليس ، بعد أن أدى سقوطه من السماء سقوطاً أشد إهلاكاً

إلى عجزه عن إصابتك بجرح مُهلك ،

فهو جرح سوف يستطيع من جاء لخلاصك أن يشفيك منه

لا بتدمير إبليس ، بل من خلال أعماله التى تتجلى

٢٩٥ فيك وفى ذريتك ، بل ولن يكون ذلك

إلا بتلبية ما سبق أن طلبته ، ألا وهو

طاعة شرع الله الذى فرضه وفرض

عقوبة الموت لمن يعصيه ، ولابد إذن من مكابدة الموت

فهو العقوبة الواجبة على عصيانك ،

٤٠٠ وعلى عصيان الذين سوف ينحدرون من صُلبك ،

فهو السبيل الأوحـد لإقامة العـدالة العـليا .

ولسوف يُطبَّق شرع الله الدقيق

بالطاعة والمحبة معاً ، وإن كانت المحبة

وحدها قادرة على إقامة شرع الله ، وأما عقوبتك

٤٠٥

فلسوف يكابدها بالمجئ بجسده

إلى حياة مَلام وموت ملعون

فيبشر بالحياة لكل من يؤمنون

بالخلاص الذى أتى به ، وبأن طاعته لله ستصبح طاعة

من جانبهم ، فتتسبب إليهم بقوة إيمانهم ، وبأن خصاله العالية

٤١٠

هى التى تنقذهم ، لا أعمالهم ، على اتفاقها مع الشرع .

ولهذا السبب سيحيا مكروهاً ، ويَتَّهَم بالتجديف فى الدين ،

ويُقْبَض عليه بالقوة ويُحاكـم ويحكم عليه بالموت

ويُرمى بالعار وباللعنة ، ولسوف يُسَمَّر فى الصليب

أبناء أُمَّته نفسها ، ويقتلونه لأنه أتى بالحياة .

٤١٥

ولكنه سوف يُسَمَّر فى الصليب أعداءك

والقانون المعادى لك ، وخطايا

جميع البشر ، فسوف تُصَلَّب جميعاً معه

ولن تؤذى بعدها أبداً كل من يؤمن بحق

بأنه قد قضى بذلك عقوبة الإنسان ، ومن ثم فهو يموت

٤٢٠

لكنه سرعان ما يُبعث ، فلن تكون للموت سلطة

تغتصبه فترة طويلة ، ولن ينبج ضوء الفجر الثالث

حتي يعود ، ولسوف تشهد نجوم الصبح قيامه

خارجاً من القبر ، في نضرة ضوء الفجر ،

وقد دفع فديتك التي يستعيد بها الإنسان من الموت ، وهي

٤٢٥

موته في سبيل الإنسان ، ويُصطفى الكثيرون للحياة

بإدراكهم ذلك ، ويظفرون بالنعيم

بالإيمان الذي يصدق العمل الصالح ، وهذا الفعل الإلهي

يلغى عقوبتك ، وهي الهلاك الذي كان ينبغي أن يصيبك

بسبب الخطيئة التي تعني الحرمان الأبدي من الحياة ، وهذا هو الفعل الذي

٤٣٠

سوف يسحق رأس إبليس ، ويسحق قوته ،

فيهزم الخطيئة والموت ، وهما أهم أسلحته ،

ويغرس حراهما في رأسه بأعمق كثيراً

من سحق الموت الزمنى لعقب المنتصر ،

أو من يفديهم بنفسه ، فيغدو موتاً مثل الرقاد

٤٣٥

وانتقالاً لطيفاً إلى حياة الخلود .

لكنه لن يبقى بعد بعثه

طويلاً على الأرض ، إلا ليظهر في أوقات معينة

لحواريه ، وهم الرجال الذين كانوا في حياته

يتبعونه دائماً ، وسوف يعهد إليهم بمهمة

٤٤٠

تعليم جميع الأمم كل ما تعلموه منه

ومن نجاته ، وهم الذين سوف يؤمنون

بالتعميد في النهر الدقاق ، آية

تطهيرهم من ذنب الخطيئة واستحقاقهم الحياة

الطاهرة ، ويتهاون ذهنياً ، إن قضت الأحوال بذلك ،

٤٤٥

للموت ، فيموتون موتاً يشبه ميتة من اقتداهم .

وسوف يُعلمون جميع الأمم ، فمنذ ذلك اليوم

لن يستأثر النسل المنحدر من صلب إبراهيم

بتلقى المعرفة بالخلاص ، بل يتلقاها أيضاً جميع الأبناء

المؤمنين بعقيدة إبراهيم أينما يكونوا في هذا العالم ،

٤٥٠

وهكذا تصبح جميع الأمم مباركة في ذريته .

وبعدها سوف يصعد إلى سماء السماوات

بالنصر ، مزهُواً بالظفر ، خلال الهواء ،

على أعدائه وأعدائك ، وهناك سوف يفاجئ

الثعبان ، أمير الهواء ، ويجرّه في الأصفاد مغلولاً

٤٥٥

فى شتى أرجاء مملكته ، فيلقى به تعساً شقياً هناك ،

ثم يدخل فى غامر المجد عائداً إلى

مقعده على يمين الله ، رفيعاً يسمو

على جميع الأسماء فى السماء ، ومن هناك سوف يأتى ،

عندما ينفرط عقد هذه الدنيا ويكتمل انحلالها ،

٤٦٠

بالمجد والسلطان ليحكم على الأحياء والأموات ،

وليحكم على من ماتوا على كفرهم ، ويكافئ

المؤمنين به ، ويتلقاهم فى النعيم ،

سواء فى السماء أو فى الأرض ، إذ إن الأرض

سوف تصبح كلها فردوساً ، مكاناً أهنأ كثيراً

٤٦٥

من فردوس عدن هذه ، وسوف تشهد أياماً أهنأ وأسعد

بذلك تكلم ميكائيل الملاك الأكبر ثم توقف ،

كأنما إجلالاً للعصر العظيم الذى ستشهده الدنيا ، وكان والدنا

قد أفعم فرحاً وعجباً فرد قائلاً :

يا للخير اللامتناهى ! يا للكرم السابغ الذى أدى إلى

٤٧٠

أن يخرج كل هذا الخير من أعطاف الشر ،

وأن يتحول الشر إلى خير ، بل إن روعته أكبر

من روعة الخلق الذى أتى أولاً

بالنور من جوف الظلام ، لقد غَدَوْتُ نَهَبًا لِلشَّكِّ والتردد ،

تُرى هل ينبغي أن أندم الآن على الخطيئة

٤٧٥

التي اقترفتها وتسببتُ فيها ، أم أبتهج

ويزداد فرحى لزيادة الخير الذى سوف ينبع منها ،

وزيادة المجد لله ، وزيادة الخير الذى سيتلقاه الناس

من الله ، وزيادة رحمته عن غضبه ؟

ولكن قل لى : إذا كان مُخَلَّصُنَا لابد أن يصعد إلى السماء

٤٨٠

ولا مناص من عودته إليها ، فماذا عساه يحدث للقلَّة

من المؤمنين به ، وقد تركهم وسط قطيع الكُفَّار من

أعداء الحق ، فمن ذا الذى سيهدى

شعبه ، ومن يدافع عنه ؟ أفلم يفعل الكُفَّار

بأتباعه أنكى وأمرًا مما فعلوه معه ؟

٤٨٥

وقال الملَّك : بل سيفعلون ذلك وثق فى قولى ، ولكنه

سوف يرسل من السماء المعزَّى إلى خُلَصَائِهِ ،

حسبما وعد الله ، وهو الذى سوف يُسَكِّنُ

روحَه فيهم ، ونأموس الإيمان ،

الذى يعمل بقوة الحب فيكتبُ ما يكتبُ على قلوبهم ،

٤٩٠

ليهديهم إلى الحق كله ، ويُحَصِّنَهُمْ أيضًا

بدروع روحية ، حتى يستطيعوا صدّ

اعتداءات إبليس ، وإطفاء نار سهامه الملتهبة ،

وكل ما يستطيع الإنسان أن يفعله لصدّها ، غير هيّاب ،

ولو كان ذلك حتى الموت ، والتصديّ لأمثال تلك القسوة ،

٤٩٥

واجدين من السلوى والتسرية الباطنة مكافأة وعِوضاً ،

وكثيراً ما يلقون المؤامرة الثابتة التي سوف تُدهش

أشد من يضطهدونهم كبراً وخيلاء ، إذ إن الروح

الذي يُلقيه أولاً على رُسله ، الذين يبعثهم

لهداية الأمم إلى الإيمان ، ثم يلقيه على جميع الذين

٥٠٠

عمّدوا ، سوف يهبهم عطايا رائعة تمكنهم

من الحديث بجميع اللغات ، والقيام بجميع المعجزات ،

على نحو ما فعله سيّدهم من قبل ، وهكذا يكتسبون أنصاراً

بأعداد كبيرة من كل أمة حتى تتلقى

بالفرحة الأنبياء القادمة من السماء ، وأخيراً وبعد

٥٠٥

أداء مهمتهم ، وإنهاء الشوط الذي قطعوه ركضاً ،

يتركون ما سجلوه كتابة من مذهبهم وقصتهم ،

ويموتون ، ولكن يحلّ محلّهم ، على نحو ما يُحذّرون منه ،

ذئابٌ تخلّفهم ترتدى مسوح المُعلّمين ، ذئابٌ شرسة فتاكة ،

- تعمد إلى جميع الأسرار المقدسة للسماء
 ٥١٠ فتستغلها في تحقيق مصالحها الخبيثة الخاصة ،
 في تحقيق الريح ومرامي الطموح ، وأما الحق
 فيلوثونه بالخرافات والتقاليد ،
 وإن ظل نقيًا في تلك السجلات المكتوبة فحسب ،
 ولا سبيل إلى فهمه إلا بالروح وحدها .
 ٥١٥ وسوف يسعون بعد ذلك إلى إضفاء أسماء رفعة على أنفسهم ،
 وحياسة العقارات واكتساب الألقاب ، ويضمّون إلى ذلك
 السلطة العلمانية ، ولو ظلوا يتظاهرون في أعمالهم
 بالروحانية ، فينسبون إلى أنفسهم ملكية
 روح الله ، وهي التي وعدَ بها ونزَّلَها
 ٥٢٠ على كل المؤمنين ، واستنادًا إلى ذلك التظاهر
 سوف يفرضون القوانين الروحية بالسلطة المادية
 على كل ضمير ، وهي القوانين التي لن يجدها أحد
 فيما انتهى إليهم من سجلات ، أو فيما سوف تنقشه الروح بالفطرة
 وتحفره في القلب ، فماذا عساهم يفعلون إذن
 ٥٢٥ سوى أن يفرضوا سلطانهم على روح العطف الإلهي نفسه ، ويحبسوا
 الحرية رفيقة تلك الروح ، وسوى أن يهدموا

٥٣٠

معابدها الحية ، التي بناها الإيمان فانتصب صرحها ،
إيمانهم لا إيمان غيرهم ، وهل يمكن أن نسمع في الأرض
عمّن هو مُتَرِّة عن الخطأ ، قياساً بالإيمان والضمير ، أو من هو
معصوم ؟ لكن الكثيرين سوف يزعمون العصمة ،

ومنها ينشأ اضطهادهم الغليظ

لكل من يثابر في العبادة ، عبادة

الروح والحق ، وأما سائر الناس ، بل أكثرهم ،

فسوف يعتبرون الطقوس الظاهرة والأشكال الجذابة الخادعة

٥٣٥

مناط الدين كله ، وسوف يتراجع الحق

مُصاباً بأسهم البُهتان ، وأما الأعمال التي تصدّق الإيمان

فسوف يندر وجودها ، وهكذا سوف يمضي العالم ،

خيئاً للأخيار حميداً للأشرار ،

وهو يئن تحت أثقاله نفسها حتى يحين اليوم الذي

٥٤٠

يتنفس فيه الأبرار الصعداء ،

وينصبُّ الانتقامُ على الخبثاء ، عند عودة

من وُعدتْ بعودته منذ هيئته ليعينك ،

ولد العذراء ، وهو الذي نُبِئتَ بمقدمه في نبوءة غامضة آنذاك ،

ثم عرفته الآن بوضوح مُخلصاً لك وسيّداً ،

٥٤٥

وآخر من يتجلى فى السحاب المرسله من السماء
فى بهاء الله ومجده ، ليدمر

إبليس مع عالمه الفاسق ، ثم ينشئ

من الكتلة الملتهبة ، وفى صورة مطهرة نقيه ،

سماءً جديدة ، وأرضاً جديدة ، وعصوراً لا نهاية لمواقيتها ،

٥٥٠

تقوم على أسس الصلاح والسلم والحب ،

وتؤتى ثمارها فرحاً ونعيمًا مقيمًا .

وانتهى ميكائيل من حديثه فرد عليه آدم آخر مرة قائلاً :

ما أسرع ما نجحت نبوءتك ، أيها النبىء المبارك ، فى

قياس عمر هذا العالم العابر فى سباق الزمن

٥٥٥

حتى يقف الزمن ويثبت ، فلا وراءه إلا العماء ،

والسرمد ، حيث لا تقدر عين على بلوغ متنها .

ولسوف أرحل من هنا وقد تلقيت علمًا عظيمًا ،

واطمأن فكرى اطمئنًا عظيمًا ، ونلت ملء ذهنى

من المعرفة ، بقدر ما يستطيع ذلك الوعاء أن يحمل ،

٥٦٠

وكانت حماقتى هى الطموح إلى طلب ما يتجاوزه

ولقد تعلمت ، منذ الآن ، أن أحسن الأشياء الطاعة ،

وأن أحب الله الواحد وأخشاه معًا ، وأن أمشى

كأنما أمشى فى حضرته ، وأن أرقب إلى الأبد

٥٦٥

عنايته الإلهية ، وأن أتوكل عليه وحده ، فهو
الرحيم بكل ما خلق وصور ، مدرّكاً أنه بالخير
دائماً ما يغلب الشر ، وأنه بصغرى الأسباب
ينجز أعظم الأمور ، وبما يُظن ضعفه من الأشياء
يقهر ذوى القوة الدنيوية ، ويقهر حكماء الدنيا
بذوى الطيبة البسطاء ، وبأن المعاناة من أجل الحق

٥٧٠

هى الجَلَدُ المؤدى إلى الانتصار الأرفع ،
وأن الموت للمؤمن بابُ الحياة ،
فلقد تعلمتُ ذلك من المثل الذى ضربه لى
من أقرُّ الآن بأنه سيفدينى وأنه مبارك إلى الأبد .
وأجابه الملكُ لآخر مرة أيضاً قائلاً :

٥٧٥

ما دمت قد تعلّمتَ ذلك فقد بلغت جِماعَ
الحكمة ؛ فلا تطمحْ فى طلب ما هو أرفع ، على أنك علّمتَ
أسماءَ جميع النجوم ، وجميع القوى الأثرية
وجميع أسرار المحيط ، وجميع بدائع الطبيعة ،
أو بدائع الله فى السماء ، أو الهواء أو الأرض أو البحر ،

٥٨٠

وتستمتع بجميع ثروات هذا العالم ،
ويبدك زمام الحكم كله ، فهى مملكة واحدة ، وما عليك إلا أن تضيف

أعمالاً تتناسب مع معرفتك ، وأن تضيف الإيمان ،

وتضيف الفضيلة ، والصبر ، والتعفف ، وأن تضيف الحب

وهو الذى سيطلق عليه اسم الإحسان فى المستقبل ، فهو رُوحٌ

سائر الخصال ، وعندها لن تكره

أن تترك هذه الفردوس ، بل ستملك

فردوساً فى باطنك ، أسعدَ كثيراً وأهناً .

فلنهبط الآن إذن من هذه القمة التى

نتطلع منها ، فلقد حان الموعد المضروب ،

ولابد من رحيلنا من هنا ، وانظر هؤلاء الحراس

الذين جعلتهم يرابطون على ذلك التل ، ويتنظرون

أوامر انتشارهم ، وفى مقدمتهم سيفٌ ملتهب ،

يُلَوِّحُ به ضارباً ، فهو إشارة الانطلاق .

لا يجوز لنا التلکؤُ ، فاذهب وأيقظ حواء ،

فلقد بعثتُ الطمأنينة فى نفسها أيضاً بأحلام لطيفة

تبشر بالخير ، وهياتُ مشاعرها وملكاتِها جميعاً

للتسليم الخاشع ، وعليك أنت فى الوقت المناسب

أن تُطلعَها على ما سمعته منى حتى تشاركك فيه ،

خصوصاً ما يخص إيمانها من معرفة ،

٦٠٠

ألا وهو الخلاص العظيم على يد أحد أبنائها في المستقبل
(إذ سيأتي به ولد عذراء) لجميع أبناء البشر ،

وحتى يعيش كلاكما - ولسوف تعيش أنت أياماً كثيرة -

وقد اجتمعتما على إيمان واحد ، برغم الأحزان

الناشئة عن سابق الآثام ، لكن بفرحٍ وابتهاج أكبر

٦٠٥

عند تأمل النهاية السعيدة .

وانتهى ميكائيل من حديثه ، فأخذ يهبطان التل ،

وعند السطح أُهرَعَّ آدمُ إلى الخميصة التي كانت حواء

ترقد نائمة فيها ، قبل ميكائيل ، فألفاها قد استيقظت ،

فاستقبلته بكلمات خلّت من الأحزان قائلة :

٦١٠

أعرف من أين رجعت وأين ذهبت ،

فلقد كان الله معي في منامي ، وأرشدتني أحلامي

إلى الذي أرسل إلينا بالبُشرى ، وبالحير العظيم

الذي تنبأ به ، منذ أن ران علىَّ الهمُّ وغمَّ القلب

فأنهكني فنمت ، ولكن هيا بنا ، تقدم فأتبعك ،

٦١٥

لن أتباطأ عنك ، فالذهاب معك

هو البقاء هنا ، وتصوّرُ البقاء هنا دونك

يحفزني على الرحيل وإن كرهته ، فأنت لى

جميع الأشياء تحت قبة السماء ، وجميع الأماكن أنت ،
أنت الذى نُفِيتَ من هنا بسبب جريمتى المتعمدة .

٦٢٠

وإليك عزاء آخر لا ريب فيه

أحمله معى من هنا ، وهو أننى ، وإن كنت السبب فى فقدان كل شىء ،
قد أنعم علىّ بفضل لا أستحقه ،

إذ سأضع الولد الموعود الذى سوف يعيد لنا كل شىء .

بهذا تكلمت أمنا حواء ، وسمعتها آدم فسرَّ

٦٢٥

سروراً عظيماً لكنه لم يُجبها ، إذ كان الملكُ الأكبر

يقف على مسافةٍ جدِّ قصيرةٍ منهما ، وكان ملائكة الشاروبيم

يهبطون من التل الآخر لاحتلال مواقعهم الثابتة

فى صفوف وضاعة ، تومض على الأرض

وهم يزحفون كالشهب البراقة ، مثلما يزحف ضباب المساء

٦٣٠

المتصاعد من صفحة النهر على وجه المستنقع ،

ويسرع بخطى لاهثة فى أعقاب العامل

العائد إلى منزله . وكان يتقدمهم عالياً

سيف الله المسلول ، ملتهباً يبرق

بريقاً ساطعاً كالمُذْتَبِّ فى السماء ، ويشع حرارة كالسحير

٦٣٥

وأبخرة حارقة مثل هواء صحراء ليبيا ،

وبدا يشيع اللظى فى ذلك الجو المعتدل ، وعندها
 أسرع الملكُ بوضع يديه فى يَدَيَّ كل من
 والدينا المتباطئين ، وساقهما إلى الباب الشرقى
 مباشرة ، وبالسَّرعَة نفسها هبط الجميع من الصخرة الشاهقة
 إلى السهل المقصود عند السفح ، ثم اختفى الملك .
 والتفتا إلى الخلف فشاهدا الجانب الشرقى كله
 من الفردوس ، التى كانت منذ هُنيهة مقام هنائهما ،
 والسيف الملهب يُلَوِّحُ به فوق الباب ،
 حيث تجمعت وجوه تلقى الرعب فى القلب وأسلحة نارية .
 وذرفا بعض العبرات - عبرات الطبيعة البشرية - ثم جففاها على الفور ، ٦٤٥
 كانت الدنيا تمتدُّ كُلُّها أمامهما ، تدعوهما لاختيار
 مقر راحتهما ، تهديهما العناية الإلهية .
 وهكذا ، بأيدٍ متشابكة ، وخطوات حائرة بطيئة ،
 سارا وحيدين فى أرض عدن .

نهاية الكتاب الثاني عشر

والملحمة

حواشي الكتاب الأول

- ٣ - (المذاق المهلك) عبارة تتضمن تورية إذ يريد ميلتون أن يقول إنه أيضاً (مذاق الهلاك) أى المذاق الذى يأتى بالفناء أو الهلاك (تكوين ٢ / ١٧) .
- ٥ - الحقيقة أن عدن لم تضع وإنما ضاعت الفردوس فحسب وهى عند ميلتون جزء من عدن - ولكنه يستخدم عدنا هنا للدلالة على الفردوس والمقصود بالرجل الأعظم المسيح عليه السلام (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٢/٢١ والرسالة إلى أهل رومية ١٩/٥) .
- ٦ - هى (أورانيا) - ولكنها ليست الآلهة الأسطورية فحسب بل روح القدس أيضاً . وقد كان هذا الخلط شائعاً عند ميلتون .
- ٨ - يحتتمل أن يكون (حوريب) وطور سينين اسمين مترادفين لنفس الجبل ويحتتمل أن يكونا اسمين لذروتين من ذراه المتعددة .
- (واسم الجبل فى التوراة سيناء - خروج ١١/١٩ - ولكنه يشار إليه أيضاً باسم (حوريب) (تثنية ١٠/٤) . والمقصود بالراعى موسى عليه السلام . إذ كان راعياً فى الحقيقة وكان راعياً بالمعنى المجازى لبني إسرائيل . انظر الخروج ١/٣ للمعنى الأول والمزمور ٧٧/٢٠ للمعنى الثانى حيث ترد عبارة « هديت شعبك كالغنم بين موسى وهرون » .
- ٨ - أى علم بني إسرائيل - (تكوين ١) .
- ١٠ - هذه فكرة أسطورية قديمة طوعها ميلتون لتساير التراث الدينى . إذ تقول الأساطير اليونانية إن العماء هو المادة الأولية (الهيوثة) التى لا شكل لها ولا صورة ، والتى خلق منها العالم . وجبل صهيون وجبل (المريا) هما الجبلان اللذان بنيت عليهما بيت المقدس . كان المعبد على جبل المريا . أما صهيون فكان اسمه «مدينة داود» (انظر تكوين ٢٢/٢ ، صموئيل الثانى ٢٤ - ١٨ أخبار الأيام الثانى ١/٣) .
- ١١ - كان سلوام غديرا رقراقا تدفقت مياهه بعد ذلك وسالت ، وغدت جدولا يروى (حديقة الملك) (أنجيل يوحنا ٧/٩ إلى ١١) كما ورد ذكره باعتباره مكاناً عاماً فى أنجيل لوقا ١٣/٤) .
- ١٢ - أى المعبد المقام فى بيت المقدس (اورشليم) (انظر ملوك أول ١٩/٤ و ٢٠) وهو المكان الذى تنزل فيه الوحي على المسيح عليه السلام . ولما كان المسيح قد أثبت معجزة ارتداد البصر إلى الأعمى هناك حين جعله يغتسل من ماء الغدير (سلوام) فربما كان ميلتون يرمى إلى التمثيل بهذه المعجزة لأنه كان قد فقد بصره هو الآخر . وربما كان ميلتون يريد أن يعقد مقارنة أخرى بين الغدير القريب من المعبد وبين النبع الذى يجاور مذبح (زيوس) على جبل (هليكون) وهو النبع الذى كانت ترتاده ربات الفنون والآداب .
- ١٥ - جبل (هليكون) الذى كانت ترتاده ربات الشعر . ويقصد ميلتون أنه سيعلو عليه لأنه سيعالج موضوعات أسمى من موضوعات الشعر الوثنى .

- ١٦ - هذا التباين بالتجديد معهود فى القصائد الملحمية .
- ١٨ - انظر المزمور ١/١٥ و ٢ والرسالة الاولى إلى أهل كورنثوس ١٦/٣ .
- ٢٢ - انظر أنجيل متى ١٦/٣ ، وأنجيل مرقس ١٠/١ ، وأنجيل لوقا ٢٢/٣ ، وأنجيل يوحنا ٢/٣ . وهذه إشارة إلى الفكرة الشائعة التى تقول إن الحياة (والإنسان) قد خلقا من الموت والظلام .
- ٣٤ - أى إبليس الذى تمثل بالشيطان .
- ٣٥ - أى حسده الإنسان لما أسبغه الله عليه من مكانة عالية .
- ٤٥ - يمزج ميلتون هنا بين الإشارات إلى ما ورد فى الأنجيل (لوقا ١٨/١١) وإلى ما ورد فى إلياذة هوميروس (الكتاب الاول / ٥٩١) .
- ٤٩ - هذا البيت هو نهاية المقدمة والبيت التالى هو بداية أحداث الكتاب الاول .
- ٥٠ - الفقرة من البيت ٥٠ إلى البيت ٨٣ تمثل ما يسمى فى البلاغة القديمة بالعرض أو البسط أى وصف المشهد الذى تقع فيه الأحداث .
- ٧٤ - مركز الأرض يعنى الأرض نفسها ، أما القطب الأقصى فهو ليس قطب الأرض بل قطب الكون . إذ كان المعتقد أن الأرض مركز لعدد من الأفلاك يشير أحد أقطابها إلى السماء الأثيرية ويشير القطب الآخر إلى الدرك الأسفل من الجحيم . أما تحديد المسافة فيعتمد فيه ميلتون على (هيزيود) (وهوميروس) .
- ٨١ - (بعلزبول) فى العبرية أو بعلزوبوب تحريف لكلمتى بعل ذباب أى - بعل الذباب أى سيدها - وهو يسمى فى الأنجيل أمير الشياطين (انظر أنجيل متى ٢٤/١٢) .
- ٨٤ - حديث إبليس هنا مختلط لآلمه وغضبه - وهو فى الآيات الأربعين التالية يفصح عن هذا عن طريق العبارات الممزقة غير المكتملة . هذه العبارة صدى للآية الواردة فى إشعياء ١٢/١٤ .
- ٩٢ - أى الله - سبحانه وتعالى . لاحظ أن إبليس يتحاشى ذكر لفظ الجلالة مباشرة .
- ٩٧ - يذهب بعض الشراح إلى أن الآيات من ٩٥ - ٩٧ مأخوذة من رد بروميشيوس على زيوس فى مسرحية بروميشيوس مغلولاً (الآيات ٩٩٢ - ٩٩٧) ولكن ميلتون رغم معرفته بتلك المسرحية لم يكن يرمى إلى محاكاة ايسخولوس الكاتب المسرحى اليونانى القديم بل كان يحاول إضفاء صفات ملحمية على شخصية إبليس .
- ١٠٥ - دارت المعركة ثلاثة أيام انتهت بهزيمة الملائكة العاقين ولكنهم لم ينهزموا هزيمة ساحقة كما يتضح من هذه الفقرات إذ لم يكن الخالق يريد لهم الفناء بل كان يريد إخراجهم من الجنة فحسب كما يقول ميلتون نفسه فى الكتاب السادس (البيت ٨٥٤) . أما استخدام كلمة «سجال» وتعبير زلزلت عرشه فهو من قبيل المبالغة .
- ١١٦ - المقصود بالآلهة الكائنات الروحية أو الملائكة .
- ١١٧ - المعنى الحرفى هو الكيان النارى لأن الشياطين تنتمى إلى طبقة من طبقات السماء تغشاها النار وبينما يتفاخر إبليس بأن الأقدار قد قضت للملائكة بالخلود لا يرى بعلزبول فى هذا الخلود ما يبعث على الأمل .

- ١٢٨ - أى من كانوا متوجين قبل الهزيمة ولكن المقصود هو الإيحاء بالرفعة والعظمة والمتوجون ، طبقة من طبقات الملائكة ، كذلك كلمة الصناديد التى أوردها هنا ترجمة لكلمة Powers انظر الكتاب الثانى البيت (١١) حيث ترد الإشارة إلى الصناديد (وانظر الحاشية) والبيت (٣١٠) حيث يقرن المتوجون بالصناديد.
- ١٢٩ - (الصاروفيم) هو صيغة الجمع بالعبرية (فالياء والميم تقابل الواو والنون بالعربية) والكلمة إذن جمع وتشير إلى أرفع درجات الملائكة .
- ١٣٢ - يشير (اميسون) إلى أن هذين البيتين يتضمنان مفارقة ، إذ إن (بعلزبول) يكرر المبالغة التى وقع فيها إبليس أولاً ثم يضيف أن رفعة البارئ تعرضت لامتحان أثبت حقيقتها .
- ١٣٨ - أى الأرواح - وهذه مفارقة إذ يعنى (بعلزبول) أنه لم يفن منها شيء - كما يتضح من البيت التالى .
- ١٤٠ - ميلتون يستخدم الفعل فى حالة المفرد لأنه يرى أن الذهن والروح شيء واحد .
- ١٥٢ - المحيط البهيم هو العماء كما يتضح من الكتاب الثانى .
- ١٥٥ - يفرق ميلتون بين صفة الأزلية والدوام التى يختص بها البارئ جل وعلا وبين صفة السرمدية التى يهبها الله للخلق - وهناك قطعاً تفرقة بين اللفظين Aeternus و Perpetuus فى اللاتينية . ولذلك فضلنا صفة السرمدية هنا . (انظر سورة القصص - الآيتين ٧١ - ٧٢) .
- ١٥٨ - يقصد بالعمل أداء ما يأمرهم به الله ، أما المعاناة فهى احتمال العذاب . وثم مقابلة بين إيجابية العمل وسلبية المعاناة .
- ١٧١ - يقصد بالرسل الملائكة الأخيار . وقد ذهب بعض الشراح إلى تفسير قول إبليس هذا بأنه يرفض الاعتراف بأن البارئ هو الذى أوقع به الهزيمة وينسب ما حل به إلى فرق الملائكة الأبرار . ويقول (اميسون) إن هؤلاء الشياطين كانوا فى حال من يفوق من المخدر ولا يذكرون الأحداث التى وقعت ما بين الموقعة وإطلاقهم من الأصفاد.
- ١٩٨ - ١٩٩ (التيتان) فى الأساطير القديمة سلالة من نسل (أورانوس) أى السماء و(جى) أى الأرض ، وقد ثاروا على حكم أبيهم (أورانوس) ونصبوا واحداً منهم هو (ساتورن) ملكاً على الآلهة . وأما (جوبيتر) فهو (زيوس) رب آرباب اليونان القديمة ، وأبناء الأرض هم العمالق الذين تمردوا عليه (مثلما تمردت سلالة التيتان على أورانوس) ولكنهم هزموا . وأما (برياروس) فهو اسم لكائن ضخم من نسل السماء والأرض ، (مثل التيتان) والعمالق ولكنه ليس منهم وكان فى رأى البعض عملاقاً له مائة ذراع وقد ذهب معظم النقاد إلى أنه كان قريب الصلة (بالتيتان) غير أن أرجله على شكل أفعوان . ويذهب جمهور الشراح إلى أن (تايفون) أو (تايغوس) كان من العمالق وكانت له مائة رأس على شكل الأفاعى وأنه يختلف فى ذلك عن (برياروس) وأنه يقترب فى هيئته من (التيتان) ولكن الأساطير كثيراً ما تخلط بين السلالتين ويذكر أوفيد فى كتابه مسخ الكائنات أن أهل الأوليمب لم تكن لهم حيلة أمام (التايغون) إلا أن يمسخوا صورهم حتى يفلتوا من غضبته إن هو قاتلهم .
- ٢٠٠ - (طرسوس) هى عاصمة (سليسيا) القديمة (فى آسيا الصغرى) والمقصود هنا هو (سليسيا) وليس (طرسوس) بالذات .
- ٢٠١ - (ليفياثان) هو الوحش الأسطورى المذكور فى سفر أيوب وفى النشيد رقم ١٠٤ وأحياناً ما يوصف بالتنين أو الأفعوان كما يوصف أحياناً بأنه له جسد حوت ضخم (رغم أن الحوت لا تغطى جسده

القشور كما يذكر ميلتون هنا) . وقصة الملاحين والحوث ذائعة وقد وردت في قصة السندباد البحري مثلاً وفي رحلات القديس (برندان) . وربما اطلع عليها ميلتون في كتاب المؤرخ السويدي (أزلاص ماجنوس) التي ترجمت إلى الإنجليزية في ١٦٥٨ - وهذا يفسر إشارته إلى بحر الترويج .
٢٣٢ - جبل (بلوروس) يقع في الشمال الشرقي من جزيرة صقلية على مقربة من جبل «إثنا» ويسمى الآن رأس فارو .

٢٣٧ - تعتمد هذه الصورة على النظرية القديمة التي كانت تقول بأن البراكين تنور عندما تهب الرياح في باطن الأرض وتزيد من سرعتها المعادن الملتهبة مثل الكبريت المتبخر بحيث تنفجر وتخلق القاع خاوياً . والشاعر يشبه أرض الجحيم بأرض البركان بعد أن يفرغ ما في أحشائه من معادن وأبخرة وبخاصة لونها المكفهر القاتم .

٢٣٧ - في الأصل يصف ميلتون هذه البحيرة بأنها Stygian نسبة إلى نهر Styx أحد أنهار الجحيم أو العالم السفلي في الأساطير اليونانية ، ولكن الإشارة واضحة إلى بحيرة اللهب التي سبق ذكرها في البيت ٢١٠ وسبقت الإشارة إليها في البيت ٥٢ أيضاً . ويقول (تليارد) إن الصفة أصبحت تشير بوجه عام إلى الجحيم أو العالم السفلي بل إن ميلتون يستخدمها في الكتاب الثاني بهذا المعنى (انظر البيت ٥٠٦) .

٢٤١ - أضفت عبارة « في ظنهما » إلى هذه الجملة لإيضاح مرمى ميلتون .
٢٥٥ - هذه من الأفكار الرواقية الشائعة وقد أشار إليها (هوراس) في الرسالة الأولى (الباب الحادي عشر - ٢٧) ولكن النظرية التي شاعت في القرن السابع عشر واقرنت بالإلحاد هي أن الجنة والجحيم حالتان من حالات النفس أو الذهن يمكن ردها إلى (أموري دى بيني) أحد زنادقة العصور الوسطى ولذلك فهي تختلف عن الأفكار المشابهة التي وردت في شيكسبير (هاملت - ف ٢ - م ٢ - ٢٥٠) وفي مارلو (فاوست - ف ٢ - م ١ - ١٢٢ و ١٢٤) وعلى أي حال فشم مفارقة كبرى في هذين البيتين إذ إن إبليس يعجز عن إثبات دعواه أولاً حين يبدى دهشته للتغير الذي طرأ على بعلزبول وثانياً حين يقر في الكتاب الرابع أنه أنى ولي وجهه فشم جحيم وأنه يحمل الجحيم في ذاته .

٢٨٨ - هو (جاليليو) الذي أدخل تحسينات كبيرة على المنظار المقرب واستطاع من ثم استخدامه في دراسة الفلك إذ اكتشف بالفعل حلقات (زحل) وأقمار (المشتري) . وأما كلمة الفنان فتعني العالم وقد كان ميلتون معجباً بعلم (جاليليو) وهو يذكر أنه زاره ويقال إن ذلك قد حدث في عام ١٦٣٨ وكان جاليليو آنذاك قد حددت إقامته في منزله في فلورنسا وهي (فالدارنو) أو وادي (الآرنو) - وكان منزله يشرف على تلال (فيزولي) . أما تشبيه الدرع بالقمر فقد ورد في الإلياذة رغم أن الصورة التي رسمها هوميروس (انظر القسم ١٤ - البيت ٣٧٣) تركز على البريق لا على الحجم . كما أن (سبنسر) قد شبه الدرع بالقمر في ملكة الجان - ويذكر بعض الشراح أن التشبيه بالقمر يقرب إلى الأذهان العالم الأرضي الذي ستقع فيه حوادث الملحمة فيما بعد .

٣٠٣ - تعني حرفياً « وادي الظلال » وهو بقعة رائعة الجمال بالقرب من فلورنسا من المحتمل أن ميلتون قد زارها في خريف ١٦٣٨ . وأما «أثروريا» فهو اسم آخر لمنطقة (توسكانا) - لاحظ أن ميلتون يستخدم الظلال هنا كناية عن أوراق الأشجار الوارفة . أما أوراق الأشجار الذابلة نفسها فهي

الاستعارة المألوفة للتعبير عن الأعداد التى لا تحصى من الموتى (انظر الإلياذة (١٤٦/٤) والإنيادة (٣٠٩/٦) وجحيم دانتي (١١٤/٣ - ١١٥) .

٣٠٥ - كوكبة (الجبار) من أبرز ما يرى فى السماء صيفًا وشتاءً وهو مجموعة من النجوم تخيلها الأقدمون فى صورة صياد عملاق يحمل على كتفه الأيسر جلد الأسد ويده اليمنى قوسه ونشابه فى وسطه حزام من ثلاثة نجوم براقه وعند قدميه كلبان أحدهما هو المشهور بالشعرى اليمانية Sirius عند العرب أو ما يطلق عليه كلب الجبار وحسب Canis majoris وقد ارتبط ظهور هذه الكوكبة أول الأمر ببداية موسم الرياح والأعاصير ، وهكذا أشار (فيرجيل) فى الإنيادة (٥٣٥/١) إلى هذه الأسطورة وأشار غيره من الكتاب إليها أيضًا (بلينى وريشولى) ولكن المهم هو ارتباط الصورة بما ورد فى سفر أيوب عن قدرة الخالق على إرسال الرياح لمعاقبة المخطئين وهى القدرة التى يرمز لها خلق (أوريون) نفسه (أيوب ٩/٩) .

٣٠٨ - أرض (جاسان) (جوشن بالعبرية) هى منطقة بالقرب من محافظة الشرقية الآن فى مصر اشتهرت فى الزمن القديم بخيراتها الوفيرة .

٣١٦ - هناك إحياء فى النص الانجليزى بأن زهور الجنة تعنى الملائكة أيضًا ، ولكن بناء الجملة العبرية لا يبيح إبراز المعنيين معا .

٣٢٤ - (الشاروبيم) جمع - وهى كلمة تحتفظ بإعراب الجمع فى العبرية شأنها شأن الصاروفيم ويستخدم مترجمو العهد القديم حرف الكاف بدلًا من الشين ، ولقد أثرت أنا - بناء على اقتراح للدكتور لويس عوض - أن استخدم الصورة الشائعة فى مصر لهذا الاسم . وقد استخدم ميلتون مفرد هذه الكلمة كما استحدث مفردًا لكلمة الصاروفيم (انظر فاولر ص ٤٨١) .

٣٢٩ - وهى الأسلحة التى استخدمها (جويتر ومنيرفا) ضد المتمردين من العماليق .

٣٤١ - تشبيه الشياطين بالجراد يعتمد على الصورة الواردة فى الكتاب المقدس والتى شاعت فى القرن السابع عشر . وقد أبرز أحد النحاتين فى عام ١٦١٧ هذه الصورة أيضًا عندما صور محاولة إغراء القديس أنطونيو (انظر كتاب الفن والوهم تأليف ا.هـ. جمبريتش - ١٩٦٢) .

٣٥١ - هم (القوط) و (الهون) و (الواندال) الذين اكتسحوا جنوب أوروبا ونهبوا ثروات روما وأثينا فى القرن الخامس الميلادى . وربما كان ميلتون يخص (الواندال) بالذكر لأنهم هم الذين عبروا مضيق جبل طارق واستقروا فى شمال إفريقيا .

٣٥٣ - يخص نهري (الراين) (والدانوب) لأن هذين النهرين كانا يشكلان حدود الامبراطورية الرومانية القديمة .

٣٥٥ - بهذا يكون ميلتون قد شبه الملائكة الفسقة أولا بعالم النباتات (أوراق الشجر) ثم عالم الحيوان (الجراد) ثم عالم البشر (غزاة الشمال) مما يوضح فكرة السلم أو الدرجات التى خصصها لكائنات هذا الكون وحيث تعكس الاستعارات حالات الذهن التى يمر بها الشياطين .

٣٦١ - يعود ميلتون إلى الفكرة نفسها فى الكتاب السادس حيث يقول (٣٧٨ - ٣٨٠) إن الأقدار قضت بإقصاء أسمائهم من السماء ومن الذاكرة القدسية وأنهم لابد أن يقطنوا غياهب التسيان .

- ٣٦٣ - « لوح الحياة » تعبير شائع ورد فى الكتاب المقدس - (انظر رؤيا يوحنا اللاهوتى - الاصحاح الثالث - ٥ -) انظر أيضاً سفر الخروج (٣٢) والمزمور ٧٩ (٢٨) ولكن صيغة الجمع الواردة هنا غير مألوفة ويعتقد أنها خطأ إملائي .
- ٣٦٥ - كانت الفكرة الشائعة فى العصور الوسطى وما بعدها أن آلهة الوثنية هم الملائكة الفسقة والشياطين الذين ذكرهم الكتاب المقدس وهكذا فإنهم منذ الآن لا بد أن يكتسبوا أسماء هذه الآلهة الوثنية إذ نزع عنهم اسماءهم القديمة .
- ٣٧٦ - ٥٢١ - يقدم ميلتون هنا قائمة طويلة بأسماء آلهة الوثنية ولا شك أنه يحاكي فى ذلك قائمة السفن وقوادها الواردة فى الإلياذة (الكتاب الثانى - البيت ٤٨٤ وما بعده) والقائمة التى يوردها فيرجيل فى الإنياد (الكتاب السابع - البيت ٦٤١ وما بعده) والتى يعدد فيها أسماء الأبطال الذين حاربوا إنياس . وهو يبدأ مثل هوميروس وفيرجيل باستلهم ربة الشعر . وهو يقسم الشياطين الذين تحولوا إلى آلهة وثنية إلى فئات بحسب المناطق التى عبدوا فيها - وهذه هى (١) الأراضى المقدسة (٣٨١ - ٤١٨) ، (٢) سورية وفينيقيا (٤١٩ - ٤٧٦) ، (٣) مصر (٤٧٦ - ٤٨٩) ، (٤) بليعال - دون تخصيص مقدسات بعينها (٤٩٠ - ٥٠٥) ، وأخيراً (٥) اليونان وروما (٥٠٧ - ٥٢١) .
- ٣٨٦ - هو أحد ألفاظ الجلالة الواردة فى التوراة . والمقصود معبد صهيون ومعنى العبارة التالية أن صور الملائكة تحف بقدس أقدس هذا المعبد .
- ٣٩٢ - يجمع إبليس حوله اثنى عشر شيطاناً وهم (ملكوم) (وبعليم) (وعشتورث) (وتموز) (وداجون) (واوزوريس) (وايزيس) (وحورس) (ويليغال) (وتيتان) (وساتورنوس) (وجويتير) وربما كان اختيار ميلتون لهذا العدد يعود إلى مذهب التنجيم القلكى (المائلى) الذى يقوم على افتراض أوصياء أولمبيين يبلغون اثنى عشر وصياً أو إلى محاولة إقحام الرسل الإثنى عشر فى نظام البروج الشمسية . واسم (ملكوم) معناه بالعبرية «الملك» .
- ٣٩٦ - يصف (جورج ساندز) صنم (ملكوم) قائلاً إنه أجوف وبداخله موقد ملتهب ويقول إن كهته كانوا يضربون الدفوف وينفخون الأبواق حتى لا تصل صرخات الأطفال من الضحايا إلى آذان آبائهم . (انظر عاموس ٥ - ٢٦) .
- ٣٩٧ - صموئيل ثانى ١١ - ١ .
- ٣٩٨ - ملوك أول ٤٣ - ١٣ .
- ٤٠٣ - تقول التوراة : عندما تقدم سليمان الحكيم فى السن استطاعت زوجاته الكافرات التأثير عليه فبنى معبداً عالياً لكل من (كموش) و (ملكوم) (ملوك أول ١١ / ٤ إلى ٨) وذلك على قمم تل الزيتون الذى تحول اسمه من ثم إلى تل النساء (ملوك ثانى ٢٣ / ١٣) أو تل العار - أو كما يصفه ميلتون بالدنس ويذكر (أرمياء) بستان (ملكوم) وغيره من آلهة الوثنية .
- ٤٠٥ - كان وادى بنى (هنوم) (ملوك ثانى ٢٣ / ١٠) بستاناً ملكياً ترويه مياه جداول يتدفق من (سلوام) ولكنه بعد أن شهد الضحايا الذين أحرقوا فى صنم (ملكوم) لم يعد يحظى بأى احترام وأصبح الناس يخافونه ويرتعدون من ذكره . بل إن اسمه باليونانية (جهنه) أصبح يعنى جهنم أى الجحيم ، كما أن

اسمه الآخر (توفه) يعنى الذف بالعبرية وهو يشير إلى الموسيقى المصاحبة لطقوس التضحية أمام صنم ملكوم . وقد وضع (يوشيا) حدا لكل هذه الطقوس والضحايا ، كما دمر المعبد وأزال البستان وأعلن أن المكان قد حلت عليه اللعنة وغدت تلقى فيه القمامة (ملوك ثاني ٢٣ / ١٠ إلى ١٤) .

٤٠٦ - يعتبر (كموش) الإله الوثني المقابل (لملكوم) عند أهل مؤاب الذين يقطنون المنطقة التي حددها موسى عليه السلام ميراثا لقبيلتي رؤيين وجاد . وجميع الأسماء الواردة هنا مذكورة في الكتاب المقدس (عدد ٣٢) وتقع جميعها شرق نهر الأردن والبحر الميت . وثم خلاف حول مكانها بل وما ترمز إليه . فمثلا يقال إن (عروعر) تقع في أقصى شمال المنطقة وأن (نبو) بلدة في الجنوب بالقرب من جبال (عباريم) .

والتوراة تذكر أن بني إسرائيل قد فتحوا مدينة (حشبون) وهي مدينة مؤابية كان ملك سيحون قد احتلها (عدد ٢١ / ٢٥ إلى ٣٠) كما تتضمن النبوة الحزينة بدمار مؤاب ذكر (حشبون) و (حوروناييم) ونبيذ (سبمة) و (العالة) (إشعياء ١٥ - ٢٦) .

٤٠٩ - سيحون هو ملك العموريين الذين كانوا قد احتلوا تلك المنطقة .

٤١٠ - سبمة - ذكرت عرائش الكروم في إشعياء ١٤ - ٨ إلى ١٠ وفي إرميا ٤٨ - ٣٢ .

٤١١ - يقال إن (العالة) بلد بالقرب من (حشبون) . وميلتون يصف البحر الميت في النص بأنه «بركة الأسفلت» وهذا هو الاسم القديم لأنه كان يتميز بيقع من الزيت الأسود تطفو فوق سطحه .

٤١٢ - (فغور) أو (بعل فغور) أحد الآلهة الوثنية التي أغوت النساء المؤابيات بني إسرائيل بعبادتها في (شطيم) (عدد ٢٥ / ١ - ٣) أما كلمة (بعل) وجمعها بالعبرية (بعليم) فتشير إلى كبير آلهة الكنعانيين ، وقد كانت له أسماء كثيرة تختلف من مكان إلى مكان - و (بعل فغور) كان يعبد - كما هو واضح - في (فغور) .

٤١٣ - (شطيم) تقع على الشاطئ الشرقي لنهر الأردن في مواجهة (أريحا) على الشاطئ الغربي .

٤١٤ - تذكر التوراة أن عدد من ماتوا عقابا على عبادة (بعل فغور) بلغ أربعاً وعشرين ألفاً - وذلك بالطاعون الذي أرسله الله عليهم (عدد ٢٥ / ٩) .

٤١٨ - انظر الكتاب المقدس (ملوك ثاني ٢٣ - ١ - إلى ٢٥) (أخبار الأيام الثاني ٣٤ / ١ إلى ٧) حيث الوصف الكامل لتحطيم الأصنام الوثنية ومعابدها وكهنتها على يدي (يوشيا) .

٤٢٠ - يوصف الفرات بأنه عريق لأنه مذكور في سفر التكوين ١٤ / ٢ باعتباره أحد الأنهار الأربعة التي تتدفق من جنة عدن .

٤٢١ - المقصود هو نهر (البسور) (صموئيل الأول ١٠ / ٣٠) وهو المذكور في سفر التكوين باسم نهر مصر (تكوين ١٥ - ١٨) ويقول (تليارد) إنه في الحقيقة نهر أو غدير تجف مياهه في الصيف .

٤٢٢ - انظر ملوك أول ١٨ / ١٨ . و (٣٣ / ١١) - وعشورث في الحقيقة مفرد وجمعها عشاروث وهي التي يستخدمها ميلتون مع البعليم (التي هي جمع) .

٤٣٥ - مثل العجل الذهبي (الخروج ١ / ٣٢ إلى ٨) والآلهة المصرية التي اتخذت صور الحيوان .

٤٣٨ - كانت عشورث أو إلهة القمر تنسب إلى (صيدا) في فينيقيا القديمة - وكان لها تمثال له جسم امرأة وفوق رأسها رأس ثور وقرنان يشبهان الهلال .

- ٤٤٤ - كان سليمان يتمتع - إلى حكمته - برحابة القلب (ملوك أول ٢٩/٤) .
- ٤٤٦ - كان (تموز) ابناً لأحد ملوك سورية وقد وقعت (عشتورث) في غرامه . وبينما هو بصطاد ذات يوم إذ قتله خنزير برى وهنا أقنعت عشتورث آلهة العالم السفلى أن يسمحوا له بقضاء نصف العام على الأرض معها والنصف الآخر في العالم السفلى . وكانت نساء (فينيقيا) يعقدن مأتماً ينعينه فيه مرة في العام - وقد امتدت هذه العادة إلى العديد من البلدان . وقد رأى (حزقيال) (٨ / ١٤) نساء إسرائيل وهن يبكين تموز على باب المعبد .
- وأخذ اليونان هذه القصة مستبدلين (أدونيس) (وأفروديت) (بتموز) (وعشتورث) وربما كان هذا الاحتفال الذي يتم بعد الانقلاب الصيفي (أي بعد رحيل فصل الثمر والحصاد) مرثية للعام المنصرم وهكذا فإن لون المياه في نه (أدونيس) (انظر الحاشية التالية) الذي يتغير في موسم الفيضان بسبب الغرين والطمي الأحمر الذي يأتي به من جبال لبنان، أصبح رمزاً لتجدد الجرح الدامي لذلك الإله الوثني .
- ٤٥٠ - ربما كان هذا النهر هو نهر ليطاني الحالي في لبنان .
- ٤٥٥ - رغم أن (حزقيال) كان حبيباً وبعيداً عما يجري فقد استطاع أن يهتدى في رؤياه إلى ما كان بنو إسرائيل يفعلونه .
- ٤٥٦ - ورد تعبير «في الظلام» في الكتاب المقدس بمعنى الاعتقاد بأن الله لا يرى شيوخ بنو إسرائيل انظر (حزقيال ٨ / ١٢) .
- ٤٦١ - انظر (صموئيل الأول ١/٥ - ٤) - الكتاب المقدس يشير إلى «تابوت الرب» الذي أحدث ذلك (لداجون) ولكن الكلمة الانجليزية صريحة الدلالة . أما (داجون) فهو كبير أرباب الفلسطينيين وكان يعتبر إلهاً من الأسماك لأن سائر جسمه - فيما عدا الرأس واليدين - مثل السمكة انظر الفقرة المشار إليها في الكتاب المقدس (وانظر أيضاً قضاة ١٦ - ٢٣) .
- ٤٦٦ - كانت (أشدود) (وجت) (وعسقلان) (وعكا) (وغزة) هي المدن الرئيسية في فلسطين (انظر ملوك أول ٢ - ٢٩) ونبوءة تدمير هذه المدن واردة في (صفنيا ٢/٤) .
- ٤٦٧ - رمون هو أحد الآلهة السورية (انظر ملوك ثاني ١٨/٥) .
- ٤٦٩ - نهران من أنهار دمشق القديمة .
- ٤٧١ - المجذوم هو نعمان (ملوك ثاني ٥ / ١ إلى ٩) وكان قد أوصاه (اليشع) أن يغتسل في نهر الأردن حتى يشفى ولكنه أبى واستكبر وقال إن نهري (بانه) (والفرفر) أجمل ثم أصاخ للنصح واغتسل فشفى ومن ثم آمن بالله . وكان أحاز (ملوك ثاني ١٦/٩ إلى ١٧) قد أقنع الآشوريين بفتح دمشق وبعدها استهوته عبادة (رمون) فأقام له معبداً على النمط السوري في بيت المقدس مكان معبد الله . كما أنه عبد سائر آلهة دمشق (أخبار الأيام ثاني ٢٨ - ٢٣) .
- ٤٨٢ - لم يرد ذكر هذه الآلهة المصرية في الكتاب المقدس - ولكن ميلتون يشير إلى الأسطورة القائلة بأن بعض آلهة (الأوليمب) الهاريين من بطش العملاق (تيفوس) دخلوا مصر وتنكروا في صور الحيوان التي عرفها المصريون القدماء . وكان من أشهر هذه الصور صورة العجل (أيس) التي كانت ترمز إلى (أوزوريس) وفي قصيدة «الاحتفال بصبيحة عيد الميلاد» يتحدث ميلتون أيضاً عن الآلهة المصريين (انظر الأبيات ٢١١ - ٢١٥) .

٤٨٣ - يقول ميلتون إن العجل الذهبي المذكور في سفر الخروج (٣٢ / ١ إلى ٨) قد صنع من الحلي التي اقترضها بنو إسرائيل من المصريين قبل أن يرحلوا من مصر (خروج ١٢ / ٣٥) وأن العجل الذهبي كان يشبه آلهة المصريين ويقول (فاولر) إنه العجل ابليس .

٤٨٤ - الملك العاصي هو (يربعام) الذي تمرد على (رحبعام) خليفة سليمان عليه السلام وأقام لنفسه مملكة مستقلة في شمال فلسطين وأقام في مدينتي (بيت آيل) و (دان) وهما مدينتان قرب الحدود - تمثالين من الذهب للعجل الذي يقده - وهكذا «ضاعف» من الإثم بصنعه «عجلين» بدلا من عجل واحد . (انظر ملوك أول ١٢ - ٢٨) .

٤٨٦ - انظر المزمور ١٠٦ (٢٠) عن العجل الذهبي . (وأبدلوا مجدهم بمثال ثور أكل عشب) .
٤٨٩ - في ليلة الخروج من مصر أتى (يهوه) - أي الرب - على أكبر الأبناء في كل أسرة مصرية - انظر التوراة (سفر الخروج ٢ - ١٢) « فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين . أنا الرب » ويرى (فاولر) أن الضربة وقعت بالحيوانات المقدسة في مصر (انظر - عدد ٣٣ / ٤) وربما كانت صفة «الثاغية» (البيت ٤٨٩) لا تنطبق على كل الحيوان ولكن المقصود بها السخرية من اتخاذ الحيوان إلها .

٤٩٠ - ليس (بليعال) اسما لإله حقيقي ولكنه صفة مجردة تعني الظلم أو التفاهة أو الشر بوجه عام . وعبارة أبناء بليعال (انظر البيت ٥٠١ - ٥٠٢) تعني الأشقياء بصفة عامة - انظر التوراة « قد خرج أناس بنو لثيم من وسطك » (تثنية ١٣ / ١٣) - ولكن اعتبار (بليعال) شخصا يعود إلى العبارة الاستعارية الواردة في العهد الجديد «وأي اتفاق للمسيح مع بليعال وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمنين» (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٦ - ١٥) وانظر أيضا الكتاب المقدس : « وأجلس رجلين من بني بليعال تجاهه » (ملوك أول ٢١ / ١٠) ويقول (بيرتون) إن بليعال هو أمير الطبقة الثالثة من طبقات الشياطين الذين ابتدعوا كل أنواع الخبائث .

٤٩٣ - لأنه لم يكن إلها . لاحظ أن كلمة «أخيرا» لا تدل على أنه أقل وزنا من باقي الشياطين أو أدنى في المرتبة .

٤٩٥ - كان بنو (عالي) كهنة للرب في (شيلوه) - انظر صموئيل ثاني (١٢ - ٢ - ١٧) وكانوا - كما يقول نص الكتاب المقدس من أبناء بليعال أي من الذين لم يعرفوا الرب ولا حق الكهنة من الشعب (المرجع نفسه) .

٤٩٧ - يرمى ميلتون إلى انتقاد الكنيسة في عصره وبلاط الملك (جيمس) الثاني . وهو يعود إلى نفس الهجاء والسخرية من الملوك وحياء البلاط في عودة الفردوس - حين يجعل إبليس يخاطب بليعال قائلا:

ألم نرك أو نسمع من يقص علينا

كيف تختبئ في البلاط وحجرات الملوك ؟

(الكتاب الثاني - ١٨٢ - ١٨٣)

٥٠٥ - في الطبعة الأولى من الفردوس المفقود يقول ميلتون إن أبواب الرجل الكريم (أي لوط عليه السلام) أخرجت بنات حتى يفدين رسل الله - أي الملائكة الذين اتخذوا صورة الرجال ، حلوا ضيوفا عليه

وكان قومه يريدون الفاحشة بهم - وهى القصة التى أوردها القرآن الكريم فى سورة هود (الآيات ٧٧ - ٨٣) وأوردتها التوراة - الخروج - الاصحاح التاسع عشر - ولكن الطبعة الثانية تشير إلى قصة أخرى وهى التى وردت فى (قضاة - ١٩) ومجملها أن رجلا من (اللاويين) من أهل (أفرايم) خرج يقصد بيت المقدس ومعه غلامه وخليلته وبينما هم فى الطريق إذ أدركهم التعب فقرروا المبيت فى (جبعه) استجابة لدعوة رجل كريم . وحينما حل الليل أحاط بالمتزل رجال بنى بليعال يطلبون الضيف ليأتوا الفاحشة به - ولكن صاحب المنزل رفض وعرض عليهم ابنته العذراء فرفضوها ، فقدم الضيف خليلته إليهم « حيث تعللوا بها الليل كله » . وفى الصباح وجدوها ميتة لدى الباب .

٥٠٧ - عبارة مألوفة استعارها كثير من الكتاب من الأدب الكلاسيكى ولذلك فإن ميلتون يتحدث بإيجاز واقتضاب عن آلهة اليونان الذين ألم بهم بعد دراسة مستفيضة .

٥٠٨ - كان المعتقد أن (الأيونيين) - وهم أحد الفروع الرئيسية للإغريق - قد انحلدوا من صلب (ياوان) وهو ابن (يافت) ابن نوح عليه السلام (خروج - ١٠ / ٢) (إشعياء ٦٦ / ١٩) .

٥١٣ - يقول هيزيود وغيره من الشعراء القدامى (يونان ورومان) إن السماء (أورانوس) أو (كويلوس) والأرض (جى) أو (تيرا) أو (ثيا) هما اللذان أنجبا (ساتورنوس) وغيره من سلالة (التيتان) . ولكن قصة (تيتان) الابن الأكبر والحرب التى شنها على (ساتورنوس) أى (كرونوس) لم تصل إلينا إلا عن طريق المؤلف المسيحى (لاكتانتيوس) وقد قام أحد أبناء (ساتورنوس) وهو (جوف) بإنقاذ والده وتوحيجه أولا ثم عاد ففناه فاضطر إلى الهروب عبر (أوروبا) أى البحر الأدرىانى . ويقول (تليارد) إن ميلتون يقدم لنا هنا صورة مختلفة من صور الأسطورة إذ يتحدث فيما يبدو عن إله واحد اسمه (تيتان) وليس عن الاثنى عشر إلها من سلالة (التيتان) ، كما أنه يجعل (ساتورنوس) يتمرّد على هذا (التيتان) مما يدفعنا إلى الظن بأنه أحد إخوته الكبار وليس قطعاً بأبيه (أورانوس) . وقد جرى العرف على اعتبار (أوقيانوس) أكبر سلالة (التيتان) . وقد أنجب ثلاثة آلاف نهر وثلاثة آلاف حورية من حوريات المحيط

٥١٤ - كانت (كريت) مسقط رأس (زيوس) أى (جوف) .

٥١٥ - (ايدا) جبل فى جزيرة (كريت) .

٥١٦ - (الأوليمب) كان الإغريق يعتبرون هذا الجبل مقر الآلهة ويقع فى شمال بلاد اليونان وقمته مغطاه بالثلوج دائماً حتى فى بعض أشهر الصيف . وأما السماء الوسطى فهى إشارة إلى الفكرة التى أشاعها المدرسيون (الاسكولائيون) فى العصور الوسطى عن تقسيم السماء إلى ثلاث سماوات . الدنيا دافئة ورطبة والعليا حارة والوسطى باردة . وتمتد السماء الوسطى حتى تصل إلى قسم الجبال العالية .

٥١٧ - كانت نبوءة أبوللو الشهيرة تقيم فى (دلفى) على حافة صخرة شاهقة تطل على هوة سحيقة وذلك فوق جبل (البارناس) .

٥١٨ - فى (ابيروس) وكانت أيضاً مقراً لنبوءة (زيوس) .

٥١٩ - أى بلاد اليونان ، كان (الدوريون) وهم من الشعوب التى يتكون منها الإغريق يعيشون فى (دوريس) وينسبون إليها .

٥٢٠ - عند هروب (ساتورنوس) - بعد هزيمته من (جوف) - عبر البحر الأدرىانى انظر الحاشية (١١٣) أعلاه . وأما حقول (هسبيريا) فهى إيطاليا الحديثة . وهسبيريا تعنى حرفياً الغربية لأن إيطاليا تقع إلى الغرب من بلاد اليونان .

٥٢١ - سهول أو حقول (الكلت) هي فرنسا . والجزر القصوى هي الجزر البريطانية - لأن القدماء كانوا يعتبرون أن الجزر البريطانية تقع على حافة الأرض - وربما كان المقصود هو بريطانيا وأيرلندا وأيسلندا جميعا .

٥٤٣ - يظهر (عزازيل) في صورة أحد كبار الملائكة العصاة الذين يتعرضون لعقاب الله وذلك في سفر الرؤيا (المشكوك في صحته) - انظر (سفر حنوك وبخاصة ٨ و ١٠ و ١٣ و ٦٤ و ٦٥ و ٧٩) وهو يلتقى به في البرية مغلولاً في نفس المكان الذي ألقى فيه بئيس الفداء (لاويين ١٦ / ٨) ويقول (تليارد) إن الاسم يشير هنا إلى أحد الشياطين الذين ذكرهم بعض كتاب العصور الوسطى ويشير أحدهم إلى أنه كان أحد الأربعة الذين حملوا رايات إبليس .

٥٤٣ - كان (العماء) ملكاً على مملكة العماء وكانت زوجته هي الليل .

٥٥٠ - كانت لموسيقى الاغريق ثلاثة مقامات رئيسية أولها مقام (دوريس) ، وثانيها مقام (فريجيا) وثالثها مقام (ليديا) . والفرق بينهما يماثل الفرق بين المقامات الكبيرة (سباعية الأنغام) والصغيرة أو الملونة ذات الإثنتي عشرة نغمة . ومقام (دوريس) بسيط رصين - ويصفه أفلاطون - في الجمهورية بأنه المقام الوحيد الذي يناسب المحاربين والعاقلين ، أما مقام (فريجيا) فكان مثيراً وملهماً للحماس بينما كان مقام (ليديا) عذبا رقيقاً ناعماً .

٥٥٣ - يشير ميلتون هنا إلى الأنغام التي كان يعزفها أهل اسبرطة حين تتقدم جيوشهم للنتزال - وهي أنغام النايات الرقيقة التي لا تثير الحماس وذلك حتى يحتفظوا برباطة جأشهم وتماسك صفوفهم - على عكس أعدائهم الذين كانوا يهرعون للقتال بخطى وثابة سريعة تفقدتهم النظام . ولا يعنى هذا أنه يفضل الاسيرطيين على الرومان ولكنه بالقطع يفضل نوعاً من الموسيقى على نوع آخر .

٥٦٠ - أثرت استخدام نفس الفعل الذي استخدمه ميلتون في البيت ٥٥٣ أولاً لأنه ورد في الإلياذة في تعبير « يتفلسون الشجاعة » (٣ - ٨) وثانياً حتى أحفظ بالصورة الشعرية . ومعظم الشراح يقولون إنه يقصد (يستلهم) .

٥٧٦ - يعنى بالصغار «الأقزام» الذين كانوا يهزمون في كل مرة يتعرضون فيها لغزو الكراكي وهي الطيور الضخمة المهاجرة ومفرده كركي (بضم الكاف الأولى وتشديد الياء) . ومصدر هذه الصورة هو إلياذة هوميروس ٣ - ٥ . وكان علماء الجغرافيا في العصور الوسطى يؤمنون بوجود هذه السلالة من الأقزام ، في أواسط آسيا - ويعود ميلتون إلى نفس الفكرة في بيت آخر في هذا الكتاب هو ٧٨٠ - ٧٨١ . وميلتون ينطلق من هذه الصورة ليستعرض عدداً من الموضوعات التي شغلت بها الملاحم القديمة ثم يستصغر شأنها كأنها موضوعات لا تزيد في حجمها عن الأقزام إذا قورنت بموضوعه الرفيع السامى - مثل موضوع روما العظيمة وبريطانيا وفرنسا . ومن ثم كانت التورية لازمة في كلمة «صغار» التي استخدمها في هذا البيت .

٥٧٧ - (فليجرا) - وسميت فيما بعد (باليني) شبه جزيرة في أقصى الغرب من مجموعة شبه جزر (خالسيديس) شمالي اليونان . ويذكر أوفيد في مسخ الكائنات (١٠ - ١٥١) إن الحرب بين العمالقة وآلهة الأوليمب قد وقعت على سهول (فليجرا) . ولكن الموقعة التي بدأت في (فليجرا) اليونانية (أى باليني وهي جزء من مقدونيا) قد تجددت في (فليجرا) الإيطالية أى الواقعة بالقرب من (كوماي) .

٥٧٨ - (طيبة) هى المكان الذى اختاره شعراء اليونان القدامى لأحداث مسرحيات أوديب ومن ثم اشتهر بمعالجات (أيسخولوس) و (سوفوكليس) و (يوريديس) لهذه الأسطورة فى تلك المدينة . كما أن قصتين من أشهر قصص الملاحم القديمة تدوران حول الصراع بين الإخوة فى (طيبة) وحصار (طروادة) . وفى كل قصة من هذه القصص تهب الآلهة لمؤازرة البشر ممن يناصرونهم فى القتال ضد أعدائهم مثلما يحدث فى إلياذة (هوميروس) وطيبة (ستاتيوس) . وأما (إليوم) فهو أحد أسماء (طروادة) .

٥٨٠ - أى الملك (آرثر) فهو ابن (أوثر بندراجون) . وقد كان ميلتون يعتزم أن يكتب ملحمة عن موضوع الملك آرثر .

٥٨١ - (أرموريا) أحد أسماء المنطقة التى نطلق عليها الآن (بريتانى) .

٥٨٣ - رغم تعدد الأماكن التى تحمل هذا الاسم أى (اسبارامونتي) فالمحتمل أن ميلتون يقصد القلعة القريبة من مدينة (نيس) والواردة فى الرومانسة الذائعة فى عصره والتى تحمل نفس الاسم ومن تأليف (أندريا دا باربرينو) - حسبما يقول (فاولر) . أما (تليارد) فيرجح أن (اسبارامونتي) تشير إلى سلسلة جبال فى كالابريا فى جنوب إيطاليا لأن شارلمان حارب العرب فى موقعة بالقرب منها . وعلى أى حال فإن الخريطة المعتمدة فى عصر ميلتون تستعمل نفس الاسم فى الإشارة إلى المكانين . والمقصود بـ (مونتاليان) قلعة (رينالدو) الواردة فى عدد من الرومانسات .

٥٨٤ - تقع طرابزون فى تركيا . كانت عاصمة لإحدى الإمبراطوريات القديمة فى آسيا الصغرى . ويشار إليها فى العربية أيضاً باسم طرابزونده .

٥٨٥ - أى شمال إفريقيا - كما كان العلماء العرب أنفسهم يطلقون عليها . أما بنزرت (وهى مدينة فى تونس) فكانت المكان الذى انطلق منه العرب لمهاجمة (شارلمان) . ولكن ميلتون يقص قصة مناقضة للقصة المألوفة عن الموقعة ، غير أن هذا لا يمنع من أن ميلتون قد استقى القصة من مصدر آخر غير القصة الشائعة ، أضف إلى هذا أن أنشودة رولان لم تكن معروفة فى عصر ميلتون مع أنها أشهر الأعمال الأدبية التى تحكى هذه القصة . وتقول هذه الرومانسة إن العرب قد استعانوا بأحد الخونة للانقضاض على مؤخرة جيش شارلمان فى مضيق (رونسفال) . وكان على (رولان) أن ينفخ بوقاً يحمله إن احتاج إلى طلب العون ، لكنه لم ينفخ فيه حتى فات الوقت وقضى الأمر فهلك وهلك جميع من معه . أما (شارلمان) فقد هب عند سماعه البوق لنجدة الجيش مما دفع العرب إلى الانسحاب ، وهكذا فإنه لم يهلك بل نجا هو وبقية الفرسان الاثنى عشر ويرجح (فاولر) أن ميلتون قد استقى معلوماته من قصة لاحقة لهذه القصة مثل قصة (باربرينو) التى كتبت حوالى عام ١٤٠٠ والتى تقول بأن (رولان) قد هلك فى الموقعة هو وسائر فرسان شارلمان . ويضيف (فاولر) أن جميع القصص التى وصلت إلينا عن تلك الموقعة تؤيد نجاة (شارلمان) نفسه . والروايات التاريخية تقول بنجاة (شارلمان) وبأنه عاش طويلاً بعد تلك الموقعة . ويورد تليارد أحياناً للسير (والترسكوت) يذكر فيها حادثة التغير :

وا / شواقا إلى صوت النفير المهيّب
الذى رددت أصداؤه (فوتنا رايبا)
فوصل إلى سمع الملك (شارل)
عندما سقط (رولاند) الشجاع (وأوليفيه)
فى حومة الوغى ، فى وادى (رونس)
وهلكا مع سائر الفرسان الصناديد !

(مارميون ٦ - ٣٠)

٥٨٧ - تقع (فوتنا رايبا) على بعد أربعين ميلا من (رونسفال) - ويقول (فاولر) : ربما كان الدافع على إقحام اسم هذا المكان فى السياق التاريخى أن الملك (تشارلز) الثانى ذهب إلى ذلك المكان فى عام ١٦٥٩ عند فشل الثورة الملكية لينشد العون من الفرنسيين والإسبان . ولذلك فرميا كان ميلتون يرمى إلى السخرية من هذا الملك الذى ينشد العون من أعدائه ويقصد مقارنته (بشارلمان) العظيم الذى دافع عن بلاده دونما تفريط .

٥٩٩ - الاستعارة ذات حدين فكسوف الشمس ينذر بمصائب للخلق ويهلك الحاكم الذى يكتسى صورة الإله وقد جرت العادة على اعتبار الشمس رمزا له . وهكذا يروى أن الرقيب الذى عينه الملك (تشارلز) الثانى اعتبر هذا البيت ماسا بالذات الملكية ويتضمن آراء تخريبية ويقول (تليارد) إنه كاد يمنع نشر الفردوس المفقود بسبب هذا البيت .

٦٣٣ - هذه مبالغة واضحة إذ إن إبليس نفسه يقول فى الكتاب الخامس (البيت ٧١٠) إن عدد من تبعه لم يزد على ثلث ملائكة الجنة . وهذا هو رأى المتفق عليه إذ يوحى به النص الوارد فى رؤيا يوحنا ٤/١٢ .

٦٣٥ - يقصد إبليس بهذا أن يتملق الملائكة القاسقين فيصفهم بأنهم أهل الجنة .

٦٣٧ - يحاول إبليس هنا أن يقول إنه كان ينفذ آراء أتباعه وإنه لم يكن ليرى رأيا آخر أو ينشق عنهم وهكذا فهو يلقى باللوم على الجميع حتى وهو يدافع عن موقفهم المشترك .

٦٥٠ - يقول إمبسون «إن هذه أول إشارة إلى القارئ (وليس بطبيعة الحال إلى الملائكة العصاة) عن الشك الذى يخامر إبليس فى قدرة الله على خلق أى شئ» (ص ٤٨) والواضح أن إبليس يعرض هنا للخطة التى يتسوى تنفيذها بل وينفذها بالفعل فى النهاية ويقدم لنا (بعلزبول) تفاصيل هذه الخطة فى الكتاب الثانى (البيت ٣٤٥ وما بعده) ثم يعود إبليس إلى إيضاحها فى نفس الكتاب (٨٣٠ - ٨٣٥) .

٦٦٢ - يقول (برود بنت) إن إبليس بدأ حديثه بنبرات البطل المأسوى (ص ٧٣ وما بعدها) ولكنه الآن يعود إلى طبيعة البطل الملحمى الذى يدبر للقتال دون مشاعر متناقضة .

٦٦٨ - كان الجنود الرومان يحيون خطب قادتهم بهذه الطريقة .

٦٧٤ - يقول (بيكون) ، وهو أعظم حجة علمية فى ذلك العصر «إن الزئبق والكبريت هى المواد الرئيسية للمعادن» (التاريخ الطبيعى - ٤ - ص ٣٥٤) وكانت هذه هى النظرية المقبولة ، إذ كان يفترض أن حرارة الكبريت من شأنها أن تحيل التراب إلى معدن .

٦٧٨ - كلمة آرامية تعنى الغنى أو المال وجاءت بهذا اللفظ فى إنجيل متى ٢٤/٦ . ويقول د. مجدى وهبة إن شاعرنا هنا أول من استعملها علما على أحد أمراء الشياطين وقد استخدمها (سينسر) فى الحقيقة - فى قصيدته (ملكة الجان) عندما تعرض لوصف كهف (مامون) - (النشيد الثانى - البيت السابع) - (تليارد) .

٦٩٤ - المقصود هو برج (بابل) الذى بناه (النمرود) (تكوين ١١ / ٤ إلى ٩) . ويقول (راجان) إن العادة قد جرت على اعتبار الأهرامات نماذج للغرور والخيلاء (ص ٤٨) وميلتون هنا لا يشير إلى «المعنى» أو الدلالة التى نراها اليوم فى الأهرامات ولكن إلى الجهد البشرى الذى بذل فى بنائها ، إذ يقال إن مئات الآلاف قد عملوا عشرين عاما فى بنائها .

٧٠٠ - ليس من السهل تصور المنهج الذى اتبعه الشياطين فى البناء ولكن المرجح أنهم صهروا أولا المعدن النفيس بنيران البحيرة الملتهبة (انظر البيت ٢١٠) ثم صبوه فى خنادق ليكون الأساس الذى أقيم عليه البناء وعلى هذا الأساس ارتفعت الجدران كأنما بسحر ساحر . (تليارد) .

٧٠٩ - يعود ميلتون فى الكتاب الحادى عشر (البيت ٥٦٠ وما بعده) إلى الربط بين الموسيقى وتصنيع المعادن ، ويصرح بأن مهارات الملائكة العاصين قد اكتشفها البشر . أما الربط بين الموسيقى والصناعة فترجع إلى أن (يويال) و (توبال قاين) كانا أخوين غير شقيقين كان الأول « أبا لكل ضارب بالعود والمزمار » والثانى « الضارب كل آلة من نحاس وحديد » (تكوين ٤ / ٢١ و ٢٢) وكان كلاهما من نسل قابيل .

٧١٧ - يشتمل هذا الوصف على إشارة ساخرة لقصر الشمس الذى بناه (مولكبر) حسبما يروى (أوفيد) فى كتابه (مسخ الكائنات) (٢ / ١ إلى ٤) ولكن ما يرمى إليه ميلتون هو أن (بانديمونيام) قصر ذو طراز كلاسيكى كامل من كل الوجوه مثل قصر (البانثيون) القديم الذى ما يزال قائماً وقد كان موضع إعجاب الجميع فى عصر ميلتون .

٧١٨ - فى الشروح التقليدية للكتاب المقدس كانت بابل ترمز للظلم والبغى ومن ثم للجحيم أما القاهرة فالمقصود بها (ممفيس) التى كانت أروع مدينة فى مصر أيام الوثنية .

٧٢٠ - (بعل) إله آشورى وليس إلها مصرياً . أما (سيراييس) فهو الإله المصرى المعروف باسم أيس .

٧٣٩ - (أرسونيا) هى الاسم القديم (اليونانية) لإيطاليا الحديثة .

٧٤٠ - مولكبير هو لقب الإله (فولكانوس) راعى الحدادة والتعدين واللقب يعنى باليونانية من يصهر الحديد . وقد تولى بناء قصور الآلهة .

٧٥٦ - (بانديمونيام) كلمة نحتها ميلتون نفسه من اليونانية لتعنى ملتقى الشياطين جميعاً . أما كلمة «عاصمة» فهى تحمل أيضاً معنى القصر الكبير وثم خلاف بين محققى نص ميلتون حول هجاء الكلمة الانجليزية فمن قائل إنها (كايتول) ومن قائل إنها (كابيتال) . ويذهب جمهور النقاد إلى أن القراءة الأخيرة هى الأصح وأن الإيحاء بالمعنى الأول لا يزيد عن كونه إيحاء ثانوياً يضاف إلى المعنى الأصلى .

- ٧٦٦ - يشير ميلتون إلى ضريين من ضروب القروسية والتزال : الأول هو الهجوم المباشر والثاني هو محاولة الإسقاط بالرمح من على ظهر الجواد . وهو ينسب إلى الجحيم منشأ هذا اللون من الصراع البشري الذي انتقل فيما بعد إلى الأرض - حسبما يقول (برودبنت) (ص ٩٦) .
- ٧٨١ - يقول (بلينى) إن أرض الأقزام تقع فى الجبال القائمة وراء منابع نهر (الجانجيز) (التاريخ الطبيعى - ٧ - ٢٦) .
- ٧٨٦ - هذه العبارات رجع صدى لما يقوله شيكسبير فى مسرحية حلم ليلة صيف (الفصل الثانى - المشهد الأول - البيت ٢٨ وما بعده) من أن القمر يجلس مجلس الحكم بين الجنيات لأن القمر هو أمير الجن المتوج .

حواشي الكتاب الثاني

- ٢ - (هرمز) جزيرة في الخليج العربي كانت ذائعة الصيت باعتبارها سوقا للجواهر .
- ١١ - لم أترجم هنا بالإشارة إلى الكتاب المقدس فيما يختص بألقاب الملائكة . فالإشارات واضحة إلى رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوس (١ - ١٦) حيث يرد اللقبان وهما (الرياسات) و (السلطين) ترجمة لنفس اللقبين بالانجليزية ، وقد حفزني على عدم التقيد أن ميلتون يقصد الإشارة إلى الملائكة العاصين جميعاً دون أن يخص طائفة بعينها وأنه يريد معنى القوة والجبروت أن ينسحب على الجميع .
- ١٥ - في الأصل تورية - فالأصل يشير إلى فضائل السماء وهي من ألقاب الملائكة أيضاً ولكن أثر ترجمة المعنى الظاهر
- ٢٤ - يقدم إبليس خمسة أسباب لتقلده مقاليد الرئاسة أولها (مكانه الحق) في السماء بينهم قبل السقوط ، وثانيها قوانين السماء الثابتة أي القضاء ، وثالثها الإرادة الحرة لسائر الملائكة ، ورابعها امتيازته في التدبير للحرب وفي إدارة المعركة ، وخامسها وأهمها هو السقوط ، إذ إن الهزيمة لم تعد تجعله في موقف مشير للحسد . ومن هنا ينطلق ليفصل القول في معنى الابتعاد عن الحسد .
- ٢٨ - يحاول إبليس هنا الحط من شأن المولى جل وعلا بأن يسمه بالبطش فالرعد من صفات (جوبيتر) رب أرباب الوثنية ومن ثم فإن إبليس يحاول أن يقول إن الباري سبحانه يشبه أرباب اليونان .
- ٣٧ - يقول (إمبسون) إن محاولة إبليس الإشادة بمزايا السقوط تمثل مفارقة سامية في إطار التقاليد الرومانية الرفيعة ولكننا ينبغي أن نلاحظ أن هذه المحاولة أُنستमितة لقلب منطق الأشياء تبين مدى خداع النفس الذي ينزلق إليه .
- ٤٣ - (ملكوم) يعنى بالعبرية (الملك) - انظر عاموس ٥ / ٢٦ . راجع البيت ٣٩٢ في الكتاب الأول وفي مجالس الملك التي وصفها (هومبروس) كان الملوك يوصفون رسمياً بأنهم ذوو صولجان انظر الإلياذة ٢ - ٨٦ والأوديسا ٢ - ٢٣١ .
- ٥٦ - يشتر (إليوت) و (ليفيز) إلى التناقض بين «يقفون» و «جالسين» ولكن المعنى هو كما يقول (فاولر) إن الوقوف إشارة لواقع حاضر بينما يتضمن الجلوس إشارة ساخرة إلى عدم الحركة في المستقبل .
- ٦١ - ربط الألفاظ المجسدة بالمجردة من خصائص أسلوب ميلتون أي أنه إذا كان من باب التعبير الحقيقي التسليح بالنيران فإن التسليح بالغضبة من باب المجاز وربط التعبيرين أي استخدام فعل واحد معهما من الخصائص البلاغية المسماة (زيوجما) باليونانية .
- ٦٩ - (تارتاروس) هي مملكة الجحيم في الأساطير اليونانية . وجريا على العرف في عصر النهضة نجد أن ميلتون يرسم صورة الجحيم الواردة في الكتب السماوية في إطار ما ذكره الكلاسيكيون في عصر الوثنية . و (تارتاروس) هي المكان الذي يلقي فيه بالمذنبين من هذا العالم عند الموت حسبما تروى الأساطير .
- ٨١ - إشارة إلى (فيرجيل) في الإنيادة - ٤ - ١٢٦ إلى ١٢٩ حيث يذكر بسر الصعود للملائكة .
- ٨٢ - يقصد أن هناك من بين الملائكة من يخشون عاقبته وهو من ثم يرد على اعتراضاتهم مقدماً .

- ١٠١ - يعرب إبليس عن ثقته في استحالة تدمير الكيان السماوي للملائكة (انظر البيتين ١١٦ - ١١٧ من الكتاب الأول) ويشاركه (بعلزبول) هذا الرأي (الكتاب الأول - الآيات ١٣٨ - ١٤٠) ولكن (ملكوم) متردد وغير واثق .
- ١٠٥ - وهذا هو الدافع الذي يحفز إبليس على القتال .
- ١١٣ - إشارة إلى المن والسلوى - والمن بعد يعنى - فى رأى جمهور الشراح - غسل النحل ومن ثم فالمعنى هو (يقطر عذوبة) خروج (٣١/١٦) .
- ١٢٧ - هذا تعبير ساخر يرد به (بليعال) على (ملكوم) . فهو يقف بالثار عند حدود المحاولة واصفًا الثار - لا المحاولة - بأنه رهيب . والأصح إذن ترجمة العبارة بـ «محاولة للثار رهيب» . ويلاحظ القارئ أن (بليعال) يستخدم نفس ألفاظ (ملكوم) (مثل كلمة الثار) للسخرية منه وإحباط حجه .
- ١٣١ - يقصد ذلك الجزء من مملكة العماء المتأخم للجنة .
- ١٣٩ - المعنى الظاهر هو أن الجوهر الأثيرى يستمى للبارى جل وعلا ، إذ إن بليعال ينتقد هنا ما اقترحه ملكوم من بث شأبيب الكبريت والنيران السوداء فى عرش الله (انظر البيتين ٦٨ و ٦٩ . ولكن الشراح يقولون إن الجوهر النقى يمكن أن يتمى إلى الملائكة - وبخاصة (تليارد) .
- ١٤٦ - ليس هذا رأى (بليعال) بطبيعة الحال بل تصويره لرأى (ملكوم) . أما رأيه فيبدأ من البيت ١٤٦ والآيات التالية .
- (٢١) أى كيان الملائكة . فالمعتقد أن الملائكة ذات كيان ذهنى يفوق الكيان العقلى أو العاقل الذى يتمتع به البشر ويتفوقون به على الحيوان والنبات .
- ١٤٧ - وضعت هذه العبارة بين قوسين لأبين أنها اعتراضية ، إذ إن سير الجملة ينبغى ألا يتوقف بين الفعل «لنفترض أن...» و «أتراه فى حكمته...» .
- ١٦٠ - يقصد (ملكوم) .
- ١٧٠ - أى نفخة الله (ونفخنا فيه) - وربما كان النص يشير إلى ما ورد فى إشعياء ٣٠ - ٣٢ عن (توفه) باعتبارها رمزا للجحيم «نفخة الرب كنهز كبريت توقدها» .
- ١٧٤ - يستخدم (هوراس هذه العبارة Rubente Dexterâ فى الأناشيد ١ - ٢ عندما يصف تهديد (جوبيتر) أى (جوف) بتدمير روما . ومن ثم فإن (بليعال) يريد الإشارة من طرف خفى إلى أن البارئ سبحانه طاغية مثل (جوبيتر) .
- ١٧٩ - «مجيدة» كلمة يستخدمها (بليعال) للسخرية من الحرب الخاسرة .
- ١٨١ - ربما جاءت هذه الفكرة أو الصورة من وصف (فيرجيل) فى الإنيادا (١ - ٤٤) للعقاب الذى أوقعه (بالاس) (بأجاكس) .
- ١٨٢ - شاعت هذه الصورة فى كتابات القدماء والمحدثين : - (أيسخولوس) ، و (فيرجيل) و (هوراس) ثم (شكسبير) و (درايدن) . انظر الإنيادا ٦ - ٧٤ ، وصاع بصاع (شكسبير ٣ - م ١ - ١٢٤) .
- ١٨٤ - فى الأصل توريه إذ يستخدم ميلتون فعل Converse بمعناه الحديث ومعناه اللاتينى الذى يوحى بالإقامة لا التخاطب . وقد تعذرت ترجمة التورية .

٢٦٧ - انظر المزمور الثامن عشر : «جعل الظلمة ستره حوله ، مظلمته ضباب المياه وظلام الغمام ... أردد الرب من السموات» (١١ - ١٣) والمزمور السابع والتسعين «السحاب والضباب حوله العدل والحق قاعدة كرسيه» (٢) وأخبار الأيام الثانى (٥ / ١٣) «بيت الرب امتلاً سحاباً» ، و (٦ / ١) «قال الرب إنه يسكن فى الضباب . وانظر أيضاً قول الله لموسى عليه السلام فوق جبل (حوريب) «هاأنا آت إليك فى ظلام السحاب» (الخروج - ١٩ - ٩) وتكريس المعبد فى التثنية (٤ - ١٢) «والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب فكلمكم الرب من وسط النار» .

٢٧٥ - المعنى الحرفى للعبارة «العناصر أو العنصر الذى خلقنا منه أو الذى يلائمنا» ولكن السياق يقتضى الترجمة الحالية . وكلمة عنصر أو عناصر تشير إلى العقيدة التى سادت القرون الوسطى ومؤداها أن أنواعا معينة من الشياطين تسكن كلا من عناصر الكون الأربعة وهى النار والهواء والماء والتراب ، وأن هذه الشياطين هى الملائكة الفسقة . يقول ميلتون فى قصيدة «المفكر» : «إن الشياطين التى تعيش فى النار والهواء أو الماء أو تحت الثرى ... متوافقة مع العنصر الذى تعيش فيه» . (٩٣ - ٩٦) ويقول فى عودة الفردوس :

إن الأرواح الشيطانية التى اختص كل منها بعنصر
ليسوده لأحرى بها أن تسمى

قوى النار والهواء والماء وباطن الثرى . «الكتاب الثانى - ١٢٢ - ١٢٤»

٢٩٨ - يشرح (تليارد) المعارضة بأنها أولا قائمة تحت مملكة العماء بينما تقوم الجنة فوق تلك المملكة وثانيا بأنها مناقضة للجنة فى طبيعتها وأغراضها وثالثا بأنها معادية لها .

٣٠٧ - كان من الشائع تشبيه الساسة الذين يتحملون أعباء الحكم بأطلس (انظر مثلاً مسرحية شكسبير أنطونيو وكليوباترا ١ - ٥ - ٢٣) ولكن الإشارة هنا إلى أطلس تعتبر إشارة إلى واحد من سلالة (التيتان) . إذ إن جوبيتر - حسبما تروى الأسطورة - كان قد أرغم أطلس على حمل السماء فوق أكتافه عقاباً له على الدور الذى قام به فى التمرد .

٣١٠ - ارجع إلى الحاشية الخاصة بالبيت ١٢٨ من الكتاب الأول والحاشية على البيت ١١ من الكتاب الثانى .

٣١١ - فى الأصل «خصال الأثير» وكلمة خصال تشير أيضاً إلى الفضائل وهى من طبقات الملائكة ولكنى آثرت ترجمة المعنى دون التورية انظر الحاشية على البيت ١٥ من الكتاب الثانى .

٣٢٤ - انظر رؤيا يوحنا اللاهوتى : (١١ / ١) أنا هو الألف والياء : الأول والآخر و (٦ / ٢١) أنا هو الألف والياء : البداية والنهاية ، و (١٣ / ٢٢) أنا الألف والياء . البداية والنهاية . الأول والآخر . وقد ورد اللفظان فى القرآن الكريم وهما من أسماء الله الحسنى .

٣٢٨ - يعنى (بعلزبول) أن الصولجان أو القضيب الحديدى (انظر المزمور الثانى - الآية التاسعة) رمز للعدالة الصارمة بينما يرمز الصولجان الذهبى للمساواة الرحيمة . يقول ميلتون فى قصيدة (ليسيداس) إن القديس بطرس :

يحمل مفاتيح ثقيلة لنوعين من المعادن :

الذهبي يفتح الأبواب والحديدي يغلقها . (١١٠ - ١١١)

وقد أصبح تعبير القضيب الحديدى شائعاً فيما بعد فى اللغة الانجليزية كناية عن الحكم الصارم .

- ٣٥١ - المزمور ٨ / ٤ و ٥ « فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده . وتنقصه قليلا عن الملائكة ويمجد وبهاء تكلمه » .
- ٣٥٢ - يقول (تليارد) إن النطق بقسم من جانب الله فكرة غريبة رغم أنها تتردد كثيرا في الكتاب المقدس . انظر التكوين ٢٢ - ١٦ والرسالة إلى العبرانيين ١٧ / ٦ .
- ٣٥٣ - أخذ ميلتون هذه الصورة من الملاحم الكلاسيكية . انظر (هوميروس) (الإلياذة ١ / ٥٣٠) و (فيرجيل) (الإنياذة ٩ / ١٠٦) ولكن الصورة لها سند في الكتاب المقدس أيضا (إشعيا ١٣ - ١٢ و ١٣) و (الرسالة إلى العبرانيين ١٧ / ٥ و ٢٦ / ١٢) و (التكوين ٢٢ - ١٦) و (إشعيا ٢٣ / ٤٥) ومن ثم فهي نموذج للمزج بين الصور الكلاسيكية والدينية .
- ٣٥٧ - اللفظ يعنى الإغواء والهجوم أو التصدى لشخص ما للإيقاع به في الوقت نفسه .
- ٣٧١ - انظر التكوين ٦ / ٦ و ٧ « فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته » .
- ٣٧٥ - في الطبعة الأولى من الفردوس المفقود ترد هذه الكلمة بصيغة الجمع أى كلمة Originals وتوحي بالمعنى المترجم هنا أما في الطبعة الثانية فترد هذه الكلمة بصيغة المفرد بحيث يمكن أن تعنى آدم وحواء . والمعنى الأول يشمل المعنى الثانى في نظرى ولهذا اخترته في الترجمة حتى لا أفسد السياق العربى .
- ٣٧٨ - يسخر هنا (بعلزبول) من آراء (مامون) انظر البيت ٢٥٢ وما بعده في الكتاب الثانى) ولكن ميلتون يريد القارئ أن يسترجع عبارة «الجلوس فى الظلمة» الواردة فى المزمور ١٠٧ الآية ١٠ وما بعدها : «الجلوس فى الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد لأنهم عصوا كلام الله » .
- ٣٨٣ - أى آدم عليه السلام . وقد أضفت كلمة «الشجرة» هنا حتى ألقى الضوء على الاستعارة الشائعة فى الكتاب المقدس وفى الفردوس (انظر الكتاب الثالث ٢٨٨ والكتاب التاسع - ٨٩ و ٦٤٥) وقد اعتمد زعماء حركة الإصلاح الدينى على هذه الاستعارة فى تفسيرهم لمفهوم الخطيئة الأولى للإنسان أى النابعة من جذر الشجرة - شجرة الإنسان .
- ٤٠٠ - يقول الشراح إن ثمة تشبيها مضمرا هنا أى أن للظلام كيانا ماديا (انظر البيت ٤٠٦ من نفس هذا الكتاب) .
- ٤٠٦ - ربما كانت كلمة «لموسة» أصدق فى التعبير عن المعنى المقصود أى الإشارة الاستعارية إلى الظلمات (انظر الحاشية السابقة) . فالواضح أن ميلتون يشير إلى سفر الخروج (٢١ / ١٠) . « ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يلمس الظلام » .
- ٤٠٩ - أى التى تفصل بين السماء والأرض وهى هوة العماء .
- ٤١٠ - أى الأرض فهى تشبه الجزيرة السعيدة فى خضم العماء - وترخر الفردوس المفقود بالاستعارات التى تصور إبليس فى صورة التاجر المسافر المغامر ، وتصور الأرض فى صورة الجزيرة . انظر الأبيات ٤٢٦ ، ٤٣٦ - ٤٤٢ ، ٩١٩ ، ١٠١١ ، ١٠٤٢ - ١٠٤٤ فى هذا الكتاب وحده .
- ٤٣٠ - أى يا من تحتلون العروش فى السماء أو يا من كنتم تحتلوها . والعروش طبقة من طبقات الملائكة . انظر الكتاب الأول - البيت ١٢٨ وحاشيته وانظر الكتاب الثانى البيت العاشر وحاشيته .

- ٤٣٢ - ابتداء من هذا البيت يحاكى ميلتون وصف (فيرجيل) لهبوط (إنياس) إلى العالم السفلى (فى الكتاب السادس من الإنيادة) وخاصة التحذير الذى جاء على لسان (سييل) من أن النزول يسير ولكن الصعود شاق عسير . كما أن ثمة محاكاة لما جاء فى الكوميديا الإلهية لدانتى (الجحيم ٣٤/٩٥) من أن الطريق طويل والسبيل عسير . ويحاكى ميلتون الإنيادة فى بعض التفاصيل مثل الأسوار التسعة والأبواب المصنوعة من الصخور الموقدة إلخ .
- ٤٧١ - «فى رأى» تعنى فى الحقيقة «فى رأى سائر الملائكة والشياطين» أى فى نظر المجتمعين أى ما يقابل التعبير الحديث «الرأى العام» .
- ٤٩٥ - يقول (برودبنت) إن البراكين التى ذكرت فى الكتاب الأول قد تحولت إلى تلال ترعى عليها الأغنام بفعل خيال الشياطين الخصب (ص ١٢١) . أما غفلة ريع الشمال فالمقصود بها سكونها إذ إنها حين تهب يصفو الجو وتسطع الشمس .
- ٥٠٥ - الواضح أن ميلتون يتحدث بمرارة شديدة عن الحروب الطاحنة التى زلزلت بريطانيا إبان حياته .
- ٥٢٨ - يحاكى ميلتون فى هذه الأبيات (٥٢٨ - ٥٦٩) ما ذكره (فيرجيل) فى الإنيادة (٦/٦٤٢ - ٦٦٥) «عن سبل التسرية عن النفس وترجية الوقت لدى الأرواح فى العالم السفلى فهم يمارسون الرياضة هنا وفى الإنيادة (فى إليزيوم) ويعزفون الموسيقى ويشغلون بالفلسفة ولديهم معدات حرية وخيول وعربات بينما يمتاز الشياطين بقدرتهم على الاكتشاف والمغامرة . وفى تقاليد الملحمة الكلاسيكية نماذج لهذا اللون من قضاء وقت الفراغ - انظر إلياذة (هوميروس) ٢ - ٧٧٤ ، والأبيات التالية التى تصف ألعاب الزبانية أثناء غياب (أخيلاس) فى الحرب وانظر أيضاً نفس الملحمة (٢٣) حيث يذكر (هوميروس) الألعاب الجملقزية اليونانية .
- ٥٣٠ - ألعاب (بيثيا) فى (دلفى) تلى فى أهميتها الألعاب الأولمبية . وكانت تمتاز على الألعاب الأولمبية بإقامة المسابقات الموسيقية والفنية .
- ٥٣٩ - انظر الحاشية رقم ٤٢ فى الكتاب الأول .
- ٥٤٦ - تقول الأسطورة إن (هرقل) كان غائبا فترة طويلة فى حملة ضد ملك (إيقاليا) وفى طريق عودته أراد أن يقدم تضحية إلى (زيوس) امتنانا على النصر الذى ظفر به فأرسل صديقه (ليكاس) إلى زوجته ليعود بثوب مناسب فأرسلت معه الزوجة ثوبا كانت قد غمسته فى سائل يثير الحب فى نفسه (إذ كانت تشك فى إخلاصه لها) ولكن هذا السائل كان فى الحقيقة مسموما وعندما ارتداه هرقل أصابه الجنون من شدة الآلام التى عاناها فأخذ يقتلع الأشجار من جذورها ثم انتهى به المطاف إلى أن ألقى بصديقه (ليكاس) من قمة جبل (إيتا) ظانا أنه هو الذى أتى له بهذا الثوب المسموم . ولما لم يستطع أن يخلع الثوب (لأنه قد التصق بجسده) أعد هرما من الأحطاب وأشعل فيه النار ثم ألقى بنفسه فيه فتحول إلى سحابة وارتفع إلى السماء وأصبح من الخالدين وميلتون يتبع خطى (أوفيد) فى روايته للأسطورة وليس ما ذكره (سنيكا) أو (سوفوكليس) . (تليارد وقاولر) .
- ٥٦٠ - كانت هذه الموضوعات وبخاصة قضية الجبر والإختيار أو التسيير والتخيير - من القضايا الشائعة بين علماء الدين فى عصر ميلتون وقد عاد إليها ميلتون نفسه فى الكتاب الثالث (٩٦ وما بعده) والكتاب العاشر (٣٤ وما بعده) .
- ٥٦٥ - كانت هذه الموضوعات هى ما اهتم به فلاسفة اليونان والرومان إذ إنهم كانوا يسعون إلى الخير الأسمى وهو ما رآه الأيقوريون فى اللذة وما وجده الواقيون فى التحرر من جميع الانفعالات .

- ٥٦٩ - فى الأصل «المضاعف ثلاثا» وهى عبارة استعارها من (هوراس) .
- ٥٨٣ - تقول الأساطير اليونانية إن الجحيم أو العالم السفلى كانت تحده أربعة أنهار وهى تلك التى أوردها ميلتون هنا وأسمائها باليونانية تقابل الأوصاف التى يوردها لها فمثلا تعنى كلمة (ستيكس) اليونانية المقيت أو الكرية . ويعتمد ميلتون فى وصفه للأنهار الأربعة على ما أورده (فيرجيل) فى الإنيادة (٦) وما ذكره (دانتي) فى الكوميديا الإلهية (الجحيم ١٤) وما قاله (سبنسر) فى ملكة الجان (٢ - ٧ البيت ٥٦ وما بعده) ولكن ميلتون يضيف قائلا إن هذه الأنهار تصب فى البحيرة الملتهبة (انظر الكتاب الأول من الفردوس المفقود ٢١٠ ورؤيا يوحنا اللاهوتى ١٩ / ٢٠ حيث يرد ذكر «بحيرة النار المتقدة بالكبريت ربما ليقدّم المقابل للأنهار الأربعة التى تجرى فى الفردوس (انظر الكتاب الرابع من الفردوس المفقود ٢٢٣ - ٢٢٣ وسفر التكوين ١٠ / ٢) .
- ٥٨٤ - يختلف عن «بحيرة النسيان» التى ورد ذكرها فى البيت ٧٤ أعلاه والبيت ٢٦٦ من الكتاب الأول .
- ٥٨٧ - كان الاعتقاد بأن عذاب الجحيم يتضمن البرودة إلى حد التجمد (إلى جانب الحريق) سائداً فى العصور الوسطى وربما كان يرجع إلى التراث اليهودى . ويقدم (دانتي) وصفا لهذا اللون من العذاب فى الكتاب الثانى والثلاثين من الجحيم كما يشير إليه شكسبير فى صاع بصاع ٣ - ١ - ١١٩ .
- ٥٩٢ - أى بحيرة المتزلة حالياً .
- ٥٩٣ - أى سيناء اليوم .
- ٥٩٥ - ليست هذه مبالغة حسبما يقول (تليارد) إذ إن للصقيع آلاما تشبه آلام الحريق .
- ٥٩٧ - الآلهة اللاتى يطاردن المذنبين (مثل القتلة) حتى يقتصصن منهم .
- ٥٩٨ - فى الأصل «ذوات الأقدام التى تشبه أقدام الهاربى» Harpy - Footed وكان الهاربى حيواناً خرافياً له وجه حساء ، وجسد طائر وأجنحة وأقدام ذات مخالب وقد ذكره (فيرجيل) فى الإنيادة (٣ / ٢١١ إلى ٢١٨) كما ذكره (دانتي) فى الجحيم (١٣ / ١٠) كما ذكره (هوميروس) فى الأوديسا (٧٧ / ٢٠) .
- ٦١١ - كانت (ميدوزا) إحدى الأخوات الثلاث المسميات (بالجرجونات) . كان لها وجه جميل ولكن خيوط شعرها كانت من الأفاعى وكان أى إنسان ينظر إليها مباشرة يتحول إلى صخر أصم . وكان (أوديسيوس) يخاف أن ينظر إليها خلال زيارته لعالم الموتى لهذا السبب (الأوديسا ١٠ / ٦٣٤) وقد استطاع (بيرسيوس) أن يقتلها آخر الأمر بأن تطلع إلى صورتها فى المرأة .
- ٦١٤ - فى الجحيم الذى يصوره (هوميروس) (الأوديسا ١١ / ٥٨٢ - ٥٩٢) كان عقاب طانطال أو (طانطالوس) يتمثل فى العطش إذ وضعه (زيوس) فى بركة ماء وصل سطحه إلى رقبته وكلما أراد الشرب انحسر الماء بعيداً عنه وتقول إحدى الروايات إن عقابه كان بسبب تقديمه طعام الآلهة إلى البشر وتقول رواية أخرى إنه كان يعاقب على طموحه . وتقول إحدى الأساطير إنه عوقب أيضاً بالجوع وكان الثمر يتدلى من الأشجار القريبة من رأسه دون أن يستطيع بلوغها مهما حاول .
- ٦١٨ - انظر إنجيل متى ١٢ - ٤٣ وإنجيل لوقا ١١ / ٢٤ «إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز فى أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد» .
- ٦٢٨ - كان (للجرجونة) شعر من الأفاعى (انظر الحاشية ٧٠) وكانت (الهائيدرا) (التي ترجمتها بالسعلاة) عبارة عن ثعبان مائى ضخم لها تسعة رؤوس وكانت إذا قطعت لها رأس نمت لها اثنان فى مكانها وقد

استطاع هرقل أن يقتلها آخر الأمر . أما الغيلان فهى فى الأصل (كميرة) (باليونانية خيمائرة) وهو غول له رأس أسد وجسد جدى وذيل ثعبان ويث النيران من فمه . وقد استطاع (بلوروفون) أن يقتله آخر الأمر . ويذكر (فيرجيل) هذه الكائنات البشعة ضمن حراس مدخل الجحيم (الإنيادة ٦ / ٢٨٧ إلى ٢٨٩) كما يذكرها تاسو فى تحرير بيت المقدس (٥ / ٤) .

٦٤٠ - جزيرتان فى إندونيسيا بالقرب من جزيرة (جايلولو) أى فى مضائق الملايو .

٦٤٢ - يقول (تليارد) إنه القطب الجنوبى إذ إن اتجاه السفن هنا نحو الجنوب .

٦٤٣ - يقول (فاولر) إن هذا التشبيه دليل على قدرة ميلتون على إيجاد أوجه شبه عديدة بين المشبه والمشبّه به . ويقول (امبسون) إن السفن تبحر ليلاً لأن إبليس كان يطير فى «الظلمات المبصرة» التى ذكرت فى الكتاب الأول وهى بعيدة إلى الحد الذى بدت معه كأنها سراب أو كأنها طائرة فى الهواء وهو ما بدا عليه إبليس فعلاً ، وهى تتجه نحو القطب لأن إبليس كان يقصد سقف السرادق النارى (ص ١٧١) ويضيف فاولر قائلاً إن السفن تحمل عاطر المخدرات لأن إبليس سوف يشتري براءة حواء بعاطر الثمر من الشجرة المحرمة .

٦٥٠ - هذه هى «الخطيئة» رغم أننا لا نعرف ذلك الآن ولا نكتشفه إلا فى البيت ٧٦٠ عندما تخبرنا هى بذلك . والصورة التى يقدمها ميلتون للخطيئة تشبه الصورة التى يقدمها (سبنسر) فى قصيدة ملكة الجان لما يسميه بـ «الخطأ» (١٣ / ١ / ١٥) وقد صور أحد أتباع هذا الشاعر العظيم واسمه (فيتياس فلتشر) الخطيئة فى نفس الصور فى قصيدة بعنوان الجزيرة الأرجوانية (١٢ - ٢٧ - ٢٨) وهو يطلق عليها الاسم اليونانى وهو همارتيا . وهو يرسم لها صورة مختلفة فى قصيدة أخرى تجعلها أقرب شبهاً بالصورة التى يقدمها ميلتون للموت . وقد شاع الربط بين الخطيئة والموت فى هذه الصور الرمزية فى العصور الوسطى وربما كان الأصل فى هذا ما جاء فى رسالة يعقوب (١٥ / ١) « ثم الشهوة إذا حملت تلد خطية والخطية إذا حملت تنتج موتاً » .

٦٥٥ - (كيربروس) هو الكلب ذو الرؤوس الثلاثة الذى كان يحرس الجحيم فى الأساطير الكلاسيكية .

٦٦٠ - كانت (سيلا) فتاة جميلة يحبها إله البحر (جلوكوس) الذى تضرع إلى الساحرة (كيركى) لتساعده على الظفر بقلبها . ولكن كيركى كانت تغار منها ومن ثم دسبت أعشاباً سحرية فى البحر الذى اعتادت (سيلا) أن تستحم فيه وهكذا استطاعت أن تحولها إلى مخلوق شائه له رأس امرأة وجسدها ذيل سمكة ، ويحيط بها كلاب تنبح وتعوى . (أوفيد - مسخ الكائنات - ١٤ / ٥٠ - ٧٤) وكان الشائع أن (سيلا) تعيش فوق صخرة على الساحل الإيطالى لمضائق (مسينا) حيث يعلو موج البحر وصخبه ، والمعروف أن صوت الأمواج وهى تلطم الصخور هناك هو الذى أوحى بنباح الكلاب . وتقول رواية أخرى إن (سيلا) قد تحولت هى نفسها إلى صخرة تمثل خطراً كبيراً على الملاحين بين (ترينا كاريا) أى صقلية و (كالابريا) . وأخيراً فقد شاع فى شروح العصور الوسطى لكتاب مسخ الكائنات أن (سيلا) رمز للشهوة أو الخطيئة .

٦٦١ - (ترينا كاريا) هو الاسم القديم لجزيرة صقلية ، والصوت (مبحوح) بسبب صخب الأمواج .

٦٦٢ - اسمها (هيكات) وقد استخدمت (كيركى) تعاويذ هذه الجنية عندما مسخت (سيلا) . انظر الحواشى السابقة وبخاصة (٧٩) . وفى المشهد الأول من الفصل الرابع من ماكبت (مسرحية شكسبير المعروفة) تظهر (هيكات) للساحرات استجابة لتراتيمهن .

- ٦٦٣ - كان المعتقد أن الساحرات يطرن فى الهواء على مكينة .
- ٦٦٤ - كان الشائع أن الساحرات يقتلن الأطفال .
- ٦٦٦ - تزعم خرافات العصور الوسطى أن السحر يمكن أن يهبط بالقمر إلى الأرض ويخسفه أو يزيل ما به من خسوف . وتربط التقاليد القديمة بين السحر بصفة عامة وبين القمر .
- ٦٧٨ - فى الأصل «ابنه» والمقصود هو المسيح عليه السلام .
- ٧٠١ - انظر ما قاله (رحبعام) فى الملوك الأول ١٢/١١ «أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب» ومعناه المجازى - بطبيعة الحال - أن قبول إبليس لحكم الله كان أفضل له من هذا المصير .
- ٧٠٩ - كوكبة من النجوم يراها سكان نصف الكرة الشمالى صورها القدماء فى صورة حامل ثعبان ضخم . أما عن دلالة المذنب على الشر فهو من تقاليد الأساطير والأعمال الكلاسيكية فقد شبه (تاسو) فى قصيدته تحرير القدس أحد أبطاله بمذنب ضخم ، وفى هذا يحاكي (فيرجيل) فى تشبيهه (اينياس) بالمذنب (الإنياذة ١٠/٢٧٢) ويقول (تيرنر) إن المذنب الذى يشير إليه ميلتون هو المذنب الذى ظهر فى عام ١٨١٦ فى كوكبة (أورفيوكوس) . وقال (ايفلين) فى مذكراته إن ذلك المذنب هو الذى تسبب فى نشوب حرب الثلاثين عاما . والصورة ملائمة لإبليس إذ إنه سيتحول فيما بعد إلى ثعبان .
- ٧١٥ - مدافع السماء : فى الأصل مدفعية السماء أى البرق والرعد .
- ٧٢٢ - أى المسيح عليه السلام ، وذلك عندما «يسد بالموت ذاك الذى له سلطان الموت أى إبليس» (الرسالة إلى العبرانيين ٢ - ١٤) وانظر أيضاً كورنثوس ٢٦/١٥ «آخر عدو يبطل هو الموت» .
- ٧٢٤ - أى الخطيئة .
- ٧٣٥ - أى الموت .
- ٧٤٩ - أى إبليس ومن انضم إلى صفوفه من الملائكة الفسقة .
- ٧٥٧ - مثلما خرجت (أثينا) شاكية السلاح من رأس (زيوس) حسبما تروى الأساطير اليونانية وهذا مثل آخر على مزج العناصر الدينية والكلاسيكية إذ إن ثم إشارة خفية أيضاً إلى رسالة يعقوب ١٥/١ (انظر الحاشية ٧٧) .
- ٨٤٤ - ثبت إبليس أنه قادر على الوفاء بعصده للموت والخطيئة بعد نجاحه فى مسعاه وسقوط آدم وحواء فريسة لغوايته . وفى الكتاب العاشر من الفردوس المفقود (٣٩٧ - ٤٠٩) يدعو الخطيئة والموت ليحكمما الأرض بما فى ذلك الإنسان .
- ٨٥٧ - فى الأصل (تارتاروس) أو الجحيم الأسفل انظر الحاشية رقم (١٤) وقد آثرت ترجمة المعنى هنا دون اللفظ لأن المقصود هو الدلالة البلاغية .
- ٨٨٣ - فى كتاب آخر يورد ميلتون بيتاً للشاعر القديم (هيزيود) يقول فيه « من العماء خرج (إيريوس) والليل الأسود » ولكن كثيراً ما كان يشار إلى (إيريوس) باعتبارها الجحيم الأسفل (انظر الحاشية السابقة) . فمثلاً يقول (فيرجيل) فى الأناشيد الرعوية (٤/٤٧١) إن ظلال الموتى قد نهها وأيقظها «من أدنى دركات إيريوس» غناء (أورفيوس) .
- ٨٨٤ - لن يغلق أبواب الجحيم أحد حتى يوم الحساب وبعدها يغلقها السولى جل وعلا .

- ٨٩٥ - لم يكن العماء في الأساطير الكلاسيكية مجرد كم لا صورة له من المادة ولكنه كان شخصاً يرتبط بالليل (الذي كان يشار إليه من خلال نفس الاستعارة) ولما كان العماء يعنى انعدام الشكل فإن ظلمة الليل هي أفضل ما يناسب هذا اللاشكل . وهكذا فإن النور قد بدأ مع الخلق أما علاقة العماء والليل بالطبيعة فمشروحة في الحاشية التالية .
- ٨٩٨ - في الكتابات الكلاسيكية مثل منشأ الآلهة (لهيزيود) وعن التكوين (بوكاشيو) يرد ذكر العماء والليل باعتبارهما أبوين للقوى المحددة القائمة في الطبيعة . أما وصف ميلتون لنضراع بين الخصال المتناقضة الذي سبق ظهور الكون فهو يحاكي وصف أوفيد للعماء الأول - وذلك في كتابه مسح الكائنات حيث يقول « إن الأشياء الباردة تصارعت مع الأشياء الساخنة ، وتصارع الرطب والجاف ، واللين والصلب ، والخفيف والثقيل » (١٩/١) وقد استطاع معظم المصلحين الدينيين في ذلك العصر أن يوفقوا بين العماء الذي وصفه أفلاطون و (أوفيد) وبين عقيدة الخلق من العدم ، مستلذين إلى كبار علماء اللاهوت مثل (فيلو) وآباء الكنيسة الكبار (القديس أوغسطينوس في كتابه الاعترافات ١٢/٢٩ - ٤٠) .
- ٩٠٤ - (سيرنيكا) تعنى حالياً برقة . وقد ذكرها (فيرجيل) باسم (برقة) في الإنيادة (٤٢/٤) أما في هذا السياق فهي مدينة كبرى (سيرني) . والفرقة إذن تنحصر بين إقليم برقة وبين المدينة .
- ٩١٢ - يشير (سبنسر) في ملكة الجان (٣ - ٤ - ٣٦) إلى العماء باعتباره رحم العالم . ويقول (لوكرشيوس) في (عن طبيعة الأشياء) (٢٥٩/٥) إن العماء قبر كل الأشياء . و (لوكرشيوس) يشير إلى الأرض وليس إلى الهوة السحيقة ، أما ميلتون فإنه يلزم الحذر في التعبير فيقول (ربما) .
- ٩٢٢ - كانت (بللونا) إلهة الحرب في الأساطير ولكنها هنا كناية عن الحرب نفسها .
- ٩٢٥ - المقصود بالسماء الإطار المباشر للأرض ومن ثم فإن الهيكل يعنى الكون .
- ٩٢٦ - يقول (تليارد) إن كلمة (المحور) هنا غريبة على السياق لأن المحور معناه أن ما حوله يدور وهذا بالطبع مخالف لرأى ميلتون الذي يقول في نفس العبارة إن «الأرض ثابتة» . وربما كانت الكلمة تفيد الثبات أيضاً في هذا النص .
- ٩٣٩ - منطقة من الرمال المتحركة في شمال ليبيا بالقرب من مدينة بنغازي - والمقصود هنا أى رمال متحركة .
- ٩٤٣ - (الغريفون) أو (الغريفين) حيوان خرافي نصفه الأعلى يشبه العقاب والأسفل يشبه الأسد . ولذلك فهو يختلف عن الطير الخرافي عند العرب - سواء الرخ أم العقاء .
- ٩٤٥ - قبيلة (اسقيتية) Scythian ذكرها المؤرخ (هيردوت) (٣ - ١٦) على أنها تتكون من ذوى العين الواحدة . و (اسقيتيا) مكان في جنوب روسيا الحالية . وتقول الأساطير إنهم سرقوا كنوز الذهب التي كان (الغريفون) أو الثنين أو الأفغوان يسهر على حراستها . وقد شاعت هذه القصة في الأساطير القديمة الجرمانية واليونانية معاً .
- ٩٦٤ - تجسيدان للجحيم وحاكم الجحيم الأول روماني والثاني يوناني - والهجاء الشائع للأخير هو (هاديس)، وهما في هذا النص كناية عامة عن القوضى والاضطراب والخلل .

٩٦٥ - (ديموجورجون) أحد شياطين العالم السفلى التى يكتنفها الغموض وقد شاع ذكره فى الأدب اللاتينى بعد الميلاد وأصبح مألوفاً فى عصر النهضة . وقد ذكره (سبنسر) فى ملكة الجان (٤/٢/٤٧) وربط بينه وبين العماء . أما عبارة اللقب الرهيب فتعنى «الحضرة» بالمعنى الدينى أى الوجود الذى يفرض الرهبة وقد ذكر (ستاتيوس) أن لقب هذا الشيطان يخيف العفاريت والأشباح وأن معرفة هذا اللقب فى ذاتها تلقى الرعب فى القلوب .

١٠١٧ - كانت السفينة (أرجو) فى الأساطير اليونانية أول سفينة تعبر المحيط وقد ركبها (جيسون) ورفاقه الملاحون وأقلعوا من اليونان وعبروا مضيق البسفور ليأتوا بالفراء الذهبى من منطقة بالقرب من الشاطئ الشرقى للبحر الأسود . وكان عليهم أن يبحروا بين صخرتين متحركتين ما تفتآن تصطرعان . وقد استطاعت السفينة المرور بأن قدر الملاحون الوقت المناسب للعبور أثناء ابتعاد الصخرتين بعضهما عن البعض .

١٠١٩ - يقول (هوميروس) فى الأوديسا إن (أوديسيوس) اتبع نصيحة الساحرة (كيركى) ونحاشى صخرة (خاريديس) بأن أبحر مع التيار المعاكس بحذاء صخرة (سيلا) (انظر الحاشية ٧٩) وكان لكل صخرة دوامة تتلع السفن وهكذا فإن الصورة تتضمن الدوامتين إلى جانب الصخرتين .

١٠٢٠ - صخرة مقابلة لصخرة (سيلا) وحولها دوامة خطيرة (انظر ١١١) .
١٠٥٠ - هنا إشارة إلى ما جاء فى رؤيا يوحنا اللاهوتى (٢١ / ١٨ إلى ٢١) عن وصف «المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله » (١٠) إذ يقول فى (١٩) إن أساسها الثانى من الياقوت الأزرق (وهو ما نسميه اليوم بالسفير) أما معنى « النابض بالحياة » فهو (الذى لم يقطع بل قدم فى صورته الأولى) . وفى هذا إشارة إلى سفر الخروج (٢٠ / ٢٥) « وإن صنعت لى مذبحاً من حجارة فلا تبته منها منحوتة . إذا رفعت عليها أزميلك تدنسها » والمذبح المقصود هو مذبح (يهوه) .

١٠٥٢ - يقول (زيوس) فى الإلياذة إنه أقوى وأعلى من سائر الآلهة ولإثبات ذلك يزعم أنه إذا تدلت سلسلة ذهبية من السماء فسوف يقدر على أن يحمل بها سائر الآلهة والأرض والبحر جميعاً ثم يجعلها تتدلى من قمة الأوليمب (الإلياذة ٨ / ١٨ إلى ٢٧) . ويقول ميلتون فى المقدمة تفسيراً لهذه السلسلة إنها «التوافق العالمى والتوحد العذب بين جميع الأشياء وهو ما يصوره (فيثاغورس) تصويراً شاعرياً باعتباره التناغم» وهكذا فإن ميلتون يقبل التقاليد الفلسفية والأدبية التى تمتد من أفلاطون ، عبر (بوثيوس) و (تشوسر) (انظر قصة الفارس فى قصص كنتربرى) و (سبنسر) (انظر ملكة الجان ١١ - ٧ - ٤٦) .

حواشي الكتاب الثالث

١ - ٥٥ تمثل هذه الآيات مدخلاً جديداً Exordium يتناسب وتغير المشهد من الجحيم (والعماء) إلى السماء، ومن ثم فكان لابد من استلهاهم الله حتى يساعد الشاعر على هذه النقلة . وينصح القارئ بمقارنة هذه البداية بالمدخل الخاص بالكتاب الأول وهو الذي يخاطب فيه الشاعر ربة الشعر و "الروح" وبالمدخل الخاص بالكتاب السابع الذي يحدد فيه الشاعر اسم الربة (أورانيا) - إذ إن مدخل الكتاب الثالث يمس الشاعر نفسه ، على حقله بالإشارات اللاهوتية والفلسفية والفنية . وقد اضطرم الخلاف حول المقصود بالنور هنا فذهب البعض إلى أنه المسيح - مثل "النور الحي" الذي ذكره (دانتي) في الفردوس (٥٥/٧) ، بينما ذكر كيلي Kelley إن ميلتون يتحدث عن النور بمعناه المادي أي الضوء ، على حين يتفق (وليامز) Williams و (ألن) Allen على أن ميلتون يمزج الدلالاتين وأنه ينهج نهج أفلاطون في النظر إلى الضوء ليس فحسب بإعتباره الصورة الأساسية لله ولكنه أيضاً إشعاع الله أي بهاؤه - كما يدل على ذلك استخدام كلمة "البهاء" في البيت السادس من هذا الكتاب والفكرة هي أن هذا "البهاء" يتفرق ليخلق شتى الأشياء التي تعتبر من ثم إشعاعاً لقدرة الله . والواضح من البيت الثاني والآيات من ٥١ - ٥٥ أن ميلتون يقصد بالنور أكثر من مجرد الضوء الذي تدركه العيون ، ولا شك إنه متأثر بالتقاليد المسرحية التي تمتد من العصور الوسطى التي شاع فيها الحديث عن النور الرباني بين المتصوفة (انظر كتاب "الكاتدرائية القسوطية" لمؤلفه (سيمسون) Otto Von Simson طبعة نيويورك ١٩٥٦) ، التي تصبغ كتابات الأفلاطونيين الجدد في عصر النهضة . ولكنه في هذه المقدمة يتحاشى التقييد بأي مذهب فلسفي وضعى ويترك للقارئ حرية تفسير صوره الشعرية .

١ - يمكن فهم البيت الأول بأكثر من طريقة: فهو يعنى إما أن النور هو أول أبناء السماء أي أول ما خلق الله ، أو أنه المسيح - كما يتردد ذلك في الإنجيل والتوراة (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس)

٣ - يقول الشراح إن ميلتون لا يلام على استخدامه هذه الصور وربما كان إحساسه بأن كلمة "صنو الخالد" يمكن أن توقعه في مشكلات لاهوتية (لأنها قد توحي بأن ثمة صنو للرب) هو الذي جعله يقتبس كلمات التوراة في الآيات من ٣ - ٦ وهي في الترجمة العربية المنشورة (انظر مقدمة الجزء الأول) : "الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يُدنى منه أحد من الناس" (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ١٦/٦) أما أن الله هو النور فإشارة إلى إنجيل يوحنا (٥/١) .

٨ - إشارة إلى الآية الواردة في سفر أيوب "أين الطريق إلى حيث يسكن النور؟" (١٩/٣٨) ، أما صورة النهر فمستقاة من فردوس (دانتي) (٣٠/٦١ - ٧٣) حيث تستخدم هذه الصورة للدلالة على الرحمة التي يغدقها الرحمن على الخلق .

٩ - ١٢ إشارة إلى التوراة "وقال الله ليكن نور فكان نور" (التكوين ١/٥) وإلى المزامير حيث يشار إلى أن الله "يلبس النور كثوب" (٢/١٠٤) - أما العدم والهيولة فيشيران إلى العماء الوارد في الكتاب الثاني - (انظر الجزء الأول) - وفي البيت ١٨ هنا .

١٧ - ٢١ يشير ميلتون هنا إلى الدلالة الرمزية لأسطورة (أورفيوس) في كتب القرن السابع عشر انظر مقال (هنري رينولدز) Henry Reynolds بعنوان "أسرار الأساطير" - الذي أورده (سبنجارن) J. E. Spingarn في كتابه (مقالات نقدية من القرن السابع عشر - أكسفورد ١٩٠٨) الذي يتضمن الفقرة التالية : "شاعت قصيدة (أورفيوس) وتغناها المنشدون وفحواها أنه استطاع أن يستعيد زوجته (يوريديس) من الجحيم بقوة موسيقاه ، فالموسيقى هنا تمثل الحقيقة والعدالة بينما تمثل الجحيم الهمجية والجهالة - أي أن الموسيقى ترمز لأفكاره ومبادئه العميقة الممتازة ، غير أن (أورفيوس) قد فقد زوجته وهو يمضي بها في طبقات الظلمة الكثيفة من قشرة الأرض" (المجلد الأول - ١٥٨) أما قول ميلتون بأن ألحانه "تختلف" عن ألحان (أورفيوس) فيفسر (فاولر) ذلك بأن ميلتون لم يكن يشكو فقد زوجته .

٢٣ - يشير ميلتون ، كما هو واضح ، إلى الضوء المحسوس ولكن العقيدة القديمة لم تتغير وهي أن النور السماوي لا يختلف عن النور الأرضي من حيث الدرجة رغم أنه أنقى ورغم أنه يرمز إلى الحق والحكمة وقد سبق ميلتون إلى ذلك الشاعر الإنجليزي ادموند سبنسر في قصيدة قصيرة بعنوان أنشودة إلى الجمال السماوي - إذ يقول فيها :

ولكن ذلك النور الخالد الذي يسطع هناك
أنقى وأبهى آلاف المرات
وأكثر امتيازاً وسناء وقدسية
إذ إنه النور الذي يكسو فعال البشر أمام الله
بل وأفكار البشر
فهو ينبع من الحق الخالد
وفضائل السماء التي تنميه بأشعتها .

١٦٩ - ١٧٥

٣٠ - يقصد بجبل (صهيون) أنه يفضل الشعر العبراني على غيره .

٣٢ - كان من عادة ميلتون أن يكتب الشعر ليلاً .

٣٥ - ٣٦ (تامريس) Thamyris شاعر ذكره (هوميروس) في الإلياذة (الكتاب الثاني ٥٩٤ - ٦٠٠) وقال إنه توله بحب ربات الشعر وتحداهن إلى نزال يقدم فيه الخاسر كل ما يريده المنتصر . وعندما انتصرت ربات الشعر أخذن بصر الشاعر وقيثارته (وفي رواية أخرى قدرته على الإنشاد) - ومن ثم شاع تعبير Thamyris insanit أي "جن (تامريس)" وكانت تطلق على من يحاول إنجاز ما فوق طاقته . ولما لم يبق من مؤلفات (تامريس) ما يبرر طموح ميلتون إلى نفس الدرجة من الذبوع فقد مال بعض الشراح إلى تصور خوف ميلتون من تصوير السماء باعتبار ذلك فوق طاقته . ويقول فاولر إن فكرة كف البصر وطاقات النبوءة - ومنهم (بيكو) Pico الذي يورد اسم (هوميروس) واسم (تيريسياس) في هذا السياق . بل إن ميلتون نفسه يذكر هذا صراحة في إحدى قصائده اللاتينية

وعنوانها "عن الصورة المثالية الأفلاطونية كما فهمها أرسطو" إذ يقول في البيت ٢٦ إن كف بصر (تيريدياس) وهبه بصيرة نافذة، وترجمتها الحرفية (وهبه نوراً نافذاً) . وأما (فينيوس) فكان ملكاً فقد بصره - حسبما تقول إحدى الروايات - لأنه تفوق في نبوءاته فأخذ يفشى مشورات الآلهة . ولكن ميلتون أنكر إن فقدان البصر كان عقاباً له في مقال لاحق (هو "الدفاع الثاني") .

٤٧ - "كتاب المعرفة" يعنى هنا كتاب الطبيعة أو كتاب الله كما يسميه ميلتون في هذه القصيدة (الكتاب الثامن، البيت ٦٧) .

٤٨ - المعنى الأول للخواء هو الصفحة الخالية ولكنني فضلت المعنى الثاني (انظر قاموس أكسفورد الكبير - المعنى رقم ٦ ب للكلمة) .

٦٠ - في الأصل "القداسات" ومعناها الأرباب أى الملائكة - والقداسة صفة من صفات الملائكة ومن ثم فهي كناية عنهم . انظر أيضاً الحاشية على البيت ٧٦٧ من الكتاب السادس .

٦٢ - ٦٣ إشارة إلى الآية الواردة في الرسالة إلى العبرانيين "ابنه . . . الذى جعله وارثاً لكل شئ . . . الذى وهو بهاء مجده ورسم جوهره . . . جلس فى يمين العظمة فى الأعالي" (١/١ - ٣) من الترجمة العربية المنشورة .

٧٤ - فى الأصل "العالم" والمقصود بها الكون لا الأرض (انظر الكتاب الثانى البيتين ١٠٥٢ - ١٠٥٣) .

٧٥ - "سما" هنا معناها "الجو" - ولما كانت داخل القشرة التى تحيط بالكون ولما كان إبليس يقف عليها الآن فإنه لا يستطيع رؤيتها .

٩٤ - الأمر الأوحى هو ألا يأكل الثمرة المحرمة .

١٠٣ - ١٠٦ انظر ما يقوله ميلتون فى كتابه "عن العقيدة المسيحية" (٤/١) : "إذا لم نسلم بحرية الإرادة فسوف يصبح حبنا لله وعبادتنا له عبثاً لا طائل منه ولا قيمة له . . . ومن ثم فلن يكون هناك مجال لتقبل أى تكاليف (جمع تكليف) تؤدى بمقتضى قانون الضرورة أو الحتمية ، وذلك لانقضاء الحرية التى لا بد منها حتى نكتسب الإرادة معناها" .

١٠٨ - ربما كان ميلتون يشير هنا إلى ما قاله أرسطو عن العقل فى كتاب الأخلاق انظر أيضاً ما يقوله ميلتون فى أريوباجيتيكا : ما أحقق هؤلاء الذين ينعون على العناية الإلهية أن تركت آدم يقترف الإثم ! ما أحقق تلك الألسنة ! إن الله حين وهبه العقل وهبه فى الحقيقة حرية الاختيار فما العقل إلا الاختيار - وإلا لكان آدم زائفاً غير طبيعى" . (انظر الحديث عن هذا الموضوع فى مقدمة الملحمة) .

١١٣ - ١٢٣ يوضح ميلتون فى كتابه عن العقيدة المسيحية - أنه يوفق بين التسيير والتخيير عن طريق العلم الأزلى ، وأنه يعارض فكرة الحتمية كل المعارضة . فيقول مثلاً : "إن الأحداث المقبلة التى يعرفها الله قبل أن تقع سوف تقع ولا شك . . . لأن العلم الإلهى السابق لا يمكن أن يخطئ ، ولكن هذه

الأحداث لا تقع بالضرورة أو الحتم لأن العلم السابق لا يمكنه التأثير على الشيء المعلوم سلفاً لأن "يعلم" فعل لازم فحسب" (٤/١) .

١٢٥ - الواضح أن الحديث يدور عن آدم وحواء - رغم استمرار الحديث عن "القوى الأثرية" المذكورة فى البيت ١٠٠ - وهذه السيولة فى بناء الجملة تجعل ميلتون يتقل من المستقبل (البيت ١٢٥) إلى الحاضر (الآيات ١٢٢ و ١٣٠) إلى الماضى (١١٦ و ١١٨ و ١٢٨) بحيث يؤكد قدرة الله على رؤية الزمن السرمدى فى كل حالاته كما نص على ذلك فى البيت ٧٨ من هذا الكتاب .

١٥٣ - ١٥٤ انظر سفر التكوين : "حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تمت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشا لك" (٢٥/١٨) .

١٥٦ "الخصم" هو المعنى الحرفى لكلمة Satan بالعبرية (إيليس هنا) .

١٧٣ - ٢٠٢ يعارض ميلتون فى كتابه عن العقيدة المسيحية موقف (كالقن) الذى يعتبر الإنسان عاجزاً كل العجز عن تحقيق الخلاص - وهو هنا يوحى بنفس الموقف إذ يقول إن الإنسان قادر على الخلاص وذلك بالصلاة والتوبة والطاعة (البيت ١٩١) .

١٨٤ - معنى الاصطقاء فى ميلتون (مثلما هو عند الكالفينيين - انظر مقدمة الجزء الأول) هو الإيمان والثبات عليه .

١٩٣ - يبدأ الوفاء بهذا الوعد فى الكتاب الحادى عشر ١ - ٤٧ عندما يتقبل الله صلاة آدم وحواء ويقبل توبتهما .

٢٠٦ - فى الكتاب العاشر (٧٠٨ - ٧١٧) يغوى إيليس حواء حين يعدها بأنها سوف تصبح هى وآدم "مثل الأرباب" .

٢١٦ - الكلمة الإنجليزية Charity المشتقة من اللاتينية Caritas تفيد المحبة الرحيمة ، وهى تقترب من المعنى السائد حالياً وهو الإحسان بمعناه الدينى - فالإحسان المادى لا بد أن يقوم على المحبة والرحمة وإلا فقد معناه . وهو بعد درجة من درجات الإيمان .

٢٤٤ - انظر إنجيل يوحنا "لأنه كما أن الأب له حياة فى ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة فى ذاته" (٢٦/٥) .

٢٤٨ - ٢٥٩ تتضمن هذه الآيات إشارات كثيرة إلى الكتاب المقدس .

٢٦٧ - ٢٦٩ يقول (فاولر) إن طاعة الابن تفوق محبته ، وهو ما ينبغى أن يكون وفقاً لترتيب الفضائل فى نظر ميلتون . "فالمسيح هو الشخص الوحيد الذى يتسم بالطاعة البطولية فى القصيدة" انظر الكتاب السادس ٨٢٠ ، والتاسع ٣١ - ٣٢ ، والسابع ٦٠٢ - ٦٠٧ .

٢٧٧ - ٢٧٨ انظر ما يقوله الملك لير فى مسرحية شيكسبير الشهيرة بهذا الاسم عن ابنته كورديليا (ف ١ - م ١ - البيت ٨٥) .

- ٢٨٣ - انظر إنجيل يوحنا "والكلمة صارت جسداً" (١٤/١) .
- ٢٨٥ - ٢٨٦ انظر رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس - "إن رأس كل رجل هو المسيح . . . ورأى المسيح هو الله" (٣/١١) .
- ٢٨٧ - انظر كورنثوس ١ : "لأنه كما فى آدم يموت الجميع هكذا فى المسيح سيحيا الجميع" (٢٢/١٥) .
- ٢٩٠ - ٢٩٤ انظر الرسالة إلى أهل رومية (١٧/٥ - ١٩) .
- ٣٠٠ - ٣٠١ لاحظ أن ميلتون يستخدم الفعل الماضى (دمره) ثم الحاضر (يدمره) فى نفس الوقت بحيث يشعر القارئ أن السقوط قد حدث بالفعل ولكن الإحياء الأول هو أن الزمن هنا فىض لا زمنى ويقول أحد الشراح إن ميلتون يتحدث عن السقوط كأنما حدث فى الماضى ، ربما لأن كل شيء - بما فى ذلك أحداث المستقبل - حاضر فى نظر الله .
- ٣٠٧ - يعلق (فاولر) على غرابة الإستعارة هنا أى على تعبير "ثمار الربوبية" قائلاً إن الاستعارة تتضمن تورية تشير إلى تناقض السلوك لدى آدم : فيها هو المسيح على استعداد للتخلي عن "ثمار" الربوبية من أجل الإنسان ولكن الإنسان لا يتخلى عن "الثمرة" التى ترفعه إلى مصاف الخلود أى إلى الإقتراب من الربوبية .
- ٣١٧ - ٣١٨ انظر العبارة الواردة فى إنجيل متى (١٨٩/٢٨) "دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض" - وقد ورد فى كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية أن هذا النص الإنجيلي دليل على أن المسيح يختلف فى جوهره عن الأب .
- ٣٢٤ - ٣٢٩ استقى ميلتون صور يوم القيامة من العهد الجديد من رؤيا يوحنا ومن إنجيل متى (٢٤/ الآية ١٦ وما بعدها) ومن الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥/ الآية ٥١ وما بعدها) .
- ٣٣٩ - ٣٤٣ انظر كورنثوس الأولى (٢٨/١٥) "ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه سيخضع للذى أخضع له الكل كي يكون الله الكل فى الكل" - وقد حيرت هذه الآيات الباحثين ، ويُنصح القارئ بالنظر فى رأى (إميسون) فى استخدام كلمة "الكل" عند ميلتون (ص ١٠١ - ١٠٤) .
- ٣٥٢ - زهر (الاماران) يعنى فى الأصل اليونانى الزهر الذى لا يذوى ولا يبلى وقد لجأ ميلتون إلى هذا الاسم استناداً إلى ما جاء فى العهد الجديد "سوف تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى" (رسالة بطرس الرسول الأولى - ٤/٥) والكلمة باليونانية هى أمارانتينون amarantinon - وقد كان هذا الزهر يميل إلى اللون الأرجوانى ويعتبره أحد الشراح رمزاً للخلود - ويعتقد (فاولر) أن ميلتون كان يعرف أن أكاليل الزهور من التقاليد الوثنية القديمة وأنه كان يستخدمها هنا عمداً للمقارنة بين رمزية الزهور فى الوثنية والمسيحية .
- ٣٥٧ - ٣٥٩ من الآيات التى تُستخدم فيها صور الأنهار رموزاً لفرح المؤمن آية فى المزامير تقول "من نهر نعمك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة" (٨/٣٦ - ٩) .

٣٦٧ - كنانة السهام القديمة كان يوضع فيها القوس أيضاً ولذلك كانت مقوسة مثل القيثارة .

٣٧٥ - ٣٨٢ صورة النور والسحاب مأخوذة من الكتاب المقدس (تكوين ١٤/١٦ ، و ٣٣ - ١٨ وما بعدها وإشعياء ١/٦ وما بعدها وتيموثاوس ١٦/٦) .

٣٨٣ - انظر رؤيا يوحنا (١٤/٣) حيث ترد الآية القائلة إن المسيح هو "بداة خليقة الله" ، وكولوسي (١٥/١ و ١٧) - ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية "إن المسيح نفسه مخلوق بإعتباره أول إنسان وأول الخلق" وقد ثار الجدل حول هذه الفكرة خاصة بالنسبة لمعنى كلمة أول - أي إذا ما كانت تعنى التكريم أو السبق الزمني .

٤٠٧ - كثيراً ما صور الأدباء المسيحيون نظرة الله إلى الإنسان في صورة حوار بين أربع صفات من صفاته بعد تجسيدها والحديث على لسانها - والصفات هي الرحمة والعدالة والحق والسلام . وقد نوقش ذلك مناقشة مستفيضة في كتاب "بنات السرب الأربع" من تأليف هوب ترافر Hope Traver (فيلادلفيا - بنسلفانيا - ١٩٠٧) .

٤٣١ - ٤٤١ في كل التشبيهات الملحمية الطويلة التي يبينها ميلتون تتعدد أوجه الشبه بين المشبه والمشبه به . فإبليس يشبه النسر في شراسته وإدراكه الفريسة على البعد وطريقة تحليقه ، كما تشبه الحملان وصغار المعز بنى الإنسان لبراءتها وانقسام القطيع فيها إلى خراف وجداء (إنجيل متى - ٢٥ / ٢٢) إلى جانب التشابه الجغرافي بين رحلة (جنكيز خان) ورحلة إبليس (أي من الثلوج إلى الأنهار) . ويلاحظ أن ميلتون يجمع آخر الأمر بين المشبه والمشبه به حين يوحى بأن نهر (جانكيز) هو نهر (الفيشون) المذكور في سفر التكوين (١١/٢) .

٤٥٩ - يقصد "بالبعض" الشاعر الإيطالي الكبير (أريوسطو) كما تصور آخرون وجود من يعيش على سطح القمر مثل (برونو) و (كاردن) و (هنري مور) (انظر كتاب ميلتون والمعرفة المحرمة من تأليف هوارد شولتر - نيويورك ١٩٥٥) .

٤٦٣ - ٤٦٥ أول الحمقى هم العمالق "الجابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم" والذين جاءوا نتيجة الاقتران الخاطئ بين "أبناء الله" و "بنات الناس" (تكوين ٤/٦) .

٤٦٩ - ٤٧٣ يذكر أحد قدماء الكتاب في كتاب له عن أتباع (فيثاغورس) والرواقيين أن (إمبادوقليس) و(كليومبروتوس) قد انتحرا لإيمانتهما بخلود الروح - فأما الثاني فقد انتحرق غرقاً بعد أن أساء فهمه لمؤلفات أفلاطون وبالذات (فايدو) ، وأما الأول فقد انتحرق تمرداً على بشرته ومحاولة منه للخلود . (انظر مثلاً ما يذكره (هوراس) عن هذا في فن الشعر حيث يقول: "لقد ألقى إمبادوقليس بنفسه يوماً في نيران (إتنا) رغبة منه في أن يخاله الناس بين الخالدين." (السطور ٤٦٤ - ٤٦٦) من ترجمة الدكتور لويس عوض .

٤٧٤ - ينتقد ميلتون هنا بعض التقاليد الكلاسيكية التي تنص على أن البلهاء والمشوهين والأطفال "غير انعمدين" مأواهم إحدى الطبقات العليا في الجحيم وهي طبقة Limbo infantum - أما الفرنسيون فقد قالوا إن هذه الطبقة تقع فوق الأرض في منطقة من مناطق النور .

٤٧٥ - كانت طبقات الكهانة الفقيرة تتميز بألوانها المختلفة فاللون الأبيض يعنى الطبقة الكرملية ، والأسود طبقة الدومينيكان والرمادى الفرنسيسكان . وميلتون يقصد السخرية من الأهمية التى يوليها هؤلاء إلى اللون وإلى المظاهر الفارغة . كما يبين ذلك فى البيت نفسه بإشارته إلى البهرج .

٤٧٦ - ٤٦٧ (جلجشه) هو التل الذى وقعت عليه حادثة الصلب . وميلتون هنا يقول إن الحجاج يكررون الخطأ الذى وقع فيه الحواريون قبل أن يعرفوا أن المسيح قد رفع إلى السماء (انظر إنجيل لوقا) : "لماذا تطلبين الحى بين الأموات ؟ ليس هو ههنا لكنه قام" (٥/٢٤) .

٤٧٩ - ٤٨٠ تعتبر هذه الصورة تمهيداً لتخفى إبليس ابتداء من البيت ٦٣٤ فى نفس الكتاب . وتقارن هذه الفقرة بما ذكره دانتي فى "الجحيم" (٦٧/٢٧ - ٨٤) عن محاولة (غويدودا مونفلترو) دخول الجنة بإزتنائه مسوح رهبان الفرنسيسكان ، وفشله فشلاً ذريعاً لأن التوبة شرط من شروط الغفران ولا تكفير عن الذنوب دون توبة .

٤٨١ - ٤٨٣ أقرب الأفلاك التى يمرون بها إلى الأرض هى : فلك الكواكب السبعة ، ومن بعدها الفلك الثامن - فلك النجوم الثابتة - ثم الفلك البلورى ، ثم الفلك العاشر وهو أول الأفلاك حركة أى أنه المحرك الأول .

٤٨٢ - "الميزان" هنا له عدة معانٍ أولها هو "الميزان" أى برج الميزان ، (وهذه تورية شائعة) وثانيها هو "الإتزان" أى اتزان حركة فلك الكواكب مع الفلك البلورى . وثالثها وهو أهمها هو "التوازن" بين فلك الكواكب السبعة مع اهتزاز فلك النجوم الثابتة . وقد حاولت التوفيق والجمع بينها فى الترجمة . كان أهل العصور الوسطى يتصورون أن هذا الاهتزاز هو سبب اختلاف طول الليل والنهار بين الفصول المتعاقبة . بل إن كوبرنيك (كوبرنيكوس) كان يؤمن هو الآخر بوجود هذا الاهتزاز . (انظر كتاب تاريخ الفلك من طاليس إلى كبلر - تأليف دراير - ١٩٥٣ خاصة صفحة ٣٢٩ وما بعدها ، وكتاب التكفير الفلكى فى إنجلترا فى عصر النهضة - تأليف ف. ر. جونسون ١٩٣٧ - صفحة ١١٠ وما بعدها وكتاب ثلاثة مباحث لكوبرنيكوس نشر وتحقيق ادوارد دوزين - نيويورك ١٩٥٩ - صفحة ٤٥ وما بعدها) . أما عن أهمية رمز "الميزان" فى شعر ميلتون فانظر الأبيات ٩٩٧ - ١٠٠٤ من الكتاب الرابع . والحاشية .

٤٩٤ - "ظهر الكون" هو نصف الكرة المظلم لأول الأفلاك حركة - وهو أبعدنا عن السماء أى السماء المشرقة التى ورد ذكرها فى البيت ٤٢٩ .

٥٠٦ - ٥٠٧ يحتمل أن يكون المدخل مرصعاً بالآلآء التى "تشبه الشمس المشرقة وهذه بعض معانى كلمة براءة Orient التى تعنى الشرق فى غير هذا الموضوع - انظر رؤيا يوحنا ٢١/٢١ حيث يقال إن الأبواب الإثنى عشر لأورشليم الجديدة كانت "اثنتا عشرة لؤلؤة" .

٥١٠ - كان الرسامون يصورون "سُلَّم يعقوب" فى لوحاتهم الدينية باعتباره رمزاً للصعود إلى السماء حتى بعد العصور الوسطى وحتى عهد ميلتون . والأصل (كما هو وارد فى سفر التكوين ٢٧ - ٢٨) أن

يعقوب - بعد أن خدع أخاه لينال بركة أبيه - هاله أن يرى فيما يرى النائم سلماً يمتد صاعداً إلى السماء ، مما جعله يقسم قسماً مُغلطاً بطاعة الله فالسُّلم يعني أن دخول الجنة لا سبيل له إلا التوبة والإخلاص في العبادة والعكوف على تأمل الطبيعة التي خلقها الله وليس بمفتاح يمسكه القديس بطرس . ويقول (فاولر) إن التقاد كثيراً ما يخطئون فهم علاقة هذه الصورة بموقف إبليس ، ثم يشرح هذه العلاقة قائلاً : إن إبليس قد هرب من مقر عقابه ووصل إلى مقترب الطرق أي إنه كان قادراً حتى في هذه اللحظة على التوبة . ويضيف (فاولر) : وثم إشارة أخرى إلى رؤيا يعقوب إذ إن إبليس على وشك أن يتأمل بدائع الطبيعة حينما "لاح له هذا العالم كله بصورته الكاملة" (البيتين ٤٥٢ - ٥٤٣) . بينما يقول البروفسور كريستوفر ريكس في كتابه أسلوب ميلتون الرفيع - أكسفورد - ١٩٦٣ - إن ثمة تناقضاً بين المشبه والمشبه به لأن يعقوب نبي وهو يختار التوبة أما إبليس فشیطان وقد حقت عليه اللعنة . (صفحة ١٦٧ وما بعدها) .

٥١٣ - (أرام) هي سوريا . أما حقل (لوز) فهو الاسم القديم لمدينة (بيت إيل) أو بيت الله - حيث توقف يعقوب وجاءته رؤيا السُّلم . (انظر سفر التكوين ١٨/١٩) .

٥١٥ - انظر ما جاء في سفر التكوين "فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم . وخاف وقال ما أَرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء" . (١٦/٢٨ - ١٧) .

٥١٦ - ٥١٧ ذهب بعض الشراح إلى إقامة علاقة رمزية بين سُلْم يعقوب وبين السلسلة الذهبية التي قال هوميروس إنها تربط الكون إلى (جوبيتر) (رب الأرباب) لأن كل درجة ترمز إلى درجة من درجات الوجود الطبيعي أو ما يسمى سُلْم الطبيعة الذي يحدد مراتب الوجود .

٥١٨ - البحر هو ما يسمى "الماء الذي يحيط بالسماء" (خارج الكون) والذي يتدفق حول باب السماء . وقد ورد ذكره في رؤيا يوحنا ٦/٤ على أنه "بحر من الزجاج" .

٥٢١ - ٥٢٢ يقول إنجيل لوقا (٢٢/١٦) إن العازر حين مات "حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم" وتقول التوراة (الملوك الثاني ١١/٢) إن الشيع حملته الملائكة في "مركبة من نار وخيل من نار" . أما صورة الإبحار في البيت ٥٢٠ فتذكرنا بالصورة التي رسمها دانتي في المطهر لسفينة تنطلق بها الملائكة .

٥٣٥ - (بانياس) هو الاسم اليوناني الذي أُطلق في العصور الحديثة على نبع (دان) وينبغي ألا نخلط بين هذا النبع ومدينة (دان) الواردة في الكتاب المقدس .

٥٣٦ - بير سبع تمثل الحد الأقصى في الجنوب لأرض (كنعان) مثلما كانت (دان) تمثل الحد الأقصى في الشمال لها . وكان التعبير الشائع هو "من دان إلى بير سبع" . (انظر قضاة ١/٢٠) .

٥٣٨ - ٥٣٩ المقصود بالظلام هنا بالطبع هو العماء - غير أن بعض الكلمات في الآيات السابقة (التخوم - الحدود - موج البحر - سواحل) توحى بمعنى مجازي آخر هو ظلمة الجاهلية أو ظلمة الوثنية التي

تحدها تخوم الأرض المقدسة . انظر الصورة الواردة في سفر أيوب ٣/٢٨ "إنه يضع حدوداً للظلام" .

٥٤٢ - ٥٥١ تقول إيزابيل ماكافري في كتابها "الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة" - كيمبرج - ماساتشوستس - ١٩٥٩ - "إن هذه الصورة تنقل إلينا بدقة الأثر الذي تحدثه القصيدة بصفة عامة - أي صورة شيء صلب معقد يمكن النظر إليه نظرة كلية" ص ٥٠ وتسهب الكاتبة في الحديث عن الدلالة المعنوية والخلقية للصور البانورامية في الفردوس المفقود باعتبارها صوراً للاتساق والإنتظام .

٥٥٥ - ٥٦١ يجد بعض الشراح صعوبة في تصور المكان الذي يقف فيه إبليس ليطل من علٍ على العالم الجديد . . ولكن الواضح أنه يقف على خط الاستواء السماوي والذي كان يمثل المدار الأساسي للأفلاك قبل خلق العالم وهبوط الإنسان . .

٥٥٦ - "القبة الكبرى" هي الصورة التقليدية للسماء والمقصود عادة قبة من النسيج تشبه سقف السرداق - ولكنها تتحول في أيدي الشعراء من صورة إلى صورة - فمثلاً يشير إليها شكسبير في مسرحية هاملت (الفصل الثاني - المشهد الثاني - الأبيات ٣١٨ - ٣٢١) باعتبارها قبة من الهواء المرصع بالنجوم :

هذه القبة البديعة الرائعة - قبة الهواء

هذه السماء الجميلة المعلقة فوق رؤوسنا

هذه السقف الرفيع المرصع بالنيران الذهبية

أما هنا فتعني الجانب من السماء الذي يسقط عليه ظل الأرض فالفارئ يلاحظ أن الوقت في الأرض هو منتصف الليل ، وأن إبليس يرى من تحته أرضاً مظلمة تلقى ظلاً مخروطياً يتجه طرفه إلى موضع قدميه .

٥٥٧ - ٥٥٩ المقصود بالنجم الناعم برج الحمل - والأصل في النص الإنجليزي هو "النجم ذو الفراء" - وقد ترجمت المعنى غير الظاهر لأن برج الحمل ليس نجماً واحداً . أما أن هذا النجم يحمل (أندروميذا) فتفسيره أن برج الحمل وكوكبة (أندروميذا) متجاوران تجاوزاً شديداً بحيث يشرقان معاً ويغربان معاً - مما ييسر تصور ما يعنيه ميلتون .

٥٦٠ - ٥٦١ يقول إمبسون إن ميلتون يعنى قطبي الأرض (انظر كتابه بعض صور الشعر الرعوى - ١٩٥٠ - ص ١٥٠) - ولكن المقصود هو قطباً السماء - أما كلمة العالم في البيت ٥٦٢ فتشير إلى الكون بصفة عامة . وأما قول ميلتون إن إبليس ينقل عينيه من القطب إلى القطب ليدرك عرض العالم فيقتضى قدرة فائقة على التصور لأنه يقتضى أن تتخيل أن الكون قد مال على جانبه . ولكن ميلتون يعتمد على نص ديني هو ما ورد في سفر أيوب (١٨/٣٨) "هل أدركت عرض الأرض ؟" .

٥٦٢ - "أولى مناطق العالم" لا تشير إلى منطقة على الأرض بل إلى آخر طبقة من طبقات الجو - فوق الطبقات الثلاث الأولى المعرفة والمذكورة في الكتاب الأول حيث يشير ميلتون في البيت ٥١٥ -

٥١٦ إلى "السماء الوسطى . . أرفع سماواتهم" وانظر الحاشية على البيت ٥١٦ من الكتاب الأول التى تفصل القول فى تقسيم السماء إلى ثلاث مناطق أو طبقات أو سماوات .

٥٦٤ - "الصقل" هى ترجمة للمعنى فالأصل يقول "مثل الرخام" وقد سبقه فى استخدام هذا التركيب اللاتينى (فيرجيل) فى الإنيادة (٧٢٩/٤) وانظر أيضاً شكسبير - فى مسرحية عطيل ف ٣ - م ٣ - البيت ٤٦١ حيث يصف السماء بأنها كالرخام - ولو أن التعبير فى شكسبير قد يقصد به الدوام وليس الصقل .

٥٦٥ - ٥٧١ فكرة الحياة فى الكواكب الأخرى فكرة محببة إلى ميلتون فهو يذكرها فى البيتين ٤٥٩ و ٦٧٠ من نفس هذا الكتاب - ويعود إليها فى الكتاب الخامس (٢٦٣) والسابع (٦٢١) والثامن ١٤٠ - ١٥٨ و ١٧٥ وقد كانت الفكرة شائعة وكتب عنها الكثيرون فى القرن السابع عشر - كما كان معظم علماء الفلك يقبلون وجود سكان فى كواكب المجموعة الشمسية نفسها . انظر مقالة الأستاذة مارجورى نيكولسون "عالم فى القمر" (العنوان الكامل فى ثبوت المراجع) - وكتاب راجان الفردوس المفقود وقارئ القرن السابع عشر - لندن - ١٩٦٢ - ص ١٥٣ - وكتاب البروفسور آرثر لافجوى "التسلسل الأكبر للوجود - دراسة لتاريخ فكرة" - نيويورك - ١٩٦٠ - ص ١٠٨ - ١٤٢ . وتقول مارجورى نيكولسون فى كتاب آخر هو "كسر الدائرة : دراسات فى تأثير العلم الجديد على شعر القرن السابع عشر" - طبعة إيفانزتون - إلينوى - ١٩٥٠ - تقول "إن رحلة إبليس فى عالم العماء تمثل إحدى "الرحلات الكونية" الكبرى فى عصر كان يقبل فكرة وصول ملاهى الفضاء الخياليين إلى القمر والكواكب بحثاً عن عوالم أخرى وبشر آخرين" ص ١٦٥ .

٥٦٨ - ورد ذكر حقول هسبيريا أى إيطاليا فى الكتاب الأول البيت ٥٢٠ (وانظر الحاشية) ولكن الحدائق الهسبيرية تختلف عنها - فهذه الحدائق كانت فى نظر القدماء تقع فيما وراء المحيط الأطلنطى - انظر البيتين ٥٥٩ - ٥٦٠ - وقد ذكر هيزيود أن (جوبيتر) رب الأرباب قد عهد إلى قوم يطلق عليهم "الهسبيريون" أى أهل هسبيريا بحراسة ثمار التفاح ولكنهم لم يفلحوا - ويذكر هيزيود أن هذه الحدائق تقع أيضاً فيما وراء المحيط . ويورد البروفسور لافجوى (فى الكتاب المذكور آنفاً ص ١٠٩) رأياً ذكره (جون ولكنز) مفاده أن فى هذه العبارة تلميحاً بأن سكان الكواكب الأخرى "قد أصابهم خطيئة آدم" - وهذه فكرة طالت مناقشتها فى ذلك العصر . وربما كانت فيها إشارة خفية إلى سقوط الجنس البشرى أيضاً .

٥٧٠ - "الجزر السعيدة" إشارة إلى جزر المباركين التى تحدثت عنها الأساطير اليونانية إذ إن بعض المصطلقين من البشر فيها كانوا لا يموتون . وقد ورد التعبير ثانياً (مقترناً بذكر هسبيريا) فى الكتاب الثامن فى الآيات ٦٣٠ - ٦٣٢ .

٥٧٣ - ٥٧٦ يقول (فاولر) إن هذه فقرة عسيرة الفهم لأنها تجمع بين الاختيارات التى يواجهها إبليس والاختيارات المطروحة فى زمن ميلتون إزاء شكل الكون . فأبليس يستطيع أن يخترق الكون من وسطه ويستطيع أن يدور فى الأفلاك الخارجية مع الشمس مثلاً حتى يصل إلى الأرض - أما لماذا لا

يستطيع ميلتون تحديد المسار (إذ يقول فى البيت ٥٧٥ "لا نستطيع القطع فى هذا") فربما لأنه لا يريد إظهار التزامه بمذهب فلكى دون غيره . وآية ذلك أن الوسط (أى مركز الكون) ربما كان الأرض وربما كان الشمس - حسبما توحى هذه الفقرة - ولا بد أن ميلتون كان مُلمًا بالنظريات الذائعة آنذاك عن مركز الكون - بل عما إذا كان الكون له مركز على الإطلاق ، وربما كما يقول (فرانسيس بيكون) كانت النجوم متشرة "دون نظام ودون مركز يتوسطها جميعا . . . مثل جزر متعددة فى بحر عريض شاسع" (مذكور فى فاوُلر ص ٥٩٦) .

٥٧٨ - يقول (أليستير فاوُلر فى كتابه سبتسر والأرقام الزمنية - لندن - ١٩٦٤ إن عين السماء هى الصورة الاستعارية التى توحى بأسطورة أورفيوس - ص ٧٤ - وهى صورة رمزية شائعة لوجود الله فى كل مكان .

٥٧٩ - الرقصة الكونية صورة محببة إلى نفس ميلتون - انظر الكتاب الخامس ١٧٨ - والسابع ٣٧٤ والثامن ١٢٥ - ومرحبة كوموس ١١٢ - أما دلالة الرقصات على المواقيت فهى فكرة قديمة ترجع إلى فكرة رقصات جوقات النجوم عند أفلاطون - ولها سند فى التوراة - انظر سفر التكوين ١٤/١ "وقال الله لتكن فى جلد السماء أنوار لتفصل بين النهار والليل . وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين" .

٥٨٣ - ٥٨٦ كان القدماء يتصورون أن تأثير الشمس ينفذ من خلال سطح الأرض إلى باطنها (انظر الكتاب الخامس ٣٠١ - ٣٠٣ ، والسادس ٤٧٢ - ٤٨٣) . وقول دراير فى كتابه تاريخ الفلك من طاليس إلى كبلر لندن - ١٩٥٣ - إن النظرية التى أتى بها (كبلر) ومؤداها أن الكواكب تدور فى أفلاكها مدفوعة بالقوة المغناطيسية للشمس تمثل "أول محاولة جادة لتفسير قوانين حركة المجموعة الشمسية" ص ٣٩٧ .

٥٩١ - يقول برودبنت (الصفحات ١٦٥ - ١٦٨) إن وصف الشمس التالى يحقق "التقابل بين الجحيم والفردوس الذى توحى به السماء فحسب" . ويعترض برودبنت على مبالغة ميلتون فى تصوير الشمس فى هذه القصيدة التى تقول إن منبع النور السماوى الوحيد هو الله . ولكن (فاوُلر) يرد على ذلك قائلاً إن تمجيد الشمس الذى أتت به الأفلاطونية الجديدة قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من تراث التصوف المسيحى الذى يدور حول النور وقداسته وأن ميلتون ينتمى فكرياً إلى تراث الأفلاطونية المسيحية ومن ثم فمن الطبيعى أن ينسب البهاء والروعة الأخاذة إلى الشمس باعتبارها مصدراً مهيئاً للنور .

٥٩٤ - ٦٠٥ فى الكتاب المقدس نرى أن الجواهر الاثنتى عشرة التى تحلى بها (هارون) تمثل قبائل بنى إسرائيل الاثنتى عشرة . ولكن ميلتون يلمح أيضاً إلى عملية تحويل المعادن إلى ذهب وإلى درجات المعادن الاثنتى عشرة .

٥٩٦ - ٥٩٧ فى سفر الخروج ١٨/١٥ - ٢٠ ورد الوصف الكامل لدرع هارون المربع وبه أربعة صفوف من الحجارة النفيسة - الأول "صف عقيق أحمر (ياقوت) وياقوت أصفر وزمرد" أما الزبرجد فيحل

محل الماس في الصف الرابع - في النسخة الشائعة من الكتاب المقدس . وقد لاحظت بعض الاختلاف في أسماء الأحجار الكريمة في الترجمة التي أعتمد عليها للكتاب المقدس (انظر - التصدير) فاعتمدت على تفسير (فيريتي) بصفة أساسية في ضبط أنواع الأحجار الكريمة التي يعينها ميلتون لأنه يستخدم أسماء قديمة تشير إلى أعداد متنوعة من الأحجار أصبحت تعرف بأسماء أخرى في أيامنا هذه . وقد وردت في الكتاب المقدس ترجمة درع هارون "صدره قضاء" (النص العربي) ووردت في النصوص الإنجليزية بصور مختلفة - منها "درع للفصل في الأمور" و "درع للحكم" و "درع لتحديد إرادة الله" (في آخر طبعة من الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس ١٩٧٦) . أما الأحجار الكريمة المذكورة فهي جميعاً ترتبط بالشمس في إطار النظرية السائدة آنذاك عن درجات المعادن وطبقاتها . وقد كانت لها دلالات صوفية تابعة من وجود الأحجار نفسها في بوابة أورشليم الجديدة (انظر رؤيا يوحنا ١٩/٢١ وما بعدها) . وقد أسهب الشراح في الحديث عن هذا - انظر مثلاً برودبنت ص ١٦٥ .

٥٩٨ - ٦٠١ الحجر الآخر المذكور في البيت ٥٩٨ هو حجر (الأوريم) المذكور في سفر الخروج ٢٨/٣٠ وقد تخيله الناس كثيراً في غير هذا المكان لأنهم كانوا يقولون إنه هو نفسه حجر الفلاسفة . أما حجر (التميم) المذكور في نفس الآية فيقال إنه من الأحجار القمرية التي يمكن أن تحول المعادن إلى فضة - بينما يستطيع حجر (الأوريم) في ظنهم تحويلها إلى ذهب لأنه حجر شمسي .

٦٠١ - ٦٠٥ المعنى الأساسي هو أن الكيميائيين قد فشلوا في العثور على حجر الفلاسفة رغم نجاحهم في إخراج "الزئبق الفلسفي" و "هيرميس" عند اليونان هو (ميركوري) أو الزئبق عند الرومان و (بروتوس) معناه في الأساطير "المادة" وذلك لقدرته على اتخاذ أشكال عدة ولكن الإشارة هنا هي بصفة خاصة إلى المادة الأولى للخلق - (انظر البيت ٤٧٢ وما بعده من الكتاب الخامس - إذ أن "الزئبق الفلسفي" كان يعتبر في نظرهم مادة أولى ومن ثم كان الجوهر أو الروح للزئبق "الطيار" العادي وكانوا يصنعونه أولاً بتخليص الزئبق من الهواء أي بتقييده (كما يقول ميلتون) ثم بفك قيوده أي بتحريره من السيولة . هذه هي المرحلة الأولى ولا بد أن تتلوها في نظرهم مرحلة أخرى يستخدم فيها حجر الفلاسفة لتحويل هذه الصورة الأولى حتى تكتسب الصفات المطلوبة . وثم عدة وجوه للشبه بين هذه الأمثلة وموقف إبليس - فهو أولاً يشبه الكيميائيين في عجزه عن إدراك مسعاه إذ إنه لا يستطيع أن ينال الغفران (الذي يقابل حجر الفلاسفة) ومع ذلك يستطيع أن يكسو نفسه ببهاء خارجي فقط . وهو ثانياً مثل الزئبق الخادع أو (ميركوري) رب التخفي والتكرار . ومن ثم فأول خطوة لتطهير روح الإنسان هي (تقييد) إبليس . وثالثاً فإن إبليس يشبه (بروتوس) في أنه استطاع فك قيوده والهرب من بحر اللهب، وهو يتحول في أتون مشاعره ، كما أنه "سياسي" ماكر مخنك .

٦٠٦ - المعنى الأول لكلمة "هنا" هو في "الشمس" - والمعنى الثاني "في الأرض" حيث يحيل ضوء الشمس ماءها إلى ذهب . والغموض يكسو الآيات من ٦٠٦ - ٦١٠ .

٦٠٧ - ٦٠٨ الأكسير (وقد فضلت هذه الكلمة الأجنبية التي شاعت في العريضة المصرية) هو أي عنصر وسيط كيميائي أو طبيعي يستطيع تحويل المعادن الدنيا إلى ذهب . وهذا ينطبق على حجر الفلاسفة

. وكان الكيميائيون يحاولون جادين التوصل إلى "أكسير طول العمر" أو ما أسموه بالذهب السائل .
انظر كتاب الكيميائيون - تأليف م. كارون وس. هوتين طبعة لندن ١٩٦١ - ص ١٦٨ .

٦٠٨ - ٦١٢ "رأس الكيمياء" صفة مناسبة للشمس لأن تأثيرها ينفذ إلى باطن الثرى ، كما يقول ميلتون ،
وتدريجياً وعلى مدى أزمان طويلة يخرج لنا الأحجار الكريمة (انظر الآيات ٥٨٣ - ٥٨٦ من نفس
البيت والآيات ٤٤٧ - ٤٨١ من الكتاب السادس) .

٦١٠ - "ماء الأرض" هو الندى - وقد ذكر (درايدن) فى حاشية له على إحدى قصائده أن "الأحجار
الكريمة تنشأ من الندى الذى يتكثف ويتصلب فى دفء الشمس" .

٦٢٠ - تعبير "نور بصره" فيه غرابة - ويحتمل أن ميلتون يشير هنا إلى النظرية القديمة لعلم الضوء التى
تقول إن النور يخرج من العين ليسقط على الأشياء التى نراها - وقد ورد تعبير مشابه فى مسرحية
ميلتون شمشون الجبار فى البيت ١٦٢/١٦٣ إذ يقول :

وأأسفا ! إن نور البصيرة

لا يلقي بنور البصر على ما حولى .

٦٢٣ - انظر رؤيا يوحنا ١٩/١٧ "رأيت ملاكاً واحداً واقفاً فى الشمس" .

٦٣٤ - يقول (برودبنت) فى معرض حديثه عما اعتاده إبليس من تغيير صورته (ص ١٠٦) إن "كل تغيير
فى الشكل أو الطبيعة . . . يعتبر شراً بل من مظاهر سقوط الإنسان" - أما الإشارة المباشرة إلى
الكتاب المقدس فهى إلى الآيات ١٣ - ١٥ من الرسالة الثانية إلى أهل "كورنثوس" (الأصحاح
الحادى عشر) "لأن مثل هؤلاء . هم رسل كذبة فعلة مأكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل
المسيح . ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير نفسه إلى شبه ملاك نور" .

٦٣٦ - ٦٣٧ يقول (إمبسون) إنه يصعب علينا تقبل فكرة وجود "صبي من ملائكة الشاروبيم" (ص ٥٩ -
٦١) بسبب إحساسنا بأن الملائكة لا تتوالد ويقول إن إبليس قد تخفى فى صورة ملاك ترقى حديثاً
إلى رتبة الشاروبيم حتى يتفادى الشك فيه - فهو يريد أن يعلم المزيد عن الخلق الجديد و (أوريل)
يجد من الطبيعى أن يتساءل هذا الملاك الذى رقى حديثاً عن كل شيء" . ويقول فاولر إن الدافع
عند ميلتون هو شيوخ تصوير الشاروبيم فى صورة طفل مجنح . وقد فضل إبليس هذه الصورة
لامتياز الشاروبيم فى العلم والمعرفة ومن ثم كان من المقبول أن يتساءلوا ويحاولوا معرفة المزيد .

٦٤٣ - هناك كلمة فى النص الإنجليزى تفيد قصر الثوب الذى يرتديه أوتفيد أنه شمر عن ثيابه حتى لا
تعوقه فى السير وهى كلمة Succinct ولما كان ميلتون يصور الملائكة عادة دون ثياب فربما كانت
العبارة تعنى أنه ارتدى (حلة مناسبة تساعد على السرعة) - ولذلك حذفت الكلمة فى الترجمة . أما
الجناحان المذكوران فى البيت ٦٤١ فهما من خصائص مرتبة الشاروبيم .

٦٤٨ - ٦٦١ ورد فى سفر زكريا تفسير "للمنارة ذات السرج السبعة" وهو أنها "أعين الرب الجائلة فى
الأرض كلها" ١٠/٤ (انظر أيضاً رؤيا يوحنا ٦/٥) أما الملائكة السبعة الكبار فقد ورد ذكرهم فى

رؤيا يوحنا أيضاً (٤/١) ”نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان والذي يأتي ومن السبعة الأرواح التي أمام عرشه“ .

٦٤٨ - (أوريل) معناها نور الله . ورغم أن هذا الاسم لم يرد في الكتاب المقدس إلا أنه ورد في التراث اليهودي باعتباره أحد كبار الملائكة (إلى جانب ميكائيل وجبريل وروفايل) الذين يحكمون أقطار الأرض الأربعة . ويقول (فاولر) إنه قد نشأ خلاف حول السبب الذي حدا بميلتون إلى تخصيص ”الشمس“ لهذا الملاك . فالشائع أن الملائكة طاقات ذهنية ترشد الكواكب في سيرها دون تخصيص باستثناء ميكائيل لكوكب الزهرة وجبريل للمريخ وروفايل للمشتري . أما الشمس فكان لها (أوريل) و (أدونيس) معاً . وقد اعتمد (فاولر) في هذا على كتاب قديم دون أن يحسم الأمر وربما كان ميلتون يستقى مادته هنا من مصدر مجهول من مصادر التراث الديني .

٦٥٦ - تعبير ”أول مفسر“ له عدة دلالات - أولها أنه أول من يركب العربة التي بناها سليمان (انظر نشيد الإنشاد ٩/٣) وساد اعتبارها نموذجاً للعهد الجديد - أي العربة التي ينقل المسيح المؤمنين فيها إلى السماء . وهكذا فإن (أوريل) أول ملاك كريم يظهر في القصيدة هنا وأول من يركب عربة المؤمنين - ولكن ثمة معنى آخر أبسط وأقرب إلى ذهن وهو أن (أوريل) هو أحد الأرواح بصرًا ، (البيت ٦٩١) ومن ثم فهو أعمقها بصيرة وأقدرها على تفسير مشيئة الله . والشمس التي يراها تتمتع بموقع متميز فريد بين الكواكب .

٧٠٥ - ٧٠٧ يقول (دنيس بيردن) في كتابه الأسطورة المنطقية - لندن ١٩٦٧ - إن هذا يعني أن الله يبقى بعض العلم سرّاً عن الجميع حتى عن الملائكة - وهذا يعني أنه يحرم الإنسان كثيراً من العلم . (ص ١١٠) - ويؤكد ميلتون في كتابه ”عن العقيدة المسيحية“ (٩/١) قصور معرفة الملائكة - قائلاً ”إن الملائكة الأخيار لا يطلعون على شتى أسرار الله“ كما يزعم البابويون . . . بل إنهم يجهلون الكثير من علمه . ويقول في موضع سابق (٥/١) ”وحتى المسيح نفسه لا يحيط علماً بكل شيء ، إذ إن ثمة أسباباً خفية يحتفظ بها الله لنفسه“ .

٧٠٨ - ٧١٨ يقول (فاولر) إن ذكريات (أوريل) عن الخلق تقدم إلينا في الإطار التقليدي للمذهب المسيحي الأفلاطوني الذي يقول بأن العالم لم يخلق من العدم ولكن من المادة الأولية - أو الهيلولي - التي كانت في حالة عماء أولاً ثم انتظمت حين فصلت عناصرها الأربعة واتخذت صور الطبقات المتداخلة ويورد (فاولر) عدداً من المصادر التي اعتمد عليها مثل كتابات أفلاطون و (أوفيد) و (ماكروبيوس) - ثم يضيف قائلاً إن صورة العالم الأفلاطوني قد امتزجت بالصورة التي تبرز لنا في سفر التكوين منذ عهد (فيلو) . وكان (أوريل) من الملائكة الذين شهدوا خلق العالم مثل روفائيل .

٧١٠ - سبق ذكر ”الاختلاط“ باعتباره من رجال قصر ”العماء“ في الكتاب الثاني البيت ٩٦٦ .

٧٤٢ - (نيفاطيس) جبل يقع على حدود أرمينيا وآشور (انظر الكتاب الرابع البيت ١٢٦) وهو منبع نهر (دجلة) . ويذكر ميلتون في الكتاب التاسع (البيت ٧١) أن (دجلة) هو النهر الأول في الفردوس أي قبل أن يتفرع إلى عدة أنهار .

حواشي الكتاب الرابع

١ - ١٢ تروى الرؤيا أو الـ Apocalypse التي رآها القديس يوحنا موقعة ثانية في السماء بين ميكائيل والتنين أى إبليس . وهذه هي الرواية كما يذكرها الكتاب المقدس في رؤيا يوحنا اللاهوتي : "وحدث حرب في السماء . ميخائيل وملائكته حاربوا التنين وحارب التنين وملائكته ولم يقروا فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء . فطُرح التنين العظيم وهو الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله طُرح إلى الأرض وطُرح معه ملائكته . وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا قَائِلًا فِي السَّمَاءِ الْآنَ صَارَ خَلَاصٌ إِلَيْنَا وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُ مَسِيحِهِ لِأَنَّهُ قَدْ طُرِحَ الْمُشْتَكِي عَلَى إِخْوَانِنَا الَّذِي كَانَ يَشْتَكِي عَلَيْهِمْ أَمَامَ إِلَهِنَا نَهَارًا وَلَيْلًا . . . وَيَل لِسَاكِنِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ لِأَنَّ إِبْلِسَ نَزَلَ إِلَيْكُمْ وَبِهِ غَضَبٌ عَظِيمٌ عَالِمًا أَنَّ لَهُ زَمَانًا قَلِيلًا" (١٢/٧ - ١٢) والواضح أن ملتون يتحنى أن ينذر آدم وحواء بأن الشيطان على وشك أن يغويهما . والواقع أن هذا تمهيد للتحذير الذي يقدمه لهما (روفاثيل) و (أوريل) في هذا الكتاب - ولو أن إمبسون يرى (ص ٦١) أن ملتون كان يشعر أن تحذير روفائيل لا يكفي .

١٧ - آلة الحرب هي المدافع التي اخترعها إبليس (الكتاب السادس ٤٦٩ - ٥٠٠) .

١٨ - يفسر إمبسون "الفرع والشوك" التي تتاب إبليس بأنها نتيجة لما عَلمَهُ من (أوريل) عن قدرة الله على الخلق (ص ٦١ - ٦٣) ولكن تفسير ملتون للحالة النفسية لإبليس تفسير معقول - ففي البيتين ١٥ و ١٦ يصور لنا رهبة إبليس من اقتراب موعد تنفيذ خطته الرهيبة .

٢٤ - يعترض أحد الشراح على استخدام كلمة الذكرى في هذا البيت لأن البيت التالي يذكر المستقبل أيضًا - وكيف يمكن لإبليس أن يذكر المستقبل ولا مستقبل له - واسمه يعني ذلك اشتقاقًا فالمبلس هو من فقد الأمل ! ولكن ملتون لا يقول إن إبليس "يتذكر" المستقبل ، والأقرب أن نتصور قوله إنه يذكره بمعنى أنه يجول بخاطره - أى أن الذكر هنا أقرب إلى معنى ملتون ومرماه .

٢٧ - ٢٨ المعنى الإشتقاقي لعدن هو السرور والمتعة - وكان هذا المعنى شائعًا في القرن السابع عشر .

٣٠ - "برج الظهيرة" صورة مقتبسة من فيرجيل . أما اقتران وقت الظهيرة أو توسط الشمس للسماء بوقت الفصل في الأمور أو إصدار الأحكام فهو قديم وشائع في التقاليد الكلاسيكية والدينية .

٣٢ - ٤١ يقول (إدوارد فيليبس) إنه قد قرأ هذه القطعة قبل شروع ملتون في كتابة القصيدة بعدة سنوات وقد عرضها عليه ملتون حين كان يتوى أن يكتب مأساة لا ملحمة عن سقوط الإنسان . (مذكور في كتاب هيلين داربيشر - ص ٧٢ وما بعدها - الاسم في ثبوت المراجع) ويقول إن الآيات كانت معدة لبداية المأساة . وقد ألمح بعض الشراح إلى وجه شبه بينها وبين مسرحية (إيسخولوس) بروميثيوس مغلولاً ولكن هذا الشبه لا يتعدى توجيه الخطاب إلى الشمس . وخطاب إبليس برمته (الآيات من ٣٢ - ١١٣) درامى إلى أبعد الحدود إذ إنه يمثل حواراً باطنياً بين جانبي الشر والخير في نفس إبليس يشبه الحوار بين ملاكي الخير والشر في مسرحية (مارلو) الدكتور فاستوس وكان ملتون يرى أن تصوير اليأس هذا التصوير الدرامي لا يتأتى إلا من إبليس . وقد علق (برودبنت)

على هذا تعليقاً طريفاً يقول فيه : "إن الشخصيات فى الفردوس المفقود لا تحدث نفسها إلا بعد سقوطها" (ص ٨٠).

٣٧ - انظر إنجيل يوحنا ٢٠ / ٣ "وكل من يعمل السيئات يبغض النور".

٣٨ - ٢٩ انظر رؤيا يوحنا ٥ / ٢ "فأذكر من أين سقطت وتب".

٤٢ - ٤٣ يكاد التغير فى موقف إبليس تجاه البارئ أن يكون تغيراً كاملاً بحيث قال بعض النقاد إنه يمثل تغيراً فى مقصد الشاعر نفسه ، وقال البعض الآخر إنه قد أضاف إلى الملحمة بعض الأبيات التى كان قد أعدها للأساسة . ويهاجم (إمبسون) (ص ٦٤ وما بعدها) رأى القائل إن إبليس يعترف فى أول حديث منفرد له بأن خطبته السابقة التى ألقاها على أقرانه وأتباعه كانت حافلة بالكاذب ، وهو يفند ذلك تفصيلاً مقنعاً - رغم أنه لا يرضى (فاولر) ! ففاولر يقول إن ذلك لا يرضى إلا من كانت قيمه على درجة عالية من التعقيد مثل قيم إبليس نفسه ! وآية ذلك أن أوائل من قرأوا الملحمة لم يدهشوا على الإطلاق للتغير فى موقف إبليس بل كانوا يتوقعون أن يبدى وهو أول الخاطئين وأكبر العاصين قديراً من الندم بعد أن أتيح له الوقت الكافى لتأمل حاله والنظر فى مآله وحده ودون الأقران والأعوان - وحين لم يؤد الندم إلى التوبة بل إلى التمادى فى الإثم والإصرار على العصيان أدرك أولئك القراء أنه قد هوى إلى درك أسفل جديد ومرحلة أخطر من مراحل الإدانة واللعن !

٤٣ - "بعد أن خلقتى" عبارة بالغة الأهمية - لأن إبليس كان يتظاهر أثناء فورة العصيان فى السماء أن الملائكة "أنجبوا أنفسهم وأنشأوا ذواتهم بقوة الحياة الكامنة فيهم" (الكتاب الخامس / ٨٦٠ - ٨٦١)

٤٥ - الإشارة إلى رسالة يعقوب ٥ / ١ "إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يعير فسيعطى له".

٥٥ - ٥٧ المعنى واضح وهو أن إظهار الامتنان للدين المعنوى يسقطه عن المدين . والعبارة لها مثيل فى خطبة ذائعة ألقاها (شيشرون) دفاعاً عن صديقه (بلانكيوس) إذ يقول فيها (٦٨ / ٢٣) "فيما يتعلق بالدين المعنوى أقول إن الرجل إذا سددته أى إذا اعترف به كان له أن يحتفظ به ، وإذا احتفظ به كان قد سددته باحتفاظه به" - ومثلاً يستخدم شيشرون التورية فى استخدام فعل habere فى معنيين يستخدم ميلتون التورية فى استخدام فعل Owe أيضاً فى معنيين أولهما الإقرار بملكية الشيء وثانيهما الالتزام بالتسديد . واستخدام الفعل بالمعنى الأول شائع فى شكسبير .

٦٦ - ٧٠ أوضح الله أن إرادته السابقة لا تبلغى حرية الإرادة لدى الملائكة وأن حبه لمخلوقاته يتطلب منهم أن يستجيبوا له بمحض اختيارهم (انظر الكتاب الأبيات ٥٣٥ - ٥٤٠) - ويعلق أحد الشراح على ذلك قائلاً إن هذا الحب هو فى آخر المطاف - المسئول عن سقوط الملائكة لأنه أتاح لهم حرية الإرادة .

٨٢ - "الإباء" هنا كلمة تدين إبليس بدلاً من أن ترفع من قدره - فهى تذكرنا بالكلمة الإيطالية التى قيست عليها واشتقت منها وتعنى الاحتقار لما هو وضع ولا يتناسب احترام الملاك لنفسه .

١١ - انظر إشعياء ٥ / ٢٠ "ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً".

١١٢ - "أكثر من نصفه" لأنه سيحكم في ظنة الأرض أيضًا فإذا أضيفت إلى الجحيم زاد حجم سلطانه عن حكم السماء !

١١٥ - كان اللون التقليدي لوجوه الشاروبيم هو الأحمر . لاحظ أن ميلتون يذكر في "الموضوع" ثلاثة مشاعر هي "الخوف والحسد واليأس" .

١١٨ - "الأخلاق" إشارة إلى أخلاق البدن الأربعة أو إلى اختلاط مقومات النفس .

١٢٦ - الجيل الآشوري هو جبل (نيفاطيس) انظر الحاشية على البيت ٧٤٢ من الكتاب الثالث .

١٣٢ - ١٥٩ لا يوجد مصدر واحد اعتمد عليه ميلتون في وصف الفردوس إذ إنه يستقى مادته من التراث الأروبي كله - تراث الفردائيس والجنان والمنتزهات وجزر السعادة وأرض البركات إلخ .

١٣٢ - الفردوس هي الجنة القائمة داخل أرض عدن (انظر الأبيات ٢٠٩ - ٢١٠ والكتاب الأول ٤ - ٥) .

١٣٤ - "عارية" أي غير مسورة أو خالية من الأشجار .

١٣٥ - يقول (ك. س. لويس) في كتابه مقدمة للفردوس المفقود - لندن ١٩٤٢ إن الفكرة القرويدية القائلة بأن الجنة السعيدة صورة للجسم البشري لم تكن لتخيف ميلتون لو علم بها ! (ص ٤٧) وقد دأب من تحدثوا عن الجنة على تصويرها فوق جبل أو تل ، وكثيراً ما توحى بصور الجسم البشري مثلما يفعل (سبنسر) في ملكة العجان حين يصف جنة أدونيس قائلاً :

في وسط تلك الفردوس

يتصب جبل مهيب ، يحيط بقمته المستديرة

دغل أدكن من أشجار الآس والريحان

لم تقلم أفنائه الظليلة نصال المقص الحديدية

ولا التهمت براعمه الرقيقة أفواه الوحوش الخبيثة

ولكنه يحيط مثل السوار بالقمة

ويلقى من جانبيها المشرمين رحيقاً حلواً

يزين الأرض كلها بقطراته الثمينة

ويشيع أعبق أريج وأحلى بهجة

(الكتاب الثالث - النشيد السادس الفقرة ٤٣)

أما دانتسى فهو يضع الفردوس في المطهر فوق قمة جبل التطهير (٩١/٢٨ - ١٠٢) ليضمن أنها متسلم من آثار التغيرات الجوية كما أن (أريوسطو) يجعل قمة التل الذي تقع عليه الفردوس عالياً

”حتى أنه ليكاد يلمس هالة القمر“ (غضبة أورلاندو ٤٨/٣٤) وترجع هذه الفكرة إلى سفر حزقيال (١٣/٢٨ - ١٤) ”كنت فى عدن جنة الله . . . على جبل الله المقدس“ .

١٤٨ - كانت الفرايدس الأرضية دائماً تتسم بتزامن شتى مراحل النمو وأطواره انظر (أريوسطو) (غضبية أورلاندو ٤٩/٣٤) و (ناسو) (تحرير بيت المقدس ١٠/١٦ وما بعده) يقول الأول :

قبل أن تسقط الفاكهة الناضجة تظهر البراعم

فهذه تسقط وهذه تظهر ، وهذه تنضج وهذه تفتح !

ويقول الآخر :

كانت الأوراق تختبئ على نفس الأغصان

وإلى جوار الثمار الغضة ثمار ناضجة وتين شهى !

وكذلك قال (سبنسر) فى ملكة الجان (الكتاب الثالث / النشيد الرابع / الفقرة ٤٢) . وعادة ما ترك الشراح هذه الظاهرة دون تفسير - ظاهرة الازدهار الدائم فى الجنة ، ولكن ميلتون يحاول أن يشرح فكرة الخلود باعتبارها صورة من صور الدوام فى الطبيعة مستنداً إلى ما جاء فى سفر التكوين (١٢/١) عن أمر الله للأرض بإخراج براعم العشب والثمر الناضج معاً .

١٦١ - كان الطريق البحرى للسفن التجارية يمر بين موزمبيق ومدغشقر صاعداً إلى اليمن ثم البحر الأحمر .

١٦٢ - أرض سبأ هى أرض اليمن .

١٦٣ - بلاد العرب المباركة هى الصيغة التى اختارها ميلتون للتعبير القديم أى بلاد العرب السعيدة - Ara bia Felix وهو الاسم القديم لليمن .

١٦٦ - ١٧١ ابن (طوبيت) هو (طوبيا) الذى كان قد أرسل إلى أرض (ميديا) لإنجاز أمر هام ثم تزوج من (سارة) ابنة (راغويل) . وكانت سارة قد وهبت من قبل لسبعة أزواج ولكنهم قتلوا جميعاً قبل أن يتم الزواج وذلك على أيدى (أرمودىوس) الجنى الغيور . ثم قدم روفائيل نصيحة إلى (طوبيا) استطاع بها أن ينجح حيث فشل الآخرون إذ إنه قام بحرق قلب سمكة وكبدها ليثير دخاناً كثيفاً - ”وحينما شم الجنى الشرير تلك الرائحة هرب إلى أقاصى مصر حيث غلله الملاك فى الأصفاد“ طوبيت (٣/٨) - ويقول (ك. س. لويس) (ص ٤٢) إن ميلتون يقدم هذا التشبيه ”ليجعلنا نشعر ببداءة وجود إبليس فى جنة عدن إذ نحس معاً بالرائحة الكريهة للسلك فجأة وسط الأريج والعبير الذى تفوح به الزهور“

١٦٨ - يقص علينا ميلتون فى الكتاب السادس البيت ٣٦٥ الدور الذى اضطلع به (ازموديوس) فى الحرب التى وقعت فى السماء . ويقول فالور إنه طبقاً للتقاليد الاسكولائية التى نقلها إلينا (كورنيليوس أجريتا) و (هيوود) و (بيرتون) وغيرهم كان للشياطين ثمانى طبقات وكان (ازموديوس) على رأس الطبقة الرابعة .

١٨٣ - انظر إنجيل يوحنا ١٠ / ١ "إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص".

١٨٨ - ١٩١ انظر سفر يوثيل ٣ / ٢ - ٩ "الأرض قدامهم كجنة عدن . . سوف يجرون على السور يصعدون إلى البيوت يدخلون من الكوى كاللص".

١٩٢ - ١٩٣ يعود ميلتون هنا إلى التشبيه الذي سبق في الآيات ١٨٣ - ١٨٧ ولكنه يجعل المشبه به هنا مشبها حين يعقد مقارنته بين رجال الكنيسة والشيطان .

١٩٦ - تعتبر صورة غراب الماء استمراراً للهجوم الذي بدأه ميلتون في البيت ١٩٣ ، وأى إنسان جشع متكالب على المادة يمكن وصفه بغراب الماء ولكن هذا الاصطلاح كان يطلق بصفة خاصة على "الأجراء" من رجال الكنيسة - ولما كانت الثمرة الخالدة لشجرة الحياة هي الجزء الذي وعد به المؤمنون المخلصون في أورشليم الجديدة (انظر رؤيا يوحنا ٧ / ٢ ، ١٤ / ٢٢) فقد جعل ميلتون هذا الغرب يجثم عليها لأن الأجراء يطعمون في الخلود .

١٩٧ - يرصد روبرت الرودت Robert Ellrodt في كتابه الأفلاطونية الجديدة في شعر سبنسر ، جنيف ، ١٩٦٠ - التقاليد الأدبية التي تستند إلى ما جاء في سفر التكوين (٥ / ٢ و ٩) من أن الخلق كان مرة واحدة وأن الفردوس كانت تشتمل على إمكانات الحياة في المستقبل جميعها - ص ٧٥ - ٨١ منذ كتابات القديس (أوغسطينوس) حتى (سبنسر) . وانظر وصف (سبنسر) في ملكة الجان لجنة أدونيس في الكتاب الثالث ، النشيد السادس ، الفقرة ٣٠ .

٢٠٩ - ٢١٦ انظر سفر التكوين (٨ / ٢) "وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله" وقد شب جدل عنيف حول موقع الفردوس . ويكاد يجمع من اعتقدوا بوجود فردوس أرضية على أنها كانت تقع جنوب إيران الحالية إما في منطقة الخالدية أي في جنوب العراق عند إلتقاء نهري دجلة والفرات أو في شمال العراق عند منابع هذين النهرين بالقرب من جبل (نيفاطيس) . وقد نجح ميلتون في التوفيق بين هذين الرأيين . بل إنه نجح في التوفيق بينهما وبين رأى آخر وهو أن عدن كانت تقع "تحت خط الاستواء" وذلك لأنه يعتبر أن مدار الشمس في السماء كان ينطبق تماماً مع خط الاستواء على الأرض قبل سقوط آدم (انظر الكتاب العاشر الأبيات من ٦٥١ - ٧٠٦) . أما (حوران) فهي الحد الشرقي لأرض إسرائيل في سفر حزقيال (١٦ / ٤٧ - ١٨) وهي - وقد كتبت (حوران) - ترتبط بعدن في نفس السفر (٢٣ / ٢٧) ولكنها وقد كتبت (حاران) ترد في سفر التكوين باعتبارها المدينة التي "مات فيها تارح" أحد أحفاد سام بن نوح (٣٢ / ١١) وأمر إبراهيم بتركها (٤ / ١٢) . أما (سلوشيا) العظيمة فقد بناها أحد قواد الإسكندر الأكبر وهو (سلوكوس نيكاتور) لتكون مقر الحكومة لإمبراطوريته في سوريا . ويورد (فاولر) رأى (هايلين) الذي يقول إنها أحيانا كانت تختلط في الأذهان ببابل (١٢٩ / ٣) وتقع على نهر دجلة جنوب شرقي حوران وذكر ميلتون مدينة (تلسار) يمثل مفارقة درامية لأنه ينذر بوقوع الحرب في عدن والإشارة هي إلى ملوك ثاني (١١ / ١٩) أو إلى إشعيا (١١ / ٣٧) حيث يرد ذكر (تلسار) باعتبارها إحدى المدن التي أيدت عن آخرها "هؤلاء الذين أهلكهم آبائي (جوزان) و (حاران) و (رصف) وبنى عدن الذين في تلسار".

٢١٧ - ٢٢١ انظر سفر التكوين (٩/٢) "وأثبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر". أما الثمار الذهبية فتعبد إلى الذهب فاكهة (هسييريا) التي كان (هرقل) يقطعها رغم أنف التنين الذي يحرسها .

(أوفيد - مسخ الكائنات ٤/٦٣٧ وما بعده) .

٢٢٣ - ٢٣٢ يرجع خصب الفردوس (انظر الآيات ٢١٥ - ٢١٧) لا إلى المطر ولكن كما يقول سفر التكوين (٥/٢ ر ٦) إلى "ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض" . وقد اعتمد كل من كتب في الموضوع على هذه الفقرة .

٢٣٣ - ٢٣٥ انظر سفر التكوين (١٠/٢) "وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس" . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية تكوين ٥/٢ (في الحاشية السابقة) تعني أن الأرض كلها كانت تروى بمياه الفردوس .

٢٥٠ - أساطير (هسييريا) - انظر الحاشية على الآيات ٢١٧ - ٢١ من هذا الكتاب والحاشية على الآيات ٥٦٨٠ - ٥٦٩٠ من الكتاب الثالث .

٢٥١ - "رائعة المذاق" هنا فحسب ، أما تفاح (هسييريا) فلم يكن يؤكل .

٢٥٦ - استناداً إلى ما جاء في سفر التكوين (١٨/٣) "وشوكاً وحسكاً تبت لك" وهي اللعنة التي صبت على آدم بعد السقوط وذهب كثير من مفسري التوراة إلى أن شجرة الورد كانت دون أشواك قبل عصيان آدم . ومن ثم فإن الورد الذي لا شوك له Sine Spinis Rosa كان يرمز إلى البراءة التي كان يتمتع بها الإنسان قبل السقوط .

٢٦٢ - ترمز حواء خفية إلى (فينوس) - ويتضح هذا من صورتين أولهما شجرة الآس والريحان وثانيهما صورة المرأة (في البيت التالي) - ليس فحسب لأنها ربة الحقائق بل أيضاً لأنها ذات قوة تشكيلية أي أنها أيضاً تتحكم في دورة التوالد التي تفصح عنها رموز الفصول المتعاقبة وطالما صور الشعراء الفرائيس باعتبارها حقائق فينوس - انظر مثلاً (سبنسر) في ملكة الجان (الكتاب الثالث/ النشيد السادس وكذلك الكتاب الرابع/ النشيد العاشر) . وتدخل ضمن هذه الصور المتشابكة صور عرائش الكروم (٢٥٨) - انظر أوفيد - فن الهوى ١/٢٤٤ (ترجمة الدكتور ثروت عكاشة) .

٢٦٣ - ٢٦٦ التوافق بين أهازيج السطور وخشخشة الأوراق وخيرير المياه (٢٦٠) من خصائص حقائق (فينوس) . أما كلمة "نسائم" فلها دلالة ثانوية ترتبط بالأهازيج والإيقاع (٢٦٥) - أي الدلالة على الألحان وقد لاحظ هذه الدلالة (إمبسون) في كتابه بعض صور الشعر الرعوى لندن - ١٩٥٠ (ص ١٥٧) - أما الجدل الذي لا مبرر له حول هذه الفقرة فقد حسمه (كريستوفر ركس) في كتابه أسلوب ميلتون الرفيع (١٩٦٣) ص ١٠٤ - ١٠٦ .

٢٦٦ - ٢٦٨ أسهب الشراح في التعليق على الدور الذي تقوم به "الحسان الثلاث" في القصائد الكلاسيكية التي تناول الربيع . أما هذه الحوريات فهي "تجسيد للحسن والجمال" (انظر موجز

الأساطير الإغريقية - تأليف هـ. ج. روز - لندن - ١٩٧٨ - ص ١٢٤) وهى ربات النماء لأنها تعلن عودة الربيع وازدهار المراعى . وقد حدد (هيزيود) عددهن بثلاثة ، ويقول (أوفيد) إنهن يشتركن مع ربات الفصول فى جمع الزهور فى الربيع . أما (بان) فهو رمز للطبيعة بصفة عامة . واسمه يعنى "الجميع" - أو الصورة الكلية . و "الساعات" Hours فى النص الانجليزى تعنى ربات الفصول . وأما الرقصة فتعود أهميتها إلى أن الأفلاطونيين الجدد كانوا يعتبرون أن النمط الثلاثى لهذه الرقصة - سواء من ناحية الإيقاع أو من ناحية التشكيل - تعبير عن الحركة التى هى أساس كل نماء طبيعى .

٢٦٨ - ٢٧٢ (ديس) هو (بلوطو) ملك الجحيم الذى اغتصب (بروزيرينا) - وهو الاسم الرومانى للربة (بيرسيفونى) - (انظر القصة كاملة فى موجز الأساطير اليونانية تأليف (روز) الصفحات ٩٣ وما بعدها) - أما (ديس) فكان اسمه أيضاً (هاديس) أى الجحيم أو (هاديس - بلوطو) وكان يمثل شيتين متناقضين معاً إذ كان إلها لخصب الأرض وإلها للموت فى الوقت نفسه وكانت هى كذلك إلهة للموتى وإلهة للخصب وذلك لأن اختطافها أدى إلى قحط الأرض وبورها وربما كان ذلك نتيجة لحزن أمها (كيريس) أو (كورى) عليها - وحتى بعد العثور عليها لم يكن النماء يعود إلى الأرض إلا نصف العام لأنها أخطأت أثناء وجودها فى العالم السفلى بأن أكلت سبع حبات من حب الرمان - وهذا كما يقول أحد الشراح فى تعليقه على رواية (أوفيد) فى مسخ الكائنات (١٩٥) مُسكر مُهلك جعل لها مكاناً دائماً فى الجحيم مثلما أخرجت التفاحة حواء من الفردوس - وهذا سر العلاقة بين الإثنين .

٢٦٨ - يذهب كثير من القدماء إلى أن العالم قد خلق فى شهر مارس . وقد اعتمد الشراح الأوائل على التفسير الحرفى للكتاب المقدس فى إثبات أن "المسيح قد رفع فى نفس اليوم الذى خلق فيه آدم" - واعتماداً على ما جاء فى سفر الخروج من أن نيسان Nisan (مارس/ إبريل) هو أول شهور العام "وكلمة الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلاً . هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور . هو لكم أول شهور السنة" (١٢/ ١ - ٢) .

٢٧٢ - ٢٧٤ كان بجوار نهر (أورنتيس) بالقرب من أنطاكية دغل جميل يسمى دغل (دافنى) أى دغل أشجار الغار Laurel لأن الفتاة المسماة بهذا الاسم والتى كان يعشقها ويطاردها (أبولو) قد تحولت إلى شجرة غار حتى تنجو منه (انظر موجز الأساطير اليونانية ١٤١) - وكان بجوارها غدير أطلق عليه نبع (كاستاليا) تشيهاً له بنبع (كاستاليا) الموجود فى جبل (البارناس) . أما لماذا يسميه ميلتون "الملهم" فلأن إحدى نبوءات (أبولو) كانت تعيش بالقرب منه .

٢٧٥ - ٢٧٩ جزيرة (نايسا) إحدى جزر البحر المتوسط بالقرب من تونس العاصمة . وتقول الأسطورة إن (أمون) ملك ليبيا كان على علاقة غرامية مع الفتاة (أماليا) كان من نتيجةها أن أنجبت منه طفلاً هو (ديونيس) أو (باخوس) . ولما كان يريد أن يحمى الأم وابنها من غضب زوجته (ريا) ابنة (أورانوس) فقد أخفاها فى جزيرة (نايسا) . وكان القدماء يقولون إن (أمون) هو (جوبيتر) الليبى الذى كان يتخذ صورة كبش (تحولت فيما بعد إلى برج الحمل) ويقولون إنه أيضاً حام بن نوح عليه السلام .

٢٨٠ - ٢٨٥ يورد فاوُلر وصف هايِلين Heylyn لجبل (أمارا) قائلاً إن إرتفاعه مسيرة يوم كامل وإن صخوره ملساء وإن قمته يحيط بها سور عال حيث الحدائق والقصور . ويمتد إقليم (أمارا) غرباً نحو النيل ويؤخر بالمتع والملذات حتى تصور البعض خطأ أنه مكان الفردوس . - ويستق (هايِلين) - حسبما يروى فاوُلر - مع معظم جغرافى ذلك العصر فى القول بأن (أمارا) يقع على خط الاستواء أو قريباً منه . وميلتون يؤكد أن جبل (أمارا) يقع جنوب (مدار اثيسوبيا) أى خط الاستواء وبهذا يؤكد صراحة إن الفردوس استوائية تتمتع بالربيع الدائم المذكور فى البيت ٢٦٨ .

٢٨٩ - أضفت كلمة (الوثنية) إلى الترجمة اعتماداً على ما قالته (إيزابيل ماكافرى) فى كتابها المذكور آنفاً من أن ميلتون كان يريد الإيحاء بالكمال فى مظهر آدم وحواء باستدعاء صور الآلهة الوثنية فى مخيلة القارىء (ص ٩٨) .

٢٩١ - ٢٩٣ انظر سفر التكوين ١/٢٧ "فخلق الله الإنسان على صورته" .

٢٩٥ - "المصدر" كما يوحى النص هو الخصال العلوية التى وهبها الله للبشر - ولكن فاوُلر يقول إنه الصورة القدسية فى آدم وحواء .

٢٩٩ - الفكرة تستند إلى ما جاء فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١١/٣ - "رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله" .

٣٠١ - ٣٠٨ طول الشعر الخاص بكل من الجنسين يستند إلى التفاوت فى مرتبتهما انظر ما يقوله بولس الرسول فى كورنثوس ١ "إن الرجل لا ينبغي أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده وأما المرأة فهى مجد الرجل .. وأما المرأة إن كانت ترخى شعرها فهو مجد لها لأن الشعر قد أعطى لها عوض برفع" (٧ و ١٥) .

٣٠١ - "خصلاته السوداء" - فى الأصل خصلاته التى بلون زهر الجاسنت أو الياسنت وقد اعتمدت فى تحديد اللون على ما قاله أحد شراح (هوميروس) فى تعليقه على فقرة مماثلة فى ملحمة الأوديسا حين وصف شعر (أوديسيوس) بأنه فى لون تلك الزهرة . ولكن (فاوُلر) يقول إنه يمكن أن يكون أزرق أو بنية شديدة الدكنة أو أى لون آخر . لاحظ أن آدم ليس له لحية . وربما كان هذا من تأثير تصويره فى اللوحات والتماثيل المعروفة فى عصر النهضة على صورة مماثلة لصورة (أبولو) .

٣٢٨ - يقول (دنيس بيردن) فى الملحمة المنطقية - لندن - ١٩٦٧ إن ميلتون أتى بجديد بل أضاف إضافة لها وزنها إلى تراث الشعر الرعوى هنا حين جعل آدم وحواء يعملان بزراعة الحدائق بدلاً من الرعى . (ص ٤١ وما بعدها) ويعلق (برودبنت) على ذلك قائلاً إن رعاية الحدائق لها دلالات أخلاقية وسياسية - (ص ١٧٧) أى أنها رمز للنظام والثبات . (انظر مسرحية شيكسبير ريتشارد الثانى الفصل الثالث/ المشهد الرابع) .

٣٢٩ "النسائم" هى ترجمة Zephyr أو رياح الغرب التى تغنى بها الشعراء المحدثون أما القدماء - فكانوا يعتبرون "زفير" هذا شخصاً أسطورياً يبدأ عملية التجديد لشباب الطبيعة (فى أساطير الأفلاطونية

الجديدة مثلاً) ومنذ أن ذكره أوفيد فى وصفه للعصر الذهبى (مسخ الكائنات ١/١٠٧ وما بعده) والشعراء يقرنونه بالربيع الدائم .

٣٤ - ٣٥٢ كانت الصورة الرعوية المثالية لآدم وحواء وقد أحاطت بهما الحيوانات صورة مألوفة فى العديد من اللوحات الزيتية .

٣٤٩ - ٣٥٠ فى الأصل "وكان يقدم إثباتا على قدرته على التخاطب القاتل فلم يلتفتا إليه" - ولكن الشراح فى خلاف حول معنى "إثبات" ولذلك فصلت الترجمة الحالية . ويقول بيردن (ص ٣٥) إن الشعبان يستعرض خبثه الماكر بصراحة حتى لا يقول الإنسان إنه لم يكن يعرف أنه خبيث . ولكن النص يوحى بالمفارقة الصارخة فى موقف آدم وحواء - فهما لا يلتفتان إلى المخلوق الذى سيكون له فى حياتهما شأن عظيم .

٣٥٤ - جزائر المحيط هى جزر (الأزور) حيث غربت الشمس فى البيت ٥٩٢ .

٣٦١ - ٣٦٢ انظر الرسالة إلى العبرانيين ٧/٢ "وضعته قليلاً عن الملائكة بمجد وكرامة كلته" .

٣٧٠ - ٣٧٤ إشفاق إبليس على الإنسان إشفاق زائف - فالإنسان "قادر على الصمود" كما يثبت ذلك خوف إبليس من الاقتراب منه (الكتاب التاسع - البيت ٤٨٣ وما بعده) .

٣٧٧ - معنى "أقيم معكما" أنه أنفذ إلى باطنكما بالغواية والخطيئة ، و"تقيما معي" معناها أن نتقاسم السعير أى عذاب الجحيم .

٣٨١ - ٣٨٥ انظر نبوءة إشعيا حول سقوط بابل "الهاوية من أسفل مهتزة لك لاستقبال قدومك منهضة لك الأخيلة جميع عظماء الأرض . أقامت كل ملوك الأمم عن كراسيهم" (إشعيا ٩/١٤) . ويصر (إمبسون) على أن إبليس مخلص فى تقديم مكانة كبرى لآدم وحواء فى الجحيم - ولكن هذه المكانة الكبرى تتضمن مفارقة واضحة وهى أنها مكانة عذاب وآلام مبرحة ولذلك فإن الشيطان لا يناقض نفسه حين يعترف أنه بهذا يود الثأر من الله بإسقاط البشر الذين خلقوا "على صورته" .

٣٨٩ - يقوم إبليس هنا بدور سياسى "ماكيافيللى" معاصر إذ ينشد الذرائع والأعذار إستنادا إلى ما يسميه "الصالح العام" - انظر الحوار الطويل بين شمشون ودليلة فى شمشون الجبار - حيث تبرز دليلة خيانتها له فى آخر الحوار بأنها كانت تنشد الصالح العام :

ماذا كان بيدى

إزاء تلك الحجاج الدامغة ؟

لم يكن لدى إلا حبك الذى اشتبك معها

فى حوار طويل بل والتحم مع هذه الأسباب جميعاً

فى نزال طاحن . وأخيراً ساد المبدأ الثابت

الذى كثيراً ما تردد واحتفلت به أفواه

أحكم الرجال - وهو أن الصالح العام
تخضع له الشؤون الخاصة . لقد تسلط على
بسلطانه القوى وتمكن منى كل التمكن

ورأيت أننى مدفوعة إليه بالفضيلة والحق والواجب . (٨٦١ - ٨٧٠)

٤٠١ - ٤٠٢ انظر رسالة بطرس الرسول الأولى (٨/٥٥) "أصبحوا واسهرُوا لأن إبليس خصمكم كأند
زائر يجول متلمساً من يتلمعه هو" - ويقول (يسردن) (ص ٤٩ وما بعدها) إن الحيوانات كانت فى
الواقع وديعةً ولطيفة قبل سقوط الإنسان وإن إبليس يتخذ هنا صورها التى اتسمت بها بعد السقوط .

٤٢١ - ٤٢٤ انظر سفر التكوين (١٦/٢ - ١٧٧) "وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة
تأكل أكلاً وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" .

٤٣٠ - ٤٣٢ انظر سفر التكوين ٢٨/١ "وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها
وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض" .

٤٤٠ - انظر سفر التكوين (٢٣/٢) "وقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى
امراً لأنها من امرى أخذت" .

٤٤٣ - انظر كورنثوس الأولى (٣/١١) "رأس كل رجل هو المسيح وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس
المسيح هو الله" .

٤٤٩ - ٤٥٠ فى البيت ٢٥٣ من الكتاب الثامن يصف آدم احساسه بعد الخلق مباشرة بأنه كان يشبه اليقظة
من نوم عميق .

٤٤٩ - تعبير "فى ذلك اليوم" يعنى بوضوح أنه قد مضى على خلق آدم وحواء عدة أيام - ومن ثم فلا
نستطيع تقبل رأى ماركوللى (انظر ثبت المراجع) القائل بأنهما خلقا فى نفس ذلك اليوم (ص ١٦) .
وتؤيد ما ذهبنا إليه فقرات عديدة من هذا الكتاب - الآيات ٦١٠ - ٦٢٠ ، ٦٣٩ وما بعده و ٦٨١
وما بعده و ٧١٠ وما بعده ، والكتاب الخامس : الآيات ٣١ ، ١٤٥ - إلا إذا كان ميلتون قصد أن
يقول إن آدم قد خلق وهو يعلم كل شىء وهذا مستبعد .

٤٦٠ - ٤٧١ هذه إشارة إلى القصة التى يرويها أوفيد فى مسخ الكائنات (٤٠٢/٣ - ٤٣٦) عن الشاب
المتباهى بحسنه (نارسيسوس) أى نرجس الذى عوقب على استعلائه وكبرائه بأن جعلته الآلهة يقع فى
غرام صورته المنعكسة فى الغدير وأن يذوى ويذبل فى أتون حبه اليائس لنفسه .

٤٧٤ - ٤٧٥ انظر سفر التكوين ٢٠/٣ "ودعا آدم إسم امرأته حواء لأنها أم كل حى" وقد شرح
المفسرون هذا اعتماداً على المعنى الاشتقاقى لحواء فهو حواء أو حياء - ولا شك أنه من الحياة ،
ولكنهم يقولون إنها لم تكتسب هذا الإسم إلا بعد السقوط وإنجاب الأطفال وكانت قبل ذلك تسمى
"المرأة" وحسب (تكوين ٢/٩٢٣) وهكذا فإن ميلتون يؤكد أنها حواء من البداية تدعيماً للمكانة
العظيمة للمرأة باعتبارها زوجة وأماً .

- ٤٨٦ - "وقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي" (تكوين ٢/٢٣) .
- ٤٨٤ - انظر سفر التكوين (٢١/٢ - ٢٢) "فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم" .
- ٤٩٩ - ٥٠١ في إطار التفسير "الطبيعي" للأساطير أى تفسيرها في إطار قوى الطبيعة كان (جويتير) يظهر في صورة الأثير بينما تظهر (جونو) في صورة الهواء أى مصدر العواصف المطيرة - وتقول كتب الأساطير "إن الهواء حين تشتد حرارته ، تتولد منه النباتات وصنوف الحيوان" .
- ٥٠٢ - يقول (راجان) إن تسمية ابليس باسم الشيطان المجرد معناه تقليص سلطانه ونزع ألقابه القديمة عنه (ص ٩٩) .
- ٥٢٣ - انظر سفر التكوين (٤/٣) وما بعدها) "فقالت الحية للمرأة الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتحن أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر" .
- ٥٤٩ - ٥٥٠ معنى "جبريل" بالعبرية "قوة الله" أو "جبروت الله" وهو أحد الملائكة الكبار الأربعة الذين يحكمون أقطار العالم الأربعة . ولكنه يظهر في الكتاب المقدس (دانيال ٨-٩ ولوقا ١) باعتباره رسول سلام وليس باعتباره مقاتلاً "جباراً" ، انظر الحاشية على البيت ٤٦ من الكتاب السادس .
- ٥٥٥ - اختلف الشرح حول معنى "المساء" إذ يقول البعض إنه لا يعنى فترة زمنية ولكن شطراً من القبة السماوية .
- ٥٥٧ - ٥٥٨ كان القدماء يرون منذ عهد (سينيكا) أن الشهب مصدرها الأبخرة المتصاعدة من الأرض والتي لم تستطع الصعود إلى الطبقات العليا فاحترقت ثم هبطت .
- ٥٦١ - استناداً إلى طقوس المعابد اليهودية حيث توزع الوظائف "بالقرعة" انظر أخبار الأيام الأولى ١٣/١٤ - ١٤ "وألّفوا فرعاً الصغير كالكبير حسب بيوت آبائهم لكل باب . فأصابت القرعة من جهة الشرق شلميا" وقد وردت إشارة إلى هذه العادة في القرآن الكريم - في سورة آل عمران الآية ٤٤ ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ صدق الله العظيم .
- ٥٦٧ - يمكن أن يعنى الأصل "آخر صورة لله" أى آخر أو أحدث صور الله استناداً إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن "الله خلق الإنسان على صورته" (تكوين ١/٢٧) وعلى هذا يقول الشراح إن أول صورة لله هو المسيح ، تتلوها الملائكة التي تشغل مكاناً وسطاً بين الله والإنسان ثم السماء وما خلقه الله في الأيام الخمسة الأولى من عمر الكون . انظر الكتاب الثالث ٦٣ ، ٣٨٤ وغيرها . ولكنني فضلت الترجمة الحالية لأنها تتماشى مع ما ورد في الآيات الأخرى من أن الإنسان هو أحدث وآخر ما صورته البارئ .

٥٧٧ - (أوريل) معناها الحرفى "نور الله" - فهو بهذا المعنى أحد "عيون" الله - انظر الكتاب الثالث ٦٤٨ - ٦٦١ والحاشية .

٥٨٠ - فى الأصل يستخدم ميلتون صفة السهر بدلا من الإشارة مباشرة إلى الحراس - وهى كناية شائعة

٥٨٥ - انظر الكتاب الأول ٤٢٣ - ٤٣١ والحاشية ، والكتاب السادس ٣٤٤ - ٣٥٣ .

٥٩٢ - ٥٩٧ انظر الحاشية على الآيات ٥٧٣ - ٥٧٦ من الكتاب الثالث - وتفسير ما يقوله ميلتون هنا هو أن مشهد الغروب يمكن أن يكون السبب فيه دورة الشمس فى فلك ما حول الأرض أو دورة الأرض حول نفسها - وميلتون لا يلتزم بتفسير للغروب دون سواء أى أنه لا يرجح التفسير البطلمى (نسبة إلى نظرية بطليموس الفلكية) على التفسير الكوبرنيقى . أى تفسير (كوبرنيق) ومن اتبعه - مثل (كبلر) .

٦٠٥ - كوكب الزهرة الذى يسميه ميلتون هنا (هسبيروس) هو "نجم المساء ورسول الحب" (الكتاب الحادى عشر ٥٨٨) .

٦٠٦ - يلاحظ القارئ أن "القمر" باللغة الإنجليزية مؤنث - ومن ثم التشبيه بالملكة لا بالملك أما الملك فى الصور الشعرية فهو الشمس لأنها بالإنجليزية مذكر .

٦١٤ - ٦١٥ صورة "ندى النوم" سبقت فى (سبنسر) (ملكة الجان ٣٦/١/١) وشيكسبير (ريتشارد الثالث ٨٣١/٤ وبوليوس قيصر ٢/١/٢٣٠) .

٦١٨ - ٦١٩ فكرة "العمل" حتى فى الجنة فكرة أتت بها البروتستانتية ولم تكن قائمة فى صور العصور الوسطى عن الجنة حيث يبدو الإنسان عاكفا على التأمل والتفكير فحسب .

٦٣٥ - تشير الباحثة (مارجورى بارستو) فى مقال نشر فى إحدى الدوريات (وهى M. L. N. العدد ٣١ - ١٩١٦ - ص ١٢٠ - ١٢١) بعنوان "استخدام ميلتون لأشكال التخاطب الملحمى" - وأشار إليه (فاولر) فى حواشيه على نص ميلتون - إلى أن آدم وحواء يقلعان عن تبادل الألقاب بعد السقوط وأن هذه الألقاب السهبية مقصورة على الحياة فى الفردوس - ويعلق فاولر على ذلك قائلا إن هذه الألقاب موجودة فى الكتاب المقدس مثلما هى ملحمة .

٦٦٠ - يتضمن اللقب "ابنة الله" مفارقةً دراميةً بمعنى أنه يمثل نقيض الصورة المألوفة لمريم البتول - حواء الثانية - التى كانت توصف دائما بأنها "أم الله" - وهى الترجمة المألوفة للكلمة اليونانية Theo-tokos التى دخلت اللغة الإنجليزية . أما كلمة "الكاملة" accomplished فكانت تستخدم فى التخاطب فعلا بين الناس فى القرن السابع عشر ومعناها الأصلية "التي تعلمت وتهذبت ولقنت الأدب" (شيكسبير الليلة الثانية عشرة ٣/١/٩٦) - ولكنها هنا تعنى "التي توفرت لها أسباب الكمال" .

٦٨١ - ٦٨٤ يذكر (لوكريشيوس) في طبيعة الأشياء (٥٨٦/٤ وما بعده) أن هذه الموسيقى تخرج من ناي الإله (بان) وكثيراً ما فسرت تفسيراً رمزياً بأنها موسيقى الأفلاك .

٦٩٠ - ٧٠٣ يتميز وصف الفردوس في هذا الكتاب بالتوازن بين الفن والطبيعة ويعلق على ذلك (برودينت) قائلاً : "إنه كلما برز الفن في صنائع الطبيعة زاد الاحساس بوجود الخلاق المبدع وحينما تسود يد الفن . . . يزداد إحساسنا بسمى الإبداع في صنع خميلة آدم وحواء التي صورها البارئ خصيصاً لهما" (ص ١٧٩ - ١٨٠) .

٦٩١ - "الذي أنبت الجنة" تستند إلى الآية في سفر التكوين ٨/٢ "وغرس الرب الإله جنة" .

٧٠٥ - ٧٠٨ كثيراً ما خلط القدماء في الأساطير بين (بان) و (سيلفانوس) و (فانونوس) - لأن كلا منهم نصفه بشر ونصفه ماعز . أما (بان) فكان يرمز للطبيعة بصفة عامة (انظر الحاشية على الأبيات ٢٦٦ - ٢٦٨) ولكنه هنا يرمز إلى الخصب كما أنه رب الأماكن المنعزلة . وكان (سيلفانوس) الذي يقول البعض إنه إين (فانونوس) - رباً للغابات والحدائق والتخوم . ولكن (فانونوس) إله ذو صفتين متناقضتين: فمن ناحية كان نظيراً للإله (بان) عند الرومان - إله الخصب والغابات كما يصوره (هوراس) في أناشيده (١/١٨/٣) وكما يصوره (فيرجيل) في الإنيادة (٨١/٧ - ٨٤) - ومن ناحية أخرى كان رمزاً للاشتهاء والرغبة .

٧١٤ - يقول (فاولر) إن ثمة أصداء لغوية توحى بأن ميلتون كان يتبع في روايته صورة الأسطورة التي رواها (شارل استين) ووردت في كتاب (ستارنز) وعنوانه الأساطير الكلاسيكية - ١٩٥٥ - ويقول فيه (ص ٢٧٠) "يقول (هيزيود) إن (باندورا) هي أول امرأة صنعها (فولكان) تنفيذاً لأمر (جوبيتر) وقد أغدقت عليها جميع الآلهة عطاياها - وقد أطلق عليها اسم (باندورا) إما لأنها تحلت بكل عطايا الآلهة أو لأنها تحلت بالعطايا من جميع الآلهة . والرواية التقليدية هي أنها أرسلت بعد ذلك إلى (إيميشيوس) ومعها صندوق مغلق ، لأن (جوبيتر) أراد أن ينتقم من البشر بسبب اجترأ (بروميشيوس) على سرقة النار من السماء وإنزالها إلى الأرض . وهكذا استقبلها (إيميشيوس) وفتح الصندوق فإذا به يشتمل على شتى ضروب الشر بحيث ملأ العالم بالأمراض والمصائب" . وكان (بروميشيوس) و (إيميشيوس) ابنين لعملاق من سلالة (التيتان) وهو (يابيتوس) ابن السماء والأرض . وميلتون يقول إن (يافت) ابن نوح (تكوين ٩ - ١٠) هو (يابيت) أو (يابيتوس) إستناداً إلى المصادر المعاصرة للأساطير الكلاسيكية . أما إذا أراد القارئ أن يطلع على التفسير الديني لأسطورة (باندورا) عبر العصور فعليه أن يرجع إلى كتاب صندوق باندورا من تأليف دورا وإروين يانوفسكي (لندن ١٩٥٦) .

٧٢٤ - ٧٢٥ انظر المزموز ٧٤ (١٦) "لك النهار ولك أيضاً الليل . أنت هيأت النور والشمس" .

٧٣٢ - ٧٣٣ إشارة إلى سفر التكوين (٢٨/١) حيث يقول الله لأدم وحواء قبل السقوط "أثمروا واكثروا واملأوا الأرض" - وهو نص أثار خلافاً كبيراً لأنه يعني أن الزواج لا يتناقض مع براءة البشر ، وأنه كان مباحاً للجميع .

٧٢٥ - انظر المزمور ١٢٧/٢ "باطل هو لكم أن تذكروا إلى القيام مؤخرين الجلوس آكلين خبز الأتعاب . فإنه يعطى حبيبه نوماً" . ولكن صورة النوم باعتباره هبة من الله فكرة عالمية قديمة . انظر إلياذة هوميروس (٧١٣/٩) وإنيادة فيرجيل (٢٦٨/٢) .

٧٤٣ - "الشعائر الغامضة" ترجمة أعم للأصل الذى يمكن أن يعنى "الطقوس السرية" - وقد تحاشيت هذا المعنى الأخير لما به من دلالات غير مرغوبة فى العربية . ولكن فكرة الإلفاز أو السرية قائمة فى هذا التعبير وهى إشارة لما يقوله بولس الرسول إلى أهل أفسس (٣١/٥٥ - ٣٣) من أن الزواج يعنى أن "يكون الإثنين جسداً واحداً" - هذا السر عظيم ولكننى أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة - أى إنه يفسر علاقة الامتزاج فى جسد واحد باعتبارها رمزاً للعلاقة بين المسيح والكنيسة . وقد اتهم ميلتون بأنه يحدث تناقضاً فى حبكة الملحمة لأن آدم وحواء إذا كانا قد أنجبا قبل السقوط فلا بد أن يكون ابنهما بريئاً من الخطيئة الأولى . وقد رد النقاد على هذا قائلين إن آدم وحواء ربما لم ينجبا قبل السقوط ، وعلى أى حال فإن النظريات التقليدية للوراثة كانت تقبل أن يولد البرى ثم يتسلل الإثم إليه .

٧٤٤ - ٧٤٩ انظر رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس (١/٤ - ٣) وهو النص الذى اعتمد عليه (البروتستانت) فى الهجوم على كنيسة روما إذ يقول "إنه فى الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان . . . فى رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم مانعين عن الزواج" . وميلتون بطبيعة الحال يدافع عن شرعية الزواج بل وقديسته .

٧٤٥ - "قداسة الأمكنة" يشرحها البيت ٧٥٩ .

٧٤٧ - انظر كورنثوس الأولى (١/٧ - ٢) - "حسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن لتفادى الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها" ويقول ميلتون فى كتابه عن العقيدة المسيحية (١/١٠) : "ومن ثم فإن الزواج ليس أمراً ملزماً للجميع ، ولكن فقط لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحافظوا على عفتهم دون زواج" .

٧٦١ - انظر الرسالة إلى العبرانيين (٤/١٣) "ليكن الزواج مكرماً عند كل واحد والمضجع غير نجس" .

٧٦٣ - السهام الذهبية التى يطلقها (كيوبيد) كانت حادة وبراقة وكانت تذكى العاطفة ، أما السهام الرصاصية فكانت غير حادة وكانت تقتل الحب . (انظر أوفيد - مسخ الكائنات ٤٦٨/١ - ٤٧١) .

٧٦٤ - "مصباحه الدائم" توحى بالتناقض بين الحب فى الفردوس الذى يتسم بالدوام ، والحب على الأرض الذى يتصف بالتقلب والتغير يشبه نوره بضوء المصباح .

٧٦٧ - ٧٦٨ انظر الهجوم على أبناء (بليعال) فى الكتاب الأول البيت ٤٩٧ وما بعده .

٧٦٩ - "الأغاني" فى الأصل هى أنشودة الحب التى يتغنى بها العاشق تحت نافذة حبيبته - عادة فى الليالى الصافية الباردة - Serenade واشتقاقها يعنى ذلك لأنها كانت تنشد In Sereno .

٧٧٥ - معنى البيت إما (١) ألا تطلبوا المزيد من المعرفة بأكل الثمرة المحرمة أو (٢) أن تعرفوا كيف تقتصران على حياة البراءة .

٧٨١ - انظر الحاشية على البيت ٥٤٩ .

٧٨٢ - ٧٨٨ (عزّييل) معناه "عزة الله" وهو وارد في الكتاب المقدس باعتباره اسما عاديا من أسماء البشر (سفر الخروج ١٨/٦) وكذلك اسم (صفون) الذي يعنى "باحث الأسرار" (عدد ١٥/٢٦) أما (إيثوريل) فغير وارد في الكتاب المقدس ولكنه يعنى "اكتشاف الله" .

٧٩٩ - يقول بيردن (ص ٩٣) إن نجاح الملاكين في العثور على إبليس وأسرته مثال ملموس على أن الله لم يكن يريد أن يمنع من دخول الجنة ولو شاء لفعل .

٨٠٥ - "أبخرة النفس" Animal Spirits ومعناها الأبخرة الرهيفة التي كان البعض يعتبرها في منزلة وسطى بين الجسد والروح ، ويعتبرها آخرون نفسا ثانية - ولهذا اقترنت بكلمة Animal وهي صفة من Anima التي تعنى النفس باللاتينية . ويقسم القدماء "الأبخرة الجثمانية" إلى أنواع ثلاثة أدناها "الأبخرة الطبيعية" وكانوا يتصورون أنها تنشأ في الكبد وتدور مع الدم في الأوردة - وتليها "عصائر الحياة" التي تتكون من هذه الأبخرة في القلب وتدور مع الدم في الشرايين (انظر الحاشية على البيت ٤٨٤ من الكتاب الخامس) وأعلاها هي "أبخرة النفس" التي تتكون من "عصائر الحياة" أى من "الدم النقي" ثم تتصاعد وتسرى في الأعصاب لتذهب الجسد القوة على الحركة . وكان القدماء يتصورون أن حركة "أبخرة النفس" يمكن أن تولد خيالات وتصورات ذهنية ، وأن تأثير الملائكة على الذهن البشرى يتوصل بهذه الأبخرة . وقد تعرض ابن خلدون في المقدمة إلى هذه الفكرة (في المقدمة السادسة - ص ٩٦ - ٩٧ من طبعة بيروت - دار القلم) حيث تحدث عن "تدرج التكوين" واستعداد النفس "للانسلاخ من البشرية إلى الملائكية" في لمحة من اللمحات . وذلك عن طريق ما يسميه بالخيال والواهمة والحافظة . ومن ثم كان أمام إبليس أن يختار إما أن ينفذ إلى ذهن حواء عن طريق الخيال ، أو عن طريق أبخرة النفس وهي مصدر الانطباعات الحسية والحافظة لتجارب الماضي . ويقول و. ب. هنتر في مقالة عن "حلم حواء الشيطاني" نشرها في مجلة E. L. H. العدد ١٣ عام ١٩٤٦ (ص ٢٥٥ - ٢٦٥) وأشار إليها (فاولر) إن ميلتون يخالف التقاليد هنا في أنه لا يجعل للشيطان قدرة على النفاذ إلى عقل الإنسان - فهو لا يستطيع إلا التأثير على مخيلته .

٨٤٨ - يستند هذا البيت إلى الفكرة الأفلاطونية القائلة بأن الفضيلة يمكن أن تؤثر في مظهر الإنسان الخارجى - وقد أصبحت هذه الفكرة إحدى الثيمات الرئيسية في شعر الحب في عصر النهضة ربما بسبب تأثير (دانتي) كما يذهب إلى ذلك بعض النقاد .

٩٥٤ - "أكان انضباطكم" - ضمير الجمع هنا معناه أن جبريل يخاطب جيش الشياطين برمته من خلال رئيسهم وممثلهم إبليس .

٩٦٥ - ٩٦٧ انظر رؤيا يوحنا (٣-١/٢٠) "ورأيت ملاكا ... معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده . فقبض على التين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة . وطرحه في

الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكى لا يُضِلَّ الأمم فى ما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لابد أن يحل زمانا يسيرا". وانظر أيضا الكتاب الأول ٤٥ - ٤٨ والكتاب الثالث ٨٢ . ويعلق (إميسون) على ذلك قائلا إن اكتفاء جبريل بتحذير إبليس وإنذاره لا ينم عن ضعف ولكنه إجراء "سياسى" (ص ١١٢) .

٩٧١ - "ملاك الحدود" تعنى يا من تقيم على تخوم السماء ولكنها تعكس سخرية إبليس من قول جبريل له "داخل حدود المنطقة" فى البيت ٩٦٤ .

٩٧٦ - "طريق السماء" هو المَجَرَّة . (الطريق اللبنى أو درب التبانة) .

٩٨٠ - ٩٨٥ تشبيه الجيش شاكى السلاح بحقل الحنطة مأخوذة من (هوميروس) (الإلياذة ٢/١٤٧ - ٥٠) . ويعلق البروفسور (كريستوفر ريكس) فى كتابه أسلوب ميلتون الرفيع على هذا التشبيه قائلا إنه جميل ولكنه لا يتصل بصلب الموقف فكأنه استطراد (ص ١٢٩) . وقد اعترض عليه إميسون فى كتابه بعض صور الشعر الرعوى (ص ١٧٢) لعدم التطابق بين صورة الفلاح وصورة الله . إذ لا يمكن للعلیّ القدير أن يَفْلُتَ إزاء نتيجة الموقعة . ويعلق (فاولر) على ذلك قائلا إن صورة درس المحصول لها جذور دينية فهى استعارة تستخدم للدلالة على حكم السماء (انظر إرميا ٣٣/٥١) وهكذا ربما كان ميلتون يعنى أن الحكم النهائى ومحاسبة إبليس ينبغى ألا يكون سابقا لأوانه .

٩٨١ - "المحصول" فى الأصل Ceres وهى ربة الزراعة وتستخدم هنا كناية عن محصول الحنطة محاكاة لفرجيل الرعائيات ٢٩٧/١ .

٩٨٥ - ٩٨٧ التشبيه هنا له حدان ، الأول أن إبليس يتحمل ثقل أتباعه مثلما حمل أطلس ثقل النجوم والثانى هو أنه مثل أطلس قد تمرد على الإله الأعلى . وقد سبق تشبيهه بأطلس فى الكتاب الثانى ٣٠٦ - وجبل أطلس المذكور هنا هو الموجود فى أقصى الغرب من شمال إفريقيا (موريتانيا أو المغرب) وكانت قمته دائما تختفى وراء السحب مما أوحى بأنه أحد أعمدة هرقل أى أحد أعمدة السماء . أما جبل (تتريف) فهو جبل سامق فى جزيرة (تتريف) إحدى جزر الكنارى وكان يقال إن ارتفاعه يبلغ حوالى ٢٥ كيلو مترا - بل يزيد عن ذلك !

٩٩٧ - ١٠٠٤ تمثل هذه الأبيات ذروة التطور لصورة الميزان التى سبقت فى الأبيات ٣٥٤ - ٣٥٥ وفى الكتاب الثالث ٥٥٥ - ٥٦١ . أما معادلة ميلتون بين الميزان السماوى وبرج الميزان فليست كلاسيكية ولا سابق لها إلا سبنسر فى ملكة العجان (١١١/٥) - رغم ما يقوله فاولر من أنها فكرة قديمة ، (انظر كتابه سبنسر وأرقام الزمن ١٩٦٤) ولكنها تستدعى صورة الكواكب فى السماء لأن الرب بين إبليس وكوكبة الثعبان يجعل كوكبة الميزان فوقها أى فوق إبليس مباشرة عند منتصف الليل . وبرج الميزان هو البرج السابع بين البروج إذ يسبق العقرب ويُعَقَّبُ العذراء .

٩٩٩ - ١٠٠١ يقول ميلتون هذا استناداً إلى ما جاء في سفر أيوب ٢٤/٢٨ وما بعدها و ١٦/٣٧ .
وكذلك في إشعياء ١٢/٤٠ ، والأمثال ٢/١٦ .

١٠١ - انظر إشعياء ٦/١٠ "على أمة منافقة أرسله . . ليجعلهم مدوسين كطين الأرزقة" .

١٠١٢ - مثار الخلاف حول هذا البيت هو اختلاف مفهوم الميزان عند الله وجبريل وإبليس . والجدل طويل ويمكن الرجوع إليه في طبعة فاو لير للقصيدة .

حواشي الكتاب الخامس

١ - ٢ هذا هو اليوم الرابع والعشرون من أيام أحداث القصيدة . أما "الخطي الوردية" فمحاكاة لهوميروس (الإلياذة ١/٤٧٧) وأما حبات اللؤلؤ فيفهم منها أن الندى يشبه اللؤلؤ البراق . ولكن (فاولر) يقول إن ثمة معنى استعاريا خبيثا يتمثل في تشبيه ضوء الصباح بحبات اللؤلؤ المشور على الأرض ويستشهد في التدليل على ذلك بما جاء في المزمور السابع والتسعين من أن النور يُبذر على الأرض للصالحين (١١) - والعبارة التي وردت في قصيدة لوكريشيوس عن طبيعة الأشياء ٢١١/١١ عن بذر الضوء على أرض الحقل Lumine conseritarva . ويبدو أن تفسير (فاولر) معقول لأن ميلتون يستخدم كلمة Orient التي تصف اللؤلؤ بالبريق وتعني "الشرق" في الوقت نفسه .

٦ - مروحة (أورورا) ربة الصباح هي أوراق الأشجار لا أبخرة الجداول ولذلك يبدو وضع "البدل" غريبا في العبارة العربية (بل والإنجليزية!)

١٥ - "لا مثل لها" لأنها تابعة منها فحسب ومقصورة عليها لا تتعدها .

١٦ - في الأصل Zephyrus الذي كانت أنفاسه العبيقة تنبت الزهور مثل أنفاس زوجته (فلورا) ربة الأزهار . ويقول (فاولر) إن الإنسان قبل السقوط كان يعيش حياة متكاملة متوافقة مع الطبيعة فأبخرة الطعام النقي (البيت الخامس) تقابلها أبخرة الجداول (٦) والآن تقابل همساته (١٦) همسات النسيم (١٧) . ومن ثم فهناك تشبيه مضمر بين آدم و(زفيروس) رب النسيم الذي يوقظ الأزهار وبين حواء والزهور الغضة . وقد علق بعض الشراح على هذا قائلا إن تشبيه حواء بالزهور يوحي بضعف الجسد البشري وضعف نواذعه .

١٨ - ٢٥ انظر نشيد الإنشاد (٢/١٠ - ١٣ و ١٢/٧) - "قومي يا حبيبتى يا جميلتى وتعالى لأن ... شجرة التين قد أخرجت فجها ، وقعال الكروم تفسح رائحتها قومي يا حبيبتى وتعالى ... لنبكرن إلى الكروم لننظر هل تفتح القعال ، هل تَوَّر الرمان" - ولكن ميلتون يورد أنواعا مختلفة من النبات هنا - و"البكور" يقصد به أول ساعة من ساعات اليوم . ويقول البعض إنها كانت تبدأ دائما في السادسة أو أنها كانت ساعة الشروق . وقد فضلت "البكور" على الشروق لما توحي به من تبكير (انظر فقه اللغة للثعالبي - طبعة بيروت - دار الحياة - ص ٢٠٤) - كما أن تلك الساعة ذات دلالات دينية فهي ساعة الصلاة كما يتضح ذلك من البيت ١٤٥ وما بعده .

٢٣ - "المر" هو "اللاذن" (أو "اللاذن") المذكور في سفر التكوين ٢٧/٢٥ - وقد فضلت الكلمة المستخدمة في العطارة المصرية- أما البلسم فهو "البلسان" الوارد في نفس الآية- وقد فضلتها لشيوعها ولدلالاتها على الشفاء من الأمراض وهو المعنى الشائع للكلمتين على أى حال - في الإنجليزية .

٤٣ - ٤٥ يستغل إبليس التساؤل الذي أثارته حواء في البيتين ٦٥٧ - ٦٥٨ من الكتاب الرابع "لمن خلق هذا المشهد البديع إذا أوصد النوم كل العيون ؟" .

٤٤ - "عيون السماء استعارة مألوفة - انظر أريوسطو "غضبة أورلاندو" ٩٩/١٤ ، وتاسو تحرير بيت المقدس ٢٢/١٢ وسبنسر ملكة الجان ٤٥/١١/٣ .

٤٥ - ٩٠ في هذه الأبيات يلمح ميلتون إلى الثيمات التي يتناولها فيما بعد بتفصيل أكبر حين يتعرض للإغواء الثاني في الكتاب التاسع .

٥٥ - ٥٧ يشير ميلتون إلى وصف (فيرجيل) لفينوس وهي تترك (إينياس) خارج قرطاجنة (الإنيايدة ١/٤٠٣ وما بعده)

٥٦ - "العطر" في الأصل يتضمن تلميحاً إلى الزيت الذي تمسح به الآلهة على الشعر . وقد وردت الكلمة في البيت ٢٤٥ من الكتاب الثاني .

٧٠ - ٨١ انظر سفر التكوين ٣/٥ "الله عالم أنه يوم تأكلون منه تفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر" .

٧٩ - "في الهواء" إشارة إلى ما ورد في أفسس ٢/٢ من أن إبليس هو "رئيس سلطان الهواء" .

١٠٢ - ربما كان الخيال Fancy هنا يعني المخيلة imagination ولم يكن التفريق بينهما معروفاً آنذاك . وقد ذهب ابن خلدون في المقدمة نفس المذهب حين تحدث عن "الخيال والواهمة والحافظة" (ص ٩٧) باعتبارها قوى إدراك المحسوسات واختزانها في الذهن ثم تحدث عن المخيلة باعتبارها "قوة ادراك الجزئيات" (ص ١٠٠) دون أن يتصدى للمعنى الحديث لأى منهما . والمحمّل أن ميلتون لم يكن يقصد الخيال Fancy بالمعنى الذي فصله (كولريديج) أى طاقة استدعاء المحسوسات إلى الذهن بعد غيابها عن الحواس أو ما يسميه ابن خلدون "تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرد عن المواد الخارجة (انظر بازيل ويلى دراسات في القرن التاسع عشر - الفصل الأول) ولكنه كان يقصد المخيلة imagination وهي القوة التي قال (كولريديج) إنها تركيبية وتحليلية معاً ويؤكد هذا الظن ما جاء في كتاب سفنسن بعنوان ميلتون والعلم - كيمبريدج ماساتشوستس - ١٩٥٦ - حيث نجد مقتطفاً لأحد كتاب العصر هو (بارثولوميو) يخلط فيه بين الخيال والمخيلة (ص ٣٨) .

١١٥ - أى المناقشة حول تحریم شجرة المعرفة التي سبقت في الكتاب الرابع ٤٢١ وما بعده .

١٣٠ - ١٣١ هذه إشارة إلى النموذج التقليدي للخاطنة الثابتة مريم المجدلية - انظر إنجيل لوقا ٣٨/٧ "ووقفت عند قدميه من ورائه باكية وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها" ولكنها لا تعنى بالضرورة أن حواء قد وقعت في الإثم .

١٦٦ - ١٧٠ "أجمل نجم في السماء" هو كوكب الزهرة الذي يشرق قبل طلوع الشمس ويعرف أيضاً بنجم الصباح (لوسفير أو فوسفورس) انظر الحاشية على الأبيات ٦٥٨ - ٦٥٩ من هذا الكتاب وكذلك الأبيات ٧٠٨ - ٧٠٩ "ساعة البكور" - انظر الحاشية على الأبيات ١٨ - ٢٥ .

١٧١ - دأب كتاب عصر النهضة على وصف الشمس بأنها "عين السماء" مثل سبنسر فى ملكة الجان ٤/٣/١ وشكسبير فى السوناتا ١٨ .

١٧٧ - الواقع أن الباقي من الكواكب (بعد ذكر الزهرة) لا يزيد على أربعة وهى زحل والمشتري والمريخ وعطارد . ولكن ميلتون ربما قصد أن يقول إن الأرض أحد هذه الكواكب - إذ يشير إلى ذلك فى الكتاب الثامن ١٢٨ - ١٢٩ .

٢١٥ - ٢١٩ صورة الزواج بين شجرة الدردار والكرمة التى تتسلق عليها صورة قديمة إذ يذكرها (هوراس) فى الأناشيد ٤/٥/٢ . ولكن شيوع هذه الصورة فى عصر النهضة باعتبارها دليلاً على التكافل والتكامل يرجع بصفة أساسية إلى (أوفيد) مسخ الكائنات ٦٦/١٤ وما بعده . كان شجر الدردار يعتبر رمزاً للقوة والرجولة وتعتبر الكرم رمزاً للخصب ونعومة الأنثى وخضوعها ورقتها . ويقول (فاولسر) إن أهمية الصورة تعود إلى دلالتها على عودة آدم وحواء إلى التوافق بعد خلافهما الذى أتى به حلم حواء .

٢٢١ - ٢٢٣ انظر الكتاب الرابع ١٦٦ - ١٧١ - واسم (روفائيل) يعنى "عافية أو شفاء الله" وقد ورد الاسم فى الكتاب المقدس - ويقول (فاولر) إنه الملاك الأكبر "المناسب" لأداء المهام الخاصة بالعلاقات الزوجية استناداً إلى نص قديم يتصل بقدرته على التوفيق النفسى . والإشتقاق فى العبرية والعربية يؤيد ذلك فالنصف الأول من الكلمة "رفا" فى اللغتين تعنى التوفيق والإصلاح (ومنه رفا الثوب والمثل "بالرفاء والبنين") والنصف الآخر (إيل) يعنى الله بالعبرية . (انظر لسان العرب) .

٢٣٥ - ٢٣٧ تفصيل القول فى حرية الإرادة وأرد فى الآيات ٩٦ - ١٢٥ من الكتاب الثالث .

٢٦٤ - أرخبيل (كيكلاديس) يتكون من مجموعة من الجزر على شكل دائرة فى جنوب بحر إيجه (باليونانية "كوكلوس") ومن ثم فهو يشبه الأرض فى استدارتها .

٢٦٥ - جزيرة (ديلوس) هى إحدى جزر الأرخبيل المذكور وقد حددها القدماء باعتبارها مسقط رأس (أبولو) و (ديانا) أما جزيرة (ساموس) فليست من جزر هذا الأرخبيل - ولا شبه بينها وبين (ديلوس) سوى أن (جونو) قد ولدت فيها وفيها تزوجت (جوبيتر) ولكن هذا الشبه يكفى لمقارنتها بالفردوس .

٢٧٢ - "العنقاء" هنا ترجمة غير دقيقة للطائر الخرافى Phoenix الذى قيل إنه يقوم كل ٥٠٠ عام أو نحوها ببناء هرم من العطور أو عُشٍّ من الأعشاب الفواحة يأوى إليه ويموت فيه ، ولكنه بمجرد أن يموت تخرج عُنقاء جديدة مختلفة من نخاع عظامه ، ومن ثم تطير على الفور إلى (هليوبوليس) أى مدينة الشمس لتحفظ رُفات الطائر الذى قضى . (انظر أوفيد - مسخ الكائنات ١٥/٣٩١ - ٤٠٧) . وكان كُتَّابُ عصر النهضة يرادفون بين (هليوبوليس) ومدينة طيبة القديمة فى مصر . وقد استخدم الشعراء فى العصور المسيحية صورة "العنقاء" الكلاسيكية رمزاً لانتصار الحياة الأزلية على الموت ورمزاً لتجدد الحياة أيضاً . ولم أجد مقابلاً لها سوى "العنقاء" فى العربية .

٢٧٥ - ليس للفردوس إلا باب واحد في الجانب الشرقي (انظر الكتاب الرابع البيت ١٧٨) - ودخول (روفايل) من الباب يمثل تناقضا مع تسلق إبليس "مثل اللص ليدخل حظيرة الله" (الكتاب الرابع ١٧٨ - ١٩٢) وقد أعد ميلتون لهذا التناقض من قبل حين روى قصة (طوبيا) و (روفايل) في الكتاب الرابع ١٧٠ .

٢٧٧ - ٢٨٥ انظر وصف ملائكة الصاروقيم في إشعياء ٦/٢ "لكل واحد ستة أجنحة . بائنين يغطي وجهه وبائنين يغطي رجله وبائنين يطير" .

٢٨٠ - ٢٨٥ "الزخرف الملكي" يعنى أن أول زوج من الأجنحة ذولون أرجوانى وأن الثانى ذهبى والثانى أزرق سماوى - ووصفه بأنه لا يتصل دليل على الدوام . وقد علق (إبراهيم كاولي) فى إحدى حواشيه على ملحمة الداودية على هذا اللون قائلا إنه رمز لمجد السماء وبهائها ومن ثم لقوة الله ورفعته .

٢٨٥ - ٢٨٧ إين (مايا) هو (عطارد) سفير الآلهة وواهب الرحمة - وقد أشار إليه شكسبير فى هاملت ٣/٤/٥٨ - ٥٩ وخاصة - مثل ميلتون هنا - إلى وقفته الخاصة التى توحى بالنبل والشرف وذلك حين يقارن هاملت بين وقفة أبيه ووقفة (عطارد) :

وقفة كوقفة (عطارد) رسول الآلهة

وقد هبط لتوه على ربوة قبلتها السماء !

(من ترجمة الدكتور عبد القادر القط)

٢٩٢ - "المر" سبقت الإشارة إليه فى الحاشية على البيت ٢٣ من هذا الكتاب وكان يستخدم حسبما يقول (برودبنت) فى الوقاية من شر الشياطين و (برودبنت) يستشهد فى ذلك بقول لأحد معاصري ميلتون هو (هنرى هوكنز) . (ص ١٨٣) .

٢٩٣ - "القاسيا" بهار يشبه القرفة وهو يدخل فى تركيب الزيت المقدس المستخدم فى مسح "خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة" (انظر سفر الخروج ٣٠/٢٤) وزيت الطيب واردة فى إنجيل مرقس (١٤/٣ و ٨) وكان الارتباط بين "القاسيا" وزيت الطيب شائعاً . أما البلم فقد سبقت الإشارة إليه فى الحاشية على البيت ٢٣ من هذا الكتاب .

٢٩٤ - ٢٩٧ معنى "تلهو وتلعب" : تُمَثَّل وتُجَسَّد تصاور خيالها ويرى (كريستوفر ريكس) فى أسلوب ميلتون الرفيع - (ص ١١٢) أن ثمة تورية هنا لأن استخدام الكلمتين يلمح إلى لهو حواء بعد السقوط !

٢٩٩ - ٣٠٠ استضافة آدم لروفايل تشبه استضافة إبراهيم عليه السلام لضيوفه من الملائكة (تكوين ١٨/١) "وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار" .

٣٠٢ - انظر الحاشية على الأبيات ٦٠٨ - ٦١٢ من الكتاب الثالث .

٣٢١ - انظر تكوين ٧/٢ "وجعل الرب الإله آدم تراباً من الأرض" - وآدم بالعبرية تعنى الأحمر نسبةً إلى التراب الأحمر الذى خلق منه - وانظر قول ابن منظور فى لسان العرب "والأديم الجلد ما كان وقيل الأحمر وأديم كل شيء ظاهر جلده وأدمة الأرض وجهها" ص ٤٥ .

٣٢٦ - ٣٢٧ يقول الشراح إن ثمة مصادر أربعة للشمر فى الجنة فأولها أشجار الفاكهة وثانيها الشجيرات ، وثالثها النباتات الصغيرة (مثل الفراولة) ورابعها النباتات المستلقة أو الزاحفة مثل البطيخ والشمام . ولهذا فضلت ترجمة gourd ومعناها "القرع العسلى" بالبطيخ والشمام معا فالمحتمل أن ميلتون كان يعنى النوع بصفة عامة لا فاكهة محددة . وآية ذلك أن الترجمات الإنجليزية الحديثة للكتاب المقدس لا تذكر اسم الفاكهة القديم الوارد فى يوحنا ٦/٤ - ١٠ بل تشير فقط إلى "النبات المتسلق" . أما النص العربى فيذكر اسما غير شائع له وهو "يقتينة" .

٣٤٠ - فى الأصل سواحل بحر (بنطش) أى البحر الأسود والساحل (البونى) أى الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط بالقرب من قرطاجنة . أما جزيرة (الكينوس) فكانت ذات حدائق توصف بدوام الزهر والشمر انظر هوميروس الأوديسا ١١٣/٧ - ١٢١ .

٣٤٥ - فى الأصل "الشراب الطهور" هو عصير الكرم المتخمر must الذى لا يسكر inoffensive وقد رفض ميلتون أى أنبذة مسكرة لأنها تتصل فى تشاتها بعصيان الله . وهكذا يقول سبنسر فى ملكة الجان ١٠/٧/٥ وما بعده إن كهنة إيزيس قد حرمت عليهم الخمر لأنها قد تثير فى دماهم أفكار العصيان القديم . وقد شاعت الإشارة إلى السكر باعتباره رمزاً لاختلال الملكات الذهنية نتيجة للسقوط .

٣٤٨ - "الأكواب" هنا هى قشور الفاكهة الصلبة . انظر البيت ٣٣٥ من الكتاب الرابع .

٣٤٩ - لا وجود للبخور لأنه لا وجود للنار فى الجنة ! ولكن ميلتون يهاجم عادة حرق البخور فى الطقوس الكاثوليكية من طرف خفى .

٣٧٨ - (بومانا) ربة الفاكهة (من لفظ Poma) - وخاصة تلك التى تنمو على الأشجار مثل التفاح والكمثرى . وقد ورد ذكرها فى أوفيد مسخ الكائنات ١٤/٣٢٠ وما بعده ووردت قصة غرامها فى نفس الكتاب فى مكان آخر ١٤/٦٣٣ . (انظر القصة فى موجز الأساطير اليونانية ص ٣٢٨) - ويلفت (بيردن) (ص ٧١) نظرنا إلى تفرقة ميلتون بين حواء و(بومانا) وبستانها و(فينوس) - وأهم ما يقوله هو أن حواء تتحلّى بصفات روحية وأنها حقيقة تاريخية وليست أسطورية .

٣٨١ - ٣٨٢ الربات الثلاث هن (جونو) أو (هيرا) و (منيرفا) أو (أثينا) و (فينوس) أو (أفروديت) وكن يتنافسن على تقاحة كتب عليها "لأجمل النساء" . وقد عين للحكم فى هذا الأمر أحد أبناء البشر المشهود لهم بالحكمة وحصافة الرأى وهو (باريس) . وقد ظهرت له الربات الثلاث حيث كان يسكن فوق جبل (أيدا) عاريات ودون زينة . وكانت كل منهن قد قدمت له رشوة تتمثل فى عدة وعود منها وعد (فينوس) له بأن تهبه أجمل امرأة من البشر إذا حكم لها . وهكذا قال إنها أجمل الثلاثة وفاز

بالجميلة (هيلين) زوجة (منيلوس) . وهكذا شن اليونان الحرب على (طروادة) ودمروها (موجز الأساطير اليونانية ص ١٠٦) والواضح أن التشبيه لا تقف حدوده عند جمال حواء . فإن اختيار (باريس) للجمال الذى قدمته (فينوس) تسبب فى الهلاك وهذا فى نظر ميلتون مقابل أسطوري لسقوط الانسان . ونستدل من هذه الاستعارة على أن (باريس) يقابل (آدم) فى بشرته وضعفه ويمثل النقيض للملاك (روفايل) الذى يقابل (عطارد) رسول الآلهة الوثنية .

٣٨٥ - ٣٨٧ فى "البشارة" حل الملاك جبريل ببیت مريم البتول ليخبرها أنها سوف تحمل وتلد غلاما اسمه عيسى - وخاطبها قائلا "سلام لك أيتها المنعم عليها . الرب معك . مباركة أنت فى السماء" (لوقا ١/٢٨) . أما "حواء الثانية" (انظر الكتاب العاشر ١٨٣) فدلالاتها واضحة إذ تؤكد العلاقة القديمة فى كتابات المفكرين المسيحيين بين البتول وحواء - تماما مثل العلاقة القديمة بين المسيح وآدم - بل إن المسيح يطلق عليه اسم "آدم الأخير" (كورنثوس الأولى ١٥/٤٥) .

٣٩٣ - للمنضلة "أربعة جوانب" لأن الرقم ٤ كانت له دلالات معنوية وخلقية - ومنشأ هذه الرمزية هو نظرية (فيثاغورس) عن "التربيع" ولكن الدلالة تطورت فيما بعد بحيث أصبحت كلمة مربع Square فى اللغة الانجليزية تعنى الأمانة أو الاستقامة .

٣٩٩ - انظر رسالة يعقوب ١/١٧ "كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هى من فوق نازلة من عند أبى الأنوار" .

٤٠٧ - ٤١٣ شب جدل عنيفه حول طعام الملائكة وما إذا كانت تأكل أم لا - موجز القول فيه أن ميلتون يشير إلى ما ورد فى المزمور الثامن والسبعين (٢٤ وما بعده) من أن "المن والسلوى" هو حنطة السماء وطعام الملائكة . ويرى بعض الشراح أن الأكل هنا رمزى - رغم إصرار ميلتون على حدوثه فى الواقع (انظر الحاشية على ٤٣٥ - ٤٣٦) .

٤١٨ - ٤٢٠ "أدناها" أى أدنى أفلاك الكواكب . وفى البيتين غرابة ترجع إلى أن هذا التفسير للبقع التى تبدو على وجه القمر كان قد أصبح قديما فى عصر ميلتون بعدما أوضحه (جاليليو) من أنها تضاريس طبيعية . بل إن ميلتون قد قبل تفسير (جاليليو) عندما تحدث عن القمر فى الكتاب الأول ٢٨٧ - ٢٩١ . ولكن يبدو أن الموضوع كان مثار جدل فى تلك الأيام .

٤٢٣ - ٤٢٦ ترجع هذه الفكرة إلى نظريات قديمة عن الشمس والكواكب - وأهميتها فى السياق أنها ترتبط بصورة الطعام والشراب وهى صورة أساسية فى إطار رؤية ميلتون الشعرية .

٤٣٠ - حبات اللؤلؤ هنا هى "المن والسلوى" أى حنطة السماء - كما ورد فى الحاشية على الآيات ٤٠٧ - ٤١٣ .

٤٣٥ - ٤٣٦ يهاجم ميلتون الشروح الشائعة فى عصره التى تنفى ما جاء فى الكتاب المقدس من أن الملائكة "يأكلون حقا" (تكوين ١٨/٨) - وهى الشروح التى كانت قائمة على أن الملائكة كائنات

غير مادية ومن ثم فإن "الشقاء المنذر بقدم الموت" ظاهرى فقط . ويقول (فاولر) إن ميلتون قد استند فى رأيه إلى ما جاء فى إنجيل لوقا (٢٤/٣٩ - ٤٣) من أن المسيح تناول طعاما فى السماء بعد أن رفعه الله إليه .

٤٤٠ - "الكيميائى التجريبي" هو الكيميائى الذى يمارس صناعته بين الناس لا الباحث الضليع الذى كان يُظن أنه يستند إلى نظريات علمية معقدة بعضها دينى .

٤٤٦ - ٤٥٠ "الملائكة" فى البيت ٤٤٧ ترجمة لمعنى التعبير فى الأصل الإنجليزى "أبناء الله" - وهذه إشارة إلى ما ورد فى سفر التكوين من "أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا" (٦/٢) - ولكن ميلتون لا يقول بذلك هنا .

٤٥٩ - مصدر «الحذر» فى حديث آدم أنه يخاف أن تكون المعرفة التى يطلبها هى المعرفة المحرمة . انظر (بيردن) ص ١١٣ .

٤٦٩ - ٤٩٠ تتميز صورة العالم التى يرسمها روفائيل بالحركة الدائرية أى بالانطلاق والعودة - مما يجعلها تنتمى إلى الفلسفة الأفلاطونية ، مثل فكرة التفاوت فى درجة الروحانية عند الكائنات . ويصعب على الباحث رصد مصادر هذه الفكرة بسبب شيوعها شيوعا كبيرا فى العالم القديم .

٤٧٢ - ذكر "الهيولة الأولى" يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن ميلتون لا يقبل فكرة الخلق من العدم (الكتاب الثالث ٦٠١ - ٦٠٥ والحاشية) .

٤٨٤ - سلم الطبيعة Scala naturae هو السلم الكونى . و "التسامى" معناه الارتفاع وأيضا التحول من صورة إلى صورة كما يعنى اللفظ فى الكيمياء . (انظر الكتاب الثالث ٥١٦ - ٥٠٨ والحاشية) .

٤٨٤ - "عصائر الحياة" هى فى رأى القدماء سوائل بالغة النقاء يفرزها الدم من القلب حتى تحفظ حياة الكائن الحى . أما "أبخرة النفس" فقد سبق ذكرها فى الكتاب الرابع (٥٠٨) ومصدرها المنخ وهى تتحكم فى الإحساس والحركة الإرادية (وانظر الحاشية على ذلك البيت) .

٤٧٨ - ٤٩٠ استقى ميلتون من أفلاطون فكرة التفريق بين "الحدس" الذى يعتمد على النشاط الكلى للذهن "المتأمل" (mens باللاتينية) وبين "المنطق" الذى يعتمد على النشاط التحليلى للعقل (ratio باللاتينية) - (انظر الجمهورية ٥٢٣ وما بعده) .

٤٩٦ - ٥٠٠ كان من الشائع الاعتقاد بأن الإنسان كان يمكن أن يرقى إلى مستوى الملائكة لو لم يعص الله ويأكل الثمرة المحرمة ويورد (ك. س. لويس) فى كتابه مقدمة للفردوس المفقود - لندن - ١٩٤٢ - نصا للقديس أوغسطينوس يؤيد هذه الفكرة (ص ٦٦) - ويقول - (بيردن) إن ميلتون يصور الإنسان تصويراً يوحى بإمكانية "التقدم" أى الارتفاع فى منزلته لا الثبات على بشرته (ص ٣٦ - ٣٧) ٥٠٣ - هنا إشارة إلى ما ورد فى أعمال الرسل ١٨/١٧ "لأننا أيضا ذرية" .

٥٠٩ - يشير آدم هنا إلى "سلم الطبيعة" الذى سبق ذكره .

٥٢٠ - ٥٤٣ نفس الأفكار التي وردت في حديث الله عن رفض الجبر والتسيير في الكتاب الثالث ٩٣ - ١٢٨ ولو أننا هنا نواجه موقفاً يضعها موضع التطبيق . لاحظ أن ميلتون يستخدم عبارات قصيرة عمداً وذلك عملاً بنصيحة هوراس في فن الشعر .
عندما تريد الإفادة أوجز
حتى أن أذهان الناس تستقبل أقوالك في سرعة
ويسر ثم تعيها في أمانة
(البيتان ٣٣٥ - ٣٣٦)

(ترجمة الدكتور لويس عوض)

٥٤٧ - وصف ميلتون أغاني الحراس من ملائكة الشاروبيم من قبل في الكتاب الرابع ٦٨٠ - ٦٨٨ .
٥٥٧ - "جديرة برهبة الإصغاء في صمت" - في الأصل "جديرة بأن يصغى إليها في الصمت المقدس" - وهذه إشارة إلى (هوراس) - الأناشيد ٢/٨/٢٩ - ٣٠ - حيث ترد هذه العبارة بنصها . ولكن كلمة المقدس عند (هوراس) لا تحمل نفس المعنى عند ميلتون ومن هنا جاء الاختلاف في الترجمة .

٥٦٣ - ٥٦٤ يستمر سرد روفائيل للحرب التي وقعت في السماء حتى آخر الكتاب السادس . وهذه خصيصة من خصائص الملحمة .

٥٧٤ - ٥٧٦ كلمة "الظل" هنا بالغة الأهمية لأنها تشير إلى المذهب الأفلاطوني القائل إن علاقة العالم الظاهر بعالم المثل السماوي هي علاقة الظل بالحقيقة . وقد عرض هذا المذهب عرضاً مستفيضاً في الجمهورية - ١٠ - وانظر الكتاب الرابع ٢٠٧ - ٢٠٨ .

٥٨٠ - هذه فكرة أفلاطونية في جوهرها ولكن ميلتون يعدّلها بقبوله وجود الحركة في "الزمن الأزلي" - وهو ما يرفضه أفلاطون . ويشرح ميلتون هذا في كتابه عن العقيدة المسيحية قائلاً إنه ممكن "لأن أرسطو - الذي يقول باستحالة نشوء الأفكار الخاصة بالحركة والزمن إلا بالرجوع إلى هذا العالم - يقول في نفس الوقت إن هذا العالم نفسه أزلي" (٧/١) .

٥٨٣ - "الدورة الكبرى" هي الفترة التي تعود فيها الأجرام السماوية جميعاً وفي نفس الوقت إلى مواقعها الأصلية . وقد تفاوتت تقديرات الزمن الذي تستغرقه هذه الدورة - أو السنة الكبرى annus magnum ما بين ١٣ و ٣٦ ألف عام !

٥٩٧ - صورة الإبن في أحضان الأب واردة في الكتاب الثالث - الأبيات ١٦٩ و ٢٣٩ و ٢٧٩ .

٦٠١ - إشارة إلى الفقرة الواردة في كولوسي ١/١٦ "فإنه فيه خلق الكل ، ما في السموات وما على الأرض ، ما يرى وما لا يرى ، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين ، الكل به وله قد خلق" .

٦٠٣ - ٦٠٦ الإشارة الرئيسية هنا هي إلى المزمور الثانى "أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى . إنى أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك" (٦-٧) وإلى الرسالة إلى العبرانيين ٥/١ "لمن من الملائكة قال قط أنت ابنى أنا اليوم ولدتك ؟ وأيضا أنا أكون له أبا وهو يكون لى ابنا ؟" ويشرح ميلتون كلا من هذين النصين فى كتابه عن العقيدة المسيحية قائلا إن الإنجاب فى النص الأول استعارى ويعنى رفع الابن إلى ما فوق مستوى الملائكة وأنه فى المزمور الثانى يعنى "نصبه ملكا" (٥/١) وقد تضاربت الأقوال حول معنى الإنجاب والأبوة والملك وكان الرأى الشائع فى القرن السابع عشر أن أمر الله للملائكة بتوقير المسيح وتعظيمه رغم أنه "سيكون من البشر" كان سبب عصيان الملائكة وتمردهم - لأن بشرية المسيح تجعله أدنى منزلة منهم . (انظر مأكولى ص ٣٣) .

٦٠٧ - ٦٠٨ انظر "وقال بذاتى أقسمت يقول الرب" (تكوين - ١٦/٢٢) وانظر أيضا رسالة بولس الرسول إلى أهلى فيلى (٩/٢ - ١١) "لذلك رفعه الله أيضا وأعطاه اسما فوق كل اسم . لكى تجشوا باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض . ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب" .

٦٤٣ - فى كتابه عن العقيدة المسيحية (٧/١) يفرق ميلتون بين السماء الظاهرة وأخرى هي "الخفية أعلى السموات" القائمة فى سماء المباركين حيث "عرش الله" . (١٢/٤) والكتاب السابع ٥٨٤ - ٥٨٦

٦٤٥ - انظر البيت ١٦٢ وأيضا رؤيا يوحنا ٢٥/٢١ "لأن ليلا لا يكون هناك" .

٦٤٦ - انظر البيت ٦١٤ من الكتاب الرابع حيث يستخدم ميلتون صورة قطرات ندى النوم .

٦٤٧ - انظر المزمور ٤/١٢١ "إنه لا ينمس ولا ينام حافظ إسرائيل" .

٦٥٢ - انظر المزمور ٣٦/٨ - ٩ "من نهر نعمك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نورا" . وهذا يعنى أن الأنهار الحية هي أنهار الحياة .

٦٥٨ - ٦٥٩ انظر الكتاب الأول ٨٢ ، و ٣٦١ - ٣٦٣ (والحاشية) إذ يقول ميلتون :

إن أسماءهم قد انمحت الآن من سجلات السماء

ولم يعد لها من ذكر بعد أن كشطها فسوقهم ومحاهها

من ألواح الحياة .

والشائع هو أن إبليس كان اسمه (لوسيفر) قبل العصيان . واشتقاق (لوسيفر) واضح فهو من كلمة باللاتينية تعنى الضوء ، وهو أحد أسماء كوكب الزهرة الذى ارتبط بإبليس . انظر الحاشية على البيت ٦٨٩ والأبيات ٧٠٨ - ٧٠٩ من هذا الكتاب .

٦٦٠ - يعلق (فاولر) على هذا قائلا "لسنا واثقين" إذا كان روفائيل يعنى أن إبليس كان الأول فى طبقة "كبار الملائكة" فحب أم أنه كان بين أوائل الملائكة من جميع الطبقات . والبيت ٨١٢ يرجع

التفسير الأخير ، بينما يقول البيت ٦٩٠ من الكتاب السادس إن إبليس قد خلق مساوياً لميكائيل ، وأنه لم ينزل نذراً له فى أول يوم من أيام القتال حتى رأى "أيان يهوى سيف ميكائيل" (٢٤٧ - ٢٥٠)

٦٧١ - "من يليه فى المنزل" هو (بعلزبول) - استناداً إلى الكتاب الثانى ٩٩ - ٣٠٠ ويقول (إمبسون) إن ميلتون لا يذكر اسمه هنا لأنه كتب هذا الكتاب قبل الكتاب الثانى (ص ٩٩) . والأرجح أنه لا يعرف ماذا كان اسمه قبل العصيان بعد أن "انمحي من سجلات السماء" كما يقول - انظر الحاشية على البيتين ٦٥٨ - ٦٥٩ .

٦٨٥ - ٦٩٣ يقول (إمبسون) إن هذه الخدعة جزء من "عملية الدعاية الحربية" والواضح أن إبليس يحاول أن يمنع أتباعه من إظهار الولاء لله بقبول ملك المسيح .

٦٨٩ - "فى الشمال" إشارة إلى التقاليد الثابتة التى تربط بين الشمال والشر استناداً إلى ما جاء فى إشعياء ١٢/١٤ - ١٤ "كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح . . وأنت قلت فى قلبك أصدع إلى السموات أرفع كرسي فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع فى أقصى الشمال" .

٧٠٩ - الضمير فى "أكاذيبه" يعود فى النص العربى على "زعيمهم" (البيت ٧٠٦) ولكنه فى النص الانجليزى يعود على "وجهه" مما أثار اعتراض بعض الشراح . ولكن (فاولر) يفسر ذلك قائلاً إن ميلتون يشير فى الحقيقة إلى ما جاء فى رؤيا يوحنا (١٦/٢٢) من أن المسيح هو "نجم الصباح" الحقيقى أما "الوجه المشرق" لإبليس الذى تمثل بالزهرة بنت الصبح " (إشعياء ١٢/١٤) فهو تمثل كاذب . ومن هنا فلا تناقض بين كذب إبليس وكذب وجهه . انظر الحاشية على الآيات ٦٥٨ - ٦٥٩ و ١٦٦ - ١٧٠ من هذا الكتاب .

٧١١ - انظر الحاشية على الآيات ٦٤٨ - ٦٦١ من الكتاب الثالث - والأمثال ٣/١٥ "فى كل مكان عينا الرب مراقبتين الظالمين والصالحين" . . والمزمور ١٨/٣٣ .

٧١٣ - ٧١٤ انظر رؤيا يوحنا ٥/٤ "وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هى سبعة أرواح الله" ويذهب (إمبسون) فى كتابه بعض صور الشعر الرعوى لندن - ١٩٥٠ - إلى أن هذه المصابيح هى الكواكب السبعة (ص ١٨٤) . ولكن النص نفسه يوحى بغير ذلك إذ إن ميلتون يشير فى الكتاب الثالث إلى "الملاك الأكبر (أوريل) أحد السبعة الذين يقفون فى حضرة الرب" (٦٤٨ - ٦٤٩) . وهذا يعنى أن هذه المصابيح "ذهنية" لا بصرية - وربما كان ميلتون يعنى الاثنين معا .

٧١٦ - "أبناء الصباح" هم الملائكة استناداً إلى ما جاء فى سفر أيوب حيث يطلق عليهم "نجوم الصباح" (٧/٣٨) .

٧٢٠ - انظر الرسالة إلى العبرانيين ٢/١ "ابنه الذى جعله وارثاً لكل شىء به أيضاً عمل العالمين"

٧٢٦ - اقتران الشمال بالشر قديم . انظر الحاشية على البيت ٦٨٩ .

- ٧٣٦ - ٧٣٧ انظر المزمور الثانى/ ٤ "السكان فى السموات يضحك . الرب يستهزىء بهم" .
- ٧٤٦ - "نجوم الصباح" - انظر الحاشية على ٧٠٨ - ٧٠٩ ، ٧١٦ . أما عن "قطرات الندى" فكانت رمزا شائعا لكل عارض زائل انظر هوشع ٤/٦ .
- ٧٥٠ - "طبقات ثلاث" - كان القدماء يقسمون المراتب التسع للملائكة إلى طبقات ثلاث فى كل طبقة ثلاث مراتب . انظر (دانتى) الفرودمس ٢٨ و(سبنسر) ملكة الجان ٣٩/١٢/١ .
- ٧٥٥ - انظر الحاشية على ٦٨٩ .
- ٧٧٢ - ٨٠٢ اختار (ت. س. إليوت) هذه الخطبة ليدلل بها على عدم الدقة التى يتسم بها أسلوب ميلتون، وذلك فى المقال الشهير الذى نشره عام ١٩٣٦ وأهم ما فيه أن ميلتون يلجأ إلى التعقيد فى سبيل حسن الجرس والموسيقى اللفظية الأخاذة . وقد رد عليه (إمبسون) (ص ٢٦ وما بعدها) قائلا إن (إليوت) قد تعدد الهجوم الظالم وأنه يتهم ميلتون دون حق ، ذلك أن ميلتون هنا يورد خطبة لإبليس - وحديث إبليس إذن حديث شخصية من شخصيات الملحمة - وهى شخصية غير عادية فهو يعتمد عدم الدقة فى حديثه حتى يربك أذهان سامعيه . ويفسر (إمبسون) التغيرات المفاجئة فى الحجج التى يسوقها إبليس بأن الملائكة المتمردين ليسوا بحاجة إلى حجج كاملة فهم مقتنعون مقدما بفحوى خطاب إبليس . ويقول (فاولر) إن ميلتون يريد أن يقدم صورة لخطيب لا يجرؤ على عرض حججه صراحة أو فى إطار من الإنصاف والمنطق . أضف إلى ذلك أن ما لدينا هو رواية (روفايل) لخطبة إبليس وليس الخطبة نفسها - ولذلك فربما كانت الخطبة أطول من ذلك وربما لم يشأ روفائيل أن يُعرضَ آدم "الضعيف" لقوة البلاغة الشيطانية التى ربما كان إبليس قد أبداهها فى الخطبة الأصلية .
- ٧٨٣ - انظر ما يقوله جبريل عن خضوع إبليس لسلطان الله أول الأمر فى الكتاب الرابع ٩٥٩ .
- ٧٩٩ - "أهون به" - الضمير فى "به" يعود على تشريع الشرائع - ولكن الأصل الإنجليزى يوحى بمعنى آخر وهو كون المسيح بشراً - والإشارة هى كما يقول (فاولر) إلى انجيل لوقا ١٩/١٤ "لا نريد هذا (الإنسان) أن يملك علينا" .
- ٨٠٥ - ٨٠٧ (عبدبئيل) : المعنى الحرفى هو "عبد الله" . وهو وارد فى أخبار الأيام الأول ١٥/٥ باعتباره اسماً من أسماء البشر .
- ٨١٧ - انظر فيلبى ٩/٢-١١ "لذلك رفعه الله أيضا . . . لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب" .
- ٨٢١ - الفكرة واردة فى رسالة بولس الرسول إلى أهل روميه ٩/٢٠ "من أنت أيها الانسان الذى تتجارب الله . أعل الجبله تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟" .

٨٣٥ - ٨٤٠ انظر كولوسي ١/١٦ - ١٧ "فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين . الكل به وله قد خلق . الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل" .

٨٤٥ - ٨٤٨ انظر المزمور الثاني ١٢ وإشعياء ٦/٥٥ - ٧ ..

٨٥٥ - يقول (فاولر) إن هذا البيت له أهمية خاصة بالنسبة لعنصر السرد في الملحمة ، ويورد رأيا لأحد النقاد مفاده أن إبليس يسمع هنا لأول مرة بأن "للإين دوراً في الخلق" ومن ثم فهو يفاجأ ويبدأ في إنكار فكرة الخلق نفسها - بل إنكار خلقه هو نفسه - ثم يرد على ذلك قائلاً إنه لما كان (عبدئيل) يعرف بهذا سلفاً فلا بد أن الملائكة المطيعين قادرين على معرفته حدساً أو أن كلمات الله التي قالها عند تنويع المسيح لم تكن مقصورة على ما أورده روفائيل (٦٠ - ٦١٥) .

٨٦٠ - يورد (ك. س. لويس) رأياً يقول إن إبليس يقترب الإثم الأكبر حين يتمنى أن يحيا "في ذاته" - مستشهداً بما قاله القديس أوغسطينوس في هذا الصدد (ص ٦٥) - وأن إبليس يحاول تبرير موقفه ذلك بالحديث عن استحالة "العدم" .

٨٩٠ - إشارة إلى تحذير موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بعدم مناصرة تمرد (قورح) إذ قال "اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم" . عدد ١٦/٢٦ .

٨٩٣ - انظر الرسالة إلى العبرانيين ١٢/٢٩ "لأن إلهنا نار آكلة" .

حواشي الكتاب السادس

- ١ - الملاك المقدم هو (عديثيل) .
- ٢ - "دورة الساعات" : يقول ميلتون إن الساعات تدور لأنه يقصد تقسيمات قبة السماء التي تدور ظاهرياً حول محور النجم القطبي - وهي تقسيمات مكانية تمثل أقسام اليوم مثل الأقسام المرسومة على المزولة، وميلتون يعاملها معاملة الأشخاص هنا فكأنها ربات يدن حول الأرض . وقد أشار هوميروس إليها في الإلياذة حين جعلها تحرس أبواب السماء (٧٤٩/٥) وقال سبنسر إنها يقظة على الدوام في هذه الحراسة ملكة الجان (٤٥/٧/٧) .
- ٢٩ - ٣٤ أنظر إنجيل متى ٢١/٢٥ - "نعماً أيها العبد الصالح والأمين" . وتيموثاوس ١٢/٦ "جاهد جهاد الإيمان الحسن" ، المزمور التاسع والستين (٧) : "من أجلك احتملت العار" . أما "عبد الله" فهي المعنى الحرفي لاسم الملاك (عديثيل) . انظر الكتاب الخامس ٨٠٥ .
- ٤٢ - "الضمير" هو معنى التعبير الإنجليزي right reason المشتق من التعبير الرواقى الذى أشاعه الإسكولائيون وهو باللاتينية recto ratio والمقصود به العقل الصائب الدفين الذى يرادف الضمير فى لغتنا الحديثة - ولذلك فإن ميلتون يفرق بينه وبين "العقل" وحسب فى البيت ٤١ (انظر روبرت هوبس Robert Hoopes العقل الصائب فى عصر النهضة الإنجليزية كيمبريدج - ماساتشوستس ١٩٦٢) .
- ٤٤ - انظر سفر دانيال ١١/١١ ورؤيا يوحنا ٧/١٢ وما بعدها حيث يرد ذكر الحرب التي وقعت فى السماء .
- ٤٦ - "جبريل" أو جبرائيل أو جبرئيل - معناها الحرفي "جبروت الله" أنظر الحاشية على الأبيات ٥٤٩ - ٥٥٠ من الكتاب الرابع .
- ٤٩ - الواقع أن عدد الملائكة الأخير يبلغ ضعف عدد الفسقة - انظر الحاشية على البيت ٢٦٢ من الكتاب الثانى .
- ٥٤ - ٥٥ "الجحيم" فى الأصل هى (تارتاروس) وكانت مملكة الجحيم فى الأساطير اليونانية . انظر الحاشية على البيت ٦٩ من الكتاب الثانى . أما "نيران العماء" فهي فى الأصل "العماء الذى اشتعل ناراً" - وهو وصف دقيق لأن ألسنة نيران الجحيم امتدت إلى العماء (الكتاب الثانى البيت ١٠٠٢) فالظاهر أن الجحيم لم تنشأ إلا عند سقوط إبليس .
- ٦٥ - ٦٠ يقال إنه قبل نزول الوصايا العشر "صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت يوق شديد جداً . فارتعد كل الشعب فى المحلة . . . وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً" . سفر الخروج ١٩/١٦، ١٨ .
- ٦٣ - ٦٨ قارن هذا الوصف بما ورد فى الكتاب الأول ٥٤٩ - ٥٦١ .

- ٧١ - ٧٢ الملائكة عند ميلتون يسرون مثل الأرباب القدماء أى دون أن يلمسوا الأرض .
- ٧٣ - ٧٦ انظر تكوين ٢٠ / ٢٠ .
- ٩٧ - الشمال منطقة الشر . أنظر الحاشية على ٦٨٩ من الكتاب الخامس .
- ٢٨ - بيدى (فاولر) ملاحظة هامة مؤادها أن الملائكة عند ميلتون يستخدمون أسلحة لا تختلف عن أسلحة المقاتلين عند (هوميروس) و (أريوسطو) و (سبنسر) .
- ١٠٠ - ١٠٢ صورة إبليس هى صورة الصنم أو الصورة الزائفة للجلال القدسى لأنه يجلس عاليًا فى عربة متوجهة تحاكى العربة الكونية التى يركبها المسيح (انظر ٧٤٩ - ٧٥٩ من نفس هذا الكتاب) - ولهذا فهو محاط بملائكة الشاروبيم البراقة الذين يحاكون صور الشاروبيم فى العربة الكونية .
- ١٠٨ - "خط المواجهة" تعبير حديث فضلته على الأصل وهو "حافة المعركة" لأنه أصدق فى نقل المعنى المقصود .
- ١١٤ - ١٢٦ هذا "المونولوج الداخلى" كما نسميه فى أيامنا هذه منسوج على غرار مونولوجات المقاتلين الذين صورهم هوميروس فى الإلياذة وخاصة (هكتور) أنظر مثلاً مونولوجه قبل منازلة أخيلاس فى تلك الملحمة (١٣٠ / ٩٩ / ٢٢) وربما لاحظ القارىء أن الفردوس المفقود بها إشارات أخرى إلى الإلياذة توحى بأن إبليس يشبه (أخيلاس) فى كبريائه وغيرته وأن ميلتون ربما كان يظفى عليه عامداً هذا البعد الكلاسيكى . ولنظر مثلاً الكتاب الأول ٢٨٦ - ٢٨٩ حيث يشبه ميلتون درع إبليس بالقمر مثلما شبه هوميروس درع أخيلاس بالقمر (الإلياذة ١٩ / ٢٧٣) ، والكتاب الخامس البيت ٦٧٣ حيث يحاكى ميلتون الكلمات الأولى فى الحلم الذى أرسله (زيوس) إلى (أجاممنون) ليحثه على شن حرب جديدة على طروادة وتشريفاً (لأخيلاس) فى الوقت نفسه (الإلياذة - ٣٢٩ / ٢) .
- ١٢٢ - ١٢٣ رغم كراهية ميلتون للحرب - وبخاصة عدم تحييده لها كموضوع للشعر الملحمى (الكتاب التاسع/ البيت ٢٧ وما بعده) - فهو يتعرض هنا لمعركة كبرى فى السماء ويسهب فى سرد تفصيلاتها وقد اختلف الشراح والنقاد فى دلالة هذا فمنهم من قال إنها رمزية ومنهم من قال إنها غير جادة - ولكن النص يتحدث عن نفسه : فهى حرب ولا شك رغم نهايتها الرمزية .
- ١٣٧ - ١٣٩ انظر إنجيل متى ٩ / ٣ "لا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم آبا . لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم" وغيرها مثل ٥٣ / ٢٦ من نفس السفر .
- ١٥٦ - عادة ما تترجم كلمة gods فى هذا السياق بالملائكة لأن ذلك هو المعنى الأول - ولكن إبليس يعتمد أحياناً استخدامها لتعنى أكثر من ذلك أى لتوحى بالربوبية فعلاً . وقد سبق له أن استخدمها بنفس المعنى فى الكتاب الأول ١١٦ .
- ١٦٢ - ١٦٣ تعقيم العبارة متعمد - فإبليس يريد أن يقول ببساطة إنه لن يقضى على (عبدئيل) قبل الرد على ما رماه به - وهو لا يريد أن يتباهى بعجز إبليس عن ذلك . والتعقيد إذن يرجع إلى إفتقار إبليس إلى الثقة فى قدرته على القضاء على (عبدئيل) قبل أن يرد عليه .

١٦٧ - "أرواح خادمة" تعبير ورد في الرسالة إلى العبرانيين ١٣/١ - ١٤ لتأكيد انخفاض منزلة الملائكة عن منزلة المسيح : "لمن من الملائكة قال قط إجلس عن يميني؟ .. أليس جميعهم أرواح خادمة مرسله للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص؟".

١٧٦ - يستند إبليس في إقامة حججه على أن قانون الطبيعة يدعو إلى الحرية (انظر الآيات ٧٨٧ - ٨٠٢ من الكتاب الخامس) ولو أنه يفضل التلميح على التصريح - أما (عبديثيل) فلا يتردد في التصريح في رده على الشيطان قائلاً إن قانون الطبيعة هو القانون الأزلي الذي وضعه البارئ، وهذه فكرة أساسية من أفكار مذهب "الإنسانية المسيحية" (أو الهوماتيزم المسيحية كما يسميها الدكتور لويس عوض) - إذ إن الطبيعة مجرد سبب - والله هو الذي يسبب الأسباب . والواقع أن (عبديثيل) يقول إن الحرية تتمثل في أن يضع كل مخلوق نفسه في المكان الذي خلق له أي في مكانه الطبيعي - وهذا معناه الطاعة - طاعة الخلق وقوانين الخالق . انظر (راجان) (ص ٦٤) .

١٨٣ - انظر الكتاب الثاني ٢٦٣ "سيد في جنهم أكرم من عبد في الجنة".

١٩٥ - ١٩٨ شاعت في القرن السابع عشر نظرية تقول إن الرياح الحية في باطن الأرض هي التي تسبب في الزلازل والبراكين - بل إن هذه الرياح هي التي تبرر "الانتفاخ" والتضخم في بعض مناطق الكرة الأرضية . وقد نشر "بحث عن الزلازل" يعود إلى تلك الفترة ضمن المؤلفات الثرية الكاملة لسبنسر عام ١٩٤٩ في أمريكا ويعرض لهذه النظرية عرضاً تفصيلياً (ص ٤٤٩ - ٤٥٩) وقد أشار (فيرجيل) إلى نفس الفكرة في الإنيادا ٣/٥٧١ - ٥٧٧ كما أشار إليها (أوفيد) في مسخ الكائنات ١٥/٢٩٧ - ٣٠٦ عندما تعرضا لوصف بركان (إتنا) - وقد استقى ميلتون منهما الصورة التي رسمها في الكتاب الأول في الآيات ٢٣٠ - ٢٣٧ . وميلتون يطور الصورة هنا لا لإبراز مدى الدمار والخراب والفوضى فحسب، بل أيضاً لتأكيد معنى التمرد القائم على الكبرياء والذي لا شك يعتبر منافياً للطبيعة فالشعراء يستخدمون البركان عادة للدلالة على هذا المعنى . أما ارتباط إبليس بصورة أشجار الصنوبر فترجع إلى استخدام الإنسان "الوحشي العاصي" لسلاح من شجر الصنوبر - وهو ما يذكره فيرجيل في الإنيادا ٣/٦٥٩ وسبنسر في ملكة الجان ١/٧/١٠ . انظر كتاب ريتشارد بيرنهايمر المتوحشون في العصور الوسطى: دراسة لفنونهم ومشاعرهم وشياطينهم - كيمبرج - ماساتشوستس - ١٩٥٢ . وأما صورة الماء هنا فهي صورة لتآكل القاعدة - وهي قاعدة الباطل - مثل الصورة التي رسمها سبنسر في ملكة الجان :

وهكذا سقط ولفظ أنفاس حياته

التي تلاشت سريعاً - معائب ودخاناً ؛

وهكذا سقط ، حتى أن الأرض من تحته

لتن ألباً ، عاجزة عن احتمال ثقله الكبير ؛

وهكذا سقط ، مثل صخرة عظيمة انشقت

إذ نَحَرَّت الأمواجُ قاعدتها الضعيفة
وانتزعتها بقوة رهية من بين صخور الساحل
فانهارت لتزعج ربَّ البحر العظيم
وهكذا سقط وارثي كأنه جبل خامد ؛

الكتاب الأول / النشيد الأول / الفقرة ٥٤

١٩٩ - "الملائكة المتمردين" في الأصل "أصحاب العروش المتمردين" وأصحاب العروش أو "العروش" فقط طبقة من طبقات الملائكة . ولما كان ميلتون يقصد الملائكة المتمردين جميعاً وهم يتممون إلى ست طبقات على الأقل (انظر الكتب الخامس ٧٧٢ والسادس ١٠٢) فلا شك إن هنا مجازاً مرسلأ (بعض من كل) يحسن معه الإيضاح .

٢١٣ - انظر الحاشية على البيت ٨٣ من هذا الكتاب - وهو رأى فاوُلر - وانظر الإشارة إلى الأسلحة الرمزية للمؤمنين والكافرين في أفسس ١٦/٦ "درع الإيمان الذي به تقدرُونَ أن تطفنُوا جميع سَهام الأشرار الملتهية" - ثم انظر ما يقوله (فاوُلر) هنا من أن أسلحة الملائكة "روحية" في الحقيقة ؛ أفلا يمكن اعتبار المعركة برمتها معركة رمزية أيا كان التصوير الواقعي (أو على الأقل "غير المجازي") للمقاتلين وأسلحتهم ؟

٢١٥ - "القبة" هي قبة السماء . انظر الحاشية على البيت ٩٩٢ من الكتاب الرابع .

٢٥٤ - ٢٥٥ في الأصل الصخر هو adamant وهو صخر أو "تكوين معدني" لا وجود له في الواقع ولكنه يطلق على عدة أنواع من الصخور أو المواد المعدنية إذ اقترن في العصور الغابرة بالقولاذ ثم بالياقوت الأزرق sapphire ثم بالماس . وكان معناه في القرن السابع عشر أقرب إلى الماس مما أثار مشكلة في تحقيق نص ميلتون ذلك أن "درعاً من الماس" لا بد أن يكون رمزاً إما للصلاة والصمود أو للثبات على الإيمان - مثل الدرع الذي استخدمه (آرثر) في متازلة التين في ملكة الجان ١٠/١١/٥ فإذا شئنا ألا يقتصر معناه على الصلاة فلا بد أن نفترض أن ميلتون يصور لنا إبليساً بالغ البراعة والدهاء .

٢٦٧ - لاحظ أن ميلتون لا يعتبر الملائكة كائنات "فوق الطبيعة" بل كائنات لا تنفصل عن الطبيعة - وإن كانت هنا الطبيعة السماوية لا الأرضية .

٢٧٥ - ٢٧٦ أنظر الكتاب الثاني ٧٤٣ - ٧٦٠ حيث يقدم ميلتون استعارة "إنجاب" إبليس للخطيئة .

٢٨٢ - في الأصل adversary أي الخصم وهو المعنى الحرفي لـ Satan بالعبرية كما سبق .

٢٩٢ - يقول إبليس "تنخيل وجوده" لأنه لا يعرف بوجود الجحيم - بينما نستدل من السياق على معرفة الملائكة الأخير بها . وقد سبق ذكرها في البيت ٥٤ (عبدنيل) يذكرها في البيت ١٨٣ بعد انضمامه لصفوف المخلصين .

٣٠٣ - يقول (فاولر) "هذا بيت غريب فهو يفصح إما عن سذاجة قائله روفائيل أو عن غروره - إذ كيف يندو له أن الملائكة خليقة بأن تفصل فى أمر كهذا ؟" - ولكن الواضح أن روفائيل يحاول تضخيم صورة اللقاء الرهيب بين ميكائيل وإيليس .

٣٠٦ - تجسيد "الترقب" يكشف عن مخاوف الملائكة . انظر شكسيير - البرولوج لمسرحية طرويلوس وكريسيدا والبرولوج لمسرحية هنرى الخامس (الجزء الثانى) .

٣١٢ - "مواقع نذر السوء" : كان المنجمون يستمدون من علم الفلك البطلمى بعض المعلومات التى ينون عليها نبوءاتهم . ومن هذه خمس علاقات هندسية محددة فيما بين الأجرام السماوية كانوا يسمونها "مواقع" ومن هذه "موقعان" يتميزان بالتعارض (البيت ٣١٣) - ينشأ حين يواجه جرمان بعضهما البعض فى الجانبين المتقابلين من السماء ، وكانوا يعتبرون ذلك "نذير سوء" أى أنه تأثير سىء على البشر .

٣٢ - ٣٢٣ ورد ذكر أسلحة الله فى إرميا ٢٥/٥٠ - وكان لهذه الأسلحة دلالات رمزية فى الأدب على مر العصور منذ أن حطم (إيتياس) بسيفه الذى وهبه له الإله سيف (تورنوس) الذى صنعه أيدى البشر (الإنياذة ١٢/٧٤١) - والنموذج المعاصر فى القرن السابع عشر هو (سبنسر) الذى يصور سيف العدل الذى سُرِق من (جويتر) رب الأرباب وأعطته (أستريا) إلى (أرتيجال) فى ملكة الجان :

كان مصنوعاً من أنقى المعادن وأقواها

وقد ثقف وصقل بصخر الماس

وزين نصله بالذهب

أجمل زينة ونقش عليه اسمه

وما كان امتيازه أقل من شهرته !

لم تكن ثم مادة أصلب ولا أشد منه

فحيثما هوى اخترق أو شق

وما استطاع درع أن يصمد لضربه

فأينما ضرب مزق وفتت !

الكتاب الخامس / النشيد الأول / الفقرة العاشرة

وبلاحظ أن سبنسر يستخدم كلمة (adamant) فى البيت الثانى بمعنى الماس (انظر الحاشية على الأبيات ٢٤٥-٢٥٥) مع الفعل الذى يستخدمه ميلتون بمعنى (ثقف وصقل) ومن ثم فإن القارىء الملم بسبنسر سوف يلمح الإشارة الخفية إلى هذا "الصخر الماسى" العجيب . انظر أيضاً البيت ٣٦٤ من هذا الكتاب حيث يصرح ميلتون بأن دروع الشياطين "من صخر الماس" .

٣٤٤-٣٥٣ يقول ميلتون إن الملائكة ليس لها أعضاء فمادتها متجانسة أى غير مركبة - انظر الكتاب الأول "بسيطة فى جوهرها النقى" (٤٢٥) - ويورد (فاولر) مقتطفاً لأحد كتاب العصر يُبين فيه المصدر

الذى اعتمد عليه ميلتون فى قوله إن الشياطين تتألم من الجروح - وخاصة جرح السيف - وسرعان ما تبرأ.

٣٥٥- "جبريل بجبروته" فى الأصل : "قاتل جبروت جبريل" وهى الصيغة التى يستخدمها هوميروس - أما العلاقة الاشتقاقية بين (جبريل) والجبروت فقد سبقت الإشارة إليها فى الحاشية على البيت ٣٧١ من الكتاب الخامس .

٣٥٩- ٣٦٠ انظر الملوك الثانى ١٩/ ٢٢ "من عيّرت وجذفت ؟ . . قدّوس إسرائيل" .

٣٦٣- ٣٦٨ يلاحظ القارئ أن (روفائيل) لم يذكر اسمه لآدم وحواء - فلا حاجة بهما إلى ذلك - وهو هنا يروى ما حدث له بغير ضمير المتكلم - بل بضمير الغائب - حتى يضيف الموضوعية اللازمة على السياق أما غريم روفائيل فكان (أصمدى) أو (أزموديوس) المذكور فى الكتاب الرابع (١٦٨) . وأما غريم (أوريل) الملاك الشمسى فكان (أدرملك) وهو إله وثنى من الآلهة الشمسية ورد ذكره فى الملوك الثانى ١٧/ ٣١ . وانظر الكتاب الأول حيث ينسب ميلتون الآلهة الوثنية إلى الملائكة العصاة ويحدد أسماءهم . (٣٦٤- ٣٧٥) .

٣٧١- ٣٧٢ (أريئيل) و (أريوك) اسمان فى الكتاب المقدس . أما (أريئيل) فمعناه الحرفى (أسد الله) ويطلق على بيت المقدس (إشعيا ١٩/ ١) . وأما (أريوك) فوارد فى سفر التكوين ١/ ١٤ باعتباره ملك (الأسار) الذى حاربه إبراهيم عليه السلام ، وقد أصبح يشار إليه فى "علم الشياطين" فى عصر النهضة على أنه روح الانتقام . والاسم يعنى حرفياً "مثل الأسد" ، أما (راميل) فهو ممن سقطوا للعلاقة الأئمة مع "بنات الناس" .

٣٧٤- ٣٧٥ يقول آلان جلبرت Allan Gilbert فى كتابه عن تأليف الفردوس المفقود : دراسة لتنظيم مادتها وإدراجها فى السياق - ١٩٤٧ إن ثمة تناقضاً بين ما يقوله (روفائيل) هنا عن قناعة الملائكة بذبوع أسمائهم فى السماء وبين ما ذكره فى ٣٦٤- ٣٦٥ عن النصر الذى أحرزه هو و (أوريل) على أعدائهما ، ولكن - كما أشرنا فى الحاشية على ٢٦٣- ٣٦٨ إن روفائيل لم يذكر اسمه لآدم ولا يجوز إذن إتهامه بالتناقض . والحقيقة أن هنا مفارقة طريقة لأتنا نعرف المتحدث وآدم لا يعرفه .

٣٩٥ - ٣٩٧ على عكس الملائكة الأخيار الذين "لا يمسه سلاح" (٤٠٠) فإن "الإثم قد أغلظ كيان" العصاة (٦٠١) . ومن ثم أصبحوا يعرفون الألم . انظر الحاشية على ٣٤٤ - ٣٥٥ .

٣٩٩ - "مكعبة" كلمة لها دلالتها - فالتكعيب شكل يرمز إلى الفضيلة والاستقرار . وليس واضحاً إن كان المقصود هنا هو الشكل الرباعى على إطلاقه أم المكعب على وجه التحديد . ورمزية الرقم ٤ تعود إلى (فيثاغورس) كما سبق .

٤١٣ - يقوم بالحراسة عادة ملائكة الشاروبيم لتفوقهم فى العلم والمعرفة انظر البيت ٧٧٨ وما بعده من الكتاب الرابع وكذلك البيت ٥٩٠ وما بعده من الكتاب الثانى عشر .

٤١٦ - اجتماع مجلس الحرب ليلاً يجرى على غرار ما رواه (هوميروس) في الإلياذة (٩) عندما عرض للاجتماع الذي دعا إليه (أجاممنون) بعد هزيمة (هكتور) .

٤٤٧ - كان "نِسْرُوخ" هو الصنم الآشوري الذي كان (سَنَحَارِيب) يصلي له ساجداً عندما قُتل (ملوك ثاني ٣٧/١٩ وإشعياء ٣٨/٣٧) واسم (نِسْرُوخ) بالعبرية يعنى (الهرب) أو (الغواية الرقيقة) حسبما يقول (فاولر) إستناداً إلى قاموس (ستيفانوس) - وهما صفتان يبرزهما سلوكه وحديثه كما يصورهما ميلتون هنا .

٤٥٣ - "الأرباب" هنا تعنى أما "الكائنات المستقلة بذواتها" أو "الملائكة" - كما سبق .

٤٦٤ - ٤٦٨ تهديد مقنع : يريد (نِسْرُوخ) أن يقول "إن لم تأتينا بجديد فسوف نعين قائداً آخر" .

٤٧٢ - ٤٨١ انظر الأبيات ٦٠٨ - ٦١٢ من الكتاب الثالث حيث يتحدث ميلتون عن طاقة الشمس على تكوين الأحجار الكريمة بفعل تأثيرها في باطن الثرى على قطرات الندى ، وميلتون يقول إن المعادن تتكون هنا بنفس الطريقة بفعل تأثير "أشعة السماء" التي تقابل أشعة الشمس على "الزبد" الذي تخرجه أرضية السماء .

٤٨٣ - أبدى أحد أوائل الشراح اعتراضاً على استخدام إبليس كلمة "الجحيم" في هذا البيت قائلاً إن إبليس لم يكن يدري بعد كيف يكون عقابه . وقد رد (إمبسون) على هذا الاعتراض في كتابه بعض صور الشعر الرعوى - لندن - ١٩٥٠ - ص ١٥٨ قائلاً إن إبليس يستند إلى التلميحات "والإشارات إلى الجحيم التي سمعها في اليوم السابق" - ويعلق (فاولر) على ذلك قائلاً إن (روفايل) الذي يروى هذه الوقائع هو وحده الذي يقصد الإشارة إلى الجحيم بالمعنى المعروف ، أما إبليس فيقصد بها "نار المنطقة السفلى" فحسب .

٤٨٤ - ٤٩٠ ربما كان المصدر الذي اعتمد عليه ميلتون في القول بأن الأسلحة النارية قد اخترعت في الجحيم هو (أريوسطو) غضبة أورلاندو ٢٨/٩ - ٢٩ و ٩١ ، وربما كان المصدر الأقرب إليه هو سينسر الذي يقول في ملكة الجان :

أرأيت إلى تلك الآلة الشيطانية التي صنعت من الحديد

في أعماق أعماق الجحيم ، إذ شكلتها مهارة ربات القصاص

وحملتُها بالنظرون ذى الرياح والكبريت الحى

ثم وضعت فيها الرصاصة المستديرة وأمرتها أن تقتل

حين تشتعل ناراً وتملأ السموات

بضجيجها الراعد ، ويختنق بها الهواء كله

حتى ما يستطيع أحد أن يتنفس أو يرى أو يسمع ما يريد

من خلال سحائب الحريق والدخان الأدكن كربه الرائحة

حتى أن من ينجو من الطلقة يُصاب بالذعر من أنفاسها !

الكتاب الأول/ النشيد السابع - الفقرة ١٣

- ٤٨٥ - "الفتحة الأخرى" هي فتحة فتيل الاشتعال .
- ٥٣٥ - لم يستطع أحد من الشراح أن يعثر على مصدر لاسم (زوفيل) - (أى الجاسوس الإلهى) - وربما كان من الأفضل مراعاة الهجاء المستيع فى الكتاب المقدس لمثل هذه الأسماء وكتابه (زوفيشيل) بالعربية - مع أنه غير موجود فى أى نص دينى .
- ٥٣٩ - انظر فيرجيل الإنيادة ٨٠٩/١٠ "سحابة الحرب *nubes belli* ولكن ربما كانت هذه الإشارة فى الحقيقة إلى رسالة بطرس الرسول الثانية ١٧/٢ "غيوم . . . حُفِظَ لَهُمْ قَتَامُ الظَّلامِ إِلَى الأَبَدِ" - أى معلمون زائفون "ينطقون بعظائم البُطل" (نفس المصدر ١٨) .
- ٥٤٢ - ٥٤٦ "الصلب" فى الأصل *adamantine* وهى صفة من *adamant* الصخر الذى سبقت الإشارة إليه فى الحاشية على ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ٣٢٠ - ٣٢٣ و ٢٦٤ من هذا الكتاب . أما أن الدرع محكم حول الجسد فإشارة إلى الدرع الروحى الذى توحى به الآية الواردة فى أفسس ١٤/٦ - ١٧ .
- ٥٥٣ - "المكعب الأجوف" صورة للفضيلة الزائفة لأن التكعيب رمز الفضيلة (انظر الحاشية على ٣٩٩ و ٥٥٠ من هذا الكتاب) والتجويف رمز الخلو من الإيمان .
- ٥٦٠ - ٥٦٢ تعبير "قلب مفتوح" يتضمن تورية لأنه يشير فى الحقيقة إلى الجبهة العريضة للفيلق المتقدم ويوحى فى الوقت نفسه بالمعنى الحديث (الإستعارى) . وميلتون يستغل هذه التورية أيضاً فى البيت ٥٦٢ حين يتحدث عن المبادرة باعتبار أنها فاتحة *Overture* أى فتح المفاوضات من أجل التسوية (المعنى الثالث فى قاموس أكسفورد) بينما توحى الكلمة فى الوقت نفسه بفتحة المدفع الواردة فى البيت ٤٨٥ (وهو أحد معانيها فى اللغة) والقُوَّة الواسعة البشعة فى البيت ٥٧٧ - (المعنى الأول فى قاموس أكسفورد) .
- ٥٦٩ - ٥٧٠ هذه حيلة شائعة من حيل الحرب فى ذلك العصر .
- ٥٧٢ - كان لكل مدفع ثلاث "مواسير" تطلق قذائفها مرة واحدة شأن المدافع التى كانت شائعة فى القرن السابع عشر وبخاصة فى حصار المدن .
- ٥٧٢ - ٥٧٨ إذا كانت التشكيلات الحربية للشياطين "جوفاء" - لأن المكعب الأجوف رمز للفضيلة الزائفة - الحاشية على ٥٥٢ - فالمدافع أيضاً تتكون من أعمدة جوفاء - لأن العمود كان هو الآخر رمزاً للفضيلة .
- ٥٨٦ - ٥٨٩ يعلق (فاولر) على التشبيه بجسد الإنسان وصور الفحش المرتبطة بالشياطين فى هذه الآيات قائلاً إن لها سنداً فى الفنون التشكيلية المعاصرة التى تصور الشياطين فى أبشع صورة .
- ٦٣٥ - انظر عبارة فيرجيل فى الإنيادة ١٥٠/١ *Furor arma ministrat* أى أن الغضب يزود الغاضب بالسلاح - وكثير من مترجمى الإنيادة يستخدمون نفس الفاظ ميلتون فى هذا البيت .

٦٣٩ - ٦٦٦ انظر الكتاب الأول (٢٣٠ - ٢٣٧) حيث التشبيه :

... مثل بركان تثيره قوى

الرياح الحبيسة فى باطن الأرض ، فتقل التل من مكانه

وتنتزع من جبل (بلوروس) أو مثل السفح الذى مزقه

بركان (إتنا) الراعد ، فاشتعلت

أحشاؤه بوقود جبار سرى فيه الضرام

وفارت فيه المعادن فغدت أبخرة تندفع مع الريح

وخلفت القاع محترقا ، يغلفه

الدخان ...

أو تشبيه إبليس بجبل انتزع من مكانه فى الآيات ١٩٥ - ١٩٨ من هذا الكتاب . وتعرض الباحثة (إيزابيل ماكافرى) فى كتابها الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة كيمبريدج - ماساتشوستس ١٩٥٩ لهذه الصور قائلة إنها ترمز لحالة القوضى والعماء التى انتهت عند خلق الكون ولكنها حالة يمكن أن تعود نتيجة لانسياق الإنسان وزاء إبليس . وهذه الصور الشعرية - ومنها الصورة الواردة هنا - مستقاة من التراث الكلاسيكى وخاصة الحرب التى شنها العمالق (وأحد أسمائهم يعنى - اشتقاقا - أنهم أبناء الأرض) ضد (زيوس) أو (جويتر) رب الأرباب - (انظر موجز الأساطير اليونانية ٥٦ - ٥٩) وفى هذه الحرب استخدم العمالق التلال والصخور والأشجار أسلحة يقذفونها على الأرباب ، وفى النهاية ظل الكثير منهم مدفونا فى الأرض فأصبحوا البراكين الحالية - انظر الآيات ١٩٧ - ٢٠٠ من الكتاب الأول والحاشية عليها .

٦٦٤ - ٦٦٧ ترجع صعوبة تصور هذا المشهد إلى ضخامته البالغة .

٦٧٣ - "مجرى الأمور" هو المعنى الثانى للعبارة الأصلية sum of things أما المعنى الأول فى رأى الشراح فهو "حال الكون" استنادا إلى العبارة اللاتينية الموازية Summatum summa الواردة فى (لوكريشيوس) . ولكنى فضلت المعنى الثانى لتلازمه مع السياق .

٦٨٠ - ٦٨٢ انظر الرسالة إلى العبرانيين ٣/١ "بهاء مجده ورسم جوهرة" وكولوسى ١/١٥ "الذى هو صورة الله غير المنظور" .

٦٨٤ - "القدير الثانى" عبارة تتضمن تناقضا فى رأى الشراح - مثل التناقض فى البيت ٦٨١ "تشاهد فى وجهه المحجوب" .

٦٨٩ - انتقد البروفسور (كريستوفر ريكس) فى كتابه: أسلوب ميلتون الرفيع (ص ١٩) كلمة "تعرف" فى هذا البيت (كما انتقدها (جون بيتر) فى كتابه نقد الفردوس المفقود - لندن - ١٩٦٠ - ص ١٣) استنادا إلى أن "الابن عالم بكل شئ" . ولكن الترجمة العربية توضح مرمى ميلتون - فهو لا يقول

فى النص "اعلم" ولكن "وأنت تعرف" thou knowest ويعنى بها - كما فى الترجمة - "كما تعرف". ومرد الصعوبة هنا هو نسبة الكلام إلى الله سبحانه وتعالى .

٧٠٩ - ٧٠٠ يقيم (إمبسون) حجته فى كتابه الذى أكثرنا من الإشارة إليه فى هذه الحواشى وهو الله عند ميلتون - لندن - ١٩٦١ - ص ٤١ - ٤٢ على أن الله يؤخر هزيمة إبليس حتى لا يكشف له مدى قدرته سبحانه وتعالى فهو يمد له فى الأمل ولا ينهى الحرب إلا فى اليوم الثالث عامداً . ولكن هذه الأبيات العشرة توضح أن مقصد ميلتون غير ذلك : فهو يريد لإبليس أن يتبين الفارق بين قوة الله التى يهبها للمسيح وبين قوة مخلوقاته من الملائكة . ولهذا السبب يتجاهل إبليس تماماً أحداث اليوم الثالث من أيام الحرب فى روايته للموقعة فى الكتاب الأول .

٧٠٨ - انظر الكتاب الخامس ٧٢٠ والعبرانيين ٢/١ .

٧١٢ - "عدتى" فى الأصل "عدّة الحرب" ولو أن ميلتون يحذف "العدّة" ويذكر الحرب فقط - وهى حيلة بلاغية سرعان ما شاعت فى اللغة الإنجليزية .

٧٢٠ - ٧٢١ انظر كورنثوس الثانية ٦/٤ "الله الذى قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذى أشرق فى قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله فى وجه يسوع المسيح" .

٧٢٤ - ٧٣٤ انظر إنجيل يوحنا ١/١٧ - ٢٣ وإنجيل متى ١٧/٣ .

٧٣١ - ٧٣٢ انظر الحاشية على الآيات ٣٣٩ - ٣٤٣ من الكتاب الثالث وكورنثوس الأولى ٢٤/١٥ ، ٢٨ "وبعد ذلك النهاية متى سلم الملك لله الآب متى أبطل كل رئاسة وكل سلطان وكل قوة . . ومتى أخضع له الكل فحيث أن الابن نفسه أيضاً سيخضع للذى أخضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل" .

٧٣١ - ٧٣٢ انظر المزمور ١٣٩/٢١ "ألا أبغض مبغضيك يا رب وأمقت مقاوميك؟" .

٧٣٨ - هذا هو النقيض للوعد الذى وعد به المسيح "فى بيت أبى منازل كثيرة وإلا فإنى قد قلت لكم . أنا أمضى لأعد لكم مكاناً" (إنجيل يوحنا ١٤/٢) .

٧٣٩ - انظر البيت ٤٨ من الكتاب الأول الذى يستلهم الآية الواردة فى رسالة بطرس الثانية "الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا بل فى سلاسل الظلام طرحهم" (٤/٢) - وانظر يهوذا/٦ "والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم الله إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام" - وإنجيل مرقس حيث توصف الجحيم بأنها "جهنم النار، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ" (٤٤ - ٤٣/٩) .

٧٤٩ - ٧٥٩ يقول (فاولر) إن هذه هى الصورة الرئيسية فى القصيدة التى أعد لها ميلتون ومهد لها الطريق بالعديد من الصور الفرعية والإشارات الرمزية مثل عربة إبليس الزائفة (الآيات ١٠٠ - ١٠٣ و ٣٣٨) وصورة الملائكة الكبار السبعة أصحاب العربة الكونية ، وغير ذلك من الإشارات إليها وغيرها

من العزبات (الكتاب الأول ٣١١ ، الثاني ٨٨٧ ، الثالث ٣٩٤ ، ٥٢٢ ، الرابع ٢١١ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠ ، ٧١١) - ويقارن (فاولر) بين معالجة ميلتون لهذه العربة ومعالجة الرسامين والأدباء لها في عصر النهضة قائلاً إنها تتسم بالغموض والروحانية حتى ولو كانت تفاصيلها توحى بغير ذلك . أما المصطلح الذي استقى منه ميلتون هذه الصورة فهو حزقيال ٤/١ - ٦ ، ١٦ ، ٢٦ - ٢٨ ، ١٠/١٢ ، ١٦ وقد أجمع الشراح على أن هذه الآيات تمثل مشهداً كونيّاً يلعب فيه الرقم ٤ دوراً أساسياً فهو عدد العناصر، وفصول السنة إلخ - وأيضاً عدد الفضائل الكبرى ، ولكن ميلتون يضيف إلى الصورة الواردة في حزقيال ذكر النجوم .

٧٦١ - انظر الحاشية على البيت ٥٩٨ من الكتاب الثالث و (الأوريم) صخر شمسي . وانظر الحاشية على الآيات ٦٩٦ - ٥٩٧ من الكتاب الثالث حيث تفصيل القول في مغزى درع هارون .

٧٦٢ - ٧٦٤ كان العقاب "طائر جويتر" ومن ثم كان رمزاً للجلال الملكي وكان يصور أحياناً جاثماً عند أقدام "النصر" (وكان النصر هو الآخر مجنحاً) . ولكن ميلتون يجمع بين الاستعارتين في صورة واحدة حين يجعل للنصر أجنحة عقاب .

٧٦٤ - "يهوه" في الكتاب المقدس له سهامه الراجعة ، ولكن ميلتون يشير أيضاً إلى رعود (جويتر) في حربه ضد العماليق - انظر الحاشية على الآيات ٦٣٩ - ٦٦٦ من هذا الكتاب .

٧٦٥ - انظر المزمور الثامن عشر ٨ "صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه" .

٧٦٧ - انظر رؤيا يوحنا ١١/٥ "ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش والحيوانات والشيخ وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف" . وربما لاحظ القارئ أن ميلتون عادة ما يشير إلى أعداد الفسقة دون تحديد فهو يسميها "حشوداً" (انظر "حشود المارقين" في البيت ٣١ من هذا الكتاب) ولكنه يشير إلى أعداد الملائكة الأختيار بأرقام تمثل العشرة ومضاعفاتها - (مثلاً في الكتاب الخامس - البيت ٥٨٨) لأن العشرة كانت في التراث القديم رمزاً للوحدة - وفكرة الوحدة من الأفكار الأساسية في تفكير ميلتون الديني - فالوحدة قدسية لأنها ترمز لوحداية الله ولذلك يبدأ روائيل حديثه إلى آدم قائلاً "القهار واحد" الكتاب الخامس ٤٦٩ - بعد أن أشار من قبل إلى "رب السموات الواحد" (الخامس ٤٠٣) ويتكرر ذكر الوحدة في القصيدة باعتبارها قيمة أساسية "متحدين مثل نفس واحدة لا تتجزأ" (الخامس ٦١٠) وهلم جرا . وقد خصص (فاولر) في كتابه سبنسر وأرقام الزمن لندن ١٩٦٤ - عدة صفحات للحديث عن أصل فكرة التقابل بين وحدة الحق وتعدد الباطل ، وهو ينسبها إلى (فيثاغورس) بصفة أساسية (ص ٥ و ٧) - ولكن ألا يمكن أن يكون لها أصل ديني لا علاقة له بذلك الفيلسوف اليوناني ؟ أما كلمة "ملاك" فهي saint في الأصل التي شاعت ترجمتها بـ "قديس" - ولكن ميلتون يستخدمها للدلالة على الملائكة في مواضع كثيرة باعتبار أن تقديس الله أخص صفة من صفات الملائكة - وربما كان يعني بها "الملائكة المصطفين" - انظر الآيات ٤٧ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ من الكتاب الخامس والبيت ٣٣٠ من الكتاب الثالث حيث تعنى "المصطفين" فحسب - وكان هذا المعنى شائعاً في القرن السابع عشر .

- ٧٦٩ - انظر المزمور ١٧/٦٨ "مركباتُ الله ربّواتُ ألوفٍ مكررة . الرب فيها . سينا فى القدس" .
- ٧٧١ - انظر المزمور الثامن عشر / ١٠ "ركب على كروب (شاروييم) وطار وهف على أجنحة الرياح" .
- ٧٧٢ - انظر حزقيال ٢٦/١ "وفوق المقيب الذى على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق" - وصحته "الياقوت الأزرق" . أما السماء البلورية فهى التى تلى "سما النجوم" .
- ٧٧٦ - إشارة إلى النبوءة الواردة فى إنجيل متى ٢٤ / ٣٠ "وحيث تظهر علامة ابن الإنسان فى السماء وحيث تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحب السماء بقوة ومجد كثير" .
- ٧٨٨ - يحاكى ميلتون هنا عبارة فيرجيل الشهيرة فى الإنيادة (١ / ١٠) التى يتعجب فيها من نقمة (جونو) التى يسميها "ملكة السماء" قائلاً : *Tantaene animis Caelestibus irae ?* "أنى لأرواح السماء بمثل هذا الحقد !" - وقد ترجمها (جاكسون نايت) فى طبعة ١٩٥٦ (لندن) للإنيادة هكذا "يصعب أن نصدق أن أرباب السماء قادرون على مثل هذا الحقد" (ص ٢٧) من طبعة Penguin Classics .
- ٧٨٩ - ٧٩١ إشارة إلى سفر الخروج ١٤ / ٤ حيث لم تغلق آيات موسى عليه السلام فى إقناع فرعون بل زادت قلبه غلظة .
- ٨٠١ - انظر سفر الخروج ١٤ / ١٣ حيث يطلب موسى عليه السلام من بنى إسرائيل أن يقفوا ساكنين ويشهدوا هزيمة عدوهم .
- ٨٠٨ - يعلق (فالور) على هذا البيت قائلاً إن الاعتقاد بأن القصاص من الخاطئين حق إلهى لا يفوضه البارئ إلا لمن يصطفيه يستند إلى الكتاب المقدس (تثنية ٣٢ / ٣٥ ، المزمور ١٦٤ / ١ ، رومية ١٩ / ١٢ ، العبرانيين ١٠ / ٣٠) .
- ٨٠٩ - ٨١٠ انظر الحاشية ٧٦٧ : فالعصاة هنا لا يواجهون حشود المؤمنين الحاشدة بل المسيح وحده (البيت ٨٢٠) - ولما كان "الواحد" ليس عدداً - لأن الوجدانية لا عدد فيها بل هى مصدر وأصل الأعداد فهو أقوى من الأعداد التى ترمز للتفكك والشقاق .
- ٨١٥ - انظر إنجيل متى ١٣ / ٦ "لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد" .
- ٨٢٧ - "الأربعة" هم "الأربعة فى صورة الشاروييم" المشار إليهم فى البيت ٧٥٣ من هذا الكتاب ، (والبيت ٧٥٥) يقول ميلتون إن أجنحتهم كانت لها عيون - استناداً إلى ما جاء فى حزقيال ١٢ / ١٠ "وأجنحتها ملآنة عيوناً" - أما قوله هنا إنها مرصعة بالنجوم فلا سند له من الكتاب المقدس أو كتابات السلف ، وربما كان ميلتون يريد أن يؤكد الصورة الكونية لموكب المسيح . انظر الحاشية على الآيات ٧٤٩ - ٧٥٩ من هذا الكتاب .

٨٢٨ - "فالتصقت" استناداً إلى ما جاء في حزقيال من أن أجنحة ملائكة الشاروبيم الذين يحركون العربة متصلة "وأجنحتها متصلة الواحدة بأخيه" (٩/١) .

٨٣٠ - انظر حزقيال ٢٤/١ "فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخبرير مياه كثيرة صوت ضجة كصوت جيش" .

٨٣١ - قارن زحف الشاروبيم في حزقيال : "وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهه . إلى حيث تكون الروح لتسير تسير . لم تدر عند سيرها" (١٢/١) .

٨٣٣ - ٨٣٤ هذا ينفي دعوى إبليس الباطلة في البيت ١٠٥ من الكتاب الأول "زلزلت عرشه" - وقول ميلتون يستند إلى إشعياء ١٢/١٣ - ١٣ "وأجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز والإنسان أعز من ذهب أوفير . لذلك أزلزل السموات وتزعزع الأرض من مكانها فسي سحق رب الجنود وفي يوم حمو غضبه" .

٨٣٦ - "عشرة آلاف" - انظر الحاشية على البيت ٧٦٧ من هذا الكتاب ، وانظر تفسير "السهم الراعد" في الحاشية على البيت ٧٦٤ من هذا الكتاب أيضاً .

٨٣٨ - ربما كان "الطاعون" يعني هنا "الضربات أو الجروح" وهو المعنى المشتق من الكلمة اللاتينية كما يفسرها قاموس أكسفورد الكبير (المعنى الأول) ولها سند من سفر التكوين ١٧/١٢ "فضرب الرب فرعون ضربات عظيمة" - وخروج ٣٢/٣٥ ولكن المعنى الشائع وهو حلول غضب الله والآلام العاصرة الناجمة عنه أقرب إلى روح النص . ولا يمكن استبعاد الإشارة الثانوية إلى "الطاعون" الذي أصاب قوم فرعون وذلك بسبب الإشارة الخفية إلى موسى عليه السلام في البيت ٨٠١ من هذا الكتاب - وسفر الخروج حافل بالإشارات إلى معانيه المختلفة - مثلاً ١٢/٧ ، ١٤ - ٢٥ ، ١/٨ - ١٥ ، ١٦ - ١٩ ، ٢٠ ، ١/٩ ، ٧ - ٨ ، ١٢ ، ١٨ - ٣٤ ، ١/١٠ - ٢٠ ، ٢١ - ٢٣ .

٨٤٢ - هنا إشارة إلى رؤيا يوحنا اللاهوتي "وملوك الأرض والعظماء والأغنياء ... أخفوا أنفسهم في المغاير وفي صخور الجبال وهم يقولون للجبال والصخور أسقطي علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم" ١٥ - ١٧ .

٨٤٥ - انظر رؤيا حزقيال للعجلات "ولكل واحد أربعة أوجه . الوجه الأول وجه كروب (شاروبيم) والوجه الثاني وجه إنسان والثالث وجه أسد والرابع وجه نسر" (١٤/١٠) - لاحظ أن الترجمة العربية للكتاب المقدس تسمى العجلات "بكرات" .

٨٤٦ - العجلات ذوات العيون المشار إليها في حزقيال ١٢/١٠ (انظر "الأجنحة ذات العيون" في الحاشية على ٨٢٧ من هذا الكتاب) هي كائنات حية وإن لم تكن من طبقات الملائكة - وثم نص على ذلك "لأن فيها روح الحيوان" (١٧/١٠) في نفس السفر - وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن ملائكة الشاروبيم كانوا هم أنفسهم "عجلات حية" ومن ثم فلا غرابة في تعبير "عيون العجلات" . ولكن ميلتون يعتمد اعتماداً كاملاً على نص حزقيال ولا يقول إن الشاروبيم أنفسهم عجلات .

٨٥٨ - "ذاهلين صعقين" - حرفياً "كمن أصابته الصاعقة فأذهلته" - والكلمتان موجودتان في القرآن الكريم "تذهل كل مرضعة عما أرضعت" سورة الحج/ ٢ - "وخر موسى صعقا" الأعراف/ ٣٣ وخاصة ارتباط الصاعقة بيوم الحساب الزمر/ ٦٨ والطور/ ٤٥ - ولما كان ميلتون يقصد المعنى الحرفي للصاعقة إلى جانب المعنى المجازي فقد أضفت "ذاهلين" إلى النص العربي .

٨٥٩ - يجمع ميلتون هنا بين آيتين من آيات الكتاب المقدس الأولى واردة في سفر أيوب وهي "أهوال الله مصطفة ضدى" ٤/٦ والثانية في إشعياء "بنوك قد أعيوا . . الملائنون من غضب الرب من زجرة إلهك" (٢٠/٥١) أما "النقمة" فتوحى في الأصل الإنجليزى بمعنى "الانتقام" أو "ريات الانتقام" في الأدب اليونانى والتي شاعت ترجمتها "ريات القصاص" .

٨٧٤ - انظر الكتاب الثانى حيث يخبر العماء إبليس أنه رأى وسمع الملائكة الفسقة أثناء سقوطهم وقد اختلطت صفوفهم وارتبكت ٩٩٥ وما بعده .

٨٧٥ - انظر إشعياء ١٤/٥ "لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت فاهها بلا حد ، فينزل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها" .

٨٧٦ - ٨٧٧ انظر إنجيل مرقس ٩/٤٣ "خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضى إلى جهنم إلى النار التى لا تطفأ" .

٨٨٠ - ٨٨٣ انظر الكتاب الأول ١٦٩ - ١٧١ والكتاب الثانى ٩٩٣ - ٩٩٧ حيث ترد رواية إبليس ورواية العماء على الترتيب لطرد الفسقة من السماء .

٨٨٦ - التغنى بالنصر من التقاليد الرومانية القديمة . ولكن هنا إشارة خفية إلى "الصوت العظيم" الذى يتغنى فى السماء بالنصر على "الحية القديمة" إبليس بعد أن طرد من السماء (رؤيا يوحنا ١٢/١٠) .

حواشي الكتاب السابع

٧-١ «يورانيا» كانت في الأساطير القديمة «ربة» علم الفلك ، واسمها يعنى حرفياً ” السماوية“ ، وميلتون لا يشير إلى هذا الاسم صراحة إلا في مقدمة هذا الكتاب ، أى إنه لا يذكر اسمها هذا إلا هنا ، وإن كان يشير إلى استلهاها في عدة مواضع ، والمعروف أن الطبعة الأولى من الملحمة كانت لا تفصل بين الكتابين السابع والثامن بل تعتبرهما كتاباً واحداً (هو السابع) يتناول ميلتون فيه شئون الكون الكبير ومن ثم فقد أحس أنه يحتاج إلى معونة الرب السماوية لإمداده بالإلهام . والواقع أن تقاليد الشعراء في عصر النهضة كانت تصر على استلهاهم ربة واحدة بدلاً من ربات الفنون التسع ، وكانت «يورانيا» هي المفضلة بسبب اسمها ، ويقول فاوولر ، أهم شراح ميلتون ، إن الشاعر بذلك يؤكد الوحدة الإلهية وينكر التعدد الوثني .

٤ - الجواد الطائر هو ”بيجاسوس“ الذي صورته الأساطير القديمة وكان يشار إليه باعتباره رمزاً للإلهام الشعري .

٨-١٢ الإشارة هنا إلى سفر الأمثال في الكتاب المقدس ، حيث يتضمن الأصحاح الثامن آيات صريحة عن وجود الحكمة منذ الأزل . سألرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم . منذ الأزل ... إذ لم يكن غمر أبدت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدت» (٢٢-٢٤/٢٥) وأما كلمة «لهوت» فهي من الترجمة اللاتينية الشعبية للكتاب المقدس حيث تحل كلمة (Ludens) محل الكلمة الأصلية الدالة على الفرح والسرور باليونانية ، وهي الموجودة في الآية ٣٠ من الأصحاح نفسه سكنت عنده صانعاً وكنت كل يوم لذته فرحة دائماً قدامه» وأما دلالة الحكمة فقد اختلف حولها النقاد ، وإن كان الجمهور على أنها مشيئة الله التي تتمثل أحياناً في الكلمة Logos وهي قوة الخلق التي يرمز لها المسيح في هذا الكتاب ، وأحياناً في أسرار الله التي يخفيها عن البشر ، وهي في ذاتها قوة تماثل إن لم تكن تطابق قوة «الروح» (جبريل) ودراسات التسعينيات من القرن العشرين تجعلهما قوة واحدة ، فالمحدثون ينفرون من التقسيمات التي وضعها شراح العصور الوسطى وينزعون إلى ربط القوى الإلهية بعضها ببعض .

١٣- «المجازفة» المشار إليها سببها الاعتقاد الشائع آنذاك أن هواء «السما الدنيا» مهلك للبشر ، ولذلك فالشاعر يجازف في طيرانه مجتازاً هذه الأصقاع .

١٦- المقصود بالوطن أو بالموطن هو الأرض .

١٧-٢٠ عندما حاول «يلروفون» في الأساطير أن يطير إلى السماء ممتطياً صهوة الجواد «بيجاسوس» أرسل «جويتر» رب الأرباب الأسطوري حشرة جعلت تقرص أو تلدغ الجواد حتى يلقي براكبه من على ظهره . ويقول - رواة الأساطير إن «يلروفون» سقط في حقل الضياع (حقل «إليا») وظل يتجول وحيداً مكفوف البصر حتى وافته المنية .

٢١- معنى البيت أن ما بقى من الملحمة هو النصف ، وهو التقسيم الأول الذى يفصل بين الكتب الستة الأولى والكتب الستة الأخيرة .

٢٢- يريد ميلتون التفرقة بين اليوم الأرضى وأيام الله سبحانه .

٢٥-٢٨ يقول الشراح إن ميلتون يشير من طرف خفى إلى ما كان يواجهه من صعوبات فى أيام الاضطهاد التى تلت عودة الملكية وانهيار حكم «كرومويل» والبيوريتانيين .

٢٨- «ظلام العين» يشير إلى فقدان البصر الذى كان ميلتون يكابده آنذاك .

٢٩-٣٠ يشير شراح ميلتون إلى أنه كان يؤلف القصيدة ليلاً أو فى الساعات الأولى من الصباح ، وكان يقضى الليالى ساهداً ، ثم ينادى على ابته لإملائها ما كتب ، والكلمات ترجع صدى آيات المزامير «جرت قلبى تعهدته ليلاً» (٣/١٧) .

٣٤- المقصود هو «أورفيوس» الذى كان يعتبر بصفة عامة رمزاً للشاعر الملهم ، ولكن الإشارة إليه هنا تعتبر ملائمة بصفة خاصة بسبب العزلة التى كان يعيش فيها ، وإشارة ميلتون إلى أنه قتل على أيدي النساء أثناء الاحتفالات المأجنة يرب الخمر «باخوس» تتضمن إعراباً دفيناً عن مخاوفه من «النظام الحاكم» آنذاك .

٣٥- «رودوبيا» هو اسم سلسلة جبال فى «تراقيا» أو «تيراقيا» .

٣٧- القيثارة المشار إليه هو الذى منحه «أبولو» أو «ميركورى» إلى «أورفيوس» .

٣٩- الربة العاجزة هى «كاليوبى» والدة «أورفيوس» ولذلك كانت تعتبر حلماً خاوياً .

٦١- «دون أن يذنب» (yet sinless) تعنى فى الواقع «ولا لوم عليه» أى إنه لا يلام على محاولة الاستزادة من العلم «الطبيعى» ، وهذا يعتبر فى رأى فاولر ردّاً على من يتهمون ميلتون بمعاداة العلوم الطبيعية .

٦٦-٦٩ على غرار ما يشترك «دانتى» إلى المزيد من المعرفة من «فيرجيل» (المطهر ٤/١٨) وأما تصوير الرغبة فى المعرفة فى صورة عطش وتعطش إلى نبع الحكمة (fons sapientiae) فيرجع إلى تفاسير آباء الكنيسة وتعليقاتهم على آيات المزمور الثانى والأربعين «كما يشترك الآيل إلى جداول المياه... عطشت نفسى إلى الله» . (٢-١/٤٢) .

٧٩- انظر سفر الجامعة ١٣/١٢ «اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله» ويقول بعض الشراح إن قراء ميلستون آنذاك ربما دهشوا من إيراد هذه الإشارة لأن أول سؤال وجواب فى المجموعة الكنسية التى وضعها كالفن هما «ما هى الغاية الأولى والرئيسية لحياة الإنسان ؟ - أن يعرف الله»

٩٦- انظر سفر أيوب «اذكر أن تعظم عمله» (٢٤/٣٦) ويقول الشراح إن آدم كان يخشى أن يكون بذلك قد طلب «المعرفة المحرمة» وهذا هو سر الحذر الذي يديه في حديثه .

٩٨- ١٠٠ طلب مواصلة السرد من التقاليد الراسخة في الملاحم الكلاسيكية (هوميروس - الأوديسا - ٢٧٦-٣٧٢/١١) .

١٠٨- فعل المطاوعة «تنصرف» يدل في رأى النقاد على كياسة آدم وحسن تصرفه أو لباقته ، فهو لا يقول إننى سوف أصرفك بل يوحى بأن الملاك سوف يصرفه «الانتهاء» من القصة ، ومن ثم فالفعل بالعربية «محايد» .

١٢٢-١٢٣ الإشارة إلى تيموثاوس الأولى ١٧/١ «وملك الدهور الذى لا يفنى ولا يرى ، الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور» .

١٢٤- الإشارة إلى إنجيل متى ٢٤/٣٦ «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبى وحده» .

١٣٢- كانت كلمة «لوسيفر» (المشتقة من اللاتينية *lux-lucis* بمعنى الضوء) هى الاسم الذى كان يطلق فى غابر الأزمان على كوكب «فينوس» أو الزهرة حين تكون فى موقع «نجم الصباح» ، وكان ذلك اسم إبليس قبل العصيان ، أما عن الروابط الرمزية بين إبليس ونجم الصباح فقد تعرض لها روفائيل تفصيلاً فى مقدمة حديثه فى الكتاب الخامس ٧٠٠-٧١٤ .

١٣٥- الإشارة إلى سفر أعمال الرسل ٢٥/١ «... التى تعدّها يهوذا ليذهب إلى مكانه» .

١٤٤- الإشار إلى سفر أيوب ٩/٧-١٠ «السحاب يضمحل ويزول . هكذا الذى يتزل إلى الهاوية لا يصعد . لا يرجع بعد إلى بيته ولا يعرفه مكانه بعد» .

١٦٣-١٦٤ يقول فاوُلر «إن إيمان ميلتون بالوحدانية (الأريوسية) لم يجعله يشك فى الدور المنوط بالمسح باعتباره «الكلمة» (لوقوس) وفق مذهب الأفلاطونية الجديدة ، أى الوسيلة المستخدمة فى الخلق ، دون أن يعنى ذلك أنه خلّق بصفة خاصة قبل باقى ما خلق الله» . ص ٧٨٤ ويشير فاوُلر إلى الآيات الأولى من إنجيل يوحنا «فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان فى البدء عند الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» . (١/١-٣) ويقول ميلتون فى كتاب عن العقيدة المسيحية (٧/١) «إن الخلق هو العمل الذى أخرج إلى الوجود كل ما هو موجود بكلمته وروحه» . ويقول فاوُلر معلقاً على كلمة الروح فى السطر ١٦٥ قائلاً «إن ميلتون يعنى إرادة الله ، أو طاقته الإلهية» . والواقع أن إرباط الكلمة بالإرادة واضح من السياق ، وكذلك إرباط الخلق - من ثم - بالإرادة . وفكرة «يُظَلُّ كل شيء» قديمة وراسخة، وتؤكد معنى القوة أو الطاقة الإلهية ، إذ يقول إنجيل لوقا «قوة العلى تظلك» (١/٣٥) ويقول سفر التكوين «وروح الله يرف على وجه المياه» (٢/١) ويقول الشراح إن الترجمات الأولى

للكتاب المقدس من اليونانية كانت تربط الكلمة بالقوة أو بالروح لا بروح القدس أو بجبريل (جبرئيل - الكلمة التي تعني اشتقاقًا جبروت الله أو قوته). والفكرة على ما يبدو من تعقيدها بسيطة في القصيدة ، وهي تستند إلى تراث كامل من الفكر الديني .

١٧٣- حاول إبليس في الجحيم (انظر الكتاب الأول السطرين ١١٦-١١٧) أن يعزو ما حدث له إلى القدر ، مثل الرواقيين ، ولكن ميلتون يقول هنا إنه لا يوجد 'قدر' آخر سوى إرادة الله .

١٧٦-١٧٩ المعني المضمّر في كلام روفائيل هو أن ما رواه من الخلق سوف يصبح «أسطورة» بمعنى القصة المسطورة التي يتناقلها الخلف عن السلف ويختصمون فيها ، شأنها في ذلك شأن روايته للحرب بين الملائكة والشياطين (انظر الكتاب الخامس ٥٧١-٥٧٦) وأما عن موضوع الخلق الفوري («كن فيكون») فلقد أوضحت تفاسير الكتاب المقدس المستندة إلى مذهب القديس أوغسطينوس أن الستة أيام ما هي إلا تقريب لأذهان البشر عما خلقه الله في لحظة واحدة .

١٩٣- «الحرف» هو الكلمة (انظر السطر ٢٠٨) والروح (٢٠٩) ويشير إليه ميلتون أحيانًا باسم «الابن» (١٩٣) أو «المولى» أي الرب (٢٠٥) ويصرّ شراح ميلتون على إنكار وجود كيانات مستقلة تشير إليها هذه الألفاظ ، ومن أهم مفكرى العصر الحديث (عصر النهضة) الذين شرحوا مقاصد البارئ في الخلق «فرانسيس بيكون» الذي كان قد كتب في كتابه تقدم المعرفة يقول إن الله خلق الوجود بالقوة، وخلق معاني الموجودات بالحكمة ، كأنما ليميز بين اسمين من الأسماء الحسنى لله جل وعلا وهما القوي والحكيم ، باعتبارها من الصفات العلوية التي لا بد أن تشير إلى مصدر واحد ، وكان بهذا يمهّد للتفريق بين قوة اللحظة التي توجد الشيء من العدم ، وحكمة الأيام الستة التي تضيء المعنى على الموجودات . ويقول بعض النقاد إن ميلتون قد استفاد من هذه الاجتهادات في القصيدة الحالية .

٢٠٥-٢٠٨ الإشارة إلى المزامير (٢٤/٧-٨) «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن ، وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد . من هو هذا ملك المجد . الرب القدير الجبار» .

٢١٠-٢١٥ الإشارة إلى المزامير (٢٤/١-٢) «للرب الأرض وملؤها . المسكونة وكل الساكنين فيها . لأنه على البحار أسسها وعلى الأنهار ثبّتها» .

٢٢٥-٢٣٠ فكرة البناء الإلهي على أسس هندسية ترجع أول الأمر إلى سفر الأمثال : سلما ثبّت السموات كنتُ هناك أنا . لما رسم دائرة على وجه الغمر» (٨/٢٧) وكلمة الدائرة نفسها واردة في السطر ٢٢٨ ، والمعنى مجرد ، ولكن مفسري الكتاب المقدس حولوا جهاز القياس المجرد إلى جهاز مادي كالفرجار (البرجل) . والصورة كما يقول النقاد تتضمن عناصر بشرية إذ تنسب إلى الله فنون الهندسة المعمارية .

٢٣٥- الإشارة إلى سفر التكوين (١/٢) «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفُّ على وجه المياه» .

٢٤٣-٢٤٩ ميلتون هنا يضيف تفصيلات إلى ما سبق أن قاله في الكتاب الثالث عن نشأة النور في السطور ٨-١٢ ، والإشارة هي إلى سفر التكوين «وقال الله ليكن نور فكان نور» (٣/١) .

٢٤٩-٢٥٢ الإشارة إلى سفر التكوين «ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارةً والظلمة دعاها ليلاً . وكان مساءً وكان صباح يوماً واحداً» (١/٤-٥) . الابتداء بالمساء في حساب اليوم من التقاليد الشرقية الموجودة في اللغات السامية كلها ، وهذا مهم في حاب النظام الزمني لأحداث القصيدة .

٢٥٦-٢٦٠ الإشارة إلى سفر أيوب «حين أُمسَّتْ الأرض . . . تَرَنَّتْ كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله» (٧٢٤/٣٨) أما أول مساءً في الخلق فهو المساء الذي يبدأ به اليوم الرابع عشر لأحداث القصيدة .

٢٦١-٢٦٩ الإشارة إلى سفر التكوين «وقال الله ليكن جَلْدٌ في وسط المياه . وليكن فاصلاً بين مياه ومياه . فعمل الله الجَلْدَ وفصل بين المياه التي تحت الجَلْدَ والمياه التي فوق الجَلْدَ . وكان كذلك . ودعا الله الجلد سماءً» (١/٦-٨) .

٢٨٣-٢٩١ الإشارة إلى سفر التكوين (١/٩-١٠) «وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة . وكان كذلك . ودعا الله اليابسة أرضاً . ومجتمع المياه دعاها بحاراً» . والمزمير (١٠٤/٦-٨) «كسوتها الغمر كثوب . فوق الجبال تقف المياه . من إتهارك تهرب من صوت رعدك تفر ، تصعد إلى الجبال . تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسسته لها» .

٢٩٦- العبارة بين القوسين يقصد ميلتون بها الرد على تهمة خلط الأزمان إذ كان يتوقع إتهامه بذلك ، ولكنه بهذه الإشارة يدعو القارئ إلى توخي الدقة وأخذ حساباته الزمنية مأخذ الجد .

٣٠٧-٣١٣ الإشارة إلى سفر التكوين (١/١٠-١١) «ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاها بحاراً ، ورأى الله ذلك أنه حسن . وقال الله لتنبث الأرض عشباً وبقلاً يزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه بزره فيه على الأرض وكان كذلك» .

٣٣١-٣٣٤ الإشارة إلى سفر التكوين (٢/٥-٦) «الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض . ولا كان إنسان يعمل الأرض ، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض» .

٣٣٩-٣٤٥ الإشارة إلى سفر التكوين (١/١٤-١٥) «وقال الله لتكن أنوار في جَلْدِ السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين . وتكون أنواراً في جَلْدِ السماء لتسير على الأرض» .

٣٤٦-٣٥٤ الإشارة إلى سفر التكوين (١/١٦-١٧) «فعمل الله النورين العظيمين . النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم ، وجعلها الله في جَلْدِ السماء لتسير على الأرض ولتحكم على النهار والليل وتفصل بين النور والظلمة» .

٣٧٤-٣٧٥ الإشارة إلى سفر أيوب (٣٨/٣١) «هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك رِبَطَ الجبار» . يقول أحد الشراح إن الفجر يسبق الشمس حقاً ، في الحركة الظاهرية اليومية ، ولكن كوكبة الثريا لا تسبق الشمس لأنها في برج الثور ، وقد كانت في هذا البرج أيضاً قبل سقوط آدم وحواء ، أما الآن - في إبان الخلق الأول - فالشمس في برج الحمل ، البرج الذي يسبق برج الثور ، لأن الخلق وفقاً لما يقوله ميلتون كان في الاعتدال الربيعي (انظر الكتاب الثالث ٥٥٥-٥٦١) وهكذا فإن الثريا ترقص قبل الشمس هنا بمعنى أنها تسبقها في حركتها السنوية في دائرة البروج ، وينتهي الشراح إلى القول بأن ميلتون يمهّد بذلك لوقوع فصول السنة .

٣٨٧-٣٩٨ الإشارة إلى سفر التكوين (١/ ٢٠-٢٢) «(٢٠) وقال الله لَتَفْضِ المِياهُ رِحاَافَاتِ ذاتِ نفسٍ حيةً وليطير طير الأرض على وجه جِلْدِ السماء . (٢١) فخلق الله السنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابية التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن (٢٢) وباركها الله قائلاً أثمرى وأكثرى واملأى المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض» والنص الشعبي اللاتيني للكتاب المقدس يورد الآية (٢٠) كما يلي :

producant aquae reptile animae viventis, Tremellius reptilia animantia

٤٢٣-٤٤٦ يقول قاولر «إن الطيور السبعة المشار إليها ترمز جميعاً إلى فضائل محددة ، وسوف يلاحظ القارئ أن ميلتون يلفت النظر مراراً وتكراراً إلى تلك الصفات الرمزية منها» .

٤٢٣-٤٣٠ يأتي ذكر العقاب أولاً باعتبارها سيّدة الطيور ، وربما كانت العقاب ترمز إلى الرشاقة الإلهية أو الكرم الإنساني أو الجلال البشري أو السمو الفكري - بل وحتى إلى التّورُّ الروحي (ويتفق في هذا ثلاثة من كبار النقاد) والإشارة إلى سفر أيوب «من فهمك يستقل العقاب وينشر جناحيه نحو الجنوب؟ أو بأمرك يخلق ويعلى وكره ، ويسكن الصخر ويبست على سِنِّ الصخر والمعقل؟ (٢٦-٢٨/٣٩) . وأما اللَّقْلُقُ ، فكان رمزاً للعدالة التزيهة ، وللامتنان بالجميل ، وورع الأبناء وبرّهم والديهم ، وبعدها للشعبان (ويتفق في هذا ناقدان) . وعادةً بناء وكره في ذُرا أشجار السرو كانت ترمز إلى مقصد الحياة الإلهية *animus divinus intentus* وهما يمثلان الطبقتين الفرعيتين للطيور ، الأولى هي التي تطير وحدها أي متفرقة والثانية هي الطيور التي تطير في جماعات أو تشكيلات مجتمعة ، وهكذا شاعت عن العقبان صفة العزلة وعن اللقالق صفة الانضباط الحربي . وأما عن معرفته مواعيد رحيله ، ففيه إشارة إلى آية من سفر إرميا (٨/٧) سبل اللقلق في السموات يعرف ميعاده واليعة السنونة المزقزقة حفظتا وقت مجيئهما» ، والترجمة العربية التي لدى للكتاب المقدس تحذف من هذا النص الإشارة إلى الكُرْكُ crane أو الغُرُنُوقُ ، وهي الإشارة الواردة في جميع الطباعات الإنجليزية للكتاب المقدس .

٤٣٠-٤٣٢ الكركي العاقل أو الحصيف رمز للاجتهاد واليقظة ، وهو يتسمي مثل اللقلق إلى الطبقة الفرعية للطيور التي تطير في تشكيلات مجتمعة .

٤٣٤- الأجنحة المخضبة أى الملونة بالخضاب من الصور التقليدية الكلاسيكية ، وهي محاكاة لما جاء في الإنيادا إذ يشير إليها فيرجيل (*pictae volucres*) في الفقرة التي تسبق انتحار «ديدو» مباشرة (٥٢٥/٤) .

٤٣٥-٤٣٦ البلبل يرد ذكره في مواقع أخرى كثيرة في الملحمة (٢٨/٣-٤٠ ، ٦٠٢/٤-٦٠٤ ، ٦٤٨ ، و ٤٠/٥ ، و ٥١٨/٨-٥٢٠) ويشير إليه ميلتون في قصيدة المفكر (الحزين) واصفاً إياه بأنه «أعذب الطيور لحناً وشجناً» (السطور ٦٢) ويقول أحد النقاد إن ميلتون جعله رمزاً له لأنه كان يغنى في الظلام ، وإن كان النقاد الآخرون بشيرون إلى شيوخ الإشارة إلى البلبل في شعر القرن السابع عشر .

٤٣٨- كان طائر التمس ، أو الإوز العراقي (Swan) ، الذي كثيراً ما يخلط الناس هنا بينه وبين البجعة (pelican) رمزاً للشعر والموسيقى أيضاً ، مثل البلبل ، وكثيراً ما كان يرمز إلى نقاء الروح (هل سبب لونه الأبيض الصافي ورقته ؟) .

٤٥٠-٤٥٨ الإشارة إلى سفر التكوين (١/٢٤) «وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنس ، بهائم ودبابات ووحوش أرض كجنسها وكان كذلك» .

٤٧١- الإشارة إلى سفر أيوب (٤٠/١٥) «هو ذا بهيموث الذي صنعه معك» وكلمة سبهيومث (Be-hemoth) مشتقة من العبرية (b'hémóth) وقد درج علماء اللغة على إرجاعها إلى الكلمة المصرية القديمة (p-ehe-mau) التي تعني «ثور الماء» ، ولكن الهامش الوارد في الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس يقول «إنه إما الفيل أو فرس النهر» ، ويتضح من السطر ٤٧٤ الذي ترد فيه كلمة «فرس النهر» صراحة (river horse) أن ميلتون كان يعنى بالأول «الفيل» ، وهو ما أخذنا به في الترجمة .

٤٧٦- فصيلة الديدان تضم الافاعي بشتى أنواعها ، وجميع أنواع الدود الصغير وما يمثل أطوار نمو الحشرات المختلفة .

٤٨٤- يرجع أحد النقاد فكرة الحيات ذوات الأجنحة إلى آية وردت في الكتاب المقدس وهي «الثعبان السام الطيار» (إشعيا / ٦/٣٠) والنص الانجليزي مختلف بعض الشيء وهو (fiery flying serpent) ولكن الناقد آلن Allen يرجع أصولها إلى حقائق علمية ، ويستشهد بالمؤرخ هيرودوت ، والواقع أن علماء الحيوان المحدثين يخصصون رتبة حيوانية خاصة لبعض أنواع الزواحف ذات الأجنحة واسمها العلمي (pterodactyl) وقد تكون قد عرفت في الزمان القديم وانقرض معظم أفرادها .

٤٨٥- «النملة» تعني أنواع النمل ، وميلتون يشير إليها بلفظ emmet وهي الكلمة القديمة التي لم تعد تستعمل إلا في تعبير emmet-hunter وهو طائر «النواية» (wry-neck) الذي يتغذى على

النمل، ويقول أحد الشراح إن ميلتون أخذها من ترجمة شعبية قديمة للكتاب المقدس حيث ترد في سفر الأمثال «النمل طائفة غير قوية ولكنه يعد طعامه في الصيف» (٢٥/٣٠). «إذهب إلى النملة أيها الكسلان» (أمثال ٦/٦) وبالانجليزية القديمة -Goe to the emmote o slug- (gard).

٤٨٧- يقول روفائيل «ربما» إما لأنه يظهر عدم اليقين فيما سوف يقع من أحداث ، وإما للإيحاء بعدم الاطمئنان إلى نتائج الحكم الجمهوري . والمعروف أن حياة النمل كانت تعتبر نموذجاً للديموقراطية في ظل الجمهورية، وترجع ناقدة هذه الفكرة إلى أرسطو .

٤٩٥-٤٩٨ مجيء ذكر الثعبان أخيراً قد يكون من قبيل المصادفة من وجهة نظر روفائيل ، ولكن ميلتون يقصده . والإشارة واضحة إلى سفر التكوين ١/٣ «وكانت الحية أحيلاً حيوانات البرية التي عملها الرب الإله» .

٤٩٧- «لبدة من الشعر الكثيف المخيف» إشارة إلى وصف فيرجل للشعبان الذي قتل اللاوكون : *iubaeque sanguinae superant undas* ويقول أحد العلماء إن كلمة *iuba* قد تعني اللبدة أو العرف ، ولكننا نعرف أن الثعابين التي ساهمت مساهمة كبرى في تدمير طروادة كانت لها لبدة من الشعر الكثيف المخيف ! .

٢-٥-٣-٥ يتضمن هذان البيتان ضرباً بلاغياً قديماً يوازي اللّف والنشر (versus rapportati) بالعربية وهما :

air, water, earth,

By fowl, fish, beast, was flown, was swam, was walked

Frequent

أما الترجمة الحالية وهي :

ففى الهواء وفى الماء وفوق الثرى

تطير الطيور وتسبح الأسماك وتمشى الحيوانات

بأعداد كبيرة

فهى لا تنقل الضرب البلاغى . ويمكن أن يكون على النحو التالى :

فالطيور والأسماك والحيوانات

فى الهواء وفى الماء وفوق الثرى ، تطير وتسبح وتمشى

بأعداد كبيرة

ولكن التزامى بموازاة الأبيات الانجليزية والعربية بعضها البعض جعلنى أضحى بهذا الضرب

البلاغى، وهو نادر في العربية على أى حال ، ومثاله من صفى الدين الحلى :

وجدى حنينى أنينى فكرتى ولهى منهم إليهم عليهم فيهم بهم

والتكلف واضح ولا شك . والنموذج المعروف فى شيكسبير هو الوارد فى مسرحية هاملت
الفصل الثالث ، المشهد الأول ، البيت ١٦٠ :

The courtier's, soldier's, scholar's, eye, tongue, sword.

(أى عين رجل البلاط وسيف الجندى ولسان العالم !) وإن كان المعنى يختلف باختلاف
المفسرين ، فالجمهور ينسب إضافة العين واللسان والسيف إلى الثلاثة جميعاً ! .

بل إن بعضهم يوزع الإضافة توزيعاً مختلفاً ، وليس هذا ما قصد إليه ميلتون .

٥١٩-٥٢٣ الإشارة إلى سفر التكوين (٢٦/١) «وقال الله نعمل البشر على صورتنا كشبهنا . فيتسلطون
على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى
تدب على الأرض» .

٥٢٤-٥٢٨ الإشارة إلى سفر التكوين (٧/٢) «وجعل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه
نسمة حيوة . . فصار آدم نفساً حية» .

٥٢٦-٥٢٨ الإشارة إلى العبرانيين (٣/١) «الذى وهو بهاء مجده ورسم جوهرة وحامل كل الأشياء
بكلمة قدرته . . . تطهيراً لخطايانا» .

٥٢٩-٥٣٠ الإشارة إلى سفر التكوين (٢٧/١) «فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله
خلقه . ذكراً وأنثى خلقهم» .

٥٣٠-٥٣٤ الإشارة إلى سفر التكوين (٢٨/١) «وباركه الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض
وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» .

٥٣٥-٥٣٨ الإشارة إلى سفر التكوين (٨/٢ ، ١٥) «وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً ووضع هناك
آدم الذى جبله» . . «وأخذ الرب الإله آدم ووضع فى جنة عدن ليعملها ويحفظها» .

٥٣٩-٥٤١ الإشارة إلى سفر التكوين (٥/٢) «وأثبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر
وجيدة للأكل» .

٥٦٥-٥٦٧ الإشارة إلى المزمير (٧/٢٤) «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب
الدهريات فيدخل ملك المجد» .

٥٧٥-٥٨١ 'الأبواب النارية' (blazing portals) عبارة ترتبط ارتباطاً مباشراً بمجرة درب التبانة (٥٧٩)
فى هذا السياق مما جعل النقاد يقطعون بأن الجمع يقصد به المثنى ، أى أنهما البابان اللذان
يحددان مسار الشمس (Portals of the Sun) ومن ثم تكون الصفة («النارية» أو «المتنبهة») إشارة
إلى تعامد الشمس ، الذى يولد أقصى وقدة للقيظ ، على مدار السرطان ومدار الجدى ، ومن ثم

يكون البابان هما باب السرطان وباب الجدى ، والشمس لا تستطيع في حركتها الظاهرية تجاوز هذين البابين ، فعندما تصل إلى باب السرطان وتتعامل عليه تجده مغلقاً فتضطر إلى العودة إلى الجنوب حيث تتعامل على مدار الجدى فتجد الباب مغلقاً أيضاً فتضطر للعودة من حيث جاءت ، ولذلك أطلق عليهما هذا الاسم . وكان فلاسفة الطبيعة يعتقدون أن الأرواح تدخل وتخرج من هذين البابين في طريقها من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء ، ولما كان الله هو خالق كل شيء ، ولما كان قد قدر إغلاق البابين في وجه الشمس ، فإنه يمر منهما في طريق الصعود للعرش تنبيهاً للمخلوقات وإشعاراً لهم بقدرته اللامتناهية ويذهب بعض التقاد إلى إقامة علاقة رمزية بين الشمس باعتبارها نوراً خالصاً وبين الخالق نور السموات والأرض .

٦٢٢-٦٢٣ عبارة «ولكنك تعرف موافيتها» وردت هكذا في الأصل .

but thou know'st / their seasons

وقد اختلف الشراح في تفسيرها ، فالوجه الأول هو :

you know whether their seasons are compatible with
habitation

أى

وأنت تعرف ما إذا كانت الفصول / الأوقات فيها ملائمة للسكنى (أى للحياة البشرية)

والوجه التالي هو :

you know the seasons when they are
destined for habitation

أى

وأنت تعرف الأزمنة / الأوقات التي قدر لها أن تصبح معمورة فيها

وأشار بعد التقاد إلى أن ميلتون كان يحيل أقوال روفائيل إلى ما ورد في سفر أعمال الرسل (٧ / ١)

وهو :

It is not for you to know the times or the seasons
which the Father hath put in his own power

وترجمتها المعتمدة هى :

«ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة أو الأوقات التى جعلها الأب فى سلطانه»

والإشارة واضحة ولا شك ، ولما كانت كلمة seasons قد ترجمت بالأوقات هنا فقد رجعت الوجه الثانى للتأويل ، وعليه ترجمت العبارة .

حواشي الكتاب الثامن

٤-١ كان الكتابان السابع والثامن كتابًا واحدًا في الطبعة الأولى هو السابع ، على نحو ما ألمحنا إليه في حاشية الآيات الأولى (١-٧) من الكتاب السابع . وكان السطر الرابع في هذا الكتاب ، الذي يقابل السطر ٦٤١ في الكتاب السابع هو «أجاب آدم بامتنان قائلاً» . ويقول الشراح إن السطور الثلاثة الأولى في الكتاب الثامن قد أضيفت ، على الأرجح ، لتبرير الوقفة القصيرة (التي يشير إليها ميلتون بعبارة «برهة يسيرة») بين الكتابين .

٣ - «ظل ثابتًا في مكانه» عبارة تؤكد استمرار تقاليد الملحمة الكلاسيكية ، إذ جرت العادة على أن يظل الجمهور في مكانه طالبًا مواصلة القصة بعد الاستطرادات التي تتميز بها كل ملحمة كلاسيكية ، والجمهور واقع في قبضة سحر الراوي . فهذا يحدث في الأوديسا - في مطلع الكتاب الثالث عشر وفي السطور ٥١٢-٥١٦ في مطلع الكتاب الأول من ملحمة «الأرجونوتيكا» (أو ملاحو السفينة أرجو) وربما كان ميلتون يحاكي السطور الخمسة الأخيرة في الملحمة الأخيرة حيث يوصف الجمهور بانبهاره وصمته بعد إنشاد «أورفيوس» نشيد الخلق ، لقهر مشاعر الصراع والتناحر لدى الجمهور .

١٥-٣٨ يعرض آدم على روفائيل جوهر المشكلة التي عرضتها عليه حواء في الكتاب الرابع في السطر ٦٥٧ وما بعده ، وإن كان يزيد من طابعها المجرد ومن تعميم النظر إليها ، وكانت من المشكلات الشائعة لدى الاسكولائيين (رجال المدارس الكنسية) وكان ميلتون قد تطرق إليها في عمل سابق . أطلق عليه اسم «الدراسة التمهيدية» أو (Prolusion) وفيه يقول إنه يستبعد أن تكون السماوات قد خلقت لا لسبب إلا لنفع البشر ماديًا أي في حياتهم المادية ، ويرجح أن الله قد خلقها حتى يتفكر فيها الإنسان ويتدبر مظاهر إعجازها ، ومن ثم يزداد إيمان ذوى الألباب بروعة الخلق وإعجاز الخالق .

٤٥-٤٧ تصوير تجاوب الزهور مع حواء يرفعها إلى مصاف «فينوس» ربة الحب والجمال ، على نحو ما تصورهما الآداب الكلاسيكية ، وهو يؤكد هذه الصورة في الكتاب نفسه في السطور الخمسة من ٥٩-٦٣ .

٤٨-٥٦ الواضح أن ميلتون أراد لحواء أن تخرج من المكان تمهيدًا لما يتوهم آدم من الحديث عن علاقتها به بعد الزواج ، وهو يذكر هنا أنها لا تخرج بسبب عزوفها أو عجزها عن التأملات الفلسفية العميقة ، فالمرأة في هذا صنو الرجل ، ولكنه يشير أيضًا من طرف خفي إلى الآية التي وردت في كورنثوس الأولى (١٤/٣٤-٣٥) وهي «لنصمت نساؤكم في الكنائس .. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فَلْيَسْأَلْنَ رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة» .

٥٩-٦٣ «الحاشية» المشار إليها من «آيات الجاذبية الخلابة» تعادل «ربات الرشاقة الخلابة» اللاتى كن يحفزن بفينوس في التقاليد الكلاسيكية ، وهو يلمح إلى وجودهن أكثر من مرة ، في البيت ٤٦

والذي يليه ، وفي الكتاب الخامس في السطر ٣٨١ .

٦٧-٦٩ استعارة «كتاب الله» ذات أصول لاهوتية ، ولكنها تحولت إلى العالم الديني في عهد ميلتون بعد الدراسات الفلكية وانطلاق عصر العلم ، وإن لم تفقد دلالتها الدينية ، وهو السياق الحالي . وكثيراً ما كان الكتاب حتى عصر ميلتون يشيرون إلى بعض الحيوانات والمخلوقات الواردة في هذا الكتاب باعتبارها صفحات مهمة «في كتاب الله» .

٦٩- انظر الآيات ٣٤٠-٣٥٢ من الكتاب السابع ، والآية الواردة في سفر التكوين (١٤/١) «وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لأيام وأوقات وأيام وسنين» .

٧١-٨٤ ذهب بعض النقاد إلى أن ميلتون كان يفصح هنا عن عدائه لمكتشفات علم الفلك في عصره ، ولكن نقاداً آخرين ردوا عليهم رداً مفحماً وهو أن النص الشعري يهاجم الذين يفترضون التقسيمات الحسابية والرياضية والهندسية فرضاً ثم يكتشفون عدم دقتها فيفترضون غيرها ، أي إنه كان يهاجم الشكوك التي تكتنف العلم الطبيعي لا العلم نفسه ، وقال آخرون إنه كان يؤمن بالنسبية فيما يتعلق بقضية مركز الكون ، وحركة الأجرام السماوية ، بما فيها الأرض ، وهي التي كان يدعو لها أحد علماء ذلك العصر واسمه «نيقولا قوصا» Nicholas of Cusa في كتاب كتبه قبل إقدام ميلتون على تأمل هذه المسائل بفترة طويلة ، وإن لم يترجم إلى الانجليزية إلا عام ١٩٥٤ . ويقول قاولر إنه يرجح تأثير ميلتون به .

٨٢- المقصود «بتفسير الظواهر» - وهو تعبير اسكولائي - «محاولة التوفيق بين الحقائق الظاهرة وبين بعض النظريات التي يختلفون معها فيما يبدو» وقد تنجح المحاولة وقد تخفق ، وعلماء الكلام دائماً ما يحاولون ذلك ، ومحاولة التوفيق بين العلم والدين قديمة ، والتعبير نفسه موجود في أحد مقالات «فرانسيس بيكون» (المقالات - ١٦٢٥) إذ يقول في مقال بعنوان «عن الخرافات» إن «علماء الفلك لدينا يتدعون الدوائر الخارجة وأشكال الإهليلج ، ومبتكرات المسارات الفلكية ، تفسيراً للظواهر ، مع علمهم بعدم وجود مثل هذه الأشكال الهندسية» . وقد خصص أحد العلماء الألمان دراسة كاملة لهذا الموضوع نشرت في مجلة أنجليا عام ١٩٣٨ .

٨٣- «الدوائر المنتظمة والمنبجعة» تعبير مستقى من علم الفلك في عصر ميلتون ، فعلماء الفلك اكتشفوا أن الكواكب تسير في مسارات دائرية بعضها كامل الاستدارة وبعضها بيضى (بيضاوى) ومن ثم ابتدعوا أشكالاً متفاوتة من الدوائر ، وتعددت هذه الأشكال حتى وصلت عند كوبرنيك Copernicus إلى أربعة وثلاثين شكلاً للدائرة .

٩٠-٩١ يقول أحد النقاد إن فصل رواقيل بين الضخامة وشدة الضوء وبين الامتياز يرجع إلى سلم القيم التصاعدية في القصيدة وفي أعمال ميلتون كلها ، ويقارن بين هذه الآيات والآيات الواردة في الكتاب السادس ٨٢٠-٨٢٣ حيث يناقش ميلتون صور الامتياز .

٩١-٩٢ تذكرنا هذه الحجة بما ورد في مسرحية الدكتور فاوستوس من تأليف كريستوفر مارلو ، حيث يقول في السطر ٦٢٠ إن السماوات صُنعت من أجل الإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان أشد امتيازاً منها» .

١٠٢- الإشارة إلى سفر أيوب «أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم ! من وضع قياسها ، لآنك تعلم . أو من مد عليها مطماراً ؟» (٣٨/٤-٥) .

١١٠- «سرعة تكاد تكون روحية» - انظر البيت ٣٧ من الكتاب نفسه ، فالواقع أن نسبة «الروحية» إلى السرعة تعتمد على العقيدة القديمة التي شاعت في العصور الوسطى ومقادها أن الأفلاك تتحرك بفعل أرواح أو قوى ذهنية مجردة . ويحيلنا أحد النقاد إلى تعليق «فيكينو» علي ما قاله أفلوطين في «إنباداته» (١/٢-٣) من تشبيه حركة السماوات بحركة الروح أثناء التفكير .

١١٤-١١٨ يقول فاولر : سيفاجتنا روفائيل بتغيير الوجهة التي كان يسير فيها فيتنصل من النظرة البطلمية . والتناقض صارخ بين محاورات الملائكة في شعر ميلتون ومحاوراتها في شعر الآخرين ولثقل في شعر مارلو . فالشيطان في مسرحية الدكتور فاوستوس (٦٥٣-٦٨٧) يختار بجهامة صورة العالم التقليدي . أما روفائيل هنا فهو مستقل التفكير ، مشير للتأمل ، سريع البديهة ، يدعو القارئ إلى إعمال ذهنه فيما يقرأ . والمقصود بالنظرة «البطلمية» صورة العالم التي وضعها الجغرافي بطليموس .

١١٧-١٢٢ يقول النقاد إن مراوغة روفائيل تبين الصعوبة التي لا بد أن ميلتون قد واجهها في إصدار قرار حاسم باعتماد صورة محددة لعالم الأفلاك من بين الصور العديدة المطروحة في عصره . وتتجلى هذه الحيرة في الصياغة ، وفي الترجمة !

١٢٨- الكواكب الستة هي : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وكان الفلكيون منذ كوبرنيك Copernicus يناقشون مسألة اعتبار الأرض أو الشمس كوكباً سابغاً .

١٣٠- «ثلاثة أنواع مختلفة من الحركات» - المقصود بها الحركات التي نسبها كوبرنيك إلى الأرض وأولها الدورة اليومية حول نفسها ، والثانية هي الدورة السنوية حول الشمس والثالثة هي الدورة المفترضة للمحور وكان يسميها «الحركة المائلة» قائلاً إن معنى الأخيرة هو أن «محور الأرض يدور بما يقدر بمسطح مخروط كامل في [نحو] عام ، ويتحرك هكذا في عكس اتجاه مركز الأرض» . وقد قال كوبرنيك بهذا ، فيما يذكر أحد المفسرين ، تبريراً للحقيقة المؤكدة وهي أن محور الأرض دائماً ما يواجه البقعة ذاتها في السماء ، على الرغم من الدورة السنوية للأرض . ولكن فلكياً آخر يدعى «تاكوبراهي» استطاع أن يثبت فيما بعد أنه لا لزوم لافتراض هذه «الحركة المائلة» ، ثالث أنواع الحركات التي قال بها كوبرنيك .

١٣١-١٣٢ المعني المتشور هو «إذا لم تنسب الحركة إلى الأرض ، فعليك إن شئت تفسير الظواهر أن تفترض أن عدة كواكب تسير في مدارات أو أفلاك متقاطعة متعارضة يدخل بعضها في بعض» . والترجمة تلتزم بالأصل على عسر صياغته .

١٣٤- هذا السطر يقدم الترجمة الحرفية على غموضها للنص الانجليزي . والشراح يسهبون في إيضاح المقصود «بالانحراف» ، فالكلمة الانجليزية وهي rhomb مشتقة من اليونانية ρόμβος

(رومبوس) التسي تعني «السجلة السحرية» والتي تشير إلى ما كان القدماء يتصورونه من محرك أول (primum mobile) أو فلك عاشر يدور دورة يومية (وفقاً للصورة القروسطية للنظام الكوكبي أو مجموعة الكواكب) ، حول الأرض بسرعة لا تكاد تصدق ، حاملاً معه الأفلاك الداخلية التي تدور فيها النجوم والكواكب . ولكن كلمة ' رومبوس ' تعني أيضاً أى شكل مستطيل محدب الأطراف كاليضة الطويلة ، ووفقاً للنظام الجغرافي الذي وضعه بطليموس كان ضوء الشمس على نصف الأرض يصوّر في صورة مثلث وكذلك منطقة الظل على الجانب الآخر المظلم من الأرض ، وكان تعاقب النور والظل مع انحراف المحور يجعل الشكل بيضياً يدور كالعجلة السريعة ، كأنما يدور حول نفسه بسرعة فائقة ودائمة ليلاً ونهاراً ، وهكذا فإن معنى «سرعة الدوران بانحراف» تعني تعاقب الضوء والظلام في شكل مائل بيضى ، ومن ثم تبارى النقاد في الدفاع عن دقة تعبير ميلتون ، وإن كنت ، كما قلت ، أراه غامضاً .

١٤٠-١٤٥ يورد فاوئر رأياً أعرب عنه بيرتون في كتابه «تشریح الحسن» (ج٢/ ف٢ / ص٣) يقول فيه «إذا كانت الأرض تتحرك فهي كوكب ، وهي ترسل ضوءها إليهم في القمر ، وإلى غيرها من سكان الكواكب، مثلما يرسل القمر ضوءه إلينا على الأرض ، والأرض تسطع بالتاكيد ، على نحو ما أثبتته جاليليو وكبلر وغيرهما ، وإذن يتبع ذلك حتماً (per consequens) أن باقى الكواكب أهلة بالسكان وكذلك القمر». ويعلق فاوئر على ذلك قائلاً «إن هذه المقولة الغريبة التي يحذو فيها بيرتون حذو كبلر ، بقدر ما من الدقة ، تستند إلى الافتراض الذي يجعل الإنسان مركز الكون والذي يقول إنه لا معنى لوجود كواكب أو توابيع تسطع إلا إذا كانت تسطع من أجل الإنسان أو من أجل كائنات شبيهة بالإنسان . وكبلر يشاركه في هذا الرأي آدم وحواء (انظر الآيات ٢٤ وما بعده، والكتاب الرابع السطر ٥٦٨) بل وروفايل نفسه (الآيات ١٥٣-١٥٨)» .

١٤٤-١٤٥ انظر البيت ٢٩٠ وما بعده من الكتاب الأول حيث يذكر ميلتون أن جاليليو استطاع أن يرى أراضى جديدة أو أنهاراً جديدة أو جبلاً جديدة على سطح القمر المرقش .

١٤٥-١٤٦ كان الناس ينسبون ما يلاحظه الفلكيون من تغيرات في البقع على وجه القمر إلى تغيرات في جو القمر ، وإن كانت هذه التغيرات وهمية ، وقد تكون نتيجة فساد آلات الرصد .

١٤٨- ترجع إلى نيقولا قوصا الفكرة القائلة بأن النجوم الشابتة شمس لها كواكبها التابعة لها . وقد رفضها البعض (مثل كبلر) وقبلها البعض (مثل برونو) وكانت مثار خلاف كبير آنذاك .

١٥٠- يقول بليونس في كتابه «التاريخ الطبيعي» إن الشمس «نجم ذكر ، يشتعل لهيباً ويستوعب كل شيء» وإن القمر «كوكب أنثى رقيق» وهو التمييز الجنسي القائم على الأساطير القديمة . ولكن روفائيل يحاول إثبات أن ضوء الشمس «خاص بها» وأن نور الأقمار أو الكواكب منعكس في معظم الأحوال . (انظر السطر ٣٦٨ من الكتاب السابع) . وهكذا فإن هذه الفقرة ، وفقاً لما يقوله فاوئر ، لها دلالتها فيما يتعلق بتعاليم روفائيل عن العلاقة بين الجنسين في الآيات ٥٦١ وما بعدها من هذا الكتاب ، ولكن فاوئر يستطرد قائلاً : «ربما كان ميلتون يقصد إحالة غير مباشرة

إلى الاستقطاب الغوصي الذي يكون «الضوء الذكر» فيه ضوءاً ذهنياً و «الضوء الأنثى» فيه ضوءاً جسدياً .

١٦٧- يقول بيردن إن نطاق محاولة روفائيل مع آدم تبين أن الفاكهة المحرمة ليست المعرفة العلمية في ذاتها ، بل إن المعرفة العلمية - شأنها في ذلك شأن أى معرفة - قد تقع في نطاق الفتنة المحرمة .

١٦٨- الإشارة إلى سفر الجامعة (١٢/١٣) : «فلنسمع ختام الأمر كله . اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله» .

١٧٦- كان التفكير في صورة الكائنات المفترض وجودها في الكواكب الأخرى شائعاً في تلك الفترة ، وكان كبلر يناقش درجة عقلانية تلك الكائنات ، وإن كانت لهم نفوس تحتاج إلى الخلاص وما إلى ذلك .

٢١٨- الإشارة إلى المزامير (٢/٤٥) «انسكبت النعمة على شفقتك لذلك باركك الله إلى الأبد» .

٢٢١- برزت فكرة خلق ظاهر الإنسان في صورة الله أول مرة في أول وصف لآدم وحواء في الكتاب الرابع في السطور ٢٨٩-٢٩٥ ، ولكن ميلتون يوضح في كتابه عن العقيدة المسيحية (ف ١ / ٧) أن «خلق آدم في صورة إلهية كان يتعلق أساساً بالروح التي نفخها فيه الله» (طبعة كولومبيا - ص ٢٥) .

٢٢٥- الإشارة إلى رؤيا يوحنا اللاهوتي (٢٢/٨-٩) «وأنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع هذا ، وحين سرحت ونظرت خررت لأسجد أمام رجلتي الملاك الذي كان يريني هذا ، فقال لي انظر لا تفعل . لأنني عبد معك ومع إخوتك الأنبياء . . . اسجد لله» .

٢٢٩- هذا هو اليوم السادس من أيام الخلق ، واليوم التاسع عشر من أحداث القصيدة .

٢٤٢-٢٤٤ يحاكي ميلتون هنا ما جاء في إنياذة فيرجيل (٦/٥٥٧-٩) وما جاد في ملحمة أريوستو بعنوان غضبة أورلاندو (٤/٣٤) فالصورة واحدة .

٢٤٦- «مساء اليوم السابع» هو المساء الذي يبدأ يوم العطلة فمساء اليوم يبدأ قبل صباحه ، وما زال نقول ليلة الجمعة لتقصد «بعد غروب شمس الخميس» أى أن اليوم يبدأ بغروب الشمس .

٢٥٦- «الأبخرة المتصاعدة» تشير إلى الأبخرة المتصاعدة من الأرض كلها .

٢٦٥-٢٦٦ يناقش كريستوفر ريكس في كتابه الأسلوب الرفيع عند ميلتون (Milton's Grand style)

مسألة سيولة البناء والتركيب (fluid syntax) ويدلل على ذلك بهذا البيت وهو في الأصل :

all things smiled,

With fragrance and with joy my heart o'erflowed.

وإن شئنا محاكاته بالعربية لتعذر ذلك ، ولكن لنحاول :

جميع الأشياء تبسمت

بالأريج وبالفرح فاض قلبي

ومصدر «السيولة» هو وجود فعلين يتنازعان أشباه الجمل ، ولذلك يحاول ريكس أن يعدل من وضع الفاصلة لإخراج معانٍ متعددة . أى إنك يمكن أن تقول إن تبسم الأشياء كان بسبب الأريج ، وإن قلبي فاض بالفرح (إذا وضعت الفاصلة بعد الأريج) أو إن الأشياء تبسمت بالأريج والفرح ففاض قلبي [سرورًا] (إذا وضعت الفاصلة بعد الفرحة) أو إن الأشياء تبسمت وحسب ، وإن قلبي فاض بالأريج والفرح (إذا أبقيت الفاصلة مكانها) وهو ما يذهب إليه فاوكر ، وما ذهبنا إليه في الترجمة (دون نقل الفاصلة من موضعها) .

٢٩٢- يقول النقاد إن «رؤية حلم واقفًا» ليست مجازًا مرسلاً بمعنى أنه رأى شخصًا في حلمه واقفًا ، ولكن ميلتون يحاكي عبارة وردت في إلياذة هوميروس يعامل الحلم فيها معاملة الإنسان بتشخيصه (١٦٥٨/٢) وغيرها) وتعبير واقفًا . . رأسى» تكرر أو إحالة إلى الحلم الزائف الذى أرسله زيوس إلى أجاممنون فوقف عند رأسه (المرجع نفسه ٢٠/٢) .

٢٩٦- يقول سفر التكوين (٨/٢ و ١٥/٢) إن آدم خلق خارج الفردوس ثم وضع فيها بعد ذلك . وقد ترجمتُ كلمة mansion بالبيت في ٢٩٦ ، والخلاف حول تحديد القوارق بين البيت والمنزل محتدم في ترجمة الكتاب المقدس ، وميلتون أحيانًا يستخدم تعبير dwelling place وهو تعبير محايد، ولكنه هنا يستخدم لفظة mansion مما يذكر القارئ بالترجمة المعتمدة للإنجيل يوحنا (٢/١٤) «فى بيت أبى منازل كثيرة . . . أنا أمضى لأعد لكم مكانًا» - وهى بالانجليزية :

(In my father's house are many mansions ... I go to prepare a place for you)

فهل كان الأفضل أن تكون بالعربية : فى منزل أبى يسوت كثيرة ؟ أما كلمة seat فى السطر ٢٩٩ فلا خلاف على ترجمتها بالمقر ، وأحيانًا ما تعنى العرش .

٣٠٨- كلمة إغراء هنا ذات معنى حسن ، وعلى أى حال فإن الله قد جعل جميع ثمار الجنة مغرية حتى لا تنفرد شجرة المعرفة بإغراء خاص .

٣١٦- وضع عبارة «إنى أنا» فى آخر السطر للتأكيد ، يشير من طرف خفى إلى المقابل فى سفر الخروج (١٤/٣) عندما أجاب الله موسى عن سؤاله عن اسمه قائلاً :

«I AM THAT I AM ... thus shalt thou say unto the children of Israel, I AM has sent me unto you.»

وترجمتها «أهيه الذى أهيه . وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل أهيه أرسلنى إليكم» .

و «أهيه» صورة من يَهُوْه ، والمتفق عليه أن معناها بالعبرية أصلاً هو «أنا موجود» ، أو باختصار «إني أنا» ، وليس هذا مجال تفصيل القول في تحريم نطق اسم الله عند قوم موسى ، والاستعاضة عنه بحروف العلة (التي جمعتها لفظة 'أدوناي' فيما بعد) ولكن المهم هنا هو أن ميلتون يستند إلى الترجمة الانجليزية للكتاب المقدس في الإيحاء بأن «إني أنا» تعني «الموجود» أو الله . و«الموجود» بعد من الأسماء الحسنى ، والقرآن يكرر «إني أنا» لتأكيد معنى الوجود (كما في سورة طه مثلاً) ولهذا اخترت هذه العبارة في ترجمة IAM .

٣٢-٣٢٢ الإشارة إلى سفر التكوين «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها ، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً» (١٥/٢-١٦) وكلمة ستفليحها» (till) لا توجد في الكتاب المقدس بل يستخدم النص الانجليزي كلمة (dress) أى تشذيبها وترعاها ، ولا يستعمل الكتاب المقدس كلمة 'الفلاحة' إلا بعد سقوط آدم وحواء (عقاباً لهما) فوجود الكلمة (work the land) أى يزرع الأرض ويفليحها ، وهو ما نراه في الترجمة العربية المعتمدة .

٣٢٣-٣٣٣ الإشارة إلى سفر التكوين (١٧/٢) «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» . وأما البيت سيكتب عليك الفناء من ذلك اليوم» (٣٣١) فيتميز بدقة باللغة في الصياغة ، إذ شغل الأقدمون بمسألة موت آدم أى كيف لم يموت هو وحواء بعد أن عصيا أمر الله ، وانبرى المفسرون فوضعوا ثلاث درجات للموت ، أولها هو الموت الروحي بمعنى الإحساس بالذنب ، وثانيها هو الموت الجسدي أى انفصال الروح عن الجسد ، وثالثها هو الموت الأبدي ، وقد رصدها جميعاً ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية . فأما الدرجتان الأوليان فعرفهما آدم بعد أن اقترف العصيان مباشرة ، وهذا هو ما يصوره الكتاب التاسع ، في البيت ١٠١٠ وما بعده ، ويقبل ميلتون تفسير القديس جيروم الذى يقول «إن آدم بدأ يموت في اليوم نفسه ، ليس موتاً فعلياً ، بل لأنه أصبح محكوماً عليه بالفناء أى بالموت» . وكان المفسرون يقولون إنه لولا خطيئة آدم لكتب له الخلود . ويؤكد ميلتون في الكتاب المذكور أن الله وضع حدوداً لحياة الإنسان بعد ارتكاب الخطيئة .

٣٤٣-٣٥٦ انظر الإشارات الأخرى إلى تسمية الحيوانات فى ١/٢٧٦ ، ٦/٧٣-٧٦ ، و ٧/٤٩٣ ، وهذه الفقرة وتتضمن الأسباب الخمسة التى ذكرها ويليت (ص ٣٦) وموجزها ١- أن يرى الإنسان مدى تفوقه البالغ عليها فيحمد الله على نعمائه ، ، ٢- أن يكون اختباراً لذكاء آدم ، فلقد علمه الأسماء كلها وهو يريد أن يعرف إن كان يذكرها ، ٣- أن تنشأ اللغة البشرية التى نطقت بها هذه الأسماء ، ٤- أن يسيطر الإنسان على الحيوانات كلها ، ٥- أن يدرك أنه لن يجد من بينها رفيقاً له - أى زوجاً مناسباً . ولكن هذا الاهتمام بالأسماء كان له مبرر فى عصر ميلتون ، عصر العلم الطبيعي ، إذ شغل العلماء بتقسيم المملكة الحيوانية والمملكة النباتية ، وبحلول عام ١٦٨٢ استطاع عالم يدعى جون راي أن يضع قائمة تتضمن ١٨٠٠٠ نوع من النباتات . وهكذا فإن أسماء الحيوان وغيره كانت لها أهمية معاصرة ، إذ كانت الطاقة على التسمية تعنى سعة المعرفة ،

وهو المذهب الذي يبدو أنه يدين بالكثير إلى أفلاطون (محاورات كراتيلوس) مثلما يدين لسفر التكوين ، كما كان للأسماء سحرها الخاص ، فكان «فرانسيس بيكون» يقول إن الإنسان سوف يستطيع «استعادة السيطرة على المخلوقات حين يستعيد القدرة على مناداتها بأسمائها الحقيقية . (عن تفسير الطبيعة) .

٣٥٠- «من كل زوجين اثنين» تذكر القارىء بسفينة نوح (تكوين ٩/٧) .

٣٧٣- كان المعتقد أن آدم كان يستطيع قبل السقوط أن يفهم لغة الحيوان ، وكان المفترض أن هذه كانت اللغة العبرية ، ولكن كان يشار إليها أحياناً على أنها السريانية ، أو اليونانية أو الآرامية .

٣٨٤-٣٨٩ الاستعارة الموسيقية تقوم علي ضرورة التناغم الصادر عن الأوتار المضبوطة وآدم يقول إن الإنسان منضبط والحيوان غير منضبط وهو ما يعنيه التناقض بين المشدود والمرتخي ، ويعلن أحد النقاد قائلاً إن في ذلك مفارقة ، فالإنسان هو الذي يثبت عدم انضباطه وتراخيه في الواجب والطاعة لله آخر الأمر (لا الحيوان !) .

٣٩٨- يشير أحد النقاد إلى أن الله سبحانه وتعالى يتظاهر بأنه لم يقرر خلق حواء حتى لا يبدو خلقها محتوماً ، فلقد سبق له أن قضى بخلقها (أو اعترم ذلك) وإن كان آدم لا يعرف .

٤٢٠- يقول كيلي Kelley (في صفحة ١٢١) إن هذا السطر يدل على تأثر ميلتون بمذهب أريوس (Ar- ius) أو Apios باليونانية) وهو كاهن مشيخي (presbyter) عاش في الاسكندرية في القرن الرابع للميلاد ، وكان ينكر بتوة المسيح المادية لله (جل وعلا) وقد أصبح إنكار الصلة المادية (consubstantial) رمزاً لمذهبه ، وإن كان العامة يتصورون أن المذهب الذي أصبح يسمى «الأريوسية» (Arianism) يعني إنكار أى علاقة بينهما، مما أثار رجال الكنيسة عليه ، ويذهب فيريتي أيضاً إلى اتهام ميلتون «بالأريوسية» استناداً إلى السطور ٤٠٥-٤٠٧ (أعلاه) ويقول فاولر إن مذهب التوحيد وما يتصل به من مبادئ لاهوتية لا يتناقض مع القول بالتثليث ، وقد عارضه البعض استناداً إلى طبيعة الشعر التي تملئ على الشاعر إتخاذ عدة مواقف ، منها ما قد يبدو متعارضاً مع غيره حتى داخل القصيدة نفسها .

٤٢١- يميل «محرو» وناشرو نصوص ميلتون إلى رصد التلاعب اللفظي بكلمة «عدد» أو «رقم» في هذا السطر ، فكلمة numbers تعني الأعداد أو الأرقام ، ولكنها تحمل ظلاً من المعنى اللاتيني القديم وهو الأجزاء ، وهكذا يكون المطلق دائماً واحداً مهما تعددت أجزائه ، ويقول فاولر «ولكن المعنى الأولى هنا هو أن الإله الواحد يتضمن جميع الأعداد الأخرى وهو من ثم كامل ويتمتع بالكمال (وهو أحد معاني كلمة المطلق) باحتوائه عليها جميعاً» . ويشرح بونجو (صفحة ١٣ وما بعدها) المقصود بهذا قائلاً «إن الوحدة الواحدة تشبه الله لأنها أصل جميع الأرقام والله هو أصل الوجود الذي خلّقه جَلَّ وعَلا» . وهو يتوسع في بيان هذا التماثل بين الرقم واحد والله قائلاً إن الإله واحد لأنه يجمع كل شيء ولا حاجة له بأى شيء، وهو يضم

العالم والكون لأنه صاحبه ، ويورد العبارة التى تقول إننا حين نقول الواحد فإننا نعنى الشامل الكامل ولا نعنى الرقم أو الأرقام .

Unus si dicatur, non numeri, sed universitatis est nomen.

وقد استمر الجدل حول معنى 'الواحد' المقصود ، على وضوحه ، حتى التسعينيات من القرن العشرين ، والغريب أن الكثيرين ينسون أو يتناسون أن هذه قصيدة ، وأن الشاعر يكتب شعراً .

٤٣١- المقصود «بالتوحد» وهو من مصطلحات اللاهوت (ثم التصوف) ، أن الله يستطيع رفع المخلوق أو رفع نفس الإنسان إلى حالة تتجاوز طبيعتها البشرية عن طريق الغفران والرحمة ، وهو ما يتمتع به القديسون الأبرار، أى أولياء الله الصالحون (كوركوران - ص ١٠٣) .

٤٤٥- الإشارة إلى الكتاب المقدس : «وقال الربُ الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده» (تكوين ١٨/٢)

٤٤٨- الإشارة إلى الكتاب المقدس «ممتحن القلوب الرب» (أمثال ١٧/٣) و «إنما قال هذا ليمتنحه» (إنجيل يوحنا ٦/٦) .

٤٥٠- «فأصنع له معيناً نظيره» (تكوين ١٨/٢) والذات الأخرى هى **alter ego** ، وهو تعبير يطلق على أقرب الأصدقاء .

٤٥٢-٤٨٦ الإشارة إلى سفر التكوين «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام . فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم» (٢٢-٢١/٢) .

٤٩٥-٤٩٩ الإشارة إلى سفر التكوين (٢٣-٢٤/٢) «فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت . لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً» .

٥٠٨- الإشارة إلى العبرانيين (٤/١٣) «ليكن الزواج مكرماً والمضجع غير نجس ، وأما العاهرون والزناة فسيدينهم الله» .

٥١١- وقف الشراح طويلاً عند تعبير «حمرة الخجل» ظانين أن فيه تناقضاً مع إصرار ميلتون على تكريم الزواج وتشريفه ، ويبرر ذلك فاولر قائلا : «لا بد أن ندخل فى اعتبارنا هنا ما يبدو أنه كان تغيراً عاماً فى الحساسية منذ القرن السابع عشر ، فكان الرجال فى انجلترا يميلون ميلاً شديداً إلى أن تظهر المرأة الصدود أو التمتنع ، وهكذا فمهما يكن من مؤازرة ميلتون للتكاثر ، كان من المحتوم أن يشارك أهل عصره بعض ما كانوا يحسونه من أن 'قبلات الرضا لا تأتى بفرحة' (كما جاء فى إحدى مقطوعات المجموعة الشعرية التى أصدرها ستانلى آنذاك بعنوان قصائد وترجمات وحررها ونشرها كرمب عام ١٩٦٢) .

Stanley, *Poems and Translations*, ed. G.M. Crump (Oxford 1462, 55) .

٥٧٤- الإشارة إلى كورنوس الأولى (٣/١١) سان رأس كل رجل هو المسيح . وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله» .

٦٣٤-٦٣٥ انظر رسالة يوحنا الرسول الأولى (٣/٥) «فإن هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه» .

حواشي الكتاب التاسع

٤٧-١ هذه هي رابع مناجاة لربة الشعر في القصيدة ، وآخر مناجاة فيها ، فالأولى كانت في الكتاب الأول (٤٩-١) والثانية في الكتاب الثالث (٥٥-١) والثالثة في الكتاب السابع (٥٠-١) ، ولكن هذه المناجاة الأخيرة تختلف عن الثلاث الأولى في أنها تتجنب التخاطب المباشر مع ربة الشعر ، بل تتناول موضوع «القصيدة البطولية» أي الملحمة ، وتسخر من موضوعات الأقدمين إعلاءً لشأن الملحمة الحالية .

٦ - مناقشة معنى «المأساة» بمفهوم التراجيديا الكلاسيكية لابد أن تؤدي إلى تبرير اختيار آدم بطلاً مأسوياً ، استناداً إلى المفهوم القروسطي الذي يعتبرها تصويراً لسقوط العظماء من الرجال (*de casibus virorum illustrium*) وسقوط آدم يحتل المرتبة الثانية في قصة الراهب (التي كتبها تشوسر في مجموعة قصص كانتربري - التي ترجمها إلى العربية د. مجدى وهبة) وليكن ذلك ، مثلاً ، بعد سقوط إبليس (أو 'لوسيفر' - انظر الحاشية على السطر ١٣٢ من الكتاب السابع). وقال أحد النقاد إن ميلتون يحاول التنبيه إلى أنه سوف يعدل عن الأسلوب الرفيع للملاحم إلى أسلوب المأساة الأقل سموً ، ولكن جميع النقاد ينكرون ذلك ويؤكدون أن الفردوس المفقود كلها ملحمة ومكتوبة بأسلوب ملحمي ، ولم يخفض ميلتون من مستوى اللغة ولا الألفاظ في الجزء الباقي منها .

١٢-١٣ اعترض أحد النقاد على تعبير "الشقاء المنذر بقدم الموت" قائلاً إن الشقاء (أو الشقى) كثيراً ما يطلب الموت عبثاً . ولكن ناقداً آخر رد عليه قائلاً إن الصورة تنبع بصورة طبيعية من فكرة المراحل المختلفة للموت ، وهي الفكرة التي وضعت تبريراً لعدم موت حواء وآدم بعد أكل الثمرة المحرمة ، وفقاً لما جاء في سفر التكوين (١٧/٢) انظر الحاشية على الأبيات ٣٢٣-٣٢٢ من الكتاب الثامن عاليه .

١٦- ليس اختيار «أخيلاس» ومطاردته عدوه نموذجاً للإلياذة بالمصادفة التي اقتضاها الموقف الشعري ، فلقد دأب النقاد على السخرية منها باعتبارها موضوعاً غير ذي جلال ، وقال أرسطو - دفاعاً عنها- إن الملحمة قد تتضمن أحداثاً سخيفة لا يقبلها غيرها من الأنواع الأدبية ، وأما ما يريد ميلتون أن يوحى به هنا فهو أن ملحمة الدينية لن تحتاج إلى مثل هذه «المادة» غير المقطوع بسموها .

١٧-١٨ كان تورنوس Turnus البطل الإيطالي ابناً في (ملحمة الإنبيادة التي كتبها فيرجيل) لأب يدعى داونوس Daunus وأم هي الحورية فينيليا Venilia ، وأخاً لحورية تدعى يوتورنا Juturna ، وكان يعتبر منافساً لإينياس Aeneas في إيطاليا قبل عهد فيرجيل بزمان طويل ، وأما في ملحمة الإنبيادة فهو ملك أرديا Ardea ، وهو يتقدم لخطبة لافينيا مع آخرين ، ويظل في مقدمة الراغبين في خطبتها ، أما لافينيا هذه Lavinia فهي ابنة لاتينوس Latinus ، وينافسه في خطبتها إينياس ويظفر بقلب الفتاة ، فيصاب تورنوس بغضب جنوني خصوصاً بعد تدخل الإلهة جونو Juno ،

فيجمع جيوش اللاتينيين ويسيرهم للحرب التي شنها على الطرواديين (في الكتاب السابع من الإنيادة) وهو يحارب بشجاعة قائداً لجيوشه ويحظى بتعاطف القارئ على الرغم من تهوره أحياناً، ولكن اينياس يقتله في آخر الملحمة. وميلتون يقول «إنه حُرْم من لا فينيا» كأنما كانت زوجته (disespoused) وذلك حتى يظهر اينياس بطل الملحمة في صورة غير مشرقة أو أقل شرفاً مما يصورها فيرجيل. وأما نبتون (Neptune) فكان إله البحر أو المياه بصفة عامة وأما جونو Juno فكانت من الربّات التي نُسبت إليها أساطير كثيرة، وقيل إنها ربة الشباب وربّة الحمل والولادة، وارتبط اسمها بعدة بطالات، وهي تظهر في الصور المرسومة على شكل المقاتلة أو المحاربة، وتُنسب لها قوة التأثير في شجاعة المحاربين، والخصوبة الفردية والتنظيم العسكري وكانت «غضبة رجل واحد» عادة هي الموضوع الرئيسي للمحمة القديمة، وميلتون يشير أولاً إلى أخيلاس بطل الإلياذة ثم إلى اينياس بطل الإنيادة في مواقف لا تشرف مؤلفيها وهما هوميروس فيرجيل حتى يدلّل على أن موضوع القصيدة البطولي القديم الذي كان يستأثر وحده بالشرف في عصره لم يعد يصلح في عصر التوحيد والتنوير.

٢١- «من ترعاني في السماء» أي «يورانيا»، انظر الحاشية على السطور من ١-٧ في الكتاب السابع. وقد أشار أحد النقاد إلى اعتقاد ميلتون بأنه كان يتلقى الشعر فعلاً من مصدر دفين أو علوي، وفقاً لنظرية الوحي الشعري التقليدية.

٢٧-٤١ يسخر ميلتون من موضوع الملحمة الحديثة أو الرومانسية كما يتجلى في شعر الشاعر أريومتو، قائلاً إنه الحرب ولا يتجاوزها إلى سواها، فالشاعر يقوم «بتشريح» جراحات الأبطال ووصف المعارك ثم لا يخرج من ذلك بفكر سام، أما ميلتون فهو يتجاوز الحرب والقتال (في النصف الأول من الملحمة) إلى ما سماه فتجاوزها في النصف الثاني. والواقع أن زعم الأصالة يعبر عنه ميلتون تعبيراً غير مألوف في شعر الملاحم، وإن كان سبسر قد سبقه في ملكة الجان. وهكذا قال الدكتور صمويل جونسون إن هذه «فقرات خارجية» لأنها تخرج عن صلب الموضوع وتناقش عمل الشاعر، وهو في رأيه «غير صواب» وإن كان يمكن تبريره بسبب حب الناس له قائلاً «ما دامت غاية الشعر هي الإمتاع، فلا يمكن أن نعدّ ما أمتع الجميع إلا من الشعر». (سيرة الشعراء).

٣٠-٣١ كثيراً ما يصر ميلتون على أصالة مادته الشعرية وصدقها، موحياً بأنها تفوق في قيمتها المادة الخيالية أو الأسطورية، فلقد سبق له أن أشار إلى ذلك في الكتاب الأول (البيت ٧٤٦ وما بعده) وفي الكتاب الرابع (٧٠٦) ولكنه كان في وقت من الأوقات يفكر في كتابة ملحمة عن أسطورة الملك آرثر، وقد استمر اهتمامه بالتاريخ البريطاني، على ما يخرجه من أساطير، ومن ثم فمن المحال القول بأنه كان يحتقر المادة الخيالية في الشعر.

٣١-٣٢ يوحى ذلك بوضوح وجلاء بمراتب تصاعدية للقيم البطولية، يعتبر أن الصبر يشغل فيها مرتبة أعلى من الجلد، وقد أشار أحد النقاد إلى حديثه عن بعض هذه القيم في الكتاب ٣/٢٦٧، و٤/٨٢٠-٨٢٣ و٧/٦٠٤-٦٠٧، ورد عليه ناقد آخر قائلاً إن هذه قيم مأسوية لا بطولية.

٣٣- «وصف... المباريات» لم تكن الملاحم الكلاسيكية تخلو من وصف الألعاب والمباريات وقد علق على ذلك الدكتور جونسون (في المرجع نفسه) وإن كان قد أشار إشارات مقتضبة إلى

الالعاب والمباريات فى ٥٢٨/٢ وما بعده وفى ٥٥١/٤ وما بعده ، والمقارنة تثبت إختلافه عمن سبقوه .

٣٧-٣٤ يورد الشراح نماذج كثيرة من الملاحم السابقة على إنشغال الشعراء بهذه الأمور .

٤٢- «وقد بقى لى» تعبير يحاكى التعبير اللاتينى الشائع me manet .

٤٣- المقصود «بذلك الاسم» اسم «الملحمة» ومعنى السطر أن الموضوع الذى اختاره ميلتون ليس فحسب سامياً بل هو قادر على السمو بالملحمة كنوع أدبى . والملاحظ أن الشاعر هنا يشير إلى ثلاثة مثالب «طبيعية» قد تعيق نجاحه ، أولها هو تدهور ثقافة العصر ، وكان عصره يغص بنظريات تنبأ بنهاية التاريخ وتنسب التشاؤم السائد إلى المكتشفات الفلكية الجديدة ، وثانيها هو برودة الجو ، وكان بيرتون يقول إن شدة البرد مرذولة مثل شدة الحر ، وهى تدفع على الكسل وتجلب الكآبة والحزن (فى كتابه تشريح الحسن ج١/١ ف٢/٢/٥) وثالثها هو تقدم ميلتون فى العمر ، إذ كان فى الثامنة والخمسين حين نشرت الطبعة الأولى من الفردوس المفقود ويدافع فاولر عن هذا الاستطراد «الذاتى» قائلاً إنه يصب أيضاً فى موضوع سقوط الإنسان ، فالسقوط هو الذى تنسب إليه كل هذه المثالب .

٤٨-٤٩ ميلتون يشير إلى كوكب الزهرة بتعبير (Star / Of Hesperus) انظر ٦٠٥/٤ .

٥٠-٥١ يقول أحد النقاد إن الإشارة إلى الشفق بإعتباره فاصلاً قصيراً بين الليل والنهار له دلالة من حيث الإيحاء بقصر المدة التى سبقت العصيان ، وبموضوع الموازنة والالتزان ، وهو الموضوع الذى يتردد صداه فى الملحمة كلها ٢٥٤-٣٥٥ ، و ٩٩٨-١٠١٥ .

٥٣- «منذ فترة» أى منذ أسبوع فى زمن الملحمة ، أى فى آخر الكتاب الرابع .

٥٨- «متصف الليل» أى منتصف الليلة الثامنة (السطر ٦٧) بعد رحلته (٦٣-٦٦) .

٥٩- انظر الكتاب الثالث - ٤٤٠-٤٤١ وسفر أيوب (٧/١) «فقال الربُّ للشيطان من أين جئت . فأجاب الشيطانُ الربَّ وقال من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها» .

٦٠- انظر الكتاب الثالث ، السطر ٦٤٨ أعلاه فيما يتعلق بوصاية أوريبيل على الشمس ، والكتاب الرابع ، السطور ٥٦٤-٥٧٥ فيما يتعلق بحديثه عن مشاهدته دخول إبليس .

٦٢- سبقت رواية الطرد فى نهاية الكتاب الرابع .

٦٣- «سبع ليالٍ متصلة» أى منذ ليلة محاولة الإغواء الأولى (الكتاب الرابع - السطر ٨٠٠ وما بعده) وهى الليلة السابقة لليوم ٢٤ ، إلى الليلة السابقة لليوم ٣١ ، وهكذا فإن الشيطان ينتهى من تجهيزاته لمحاولة الإغواء الثانية فى أسبوع ، وهى تجهيزات الشر التى تقابل خلق العالم فى المدة نفسها ! أما كلمة «متصلة» فمعناها أن إبليس كان يدور مع الأرض مختبئاً فى ظلها ، والليلة الأولى تحسب من منتصف الليلة ٢٤ حتى منتصف الليلة التالية (٢٥) حتى يصل فى السابعة أو من منتصف الليلة ٣٠ إلى منتصف الليلة ٣١ .

٦٤-٦٦ دوران إبليس حول الأرض لا سند له من الآية المسقطفة من سفر أيوب (الحاشية ٥٩) ولكن السند هو التصاوير الدينية التى يحولها ميلتون إلى تصاوير فلكية ، وأهم ما فى هذه التصاوير التفاف الثعبان الجهنمى حول الأرض ومريم اليتول ترمقه بنظرات ازدراء . وأما القول بأن الشيطان استطاع أن يفعل ذلك ملتزمًا بظل الأرض (أى الليل) دائمًا فقد يصدق على الليالى الثلاث الأولى التى أمضاها فى الدوران حول خط الاستواء ، ولكنه يتعذر فى الليالى الأربع التى قضاها فى الدوران طوليًا من القطب إلى القطب ، لأن محور الأرض - وفقًا لما يرويه ميلتون - لم يكن قد انحرف بعد ، ولم ينحرف إلا بعد السقوط (الكتاب العاشر ٦٦٩) مما يعنى أن إبليس كان لابد أن يمر بمنطقة ضوء ! ويستبعد فاولر أن يكون ذلك من باب السهو ، نظرًا للدقة المتناهية التى يلتزم بها ميلتون ، وهو يرجح أنه استعارة درامية للمستقبل (prolepsis) ومفارقة متعمدة تنذر بميل محور الأرض بعد السقوط ، قائلاً «إن إبليس يرسم عالمًا بعد سقوطه ، وهو يتناقض مع رسم الله للكون أثناء الخلق فى الكتاب السابع ٢٢٩-٢٣٢» . أما «أقطار الأرض الأربعة» فالمقصود بها تقسيم الأرض طوليًا إلى أربعة أرباع متساوية من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ، مثل تقسيم البطيخة المكورة إلى أربعة أرباع متساوية من أعلى إلى أسفل ، وذلك بافتراض وجود دائرتين تتقاطعان بزوايا مستقيمة عند القطب أى (colures) وكانت كل دائرة تمر بنقاط التعامد الشمسى فى الصيف والشتاء ، أى بمدار السرطان ومدار الجدى ونقاط تعامدها فى الاعتدالين الربيعى والخريفى أى بخط الاستواء ، ولما كانت هذه النقاط لم توجد بعد ، وفقًا لتصور ميلتون ، قبل السقوط ، فهى تنتمى أيضًا إلى الاستعارة المستقبلية السابق ذكرها (prolepsis) . وأما «ركب الليل» فهو فى الأصل «مركبة الليل» أى (Car of night) ولا يعنى ذلك أكثر من الجانب المظلم من الأرض أو ظل الأرض .

٦٧-٦٨ فى الليلة الثامنة (قبل اليوم ٣٢) دخل إبليس جسم الثعبان ، وفى اليوم الثامن من أسبوع الأشواق ارتفع المسيح إلى السماء ، وقد شاع الارتباط بين رقم ٨ والبعث والتعميد أيضًا .

٦٩- «المكان» يقع شرقى الفردوس (٥٤٢/٤) والنهر يدخل من الشمال (٢٢٣/٤) وانظر البيت ٦٨٩ وما بعده من الكتاب (والحاشية عليه) حيث يُذكر الشَّمَالُ باعتباره الجهة التى يرد الشر منها .

٧١-٧٥ يتضمن الكتاب الرابع وصفًا أشمل لهذا المكان (٢٢٣-٢٣٢) .

٧٥- «الرذاذ والضباب المتصاعد» : يرجح فاولر أن يكون ذلك بفعل الخاصية الشعرية ، أى ألا يكون هناك ضباب بالمعنى المفهوم بل رذاذ ماء ينبجس عينًا دفاقة . وميلتون يتبع سفر التكوين فى نسبة العين إلى نهر من أنهار الفردوس ، ولكنه يسميه نهر دجلة («واسم النهر الثالث حَدَاقِل (دجلة) Hiddeke» (تكوين ١٤/٢) وهو أحد أربعة أنهر توسع المياه من المنبع الأول ، وقد كثر نقاش المفسرين والشرح حول هذه المسألة ، ولكن المهم هو دلالتها الرمزية وهى أن الشر يدخل إلى عالمنا حتى من المنبع ، ورغم التعميد ، وهى الدلالة التى تتأكد فى الكتاب العاشر (٢٠) عندما

لا يجدى حذر الملائكة في منع الغواية والشر ، فالملائكة يوصفون بأنهم يدهشون ويعجبون لدخول إبليس .

٨٦-٨٢ التفاصيل الجغرافية لرحلة إبليس : البحر الأسود كان يسمى بحر بنتش في الخرائط القديمة (Pontus Euxinus) وبحر آزوف كان يسمى بالوس ماوتيس (Palus Maotis) ونهر «أوب» في سيبيريا (والترجمة تضيف سيبيريا ابتغاء الإيضاح) يتجه شمالاً حتى خليج «أوب» ومنه يصب في المحيط القطبي الشمالي آزوف والمحيط ذو القصبان هو المحيط الهادئ أو محيط السلام الذي تحده قصبان برزخ بتمّا التي كانت تسمى «داريان» (Darrien) ويلاحظ النقاد أن كل المعالم الجغرافية معالم مائية (نهر أو بحر أو محيط) ويعلق الشراح على ذلك قائلين : ربما يكون الهدف هو الإيحاء بدخول إبليس خلسة إلى ماء الحياة . وفي هذا الصدد نجد القديسين يقولون إن نهر الجانجا (Ganges) المذكور هنا هو نهر فيشون (Pison) أحد أنهار الجنة الأربعة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس (تكوين ٢/ ١٠-١١) «وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة . ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس . اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب» .

٨٦- لاحظ النقاد الربط السياقي في الكتاب المقدس بين الثعبان والغواية : «وكانت الحية أحيلاً جميع حيوانات البرية التي حملها الرب الإله فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟» (تكوين ١/ ٣) .

٩٩- انظر قول روفائيل إن الأرض تشبه السماء في ٣٢٩ من الكتاب الثامن .

١٠١-١٠٢ من أخطاء التفكير عند إبليس فالله العليم بكل شيء والقادر على كل شيء لا يرتكب أخطاء ثم يصلحها .

١٠٣-١١٣ طرح روفائيل مسألة كون الأرض مركزاً للكون من باب إثارة القضية ومناقشتها في الكتاب الثامن ٨٦-١١٤ ، وكان يتخذ موقف ما يسمى بمحامى الشيطان (*diaboli advocatus*) أي أن يعرض الحجة الخاطئة للوصول إلى الحقيقة ، وها هو الشيطان نفسه يقدم لنا الحجة الخاطئة ! فطابع الإنسان الذي يفصح عن عظمة الخالق لا يصبح لديه إلا مصدر فخر وكبرياء ! .

١٠٨-١٧٨ خلط في تفكير إبليس . والشراح يفندون حُجَّةَ حجة حجة .

١٨٦- 'الكلأ المعشب' محاكاة لعبارة فيرجيل (الرعايات ٥/ ٢٦) *graminis ... herbam* .

١٨٧- «من فمه» لأن الاعتقاد السائد كان يقول بأن الروح تدخل وتخرج من الجسم من تلك الفتحة .

١٩٢- صباح اليوم ٣٢ .

١٩٥- «معبد الأرض» - في الأصل «مذبح» الأرض ، وهو مجاز مرسل ، أي تعبير بالبعض عن الكل ، ومع ذلك فقد ألمح بعض النقاد إلى أن التعبير يتضمن تورية درامية ساخرة لأن المذبح لا يستخدم

إلا فى تقديم القرابين والأضحيات ، ويرد فاولر على ذلك التلميح قائلاً إن «مزمور التوبة» يتضمن العبارات التالية «ذبائح الله هى روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحشره» (مزامير ١٧/٥١) . ويؤكد فاولر المجاز المرسل ، وهو ما أخذنا به فى الترجمة .

٢٠٤- لاحظ أن حواء تتكلم أولاً ، وهو ما لم تفعله من قبل ، والفكرة تؤكدتها عبارة «أفكارى الأولى» (السطر ٢١٣) مما يتناقض مع ما جاء فى الكتاب الخامس ، السطر ١٧ وما بعده ، وخصوصاً ما جاء فى الكتاب الرابع ٤٠٨-٤١٠ حيث الإصرار على حق آدم فى المبادرة بالحديث .

٢٠٥-٣٨٤ يوضح بيردن (فى الصفحة ٨٦ وما بعدها) أن مسارات الحوار هنا تحددتها المتطلبات المنطقية للمادة التى يعالجها ميلتون . فلا بد أن تكون حواء وحدها عمداً ، ولا بد أن يوافق آدم على انفرادها ، حتى يصبح الاثنان مسؤولين مسؤولية كاملة عن السقوط ، أى أنه لا بد من عدم ترك شيء للمصادفة أو وقوع أى حدث عارض ، إذ يجب فى كل مرحلة أن تكون أفعال الإنسان هى 'السبب' فى النتيجة .

٢٤٩- انظر الحكمة القديمة المنسوبة إلى شيشرون :

numquam minus solus quam cum solus

وقد ذكر الشاعر إبراهيم كاوىلى أن تلك الحكمة غدت «تعبيراً بالغ السوقية» .

٢٦٥- «الجانب المخلص» - سبق وصف خلق حواء فى الكتاب الثامن فى السطر ٤٦٥ وما بعده ، إذ أخذت من الجانب القريب من قلبه أى من جانبه «المخلص» .

٢٧٠- «جلال الطهر والنقاء» - الأصل يقول (Virgin majesty) والشراح جميعاً على أن البكارة المقصودة هى الطهر والبراءة ، استناداً إلى ما يقوله ميلتون نفسه ، ويقول فاولر إن هذه لا تعدو كونها «صبغة جامدة» تعنى العظمة التى تصدر عن الطهر والنقاء ، ولكن نقاداً آخرين يشيرون إلى ما فى العبارة من ظلال معانٍ جنسية ، ويقولون إن الغواية تكتسى بعض هذه المعانى هنا وهناك .

٣٣٥- «الإخلاص والحب والفضيلة» هى ثلاثية القيم العليا للأفلاطونية الجديدة ، وكانت الثلاثية تُصور وقد تشابكت أيديها ، ولكنها كانت تتكون من (١) الإخلاص ، و (٢) الحقيقة والفضيلة ، ويوحّد بينها ثالث هو (٣) الحب .

(Fidius, Veritas and Virtus, united by a third Amor) .

ويقول فاولر إن الإجابة على سؤال حواء هى : «إنها رمز الاستقامة والإخلاص طالما استمرت متشابكة الأيدي» . وقد بينت باحثة هى الأستاذة وليامز أن ثلاثية الإخلاص ترجع إلى (أو تتصل بصورة ما) بثلاثية الطبيعة البشرية التى وضعها بيكو Pico ألا وهى الذهن والوجدان والإرادة أو الجانب الانفعالى ويقول أحد النقاد إن هذه الخصال ليست مطلقة فالوجدان عقلانى وهو يضم

عناصر المنطق والحس معاً ، أى يتميز عن الذهن بارتباطه بالحواس ، فى حين أن الذهن قد يستخدم المنطق الخالص أى المجرد من معطيات الحواس ، ويدلل على ذلك بالكلمات اللاتينية التى كانت تستخدم فى الدلالة عليها *intellectus, ratio & voluntas* ويقول إن هناك فقرات كثيرة فى الفردوس المفقود يبرز آدم رمزاً للذهن *intellectus* أو *mens* (ذهن/ نفس) وحواء رمزاً للوجدان *ratio* أو *anima* (عقل / حس) والواضح أن التفرقة بالغة الصعوبة إن لم تكن محالة ، على نحو ما يرى القارىء لقصيدة ميلتون ، فالشاعر لا يميز هذا التمييز الدقيق بين آدم وحواء على المستوى الرمزي .

٣٦٠-٣٦١ يورد أحد النقاد تدليلاً على أن حواء تمثل العقل (*reason*) مما يقوله آدم فى هذين البيتين قائلاً إن العقل هو الاختيار - على أى حال - أى إنه هو الذى يفصل ويقرر استناداً إلى معطيات الحواس - أى ما يسمعه ويراه وما يدركه بحواسه الأخرى ، ويورد تأكيداً لذلك قول القديس أوغسطينوس إن حواءنا العزيزة التى خدعت الرجل كانت تعتمد على العقل ، مستخدمًا اللفظة اللاتينية نفسها أى *ratio* .

Caro nostra Eva est, quae seducit virum, id est rationem.

ويقول فاوولر ردًا على ذلك إن فياليريانو يقدم صورة أخرى للعلاقة الرمزية تمثل فيها حواء قوة الحواس ويمثل فيها آدم قوة الذهن ، ويقول إنها تقع فى منطقة وسطى بين الصورة الرمزية التى يقدمها القديس أوغسطينوس والصورة التى يقدمها ميلتون ، ولقد حاولت جاهداً أن أضع حدوداً لهذه الصور الثلاث استناداً إلى ما يقول الشاعر نفسه فلم أوفق ، إذ يحاول كل ناقد فرض نظرية ما على الشعر ، فيما يسميه الانجليز «اللعبة الأكاديمية» (*academic game*) فيناقضه ناقد آخر ، فيتبرى لهما ثالث ، وهلم جرا ، وكان ذلك من أسباب جمع حواشى النص فى ذيل الكتاب حتى لا تعترض قراءة القصيدة .

٣٧٠-٣٧٥ يجمع النقاد على أن هذه فقرة حاسمة من فقرات القصيدة ، إذ عليها يعتمد مسار الأحداث التالية .

٣٨٥- «أخرجت يدها من يد آدم» تعبير واضح عن الانفصال ، والنقاد يفيضون فى الحديث عن دلالاته ، وخصوصاً بالإشارة إلى تشابك أيدي قيم الأفلاطونية الجديدة (انظر الحاشية على السطر ٣٣٥) .

٣٨٧- «ديانا» ربة من ربات الأدب اليونانى القديم ، واسمها مشتق من مقطع «ديو» (*dyw-*) أى ضوء ومن ثم قهى المنيرة ، وربة القمر ، أصلاً ، ثم أصبحت إلهة للبرية وارتبطت بالصيد ، ويقال إنها كانت ربة المرأة ، على نحو ما يبدو من ركب الوصيفات اللاتى يحملن المشاعل الوضاء ويسرن خلفها . وميلتون يعتمد على خصب هذا التراث المرتبط باسم ديانا ، فى الإيحاء بجو الجنة الذى تغمره الأضواء .

٣٨٨- «باليس» كانت ربة المراعى عند الرومان ، و «بومونا» *Pomona* حورية أو ربة لأشجار الفاكهة عندهم ، وكثيراً ما كانت تصور جالسة على سلة الأزهار والفواكه وممسكة فى يدها بالتفاح .

وكان فيرتومنوس ، وهو أحد الأرباب ، يحبها ويحاول كسب ودها عبثاً حتى استطاع التخفى والتنكر فى صورة كائن آخر ففاز بقلبها ، والواضح أن ذلك له دلالة الرمزية ، كما سنوضح ، وكانت كيريس Ceres ربة القمح والزراعة . ويقول بعض النقاد إن «يومونا» تعتبر نظيراً موافياً من الناحية المعنوية والأخلاقية ، إذ يقول أوفيد فى كتابه مسخ الكائنات إنها تحبس نفسها فى بستانها حتى لا يلتفت الذكور إليها فتتجو من ملاحقتهم ، وإنها لم تكن تحمل رمحاً بل أداة التشذيب المقوسة التى كانت تستخدمها فى تهذيب ما طال من النبات فأمعن فى الطول ، (١٤/٦٢٨-٦٣٦) ولكن ميلتون يشير إلى غوايتها ووقوعها ضحية المخاتل فيرتومنوس ، ولم يشر أى ناقد إلى أن هذه تورية مستقبلية prolepsis على وضوحها ، إذ لن ينجح إبليس فى غواية حواء إلا بالتخفى والتنكر فى هيئة الثعبان ، وقول ميلتون إنها «فرت» لا يعنى أنها نجت ، وكنت أتمنى أن أترجم العبارة وفقاً للأسطورة ولكن النقاد توقفوا عند الكلمة فأثرت الإبقاء عليها . وأما «كيريس» فأحياناً ما كانت تصور إلى جانب المحرقات ، وإن كان المعتاد أن تصور حاملة شعلة موقدة - وهى النار التى ينص ميلتون صراحة على أنها لم تكن قد وجدت بعد فى السطر ٣٩٢ عالياً . وكانت الشعلة هى وسيلتها فى البحث عن ابتها «بروسرينا» بعد أن اختطفها «بلوتو» وقيل إن ذلك من النظائر الأسطورية لسقوط الإنسان . والإشارة إلى الرب «جوف» لا يقصد بها العودة فى الزمن فحسب إلى ما قبل السقوط من عذرية كيريس وفقدانها ، بل أيضاً للإشارة إلى غوايتها (بعد أن اتخذ شكل الثعبان) وإيقاعه العذراء «بروسرينا» وارتكاب زنا المحارم . وقد ورد فى الكتاب الرابع (٢٦٨-٢٧٢) ما يمكن اعتباره صورة مقلوبة لهذه الأساطير نفسها ، حيث توحى «بروسرينا» بأنها حواء قبل السقوط ، و «كيريس» بحواء بعد السقوط ، ويقول النقاد إن قلب الأسطورة ينفى أى تحديد زمنى لها ، أى إنه يصعد بها إلى مستوى «لا زمنى» .

٤١١- «البراءة والإخلاص والنعيم» ثلاثة من الصفات التى قد تكون مقابلة للثلاثية التى تتسم بطابع أنطولوجى فى السطر ٣٣٥ ألا وهى «الإخلاص والحب والفضيلة» - انظر الحاشية على ذلك السطر، أعلاه .

٤٢١- فى صورة العالم التى يرسمها إبليس ، عادة ما تقع الأحداث إما حتماً (by necessity) أو مصادفة (hap = by chance) .

٤٣٩-٤٤٣ يقول ريتشاردسون (صفحة ٤١٦) : «لما كان مكتوباً على حداثق أدونيس «ألا تعيش إلا فترة بالغة القصر ، ومع ذلك فقد غدت مضرب الأمثال فى العالم القديم ، فإن التشبيه بها يضيف على المثال هنا لمسة مؤثرة ، أضف إلى ذلك أن الحديث لا يدور الآن عن جنة عدن كلها بل عن بقعة شبيهة واحدة تقف فيها حواء ، تلك البقعة الزهراء التى صنعتها يد حواء نفسها ، مثلما كانت حداثق أدونيس دائماً من صنع أيادى العذارى الحسان ، وإن كن أقل حسناً من حواء» . ويقول كريستوفر ريكس (١٣٣-١٣٥) إن العلاقة الوثيقة بين حديقة سليمان والفردوس تعتمد أيضاً على التشابه بين الملك الحكيم وآدم ، فكل منهما حكيم ، وكل يحب زوجته ، وكل يتعرض لخداع «جميلة مارقة» (الكتاب الأول ٤٤٤-٤٤٦) . ولكن التشبيه قديم ، ويرجع إلى القديس

أوغسطينوس . وتوصف حداثق أدونيس وحداثق الكينوس بأنها «خيالية» لأنها أسطورية ووثنية . وأما تعبير «يبحث كل عام» فمعناه أن أدونيس ، بعد أن قتله الخنزير البرى فى الأسطورة كان يبعث فى موسم الثمار كل عام ، وتسيل دماؤه فى الأسطورة لتلوث ماء النهر . أما «ابن لايرتيس» فهو «أوليس» أو «أوديسيوس» الذى جاب الآفاق ورأى عجائب الدنيا ومع ذلك فلم يملك إلا أن يعلن دهشته من روعة تلك الحداثق عندما وقعت عينه عليها أول مرة . (انظر ملحمة الأوديسا من تأليف هوميروس ١١٢/٧-١٢٥) ويقول أحد النقاد إن ميلتون فضل الإشارة إلى أوديسيوس بكنيته حتى يذكر أباه لايرتيس الذى ضحى بعرش ملكه حتى يعمل برعاية الحداثق ، وإظهار التناقض بينه وبين إبليس الذى يحتفظ بتاجه ويدمر الحديقة ! ويضيف الناقد نفسه إن هذا التشبيه المبسوط (extended simile) مثل العديد من التشبيهات الأخرى فى الكتاب التاسع ، يتكون من ثلاثة أقسام مرتبة بنظام محكم هو أ ب اثنان وثنان متهماً والثالث مقدس) مثل ٣٩٣-٣٩٦ أعلاه ، ويقول ناقد آخر إن هذه التشبيهات تنسم بالخط الصاعد إلى ذروة ، ويقول آخر إن الاثنان والواحد يرمزان إلى عقيدة الثنية والوحدانية التى جاءت بها الأديان السماوية ويقول ثالث إنها ترمز إلى علاقة العقل بالحواس ! .

٥٠٥-٥١٠ يقول بعض النقاد إن ميلتون كان على وعى بالتراث الأدبى الذى يصور افتتان حواء بجمال الثعبان ، وهو ما ورد فى كتاب بعنوان دراسة للفردوس بقلم جون سولكيلد وصدرت عام ١٦١٧ (مشار إليها فى كتاب هيوز- انظر المراجع) وقد يكون ويليام امبسون على حق فى تفسير الصورة الكلاسيكية classical allusion بأنها توحى بأن «حواء تحولت - بمعنى من المعانى - إلى أفعى وغدت صاحبة «إبليس» ، وتعبير «بمعنى من المعانى» مهم ، فالصورة «توحى» - كما يقول - بالتحول أو حتى بما يقترب من المسخ ، فهى على الأقل واجهت إغراء الهبوط إلى درك الحيوانية . ولكن فاولر يقدم تفسيراً آخر للصورة ، فإن «كادموس» تحول أولاً إلى ثعبان ، ولم تتحول زوجته «هيرميونى» إلى حية إلا بعد أن عانقها فى صورته الجديدة ، وهو ما أفزع كثيراً جميع الذين شهدوا المنظر (أوفيد ، مسخ الكائنات ، ٥٧٢/٤-٦٠٣) وهكذا فإن حواء هى التى تسببت فى التحول الذى أصاب «وجها آدم . أما رب الشفاء فى «إبيداوروس» فاسمه «أيسكولابوس» Aesculapius الذى تمكن من إعادة الحياة إلى الكثيرين فأنار حق «بلوتو» Pluto ملك الجحيم . وهكذا فعندما زاره وفد من روما يطلب منه سيارتها لشفاء بعض المرضى ، اضطر إلى التنكر فى صورة ثعبان مرتفع القامة إلى مستوى صدر البشر ، ومضى مع الوفد وهو فى هذه الصورة (أوفيد ، المرجع نفسه ، ٦٢٦/١٥-٧٤٤) .

٥٠٨- چوبيتر آمون هو چوبيتر الليبى الذى سبقت الإشارة إليه فى ٢٧٧/٤ ، ويقول بلوتارخوس فى حديث عن أنساب الاسكندر الأكبر أن والده فى الظاهر أى فيليب المقدونى تراجع عن حبه لزوجته «أوليمبياس» بسبب عاداتها فى مضاجعة أحد الثعابين ، ثم أخبرته نبوءة دلفى (Delphic oracle) أن الثعبان كان صورة من صور چوبيتر آمون . أما «چوبيتر الكايتوليتى» فقد أطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى معبده المقام فى روما وهو الكايتول .

٥١٠- «سكيبو» المقصود هو سكيبيو الإفريقى (Scipio Africanus) وهو يوصف بعظيم الرومان بمعنى أنه كان رومانيا عظيماً ، واسمه الكامل مبدوء باسم كورنيليوس Cornelius وقد ذاع اسم

ابنه وكثير من أفراد أسرته . وقد وردت قصة مضاجعة أمه لثعبان فى كتاب صدر عام ١٦٠٨ بعنوان تاريخ الثعابين .

٥٨١-٥٨٣ تشبيه مبسوط يتسمى إلى الشكل الثلاثى أ ب (انظر الحاشية على ٤٣٩-٤٤٣) فالتشبيه ينبأت وبأثناء نوعين من الحيوان . وكان الشائع أن لبن الثدى ونبات الشَّمار (أو الشَّمر) من الأطعمة المفضلة لدى الثعابين .

٥٨٥- تحديد نوع الفاكهة المحرمة بأنها تفاح قد يكون مصدره كتاب الاستجواب الكنسى الأورسينى *Ursinian Catechism* فى هايدلبرج ، على نحو ما ذهب إليه فلتشر ، ولكن الواضح أن تلك الفكرة كانت بمثابة اعتقاد شائع أو شعبى .

٦٠٩- «لا يوجد جمال كفوًا لك أو قريبًا من منزلتك» تعبير يحاكي عبارة وردت فى أناشيد هوراس (١٨/١٢/١) وهو :

nec viget quicquam simile aut secundum

والتعبير يذكر بما جاء فى الكتاب الثامن ، وهو القول المنسوب إلى الله تعالى :

إذ لا أعرف أحدًا

يلينى فى المنزل أو يشبهنى ، وما أبعد أن يكون لى كفوًا أحد (٤٠٦-٤٠٧) .

٦١٥- معنى كلام حواء هو : إن إسرافك فى المديح ، وبهذا القدر من البلاهة ، يدعونى للشك فيما أضفَّته تلك الفاكهة من العقل عليك !

٦٥٤- الإشارة إلى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (١٤/٢) «لأنه الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو فى الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم» .

٦٨٥- الإشارة إلى سفر التكوين (٤/٥) «فقال الحية للمرأة لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» .

٧٣٥-٧٤٣ الإشارة إلى سفر التكوين (٦/٣) «فراة المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت» .

النص الانجليزى لهذه الآية يزيد بعد كلمة «للنظر» ما يلى :

and a tree to be desired to make one wise

٧٤٤-٧٤٣ لا مهرب من التوقف هنا والتمهل حتى تكون حواء مدركة كل الإدراك لما تقدم عليه .

٧٦٦-٧٦٧ هنا مفارقة بالغة القوة فنحن نعرف من الحديث الإلهى فى الكتاب الثالث أن الموت قد 'اخترع' من أجل الإنسان فعلاً .

٧٩٣- من السطور ذوات التركيب «السائل» (fluid syntax) وهو :

And knew not eating death

والمعنى الظاهر الذي أخذنا به في الترجمة هو : «وهي لا تدري أنه طعام الموت» ، ولكن الشراح يأتون بقراءات مختلفة منها :

She was unaware, while she ate death

أي «أنها لم تكن تدري ، وهي تأكل الموت» أو «لم تكن واعية / في وعيها . . . » ومنها :

She **knew**, not eating (immediate) death

أي إنها كانت تعرف (في وعيها) إذ لم تكن تأكل طعام الموت (الآن).

وقد سبق الحديث عن خصائص هذا التركيب السائل ، وصعوبته في الترجمة .

٨٠٠- تقول حواء إنها سوف تشد للشجرة ابتهالات الصباح التي كانت تشدها لله فقط حتى تلك اللحظة .

٨٠٤-٨٠٧ تردد حواء الحجج التي أتى بها إبليس في السطور ٧٢٢-٧٢٥ عاليه ولكنها تسيء تكرارها وفهمها . وعندما تشير إلى الأرباب فهي تحاكي إبليس ، وإن كانت تقصد الله الواحد ، انظر البيت ٧١٨ عاليه . *

٨٠٥- المقصود 'بالآخرين' هو الله سبحانه وتعالى ، إذ تعلمت حواء من إبليس استخدام الصورة الوثنية الغامضة .

٨٢١-٨٣٠ تردد حواء الآن في إتخاذ قرارات تحقق كلها أغراضاً ذاتية وأنانية .

٨٢١-٨٢٢ هذه أول إشارة إلى أن حواء تشعر بأى درجة من درجات النقصان .

٨٢٤- «وذلك شيء غير مكروه» يقول النقاد إن هذه الجملة الاعتراضية يمكن أن تفسر على أنها من قبيل 'خداع النفس المعلن' ، فحواء - حسبما يقول فاوُلر - ترى أنه من المستحب والمستحسن جداً أن تكون متفوقة على آدم في جميع الأحوال تقريباً . قارن ذلك بأول وصف يرد لآدم وحواء في الكتاب الرابع السطر ٢٩٦ .

٨٣٢-٨٣٣ يقول فاوُلر إن هذا هو أول تعبير صريح عن الحب من حواء - وأول تعبير زائف . فإنها في الواقع تعزم قتل آدم حتى تستريح نفسياً . ويلفت فاوُلر النظر إلى الخلط في تفكيرها ، فالواقع أن مسألة الحياة دون آدم مستبعدة أصلاً ، فإذا كانت سوف تفقده فذلك لأنها ستكون قد ماتت . ويقول إن الأبيات ربما ترجع صدى هوراس في الأناشيد (٢٤/٩/٣) .

tecum vivere amem, tecum obeam libens

وإذا كان الأمر كذلك ، فلن يكون التشابه مقصوراً على أن قصيدة هوراس حوارية وحواء تحاور نفسها ، بل يتعدى ذلك إلى التضاد بين استعداد «ليديا» للموت من أجل «كاليبس» لو قدر له أن يعيش بعدها (السطور ١٥ وما بعده) واستعدادها الأقل نبلاً للموت مع حبيبها القديم . وموقف حواء يتفق مع الطرف الأخير في هذا التضاد ، وأما الطرف الأول (الاحتمال الأول) فلم يخطر لها ببال أصلاً . ويضيف فاولر قائلاً إن الإشارة إلى هوراس لم تكن لتغيب عن نظر معاصريه إذ كانت الأناشيد قد ترجمت إلى الانجليزية وشاعت في القرن السابع عشر .

٨٤٢- يرجع بنا هذا التشبيه إلى المقارنات الأولى بين حواء وريبات السراعة : «بالبس» ، و «بومونا» و «كيريس» (انظر الايات ٣٩٣-٣٩٦) .

٨٨١- «الأقدار» من الكلمات التي تسربت إلى حديث حواء من إبليس .

٨٩٣- أول مثال على ذبول الأزهار في الجنة .

٩٠١- «شاه الوجه» ترجمة لكلمة defaced يستند إلى التعريف الوارد في كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية (١٢/١) ويقول فيه عن الخطيئة إنها تورث «نقصاً في جلال وجه الإنسان والوعي بإنحطاط العقل» .

«a diminution of the majesty of the human countenance, and a conscious degradation of mind»

٩٠٦-٩٠٧ يقول فاولر إن الخيوط الرئيسية للمعنى هي : «عزى الراسخ هو أن أموت معك» ، و «بالتأكيد اعتزم الموت معك» ، و «(إذا بقيت) معك فإن عزى [بالمعنى اللاهوتي] هو يقيناً أن أموت» ويضيف فاولر قائلاً إن قوة الحب عند آدم زادت كثيراً عن الحد ، ولكن ميلتون يقصد أن يجعلها مؤثرة أيضاً .

٩٢١- استجابة آدم لتصوير ما فعلته حواء استجابة ملحمة ، ولذلك - كما يقول بيردن - فهي جديرة بالإعجاب .

٩٢٤- وصف الفاكهة يدل على أنها فقدت سحرها .

٩٢٨- يشارك آدم زوجته (بقوله «ربما») في المراوغة للإفلات من شرائط الأمر الذي أصدره الخالق جل وعلا .

٩٣٠- لا يحاول آدم النظر في احتمال قيام العدو بحيلة أو خدعة ، وهو ما كنا نتوقعه أو نأمل فيه طبقاً لما سبق في السطور ٩٠٤ وما بعده ، ولكنه يقبل دون مناقشة رواية حواء لقصة الأفعى .

٩٣٦- لا يكتفى آدم بالإنصياع لإرادة حواء بل يبدى طموحاً خاصاً من جانبه .

٩٤١-٩٤٢ منطلق آدم يتحطم ! إنه بدأ ينسب الظلم إلى الله !

٩٩٦- استعادت الفاكهة جاذبيتها لآدم بسبب الفساد الذي أصاب قلبه ومن ثم شهيته .

١٠٠٢- أول عاصفة رعديّة في الفردوس ، فلم تكن شهدت حتى الآن إلا النسيم العليل .

١٠٠٣-١٠٠٤ لا يذكر ميلتون في الفردوس المفقود تعبير 'الخطيئة الأولى' إلا هنا .

١٠١٠- وهم الربوبية ينشئ الأجنحة المناسبة للملائكة .

١٠١٣- بداية رواية 'السبب الصوري' للسقوط أي السبب الذي جعل السقوط يتخذ هذه 'الصورة' . فإن 'صورة' عصيان الإنسان لله هي التغيّر في طبيعته ، وهو الذي يصاحب الخطيئة ، ولا يمكن التمثيل لها إلا بما تؤدي إليه من آثار .

١٠٢٧- الإشارة إلى الخروج (٦/٣٢) : «وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب [وتتكرر الآية في كورنثوس الأولى (٧/١٠) وتعني 'الجماع'] فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر» (خروج ٧/٣٢) .

١٠٥٢-١٠٥٩ الإشارة إلى سفر التكوين (٧/٣) «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان» .

١٠٥٨- «يستر» ... «ولكن رداه» ... ربما كان وجود الخجل هنا يتضمن إشارة مستترة إلى المزامير - انظر «إليس خصمائي خجلاً وليتغطفوا بخزيهم كالرداء» . (المزمور ٢٩/١٠٩) وفيما يلي النص الانجليزي .

Let mine adversaries be clothed with shame, and Let them cover themselves with their own confusion, as with a mantle

ونظراً لأن الترجمة العربية المعتمدة قديمة سوف أورد ترجمة أخرى حديثة .

«فليكتس خصمائي بالخجل ، وليستروا بخزيهم كأنه وشاح» .

ويناقش النقاد فكرة الخجل الكلاسيكية ، عند هوراس مثلاً ، التي كانت تقترب من الحياء ، وهو مفهوم حميد ، وصفة حسنة ، أما في ميلتون فهو يقترب من الخزي أو العار ، والواضح أن للخجل درجاته ، ولدينا في العامية تعبيرات تدل علي بعض هذه الدرجات «اللى اختشوا ماتوا» و«مش مكسوف من نفسك ا!» - مثلاً - ومن ثم فإن الحالة التي كان عليها آدم وحواء ، حالة إدراك العُرى (السطر ١٠٥٧) جعلتهما يشعران بالخجل من ضعفهما الذي أدى إلى ارتكاب العصيان ، ومن ثم حاول آدم أن يستر نفسه ، وإزاء ذلك تبدو المفارقة في الآية المقترضة من المزمور ١٠٩ حيث يتضمن الدعاء طلب الإكتساء بالخجل ، بمعنى العار والانتشاح (أو الاستتار) بالخزي ! ولم يشر النقاد إلى هذه المفارقة في الإحالة إلى الكتاب المقدس (Biblical allusion) وإن كانت الصورة تتضمن استعارة 'غارقة' أي دفيئة (Submerged metaphor) وهي الاستعارة التي لا تخرج إلى 'السطح' إلا بالعودة إلى الآية المشار إليها .

١٠٥٩-١٠٦٣ قصة خيانة دليلا لشمشون الجبار يرويها سفر القضاة في الأصحاح ١٦ ، وأما سليل 'دان' فمعناها أنه ابن 'منوح' Manoah «من عشيرة الدانيين» ، (قضاة ١٣/٢) والمعروف أن دان من الأسباط أي أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام وكانت المقارنة شائعة في التراث الأدبي الديني بين آدم وشمشون .

١٠٦٧- يقول كريستوفر ريكس (صفحة ١٠٣) إن آدم قد أعلن أن كلمة الشر مشتقة من اسم حواء ، وأن الشر مستقى منها ، وهذا خلط واضح ، فكلمة evil الانجليزية مشتقة من الانجليزية القديمة yfel (التي ترجع إلى جذور أقدم في اللهجات الشمالية) والتي جاء منها كلمة uvel في الانجليزية الوسطى ، ولا علاقة لها بالكلمة الانجليزية لحواء Eve (Eva) المحرفة من اللغة السامية الأم protosemitic (وهي لغة يفترض أنها أصل العربية والعبرية والسريانية والآرامية والجعزية) وهي كلمة Hava المحرفة عن Hawa أي 'حواء' وهي صيغة سامية معروفة معناها العام هو واهبة الحياة (أصلها حياء - صيغة تكثير أي (فعال) من حيا أي أحياء) وإذن فإن افتراض هذا الاشتقاق باطل ويتسم إلى ما يسمى باشتقاق العوام folk etymology ، أي الاشتقاق دون سند تاريخي والاعتماد على أصوات الألفاظ الظاهرة . وقد نشأ خلاف كبير حول عدم تسمية الكتاب المقدس حواء باسمها إلا بعد السقوط ، وكانت الإشارة إليها قبل ذلك بلفظ 'المرأة' ، وقال بعض الباحثين إن السقوط كان معناه أن تحمل وتلد فتأتي بالأحياء ورد عليهم آخرون قائلين إن ذلك يفترض أن خلودها في الجنة أولاً (قبل السقوط) لم يكن يعنى عدم الحمل والإنجاب ، وميلتون - كما هو واضح - من الفريق الأخير .

١٠٧٤-١٠٧٦ النقاد مغرمون بالتقسيم والتعديد ، فبعد أن كان القدماء يؤمنون بثلاثية القيم في الأفلاطونية الجديدة (انظر الحاشية على السطر ٣٣٥ من الكتاب التاسع) أصبح المحدثون يتحدثون عن رباعية للمثل العليا أو القيم العليا وهي - على نحو ما وردت في الآيات ١٠٥٤-١٠٥٧ أعلاه : البراءة ، والثقة ، والصلاح ، والشرف ، وهم يربطون بين هذه الرباعية الجديدة وبين ما تضمنته هذه الآيات من قيم مجردة هي : الشرف ، والبراءة ، والإخلاص (الثقة) ، والنقاء (الصلاح) ، ويرجع العيب في منهج التقسيم والتحديد المذكور إلى أنه لا يأخذ في اعتباره اختلاف المعاني من سياق إلى سياق ، واختلاف معاني الكلمات من عصر إلى عصر ، فكلمة 'الشرف' في ميلتون قد تعني التكريم في سياق معين ، على نحو ما ترجمت به في سياق يماثل الآية القرآنية ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء- ٧٠) في هذه القصيدة ، وقد تعنى 'نبل المقصد' كما ترجمت به في سياق آخر ، والشرف يعد مفهوم له أصل حسي وهو الارتفاع (شرف يشرف - ومنه جاءت الشرفة) ولكن «الحفاظ على العهد» من المعاني الواردة فيه أيضاً ، وكذلك نرى جميع تلك المفاهيم الكلية hypernyms التي تتضمن من العناصر الدلالية ما يجعل افتراض وحدة معناها مستحيلاً ، وانظر إلى ما يقوله فاوولر من معادلة الإخلاص بالثقة (ص ٩١٨) أو معادلة النقاء أو الطهر بالاستقامة أو الصلاح ، فالواضح أن ميلتون الشاعر ليس الباحث الذي ينبري لوضع الفروق الدقيقة بين الألفاظ بالصورة التي تسمح بجمعها في ثلاثيات ورباعيات ،

شان ما كان القدماء يفعلونه ، وأظن ظناً أن الولوج بالعدد نفسه ، ثلاثاً كان أم أربع ، من وراء هذا التعديد .

١٠٧٩- يقول أحد الشراح (شوكروس) إن 'آخر' (last) في هذا البيت معناها 'أقل' أو أدنى (Least)، على نحو ما ترد أحياناً في نص ميلتون ، ولكنني لم آخذ برأيه ، فقول آدم إن 'الخجل' هو آخر شر يعني أنه أقرب شر عرفه زمنياً ، أي أنه قد عرفه لتوه أو منذ عهد قريب ، ولا اعتقد أن آدم يذهب مذهب فاوُلر أو شوكروس في تفصيل درجات الشر ، خصوصاً لو فهمنا 'العار' من الكلمة (Shame) .

١٠٨٥-١٠٩٠ تحمل هذه الأبيات خصائص ما يسمى بقصيدة المعزلة poem of retirement الإنسحاب من حياة المجتمع والعيش في وحدة بعيداً عن شرور الناس وذلك يعني أن ميلتون كان يسير في درب التقاليد الأدبية الشائعة ، وهي حافلة ، ولكنه يتوسل بها تعبيراً عن خجل آدم (وعاره).

١٠٩١-١٠٩٨ الإشارة إلى الكتاب المقدس «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر» (تكوين ٣/٧) ويوجد هامش على الآية في النص الانجليزي يقول «أشياء يحيطان بهما وسطهما».

١١٠٠-١١١٠ أفاض الشراح في الحديث عن شجرة التين الشهيرة ، وحسبنا ما جاء في نص ميلتون نفسه .

١١٢٢- لاحظ رمزية الفرد ، الكائن الأصغر (microcosm) للكون الأكبر (macrocosm) وما يحمل ذلك من دلالات للمجتمع والدولة .

١١٢٧-١١٣١ الدلالات هنا واضحة بالنسبة للعالم الكبير ، وخصوصاً للدولة.

١١٤٤- محاكاة لما قاله أوديسيوس (لأوليس) للاعتراض على خطاب ألقاه أجاممنون في الإلياذة (هوميروس) (٨٣/١٤) .

١١٤٦-١١٥٠ يشير بيردن إلى استعمال حواء لتعبير «يتصادف فيقع» وهو صدى لكلمات إبليس الذي يؤمن بالمصادفة .

١١٥٥- الإشارة إلى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (٣/١١) «إن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله» . والملاحظ أن حواء بعد أن أوحى من حديثها في السطور ١١٤٦-١١٥٠ أن آدم لا يزيد عنها حكمة تعود هنا لتلومه على تركه إياها وعدم إرشادها إلى الخدعة . وهي من ثم تفرغ القيادة من معناها الصحيح - كما يقول فاوُلر - وتجعلها لا تزيد عن درجات سلطة وأوامر بعضها فوق بعض ، وقارن ما تقوله هنا في السطر ٤٤٢ وما بعده من الكتاب الرابع .

١١٧٨-١١٨٦ هذا هو «الإعجاب» الذي أقرَّ آدم به لروفايل في ٨ / ٥١٠-٥٥٩ . وتتضمن هذه الأبيات تفسيراً نفسياً للسقوط ، ومارجوري نيكولسون تقارن بينه وبين تفسير هنري مور للسقوط على أنه صراع بين الذهن الذي يمثل آدم والإرادة التي تمثلها حواء ، ولكن ذلك قد لا ينطبق تمام الانطباق على قصيدة ميلتون .

حواشي الكتاب العاشر

١ - ١٦ يقول فاولر إن هذه الآيات تمثل من زاوية البناء الملحمي ما يسمى في البلاغة الكلاسيكية بالتوطئة أو الاستهلال (*principium*) (أو ما يوازي في العربية 'خطبة الكتاب') كما تمثل ما يوازي في الشعر القصصي عموماً ، بل وفي الشعر المسرحي أيضاً ، ما يسمى بالمدخل (*initium*) وربما كان يقصد ما يوازي في فن الخطابة وفن الرسائل تعبير (*exordium*) ولكن بعض النقاد الكلاسيكيين يوازون بين الاستهلال الملحمي والمدخل القصصي والمسرحي ، ويفرق آخرون بينهما قائلين إن الاستهلال يقتصر على تحديد موضوع الكتاب في الملحمة ، وإن المدخل يرسم المشهد الذي ستقع فيه الأحداث ، ولما كان ميلتون يحدد في باب 'الموضوع' المكتوب نثراً (*The Argument*) موضوع الكتاب ، فإن هذه الآيات تكاد تقتصر على رسم المشهد ، وإن كان ذلك في ذاته يعتبر 'توطئة' للأحداث .

ويقول جوزيف أديسون تعليقاً على هذا الكتاب في مجلة المشاهد *The Spectator* العدد ٣٥٧ (طبعة بوند ، المجلد الثالث) إن الكتاب العاشر يتميز بكثرة الشخصيات وتنوعها وزيادتها عن الشخصيات الواردة في أى كتاب آخر من كتب الملحمة ، ويضيف قائلاً (في صفحتي ٣٢٩ و ٣٣٠) : "إن المؤلف يعترم اختتام الحدث *Action* بتقديم جميع الذين شاركوا فيه من قريب أو من بعيد ، ويعرض عرضاً جميلاً كيف أثر الحدث في كل منهم ، وبذلك فإن هذا الكتاب يشبه الفصل الأخير من مسرحية محكمة الصنع ، حيث يقدم الكاتب المسرحي جميع أبطالها ، مهما صغرت أدوارهم ، بذريعة ما ، إلى الجمهور ، وبحيث يكون الموقف شاملاً للملابسات التي وضع الحدث الأبطال فيها" .

ولن يفوت قارئ هذا الكتاب الطويل إدراك تنوع الشخصيات فيه ، ولكنه ليس قطعاً موازياً للفصل الأخير من التراجيديا التي كان ميلتون يعترم كتابتها ، بل ربما كان يعتبر الفصل قبل الأخير .

٥ - تعبير 'عين الله' من التعبيرات التي أثارت بعض الجدل في عصر النهضة بسبب شيوع تصوير العين رمزاً للعدالة ، واقتراح ذلك الرمز بموعد قيام الساعة الذي شاعت الإشارة إليه بالتعبير الوارد في العهد الجديد (كورنثوس الأولى ١٥/٥٢) من أن قيام الساعة سيحدث "في طرفة عين" ، وهو ما يذهب إليه روجر وند (Wind) في كتابه الأسرار الوثنية في عصر النهضة ولكن استعمال العين استعمالاً رمزياً أقدم بكثير من عصر النهضة ، ولنا في التراث المصري القديم أدلة تثبت عالمية الرمز وقدمه ، بل وطابعه الإنساني الشامل الذي يتجاوز تفاسير الكتاب المقدس .

١٦ - يؤكد النقاد على اختلافهم أهمية تعبير "نضاعفت" بمعنى تعددت وتكاثرت ، قائلين إن التعدد والتكاثر من الصفات الأصلية في 'الإثم' ، على عكس الوحدة والتوحيد ، ويورد بعضهم آيات من المزامير (١٣/٣٨ ، ٤/١٦) للدلالة على ذلك ، ويقول أحدهم إن الكلمة توحي أيضاً بالتفريق والافتراق ، مُدلاً على ذلك بأن الخطيئة لم تقع إلا عندما افتترقت حواء عن آدم ، وبأن التعدد يوحي بالشرك بالله ، وهو مذهب الوثنية المعادي للتوحيد ، مستمداً حجته من أقوال ميلتون نفسه في كتابه عن العقيدة المسيحية .

١٧ - 'الملائكة الحارسة' angelic guards هم 'الملائكة الحارسون' ، (أي guardian angels) الذين ورد ذكرهم في 'الموضوع' (في السطر الأول) وهم ملائكة الشاروبيم الذين ورد ذكرهم من قبل في الكتاب الرابع (السطر ٥٥٠ وما بعده) وفي الكتاب التاسع (السطر ٦١ وما بعده) وأما التأنيث والتذكير فمسألة لغوية محضة ، فالملائكة لا جنس لها / لهم ، والقرآن يفضل صيغة المذكر ، كما تؤنث العرب الجمع (قالت العرب / العرب تقول / تلك الرسل) .

٣٢ - ٣٣ صورة 'السحابة الخفية' تعني في الحقيقة 'السحابة التي تخفى' ومن ثم فنحن نواجه هنا الحيلة البلاغية القديمة التي تسمى transferred epithet أي نقل الصفة من اسم إلى اسم كقولك

I read a lazy book

بمعنى إني أقرأ كتاباً كسولاً ، لا أقرأ كتاباً كسولاً ، وكذلك فإن secret cloud هنا تعني 'السحابة الساترة' أو ظلل الغمام (قال تعالى : «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» - ٢١٠ - البقرة) . ولكننا فضلنا الإبقاء على الصورة البلاغية الأصلية . وأما صورة الرعد فمصدرها هو الكتاب المقدس (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٥/٤) "ومن العرش يخرج برق ورعود وأصوات" وقد سبقت مناقشة صورة الرعد في حواشي الكتاب الثاني على السطور ٢٦٤ - ٢٦٥ ، والكتاب الثالث على السطور ٣٧٥ - ٣٨٢ .

٣٩ - تعبير الهوة يحيل إلى الآية الواردة في إنجيل لوقا ١٦/٢٦ "وفوق هذا كله بيتنا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من هنا إليكم لا يقدرُونَ ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" .

٤٣-٤٤ سبق الحديث في حواشي الكتاب الثالث عن رفض الله جل وعلا لأي قول بالتسيير أي بفرض فعل الشر على البشر ، وهي فكرة تتكرر في ثنايا الملحمة .

٤٦ - صورة الميزان من الصورة المتكررة والأساسية في الملحمة ، وهي - بطبيعة الحال - قديمة قدم الفكر الإنساني في مجال العقيدة (انظر إلباد 'أصول الأفكار الدينية') ولا تقتصر على المصادر الكلاسيكية عن هوميروس وفيرجيل حتى عصر النهضة (سبنسر وشيكسبير) بل تسبق ذلك كله في التراث المصري القديم ، ثم في التراث الإسلامي . انظر الحاشية على السطور ٩٩٧ - ١٠٠٤ من الكتاب الرابع من الملحمة .

٤٩-٥٣ انظر الحاشية على السطور ٣٢٣ - ٣٣٣ من الكتاب الثامن بشأن التفسير الحرفي لكلمات سفر التكوين (١٧/٢) "لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" ، وأما تعبير "قبل نهاية اليوم" فقد أثار عدة مسائل تتعلق بحساب اليوم وفق التقويم العبراني (على نحو ما سبق شرحه في حواشي الكتب السابقة) أي من غروب الشمس إلى غروب الشمس التالي ، أو وفق أنواع أخرى من التقويم ، فنزول كلمة الله للحكم على آدم عند غروب الشمس يوحى باعتبار الغروب نهاية اليوم (نهاية اليوم = آخر النهار) وهو التقويم العبراني ، ولكن آدم يعود في هذا الكتاب إلى اعتبار الليل جزءاً من اليوم ، وهو التقويم الحديث ، في السطر ٧٧٣ ، وانظر الحاشية التي ستلحق به ، مما يسمح بتقويم يبيح اعتبار اليوم

ممتداً من منتصف الليل إلى منتصف الليل التالي ، أو من شروق الشمس إلى الشروق التالي ، والواقع أن آدم يتخبط في حساب اليوم ، وربما كان ذلك عمداً أملاً في عدم وقوع العقوبة ، حتى يدرك المعنى الحقيقي لها ، والصورة الاستعارية التي اتخذتها صياغتها .

٥٣- "إسقاط الدين" يعني إبراء الذمة منه ، والمثل الإنجليزي القديم يقول إن الإهمال لا يعنى الإعفاء (أي Omittance is not quittance) وهو الوارد في مسرحية شيكسبير "كما تهوى" ١٣٣/٥/٣ ، وهو قريب من القول المأثور إن الله يمهّل ولا يهمل .

٥٤- "عائد العدالة" استعارة يواصل بها ميلتون الصورة 'التجارية' في البيت السابق ، وهي تعنى أن العدالة لا ينبغي أن تعود على الجحود والتكران ، وإذن فإن كلمة 'عائد' ترتبط 'بالعودة' على صاحب الفضل ، مثلما ترتبط بما يسمى 'المردود' أو 'الدخل' بلغة التجار .

٥٥- اقتران الرحمة بالعدل قديم في التفسير اللاهوتية ، وعادة ما يشرحها الشارحون استناداً إلى ما جاء في المزامير (١٠/٨٥) "الرحمة والحق التقيا . البر والسلام ثلاثاً" ، ولكن أحد النقاد يقول إن هذه أربعة فضائل لا فضيلتان ، ويفضل إرجاع الاقتران إلى التراث الروماني الذي يحدد الفضائل الامبراطورية بأنها العدل مع الرحمة (Iustitia and Clementia) .

٦٠-٦٢ كلمة الله التي ستصبح بشراً هي المسيح عليه السلام ، وتقول العقيدة المسيحية إن المسيح باعتباره بشراً ، وهو كلمة من الله (قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِكَلِمَةِ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ - ٤٥/آل عمران) سوف يفدى الإنسان بموته ، ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية "إن مهمة الوساطة للمسيح هي أنه ... قام طواعية ، ولا يزال يقوم ، نيابة عن الإنسان ، بأداء كل ما هو مطلوب لبلوغ رضى الله والخلاص الأبدى" . وقد آثرت استعمال لفظ 'المسيح' أو 'الكلمة' في الترجمة بدلاً من 'الابن' خشية بليلة القارئ غير الملم بالعقيدة المسيحية ، ونشداناً للاتساق في النص العربي .

٨٤-٨٢ "الثالث" هو إبليس ، وسوف تناقش مسألة توزيع الذنب بين إبليس والشيطان في الحاشية على السطور ١٦٤ - ١٧٤ من هذا الكتاب نفسه .

١٠١- ذكر الله صراحة (God) بدلاً من كلمته وهو المسيح مقصود ، فالحاكم هنا هو الله ، فهو تحول في الصياغة لا في المعنى .

١٠٢ - ١٠٨ الإحالة إلى سفر التكوين ٩/٣ "فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت" .

١١٦ - ١١٨ الإحالة إلى تكوين ٣/١٠ "فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاخبتأت" .

١١٩ - ١٢٣ انظر تكوين ٣/١١ "فقال من أعلمك أنك عريان . هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها" .

١٤٣- انظر تكوين ٣/١٢ "فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت" .

١٤٧- "أو حتى مساوية لك" تحيل القارئ إلى حديث حواء في الكتاب التاسع (٨٢٣ - ٨٢٥) حيث تسأل نفسها إن كان من الأفضل ألا تدعو آدم لمشاركتها الثمرة ، وأن تحتفظ بها لنفسها ، فمن شأن ذلك ، حسبما تقول أن "يجعلني أكثر مساواة معه ، وربما أيضاً . . . أن أكون أحياناً أسمى منه".

١٤٩-١٥٠ انظر كورنثوس الأولى (٨/١١-٩) "لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل".

١٥٤-١٥٥ انظر تيموثاوس الأولى (٢/١٢) "ولكن لست أذن للمرأة أن تتعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت".

١٦٤-١٧٤ قضية محاسبة الثعبان على خطيئة إبليس قضية شائكة ، ويذهب دنيس بيردن في كتابه "الملحمة المنطقية" (١٩٦٧) إلى أن ميلتون وجد صعوبة في تقبل حكم الله على الثعبان لأنه حيوان أعجم ، الأمر الذي جعله يكتب هذه الآيات لتبرير الحكم الذي يبدأ في السطر ١٧٥ ، ويرد على ذلك فاوئر قائلاً إن أحد مفسري الكتاب المقدس واسمه أندرو ويليت كان قد أصدر كتاباً في مطلع القرن السابع عشر يفسر فيه سفر التكوين ، ويورد فيه رأياً لأحد آباء الكنيسة اسمه ميرسيروس يقول فيه "إن الله يصدر اللعنة على الثعبان لأنه كان الوسيلة والأداة التي استعملها إبليس ، وإن عدالة الله تقضى بمعاينة الوسيلة والفاعل معاً . . . [مستشهداً بآية من التوراة (سفر اللاويين ٢٠ / ١٥) تقول "وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها"] . . . وعلى الرغم من أن الثعبان لا عقل له فإن الله يعاقبه من أجل تعليم الإنسان ، إذ يقصد باللعنة إفهامه مدى غضبه على ما فعله معاً لإغوائه".

أما طبيعة اللعنة فقد اختلفت الآراء بشأنها ، وتورد نص كلمات سفر التكوين في الحاشية التالية ، فالبعض ينسب اللعنة كلها إلى الثعبان ، وينسبها البعض الآخر رمزياً إلى إبليس ، وهناك فريق ثالث يفسرها تفسيراً حرفياً بالنسبة للثعبان وتفسيراً دينياً بالنسبة لإبليس ، وفريق رابع (يتسمى إليه كالفرن) ينسب القسم الأول من اللعنة إلى الثعبان والقسم الثاني إلى إبليس . ويقول فاوئر إن "سطور ميلتون تضم آراء هذه الجماعات كلها تقريباً".

١٧٥-١٨١ الإحالة إلى سفر التكوين (٣/١٤-١٥) "فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه".

١٨٣- "حواء الثانية" إحالة إلى التعبير نفسه في الكتاب الخامس ، السطر ٣٨٦ .

١٨٤- عندما عاد الحواريون من الوعظ قائلين إنهم قد أخضعوا الشياطين باسم يسوع المسيح رد عليهم قائلاً "رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء" (إنجيل لوقا ١٠ / ١٨) .

١٨٥- انظر أفسس (٢/٢) " . . . سلكتم . . . قبلاً . . . حسب رئيس سلطان الهواء".

١٨٦- انظر كولوسي (١٤/٢-١٥) وهو الذي يذكر أن المسيح قد أعلن إزاحة الإداة القائمة على أساس القانون "إذ معاً الصك الذي علينا في الفرائض ، الذي كان ضدنا لنا وقد رفعه من الوسط مسجراً إياه في الصليب ، إذ جرد الرياسات والسلطين ، أظهرهم جهاراً ، ظافراً بهم فيه" .

١٨٨- انظر المزمور ١٨/٨٦ "صعدت إلى العلاء . سيبت سبباً" وهذه الآية نفسها تشير إلى المسيح في أفسس ٨/٤ .

١٩٠- انظر رومية (٢٠/١٦) حيث يوجد النص الذي يقطع بصحة التفسير الديني (الروحاني) للعة الصادرة على الثعبان "والله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً" وفي الهامش ، في النص الإنجليزي ، توجد كلمة "بطاً" في مقابل كلمة يسحق ، وفي طبعة أخرى تتبادل الكلمتان المواقع ، ولما كان ميلتون يعود في السطر التالي (١٩١) إلى كلمة السحق ، فقد أبقينا عليها في السطرين ترجمة عربية للكلمتين الإنجليزيتين (bruise) & (tread) .

١٩٢- يقول فاوولر إن ترتيب اللعنات ذو أهمية بالغة . والحق أن ميلتون حريص على البدء بالأدنى والأشد قبل التقدم إلى الأعلى والأخف ، خصوصاً لأن فداء الإنسان الذي تنص عليه العقيدة المسيحية ينبع من كرم الله وعطفه دون أن يكون جزاء وفاقاً لأعماله ، ولذلك يأتي به آخراً للدلالة على ذلك .

١٩٧-٢٠٢ انظر سفر التكوين (١٧/٣) "وقال لأدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك" .

٢٠٣-٢٠٨ انظر سفر التكوين (١٨-١٩/٣) "وشوكتاً وحسباً تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود" .

٢١٠-٢١١ سبق إيراد شروط الحظر في الكتاب الثامن (انظر الحاشية على ٣٢٣ - ٣٣٣) والله هنا يبعد خطر الموت 'الآن' لأنه سبق أن أشار في السطر ٢٠٢ من قبل إلى مشقة آدم "طيلة أيام حياتك كلها" .

٢١٣- انظر وصف "التغيير" الذي يصيب الهواء في السطور ٦٩٢-٧٠٦ من هذا الكتاب .

٢١٤- انظر فيلبي (٥/٢-٧) "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في يسوع المسيح أيضاً . الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله . لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس" . والواضح أن كلمة servant الإنجليزية تعني في هذا السياق العبد (عبد الله) أي الإنسان مثلاً تعني الخادم في سياقات أخرى ، وهكذا فالعباد هم الناس ، والفكرة عسيرة على غير المؤمنين بالعقيدة المسيحية .

٢١٦- لاحظ المعنى الرمزي للوالد هنا ، أو الأب ، فجميع المؤمنين بالمسيح يدعون أبناء الرب ، وهناك نص في الرسالة إلى العبرانيين (٧/٢) ربما كان ميلتون يشير إليه وهو "أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله" ، ومازلنا نشير إلى "آباء الكنيسة" بمعنى رجال الدين .

٢١٦-٢٢٣ يشير ولييت في الكتاب المذكور في الحاشية على السطور ١٦٤ - ١٧٤ عاليه ، إلى ما قيل من أن الله قتل الحيوانات وكسا بجلودها آدم وحواء "رمزاً" . . . لستر عرى النفس بالتوبة" رافضاً هذا القول ، ويورد بعض أسباب ما حدث قائلاً إن من بينها تعليم الإنسان كيف يهتم بجسده ، وستر عريه بلباس الحشمة *vestimenta honoris* ، وتعليم الإنسان القتل لصنع الملابس ، ولتذكيره بالفناء . ولكن هذه التفسيرات تخرج بنا عن السياق الشعري الذي تقع فيه الصورة ، فستر الجسد رمز للستر بصفة عامة ، وارتداء ثياب العفة صورة شعرية شائعة ، كما كان الشعر الديني يحفل بصورة اكتساء المرء ثياب الصلاح والتقوى . ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك قصيدة "يوم الأحد" للشاعر جورج هيربرت التي يقول فيها :

The brightness of that day
We sullied by our foul offence
Wherefore the robe we cast away
Having a new one at his expence
Whose drops of blood paid the full price
That was requir'd to make us gay
And fit for paradise

وترجمتها

في وقدة النهار والضياء
تلطخ الرداء
بفعلة شتءاء
والآن ألقيناه واسترنا
بسترة جديدة أتى بها لنا
مسدداً كل الثمن
بالقطر من دمه
وهو الذي لا بد منه
حتى يكون الفرح نهلاً
ونحن للفردوس أهلاً

وأما مصدره من الكتاب المقدس فهو سفر إشعياء ١٠/ ٦١ "أفرح فرحاً بالرب ، تبتهج نفسي بإلهي لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص ، كساني رداء البر مثل عريس يتزين بعمامة ومثل عزوس تتزين بحليها" وقد سبق استعمال ميلتون لصورة رداء الطهر والبراءة في الكتاب التاسع في السطور ١٠٥٤ - ١٠٥٩ وفي السطور ١٠٧٤ - ١٠٧٦ .

٢٣٠ - اعترض أديسون على الحدث الرمزي الذي يبدأ هنا ويستمر على امتداد أبيات كثيرة قائلاً إنه لا يلائم طبيعة الملحمة ، ولكن نقاداً آخرين ردوا قائلين إن جانباً كبيراً من قصيدة ميلتون تقع أحداثه في

العالم الخفى ، وإذا كنا قد قبلنا تصوير الملائكة والشياطين وما يدور بينهم من حوارات فلماذا لا نقبل تصوير المجردات فى صور حسية ؟ وقد سبق تصوير الموت والخطيئة فى الكتاب الثانى من الملحمة .

٢٤٤ - انظر الأبيات ١٠٠٩ - ١٠١١ من الكتاب التاسع حيث يصور ميلتون آدم وحواء وهما فى نشوة الخطيئة "يتوهمان أنهما يحسان أن / الربوبية فى باطنهما تنسج لهما أجنحة يطيران بها / فيطلان على الأرض من عل" ، ويقول النقاد إن الأجنحة تنمو للزوجين وللخطيئة معاً وفى الوقت نفسه ، بمعنى أن الحبكة الثانوية الخاصة بالخطيئة لا تمثل حدثاً مستقلاً بل هى معالجة للحدث نفسه (الحدث الرئيسى) بأسلوب فنى مختلف ومن وجهة نظر مختلفة ، وميلتون يشير إلى ذلك من طرف خفى عندما يقول فى السطر ٢٢٩ "وفى أثناء ذلك" ملمحاً إلى أن ارتقاء الخطيئة متزامن مع سقوط الإنسان .

٢٥٢ - ٣٢٣ المعروف أن تقاليد الملحمة الكلاسيكية تتضمن بناء صرح أو مدينة ، مثل بناء قرطاجنة فى ملحمة الإنيادا لفيرجيل (١/٤٢٣ وما بعده) وتزخر الفردوس المفقود بأعمال إنشائية كثيرة ، فالله سبحانه يخلق الخلق كله (فى الكتاب السابع) والشياطين يبنون قصر الشياطين بانديمونيام (الكتاب الأول) والجسر الممتد فوق العماء هنا (١٠) .

٢٥٣ - ٢٥٤ انظر الحاشية على السطر ٣٩ .

٢٦١ - تستخدم الخطيئة المصطلح اللغوى الخاص بالفكر الشيطانى ، ومن أهم ما يبرز فى هذا المصطلح مفهوم 'الأقدار' (بمعنى 'النصيب' أو 'القسم' أو 'المكتوب') ولقد استخدم آدم اللفظ نفسه فى الكتاب التاسع (٩٥٣) وحواء (٨٨٢) فى الكتاب نفسه .

٢٦٤ - 'الظل الناحل' - عادة ما كان الموت يُصور فى صورة هيكل عظمى أو جسم يبلغ أقصى درجات الهزال والنحول .

٢٦٨ - ٢٧٠ 'وأندوق / طعم الموت' إشارة غير مباشرة ، تتضمن تورية ساخرة ، إلى ما سبق أن ورد فى الكتاب التاسع حين خاطب آدم حواء بعد السقوط ، ملاحظاً ، قائلاً بإنها تتسم

بدقة الذوق

والتأتى ، ونصيبك من الحكمة ليس ضئيلاً

مادمنا نحدد لكل مذاق معنى

ونصف حاسة الذوق بالحكمة

(١٠١٧/٩ - ١٠٢٠)

إذ يشير آدم هنا إلى ما سبق أن ذكر عن عدم خلط مذاق بمذاق عند إعداد العشاء للملاك روفائيل (الكتاب الرابع ٣٣٢ - ٣٣٦) ووصفها بالحكمة هنا فيه نقض لما فعلته حين ضحّت بالطاعة فى سبيل حاسة الذوق ، مما يدل على تدهور النسق القيمى لدى آدم بعد السقوط ، ولذلك فإن الأبيات التى يقول فيها الموت إنه 'يتذوق طعم الموت' تعتبر مكتملة أو موضحة لطبيعة ذلك المذاق الذى تغنى به آدم من قبل ، وهذا واضح فى صلب حدث الملحمة ، لأن مذاق الثمرة المحرمة كان مذاق الموت ، مما

دفع ناقدة اسمها كستر سفندن إلى إقامة تماثل رمزي بين الموت وحواء ، في كتاب عنوانه ميلتون والعلم وهي تورد (في صفحة ١٢٨) مقتطفات من كتاب كتبه سباستيان فرانك (Sebastian Franck) عام ١٦٤٠ بعنوان "الثمرة المحرمة ، أو مقال حول شجرة المعرفة بالخير والشر التي أكل منها آدم أولاً ، وغدا البشر حتى الآن يأكلون منها طعام الموت" .

(The forbidden fruit, or a Treatise of the tree of knowledge of Good and Evil which Adam at first, and as yet All Mankind doe eate death)

ويقول فرانك في بعض هذه المقتطفات إن جميع البشر ، مثل حواء ، "يأكلون طعام الموت ومع ذلك ... يظنون أنهم يأكلون طعام الحياة ، آمليين أن يصبحوا أرباباً ،" وتقول الكاتبة تعليقاً على ذلك إن حواء تلتهم الثمرة المحرمة بأسلوب يذكرنا بالموت نفسه ، "فإطلاق الشهية المتطرفة في العالم يأتي بالموت الذي يلتهم الناس فلا يشبع نهمه" .

٢٧٢ - ٢٧٨ سبق أن ورد تشبيه إبليس بالنسر في الكتاب الثالث ، السطر ٤٣١ وما بعده ، وأما اعتبار المتوقع حاضراً (Prolepsis) وهي حيلة بلاغية قديمة تعني الإشارة للمستقبل باعتباره قد وقع فعلاً "مادام توقعه قائماً ومؤكداً) وهو ما نقرؤه في تعبير "الجثث الحية" فيقول أحد النقاد إنه ربما كان مستوحى من 'بلينيوس' (Pliny) في كتابه التاريخ الطبيعي (٧/١٠) - وهي العبارة التالية :

triduo antea volare eos ubi cadavera futura sunt

٢٨٩ - ٢٩٣ (١) المحيط القطبي الشمالي هو المحيط المتجمد الشمالي (The Arctic Ocean) والذي اشتهر باسم البحر المتجمد فحسب *mare concretum* (التي قد تعني أيضاً البحر الصلب) وهو يرد في النص باسم (The Cronian Sea) ويقول النقاد إن اختياره في هذا التشبيه ملائم للموت الذي يجمد الحياة .

(ب) الممر المائي المتخيل : في عام ١٦٠٨ قام رحالة يدعى هدسون (Hudson) بالبحث عن ممر مائي تخيل الناس وجوده في الشمال الشرقي بحيث يوصل الملاح إلى (قيطان) ولكنه لم يجد منفذاً وسط الجليد .

(ج) "بتسورا" أو بتشورا نهر في سيبيريا ذكره ميلتون في دراسة أسماها "موجز تاريخ بلاد الموسقو" (أي روسيا) .

(د) "قيطان" مملكة مغولية قديمة ، ورد اسمها في الأطلس التاريخي ، ولها اسم آخر هو "خيطان" ولكن ميلتون يوردها في النص باسم (Cathay) (انظر السطر ٣٨٨ من الكتاب الحادي عشر) وكانت تعتبر مملكة مستقلة عن الصين وإلى الشمال منها . ووصفها بالثراء يوضح مرمى التشبيه ، لأنها تمثل الفردوس .

٢٩٣ - ٢٩٦ 'بحريته الصخرية' تعبير يماثل ما ورد في مسرحية "مأساة دايدو" التي كتبها كريستوفر مارلو (بالاشتراك مع ناش) قبل نحو قرن من الزمان ، في الفصل الثاني ، المشهد الأول ، السطر ١١٥ ، ألا وهو أن "للموت الشاحب حرية حجرية" والواقع أن الكلمة الانجليزية mace قد تعني الصولجان أيضاً ، ولكن الإشارة هنا واضحة إلى السلاح ذي الرأس الذي كان القدماء يستخدمونه في الحرب وكان يشير رمزياً إلى الدمار الكامل ، ومن ثم فهو يتناقض في دلالاته مع قوة الخلق الإلهية ، ووصفه بالصخرى أو الحجري يعنى أنه يتسبب في التحجر لا أنه صنع من الحجر ، ولم أستطع ترجمة الصفة "بالمحجر" لصعوبة فهمها وعدم شيوعها ، والنسبة في الانجليزية ، على أية حال ، تسمح بكل من الدلالاتين سواء ما ورد في ميلتون (petrify) أو في مارلو (Stony) .

(ب) ديلوس (Delos) جزيرة رفعها 'نبتون' (Neptune) إله البحر بحريته ذات السنان الثلاثي من وسط الماء حتى تساوى إليها 'لاتونا' (Latona) وتضع فيه مولوديهـا 'أبولو' (Apollo) و 'ديانا' (Diana) ، وظلت جزيرة طافية (أى متقلة) حتى ثبتها 'جوبيتر' (Jupiter) بالسلاسل إلى قاع البحر . وقد سبقت الإشارة إلى ديلوس وربطها بالفردوس رمزياً باعتبارها مأوى آدم وحواء ، في الكتاب الخامس (٢٦٥) والكتاب التاسع (٣٨٧) حيث يكتفى عن 'ديانا' بأنها 'بنت جزيرة ديلوس' (Delia من Delos) .

(ج) الرمح ذو السنان الثلاثي ذو دلالتين متنازعتين ، الأولى هى التشبيه بـ 'نبتون' الذى يتحكم فى الأمواج ، وهى دلالة تتضمن الثبات والسلام ، والثانية هى ارتباط الرمح ثلاثى السنان ببليس ، فأساناته الثلاثة ترمز لثلاثية الجحيم (الشیطان والخطيئة والموت) .

٢٩٦ - ٢٩٨ جرجونية 'الجرجونات' (Gorgons) كائنات خرافية كنّ إذا نظرن إلى أحد حوكنه إلى حجر ، وكانت 'ميدورا' (Medusa) جرجونة ، وورد فى الأوديسية (الصيغة التى يفضلها الدكتور أحمد عثمان لترجمة عنوان ملحمة الأوديسا) أن أوديسيوس (أوليس) (Ulysses) Odysseus كان يتحاشى نظرتها إليه خشية تحويله إلى حجر . انظر الحاشية (رقم ٧٠) على السطر رقم ٦١١ من الكتاب الثانى .

٣٠٧ - ٣١١ سوسه ، فى تونس الحالية ، كانت المقر الشتوى للملك الفرس ، وكانت أحياناً تسمى "ممنونيا" أو "الممنونية" (Memnonia) نسبة إلى 'ممنون' ، ابن 'تيتونوس' (Tithonus) و 'أورورا' (Aurora) ، الذى كان يقيم فيها . والتشبيه يتضمن أوجه شبه كثيرة ، فالموت وأرتخششا (Xerxes = Artaxerxes) يبني كل منهما جسراً ، وكل منهما يعتزم اخضاع أمم برمتها ، وكلاهما متكبر ، وكلاهما 'يضرّب البحر' . ويقول أحد النقاد إن أهم ما يربط الموت 'بأرتخششا' إشارة مضمرة إلى قصة شهيرة فحواها هو أن ذلك الملك بكى وهو يستعرض جيشه عندما تذكر أن هذه الحشود كلها قد كتب عليها أن تموت وسوف تختفى فى غضون قرن واحد ويلاحظ القارئ أن كثيراً من الصور الفنية مستقى من السياقات الحربية فى مواطن الحديث عن الأشرار .

٣١٣ - 'فى تشييد الجسور' - الأصل هو pontifical وهى تورية مبنية من الكلمتين اللاتينيتين pons

(جسر) و *facere* (يصنع) ولكن المعنى المعتاد للكلمة وهو 'أسقفى' مقصود أيضاً، والدلالة المضمرة، وهى أن الكهنة بارعون براعة الموت والخطيئة فى تمهيد الطريق للجحيم ، تستمد قوة التورية الساخرة من اللقب الذى يطلق على البابا وهو *pontifex* والذى كان يفسره العلماء بأنه ينهض بدور بابى الجسور بين هذا العالم والعالم الآخر . (معجم الرموز *A Dictionary of Symbols* الذى وضعه J. E. Cirlot وترجمه جاك سيج Jack Sage عام ١٩٦٢ ونشر فى لندن) .

٣١٦ - 'أول مرة' تشير إلى السطور ٤١٨ - ٤٢٢ من الكتاب الثالث .

٣٢١ - ٣٢٤ كانت الحدود (التخوم) القديمة للسماء والعالم (الكون) تلتقى دون فواصل ، ولكن الطريق إلى الجحيم أصبح الآن ذا عوائق ، وأما الطرق الثلاثة فهى : سلم المعراج إلى السماء (الكتاب الثالث - السطر ٥١٠ وما بعده) والممر الممتد عبر الغلاف الخارجى المصمت للكون وحتى الأرض (الكتاب الثالث - السطر ٥٢٦ وما بعده) وأخيراً هذا الجسر الجديد . واليسار (٣٢٢) دلالة على الجانب الشرير الذى يوضع فيه الفاسقون ، بناءً على المثال الوارد فى إنجيل متى (٣٣/٢٥) "فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار" .

٣٢٨ - ٣٢٩ يختلف الشراح اختلافاً كبيراً فى تحديد مسار إبليس بين كوكبات النجوم وبين البروج ، كأنما يحققون نصاً علمياً ، وأهمهم فيريتى *Verity* وهيوز *Hughes* (فى طبعته لأعمال ميلتون الصادرة فى نيويورك عام ١٩٥٧) اللذان يرددان مقولة نيوتن من أن إبليس يحاول تفادى اكتشاف الملاك 'أوريل' (*Uriel*) له فيتخذ مساراً يتعده به كل البعد عنه ، قائلين إنه لما كانت الشمس آنذاك فى برج الحمل فإن إبليس يتخذ مساراً "بين كوكبتين فى بقعة أخرى من السماء" . ولكن قاولر يرد على ذلك القول واصفاً إياه بالخطأ قائلاً إنه لو كان قد ابتعد قدر الطاقة عن نظر 'أوريل' لما احتاج إلى التنكر ، ثم يثبت من واقع النص أن إبليس يدخل العالم من برج الميزان ويخرج منه بين برج العقرب وبرج القوس .

٣٣٧ - المقصود بالأردية (جمع رداء) هو ما استتر به آدم وحواء (فى الكتاب التاسع ١١١٠ - ١١١٤) والأوان التظاهر والذرائع (الكتاب العاشر السطر ١٦٦ وما بعده) .

٣٤٢ - "ليلاً" : المقصود فى الليلة التى رفع فيها آدم شكواه .

٣٤٤ - ٣٤٥ أى أنه استمع إلى تذكر آدم للجنة وتفسيره إياها فى السطر ١٠٣٠ وما بعده .

٣٥٨ - 'قوة التوافق الخفية' هى قوة 'الانجذاب' أو 'القوة الفطرية' المشار إليها فى الأبيات ٢٤٦ وما بعدها عليه .

٣٦٥ - هذا تفاخر أجوف وكاذب بدليل ما ورد فى الأبيات ٢٠٩ - ٢١٣ من الكتاب الأول و ٨٠ - ٨٦ من الثالث . وقد سبقت الإشارة إلى دلالة الثلاثية الجهنمية .

٣٧٩ - انظر الكتاب الرابع ، السطر ١١١ : "سأتناسم ملك الكون مع ملك السماء" .

٣٨١ - انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (١٦/٢١) حيث يرد وصف أورشليم الجديدة : "والمدينة كانت موضوعة مربعة طولها بقدر العرض . فمقاس المدينة بالقصبية مسافة اثني عشر ألف غلوة الطول والعرض والارتفاع متساوية" . أما العالم (الكون) فتكرر الإشارة إلى أنه 'دائري' في الفردوس المفقود ، وانظر مثلاً الكتاب الثالث ، السطر ٧١٨ وما بعده (حيث يتحدث 'أوريل' عن الخلق) وترد في السطر ٧٢٠ إشارة إلى 'الجدار المستدير' وكلمة 'الكرة' في السطر ٧٢٢ .

٣٨٤ - 'ولدى - وحفيدي معاً' - لأنه ثمرة علاقات إبليس الأئمة بالخطيئة وهي ابنته .

٣٨٦ - 'الخصومة' - لأن كلمة شيطان تعني في اللغة السامية الأم (Protosemitic) 'الخصم' ، وقد انتقل المعنى إلى بعض اللغات السامية المتفرعة منها . وكلمة 'شت' (القريبة من 'شط' بمعنى الجهة المقابلة) ربما كانت ذات علاقة قديمة بكلمة 'ست' المصرية وهي اسم رمز الشر عند المصريين القدماء ، على نحو ما يذهب إلى ذلك الدكتور لويس عوض ، وربما كان في العربية بعض من المعنى القديم لا في 'الشت' فقط بل في 'الشطط' وفي شط واشتط (بمعنى بُعد عن الحق - اللسان) وفي القرآن "وَلَا تُشْطِطْ" (ص - ٢٢) و الشَطَطُ (الكهف - ١٤) (الجن - ٤) ومن ثم فإن 'الشيطان' قد يتصل بمادة الكلمة في العربية أيضاً .

٣٩٩ - ٤٠٢ انظر الكتاب الثاني ٨٣٩ - ٨٤٤ وانظر رومية (١٤/٥ ، ١٧ ، ٢١) : "لكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى" ، "لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد" ، "حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا" . وأما تعبير 'استعباده' (٤٠٢) فهو يستند إلى ما جاء في إنجيل يوحنا (٨/٣٤) "إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية" .

٤٠٧ - انظر رومية (١٢/٥) "من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع" .

٤٠٩ - محاكاة ساخرة مريرة لأمر موسى عليه السلام إلى يشوع باصطحاب بني إسرائيل إلى الأرض الموعودة وامتلاكها (تثنية ٧/٣١ وما بعده) ولكن مصدر المفارقة هنا هو أن الخلاص سوف يجعل الموت سبيلاً إلى الأرض الموعودة وهي الفردوس ويلاحظ النقاد أن تقاليد الاحتفال بالنصر والغلبة مستقاة في هذه الملحمة من التراث الروماني الحربي والسياسي ، وهكذا يستخدم ميلتون كلمة (detriment) بمعنى 'الضرر' في هذا البيت التي كانت تعني مؤاخذه القنصلين اللذين تفوض إليهما السلطة المطلقة في روما في أوقات الأزمات فقط ، فقد يأمران أو يأمر أحدهما يقتل أحد الأشخاص فلا يضار (لا يصيبه الضرر) بسبب السلطة المفوضة إليه ، وإن كان عليه أن يبرر ذلك قانوناً .

٤١٣ - 'الخسوف الحقيقي' يعني أن ضوءها غام فعلاً لا بسبب الاحتجاب خلف كوكب آخر ، ويلمح ميلتون هنا إلى أن 'الطمس' قد يكون بسبب الاصطدام ببعضها البعض لا بسبب الظاهرة التي يرصدها الرائي فسي مكان ما ولا يرصدها راء في مكان آخر ، وأما معنى 'العدوان' فهو التأثير الضار ، أو 'الخيث' الذي كان يُظن أن الكواكب تمارسه على بعضها البعض .

٤١٨ - فى الأصل [العُمْد] 'التي ازدرت غضبته'

(That Scorned his indignation ...)

ويقول فاوُلر إن ذلك ربما يكون مستمداً من قول فيرجيل فى *The Georgics* (الزراعات) إن المحيط كان غاضباً من قيام لوكرين ببناء حاجز أمواج على الشاطئ .

٤٢٠ - اسم الموصول للمثنى يرجع إلى الخطيئة والموت .

٤٢٧ - 'الكبراء' هم 'شيوخ ملائكة الصاروفيم والشاروبيم' الذين التقوا فى الركن القصوى من القصر فى الكتاب الأول ٧٩٤ وما بعده .

٤٣١ - ٤٣٩ ١ - مدينة "أستراكان" (Astracan) كانت عاصمة لمملكة من ممالك التار تحمل الاسم نفسه ، وتقع بالقرب من مصب نهر الفولجا ويكثر ميلتون من الإشارة إليها فى كتابه عن تاريخ روسيا الذى سبق الإشارة إليه .

ب- ملك الفرس : فى الأصل Bactrian sophy والصفة تعنى الفارسى وأما 'صوفى' فهى تحريف للاسم 'صافى الدين' (الذى شاع بدلاً صفى الدين) ، وهو اسم الأسرة الحاكمة فى بلاد الفرس من مطلع القرن السادس عشر تقريباً حتى عام ١٧٣٦ ، وهى أسرة أو دولة الصفويين ، أو الدولة الصفوية .

ج- قرنى الهلال التركى : لا تقتصر إشارة الهلال إلى العلم التركى بل تتعداه إلى التشكيل الحربى لكثائب الأتراك ، فهى تورية .

د - مملكة أرمينيا الكبرى : فى الأصل ((The realm of Aladule)) والمقصود بها أرمينيا والأراضى التابعة لها ، أى الخاضعة لحكمها .

هـ- تبرز هو الاسم الحديث لمدينة 'نوريز' القديمة (بقلب الباء واواً) .

و - قزوین مدينة تقع شمالى طهران وينسب إليها البحر المعروف ، وللإسم عدة أشكال قديمة ، مثل Casbeen (الموجود فى نص ميلتون) و ((Kazvin)) .

٤٤٤ - 'بلوتو' هو حاكم العالم السفلى فى الأساطير الإغريقية .

٤٤٨ - كان من دواعى دخول إبليس متخفياً هو التحقق من مدى ولاء أتباعه .

٤٥٠ - ٤٥٢ استدعاء صورة إبليس الأولى يقصد به إبراز التناقض إلى أقصى حد بينها وبين صورة الثعبان الذى حوّل إليه .

٤٥٧ - استعمال لفظ 'الديوان' يستدعى إلى الذهن مجلس الدولة الشرقى وهو ما يساعد على استمرار الصور الشرقية السابقة ودلالاتها .

٤٦٩ - ٥٠٢ يقول دنيس بيردن في كتابه عن الملحمة المنطقية (١٩٦٧) إن هناك "ملحمة شيطانية" تجري أحداثها بالتوازي مع أحداث ملحمة ميلتون ، ويؤيده فاوئر مستشهداً بهذه الآيات التي يستعرض فيها إبليس الأحداث التي وقعت حتى تلك اللحظة في صورة ملخص جذاب وبذلك يدعو الشياطين (والقارئ) إلى أن يظن أنه بطل للمحمة بطولية زائفة ، وأنهم أيضاً يشاركون فيها .

٤٧١ - 'اللجج الهيولة' : الصفة في الأصل هي (unreal) وهي لا تعني هنا 'الوهمية' بل تعني التي لا شكل لها ومن ثم فهي ليست مادية بالمعنى المفهوم ، وهنا يكشف إبليس عن إيمانه بالصورة التي تهب المادة حقيقتها ، فكأنما يدين نفسه بعد أن تحول من صورة إلى صورة في ثنايا الملحمة ، أي كأنما يصف نفسه بأنه أصبح أقرب إلى 'الهيولة' بعد أن عصى الله .

٤٧٧ - ٤٧٩ 'القديم' أي غير المخلوق أو الأزل ، وانظر البيت ٩٦٢ من الكتاب الثاني حيث توصف ربة الليل بأنها 'أكبر الأشياء سناً' ، ولكن لا الليل ولا العماء عارض إبليس ، بل إن العماء قد ساعده في الواقع - انظر الآيات ١٠٠٢ - ١٠٠٩ من الكتاب الثاني .

٤٨١ - ٤٨٢ سبق ذكر الشائعات من قبل في الكتاب الأول ٦٥١ - ٦٥٤ ، والثاني ٣٤٦ - ٣٥٢ ، والسابع ١٤٥ - ١٥٦ .

٥١٧ - 'الحكم الصادر عليه' هو في الحقيقة الحكم الصادر على الشعيان (انظر الحاشية على الآيات ١٦٤ - ١٧٤ عليه) وهو ينفذ الآن تنفيذاً حرفياً ، ويقول بعض النقاد إن المسخ يجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً باعتباره عقوبة فحسب ، إذ إنه في الواقع حكم من جانب الله على طبيعة إبليس ودحض لما زعمه من قبل من أنه بطل مغوار ، فالمسخ تجسيد لحقيقة معاداة إبليس لخصال البطولة أو عدم قدرته على التحلي بها ، وأهم من قال بهذا هو جون ستيدمان في مقال بعنوان 'فضيلة البطولة والصورة الإلهية في الفردوس المفقود' ، ونشره في مجلة معهد واربورج وكورتولد عام ١٩٥٩ وهذا الانقلاب في المصير (peripeteia) ذو طابع درامي غلاب إذ ما يكاد الشياطين يصلون إلى تصور أنهم أبطال في ملحمة إبليس حتى نتين أنهم وحوش في ملحمة الله . ويقول هيوز في طبعته لأعمال ميلتون الكاملة إن الفكر الديني والفكر الفلسفي يلتقيان هنا - أي عند نقطة الانقلاب المذكورة - مستشهداً بما يقوله جاكوب بيمه (Boehme) تفسيراً لمعنى التحول من النورانية إلى الوحشية .

٥٢٤ - ٥٢٦ وصف أنواع الشعابين مدرج في الترجمة - على اقتضابه في الأصل - ولكن القارئ قد يفيد من تعليق هيوز على دلالة أنواع الشعابين على خصال معينة ، من باب الطرافة لا غير ، فميلتون لا يقصد التحليل العلمي أو التاريخي أو النفسي لدلالة أنواع الشعابين في تراث الإنسانية ، بل هو يقصد 'الخلط' بينها لا التمييز ، على نحو ما يتضح في السطر ٥٢٣ ، فبعضها له حمة العقرب ورأس أصلة ، وبعضه له ذيل الصل ورأس القرناء وهكذا . والطريف أن الأستاذة كستر سفندن تفصل القول تفصيلاً في خصال تلك الشعابين ودلالاتها مستشهدة (في صفحة ٣٥ وما بعدها) بكتاب كتبه باحث اسمه توبسيل (Topsell) بعنوان تاريخ الشعابين عام ١٦٠٨ . وربما يكون ميلتون قد اطلع

على ذلك الكتاب ، ولكن حشده للشعابين بأنواعها يرمي إلى إساءة صور التشوه لا الصفات المفردة المميزة لكل منها .

٥٢٦ - ٥٢٧ يقول فالولر "عندما كان بيرسيوس (Perseus) عائداً وهو يحمل رأس ميدورا المقطوعة ، وقعت قطرات من دمها على الأرض ، وهو ما يفسر سبب امتلاء ليبيا بالشعابين" . انظر أوفيد مسخ الكائنات ٦١٧/٤ - ٢٠ ، كما يزعم لوكان (Lucan) أن عدداً من أنواع الأفاعي وجد بهذا الأسلوب .

٥٢٨ - "أوفيوزا" (Ophiusa) تعني حرفياً 'الحافلة بالأفاعي' [من اليونانية 'أفيس' التي تعني الثعبان (O'Pis)] وقد أطلق هذا الوصف على كثير من الجزر ، من بينها جزيرة رودس (Rhodes) .

٥٢٩ - ٥٣٢ إنبات الأصلية من الطين ، أو مولد ذلك الثعبان الضخم من الأرض التي غمرتها المياه وانحسرت عنها ، فكرة ترجع إلى مسخ الكائنات لأوفيد ، ولكن ميلتون لا يذكر الأصلية دون أن يذكر قتل أبولو إيساها ، هنا وفي سائر شعره ، وسيلاحظ القارئ أن ميلتون يشير إلى الأصلية باسم التنين أولاً ، ليوارى بينهما ، في وصف إيليس ، مستلهماً في ذلك الكتاب المقدس "فطرح التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو إيليس والشيطان الذي يضل العالم كله" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٩/١٢) .

٥٣٥ - 'الاستعراض' معناه استعراض رئيسهم إياهم ، أي أنهم عرضوا عليه .

٥٤٦ - انظر هوشع (٧/٤) "على حسبما كثروا هكذا أخطأوا إلى فأبدل كرامتهم بهوان" .

٥٥٦ - 'العطش الحارق والجوع الضاري' الذي يكابده الشياطين هنا - إلى جانب الأصداء الواردة في السطور ٤٣٢ و ٥٣٧ ، ٥٦٠ - عقاب يشبه عقاب طانطال (Tantalus) الذي وضع في ماء يعلو حتى يلامس شفثيه ثم يتحسر عنه ، وهو يذكرنا بعقابهم الذي وقع في الكتاب الثاني (٥٩٦) وما بعدها) وأما العقاب بالمنسخ فهو يتزل بهم على فترات متباعدة (انظر السطر ٥٧٥ وما بعدها من هذا الكتاب) وقد كتب جون ستيدمان مقالاً ممتعاً في مجلة فقه اللغة الإنجليزية والألمانية عام ١٩٦٥ بعنوان "طانطال وتفتح البحر الميت" (وأدرج المقال بعد ذلك في كتاب صدر عن ميلتون في ٢٠٠١) يقول فيه إن هناك مزجاً بين أسطورة طانطال وبين عقوبة الشياطين في ملحمة ميلتون ، ويحلل ذلك المزج تحليلاً وافياً ، والواضح من دراسته أن العقوبة الطانطالية هي عقوبة المثل بالمثل (العين بالعين والسن بالسن) .

٥٦٠ - "ميجيرا" (Megaera) هي إحدى ربات القصاص اللاتي يعاقبن مرتكب الخطيئة ، انظر البيت ٥٩٦ من الكتاب الثاني والحاشية عليه . وعادة توصف هذه الربيات بأن شعر رأسها من الحيات .

٥٦٢ - 'البحر الميت' - في الأصل (bituminous lake) أي بحيرة القار السائل ، فالبحر الميت يقع بجوار سدوم التي عوقب أهلها الذين كانوا يمارسون اللواط بالحريق ، والإشارة هنا إلى كتاب المؤرخ يوسفوس (Josephus) وعنوانه الحروب (٤/٨) حيث يقول إن آثار النار التي أحرق بها الله سدوم

ما زالت قائمة ، مثل وجود الرماد في الفاكهة "وهي فاكهة تبدو للناظرين ناضجة شهية للطاعمين ، فإذا قطعت ثمرة بيدك تفتت وصعد منها الدخان وانتثر الرماد" (مقتبس من كتاب كستر سفندن المشار إليه ، في صفحة ٢٨ و ٢٩) ويضيف فاو لير أن ميلتون يشير إلى تلك الرواية كأنها كان الجميع يعرفونها ، ويحدد المصدر الأساسي للفكرة قائلاً إنه سفر التثنية ، الأصحاح الثاني والثلاثون : "لأن من جفنة سدوم جفتهم ومن كروم عمورة . عنبهم عنب سم ولهم عناقيد مرارة خمرهم حمة الشعابين وسم الأصلال القاتل" (الآيتان ٣٢ و ٣٣) ويعلق على ذلك قائلاً إن إشارة موسى عليه السلام إلى 'جفنة (نيبذ) سدوم' ، معناها أن شعب إسرائيل قد أصبح فاسداً وبلغ العفن باطنه .

٥٥٦ - ٥٧٠ هذا هو التحقيق الحرفي للغة الصادرة على الشعبان في السطر ١٧٨ من هذا الكتاب نفسه ، ويناقش توسيل في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه الخطأ الشائع الذي يقول إن الشعابين لا تأكل سوى التراب - ويضيه .

٥٧٨ - ٥٨٤ هذه الآيات مبنية على ما ورد في ملحمة الأرجونوتيكا (Argonautica) (ملاحو السفينة 'أرجو') التي كتبها أبولونيوس روديوس (Apollonius Rhodius) (السيندري) في القرن الثالث الميلادي ، في الكتاب الأول (السطور ٥٠٣ - ٥٠٩) حيث ينشد أورفيوس (Orpheus) عن زواج 'أوفيون' (Ophion) (الكلمة اليونانية المشتقة من اسم الشعبان السابق ذكره) من 'يورينومي' (Eurynome) ومعناه واسعة السلطة ابنة أوقيانوس (Oceanus) (المحيط) حكما الكون من قمة جبل الأوليمب (Olympus) ، ثم خضع الأول 'لكرونوس' (Cronos) (ساتورنوس) (Saturnus) عند الرومان) أو الزمن ، وخضعت الثانية لـ "ريا" (Rhea) (أوبس) (Ops) عند الرومان أو ربة الوفرة والثراء) (عن معجم أكسفورد الكلاسيكي) : ثم تولى خليفتاهما حكم شعب 'التيان' (The Titans) وإن "استمر زيوس (Zeus) مقيماً في كهف دكتايوس (the Dictaeon cave) " . وفي عام ١٩٥٥ أصدر باحثان (هما ستارنز وتولبرت Starnes & Talbert) كتاباً عن الأساطير الكلاسيكية يصححان فيه بعض ما أورده فيرنتي وهيويز من نسبة هذه السطور إلى أبولونيوس ، إذ يقولان إن ميلتون يمزج بين 'أوفيون' الذي أورده 'أبولونيوس' بشخصية أخرى ، أحد أصدقاء كادموس (Cadmus) ، وهو أحد الذين ولدوا من أسنان الشعبان :

(ideoque et nomen habet a serpente, qui Graece O'φ ls dicitur)

(عن معجم المعاني الذي وضعه ستيفانوس) ويعلق أحد النقاد على ذلك قائلاً إن تحديد الطبيعة الشعبانية لأوفيون يسير بالرجوع إلى مصادر أخرى ، ويفصل فاو لير القول في الدلالات الشعرية لاستلهاً هذه المصادر الكلاسيكية .

٥٨٤ - 'دكتايوس' هو جبل في جزيرة كريت قضى جوينشر فيه طفولته ، وكان اسمه الأول ديكتي Dictae أما دكتايوس Dictaeus فكان أحد القبابه .

٥٨٦ - ٥٨٧ - "من حيث القوة / ومن حيث الفعل" تعيران فلسفيان يوازيان تعيري "بالقوة وبالفعل" عند إخوان الصفاء ، وأما معنى الأول فهو potential ، وهو يرد هنا في نص ميلتون في صورة (in power) وأما معنى الثاني فهو actual وميلتون يستعمل المصطلح الفلسفي نفسه ، أي إن

الفردوس قد شهدت إمكان حلول الخطيئة بها ، في نوازع آدم وحواء الفطرية ، وهكذا يعتبر أن الخطيئة قد زارتها من حيث القوة ، وقد تحاشيت استعمال المصطلح الفلسفي العربي القديم خشية اختلاطه بالمصطلح المعاصر الذي يعنى عَنوةً (by force) ، وثم زارتها الخطيئة بالفعل أو من حيث الفعل (ليتوازي مع التعبير الأول) حين ارتكب آدم وحواء الخطيئة فعلاً ، وهي الآن تزور الفردوس بجسدها ، وتعبير "جسد الخطيئة" هو تعبير القديس بولس . انظر مثلاً رومية (٦/٦) "عالمين أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطيئة كي لا نعود نستعيد أيضاً للخطيئة" وميلتون يميز بين الخطيئة الفعلية (بالفعل / من حيث الفعل) - وهي ثمرة فعل الإرادة الحرة - وبين الخطيئة الأولى أى الفطرية ، وهي حال الميل إلى الخطأ الذي يولد به الإنسان ، ويقول ذلك في كتابه عن العقيدة المسيحية بالفاظ صريحة .

٥٨٩ - ٥٩٠ انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي ٨/٦: "ونظرت وإذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه وأعطيا سلطاناً على ربع الأرض أن يقتلا بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض" أما لماذا لم يركب الموت فرسه حتى الآن فهو لأننا في بداية التاريخ لا في نهايته .

٦٠٠ - 'الجلد الفضااض' - الأصل هو (unhide-bound) وهو تعبير ينفرد به ميلتون إذ لا يورد معجم أوكسفورد الكبير (O. E. D) مثلاً على أحد استعماله قبل ميلتون أو بعده ، وأما المعنى فهو غريب ، إذ يعكس ميلتون المعنى بأداة النفي وهي البادئة un- في الصفة المركبة hidebound أى الذى التصق جلده بعظمه لنحوله وهزاله ، فيجعل الجلد فضاضاً فوق العظم ، دون وجود لحم تحته !

٦٠٢ - انظر الكتاب الثانى - السطر ٧٩٠ وما بعده .

٦٠٦ - أعرب روفائيل قبل سقوط الإنسان عن أمله فى أن يرتقى الإنسان عالم الروح 'بمرور الزمن' . ولكن الزمن أصبح الآن قوة مدمرة . وقد كتب إروين يانوفسكى كتاباً عنوانه دراسات فى علم الصورة عام ١٩٦٢ ناقش فيه تفصيلاً تصوير الزمن فى الفن والأدب وتوقف طويلاً (من ص ٦٩ - ٩٤) عند صورة منجل الزمن .

٦١١ - "أو للتسبب فى فناء" : فى الأصل : 'or unimmortal make' وهي صفة ينحتها ميلتون لأول مرة بإلحاق البادئة un- بصفة immortal وهي صفة تتكون من أصل يعنى 'الفانى' (إلى جانب معنى المهلك) والبادئة im- التى تنفى الفناء فتفيد الخلود ، بحيث عاد المعنى إلى الفناء بنفى النفى ، ولم يسبق ميلتون أحد إليها ، ويعلق أحد النقاد على ذلك قائلاً إن ميلتون ينحت صفات منفية للموت (مثل unhidebound - (٦٠١) و unnamed (دون أسماء) و undreaded (دون أن نخيف أحداً) فى السطر ٥٩٥ عاليه) لتأكيد الطابع السلبي للموت .

٦١٦ - 'كلاب الجحيم' انظر التعبير نفسه فى السطر ٦٥٣ وما بعده من الكتاب الثانى :

وحول وسطها [أى الخطيئة] التفت زمرة من كلاب الجحيم لا تتوقف عن النباح بأفواه فاغرة -

مثل كيربروس - عالية جلبتها ، رنانة طنانة
مفرزة ! ... إلخ

وانظر أيضاً تعبير 'كلاب الحرب' الذي يستخدمه شيكسبير في مسرحية يوليوس قيصر (ف
٣/١م - ٢٧٠ - ٢٧٣) في سياق استدعائها من الجحيم لإشاعة الدمار .

٦٢٢ - ٦٢٣ 'الدخول والامتلاك' من المصطلح القانوني في عصر ميلتون (يقابل 'وضع اليد' في
عصرنا) .

٦٢٣- انظر صموئيل الأول (٢٩/٢٥) "وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع" .

٦٣٥ - ٦٣٦ انظر هوشع (١٤/١٣) "أين أوبأوك يا موت أين شوكتك يا هاوية" وانظر كورنثوس الأولى
(١٥/٥٤) "ابتلع الموت إلى غلبة" ورؤيا يوحنا اللاهوتي (١٤/٢٠) "وطرح الموت والهاوية في
بحيرة النار . هنا هو الموت الثاني" .

٦٣٨ - ٦٣٩ الإشارة هنا إلى رؤيا النهاية في رسالة بطرس الثانية (١٣-٧/٣) "وأما السموات والأرض
الكائنة الآن فهي مخزونة بتلك الكلمة عينها محفوظة للنار إلى يوم الدين ... ولكننا بحسب وعده
نتنظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر" . والمقصود بالسموات والأرض الكون كله .

٦٤٠- 'اللعة' ربما كان المقصود اللعة الواردة في سفر التكوين (١٧/٣) "ملعونة الأرض بسببك" .

٦٤٢- انظر الكتاب الخامس ، السطر ٨٧٢ وما بعده ، وانظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (٦/١٩) "وسمعت
كصوت جمع كثير وكصوت مياه كثيرة وكصوت رعود كثيرة قائلة هللوا فإنه قد ملك الرب الإله
القادر على كل شيء" .

٦٤٤- انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (٧/١٦) "حق وعادلة هي أحكامك" .

٦٤٧- 'زمن الهناء' - في الأصل (the ages) وهو اختصار للعصر أو العصور الذهبية والمقصود بها
الأعوام الألف التي ستقضى في هناء في نهاية الزمن ، وانظر : "عصور لا نهاية لمواقبتها" -
في الكتاب الثاني عشر ، السطر ٥٤٩ .

٦٤٨- 'تنزل' - انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (٢/٢١) "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة
من السماء عند الله" .

٦٥٠- ربما تكون الإشارة هنا إلى الملائكة السبعة الذين سبق ذكرهم في الكتاب الثالث - السطر ٦٤٨ وما
بعده .

٦٥١- ٧٠٦ يقول فالور إن هذه الآيات تمثل خير تمثيل صورة العالم في نظر ميلتون قبل سقوط آدم وحواء
وبعده ، فلقد كان عالماً من الربيع الدائم - لا يتبع النظام الذي وضعه بطليموس ، (Ptolemy) ولا
النظام التسالي له الذي وضعه كوبرنيك (Copernicus) - ولكنه يقسم على "نظام نظري ذي بساطة
مثالية" ، وأما النظم الجغرافية الحديثة فقد حدثت بعد السقوط .

٦٥٥- تصوير الشتاء فى صورة شيخ هرم أو عجوز قانية كان شائعاً فى علم التصوير وفنونه ، وكان يقوم على المقابلة القديمة بين أطوار الإنسان وفصول العام .

٦٥٨ - ٦٦١ يستخدم ميلتون فى هذه الآيات مصطلحات بطليموس لزوايا الميل - وهى فنية ومتخصصة - ولكن 'ارتباط السوء' غير وارد فى جغرافية بطليموس ، ولذلك يفرد له ميلتون مكاناً مستقلاً .

٦٦٨ - ٦٨٠ 'يقول البعض' ... و 'يقول البعض' : يشرح فاولر ذلك قائلاً إن ميلتون لم يشأ أن يتخذ لنفسه موقفاً محدداً من تفسير الظواهر الفلكية والجغرافية الحالية والتي يمكن تفسيرها إما بافتراض ميل محور الأرض ٢٣,٥ درجة ، ومعنى ذلك أن الكواكب تدور حول الشمس ، أو بافتراض ميل مدار الشمس بالمقدار نفسه ، ومعنى ذلك أن الشمس تدور حول الأرض . ويقدم فاولر تفسيراً لكل ما ورد فى نص ميلتون فى حواشيه ، وقد أثرت أنا إدراج الشرح فى الترجمة بصورة غير مباشرة حتى لا أرهق القارئ بالرجوع فى كل كلمة إلى هذه الهوامش .

٦٧٨- 'إقليم' - فى الأصل (Clime) بمعنى إقليم مناخى ويشرحها فاولر بأنها region أى إقليم جغرافى قائلاً إن كل نصف من نصفى الكرة الأرضية كان مقسماً إلى سبعة أقاليم أفقية فى أيام ميلتون ، ومعنى هذا أنها أقاليم مناخية لا جغرافية ، ولذلك اقتصررت فى الترجمة على كلمة 'إقليم' دون الصفة ، والكلمة من الدخيل العربى .

٦٨٦ - 'استوتيلاند' منطقة فى شمال شرقى لبرادور الحالية ، ولكن الإسم كان يطلق فى حالات كثيرة على أى منطقة باردة فى الشمال .

٦٨٧- 'منطقة ماجلان' (Magellan) هى الأرجنتين الحالية ، وقد أثرت الإبقاء على الكلمة الأصلية لدلالاتها التاريخية ، وكان اسم المنطقة (magellonica) .

٦٨٧ - ٦٨٩ 'ثايسيس' (Theystes) اغوى 'إيروبي' (Aerope) 'روجة أخيه' 'أثريوس' (Atreus) حسبما تقول الأسطورة ، وعلم 'أثريوس' بذلك وقرر الثأر فتظاهر بالعضو عن أخيه ودعاه إلى مأدبة لكنه قدم له طعاماً من لحم أحد أبنائه (أبناء ثايسيس) وساد الاعتقاد بأن الاشمئزاز والتقرّر من ذلك الفعل قد دفع الشمس إلى تغيير مسارها والانحراف فيه حتى تتجنب رؤيته .

٦٩٤- 'النشأت الحارة' قد تكون شهاباً أو نيزكاً ، إذ كان المعتقد أن الشهب والنيازك كتل ملتهبة من البخار .

٦٩٥ - ٧٠٦ يقول هويتنج فى كتابه الوسط الأدبى الذى عاش فيه ميلتون (١٩٦٤) فى صفحة ١٢١ وما بعدها إن خريطة الرياح الوحيدة التى تتضمن جميع الرياح التى يذكرها ميلتون موجودة فى الأطلس الجديد (Novus Atlas) الذى وضعه يانسون (Jansson) فى أحد عشر مجلداً ونشره فى الأعوام ١٦٤٧ - ١٦٦٢ ، وأنه من المعروف أن ميلتون قد سأل عنه أو طلبه ذات يوم . وقد حوكت

الاسماء الكلاسيكية للرياح إلى مقابلاتها الحديثة تيسيرا على القارئ العربي ، بل إن القارئ الأجنبي نفسه ليجدها غريبة إلى الحد الذي يلجئه إلى الرجوع إلى التفاسير أو الحواشي .

٦٩٦ - 'نورمبيجا' (Norumbega) هو الاسم القديم الذي كان يطلق على منطقة تقع في جنوب شرقي كندا وتتضمن بعض المناطق التي أصبحت داخل الولايات المتحدة حالياً ، وأما 'ساموديا' (Samoedia) التي ذكرها ميلتون في تاريخه الموجز لروسيا ، المذكور آنفاً ، فهي منطقة تقع في أقصى الشمال الشرقي لسيبيريا .

٧١٤-٧١٠ قارن مرور الحيوان مرور المظمن أمام الإنسان قبل السقوط في الكتاب الرابع ابتداءً من السطر ٣٤٠ ، وأما العشب باعتباره الطعام السائد قبل السقوط ، فالإحالة هنا إلى الكتاب المقدس : "ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً" (تكوين ١/ ٣٠) .

٧١٨- التقابل بين المشاعر الجياشة والمضطربة وبين الاختلاط في النظام الكوني الكبير يتحول هنا إلى استعارة 'ذاتية' - انظر إشعياء (٥٧/ ٢٠) "أما الأشرار فكالبحر المضطرب لأنه لا يستطيع أن يهدأ وتقذف مياهه حمأة وطيناً" وموضوع البحر الهائج أو المضطرب - كما يقول فاوولر - (The Sea of Troubles topic) يمكن رصد تراثه في كتابات القديس أوغسطينوس ، والمزمور ١٠٧ وقصة المحامي في تشوسر ، وتصوير ربة الحظ في صور العصور الوسطى وعصر النهضة ، وهاملت ٥٩/١/٣ وغيرها كثير (يوردها فاوولر) .

٧٢٠- يقول برووبنت في كتابه عن الفردوس المفقود (انظر المراجع) إن شخصيات الفردوس المفقود لا تتحدث بأسلوب المناجاة المسرحية (Soliloquy) إلا حين تسقط ، وأما كلمات وحركات من لم يسقط فعادة ما تكون موجهة إلى شخص آخر (ص ٨٠) .

٧٢٢- ربما كان القصد إظهار آدم هنا في صورة من يخلط في فهم أصول الدين إذ لم يكن يمثل مجد العالم بل 'مجد الله' (كورنثوس الأولى ١١/ ٧) .

٧٢٨-٧٢٩ المعنى هو أن الطعام يطيل الحياة ومن ثم يمد ويسط من نطاق اللعنة ، وإنجاب الأطفال ينقلها من جيل إلى جيل ، ويقول فاوولر إن الطعام والجنس يعتبران مجال نشاط ملكة الاشتها (The concupiscible faculty) وهي التي كثيراً ما كانت تعتبر المجال الخاص لعمل الشهوة (concupiscence) أو 'جسد الخطية' ، ومن ثم ينتهي فاوولر إلى القول بأن الطعام والإنجاب يمكن اعتبارهما معاً لعنة .

٧٣٠- انظر الكتاب السابع ، السطر ٥٣٠ وما بعده ، وسفر التكوين (١/ ٢٨) "وباركهم الله وقال لهم اثمروا واكثروا واملاؤا الأرض وأخضعوها" .

٧٣٦- أسلوب السخرية هنا يراه أديسون أسلوباً عامياً (دارجاً) لا يرقى إلى مستوى الأسلوب الرفيع للملحمة .

٧٣٨ - ٧٤٠ لاحظ تكرار ياء المتكلم - الضمير - فى "لعتاتى" ، "تفارقنى" ، "منى" ، "إلى" ، "على" وأخيراً التكرار المؤكد لها فى "على أنا" وهى الحيلة البلاغية التى تسمى (Ploce) أى التاكيد اللفظى وإن تفاوتت صورة اللفظ المكرر . انظر ٨٣٢ من هذا الكتاب والحاشية .

٧٤٠ - ٧٤١ معنى البيت يعتمد على قوانين الحركة المعروفة فعند المركز تكون قوة الدفع صفراً ، وفى الأطراف تزداد السرعة والقوة إلى الحد الأقصى ، ويقول فاولر إنه نظراً لشيوع الانشغال بالعلم الطبيعى فى عصر ميلتون وتعقيد هذه الصورة الشعرية ، فلما أن نفترض أن ميلتون كان يريد أن يوحى بأن ذكاء آدم يشبه ذكاء الشعراء المبتاعين .

٧٤٣-٧٤٤ الشكوى المزدولة الواردة فى سفر إشعياء (٩/٤٥) "ويل لمن يخاصم جابله . خنزف بين أخزاف الأرض . هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع . أو يقول عملك ليس له يدان" .

٧٥٤- "أحزان سرمدية" يشير بيردن (فى الكتاب المشار إليه - ص ١٧٦) إلى أنه من المحال تصور رضا ميلتون عن هذه التعميمات ، ولكن الواضح أن آدم لم يصل إلى درجة التوبة الكاملة بعد .

٧٥٨- "ولكنك يا آدم" - يجرى آدم حواراً خيب مع الله ، فيتصور ما يقوله له ورده عليه ، وقد حاولت أيضاً ذلك فى الترجمة .

٧٦٠-٧٦٥ انظر إشعياء (١٠/٤٥) "ويل للذى يقول لأبيه ماذا تلد ، وللمرأة ماذا تلدين" .

٧٧- الإحالة إلى انتهاء اللعنة التى حكم بها الله على آدم فى تكوين ١٩/٣ "لأنك تراب وإلى تراب تعود" .

٧٨٦-٧٩٢ حجة آدم هنا هى أنه مادامت روحه هى التى أخطأت ، ومادام الموت هو عقاب الخطيئة ، فمن الظلم أن يموت جسده ولا تموت روحه . ويقول ميلتون فى كتابه عن العقيدة المسيحية (١٣/١) إنه يرفض القول السوفسطائى بأنه على الرغم من موت كيان الإنسان كله ، فإن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن كيان الإنسان كله ينبغي أن يموت (طبعة كوليبا ٢٢٧/١٥) ويقول فى الفصل نفسه "هل هناك أسخف من القول بأن العقل ، وهو المرتكب الرئيسى للجسدية ، ينبغي أن يفلت من عقوبة الموت التى تهدد الإنسان ، وأن الجسد وحده ، الذى وهب الخلود مع العقل سواء بسواء قيل أن يأتى الموت إلى العالم بسبب الخطيئة ، يجب أن يتحمل عقوبة الخطيئة بالموت وإن لم يشارك فى ارتكاب الإثم؟" (٢١٩) ويقول أيضاً "إن موت الجسد هو فقدان الحياة أو إعدامها . أمما التعريف الشائع الذى يفترض أن الموت هو انفصال النفس عن الجسد ، فهو تعريف غير مقبول . إذ ما الذى يموت فى الإنسان عندما يحدث هذا الانفصال؟ هل هى الروح؟ لن يقبل ذلك مناصرو التعريف المذكور . هل هو الجسد إذن؟ ولكن كيف يقال إنه يموت وهو الذى لم يتمتع بأى حياة فى ذاته من قبل؟ ومن ثم فلا يمكن القول بأن انفصال النفس عن الجسد هو موت الإنسان" (الفصل نفسه ٢١٧ - ٢١٩) . ويعلق فاولر على ذلك قائلاً إن إيمان ميلتون بموت العقل والجسم معاً ويعتقهما معاً لم يكن بدعة شاذة ، بل كان فهماً صحيحاً للكتاب المقدس . ولقد ناقش آخرون هذه القضية أيضاً مثل

موريس كيلي الذي يؤكد صحة موقف ميلتون في كتابه عن علاقة كتاب ميلتون المذكور بالفردوس المفقود (في صفحة ١٣) ومثل جورج ويليامسون الذي نشر مقالاً في مجلة دراسات في فقه اللغة عام ١٩٣٥ (العدد ٣٢ ، في الصفحات ٥٥٣ - ٥٧٩) يعارض فيه ميلتون ثم صحح ن. هـ. هنري 'أخطاء' ويليامسون في مقال نشر بالمجلة نفسها عام ١٩٥١ (العدد ٤٨ - صفحة ٢٤٨) . ولكن الخلاف حول هذه القضية لم يحسم بسبب طابعها الديني المحض ، إلى جانب ما تتضمنه من غموض في تعريف العقل والنفس والروح وهي المفاهيم الخلافية في تفاسير الكتاب المقدس .

٧٨٨- 'الموت الحى' معناه الموت الأبدى *mors aeterna* وهو يمثل الدرجة الرابعة من الموت ، على نحو ما ورد في حاشية سابقة على السطور ٣٢٣ - ٣٣٣ من الكتاب الثامن ، وكما أوضحه ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية .

٧٩٨ - ٨٠١ يقول فالور إن آدم يخطئ هنا في فهم أصول الدين ، وإن ميلتون لا يرى أى تناقض بين موت الإنسان بدنًا وروحاً أولاً وبين بعثه من جديد يوم الدين .

٨٠٤ - ٨٠٨ هذه الحجة التي يسوقها آدم عزاء وتسرية مستقاة من 'المدارس' أى من أحد المذاهب الاسكولائية التي تقول بأن تلقى أى شيء يتوقف على أسلوب التلقى وتزعم أن ذلك بديهي (*Quod recipitur, per modum recipientis*) وهي بديهية ترجع إلى كتاب أصدره ستاليوس *Stahlius* فى عام (١٦٥١) بعنوان البديهيات (*Axiomata*) وآدم يقول فى الواقع إن معنى الموت وعمل الموت يتوقفان على طبيعة الشيء الذى يموت (أى ينصب عليه فعل الموت) ولما كان الجسد عاجزاً عن الخلود فى ذاته فكيف يخلد فى الموت ؟ وهي حجة تتضمن قدراً كبيراً من السفسطة .

٨١٣- انظر مونولوج الكينونة فى مسرحية هاملت ٦٤/١/٣ - ٦٨ :

نهاية ما أجدر الإنسان أن يطلبها ! موت هو الرقاد !

لكن من ينام قد تعود الأحلام ! وذاك سر العقبة !

إذ ما عسانا أن نراه فى منام رقدة الأبدية

من بعد أن نقلت من قيودنا البشرية

يرغمنا على التمهّل !

٨٢٥- لا يؤمن ميلتون بمذهب كالفن (*Calvin*) القائل بانحطاط الإنسان انحطاطاً كاملاً ولكنه يؤمن 'بالانحطاط المشترك' (العام) للعقل الإنسانى - كما يقول فى كتابه عن العقيدة المسيحية : (*Communis ... mentis humanae pravitas*) .

٨٢٦-٨٢٧ انظر رومية (٣٢/١) "الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل أيضاً يسيرون بالذين يعملون" .

٨٢٨ - ٨٤٤ أخيراً يصل آدم إلى الإقرار الكامل بخطيئته ولكن يعجز عن الانتقال إلى المرحلة التالية من مراحل التوبة وهي مرحلة الندم ، فيلقى بنفسه فى غمرة اليأس . ويقول ميلتون فى كتاب عن

العقيدة المسيحية (١٩/١) "لنا أن نميز بين عدة خطوات متعاقبة على طريق التسوية ، وهي الإقرار بالاثم ، ثم الندم ، ثم الاعتراف ، ثم الإقلاع عن الشر ثم التحول إلى الخير".

٨٣٢ - يقول الشراح إن تكرار ضمير المتكلم مستقى من الإنيابة (فيرجيل) حين يعرض 'نيسوس' نفسه (Nisus) على الروتوليين (Rutulians) ويحاول افتداء 'يوريسوس' Euryalus ، قائلاً :
me, me, adsum, qui feci in me convertite ferrum (ix, 427) وإشارة إلى محاولة أبيجيل افتداء 'نابال' في صمويل الأول (٢٤/٢٥) وانظر ٣٢ - ٤٤ من الكتاب الحادي عشر والحاشية .

٨٤١ - سبق لنا سماع تمييز الله سبحانه بين خطيئة إبليس وخطيئة آدم في الكتاب الثالث (السطر ١٢٩ وما بعده) ولذلك يتضح لنا خطأ هذه النظرة التي يملئها اليأس .

٨٤٢ - ولكن الله تعالى يقول في الكتاب الثالث (السطور ١٩٤ - ١٩٧) إنه سوف يجعل الضمير 'الحكم الفصل' في الصدور ، هادياً ومرشداً ، وأن الإنسان إذا ما استمع إليه فسوف يصل إلى بر النجاة والأمان في النهاية . ويورد ميلتون 'الضمير' بين شخصيات المسرحية (في المخطوطات) التي كان يحاول كتابتها عن سقوط الإنسان .

٨٥٤ - ٨٥٩ لا يزال آدم يظن أن شروط الحظر المفروض يمكن أن تتحقق حرفياً بموته الجسدي ، وهو لا يبدأ في إدراك العدل الإلهي إلا عندما لا يحدث ذلك وهو يدرك الألفاظ المحيطة بالعدل الإلهي تدريجياً ، فيكتشف أهم عنصر وهو أن الرحمة تسبق العدل ، وأن التنفيذ واقع لا محال وإن كان يتسم باللطف .

٨٦٠ - ٨٦١ هذا صدى لأنشودة الصباح التي أنشدها آدم وحواء ، خصوصاً في الكتاب الخامس ، السطور ٢٠٢ - ٢٠٤ .

٨٦٧ - بعض المفسرين يقرنون حواء بالحية استناداً إلى الاشتقاق في اللغات السامية .

٨٧٥ - ٨٧٩ يتخذ آدم الآن موقفاً متشدداً من رغبة حواء في العمل وحدها ، ويتحدث بلهجة مختلفة عن أهدافها ودوافعها - قارن ما ورد في الكتاب التاسع ٣٣٥ - ٣٨٦ .

٨٨٤ - ٨٨٨ الهجوم الصارخ على المرأة يعكس روح العصر ، وخصوصاً الكتاب الذي يكتبه الباحثون من الإشارة إليه وهو "من تأليف سويتنام (Swetnam) والذي صدر عام ١٦١٥ - وفيما يلي عنوانه الأصلي"

The Arraignment of Lewde, Idle, Forward, and Unconstant Women.

أي (اتهام الفاسقات والعاطلات والطامحات والخائئات)

وتقتطف الباحثة سفندن فقرات مطولة منه للتدليل على مغزى 'الضلع الملتوى' الذي خلقت منه حواء لدى كتاب العصر وخصوصاً شراح الكتاب المقدس ، مثل أندرو ويليت ، الذي يقول في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه في شرح سفر التكوين ، واستناداً إلى مفسرين آخرين (من بينهم ميرسيروس

(Mercerus) وكالفن (Calvin) ، إن حواء لابد أن تكون قد خلقت من ضلع رائد (إضافى extra) لدى آدم حتى تخلق بهذا الكمال أول الأمر . ثم يستمر قائلًا إن هذا الضلع كان "رائدًا عن العدد ... أى فوق العدد المعتاد أو الأضلاع التى خلقها الرب عن عمد ولغاية ما ، لا باعتباره رائدًا عن الحاجة أو من قبيل العيب فى الخلقة ، بل باعتباره لازمًا لخلق المرأة الذى كان الله يعتزمه" (ص ٣٨) .

٨٨٨ - ٨٩٥ نموذج آخر للعداء للمرأة فى العالم القديم - انظر مسرحية هيبوليت (Hippolytus) للكاتب المسرحى اليونانى يوريبيديس (السطر ٦١٦ وما بعده) .

٨٩١ - ٨٩٢ العورة هى الخلل والعيب وهى ترجمة دقيقة لكلمة defect الانجليزية هنا ، ويؤثر عن أرسطو قوله فى *De Generatione* (عن التكاثر) إن الانثى ذكر ناقص / أو معيب / (فيه عوار) أو (the female is a defective male) .

٨٩٨ - ٩٠٨ يقول فاوُلر "إن على من يحاول العُشور فى هذه الآيات على إشارات إلى حياة الشاعر أن يذكر التطرف الشديد فى نبوءات آدم ، فتكاثر المصائب التى يذكرها آدم ، والتى تكاد تثير الضحك ، تتفق مع ما يكابده من يأس فى هذه اللحظة ، لكنها لا تتفق مع رأى ميلتون المتسم بالعقلانية . فإن ميلتون يعتمد أن ينسب إلى آدم على امتداد هذه الفقرة مشاعر تدين صاحبها وآراء ضالة" .

٩٢٦ - لاحظ أن حواء هى التى تذكر آدم بذلك إذ إن العداوة - وفقاً لمنطوق الحكم - سوف تكون بين المرأة والتمبان - انظر تكوين ٣/ ١٥ "وأضع عداوة بينك وبين المرأة" .

٩٣١ - هذا رجع صدى للبيت ٢٩٩ فى الكتاب الرابع ، حيث تُميز طبيعة الرجل عن طبيعة الانثى بالفاظ مشابهة "خلق هو لله وحده وخلقت هى لله من خلالة" وانظر المزمور ٤/ ٥١ "إليك وحدك أخطأت" .

٩٥٩ - 'فى مكان آخر' تعنى إما 'فى السماء' أو 'ساحة الحكم' الواردة فى السطر ٩٣٢ .

٩٩٥ - انظر دانتى - الجحيم "فى شوق لا يحدوه أمل" (٤٢/٤) عن ترجمة حسن عثمان .

٩٩٦ - لاحظ أن ميلتون يشير إلى المحبوب المائل (حواء) بتعبير (The present object) وقد يرى البعض فى ذلك تخفيضاً لقدر المرأة خصوصاً بعد أن شاع تعبير (sex object) بمعنى كيان جنسى أو حتى سلعة جنسية ، ولكن ميلتون يقصد (object of love) أى المحبوب ، وهو ما يظهر فى الترجمة .

١٠٠٧ - 'اليأس المشوب' فى الأصل (vehement despair) وعادة ما يفسر اللغويون الصفة استناداً إلى أصلها الاشتقاقى إذ تتكون من - vehe التى تعنى 'بدون' أو 'بغير' ومن mens التى تعنى العقل ، ولكن الصفة تكاد تقتصر على المشاعر ، على أى حال ، ومعنى الشدة الوارد فيها معنى أساسى ، واشتباب اليأس وشدته معناه إقصاء التفكير العقلانى .

١٠١٣ - ١٠٢٤ كتب جورج ويليامسون دراسة في مجلة دراسات في فقه اللغة (٣٢) عام ١٩٣٥ بعنوان 'ميلتون وبدعة الانتحار' (٥٥٣ - ٥٧٩) يدافع فيها عن إدانة ميلتون للانتحار باعتباره منافيا لقانون الطبيعة ، في سياق عرضه للمناقشة التي دارت في القرن السابع عشر حول هذا الموضوع ، والواقع أن ميلتون يدين الانتحار في كتاباته الأخرى مستشهداً بالثقات ممن سبقوه ، ويقول بصراحة في كتابه عن العقيدة المسيحية إن المنتحرين يجب أن يوضعوا في قائمة "رجال الدماء والغش لا يتصفون أيامهم" (المزمور ٢٣/٥٥) أي لا يعيشون نصف أيام حياتهم .

١٠٢٨ - "أن يجعل الموت يحيا فينا" - انظر الحاشية على 'الموت الحي' في السطر ٧٨٨ أعلاه .

١٠٥٢ - ١٠٥٣ انظر إنجيل يوحنا (٢١/١٦) "المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت . ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح لانه قد ولد إنسان في العالم" .

١٠٥٣ - 'بثمرة رحمك' - في الأصل (fruit of the womb) وهي نفس العبارة الواردة في إنجيل لوقا ٤٢/١ (بالإنجليزية) وقد ترجمت إلى العربية "ثمرة بطنك" وهي الإشارة إلى المسيح عليه السلام في إنجيل لوقا .

١٠٨٨ - ١٠٩٢ بعد أن انتقل آدم من مرحلة الاقرار بالذنب إلى مرحلة الندم على اقترافه أصبح الآن مستعداً للاعتراف ، وهي المرحلة الثالثة من مراحل التوبة - انظر الحاشية على الايات ٨٢٨ - ٨٤٤ .

١٠٩٠ - انظر إشعياء (٩/١٦) "أرويكما بدموعي يا حشبون والعاله" ، وربما كان يشير إلى الصورة نفسها في إنبياد فيرجيل ١٩١/١١ :

(*Spargitur et tellus lacrimis*)

١٠٩١ - إشارة أخرى إلى مزمور من مزامير التوبة "ذبائح الله هي روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره" (مزامير ١٧/٥١) .

١٠٩٦ - ١٠٩٧ أخيراً يأتي الإدراك الصريح لرحمة الله حتى يقترن بإدراك عدله ، ورحمة الله هي في الواقع موضوع الحديث الممتد من السطر ١٠٤٦ إلى ١٠٩٦ ولكن كلمة الرحمة نفسها لا تأتي حتى السطر الأخير . وفي السطر التالي ١٠٩٧ يمكن اعتبار آدم تائباً حقاً وصدقاً .

١٠٩٨ - ١١٠٤ تكرار لما ورد في السطور ١٠٨٦ - ١٠٩٢ وقد تحول الكلام إلى سرد ، وقد سبق استخدام الأسلوب نفسه في الكتاب الرابع ، في السطور ٦٤١ - ٦٥٦ .

حواشي الكتاب الحادي عشر

١ - يمثل السطر الأول استئنافاً للحديث بعد التوقف في آخر الكتاب العاشر ، كأنما طال بآدم وحواء السجود لله عز وجل .

٢ - 'مقعد الرحمة' (mercy - seat) هو الغطاء المصنوع من الذهب الخالص الذي يغطي تابوت العهد ، وقد ورد وصفه تفصيلاً في سفر الخروج ، في الأصحاح الخامس والعشرين ، باعتباره مقراً للإله عند بني إسرائيل ، وورد في الآية الثامنة عشرة من هذا الأصحاح رسم وصناعة ملاكين من ملائكة الشاروبيم ، ووضعهما على الغطاء ، بحيث يكونان "باسطين أجنحتهما إلى فوق" (٢٠) وكان مفسرو العهد القديم يقولون إن ذلك دليل على الشفاعة عند الله في السماء .

٣ - 'الرحمة' هنا هي التدخل الإلهي السابق (prevenient) لكل عمل بشري ، وهي إذن من أهم صور الرحمة إذ يقول المفسرون إنها الهداية التي تسبق تحديد الإرادة الإنسانية ، ومع ذلك فهي لا تجبر الإنسان على قبول أى شيء ، أو فعله ، بل تظل إرادة الإنسان حرة في قبول الهداية أو رفضها . وذلك المفهوم يستند إلى بعض آيات الكتاب المقدس ، مثل الآية العاشرة من المزمور رقم ٥٩ "إلهي رحمتك تتقدمني" ، والكلمة الإنجليزية التي يستعملها ميلتون مبنية على الكلمة الواردة في الصورة اللاتينية لهذه الآية في الترجمة الشعبية للكتاب المقدس :

(Deus meus, misericordia, eius praeveniet me)

٤ - انظر حزقيال ١٩/٢١١ "وأعطيكم قلباً واحداً وأجعل في داخلكم روحاً جديداً وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم" .

٥ - ٧ انظر رومية (٢٦/٨) "وكذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا . لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغي ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها" .

١٠ - ١٤ "ديوكاليون" (Deucalion) هو المثل الأسطوري لنوح عليه السلام ، إذ زعم أن أباه "بروميثيوس" نصحه ببناء سفينة مكنته من تفادي الغرق في الطوفان ، وعندما غيض الماء ذهب مع زوجته "بيرا" (Pyrrha) إلى عرافة "تيميس" (Themis) طلباً للمشورة ، فأجيبتهما دعواتهما ، إذ علما السبيل إلى إعادة الجنس البشري إلى الحياة ، وكان ذلك بإلقاء الحصى والحصى خلفهما أثناء سيرهما ، فتحول الحصى إلى رجال ونساء . وترجع أهمية الصورة الأسطورية إلى رمزية الحصى باعتبارها قطعاً صغيرة من الحجر وهكذا فإن تحول الحجر إلى بشر صورة لتحويل القلوب الغليظة كالأحجار [قال تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾] (البقرة - ٧٤) أى إلى اتخاذها طابع الرحمة الإنسانية ، وهي صورة تصب مباشرة في تحول آدم وحواء إلى التوبة النصوح .

١٤ - ١٦ 'الرياح الحسود' هنا هي "الريح العاصفة التي تهب .. ثم تلوى عاتية في الهواء الشارد" (الكتاب الثالث ٤٨٧ - ٤٨٩) ، بكل من تحرفهم "جهود الخرافة والحماس الأعمى" (٤٥٢/٣) .

- ١٧ - 'بلا أبعاد مادية' لأنها روحية محضة ، انظر المزمور ٢/١٤١ "لستقم صلاتى كالبخور قدامك ليكن رفع يدى كذبيحة مسائية" . وانظر رؤيا يوحنا اللاهوتى (٣/٨) "وجاء ملاك آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخوراً كثيراً لكى يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على مذبح الذهب الذى أمام العرش" .
- ١٩ - 'الشفيع' هو المسيح هنا - انظر العبرانيين (٢٤/٩) "لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقة بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لاجلنا" .
- ٢٤ - انظر الرؤيا (٨/٥) "جامات من ذهب مملوءة بخوراً هى صلوات القديسين" .
- ٢٦ - 'أطيب رائحة' - طيب رائحة الأضحيات أو القرابين المقبولة من الصور الشائعة فى الكتاب المقدس ، ولكن العبارة تحمل أصداء الفاكهة المحرمة فى الكتاب الخامس "وفاحت رائحتها الطيبة الممتعة" (٨٤) والتاسع "أثارها رائحة رائحة اللذة لتلك الفاكهة" (٧٤١ - ٧٤٢) وانظر حزقيال (٤١/٢٠) "برائحة سرورك أرضى عنكم" .
- ٢٦ - ٣٠ - يمزج ميلتون هنا بين إشارتين للكتاب المقدس ، وتحديدًا لمثال الزرع والبذر ، فهو يعلك الصورة الواردة فى الإنجيل مرقس ١٤/٤ - ٢٠ "الزارع يزرع الكلمة ..." على ضوء الآية الواردة فى العبرانيين ١٣/١٥ "ثمر شفاء معترفة باسمه" .
- ٣١ - انظر رومية (٢٦/٨) "ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها" .
- ٣٢ - ٤٤ - يقول الشراح إن تكرار ضمير المتكلم للتأكيد (التوكيد اللفظي) يساعد على ربط هذه الفقرة بالفقرة التى يعرض المسيح فيها نفسه للموت فداءً للإنسان فى الكتاب الثالث ، السطر ٢٣٦ وما بعده "ها أنذا إذن أتقدم لأقديه ، وأقدم حياتى/ مقابل حياته ..." وانظر الحاشية على الايات ٧٣٨ - ٧٤٠ ، والبيت ٨٣٢ من الكتاب العاشر (حيث يرد ذكر الإشارات الأدبية) .
- ٣٣ - انظر رسالة يوحنا الرسول الأولى (٢/١-٢) "لنا شفيع عند الآب [هو] يسوع المسيح البار ، وهو كفارة لخطايانا" .
- ٣٥ - "تطعيم الفرع بالغصن" صورة تحافظ على استمرار الصور الزراعية (البذر والفرس والثمر) . انظر رومية (١٦/١١ وما بعده) "وإن كان الأصل مقدساً فكذلك الأغصان . فإن كان قد قطع بعض الأغصان وأنت زيتونة برية طُعِمَتْ فيها ..." .
- ٤٣ - ٤٤ - انظر لإنجيل يوحنا (١١/١٧ ، ٢١ - ٢٢) "أيها الآب القدوس احفظهم فى اسمك الذين أعطيتنى ليكونوا واحداً كما نحن ... ليكون الجميع واحداً ... ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا" .
- ٤٥ - 'دون سحائب فى مسجاة' ، أى دون تقطيع جبينه ، ولكن الصورة تلمح من طرف خفى إلى السحائب التى تخفى وجهه عندما يخاطب الملائكة أو البشر (انظر العدد ٢٥/١١ ، إنجيل مرقس ٧/٩ ، والكتاب الثالث - البيت ٣٧٨ وما بعده ، والكتاب السادس ٢٨) .

٤٩ - ٥٧ لا يُشار هنا إلى الطرد من الفردوس باعتباره 'عقوبة' بل باعتباره نتيجة محتومة للتغيير الذي طرأ على طبيعة الإنسان بعد السقوط .

٦٤ - 'الأعمال التي تصدّق الإيمان' أي الأعمال التي تنبع من الإيمان وتحققه فتثبت وجوده ، فالإيمان هو ما قر في القليل وصدقه العمل ، أي حققه ، وجاء في التنزيل العزيز "ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه" (سبا - ٢٠) ، وانظر "بالإيمان الذي يصدقه العمل الصالح" في الكتاب الثاني عشر، البيت ٤٢٧ ، والواضح أن ميلتون كان يعتقد العقيدة البروتستانتية العامة القائلة بالتبرير بمعنى التبرئة من الخطيئة (من برّير أي صلّح يصلّح والبر هو الصلاح) استناداً إلى الإيمان ببرّ المسيح أو استناداً إلى رحمة من الله تجعل المرء برّاً أي تبرّره ، والأبرار هم الصالحون (عكس الفجار) ولا مناص من وجود الإيمان قال تعالى «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ» (البقرة - ١٧٧) ولا مناص أيضاً من الأعمال التي تصدّق الإيمان «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» (آل عمران - ٩٢) . والبرّ يجمع على أبرار وبررة ، ولكنني تجنبت في الترجمة كلمة 'التبرير' بسبب دلالتها المعاصرة ، كما فضلت 'الصلاح' على البرّ بسبب دلالة الأخيرة على الإحسان والوفاء (كما في التنزيل العزيز) . والبيت الذي نحن بصدده يمثل المرحلة الهامة من مراحل توبة آدم وهي مرحلة الإيمان .

٦٥ - 'نشور الأبرار' انظر إنجيل لوقا "قيامه الأبرار" (١٤/١٤) .

٦٦ - انظر رسالة بطرس الثانية (١٣/٣) "ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البرّ" .

٧٣ - ٦ - ربما يكون هذا البوق هو 'البوق الأثيري' الذي أعطى الإشارة للمعركة في الكتاب السادس ، البيت ٦٠ .

٧٤ - انظر سفر الخروج (١٦/١٩) والكتاب السادس ٥٦ - ٦٠ .

٧٥ - انظر تسالونيكي (١٦/٤) "لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً" .

٨٤ - ٩٨ - الإشارة إلى سفر التكوين (٢٢/٣ - ٢٣) "وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن" .

١٠٢ - ١٠٣ 'ممتلكات بلا صاحب' تعبير لا يقصد به المعنى الظاهر فيه بل يقصد به السخرية من تصور إبليس أن ثمة 'ممتلكات بلا صاحب' ، وهكذا فالتعبير يتضمن سخرية باطنة من إبليس .

١٠٥ - يقول بيرون في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه إن هذا تحذير من شفقة في غير محلها ، لأن الشفقة هنا تعني أن الله جل وعلا يظلم آدم وحواء بطردهما من الجنة ، والمعروف أن ميلتون يصور الملائكة في صورة من تثار شفقتهم بسرعة [انظر الكتاب الخامس ٥٦٦ والعاشر السطر ٢٥] .

١١٨ - ١٢٢ - الإشارة إلى سفر التكوين (٢٤/٣) "فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة".

١٢٨ - ١٢٩ - انظر حزقيال (٤/١ - ٦، ١٦) حيث يتكرر ذكر الوجوه الأربعة ، وانظر البيت ٧٥٣ من الكتاب السادس والحاشية على الآيات ٧٤٩ - ٧٥٩ من الكتاب نفسه ، وأما "الإله يانوس مضاعفاً" فتعني أنه أصبح ذا أربعة وجوه بدلاً من اثنين ، أي *Ianus quadrifrons* الذي يتولى حراسة الأبواب. ويقول فاولر إن التشبيه مناسب لأن الإنسان يخرج الآن إلى عالم من التغيير ، وهو التغيير التاريخي وتغير فصول العام . وقد نشر الباحث أ. هـ . جلبرت مقالاً في مجلة PMLA (العدد ٥٤ لعام ١٩٣٩) يقول فيه إن العدد 'أربعة' هو العدد الذي أصبح رمزاً للتغيير مستشهداً بما يقوله القديس أوغسطينوس من موازنة الوجوه الأربعة بأركان الأرض الأربعة .

١٢٩ - ١٣٣ - انظر حزقيال (١٨/١) "وأطرها مائة عيوناً حواليتها للأربع" . وتقول الأسطورة إن 'أرجوس' (Argus) كلف بحراسة "يو" 'Io' لأنه كانت له مائة عين تتناوب في الرقابة ، ولكن 'ميركوري' (Mercury) جعل ينفخ في مزماره المصنوع من البوص أولاً حتى جعل جميع العيون تخلد للنعاس (مسخ الكائنات - أوفيد ، ٦٨٢/١ - ٦٨٤) ثم خلدتها بعصاه المنومة (*virga somnifera*) (المرجع نفسه، السطر ٦٧١ وما بعده ، والسطر ٧١٦) وكان المفسرون يعدون 'أرجوس' ، مثل 'يانوس' رمزاً زمنياً أو فلكياً .

١٣٤ - ١٣٥ - 'ليوكوثيا' (Leucothea) اليونانية هي 'ماتير ماتوتا' (أو الأم ماتوتا Mater Matuta) الرومانية، ربة الفجر ، التي تعادل (Aurora) .

١٤١ - هذه أول مرة يذكر آدم 'الإيمان' فيها ، وقد سبق الحديث عن هذه المرحلة من مراحل توبته .

١٤٢ - انظر رسالة يعقوب (١٧/١) "كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران" .

١٤٨ - "عرش الله" - في الأصل الإنجليزي 'The seat of God' - ويقول فاولر إن seat هو مقعد الرحمة mercy - seat المشار إليه في السطر الثاني من هذا الكتاب (وانظر الحاشية) ولكن المعنى يلبو لى أكبر وأعم ، فهو أقرب إلى الكرسي أو العرش ، ولا حاجة بنا إلى الاستمساك بتراث 'تابوت العهد' الخاص ببني إسرائيل وحدهم .

١٥٨ - يلقى آدم على حواء السلام "وهي التحية القدسية التي ألقيت/ بعد زمن طويل على حواء الثانية - مريم البتول - فباركتها" (الكتاب الخامس ٣٨٦ - ٣٨٧) لأن حواء قد حظيت بالوعد الذي وعده باعتبارها - كما يقول فاولر - صورة من صور مريم البتول .

١٥٩ - انظر تكوين (٢٠/٣) "ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي" .

١٧١ - ١٧٢ - مشيرة إلى لعنة آدم في الكتاب العاشر ٢٠٥ وسفر التكوين ١٩/٣

- ١٨٢ - ١٩ يرمز الوحشان والطائران إلى الزوجين من البشر ، ويشير اتجاه الطراد إلى الوجهة التي سيسير فيها آدم وحواء خارجين من الفردوس .
- ٢٠٤ - انظر اشعيا (٣/١٦) "اصنعى إنصافاً اجعلنى ظلك كالليل فى وسط الظهيرة" .
- ٢٠٩ - انظر الكتاب الثالث ٣٦٣ - ٣٦٤ ، ورؤيا يوحنا اللاهوتى (٣/٤) حيث يتبدى "الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد" .
- ٢١٢ - 'الخوف البشرى' فى الاصل *camal fear* أى خوف الكيان الجسدى من الكيان الروحانى .
- ٢١٣ - ٢١٥ - انظر تكوين (٢/٣٢) "وقال يعقوب إذ رآهم هذا جيش الله . فدعا اسم ذلك المكان محتايم وهى كلمة تعنى 'الجيشين' أو 'المُخيمين' ، وكان سبب التسمية (وفقاً لمعجم الكتاب المقدس *The Illustrated Bible Dictionary*, ed. M.G. Easton, London, 1989) هو أن يعقوب عليه السلام عندما استقبل الملائكة قسم حاشيته إلى قسمين أو مخيمين لاستقبال ضيوفهم السماويين ولكن عدم وجود المتن فى اللغات الأوروبية الحديثة أدى إلى تصور أن الكلمة جمع . وعلى أى حال فلا بد أن فكرة الخيام (من المُخيمين) كانت واردة فى ذهن ميلتون عندما أشار فى السطر ٢١٥ إلى أن الحرس ضربوا خيامهم فى الميدان .
- ٢١٦ - ٢٢٠ انظر ملوك ثان (١٣/١-١٧) حيث تفاصيل الواقعة .
- ٢٣٢ - ٢٣٣ انظر المزمور (١/٩٣) "الرب قد ملك . ليسَ الجلال . لبس الرب القدرة . اقتر بها . أيضاً تثبت المسكونة . لا تتزعزع" . والإشارة ، كما يقول فاوولر ، توحى بأن ميكائيل أضفيت عليه مسحة ربانية .
- ٢٤٢ - تقع مدينة "مليبويا" (*Meliboea*) على ساحل ثيساليا (*Thessaly*) وقد اشتهرت منذ العصور الغابرة بشبابها الأرجوانية الزاهية ، ويشير فيرجيل فى الإنيادة (٢٥١/٥) إلى جائزة ثمينة هى عباءة من أرجوان مليبويا *purpura Meliboea* .
- ٢٤٣ - مدينة 'صور' الحالية فى بلاد الشام (*Tyre*) وهى فى ميلتون (*Sarra*) .
- ٢٤٩ - ٢٥١ - البداية بلا تمهيد تتناقض مع اللقاء الهادئ المطمئن بين آدم وروفايل فى الكتاب الخامس ٣٥٨ - ٣٧١ .
- ٢٥٤ - لاحظ اللغة القانونية المستخدمة فى الاصل والتي تحاكيها الترجمة العربية قدر الطاقة .
- ٢٥٦ - ٢٥٧ - انظر رسالة بطرس الأولى ٨/٤ .
- ٢٥٩ - ٢٦٢ - لاحظ أن ميكائيل ينقل الرسالة الإلهية نقلاً حرفياً - بل كلمة بكلمة - على نحو ما وردت فى السطور ٩٦ - ٩٨ من هذا الكتاب نفسه .

٢٧٧ - ٢٧٩ - انظر الحاشية على الآيات ٣٤٣ - ٣٥٦ من الكتاب الثامن بشأن الاهتمام بتسمية الأنواع والفصائل في المملكة الحيوانية والنباتية إبان القرن السابع عشر .

٢٩٦ - ٢٩٨ - لم يكن آدم قبل السقوط يابه للمراتب الاجتماعية للملائكة .

٣٠٧ - ٣١٠ - يقول النقاد إن هذا أول الأخطاء الكثيرة التي يقع فيها آدم في حوارهِ مع ميكائيل فلقد جاء في إنجيل لوقا (٥/١٨ - ٧) أن الإلحاح بالصلوات والدعاء يمكن أن يؤتى بعض الثمار .

٣١٦ - قارن رد الفعل من جانب قابيل على اللعنة التي فرضت عليه (تكوين ٤/١٤) : "إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أخفى وأكون تائهاً وهارياً في الأرض" .

٣٢٥ - ٣٢٦ - كان من عادة آدم وحواء ، حسبما يقول المفسرون ، إقامة مذبح في كل مكان يتجلى الله لهما فيه .

٣٢٧ - إحراق القرابين ليس مناسباً للفردوس - انظر الكتاب العاشر ١٠٧٨ - ١٠٨١ ، وانظر سفر التكوين (٣/٤) حيث يقدم قابيل قرباناً من الفاكهة .

٣٣١ - 'النرية الموعودة' هي النرية التي قدر لها أن تسحق إبليس - انظر ١٧٥/١٠ - ١٩٢ .

٣٣٢ - ٣٣٣ - 'أردان جلال الله' - انظر ٣/٣٨٠ .

٣٣٥ - ٣٥٤ - ميكائيل يصصح الحماس 'المغلوط' الذي أصاب آدم بعد السقوط لأماكن العبادة وما يسميه النقاد بالخرافات والمأثورات بصفة عامة ، قائلين إن ذلك كله يرتبط في ذهن ميلتون بالاكتاب والخيرة - وهما صفتان لا تليقان بالمؤمن . أما وجود الله في كل مكان فهو ما تؤكدهُ الفردوس المفقود مراراً وتكراراً ، وانظر إرميا ٢٣/٢٤ "أما أملأ أنا السموات والأرض يقول الرب" .

لا هذه الصخرة فحسب إشارة إلى ما قاله المسيح عليه السلام للمرأة السامرية من باب التحذير "قال لها يسوع يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للأب" . (إنجيل يوحنا ٤/٢١) ويقول فاولر إن استبدال 'الصخرة' بالجبل عند ميلتون يعتبر "بوضوح ضربة موجهة إلى خلفاء القديس بطرس ، فاسمه يعني 'الصخرة' ، بسبب المبالغة في اعتمادهم على التقاليد واعتقادهم أن وجود الله (أو حضرته) مقصور بمعنى من المعاني على الحدود الضيقة للمؤسسة الكنسية" . ولنصف هنا أن وجود الله (أو حضرته) في كل مكان هو موضوع المزمور ١٣٩ كله ، وقد قرأت في كتاب حديث عن ميلتون (١٩٨٩) من تحرير دنيس داتيلسون (انظر المراجع) أن باحثاً يدعى د. هـ. تشارلز حرر كتاباً يتضمن الكتب المشكوك في صحتها والكتب المنحولة في العهد القديم ونشره عام ١٩١٣ في مجلدين ويقول في تعليقه على هذا المزمور إن مؤلفه هو آدم عليه السلام (في صفحة ١٧ من المجلد الثاني) .

٣٥٥ - يقول فاولر إن هدف 'الرؤيا' هو تثبيت (أو تأكيد to confirm) إيمان آدم ، موضحاً أن الإيمان هو موضوع الكتاب الحادي عشر، مثلما كانت التوبة موضوع الكتاب العاشر .

٣٦١ - 'الصبر الحقيقى' يختلف - ضمناً - عن 'الصبر العاتى' (٥٦٩/٢) أى الفلسفى والموازى للعناد والمكابرة ، وعن 'الجلد' وهو المذكور فى ٩٢٠ / ٩ ، والنسوب إلى الرواقين والبيوريتانيين وإن كان للرواقين فضل الخفض على الاعتدال الذى قبلته المسيحية (السطر ٣٦٣) .

٣٦٢ - 'ورع الحزن' هو فى نظر بيردن 'الشفقة' التى إذا أضيفت إلى الخوف اكتمل رد الفعل المطلوب للمأساة ، وفق تعريف أرسطو ، وهو ما يعنى أن آدم سوف يشهد مأساة أو مأسى كثيرة .

٣٦٦ - 'طريق الهلاك' يعنى الموت .

٣٧٢ - يقول 'برودينت' فى كتابه عن الفردوس المفقود (ص ٩٨) (انظر المراجع) إن إسلام الزمام ، أو إسلام الأمر للسماء ، هو الصفة التى يتميز بها تصوير ميلتون لفضيلة الصبر المسيحية ، والتى تختلف من ثم عن 'الجلد البارد الرواقى' (انظر 'التسليم الخاشع' (الإسلام) فى السطر ٥٩٧ من الكتاب الثانى عشر ، وانظر الحاشية على السطر ٣٦١ أعلاه .

٣٧٥ - ٣٧٦ يتضمنان السطران أصداء من آيات وردت فى العبرانيين ١١/٤ ، وفى فيلبي ١١/٣ مما يوحى ضمناً بأن الغاية هى البعث .

٣٧٧ - ٣٨٤ - تقول إيزابيل ماكافرى (MacCaffrey) فى كتابها "الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة" (١٩٥٩) إن هذه الصور التى سيعرضها ميكائيل على آدم يمكن إدراجها فى إطار "الرؤى الربانية غير الملزمة بالسياق الزمنى" وتنتهى من ذلك إلى أنها تعتبر لوحات ثابتة (static tableaux) (ص ٦١) ولكن فاولر ما يفتأ يكرر أنها مأسى أو مأساوات موجزة ، يختار ميلتون من أحداثها حدثاً يتسم بالحركة لا بالسكون ، ويبدو أن ذلك هو ما انتهى إليه بيرون أيضاً إذ يقول إن دور المشاهد الذى يقوم به آدم يمثل الدور الذى يأمل ميلتون أن يقوم به القارئ دون أن يقع فى الأخطاء التى وقع فيها آدم ، والواقع أن اللوحات تتضمن بعض الأحداث ، ولكنها لا تصل إلى عمق المأساة بمعناها المعتاد . والإشارة هنا إلى صعود حزقيال "كانت على يد الرب وأتى بى إلى هناك ، فى رؤى الله أتى بى إلى أرض إسرائيل ووضعنى على جبل عال جداً عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب" (١/٤ - ٢) وقارن ذلك بما جاء فى الإنجيل متى (١/٤ و ٨/٤) "ثم أصدع يسوع إلى البرية من الروح ليَجرب من إبليس ... ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها" .

٣٨٨ - ٣٩٥ - يقول فاولر إن ميلتون يرتب الممالك الآسيوية ترتيباً يقوم على التناظر وفقاً لنسق من أنساق مذهب 'الباروك' (Baroque) الفنى ، يتميز بوجود مركز وجناحين . فأما شبه جزيرة الملايو ، التى لا يُذكر لها حاكم ، فتحتل المركز أى تقع فى الوسط ، والجناحان يضمّان مملكة المغول والمملكة الفارسية ولكل منهما عاصمتان ، ثم تأتى بعدها دولتا ملوك الصين والقياصرة ولكل منهما عاصمة واحدة ، وأخيراً تأتى - فى كل جناح - مملكتان يحكم الأولى 'خان' والثانية سلطان . ويمكن ترتيبها إذن على النحو التالى : (١) قبطان ، (٢) مملكة التار ، (٣) الصين ، (٤) الامبراطورية المغولية ، (٥) شبه جزيرة الملايو 'الذهبية' (٦) بلاد فارس ، (٧) روسيا ، (٨) بيزنطة و (٩) تركستان . وأما

سبب احتلال الملايو الذهبية مركز الوسط فيتضح عند تكرار النسق في تعديد الممالك الأفريقية في السطور ٣٩٦ - ٤٠٧ .

ولقد راعيت في الترجمة إيجاد المقابل الحديث للأسماء القديمة ، تخفيفاً للغموض واعتمدت في التحديث على الأطلس التاريخي وعلى أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ، وبعض الموسوعات (والمعاجم بطبيعة الحال) وأرجو أن أكون قد وفقت في إيضاح ما قد يجده حتى قراء الإنجليزية غامضاً في نص ميلتون ، رغم شروح الشارحين وتفسيرات المفسرين .

٣٩٦ - ٤٠٧ - 'ولم يفت عينه أن تلمح' عبارة تشير إلى الانتقال من آسيا إلى أفريقيا . ويقول فاو لور إن الترتيب هنا يشبه ترتيب الممالك الآسيوية من عدة زوايا ، فهي تسع ممالك أيضاً ، والأخيرة تحتل مرتبة مستقلة (لأنها هنا أوروبية) على النحو التالي : (١) الحبشة ، (٢) مومباسا ، (٣) كيلوا ، (٤) مالندي ، (٥) صوفالا - أوفير ، (٦) الكونغو ، (٧) أنجولا ، (٨) بلاد البربر (شمال إفريقيا) التي يحكمها الملك المنصور ، (٩) روما . والملاحظ أن صوفالا يُظن أنها 'أوفير' ، وذلك مثلما أضيف اسم 'أوفير' إلى الملايو ، وكل منهما يحتل مركز السيادة في الوسط ، وربما يكون ذلك بسبب الذهب أو مناجم الذهب التي اشتهرت به كل منهما ، وعلاقة ذلك بالنبي سليمان عليه السلام ، وأما 'أوفير' فاسم أطلق على عدة أماكن اشتهرت بالذهب ، وجاء في معجم الكتاب المقدس (المشار إليه آنفاً) إن أوفير ، وهو ابن يقطان ابن عابر بن شالح بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام (تكوين ١٠/٢١ - ٢٥) هو الاسم الذي حُرّف عن 'صُفير' (أو 'صوفير') الاسم القبطي للهند ، وأنه الاسم الذي يحمله المكان باللغة العربية ، كما جاء في المعجم المذكور أن المؤرخ يوسفوس قال إن ذلك المكان هو شبه جزيرة الملايو ، وإن كان العلماء يقولون إنه مدينة 'أبهيرا' المعاصرة على مصب نهر السند . ويتهى المعجم إلى القول بأن ثمة حججاً كثيرة على أن المكان يقع في جزيرة العرب . وأما عن علاقة ذلك بسليمان عليه السلام ، وهو الحاكم الوحيد المذكور من بين رجال الكتاب المقدس الذي ترد الإشارة إليه ضمناً في هذه الفقرة ، فتلخص في أنه الحاكم النصف الذي اعتمد التقسيم (عدلاً) مذهباً ، وهكذا فإن الملايو تقع في الموقع الخاطئ بين الدول الآسيوية ، وصوفالا كذلك بين الدول الإفريقية ، أي أنها تتمتع بالموقع الخامس الذي يقسم الدول التسع إلى قسمين متساويين ، كما كان الكفّ (الأصابع الخمسة) رمزاً لسليمان ، أو قل خاتمه الخاص ، بدلالته الدينية و'السحرية' . ويمكننا الاطلاع على هذه الرمزية في المزمور الخامس والأربعين "جعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير" (٩)، وانظر أيضاً إشعياء (١٢/١٣ - ١٣) "وأجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز والإنسان أعز من ذهب أوفير ، لذلك أزلزل السموات وتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود وفي يوم حمو غضبه" ويورد بعض الشراح مقتطفاً من كتاب أصدره كاهن يدعى قرانتشكو جورجيو (Giorgio) عام ١٥٤٥م باللاتينية عن نظام العالم المتناغم يتحدث فيه عن حكمة وجود هيكل سليمان في منتصف العالم تماماً *in medietullio mundi* باعتبار ذلك من رضى الله سبحانه وتعالى ، وإن كان الربط بين سليمان والرقم 'خمسة' لم يظهر في كتابات ميلتون الأخرى ، ويسدو أنه من اجتهادات المفسرين تبريراً لانشغال ميلتون بالتنظيم العديدي للملحمة ، واحتفاله بالتناسب العديدي بين أجزائها ، على نحو ما يفعل فاو لور .

٣٩٩ - 'مومباسا' و 'مالندى' مدينتان على ساحل كينيا ، و 'كيلوا' فى تنزانيا الحديثة .

٤٠٠ - 'صوفالا' ميناء يقع فى موزمبيق الحديثة . وأما عن تعبير 'يظن أنها أوفير' فقد بلغ من ثرائها فى الزمن الغابر أن ظنها الكتاب 'أوفير' المذكورة فى العهد القديم (انظر الحاشية السابقة) وقد كان نقاء ذهب 'أوفير' مضرب الأمثال - انظر كتاب الأخلاق المسيحية للسير توماس براون ، (Thomas Browne) الذى يشير إليه أحد الشراح ويقتطف منه العبارة التالية "جميع الطبائع البشرية تحفل بالشوائب والخطايا الوضيعة التى تتسم بها السبائك المعدنية ، وأما من يظن أنه سوف يجد أوفير أو الذهب الإبريز فى أى منها فإنما يحاول الطيران بلا أجنحة" . وكثيراً ما يرد ذكر ذهب أوفير فى سياق بناء هيكل سليمان عليه السلام حتى اكتسبت الكلمة معنى 'السيادة الحكيمة' وقد تأكدت هذه الصفة الرمزية فى سفر التكوين (١١/٢ ، ٢٩/١٠) حيث ارتبطت فى أرض 'الحويلة' برفاد من روافد نهر الجنة يدعى 'فيشون' ، وهو النهر الذى يقول أحد قدماء المفسرين إنه يعنى الحكمة . ويعلق فاو لير على استعمال ميلتون لذلك الاسم هنا قائلاً إن آدم يشهد 'المجرى المعنوى' للنهر ، وينسب آخر الأمر إلى سيادة حكمة الدين الخالص ، والواضح أن ذلك اجتهدا يتسم بالغلو .

٤٠٣ - 'المنصور' كان لقباً للعديد من الأمراء المسلمين ، ولكن الكتاب الأوروبيين كانوا يعرفون ويتحدثون عن المنصور محمد بن أبى عامر ، حاكم قرطبة (٩٣٩ - ١٠٠٢) والممالك المذكورة كانت جميعاً أجزاء من دولة البربر القديمة . (أطلس تاريخ الإسلام ص ١٨٨) والمقصود ببلدة 'سوسة' هو تونس الحديثة ، وأما تلمسان فهى بلدة فى الجزائر .

٤٠٦ - 'راى بروحه' المعنى هو أن آدم ، حتى وهو على هذا الارتفاع الشاهق ، لم يستطع أن يرى النصف الآخر من الكرة الأرضية يعنى رأسه بل رآها بخياله أو - كما يقول ميلتون - 'بروحه' .

٤٠٧ - ٤١١ - كان القائد الأسباني كورتيز (Cortez) قد فتح مملكة 'مونتيزوما' (Montezoma) ، والقائد بتسارو (بيازرو) (Pizarro) قد فتح مملكة 'أتاهوالبا' (Atahualpa) فى بيرو الحالية (Peru) بأمريكا الجنوبية ، وعاصمتها كوزكو (Cuzco) ونهب ثرواتها من الذهب ، ولكن الأسبان لم يكونوا قد استطاعوا فتح 'مانوا' (Manoa) وهى البلد التى اشتهرت فى الأساطير باسم 'إلدورادو' (El Dorado) عاصمة غيانا (Guiana) ولم ينهبوا ثروات الذهب فيها . وأما لماذا يطلق ميلتون على 'مانوا' اسم 'جريون' (Geryon) فالسبب هو أن 'جريون' كان وحشاً له ثلاثة أجساد وثلاثة رؤوس ، وهو الذى قتله هرقل ، وهكذا أتى ميلتون بثلاثة أقاليم تمثل هذا التثليث ، وأما فى الكوميديا الإلهية فإن دانتى يصف هذا الوحش بأنه حارس الغشاشين والمحتالين ، وميلتون يصف الإسبان بأنهم أبناء 'جريون' لأن سبسر كان قد جعل من 'جريون' مثلاً للطفغان السياسى فى عمله الشعرى الضخم ملكة الجان ، إذ يقول فى الكتاب الخامس ، النشيد العاشر ، السطر ٨ وما بعده : "إنه جريون/ الذى نشأ فى أسبانيا فقتل الرعب فى القلوب/ بسبب قوته الهائلة وطغيانه الرهيب" . وكانت غيانا تحظى باهتمام الرأى العام آنذاك ، خصوصاً فى عام ١٦٦٧ ، عام ظهور الطبعة الأولى للفردوس المفقود ، بسبب الصفقة التى عقدتها بريطانيا مع هولندا وكانت تقضى بتسليم المستعمرة

التي أنشأتها بريطانيا عام ١٦٦٣ في المنطقة الواقعة بين نهري كوبنام (Copenam) وماروني (Maroni) إلى هولندا في مقابل التخلي عن نيويورك لبريطانيا ، وكان ذلك ما عرف باسم صلح بريدا (Breda).

٤١١ - ٤١٢ - 'إزالة الغشاوة عن العينين' صورة شعرية ملحمية شائعة ، فإن 'بالاس' Pallas في إلياذة هوميروس يزيل الغشاوة عن عيني 'ديوميديس' (Diomedes) (١٢٧/٥) و'فينوس' (Venus) تزيل الغشاوة عن عيني 'إينياس' (Aeneas) في إنيادة فيرجيل (٦٠٤/٢) وميكائيل في ملحمة تاسو (Tasso) الشهيرة 'تحرير أورشليم' يرفع الغشاوة عن عيني 'جودفريدو' (Godfredo) (٩٢/١٣) والسطور التالية . وقد وردت الصورة العربية في التزليل العزيز أيضاً : «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَظَاءٍ عَنْ ذِكْرِي» (الكهف/١٠١) و «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (ق - ٢٢) - وأما الغشاوة فوردت في بعض الآيات الأخرى «وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» (البقرة ٧) «وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً» (الحاقة - ٢٣) .

٤١٤ - نبات السعد (euphrasy) واسمه المعاصر (eyebright) ونبات الخُفْت من الأعشاب التي كانت تستعمل لزيادة حدة البصر ، أو لعلاج ضعفه ، وهي مذكورة في كتاب معاصر عن الأعشاب ولكن اختيار ميلتون لهذين بصفة خاصة يرجع إلى أن الأول اسمه مشتق من الكلمة اليونانية 'يوفراسيا' بمعنى البشاشة والسرور ، والثاني اسمه يتفق مع الكلمة التي تطلق على الحزن أو الشفقة أو الندم ، وكانت التورية في الأخيرة شائعة إلى الحد الذي جعل معجم أوكسفورد الكبير يورد ما لا يقل عن خمسة نماذج منها ، وانتهى بعض النقاد من ذلك إلى أن ميلتون كان يقصد أن إزالة الغشاوة من عيني آدم تطلبت مزيجاً من الفرح (بغفران الله) والندم (التوبة) . وكريستوفر ريكس (Ricks) يلح على دور التوريات في الأسلوب الرفيع عند ميلتون .

٤١٦ - انظر المزمور (٩/٣٦) "لأن عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نوراً" .

٤١٨ - انظر الكتاب الثالث :

فليتك يا نور السماء تزداد

إشراقاً بين جوانحي وتضيء أعطاف الذهن

وتتير ملكاته وتكسبها عيوناً أخرى

ليتك تطهرها حتى ينقشع الضباب الذي غشيها فأرى

ما غاب عن بصر الفناء وأحكيه . (٥١ - ٥٥)

٤٢١ - في سفر دانيال (٨/١٠ - ١٤) يأتي رسول يساعده ميكائيل - 'واحد من الرؤساء الأولين' - ليكشف لدانيال عن رؤية عظيمة للمستقبل ، ويقول دانيال "إذا بيد لستى وأقامتنى" (١٠) و "عاد فلمسني" (١٨) .

٤٢٣ - تبدأ هنا ثاني القصص الكبرى في الملحمة ، فالأولى كانت رواية روفائيل للحرب في السماء في

الكتابين الخامس والسادس ، ويقول الدكتور جونسون "إن كلا منهما مرتبط بالحدث العظيم ، الأولى كانت لازمة من باب التحذير ، والثانية عزاء وسلوى" . ويقول بعض النقاد إن ميلتون يعتمد إثارة المقارنة مع القصص المماثلة في البناء ، في ملحمة الإنيافة مثلاً (٧٥٦/٤ وما بعده) حيث يشاهد إينياس رؤيا عن مستقبل روما لا غير ، ونوع الشعر الذي يتمى إليه الجزء التالي من الفردوس المفقود يعتبر قصصاً تاريخياً لروايات الكتاب المقدس أو شرحاً لها ، وقد صدر الكثير من مثل هذه الأعمال الشعرية بالإنجليزية قبل ميلتون ، ومن بينها أو من بين أنجحها ما كتبه مايكل درايتون (Drayton) عن طوفان نوح (Noah's flood) وموسى : مولده ومعجزاته (*Moses: His Birth and Miracles*) ، وترجمة سلفستر لكتاب دي بارتاس Du Bartas (عن الفرنسية) [والكتاب عنوانه الأسابيع والأعمال الإلهية (Divine Weeks and Works) في جزئين ، صدر الأول عام ١٦١٣ والثاني ١٦٢١] ، وشروح ساندز (Sandys) للكتاب المقدس ، وملحمة الداوودية *Dauides* لإبراهيم كاولي (Cowley) . وباستثناء العمل الأخير ، فإن هذه جميعاً أقل تنظيمًا "من الناحيتين المنطقية واللاهوتية" - كما يقول فاوولر - من قصص ميلتون الوارد هنا .

٤٢٩ - ٤٤٧ - أول المشاهد الستة التي يراها آدم هو مشهد قتل قابيل لهابيل ، تكوين ٤ ، وانظر ما سبق لإيراده عن هذه المشاهد في حاشية الآيات ٣٧٧ - ٣٨٤ عليه .

٤٣٤ - سبب عدم ذكر ميكائيل اسم قابيل أو هابيل هو رغبته في عدم إخبار آدم بمن سيصبح قاتلاً من أبنائه .

٤٤١ - "نار من السماء" : كانت تلك دليلاً (يتكرر إلى حد يدعو للدهشة) على قبول القربان ، انظر اللاويين (٢٤/٩) "وخرجت نار من عند الرب وأحرقت على المذبح المحرقة والشحم" وقضاء (٢١/٦) ، وملوك (٣٨/١٨) وأخبار الأيام الأول (٢٦/٢١) والثاني (١/٧) .

٤٤٥ - يقول كاولي في الحاشية رقم ١٦ على ملحمة الداوودية (١) "لكنه لم يتضح الأسلوب الذي قتل به [قابيل] أخاه . ومن ثم كانت لي حرية اختيار الأسلوب الذي رأيته الأرجح والأقرب إلى المنطق ، وهو أن يضربه على رأسه بحجر ضخم ، وكانت الأحجار من أولى الأسلحة العادية والطبيعية في أيدي الغضب ، وأما أن يكون هذا الحجر ضخماً إلى الحد الذي يسمح بإقامته شاهداً على قبر هابيل ، فلا مبالغة فيه ، على نحو ما يقول فيرجيل عن تورنوس (Turnus)" .

٤٥٠ - ٤٥٢ - يقول بيردن إن آدم يعترض على الحادثة فيظهر عدم الثقة في عدل الله (ص ١٩٠) وينتهي من ذلك إلى القول بأن آدم مخطئ في 'استجابته' لأول مأساة قتل في التاريخ .

٤٥٣ - "تأثر ميكائيل" - وفقاً لتعريف سيدني للمأساة في مقاله دفاع عن الشعر .

٤٥٨ - ٤٥٩ - يبرز موضوع الإيمان في جميع الرؤى ، إذ إن الهدف منها تثبيت إيمان آدم .

٤٦٥ - يقول بيردن إن آدم يشعر الآن بالخوف (الرعب) وهو عنصر من عناصر الاستجابة الصحيحة للمأساة (ص ١٩١) .

٤٦٩ - 'كهفه العبوس' : كهف الموت الذي يصوره ميلتون يشبه العالم السفلي عند القدماء ، والوصف الكلاسيكي في إنياهه فيرجيل (٦) يؤكد المرور خلال كهف (السطر ٢٣٦ وما بعده) ويؤكد ألوان الرعب في هذا المدخل :

(*Vestibulum ante ipsum primisque in faucibus Orci, 273*)

كما ورد ذكر كهف الموت في مقدمة توماس ساكفيل (Sackville) [دوق دورست Dorset الاول] لعمله الشعري القصصى مرآة للقضاة في أواخر القرن السادس عشر .

٤٧١ - ٤٧٢ - المشهد الاول يدور حول تأثير سقوط الإنسان في نوازع الغضب التي تؤدي إلى الموت 'بضربة عف' ، والمشهد الثاني يدور حول تأثيره في نوازع الشهوة التي تؤدي إلى الموت مرضاً .

٤٩١ - 'سهم الموت' : انظر الكتاب الثاني ٦٧٢ و ٧٨٦ .

٤٩٢ - 'طلبه مراراً' - انظر "ولكن الموت لا يأتي عند طلبه" (٨٥٨/١٠) وفيه يقارن هذا السطر بما ورد في مسرحية (مأساة) فيلوكتيت *Philoctetes* التي كتبها سوفوكليس (Sophocles) (السطر ٧٩٧) وفي الأناشيد (Odes) (٣٨/١٨/١١) وما بعده) ولكن فاولر يقول إن ما ورد في بليني (بلينيوس) Pliny (Plinius) أقرب إلى النص الحالي (في التاريخ الطبيعي - ١٦٧/١/٧) :

Tot morbi, tot metus, tot curae, totiens invocata

morte ut nullum frequentius sit votum

٤٩٥ - ٤٩٧ - هذا صدى لما جاء في مسرحية ماكبث لشيكسبير (٤٢/٧/٥ - ٤٧) فعندما يسمع ماكبث أن ماكدف 'لم تلده امرأة' يصبح قائلاً "ملعون لسان من يقول لي ذلك/ فلقد أربأ أفضل خصال الرجال في كيانى" . ولا يقتصر الصدى على التذكير لفظياً بما جاء في مكبث ، إذ إن أحد الخيوط الفكرية الرئيسية في المسرحية هو خيط جفاف 'دَر الشفقة الإنسانية' أى قوة القلب بمعنى تحجره (انظر البيت ٤٩٤ أعلاه) وامتناعه عن التراحم (compassion) أو الرحمة بمعنى رباط الشفقة بين البشر والشفقة هي الإحساس الثاني التي تثيره المأساة بعد الخوف أو الرعب - انظر السطر ٤٦٥ أعلاه .

٥١١ - ٥٢٥ - 'الصورة' و 'الشبه' : هناك تفريق في النص الاصلى وفي الترجمة بين الصورة الإلهية *image Dei* في الإنسان ، والشبه الإلهي *similitudo Dei* فعلماء اللاهوت الكاثوليك يقولون إن سقوط الإنسان أدى إلى تعميم الصورة لا إلى فقدانها ، ولكنه أدى إلى طمس الشبه الإلهي تماماً ، وإن كان التعميد قادراً على إعادته ، وكثيراً ما كانت الصورة الإلهية تعتبر متمثلة في الطبيعة الذهنية والفكرية للإنسان ، أو ممثلة فيها ، ولكن علماء اللاهوت البروتستانت كانوا أشد تأكيداً للتحويل والتشوه الذي أصاب الصورة الإلهية في الإنسان بعد السقوط ، وإن كان ميلتون يعتقد أن "بعض بقايا الصورة الإلهية لا يزال قائماً فينا" (عن العقيدة المسيحية) وهو موقف أكثر تحركاً من موقف أقرانه البروتستانت ، وكان يرى هذه 'البقايا' قائمة في عقل الإنسان وإرادته الحرة ويضرب الامثلة بصفة

خاصة من حكمة الكثيرين ممن لا يدينون بالأديان السماوية ومن قُرْبهم من الله قُرْباً فطرياً ، ويقول
 فالرل تعليقاً على هذه الفقرة من نص ميلتون إن تعبير *image* (فى السطر ٥١٥) ”يشير فيما يبدو إلى
 الشبه الإلهي *similitudo Die* وأن الشبه الإلهي *likeness* . . . (السطر ٥٢١) يشير إلى صورة الله
imago “Dei” ولكن هذا تعسف واضح إذا إن ميلتون بالغ الدقة فى استعمال مصطلحه الدينى ،
 وهو يستخدم الكلمات الثلاث *image* و *similitudo* و *likeness* فى حديث آدم وميكائيل دون
 تغيير لمعناها فى حديث الأخير عنها فى حديث الأول ، فآدم يقول *similitudo* (التشابه/ الشبه)
 وميكائيل يقول *likeness* بالمعنى نفسه ، ولن يستقيم الحوار بين البشر والمَلَك هنا إذا اختلف المعنى ،
 أو إذا اختلف معنى كلمة *image* عند آدم عنه فى معناها عند ميكائيل . ولذلك فقد التزمت بظاهر
 النص على ما فيه من غموض ، ولم أغير معناها بسبب رأى فالرل فهو يسبق تعبيره عنه بما يوحى
 بعدم الاطمئنان الكامل له (قائلاً ‘فيما يبدو‘) . والقضية نظرية ومجردة إلى حد بعيد ، لأن التفرقة
 بين الصورة والشبه تفرقة افتراضية ولا تساندها أدلة من الكتب المقدسة فى المسيحية .

٥٣٨ - ٥٤٦ - وصف الشيخوخة تقليدى إلى أبعد الحدود .

٥٥١ - ٥٥٢ - انظر سفر أيوب (١٤/١٤) ”إن مات رجل أفيحيا . كل أيام جهادى أصبر إلى أن يأتى
 بدلى“ .

٥٥٣ - ٥٥٤ - ميكائيل يصحح موقف آدم من الموت (والحياة) شارحاً له أن الصبر الحقيقى لا يتطلب
 الاندماج الشعورى فيما يحدث ، ويقول أحد الشراح إن هذه فكرة كلاسيكية مستشهداً بما جاء فى
 أحد إيجرامات مارتىال (Martial) (١٠/٤٧/١٣) :

sumum nec metuas diem nec optes permitte divis cetera

وفى أناشيد هوراس (Horace) (٩/٩/١) : وفى رسائل سنيكا (Seneca) (٥٩/٢٤ ، ١٨/٦٥) .

٥٥٦ - ٥٧٣ - ’لامك‘ - أحد أحفاد قاييل - أنجب ثلاثة أبناء : ’يابال‘ ’الذى كان أباً لساكنى الخيام
 ورعاة المواشى‘ ، و ’يوبال‘ ’الذى كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار‘ ، و ’توبال قايين الضارب
 كل آلة من نحاس وحديد‘ (تكوين ٤/١٩ - ٢٢) .

٥٨١ - ٥٩٢ الإشارة إلى سفر التكوين (١/٦-٢) انظر الحاشية على السطرين ٦٢١ - ٦٢٢ أدناه

٥٨٨ - ’كوكب المساء‘ - فى الأصل ’نجم المساء‘ والمقصود به كوكب الزهرة ، وكان ظهوره إشارة إشعال
 ’مصباح الزواج‘ فى الكتاب الثامن (٥١٩ وما بعده) فى الاحتفال بزفاف آدم وحواء ، ولكنهما لم
 يستدعيا رب الزواج ’هايمن‘ فهو من الأرباب الوثنية .

٥٩٤ - إشارة خفية إلى ما قاله ميكائيل لآدم عن حتمية فقدان شبابه فى ٥٣٨ وما بعده .

٥٩٩ - ٦٠٢ يقول بيردن فى الكتاب المشار إليه آنفاً إن آدم يخطئ من جديد هنا حين يضع ثقته الكاملة فى
 مشاعره فلا يدرك زيف رب الزواج الوثنى ولا يدرك أن هذه الزيجات قائمة على ’الحماس‘ (٥٨٩)
 و ’الفرحة‘ (٥٩٦) لا على الاختيار العقلانى .

٦٠٥ - ٦٠٦ يبرز هنا التناقص بين غاية الإنسان في الحياة وهي معرفة الله وبين تحقيق غايات الطبيعة فحسب .

٦٠٧ - ٦٠٨ انظر المزامير (١٠ / ٨٤) "اخترت الوقوف على العتبة في بيت إلهي على السككن في خيام الأشرار" .

٦٢١ - ٦٢٢ الإشارة إلى سفر التكوين (٦ / ١-٢) : "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فأتخذوا لأنفسهم نساء من كل مما اختاروا" وقد اتجه بعض أوائل شراح الكتاب المقدس في تفسير هاتين الآيتين إلى القول بأن الملائكة العاصين ضاجعوا بنات البشر ، مثل 'فيلو' (Philo) وكليمنت السكندري (Clement) وتيرتوليان (Tertullian) والواقع أن ميلتون يترك الباب موارباً فلا يغلقه في وجه هذه التفسيرات في فقرة غامضة في الكتاب الثالث (٤٦١ وما بعده) ولكنه هنا ينفي تلك الأقوال باعتبارها أساطير لا بد من دحضها وإيضاح حقيقتها قائلاً إن هؤلاء بشر وقعوا ضحية الفتنة والغواية فكان التية جزاءهم . وقد ذهب النقاد (بعد ميلتون) إلى اعتبار تلك التفسيرات الأولى من البدع الكاذبة التي تصل إلى حد التجديف في الدين .

٦٢٥ - ٦٢٧ 'يسبحون في بحر المرح' تذكرنا بعبارة مماثلة في الكتاب التاسع "يسبحان في موج المرح" (١٠٠٩) و "عالم العبرات" الذي سيذرفه العالم يشير من طرف خفي (بتورية معنوية) إلى الطوفان الذي سيأتي ذكره في الرؤيا الخامسة ، ويتكرر فيه التعبير بصورة أخرى "طوفان من الدموع" (٧٥٧) .

٦٣٢ - ٦٣٦ يقول فاولر إن ميلتون يقدس الزواج ، وإنه لا يهاجم المرأة لذاتها ، بل هو يعترم "وضع مقولة نفسانية عن العلاقة بين الذهن والمشاعر" ، وآدم يخطئ فيصح له ميكايل خطاه ، ومصدر الخطأ ما شاع من تفسير لفظ المرأة بالإنجليزية Woman باعتباره يعنى (Woe to man) أى 'ويل للرجل' - وهو قول أصبح يجرى مجرى الأمثال ، بل إنه القول الذي أخذ به بعض مفسري سفر التكوين (٢٣ / ٢) أو (٢٠ / ٣) .

٦٣٨ - ٧١١ المشهد الرابع يتضمن أربعة مشاهد فرعية أولها هو (٦٤٦ - ٦٥٠) والثاني هو التزال (٦٥١ - ٦٥٥) والثالث هو الحصار (٦٥٦ - ٦٥٩) والرابع هو المجلس (٦٦٠ - ٦٧١) . ويقول فاولر إن المشهد الرابع كله ذو علاقة وثيقة بوصف هوميروس التفصيلي لدرع أخيلاس ، الذي رسمت عليه لوحة شاسعة تضم نماذج للصراع في مكان اجتماع عام ، وللحصار ، ولل هجوم على الرعاة والأبقار . الإلياذة (٤٩٠ / ١٨ - ٥٤٠) وكذلك لمحاكاة فيرجيل لهوميروس في الإنيادة (٨ / ٦٢٦ - ٧٢٨) حيث يرد وصف درع فولكان الذي أهده أم إينياس إليه وعليه صورة تنبأ بمستقبل روما . وكان كلا الدرعين القديمين يتضمنان صوراً للصراع أو الشقاق مجسماً في صورة بشرية .

٦٤٣ - 'العماليق' (Giants) وردت ترجمة مختلفة لهذه الكلمة في الكتاب المقدس وهي 'الجبابرة' ولكنني

قررت عدم الخروج عن نص ميلتون ، أولاً بسبب إجماع الشراح على ذكر الحجم وال ضخامة الجسدية التى يتميزون بها ، وثانياً بسبب وجود التراث العربى الذى يرجع كفة الكلمة التى اخترتها ، وثالثاً بسبب انصراف كلمة الجبار إلى صفات لا تقتصر على القوة الجسدية بل تتضمن صفات نفسية مثل التكبر والتسلط ، كما أن الجبار من أسماء الله تعالى (والقلب الجبار هو ما لا تدخله الرحمة ولا يقبل الموعظة) .

٦٤٣ - ٦٤٤ يقيم ميلتون هنا موازنة ضمنية مع الشياطين أثناء حربهم فى الكتاب الثانى ، السطر ٦٣١ وما بعده ، ويقول برودبنت فى الكتاب الذى سبقت الإشارة إليه (ص ٩٦) إن ميلتون يكثر من مشاهد القتال فى الجحيم وفى الأرض بعد السقوط ، بل هى أكثر مما يحدث فى السماء ، وينتهى إلى أنه لا يضيع أى فرصة لتصوير الحماس القتالى الضارى .

٦٥٥ - ٦٧١ الرجل الصالح هو أخنوخ (Enoch) واستناداً إلى ما ورد فى تكوين (٥/ ٢١ - ٢٤) والعبرانيين (١١/ ٥) ويهوذا (١٤) نعرف أن أخنوخ عاش ٣٦٥ سنة (أى أقل من نصف العمر المعتاد للأنبياء) ثم رفعه الله إليه . ولكن تفاصيل الرفع غير واردة فى الكتب المقدسة ، وربما كانت مستمدة من الرسوم والتصاوير اللاحقة ، ويورد تشارلز فى طبعته للكتب المنحولة أو المشكوك فى صحتها فى العهد القديم ، فى المجلد الثانى مقتطفات من سفر أخنوخ يصف فيها رفعه إلى السماء .

٦٧٨ - لاحظ استمرار الإشارة هنا إلى رؤى أخنوخ ، إذ كانت إحدى نبوءاته الواردة فى رسالة يهوذا (١٤ - ١٥) تقول "هو ذا قد جاء الرب فى ربوات قديسه ليصنع دينونة على الجميع" . والنص الإنجليزى فى نسخة الكتاب المقدس المعتمدة أقرب إلى نص ميلتون :

"The lord cometh with ten thousands of his saints, to execute judgment upon all"

وفى نسخة الكتاب المقدس المنقح (Revised) يرد النص هكذا :

"I saw the lord come with his myriads of angels to bring all mankind to judgment"

والمعروف أن (saints) توازى (angels) (ملائكة لا قديسون) وأن (myriad) تعنى عشرة آلاف ، وأن رتبة تحمل ذلك المعنى وإن كانت مهجورة ، ولكن 'صنع الدينونة' بمعنى 'إصدار الحكم' أو 'تنفيذ الحكم' تعبير غير مألوف بالعربية ، والمهم فى إشارة ميلتون هو رقم الآلاف العشرة !

٦٨٩ - ٦٩٠ سبقت الإشارة إلى دراسة ستيدمان Stedman عن الفردوس المفقود ، والتى يقابل فيها بين مراتب الفضائل البطولية عند ميلتون قائلاً إنه عادة ما يقيم تعارضاً بين الفضائل المسيحية المبنية على 'الخير' والإحسان ، وبين الحصول الشيطانية المبنية على القوة والغلبة ، وهذان اليتان يؤكدان صحة ما ذهب إليه .

٦٩٨ - انظر سفر التكوين (٤/٦) "كان فى الأرض طفاعة فى تلك الايام . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر لهم اسم" .

٧٠٠ - ٧١٠ جاء فى يهوذا (١٤) "وتبأ عن هؤلاء أيضاً أخنوخ السابع من آدم" . ويقول فاوولر إن صورة السحابة ذات الخيول المجنحة صورة محيرة ، ولعلها تستند إلى وصف رفع إيليا إلى السماء الوارد فى ملوك ثان (١١) "وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء" . إذ يقول بعض الشراح إن التراث 'التفسيري' يربط ربطاً وثيقاً بين أخنوخ وإيليا . وتعير 'يسير مع الله' مأخوذ من سفر التكوين (٢٤/٥) "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه" . والمعروف أن قضية رفع أخنوخ إلى السماء كانت قضية خلافية فى عصر ميلتون ، انظر الحاشية على الآيات ٦٥٥ - ٦٧١ عاليه ، وقد لخص 'ويليت' فى الكتاب الذى سبق الإشارة إليه معظم الآراء التى أبداه الشراح فى هذا الموضوع (ص ٧١ وما بعدها) وإن كان المحدثون يرون أن 'الرفع' رمز وحسب ، إما للبعث أو لرفع المسيح إلى السماء .

٧١٩ - ٧٥٣ رواية ميلتون لطوفان نوح عليه السلام تلتزم بما جاء فى سفر التكوين (٩/٦ - ١٧/٩) ولا تأخذ إلا بأقل القليل من شرح الشراح ، حسبما بين Allen فى كتابه عن الطوفان (انظر المراجع) .

٧٢١ - انظر العبرانيين (٧/١١) "بالإيمان نوح لما أوحى إليه عن أمور لم تُر بعدُ خاف فبنى فلكاً لخلاص بيته فيه دان العالم" .

٧٢٣ - ٧٢٥ انظر رسالة بطرس الأولى (٣/١٨ - ٢١) "فإن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا البار من أجل الأئمة لكى يقربنا إلى الله عماتاً فى الجسد ولكن محيىً فى الروح الذى فيه أيضاً ذهب فركز للأرواح التى فى السجن . إذ عصت قديماً حين كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح ، إذ كان الفلك يبنى الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالماء . الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية . . . بقيامه يسوع المسيح" .

٧٣٠ - انظر تكوين (١٥/٦) .

٧٣٤ - لا ذكر للحشرات فى رواية الكتاب المقدس وميلتون يضيفها من عنده .

٧٣٨ - ٧٥٣ يستند الوصف هنا على وصف طوفان ديوكاليون فى مسخ الكائنات (١/٢٦٢ - ٣٤٧) ويرجع النقد كثيراً من صور ميلتون إلى أوفيد مثل صورة 'يحر بلا ساحل' وصور الوحوش البحرية التى احتلت مكان الحيوانات البرية وغيرها (المراجع نفسه ١/٢٩٣ - ٣٠٣) وهناك فقرات يمكن أن يكون ميلتون قد اطلع عليها فى كتاب 'دى بارتاس' المشار إليه آنفاً والذى ترجمه سيلفستر ، وفى ملحمة الداوودية لإبراهيم كاوى .

٧٦٥ - ٧٦٦ انظر انجيل متى (٣٤/٦) "فلا تهتموا للغد . لأن الغد يهتم بما لنفسه . يكفى اليوم شره" .

٧٧٠ - ٧٧٣ يقع آدم الآن فى هوة اليأس بسبب تصويره الخاطئ أن الإنسان مسير لا مخير .

٧٩٠ - 'الفضيلة الحقة' انظر الحاشية على السطرين ٦٨٩ - ٦٩٠ .

٧٩٧ - ٨٠٦ من الفقرات القليلة فى القصيدة التى تعتبر - إلى حد ما - نقداً لأحوال عصر ميلتون .

٨٢٤ - ٨٢٧ انظر تكوين (١١/٧) "فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء" .

٨٢٩ - ٨٣٨ يشير آلن (Allen) إلى أن مصير الفردوس أثناء الطوفان كان موضوع جدل كبير بين شراح الكتاب المقدس فمنهم من قال إنها نقلت إلى مكان آخر ومنهم من قال إنها ظلت آمنة فى مكانها لم تمسها المياه بسوء . السطر ٨٣٣ يتضمن تعبير 'النهر العظيم' وهو يشير إلى نهر دجلة الحالى (أو نهر الفرات) استناداً إلى سفر التكوين "إلى النهر الكبير ، نهر الفرات" (١٨/١٥) وهذا يفسر لنا الآيات الغامضة التى وردت فى الكتاب التاسع :

كان ثمّ مكان -

واختفى الآن بعد أن بدلت الخطيئة الأحوال ، لا صروف الدهر -

حيث تتدفق مياه دجلة ، فى آخر الفردوس ،

فى مجرى تحت الثرى ، ثم يندفع بعضها

وينجس عيناً دفاقة بجوار شجرة الحياة

(٦٩ - ٧٣)

ويقول فاوولر إن ميلتون يملأ ملحمة الشعرية بأوصاف الفردوس ، وينكر وجودها فى عدة أماكن ، كان آخرها فى الكتاب الرابع :

لا ولا حيث يحقّ ملوك الحبشة أبناءهم فوق

جبل 'أمارا' - رغم ما يتصوره البعض من أن تلك هى

الفردوس الحقة الواقعة جنوب مدار إثيوبيا

عند منابع نهر النيل حيث تحيط بالجبل الصخور البراقة

وارتفاعه مسيرة يوم كامل ! (٢٨٠ / ٤ - ٢٨٤)

وأخيراً ، وبعد شتى النظريات الخاصة عن موقع الفردوس الأرضية ، يحسم الأمر قطعياً لنا ، فنجد أنها جزيرة عارية فى الخليج الفارسى (العربى) . ويضيف فاوولر أن الدرس فى الآيات الأخيرة درس فى التواضع البروتستانتى أى إن وجود الفردوس وجود باطنى وروحانى وينبغى عدم تحديد مكان لها استناداً إلى الخرافات . وأما قرنا الطوفان (٨٣١) فربما كان التعبير رجوع صدى لوصف فيرجيل فى الانبادة (٧٧/٨) لنهر التايير الجبار :

corniger Hesperidum fluvius regnator aquarum

وإن كانت العبارة قد وردت فى مسرحيات بن جونسون وكتاب من كتب السير توماس براون .

٨٤٠ - ٨٤٣ المشهد السادس مشهد خلاص الإنسان لأن الرقم ٦ ، كما يقول فاو لير ، هو رقم الخلق (خلق الأرض فى ستة أيام) ومن ثم فهو يرمز إلى إقامة عهد جديد بين الله وبين آدم ، استناداً إلى العهد الميثاق مع نوح عليه السلام .

٨٥١ - يتعمد ميلتون عدم تحديد موقع رسو السفينة (الفلك) الوارد فى سفر التكوين (٨ / ٤) أى "على جبل أراط" .

٨٥٢ - ٨٥٤ قارن انحسار المياه عند الخلق فى الكتاب السابع ٢٨٥ ومابعده . والعلاقة توحى ضمناً بأن «عالمًا كاملاً» قد دُمّر (السطر ٨٧٤) وأن الله يخلق من جديد خلقاً جديداً على أساس العهد / الميثاق .

٨٦٥ - ٨٦٧ الألوان الثلاثة هى الألوان الرئيسية - الأحمر والأصفر والأزرق .

عهداً جديداً منه العهد هو الميثاق أو الموثق : تكوين (١٣ - ١٥) "وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض . فىكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس فى السحاب أنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم . . . فلا تكون المياه أيضاً طوفاناً لتهلك كل ذى جسد" .

٨٨٦ - ٨٨٧ انظر سفر التكوين (٦ / ٦) الذى يذكر أن السبب الذى حداً بالله إلى إحداث الطوفان هو أنه "حزن أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه" .

٨٨٨ - ٨٨٩ انظر سفر التكوين (١١ / ٦) "ورأى الله الأرض فإذا هى قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أقسد طريقه على الأرض" .

٨٩٠ - انظر سفر التكوين (٨ / ٦) "وأما نوح فوجد نعمة فى عيني الرب" .

حواشي الكتاب الثاني عشر

٥ - أضيفت الآيات الخمسة الأولى عندما انقسم الكتاب العاشر في الطبعة الأولى للملحمة إلى الكتابين الحادى عشر والثانى عشر .

'الزوال' المقصود انتصاف النهار تمامًا ، وهكذا تكون نقطة الانتقال بين عالم زال وعالم آت ، كما يتضح من الآيات التالية ، والانتقال يشبه نقطة الزوال أى اللحظة التى تكون الشمس فيها فى السم (فوق رأس المشاهد تمامًا) لأنها الساعة السادسة فى النهار وفق الكتاب المقدس . ويشير فاوئر ، المولع بدلالة الأرقام والأعداد فى الفردوس المفقود، إلى كتاب كتبه بيترو بونجو بعنوان 'ألفاظ الأعداد (باللاتينية) فى أواخر القرن السادس عشر ، ويناقش فيه دلالة رقم 'ستة' مناقشة مستفيضة ، ويستقى مما جاء فى الأثر عن وقوع أهم الأحداث الكونية فى الساعة السادسة أن هذا الرقم هو رقم الخلاص ويضيف فاوئر إن آدم قد شاهد ست رؤى ، وأن الرؤى تنتهى بطرده من الفردوس فى الساعة السادسة من النهار .

- 'نقطة حلوة' : يقول فاوئر الوصف بالحلاوة يوحى بأن ميلتون يريد الإشارة من طرف خفى إلى حلاوة 'شهد العقيدة' (honey of doctrine) الذى يستقى منها ، وربما يكون ذلك من باب التأويل المتعسف .

١٩- 'القمح والنبذ والزيت' كثيرًا ما اقترن ذكر الثلاثة فى شروح العهد القديم بقانون الضرائب (مكوس العُشر) - انظر ثنية (٢٣/١٤) ونَحْمِيَّا (٣٩/١٠) . ولكن العبارة توحى بالمزامير التى تقرأ فى الصلاة ، ولا علاقة لها بالمكوس .

٢٤-٦٣ لا علاقة للنمرود (Nimrod) فى سفر التكوين ببناء برج بابل ، فالسفر يقتصر على القول بأن "كوش وآل نمرود الذى ابتدا يكون جبارًا فى الأرض . الذى كان جبار صيد أمام الرب . لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب . وكان ابتداء مملكته بابل" (٨-١٠) ولكن العلاقة قائمة فى تاريخ يوسفوس الذى يتحدث عن اشتقاق اسم بابل (من الببله) وبناء البرج ، قائلاً أن النمرود "حوّل الحكم إلى طغيان" . واستنادًا إلى ما يقوله يوسفوس حوّل شراح الكتاب المقدس ، وخصوصًا القديس جيروم (St Jerome) ، إلى نموذج أولى للطاغية ، وجعلوه يسدل الحكم الأبوى الذى أوصى به الأنبياء إلى 'سيطرة' و 'سلطان' ، والملاحظ أن تصوير ميلتون للنمرود مصبوغ بصيغة دعوته الجمهورية ، فهو يستند إلى 'قانون الطبيعة' (٢٩) الذى يعنى الإخاء والمساواة (والحرية) ، وهو ما هيأنا له ميلتون فى الآيات السابقة المستندة أو المستقاة (كما يقول هيوز فى طبعته للفردوس المفقود) من سينيكا (الرسائل ٨١) ، ويشير إلى أن طغيان النمرود ينافى طبيعته البشرية 'الجمهورية' ، ولاحظ وجود كلمة الإخاء وكلمة المساواة (٢٦) فى تقديم ميلتون للمشهد .

٣٦- يقول ستانز وتولبرت (فى المرجع المشار إليه) إن تفسير اسم النمرود (نمرود) اشتقاقياً (أى أنه من التمرد - من مَرَد) مذكور فى معجم شارل إستين :

(Charles Estienne's Dictionarium)

‘السهل’ هو سهل ‘شنعار’ . “وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك” (تكوين ١١/٢) وبقية الفقرة تتبع ما جاء في هذا الأصحاح من هذا السفر .

٤٦-٤٧ “وقالوا هلم نبين لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسما . ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا تنبدد على وجه كل الأرض” (تكوين ١١/٤) .

٥ - ‘فيعرض أبراج السماء’ عبارة ساخرة ، ولو أن إمبسون يقول بعكس ذلك في كتابه عن ميلتون (انظر المراجع) . و ‘يسخر منهم’ تؤكد نغمة السخرية ، وتلمح إلى آية في المزمور الثاني (٤) “الساكن في السموات يضحك : الرب يستهزئ بهم” . وميلتون يستعمل الكلمة نفسها الواردة في الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس .

٥٨-١ كان الاعتقاد السائد في القرن السابع عشر هو أن انفصال اللغات بعضها عن بعض ، بحيث أصبحت لغات متميزة متفردة ، بدأ ببلبله الألسنة في بابل . وكان سر شيوع هذه النظرية وجاذبيتها انشغال العلماء بوضع لغة عالمية ‘مركبة’ (composite) أو تركيبية (Synthetic) ، أو قل وضع عدة لغات تتصف بالعالمية والتركيب ، كأنما لاستعادة الوحدة الأوروبية التي تمزقت ، وحفزهم على ذلك اكتشاف لغات جديدة في الشرق تختلف اختلافات كبيرة عن اللغات الأوروبية ، فوجدوا في ذلك لوئاً من البلاء كأنما هو ثمرة ‘لعنة بابل’ فوضع السير توماس إيركارت (Urquhart) كتباً تتضمن سبيل ‘إحياء’ تلك اللغة الواحدة المتصورة ، مثل الدرة الرائعة الفريدة و معجم اللغة العالمية الشاملة (على الترتيب *Most Exquisite Jewel and Logopandecteision*) وكتب ميلتون نفسه يقول إن اللغة القديمة التي كان آدم يتكلمها واللغات التي ربما تفرعت منها فيما بعد ، “وهي التي تلقاها بناء بابل فجسأة ، هي دون شك لغات منزلة من السماء” . وقد أفاض النقاد في الحديث عن ذلك . وتعبير ‘جليلة صاخبة’ (jangling noise) منقول عن كتاب دي بارتاس المشار إليه (ترجمة سيلفستر) .

- ‘اسماً مشتقاً من البلبله’ - انظر سفر التكوين (٩/١١) “لذلك دُعي اسمها بابل . لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض” . ويقول فاوولر إن يوسفوس المؤرخ اليهودي الذي يجيد العبرانية ، “طور هذا الاشتقاق الزائف على شيوعه وذيوعه” ، وأما أنه زائف فالله أعلم ، لأن القاموس يورد “بلبل الله السنة الخلق : فرقها” (دون ذكر اشتقاق) ويورد البال (في بول) بمعنى الخاطر أو الحال والشأن (دون اشتقاق) ويورد اللسان اسم المكان بابل في ‘بيل’ وقد وردت في القرآن العظيم ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ (البقرة - ١٠٢) ، ويورد معجم أكسفورد الكبير (OED) كلمة (babble) بمعنى الحديث المختلط غير المفهوم ويفسر اشتقاقها ترجيحاً من الأصوات المبهمة “با . . با” ، بمعنى محادثات لتلك الأصوات على غرار (prattle) ، ثم يعلق قائلاً “وربما تأثر معناها بمعنى ‘بابل’ . ولذلك تقول الله أعلم .

يقارن ‘برودبنت’ بين ما يحدث هنا وبين تسويج إبليس ملكاً على الرغم من الآراء ‘الجمهورية’ التي يعرب عنها في الكتاب الخامس - السطر ٧٩٠ وما بعده .

٧٦-٧٨ لا تصلح طبقات الجو العليا للبشر الفانين (انظر الحاشية على البيت ، ٥٦٢ من الكتاب الثالث) ويقول النقاد إن طبقات الغلاف الجوي ترمز في الفردوس المفقود للمراتب أو الدرجات المعنوية والطبيعية - انظر مثلاً "الهواء النقي" (١٥٣/٢) في الفردوس ، و "الهواء الخفيف" الذي لا تستطيع الأسماك أن تستنفسه (٣٤٨/٨) ونحن ندرك مدى أهمية هذه الفكرة لميلتون استناداً إلى الموقع البارز الذي تشغله في المخطوط الثالث (أي المسودة الثالثة) للمسرحية التي كان يعتزم كتابتها عن سقوط البشر .

٨-١٠١ يقول فاولر إن هذه الفقرة كلها تذكرنا بأسلوب المقالات التي بررت قتل الملك تشارلز الأول عام ١٦٥٤ ، ولكنها تنبع من حيث المنهج الفكري أقوال القديس أوغسطينوس : "إن الإنسان قد جعل سيداً على الكائنات غير العاقلة دون غيرها ، لا على الإنسان بل على الحيوان" ثم يقول إن العبودية لم تأت إلا حين أخطأ ابن نوح عليه السلام ، ومن ثم فهي وليدة الخطأ لا الفطرة ، فأمها هي الخطيئة "السبب الأول لإخضاع الإنسان للإنسان ، وهي - رغم ذلك - لا تحدث إلا بإرادة الرب الأعلى ، الذي لا يظلم أحداً" وفي هذا إشارة إلى الآية التي سبق الاستشهاد بها من إنجيل يوحنا (٣٤/٨) "إن كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة" . ويقيم ميلتون علاقة بين الاستعباد النفسي والاستعباد السياسي في آخر الكتاب التاسع (١١٢٧-١١٣١) .

٨٤- 'العقل الصائب' ربما كان يعنى الضمير ، على نحو ما جاء في الخلاقات اللاهوتية المستعرة في القرن السابع عشر ، إذ كان الباحثون يفرقون بين 'العقل' بصفة عامة باعتباره المنطق أو قانون التفكير العام وبين 'الرشد' الذي يستند إلى ما هو أعمق في نفس الإنسان ، ويصل إلى أعمق أعماقه بالإيمان الروحي الخالص ، ولذلك فإن ميلتون يشير في كتاباته الثرية إلى 'تصويب' (بمعنى تصحيح) مسار العقل .

٩٥- انظر الكتاب الرابع ٩٩٣ حيث يشير ميلتون إلى 'الضرورة' (أو ما تقتضيه الضرورة) باعتبارها 'ذريعة كل طاعة' .

١٠١-١١٤ يقول سفر التكوين إن حام بن نوح رأى عورة أبيه وهو سكران وأخبر إخوته بذلك ، الأمر الذي أدى إلى فرض اللعنة على ابنه (ابن حام) كنعان "فقال ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته" (٢٥/٩) .

١١١-١١٣ هذه بداية جديدة من 'بقايا' سلالة مؤمنة . ويقول هيويز (في الطبعة المشار إليها) إن ميلتون "يدين المذهب الكالفيني الذي يقضي باصطفاء فرد واختصاصه بالخلاص" ، ويقول فاولر إن ميلتون لا يعارض الاصطفاء بل يعارض التنبؤ أي الحرمان من الرضى ومن ثم من النعيم المقيم (الخلود) إذ لا يوجد ما يعيب اصطفاء البعض ، في رأى ميلتون ، فالله يفتح باب رحمته للكثيرين ولا يغلقه في وجه أحد . وكلمة 'خاصة' في السطر ١١١ ترجع صدى كلمة 'خاص' في الآية ، من الثنية (١٤) "لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" .

١١٤-١١٥ انظر يشوع (٢/٢٤) "هكذا قال الرب إله إسرائيل . آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى" .

١١٧- الرجل العظيم هو النبي نوح عليه السلام ، الذي عاش - حسبما يقول الكتاب المقدس ، بعد الطوفان ٣٥٠ سنة (تكوين ٩/٢٨) .

١٢٠- 'العلی' هو الاسم الذي يستعمله ملكی صادق في مباركة إبراهيم . (تكوين ١٤/١٩-٢٠) .

١٢١-١٣٤ يلتزم ميلتون بما ورد في الكتاب المقدس عن نداء الله لإبراهيم وعهده معه (تكوين ١٢ ، أعمال الرسل ٧) السطر ١٢٦ انظر تكوين (٣/١٢) "تبارك فيك جميع قبائل الأرض" . والسطر ١٢٧ - "ذو إيمان راسخ" - انظر العبرانيين (٨/١١) "بالإيمان إبراهيم لما دعى أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيقاً أن يأخذه ميراثاً فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي" . والتورية هنا ترجع إلى أن آدم يوشك أن يؤمر بالخروج إلى حيث لا يعلم . والسطر ١٢٨ 'ولكنك لا تستطيع' معناه أن المشهد فيه نورانية لا تستطيع عين آدم في حالته الراهنة رؤيتها . وأما إشارة ميلتون إلى 'المخاضة' في السطر ١٣٠ فهي من باب استقراء الكتاب المقدس ، خصوصاً تكوين (٣١/١١) ، فقد كانت مدينة 'أور' على أحد شاطئی الفرات و 'حاران' على الشاطئ المقابل (انظر تفصيل ذلك كله في الحاشية على السطور ٢٠٩-٢١٦ من الكتاب الرابع) .

١٣٥-١٥١ يستند ميلتون في وصفه للرحلة إلى سفر التكوين (٥/١٢) وما بعده) وفي وصفه للوعد إلى يشوع (٨/السطر ٥ وما بعده) والوصف التالي موجود في الحاشية المذكورة أعلاه على السطور ٢٠٩-٢١٦ من الكتاب الرابع . ١٤٣- 'على الشاطئ' أي في موقع جبل الكرمل ، وكان هذا الموقع يضرب به المثل في الثبات أو لإبراز التأكيد والثقة ، وقد ورد في ذلك السياق في إرميا (١٨/٤٦) وأما تعبير 'ذو المتبعين' في السطر ١٤٤ فهو يستند إلى الخرافة التي تقول إن نهر الأردن يتكون من التقاء رافدين هما 'الأر' و 'دُن' (أي Jor - dan = Jordan) ويقول هيوز إن تلك الفكرة قديمة وترجع إلى القديس جيروم .

١٤٧-١٥١ الوعد الذي يتلقاه إبراهيم (تكوين ١٢/١-٣) تجديد للوعد المضمّر في اللعنة التي فرضت على الثعبان . أنظر الكتاب العاشر ١٨٠ وما بعده .

١٥٢- جاء في الكتاب المقدس أن إبراهيم كان اسمه 'أبرام' ثم تحول إلى إبراهيم بمعنى 'والد الكثيرين' اشتقاقاً من الكلمتين الساميتين (أب + رهام) والأب هو الوالد والرهام هو المطر ، ولذلك تتفاوت صور الاسم في اللغات المختلفة فتجد إبراهيم ، وأبراهام وإبرام وإبرامز ... إلخ والشرح موجود في هامش الطبعة الانجليزية المعتمدة للكتاب المقدس ، وأما صفة الخفيف بمعنى الذي حنّف عن دين آباءه فحسنٌ لذلك إيمانه فالمرجع فيها هو سورة النحل في القرآن العظيم (الآية ١٢٠) وسفر غلاطية (٩/٣) .

١٥٣- يقول الكتاب المقدس إن الابن هو إسحاق والخفيد هو يعقوب .

١٥٥-١٦٣ جاء في الكتاب المقدس (تكوين ٤٥ و ٤٦) كيف جاء يعقوب إلى مصر بناءً على طلب ابنه الأصغر يوسف عليه السلام . ويقول فاوولر إن مصبات النيل السبعة تقابل الأماكن التسعة المحددة في الأرض الموعودة (أرض الوعد أو الميعاد) وفاوولر - المولع بالأرقام ودلالاتها - يقول إن الرقم سبعة كان يرمز للتحويل والتغير والفناء ، والرقم تسعة يرمز للروح والعقل والسماء .

١٦٤-١٦٨ يتبع ميلتون ما جاء في سفر الخروج (١) والملك المشار إليه هنا كان ميلتون قد أطلق عليه 'فرعون' وحسب في الكتاب الأول (٣٠٧) .

١٧٢- 'العنائم' هي الخلى والملابس التي حصل عليها بنو إسرائيل من المصريين بصفة 'قرض' عندما كان المصريون حريصين على التخلص منهم فأعطوهم ما يريدون .

١٧٣-١٩٠ وصف الأبوثة يستند بصفة عامة إلى الخروج (٤-١٢) وأما 'الكر' الوارد فينسبه الشراح إلى 'كر' العربية الحربية ، وهي الصورة التي ابتدعها ميلتون ويلمح بها إلى ما يعنى به 'عربة العدالة الكونية' . انظر تفاصيل ذلك في الحاشية على الكتاب الرابع (السطور ٧٤٩-٧٥٩) . وانظر السطر ٣١١ من الكتاب الأول . وأما بلاء الجراد فكان قد أشير إليه قبل ذلك في التشبيه الوارد في الكتاب الأول ، السطور ٣٣٨-٣٤٣ .

١٨٨- 'الظلام الغليظ الملموس' : تستند هذه الصورة إلى الترجمة اللاتينية الشعبية للآية ٢١ من الأصحاح العاشر من سفر الخروج .

Sint tenebrae super terram Aegypti, tam densae, ut palpari queant.

والنص الانجليزي الحديث هو :

"..So that over the land of Egypt there may be a darkness so dense that it can be

والنص العربي في الترجمة المعتمدة :

"... ليكون ظلامٌ على أرض مصر حتى يلمس الظلام"

والواضح أن ميلتون كان يشير إلى النص اللاتيني أو كان ذلك النص مرجعه الأول .

١٩٢- كثيراً ما يشير ميلتون إلى فرعون باعتباره نموذج قسوة القلب ويقارنه بالملك تشارلز الأول في هذه الخصيصة - خصوصاً في كتابه 'تخطيم الأوثان' (*Eikonoklastes*) طبعة ييل (Yale) (٥١٦/٣) وكان ميلتون يعنى بتخطيم الأوثان تخطيم الصور التي كان البيوريتانيون يرون فيها بقايا وثنية في كنائس شرق أوروبا في القرنين الثامن والتاسع للميلاد ، وكان ميلتون بطبيعة الحال يهاجم بذلك الكنيسة الكاثوليكية .

١٩٣-١٩٤ تقول سفندن في كتابها المشار إليه (ص ٩٩) إن ميلتون استمد هذه الصورة من كتاب

Speculum mundi الذي كتبه سوان (Swan) ويقول فيه إن الثلج حين ينصهر ثم يتجمد يصبح جليداً بالغ الصلابة كأنه الحجر ويسمى البلّور .

١٩٩- 'الانقسام' إذا كان خيراً اكتسب معنى الإتصاف ، فالنيل 'يقسم' أرض مصر (السطر ١٥٧) وعصا موسى تقسم البحر .

٢٠٠-٢٠٥ انظر الخروج (٢١/١٣) "وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود من سحاب ليهديهم في الطريق ، وليلاً في عمود نار ليضيئ لهم . لكي يمشوا نهاراً وليلاً" . في السطر ٢٠١ يقول ميلتون إن الله أرسل إليهم ملكاً من لدنه . وهو يوضح ذلك في كتابه عن العقيدة المسيحية قائلاً (٥/١) (طبعة كوليبيا ٢٨٧/١٢-٢٨٩) إن الله لم يذهب بنفسه إلى بنى إسرائيل وإلا لدكهم دكاً بل أرسل "من يمثل اسمه ومجده في شخص ملك من الملائكة" . أما الكليم فهو موسى عليه السلام أي إنه 'كليم الله' .

٢٠٦-٢١٤ انظر خروج ١٤ وانظر الكتاب الأول الأيات ٣٠٦ وما بعدها .

٢١٦-٢١٩ هذا هو التفسير الوارد في سفر الخروج (١٧/١٣) وما بعده) وأما الطريق الفعلي الذي سلكه بنو إسرائيل فقد كان دائرياً بمعنى أنهم اتجهوا جنوباً أولاً قبل أن يتجهوا شمالاً حتى يتجنبوا الدخول على 'الكنعانيين' أي الفلسطينيين المتمرسين في القتال وفتون الحرب فيشتت شملهم في حرب لم يطلبوها ولا يستطيعون خوضها ، وفق ما ورد في الكتاب المقدس ، وميلتون يركز على صورة التيه في الصحراء لأنها كانت المثال الذي كثيراً ما ضربه للحرب الأهلية في إنجلترا (في كتابه تحطيم الأوثان على سبيل المثال ٣/٥٨) .

٢٢٤-٢٢٦ انظر عدد (١٦/١١-٢٥) وخروج (٢٤) .

٢٢٧-٢٣٠ انظر سفر الخروج (١٦/١١-٢٠) .

٢٣٢-٢٣٤ انظر العبرانيين (٥/٨) حيث يشار إلى الكهنة "الذين يخدمون شبه السمويات وظلها كما أوحى إلى موسى وهو مزعم أن يصنع المسكن . لأنه قال انظر أن تصنع كل شيء حسب المثال الذي أظهر لك في الجبل" .

٢٣٥-٢٣٨ انظر خروج (١٨/١٩) "وكان جميع الشعب يرون الرعود والبرق وصوت البرق والجبل يدخن . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد . وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنتسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت" .

٢٣٨-٢٤٤ "فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من إخوانكم . له تسمعون في كل ما يكلمكم به" (أعمال الرسل ٣/٢٢) وهذا يشير إلى ما سبق أن جاء في سفر التثنية (١٨/١٥) و (١٨) "يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوانك مثلي له تسمعون . . اقيم لهم نبياً من وسط إخوانهم وأجعل كلامي في فمهم فيكلمهم بكل ما أوصيه به" ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة

المسيحية "إن اسم ومنصب الوسيط يُنسبان إلى موسى بمعنى من المعاني باعتباره نموذجًا للمسيح" (٥/١ - طبعة كولبيا ٢٥٨٧/١٥) ، وكان المفسرون يقولون إن الآية الأخيرة هي الأولى والأسبق من حيث الزمن ومن ثم فهي المرجع في نبوة موسى وعيسى عليهما السلام جميعًا . وأما الشرائع والطقوس فقد وصفت باعتبارها نماذج في العبرانيين (٩/١٩-٢٣) (مثلاً : "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" - ٢٢) ويأتي بعد ذلك ذكر الذبائح تفصيلاً .

٢٤٧-٢٥٦ 'بيت الله' المقصود به الهيكل المتنقل الذي يوضع فيه 'تابوت الشهادة' داخل 'قدس الأقداس' ، ويعتبر 'البيت' المقر الإلهي الذي يحمله بنو إسرائيل معهم في حلهم وترحالهم في الصحراء قبل الوصول إلى الأرض الموعودة ، وهو يسمى 'المسكن' في سفر الخروج ويوجد وصف بناته بالتفصيل في الأصحاحين ٢٥ و ٢٦ ، ومنه يتضح أنه كان خيمة كبيرة ذات دعائم خشبية ، ألواحها وعوارضها من خشب السنت ، وستائرهما ذات ألوان متعددة ولها أعمدة مطعمة بالذهب (٢٦) . ولكن ميلتون يضيف ، استناداً إلى ما جاء في العبرانيين (٩/٤) ، أن 'الشهادة' هي 'سجلات عهد' الله ، داخل التابوت . والسفر المذكور يقول "وتابوت العهد مغشى من كل جهة بالذهب الذي فيه قسط من ذهب فيه المن وعصا هرون التي أفرخت ولوحا العهد (٤)" مما يعني أن هذه هي السجلات المقصودة . وأما خشب الأرز فليس وارداً في سفر الخروج وربما كان الخلط يرجع إلى تواليهما في الآية ١٩ من سفر إشعياء ، الأصحاح ٤١ "أجعل في البرية الأرز والسنت والأكس وشجرة الزيت . أضع في البادية السرد والسنديان والشربين معاً" وهي بالانجليزية :

"I shall plant cedars in the wilderness, acacias, myrtles, and wild olives; I shall grow pines on the barren heath, side by side with fir and box tree"

فالأرز هنا يسبق السنت ، الأمر الذي قد يكون أوحى لميلتون بفضل سبق هذا على ذلك . ومقعد الرحمة (٢٥٣) هو الذي سبق ذكره - انظر الحاشية على السطر الثاني من الكتاب الحادي عشر . وقوله 'تمثل النجوم في السماء' يشير إلى الطابع الرمزي له . ويوسفوس يتوسع في الرموز الكونية هنا وتفسيرها .

٢٥٦-٢٥٨ انظر سفر الخروج (٤٠/٣٤-٣٨) .

٢٦٠- للمزيد من الوعد الذي أعطى لإبراهيم انظر الآيات ١٣٧ وما بعده .

٢٦٣-٢٦٧ انظر يشوع (١١/١٢-١٣) "حيثما كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأمورين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيلون . فدامت الشمس ووقفت القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . ليس هذا مكتوباً في سفر ياشز . فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل" . وقد تكررت الإشارة إلى هذه الحادثة باعتبارها نموذجاً لقوة الإيمان .

'يعقوب ، فهكذا سيدعى' (٢٦٧) في الأصل 'إسرائيل' وانظر تكوين (٣٢/٢٣-٢٨) "قال له ما

اسمك . فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت“ .

٢٧٤- 'تفتحتا حقاً' التفتح الحق يشير إلى الوعد الكاذب الذي قدمه الشعبان إلى حواء قائلاً إن الفاكهة المحرمة سوف تفتح عينى الإنسان ، وهو وعد يتضمن تورية ساخرة ، إذ أن عينى حواء قد تفتحتا فعلاً ولكن لتبصر بلاء المهوى والسقوط . انظر الكتاب الحادى عشر ، السطر ٤١٢ وما بعده .

٢٧٧- 'التورية الدرامية' هنا - كما يقول فاوئر - ترجع إلى إلام القارئ بقول المسيح إنه قبل أن يوجد إبراهيم كان الله منذ الازل . وقوله فى المجيل يوحنا (٥٦/٨) "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى فرأى وفرح" ولكن آدم لا يقول إلا أنه يستطيع أن يتصور 'يوم' إبراهيم ، ظاناً أن الوعد سوف يتحقق آنشد ، ولكن لا يعرف أن 'البركة' التى سبق ذكرها فى السطر ١٤٧ والسطور التالية تتضمن سرّاً آخر لم يكشف النقاب عنه بعد . (انظر الحاشية على السطر ٣١٦ من الكتاب الثامن) .

٢٨٥-٣٠٦ هذه فقرة تشغل مكان القلب من العقيدة المسيحية عند البروتستانت ألا وهى علاقة الشرائع بالإيمان ، ويطلق عليها علماء اللاهوت 'التبرير بالإيمان' Justification by Faith - ومعنى التبرير الوصول إلى البر أو الصلاح (البر - انظر الحاشية على السطر ٦٤ من الكتاب الحادى عشر) وأما تفصيل القول فيها فيسير : يقول ميلتون (على لسان ميكائيل) إن الشرائع أنزلت لا لتكون بديلاً عن الإيمان بل لتمتحنه ، فهى تضع الضوابط التى تيسر على الإنسان تثبيت إيمانه بكشف السبيل إلى الأعمال الصالحة ، وابتلاء مدى طاعته لما أنزله الله ، ولتحدى الخطيئة الاولى المركبة فيه ، ولأن يستطيع الإنسان أن ينصاع حقاً للشرائع المنزلة إلا عن طريق الإيمان ، فالإيمان هو الأصل ، وهو الذى يمكن الإنسان من التغلب على نوازع الخطيئة ومن ثم تثبيت إيمانه . ولقد تحريت الدقة التى تصل إلى الحرفية فى ترجمة هذه الفقرة حتى يجد القارئ النص الدقيق المعبر عن هذه المعانى كلها فى ميلتون . وأما مصادر الفقرة فكلها من الكتاب المقدس ، وفاوئر يورد ثبوتاً بها لا اعتقد أنه يهم القارئ العربى .

٢٩٠- يقول بولس الرسول فى رسالته إلى أهل رومية (١٩/٣) وما بعده) إن الناموس أى القانون الإلهى أو الشرع يجعل الجميع مسئولين عن أفعالهم وعرضه للعقاب عن إنتهاك الشرع "لأن الناموس معرفة الخطيئة" .

٢٩١- انظر الحاشية على السطور ٢٣٨-٢٤٤ ، فالشرع - كما جاء فى تلك الحاشية ، 'نموذج' فحسب أى مثال ، والأصحاحات أو الكفارات التى يقدمها الإنسان فى سبيل الغفران بموجب ذلك الشرع لا تصل فى عمقها إلى الكفارة الحقيقية التى يقدمها المسيح - وفق العقيدة المسيحية - وهى اقتداء البشر بنفسه . وجاء فى العبرانيين مصداق ذلك "لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء لا يقدر أبداً بنفس الذبائح كل سنة التى يقدمونها على الدوام أن يكمل الذين يتقدمون" (١/١٠) .

٢٩٣- انظر رسالة بطرس الأولى (١٨/١-١٩) "عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من ثم الباطلة التى تسقذتموها من الآباء . بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح

٢٩٤- انظر رسالة بطرس الأولى (١٨/٣) .

٢٩٧-٢٩٨ انظر غلاطية (١٦/٢) .

٣٠٠-٣٠٦ الفكرة هنا مطابقة لما ورد في غلاطية (٢٢/٣) .

٣٠٧-٣١١ انظر تثنية (٣٤) و يشوع (١) ونجد في كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية ما يكاد يكون صورة مثورة من الآيات الحالية ، إذ يقول إن الشرع لا يستطيع أن يعد بما يستطيع الإيمان بالله ، من خلال المسيح ، تحقيقه بل وما حققه فعلاً . ”وهكذا فإن نقص القانون يتجلى في شخص موسى نفسه ، الذي كان نموذجاً للقانون ، إذ عجز موسى عن إدخال بني إسرائيل إلى أرض كنعان ، أي إلى النعيم المقيم أبداً ، ولكن المدخل إليها قد أتاحه لهم يشوع أو يسوع“ . (١/٢٦ - طبعة كوليبيا ١١١/١٦) .

٣١٠- 'الأميون' هم غير اليهود (أي gentiles) قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (الجمعة / ٢) . وتكتب أحياناً 'الأميين' . وأما يسوع (Jesus) فهي المعادل باليونانية لـ (يشوع) (أي Joshua) وقد وردت معادلة الاسمين في معجم شارل إستين ، الذي سبقت الإشارة إليه ، هكذا .

Iosue, et Iesus, idem est nomen ...

وبقية العبارة عن عبوره الأردن تؤكد ذلك

Iosue, Typum Iesu Christi non solum in gestis, verum etiam in nomine genens, transiit Iordanem.

٣٢٠- انظر القضاة (١٦/٢) .

٣٢١-٣٢٤ تلقى داود من ناثان النبي الوعد التالي ”يا من بيتك وملككتك إلى الأبد أمامك . كرسيك يكون ثابتاً إلى الأبد“ . (صموئيل الثاني ١٦/٧) .

٣٢٤-٣٣٠ في كثير من فقرات العهد القديم (مثل إشعياء ١٠ والمزمور ٨٩/٣٦) نجد أن السلالة الملكية لداود تحمل دلالة مسيحية . ويطبق لوقا هذا على يسوع قائلاً : ”هذا يكون عظيماً وسوف يدعى ابن العليّ ، ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه“ (٣٢/١) . وأما عن الوعد الذي تلقاه آدم فانظر الكتاب العاشر السطر ١٨٠ وما بعده ، وعن تأكيد الوعد لإبراهيم انظر الكتاب الثاني عشر ١٢٥ وما بعده ، و ١٤٧ والسطور التالية .

٣٣٢-٣٣٤ أي سليمان عليه السلام الذي بنى الهيكل (المعبد) حتى يجعل للتابوت مكاناً ثابتاً لأول مرة (انظر ملوك أول ٥-٨ و أخبار الأيام الثاني ٢-٥) وعندما بنى المعبد [البيت] ، في الكتاب المقدس : - 'بيت الرب' - 'الرواق أمام هيكل البيت' (ملوك أول ٦/٣) أعطاه الله عهداً جديداً أو ميثاقاً آخر (ملوك أول ٩/١-٩) .

٣٣٩-٣٤٣ انظر أخبار الأيام الثاني ٣٦ ، والملوك الثاني ١٧ السطر ٢٤ والسطور التالية .

٣٤٤-٣٤٧ المرجع في قصة الأسر في بابل هو سفر إرميا ١٢/٢٥ ، و ٣٣/٢٠-٢٦ حيث يرد أن العودة تستند إلى الوعد (العهد) الذي تلقاه داود عليه السلام باعتباره مؤكداً مثل تعاقب الليل والنهار . وانظر 'وعد داود' في المزمور ٢٩/٨٩ : "وأجعل إلى الأبد نسله وكرسيه مثل أيام السموات" . وأما وضع ميلتون عبارة 'سبعين سنة' بجوار عبارة 'أيام السموات' فربما كان المقصود به التذكير بتفسير 'يوسفوس' للأجزاء السبعين من 'المنارة' (الشمعدان) في الهيكل (المسكن) بأنها ترمز للديكاني (Decani) أي الأقسام السبعين للكواكب في بروج السماء .

٣٤٨-٣٥٠ إعادة بناء اورشليم هو موضوع 'كتاب عزرا' ونحميا (١-٦) وملوك القرس هم 'قيرس' و 'ارتخششا' و 'دارا' (Cyrus, Artaxerxes, Darius) .

٣٥٣-٣٥٨ يحكى كتاب مكابى الثانى (٤-٦) قصة النزاع بين الكهنة المتآمرين 'جاسون' (Jason) (يشوع) ومنيلوس (Menelaus) (اونياس) (Onias) وسمعان (Simon) ، وهو النزاع الذى أدى إلى قيام الأنطاكى (أنطيوخوس) (Antiochus) بنهب اورشليم وتدنيس الهيكل (المعبد) . وفرضت بعد عامين أشكال العبادة اليونانية وأعيد تكريس المعبد فى اورشليم إلى 'جويتر أوليمبيوس' . وميلتون ينظر إلى هذه الأحداث باعتبارها نموذجاً لحياة الكنيسة ويحيث تتضمن الأحداث إسقاطاً واضحاً على التاريخ المعاصر له .

٣٥٦- 'فإذا بهم' الضمير يعود إلى أسرة الأسمونيين (Asmonean) التى شغل أفرادها مناصب كبار الكهنة فى الفترة من ١٥٢-١٥٣ قبل الميلاد . ولقد قبض أحدهم على 'الصولجان' فأصبح 'أرسطوبولوس' الاول (Aristobulus I) مما قضى على حكم كهنة بنى إسرائيل . [انظر يوسفوس - آثار اليهود القديمة (٢٠ كتاباً) - ٨/١٠/١] .

٣٥٧- 'أبناء داود' هم سلالة داود عليه السلام وأنسابهم مذكورة فى إنجيل متى (١) وإنجيل لوقا (٣) .

٣٥٨- 'أحد الغرباء' هو 'أنتيپاتر الإيدومينى' (Antipater the Idumean) (والد هيرود الاكبر) (Herod the Great) الذى عينه يوليوس قيصر وكيلاً له فى حكم 'جوديا' (اليهودية Judea) وهى أقصى جنوب فلسطين) . (يوسفوس ١٤/٨/٥) .

٣٦٠- التفاصيل من إنجيل متى (٢) و إنجيل لوقا (٢) ، و 'محروماً من حقه' تعبير قانونى ، 'إلى ذلك المكان' أى إلى بيت لحم .

٣٦٩-٣٧١ يقول فاوئر إن صياغة العبارة توحى بالتأثر بنبوذة فيرجيل بالنسبة لاغسطس فى الإنيادة (١/٢٨٧) :

imperium Oceano, Famam qui terminet astris

ولكن الفكرة تتعلق - على الأرجح - بحكم المسيح على الأرض والتى جاءت النبوءات بها فى أماكن كثيرة من الكتاب المقدس مثل إشعياء (٩/٧) ورؤيا يوحنا اللاهوتى (٢/٢٥/٢٧) وغير ذلك . وانظر بصفة خاصة المزمور الثانى (٨) حيث تمتد مملكة المسيح "إلى أقاصى الأرض" .

٣٧٥-٣٨٥ يقول بيردن في الكتاب المشار إليه آنفاً إن حديث ميكايل عن المسيح يستخدم إلى حد ما مفردات ملحمية وهو الذي يوقع آدم في خطأ تصوره بطلاً ملحمياً عادياً ، وهو ما يتجلى في هذه الفقرة (ص ١٩٧ و ١٩٨) ولكن ميكايل يسرع بتصحيح ذلك الخطأ بتأكيد الدور المأسوي للمسيح عليه السلام .

٣٧٩- انظر السطر ١٥٨ من الكتاب الحادي عشر والحاشية عليه . وهنا في ٣٧٩ - ٣٨٢ عبارات من خطاب الملك لمريم البتول في البشارة . انظر لوقا (١/٣١-٣٥) .

٣٨٦-٣٨٧ لا يرى ميلتون في صورة المبارزة التقليدية ما يفى برسالة المسيح ، فالمبارزة تقع بين اثنين ذوي قوة متكافئة أو متقاربة ونتيجتها ليست مؤكدة ، وأما رسالة المسيح فتفوق ذلك لأنه يمثل قوة الله العلى القدير .

٣٩٥-٤٦٥ انظر الكتاب الثالث السطر ٢٠٨ والسطور التالية . ويقول فاوولر إن هذه الفقرة ، على أهميتها (لأنها تقدم لآدم العقيدة التي عليه أن يعتنقها قبل الهبوط إلى الدنيا) تتضمن ضغطاً 'لتعريفات' كثيرة ومصطلحات لاهوتية دقيقة في سطور قليلة وفي مساحة 'شعورية' محدودة جداً ، ولذلك فهي فقرة فاشلة . ولكن فاوولر لا يذكر أننا نقترّب الآن من ختام الملحمة وأن ميلتون مضطر لذلك هنا . وعلى أى حال فإن انتقادات فاوولر لها ما يبررها من وجهة النظر الفنية الخالصة .

٤٠٣-٤٠٤ انظر رومية (١٣/١٠) "المحبة لا تصنع شراً للقريب . فالمحبة هي تكميل الناموس" .

٤٠٦- 'موت ملعون' انظر غلاطية (٣/١٣) وثنية (٢١/٢٣) .

٤٠٩-٤١٠ انظر الحاشية على الآيات ٢٨٥-٣٠٦ . وأما الإضافة هنا فهو أن التبرير (أى بلوغ البر والصلاح) بالإيمان يمكن أن يتحقق بالانتساب إلى إيمان المسيح نفسه ، أى إن المؤمن بالمسيح حقاً سوف يُنسب إليه إيمان المسيح فيكتسبه منه وهذا هو ما يسمى التبرير بانتساب الإيمان (Justification by Faith Imputation) وهو من أسس المذهب البروتستانتي . أى إن بر المسيح وطاعته تنتسبان أو تُنسبان إلى المؤمن . ويقول فاوولر "وهكذا بفكرة قانونية خيالية (legal fiction) ترجع خصال المسيح الرفيعة كفة خطايا الخاطئ" . ويبدو أن ذلك هو ما كان ميلتون يعتقد ، وفق ما جاء في كتابه عن العقيدة المسيحية (٢٢/١) (طبعة كوليبا ٢٤/١٦ وما بعدها) .

٤١٠- 'على اتفاقها مع الشرع' معناها أن 'التبرير' المذكور لا يكون بالأعمال مهما تكن بل بالإيمان .

٤١٦- "إذ محا الصبّك الذى علينا فى الفرائض الذى كان ضدّا لنا وقد رفعه من الوسط مستمراً إياه فى الصليب" (كولوسى - ١٤/٢) .

٤١٩- 'قضى ... عقوبة' تعبير قانونى . وفى الأصل إحياء برضى المسيح عن قضائها .

٤٢٢- 'نجوم الصبح' تعبير يراه النقاد معقداً لأنه قد يشير إلى النجوم الحقيقية وقد يكون استعارياً فيشير إلى الملائكة .

٤٢٤- 'فديتك' أى فدية الإنسان الذى يمثله آدم .

٤٢٥-٤٢٦ إلماح إلى مبدأ الاصطفاء . انظر الكتاب الثالث ١٧٣-٢٠٢ 'سينجو منهم من يشاء' .

٤٢٧- 'بالإيمان ... الفعل' انظر الحاشية على ٦٤ من الكتاب الحادى عشر .

٤٣٤- انظر تسالونيكي (١٥-١٣/٤) .

٤٤٦-٤٥٠ يقدم ميلتون الآن تفسيراً روحانياً صريحاً للوعد الذى وعد إبراهيم به (الآيات ٢٥ وما بعده و ١٤٧ والسطور التالية) مستوحياً ذلك من غلاطية (٧/٣ و ٨) : "اعلموا إذن أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم . والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم" .

٤٥٨-٤٦٥ قارن ذلك بالحديث فى الكتاب الثالث (السطر ٣٢١ والسطور التالية) عن المجيء الثانى للمسيح، ويقول إمبسون فى الكتاب المشار إليه (ص ١٢٧) إن تعبير 'سواء فى السماء أو فى الأرض' (٣٦٣) يدل على أن ميلتون لم يكن واثقاً من فكرة العهد الذهبى (الآلفية السعيدة The Millennium) ولكن العبارة لا يكتمل معناها إلا بما بعدها ، والسياق يدل على أن المقصود هو "فى السماء وفى الأرض جميعاً" ويوضح ذلك فاولر استناداً إلى السطور ٣٣٠-٣٣٥ من الكتاب الثالث :

حتى يحكم فى أمر

العاصين من الناس والملائكة فمن حق عليه القول سقط

بما يقضيه حكمك . حتى إذا حشروا إلى الجحيم فامتلات بهم

أغلقت أبوابها إلى الأبد . وعندها

تشرق الدنيا ومن رمادها تنشا

سما جديدة وأرض جديدة يسكنها الأبرار

(٣٣٥-٣٣٠)

ويضيف أن السياق يعنى أن النعيم سيكون شاملاً إلى الحد الذى يصبح التمييز بين السماء والأرض أمراً لا وزن له ، فالبعض فى النعيم هنا والبعض فى النعيم هناك وتعبير 'الاحياء والأموات' يتكرر فى الكتاب المقدس (أعمال الرسل ١٠/٤٢ ، تيموثاوس ١/٤ و رسالة بطرس الأولى ٤/٥) .

٤٦٩-٤٧٨ يقول هاوارد فى دراسة له نشرتها مجلة مكتبة هنتنجتون (الفصلية) عام ١٩٤٥ إن تبعا لشتى أسباب السقوط ينتهى بنا هنا إلى الغاية من السقوط ، ألا وهى زيادة تمجيد الله ومعرفة مدى حبه الشديد من خلال تضحية المسيح عليه السلام (ص ١٦٥) . وأما قدرة الخالق على تحويل الشر إلى خير فتبدي فى فقرات كثيرة - انظر مثلاً الكتاب الأول - السطر ٢١٥ والسطور التالية ، وانظر كتاب ك. س. لويس 'مقدمة للفردوس المفقود' (١٩٤٢) انظر المراجع .

٤٧٨- انظر رومية (٥/٢٠) "ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً" - والمعنى أن رحمة الله تزداد حيثما ازدادت خطايا البشر .

٤٨٦- 'المُعزَّى' هو 'الروح القدس' - انظر إنجيل يوحنا (١٨/١٤) وأيضاً (٢٦/١٥) : "ومتى جاء المُعزَّى الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى" وعادة ما يوازي النقاد بين 'روح القدس' وجبريل عليه السلام .

٤٨٨-٤٨٩ انظر رومية (٢٧/٣) "أبناموس الأعمال ؟ كلا . بل بناموس الإيمان" . وانظر أيضاً غلاطية (٦/٥) والعبرانيين (١٠/٨) .

٤٩١- 'الدرع الروحي' يشير إلى القصة الرمزية الواردة في أفسس (١٧/٦-١١) ومغزاها أن أهم جانب من جوانب الدرع هو الإيمان (١٦/٦) : "حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به تقفون أن تطفنوا جميع سهام الشرير الملتهبة" .

٤٩٧-٥٠٢ الإشارة إلى ما روى من أحداث - على سبيل المثال في أعمال الرسل (٢ ، ١٠) .

٥٠٥- الاستعارة ترجع إلى الرسول بولس (كورنثوس الأول ٩/٢٤) : "الستم تعلمون أن الذين يركضون في الميدان جميعهم يركضون ولكن واحداً يأخذ الجعالة . هكذا اركضوا كي تنالوا" .

٥٠٧-٥٠٨ انظر أعمال الرسل (٢٩/٢٠) : "لاني أعلم هنا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية" . وانظر التشبيه الذي يشبه إبليس فيه بالذئب في الكتاب الرابع ١٨٣-١٨٧ . ويقول هاوارد شولتز في كتابه ميلتون والمعركة المحرمة ، نيويورك ، ١٩٥٥ ، إن تصوير ميلتون 'للمسيح الدجال' موجه 'بصفة خاصة ضد روما' (ص ١٢٧) أى ضد البابا والكنيسة الكاثوليكية ، ولكن فاولر يقول إن القطعة كلها (٥٠٧-٥٣٧) يجب ألا تعتبر ضد كنيسة روما أو كنيسة إنجلترا بل هي إدانة - بصفة عامة - لكل ما لا يقوم على الإيمان في الكنيسة .

٥١١- انظر رسالة بطرس الأولى (٢/٥) "ارعوا رعية الله التي بينكم نظاراً . . . لا لربح قبيح بل بنشاط" . وميلتون يستخدم كلمة (lucre) (الربح) المستخدمة في الكتاب المقدس نفسها .

٥١١-٥٢٢ كان من أهم أركان المذهب البروتستانتي أن الحكم النهائي في المسائل العقائدية هو الضمير لا مجرد السلطة . وكان ميلتون كثيراً ما يعرب عن ازدراؤه للاعتماد على السلطات الكهنوتية وغيرها ، ويسمىها 'البركة الموحلة للانصياع للتقاليد' . ويقول في كتابه عن العقيدة المسيحية (١/٣٠) (طبعة كولبيا ٢٨١/١٦) "من المحرم علينا صراحة أن نلتفت أدنى التفات إلى التقاليد البشرية ، مكتوبة كانت أم غير مكتوبة" وهو بهذا يشير إلى ما ورد في سفر التثنية (٢/٤) من ضرورة الالتزام "بالوصايا" التي أنزلها الله فقط . وانظر أيضاً كورنثوس الأولى (٢/١٤-١٥) "ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة . ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحياً . وأما الروحي فيحكم في كل شئ" .

٥١٥-٥٢٤ 'السلطة العلمانية' (بفتح العين - نسبة إلى العالم) هي السلطة الزمنية أى الدنيوية - فكلمة secular مشتقة من كلمة so eculum التي تعنى 'العصر' أو 'الجيل' ، وتعنى في الفقه المسيحي 'العالم' (خصوصاً في المقابلة مع الكنيسة) وكانت كلمة so ecularis اللاتينية تعنى ذلك أيضاً ،

وكان فساد الكنيسة الراجع إلى نشدانها السلطة العلمانية من الموضوعات التي شغلت ميلتون وناقشها باستفاضة في دراسة عنوانها عن الإصلاح (طبعة ييل/١) ويدين في كتابه عن العقيدة المسيحية فرض الطاعة للأفكار أو السلطة البشرية (*sanctiones quascunque ... et dogmata*) والمقصود بالفطرة (٥٢٣) هو الفطرة السليمة أو الضمير الحى لكل فرد على حدة انظر إرميا (٣١/٣٣) "أجعل شريعته فى داخلهم وأكتبها على قلوبهم".

٥٢٦- انظر كورنثوس الثانية (١٧/٣) "وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية".

٥٢٧- انظر كورنثوس الأولى (١٧/٣) "لأن هيكल الله مقدس الذى أنتم هو".

٥٢٨-٥٣٠ يقول فاوئر إن ميلتون لا يخصص بالهجوم كنيسة روما لاعتقادها أنها منزهة عن الخطأ ، ولكنه يهاجم كل من يتصور ذلك ، وكان الظن هو أن مراسيم المجمعات المسكونية منزهة (معصومة من الخطأ) ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن فكرة تنزه البابا عن الخطأ لم تبتكر إلا عام ١٨٧٠ ، فإن كنيسة روما هى الهدف الرئيسى لهجوم ميلتون هنا . إذ يقول فى دراسة له بعنوان بحث فى السلطة المدنية (طبعة كوليبيا ٨/٦) إن "البابا يدعى لنفسه العصمة ، فوق الضمير وفوق الكتب المقدسة".

٥٣٢-٥٣٣ انظر الإنجيل يوحنا (٢٣/٤) "الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق".

٥٣٦- 'الأعمال التى تصدق الإيمان' انظر البيت ٤٢٧ والبيت ٦٤ من الكتاب الحادى عشر والخامسة عليه .

٥٣٩- انظر رومية (٢٢/٨) "فإننا نعلم أن كل الخليقة تثن وتمخض معاً إلى الآن".

٥٣٩-٥٥١ يلاحظ أن 'الانين' يسترجع آثار الطبيعة عند سقوط آدم وحواء (الكتاب التاسع ٧٨٣ ، ١٠٠١) وأن 'تنفس الصعداء' يعنى التطلع إلى المستقبل بعد زوال الغمة ، و 'التنفس' صورة أساسية فى القصيدة ، فالإنسان تنفس أول ما تنفس عند الخلق (الكتاب السابع ٦٢٦) وانظر الكتاب الأول ٧ حيث ترد كلمة الوحي المشتقة من الانفاس .

٥٥١- بدأ ميكائيل روايته 'بالآثار' المترتبة مباشرة على المساس بالشجرة المحرمة (الكتاب الحادى عشر ٤٢٤) وهو ينتهيها الآن 'بالثمار' التى تؤتيها . انظر الكتاب الأول - السطر الأول والسطور التالية .

٥٥٩- 'ذلك الوعاء' أى الذهن (لا الجسد) .

٥٦١- 'أحسن الأشياء الطاعة' انظر صموئيل الأول (٢٢/١٥) "الاستماع أفضل من الذبيحة".

٥٦٥- 'الرحيم' انظر المزمور ١٤٥ (٨-٩) "الرب ... كثير الرحمة ... ومراحمه على كل أعماله".

٥٦٦- انظر رومية (٢١/١٢) "أغلب الشر بالخير".

٥٦٧- انظر كورنثوس الأولى (٢٧/١) "واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء".

٥٧٦-٥٨١ انظر ما قاله روفائيل فى الكتاب الثامن ، السطور ١٦٧-١٧٨ ، كما يذكرنا التعبير 'أسرار

المحيط، بما جاء في الكتاب الثالث (السطر ٧٠٥ والسطور التالية) عن عجز أى ذهن مخلوق عن إدراك الحكمة التى تخفى وراء أعمال الله . وانظر أيضاً سفر أيوب (٢٨/٢٨) "مخافة الرب هى الحكمة".

٥٨٧-٥٨١ انظر رسالة بطرس الثانية (١/٥-٧) "قدموا فى إيمانكم فضيلة وفى الفضيلة معرفة . وفى المعرفة تعقفاً وفى التعفف صبراً وفى الصبر تقوى وفى التقوى مودة أخوية وفى المودة الأخوية محبة". وإزاء ما يبدو من اختلاف هذا النص بعض الشيء عن نص ميلتون ، فسوف أورد ترجمتين إنجليزيتين له ، الأولى من النسخة المعتمدة (Authorised Version) والثانية من النسخة المنقحة (Revised) .

1. "Add to your faith virtue; and to virtue knowledge; And to knowledge temperance; and to temperance patience; and to patience godliness; and to godliness brotherly kindness; and to brotherly kindness charity".
2. add virtue to your faith, knowledge to virtue, self-control to knowledge, fortitude to self-control, piety to fortitude, brotherly affection to piety, and love to brotherly affection".

ومن هذا يتضح مدى اقتراب ميلتون من نص الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس ، وإن كان يحذف من هذه القائمة 'التقوى' (أو الورع) المودة الأخوية ، ويضيف الأعمال بل يجعل لها مكان الصدارة ، وأما عن توازى الإحسان والمحبة فانظر الحاشية على السطر ١١١ من الكتاب الثالث .

٥٩٤-٦٠٥ تلخيص ميكائيل فى الختام يؤكد الخيطين الفكريين فى الرؤى التى سبقت وهما خيط 'التسليم الخاشع' لله ، أى الخضوع لمشيئته ، وخيط 'الإيمان' ، وتوازن كفتاهما توازناً دقيقاً فى عبارة 'الاجتماع على إيمان واحد برغم الأحزان' أى إن على آدم أن يسلم فى خشوع بعواقب زلته وأن يتطلع بإيمان إلى انتصار المسيح آخر الأمر .

٦٠٢- 'أياماً كثيرة' - عاش آدم حتى أصبح عمره ٩٣٠ سنة (تكوين ٥/٥) .

٦٠٨- لاحظ التناقض مع ما جاء فى 'الموضوع' (المقدمة الشريفة) من أن آدم يوقظ حواء .

٦١١- انظر عدد (٦/١٢) "إن كان منكم نبي للرب فالرؤيا أستعلن له فى الحلم أكلمه" ويفرق الشراح بين الحلم والرؤيا قائلين إن الرؤيا التى يراها النبى هو حلم يتحقق .

٦٤٠- تقول ماكافرى فى كتابها المشار إليه "إننا هبطنا الآن مع آدم وحواء إلى عالمنا الدنيوى" (٥٩) .

٦٤٣- انظر تكوين (٢٤/٣) .

٦٤٥- يشير بيردن فى كتابه المذكور (ص ٢٠٠) إلى التوازن الدقيق هنا بين الحزن والفرح .

٦٤٨- تشابك الأيدى رمز للإيمان .

٦٤٩- 'عدن' لا تشير إلى الفردوس بل إلى المناطق المحيطة بها .

للمؤلف

بالعربية :

١ - فى النقد واللغة :

- النقد التحليلي * (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٦٣ - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية ١٩٩٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- فن الكوميديا * (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٨٠ الأنجلو المصرية (نقد) .
- الأدب وفنونه * (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٨٤ - الثقافة الجماهيرية - الطبعة الثانية ١٩٩٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- المسرح والشعر * (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٨٤ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- فن الترجمة * (دراسة لغوية) الطبعة الأولى ١٩٩٢ لونجمان ، ط ٢ (١٩٩٤) ط ٣ (١٩٩٦) ط ٤ (١٩٩٧) ط ٥ (٢٠٠٠)
- فى الأدب والحياة * (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٩٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- التيارات المعاصرة فى الثقافة العربية * ١٩٩٤ - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- قضايا الأدب الحديث * (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٩٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- المصطلحات الأدبية الحديثة * (فى النقد الأدبى) الطبعة الأولى ١٩٩٦ - (لونجمان) الطبعة الثانية (١٩٩٧) لونجمان .
- الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق * (فى اللغة والأدب) الطبعة الأولى ١٩٩٧ (لونجمان) .
- مرشد المترجم * (مدخل إلى التحولات الدلالية والفروق اللغوية) (لونجمان) ٢٠٠٠ .
- نجيب محفوظ فى عيون العالم * مع د. ماهر شفيق فريد - هيئة الكتاب ٢٠٠٢

ب - أعمال إبداعية :

- ميت حلاوة * (مسرحة) قدمت على المسرح ١٩٨٢ ونشرت عام ١٩٧٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ١٩٩٤ .
- السجين والسجان * (أربع مسرحيات من فصل واحد) - الطبعة الأولى - ١٩٨٠ - هيئة الكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٤ - هيئة الكتاب .
- البر الغربى * (مسرحة) قدمت على المسرح ١٩٦٣ ونشرت ١٩٨٥ - هيئة الكتاب .
- المجاذيب * مسرحية قدمت على المسرح ١٩٨٣ ونشرت ١٩٨٥ ، هيئة الكتاب .
- الغريبان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح ١٩٨٨ ونشرت ١٩٨٧ هيئة الكتاب .
- جاسوس فى قصر السلطان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح فى عام ١٩٩٢ ونشرت ١٩٩١ هيئة الكتاب .
- رحلة التنوير * (مسرحية وثائقية مع سمير سرحان والمادة العلمية لسامح كريم) قدمت على المسرح عام ١٩٩١ ونشرت ١٩٩٢ هيئة الكتاب .
- ليلة الذهب * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة الكتاب .
- حلاوة يونس * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة الكتاب .
- السادة الرعاع * (مسرحية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب .
- الدرويش والغازية * (مسرحية) ١٩٩٤ هيئة الكتاب .
- أصدقاء الصمت * ديوان شعر ١٩٩٧ هيئة الكتاب .
- واحات العمر * سيرة أدبية ١٩٩٨ هيئة الكتاب .
- واحات الغربية * سيرة أدبية ١٩٩٩ هيئة الكتاب .
- حورية أطلس * ديوان شعر ٢٠٠١ هيئة الكتاب .
- واحات مصرية * سيرة أدبية ٢٠٠١ هيئة الكتاب .

ج - مترجمات إلى العربية :

- الرجل الأبيض فى
مفترق الطرق القاهرة - جمعية الوعى القومى - ١٩٦١ (نقد) .
- حول مائدة المعرفة * القاهرة - مؤسسة فرانكلين - ١٩٦٢ (نقد) .
- درايدن والشعر * (مع مجدى وهبة) الطبعة الاولى دار المعرفة - ١٩٦٣ ،
الطبعة الثانية الأنجلو ١٩٨٢ ، الطبعة الثالثة - الهيئة
المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ .
- ثلاثة نصوص من * الطبعة الاولى الأنجلو ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية - هيئة
المسرح الإنجليزى الكتاب ١٩٩٤ .
- الفردوس المفقود * الجزء الأول ١٩٨١ - هيئة الكتاب (نقد) .
- الفردوس المفقود * الجزء الثانى ١٩٨٦ - هيئة الكتاب .
- روميو وجوليت
- (شيكسبير) * (إعداد مسرحى غنائى) دار غريب ١٩٨٢ (نقد)
- www.library4arab.com/vb تاجر البندقية
- (شيكسبير) * ١٩٨٨ هيئة الكتاب .
- عيد ميلاد جديد (اليكس هيلى) * ١٩٨٩ - مركز الأهرام للترجمة والنشر .
- يوليوس قيصر (شيكسبير) * ١٩٩١ - هيئة الكتاب .
- حلم ليلة صيف (شيكسبير) * ١٩٩٢ - هيئة الكتاب .
- روميو وجوليت
- (شيكسبير) * (الترجمة الشعرية الكاملة) هيئة الكتاب ١٩٩٣ .
- الملك لير (شيكسبير) * (الترجمة الشعرية الكاملة) هيئة الكتاب ١٩٩٦ .
- هنرى الثامن (شيكسبير) * (الترجمة الشعرية الكاملة الأولى) هيئة الكتاب ١٩٩٧ .
- الفردوس المفقود * الجزء الثالث - هيئة الكتاب - ٢٠٠١
- الفردوس المفقود * الجزء الرابع - هيئة الكتاب - ٢٠٠٢

- * سيرة النبي محمد ﷺ (كارين آرمسترونج-سطور - ١٩٩٨ (مع د. فاطمة نصر) .
 * القدس: مدينة واحدة (كارين آرمسترونج-سطور ١٩٩٨ (مع د. فاطمة نصر) .
 وعقائد ثلاث
 مأساة الملك ريتشارد
 الثاني (شيكسبير) * هيئة الكتاب - ١٩٩٨ .
 * معارك في سبيل الإله (كارين آرمسترونج-سطور ٢٠٠٠ (مع د. فاطمة نصر) .
 مختارات من الشعر
 الرومانسي للشاعر
 وردزورث * مع مقدمة - هيئة الكتاب - ٢٠٠٢

مؤلفات بالإنجليزية :

- Dialectic of Memory** : A Study of Wordsworth's Little Prelude,
 Cairo 1981, State Publishing House (GEBO) .
- Lyrical Ballads 1798**:ed with an introduction, Cairo, GEBO, 1985.
- Varieties of Irony** : an Essay on Modern English Poetry, Cairo,
 GEBO, 1985, (2nd ed. 1994) .
- Naguib Mahfouz Nobel 1988 (ed)** : a Collection of critical essays
 (Cairo, GEBO, 1989).
- Prefaces to Arabic Literature** : (the post - Mahfouz era) with a
 miniature anthology of modern Arabic Poetry since the 1970s by
 M.S. Farid, Cairo GEBO, 1994 .
- The Comparative Tone** : Essays in Comparative Literature, with a
 Bibliography of Arabic Literature in Translation by M.S. Farid.
 GEBO, 1995.
- Comparative Moments**, : Essays in Comparative Literature and an
 Anthology of Post-modernist Arabic poetry in Egypt, with
 appendices by M. S. Farid, GEBO, 1996 .
- On Translating Arabic** : A Cultural Approach, Gebo, 2000.
- The Comparative Impulse**:With M.S El-Komi and M.S. FARID,
 GEBO, 2001.

مترجمات إلى الإنجليزية :

- Marxism and Islam** : (by Mostafa Mahmoud), Cairo, Dar Al-Maaref. 1977 (reprinted several times. the last in 1984).
- Night Traveller** : (by Salah Abdul-Saboor) with an introduction By S. Sarhan. Cairo, GEBO, 1979, 2nd ed. Cairo, 1994.
- The Quran : an attempt at a modern reading**, : (by Mostafa Mahmoud) Cairo, 1985.
- The Music of Ancient Egypt** : (by M. Al-Hifni) Cairo. 1985 Belgrade. MPH, 1985. 2nd ed. Cairo (in the Press) .
- The Trial of an Unknown Man** : (by Izz El-Din Ismail) Cairo, GEBO 1985.
- Modern Arabic Poetry in Egypt** : an anthology with an introduction Cairo, GEBO, 1986 .
- The Fall of Cordoba**: (by Farooq Guwaidah) Cairo, GEBO, 1989 .
- The Language of Lovers' Blood**, (by Farooq Shooshah) Cairo GEBO, 1991.
- Time to Catch Time** : (by Farooq Shooshah) Cairo, GEBO, 1996 .
- A Thousand Faces has the Moon** : (by Farooq Guwaidah) Cairo, GEBO, 1997 .
- Shrouded by the Branches of Night** : (by M. Al-Faytouri) Cairo, GEBO, 1997 .
- Leila and the Madman (Laila wal-Majnoun)** : (by Salah Abdul-Saboor). Cairo, 1998.
- An Ebony Face (by Farooq Shooshah)** : Cairo, GEBO, 2000.
- Time in the Wilderness** : (Habiba Muhammadi) Cairo, GEBO, 2001.
- On the Name of Egypt**, : (Salah Jaheen) Cairo, GEBO, 2002.
- Short Stories** ,: (Mona Ragab) with A. Gafary, Cairo, GEBO, 2002.

www.library4arab.com/vb
مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٣٩٦ / ٢٠٠٢

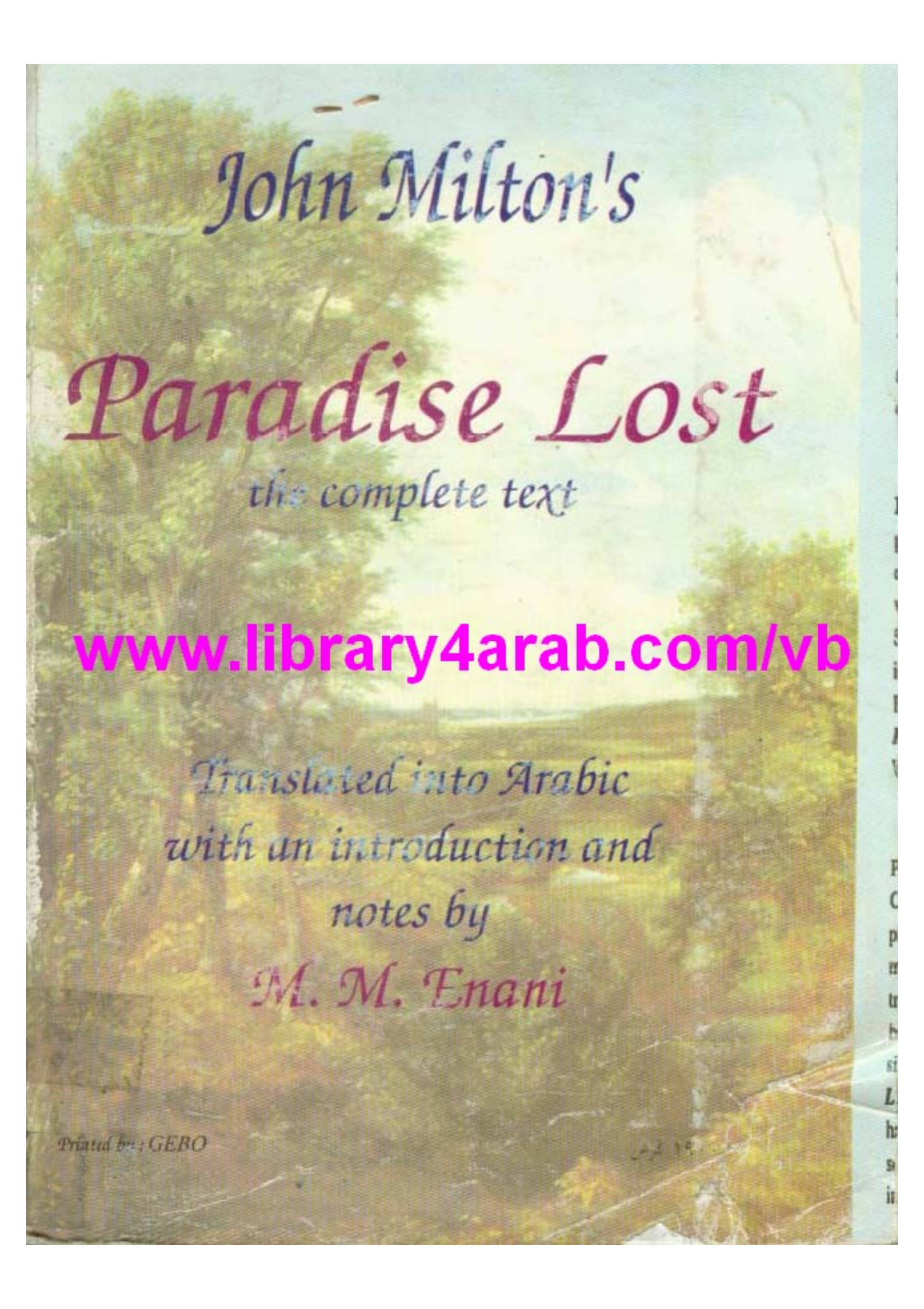
I.S.B.N 977 - 01 - 8182 - X

Paradise Lost
An epic poem
: in twelve
of the fall of
his followers,
ation from
creation of this
Adam and Eve
temptation and
in Paradise.

Author is John
Milton English
Seventeenth
century vigorous
poet, and who
wrote other epic in
and only to
of, namely
Paradise.

Translator is
Ezra Ripley
Kidd, a
critic, and a
literary
historian
between the first
Paradise
and six, he
translated
many plays

www.library4arab.com/vb



John Milton's

Paradise Lost

the complete text

www.library4arab.com/vb

*Translated into Arabic
with an introduction and
notes by*

M. M. Enani